موقف الشيخ أبي الحسن الندوي من الأفكار المعاصرة

(أعمال المؤتمر الدولي حول "موقف الشيخ الندوي من الأفكار المعاصرة دراسة مقارنة"
المنعقد في ٢٣-٢١ ربيع الثاني ١٤٣٥هـ الموافق ٢٢-٢٤ من فبراير ٢٠١٤م
في رحاب مدرسة العلوم الإسلامية عليكره، الهند)

إعداد وتنسيق

د. محمد طارق الأيوبي الندوي

ملتزم النشر والتوزيع
مؤسسة العلامة أبي الحسن علي الندوي التعليمية والخيرية، عليكره، الهند

موقف الشيخ أبي الحسن الندوي
من الأفكار المعاصرة

(أعمال المؤتمر الدولي حول "موقف الشيخ الندوي من الأفكار المعاصرة دراسة مقارنة"
المنعقد في ٢٣-٢١ ربيع الثاني ١٤٣٥هـ الموافق ٢٢-٢٤ من فبراير ٢٠١٤م
في رحاب مدرسة العلوم الإسلامية عليكره، الهند)

إعداد وتنسيق
د. محمد طارق الأيوبي الندوي

ملتزم النشر والتوزيع
مؤسسة العلامة أبي الحسن علي الندوي التعليمية والخيرية، عليكره، الهند

جميع الحقوق محفوظة
لمؤسسة العلامة أبي الحسن الندوي التعليمية والخيرية
الطبعة الأولى فبراير 2014م

إسم الكتاب	:	موقف الشيخ الندوي من الأفكار المعاصرة
إعداد وتنسيق	:	د. محمد طارق الأيوبي الندوي
الطباعة والتصميم	:	عبد الرحمن نعيم
عدد الصفحات	:	٧١٢
عدد النسخ	:	١٠٠٠
المطبع	:	مطبع نعماني بلكناؤ، الهند

Rs. 400/- INR

Dr. M. Tariq Ayubi Nadwi
Email-tariqnadwialig@yahoo.co.in
+919897776652,+919045794046

ملتزم النشر والتوزيع
مؤسسة العلامة أبي الحسن علي الندوي التعلمية والخيرية، عليكره، الهند

يطلب من:

١ـ دار الكتاب عليكره، الهند +919997665211
٢ـ مكتبة الشباب العلمية، لكناؤ، الهند +919696437283

الإهداء

إلى

أمة الدعوة التي تحتاج اليوم إلى داعية يدرك اسباب
تدهورها وينتصر على آلامها ويجمع كلمتها ويهديها
إلى سبيل العزة والكرامة أمثال هؤلاء الذين قضوا نحبهم
وأدوا أمانتهم حسب المستطاع ومنهم شيخنا العلامة
ابو الحسن الندوي رحمه الله۔

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المنسق

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد المرسلين وعلى اله وصحبه أجمعين!

ابو الحسن الندوى عبقرية القرن العشرين، ومجدد هذا الدين، وشيخ الأمة ولسانها الناطق بالحق، وهو رجل المواقف العظام دفاعا عن قضايا الأمة الأسلامية وصاحب مواقف جريئة وشجاعة جعلته من طليعة رواد المسلمين ومفكريهم في هذا العصر، وهو الداعية الفقيه، الأديب المتأدب بل عميد الأدب الإسلامى، صاحب الطراز الخاص والأسلوب الفريد، إنه رجل قرآني وأسد رباني حسب تعبير بعض المفكرين، ولما رحل شيخنا في أواخر ديسمبر سنة ألف وتسع مأة وتسع وتسعين قال بعض العلماء: أن "اكتمل عام الحزن" والآن حين نقوم بذكرى سماحته عن طريق أفكاره فقد اكتمل عليه قرن اذ أنه ولد في يناير 5 ديسمبر 1913،

وكان رحمه الله يتخلق بأخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم مثل الرحمة والعفو والصفح واللين فيما بين المسلمين والشدة والغلظة ضد الباطل والطواغيت والجمع بين شعب الإسلام، فإنه يؤمن بأن الإسلام دين يشمل جميع جوانب الحياة وإنه يؤمن بحيويته وقدرته على التجديد والإصلاح والتغيير، إنه يؤمن بجانبه القيادي والسياسي والاقتصادي والعملي، وفى كل من هذه المجالات له جولات وصولات، قضى حياته فى خدمة الإسلام والمسلمين وجعل هدفه ما قاله الصديق الأكبر رضى الله عنه "أينقص الدين وأنا حي" وعمل طول حياته بوصية سيدنا إبراهيم "ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون" ولبّى دعوة ربه إلى التفكير الذي كان يشغل ذهن سيدنا يعقوب عليه السلام عند وفاته "ما تعبدون من بعدي" وكان رحمه الله نسيج وحده فى الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، وفاق أقرانه فى الجمع بين العلم والأدب والأساليب العلمية والأدبية مع الدعوة إلى الله، والجمع بين السلوك والسياسة والقيادة والإصلاح، إن سماحته قضى نحبه وأوفى بعهده مع الله ورسوله وشريعته بالإخلاص الكامل، لقد شهد الزمان وشهد الناس أنه كان من أتقى العلماء وأخلصهم، وأبعدهم عن المادية والحرص على الثروة والشهرة والمناصب، ومن أرغبهم فى السذاجة والتقشف، ومن أزهدِهم فى الدنيا مع جلالة شأنه العلمي والعملي والديني، ومن أكثرهم تفكيرا وخوضا فى قيادة العالم الإسلامي وإصلاح المجتمع البشري ---------- فيا شيخنا أبا الحسن فقيد الملة الإسلامية كم نفقدك فى هذه الأيام التى ضاع فيها الوفاء والإخلاص وعم التهالك على الثروات والمناصب وبقينا بمآتم على فقدان القيادة الإسلامية المخلصة المؤمنة المعتدلة الرحيمة فى موقفها من المسلمين والجبارة

القاهرة فى وقوفها أمام الطواغيت والقوى الباطلة الهدامة الهاجمة على الإسلام والمسلمين ـــــــــــــــــ لقد صدق من قال وجزاه الله على هذا القول الصادق:

كم نحن يا شيخ الدعاة بحاجة — لك في زمان ضاع فيه وفاء
وغدا غريبا دين اشرف امة — من بعد أن حاقت به الارزاء
حتى له أبناءه قد حاربوا — وكأنهم عن دينهم غرباء
قد كنت دوما للحقيقة ناشدا — ماشاب سعيك ريبة ورياء

نعم! إنه أبو الحسن الندوي ـــ الداعية المخلص والمفكر العظيم ، اختار موقف الداعية وقام بدعوته للرجوع إلى الإسلام من جديد، له رحلات عديدة وجولات غراء من أقصى الأرض إلى أقصاها وأعمال ضخمة وكتب قيمة وخطب فكرية تحمل نعرة واحدة "شعارنا الوحيد إلى الإسلام من جديد"

نعم! إنه أبو الحسن الندوى رحمه الله، له موقف واضح من الأدب والتعليم ونقد الحضارات، انه يؤمن باختيار الأسباب مع توكله الكامل على القدر المقدور فى النتائج ، كان يقول: "إن العلوم الإسلامية علوم حية نامية ، وإن منهاج الدراسة خاضع لناموس التغير والتجدد، فيجب أن يتناوله الإصلاح والتجديد في كل عصر ومصر، وأن يزاد فيه ويحذف منه بحسب تطورات العصر، وحاجات المسلمين وأحوالهم" وكان عنده شعور مرهف بأهمية تربية الطلاب فى الجامعات العصرية تربية فكرية دينية قرآنية ، والملحوظ أنه أنكر الثنوية فى التعليم، وفى أغلب الظن هو أول مفكر هتف قائلا: إنه لا مجال فى هذا الدين للقسمة والتفريق والثنوية فى العلم، أشار بصراحة ولفت أنظار الأمراء وأصحاب التعليم إلى أن أكبر سبب للفساد الموجود فى المجتمعات المسلمة هو السقم والنقص في النظام التعليمي وتغريبه وتقليد النظام التعليمى الغربي بأسره والاعتقاد أنه النظام التعليمي الناجح فحسب، هذا وإنه شعر بحاجة ماسة إلى حصول طلاب العلم على الأدب والبيان واللغة ، فقام بإعداد المقررات الدراسية للناشئين والأطفال التي تولد ملكة أدبية لدى الطلاب مع تزويدهم بالخلق الإسلامية والعقائد الصحيحة والتربية الفكرية، وأسس رابطة أدبية لإسلامية الأدب ومواجهة الأفكار الهدامة التى تدخل فى القلوب عن طريق الروايات والمسرحيات والقصص القصيرة ، ولقد أكد شيخنا الندوى أنه ينبغى للدعاة والعلماء والمصلحين أن يزودوا أنفسهم باللغات ويعرفوا أهمية اللغة والبيان ، ولقد أثبت سماحته قوله بعمله من خطابته وكتابته بأسلوب رائع مؤثر بليغ۔

إنه رأى سيطرة الحضارة الغربية وقوانينها على المجتمع والمعيشة والتعليم ، فلم يدع إلى ردها بأسرها ورفضها بكاملها مثل من لا يعرف الفرق بين الطيب والخبيث ولا يستطيع الفرق بين الحسن والقبيح ومثل من لا يستطيع النظر إلى النور لفقدان بصارته فيهتف الظلام ـــ الظلام وما

استقبلها مثل من يحتفى بكل جديد ويعيب كل قديم، يرحب كل ما كان حديثا ويهجو كل ما كان عتيقاً، بل وقف موقف التحليل والتدقيق وموقف الحكيم الذى يأخذ كل ما صفا ويترك كل ما كدر۔

نعم! إنه أبو الحسن الندوى۔۔له منهج تحليليّ وأسلوب حكيم فى عرض الدعوة الإسلامية، إنه يومن بالتصلب فى الدين والاعتدال فى العمل به، يؤمن بالوسطية فى الخلافات الفروعية والمناهج المختلفة للعمل فى الحياة البشرية ولكنه لا يصالح أبدا ولا يحب المصالحة أو رعاية المصلحة فى العقائد والأسس الإسلامية الثابتة، حتى أنه صار علامة الاتحاد، إنه اختار موقف الإمام السرهندى فى عرض الدعوة إلى اللّٰه وعمل بما اختار من موقف طول حياته بإلقاء الخطب وإعداد الكتب والرسائل الدعوية المؤثرة ونشر الأفكار الصحيحة الثابتة القوية ورحلات دعوية، خاطب الأمراء والسلاطين وكتب إليهم الرسائل المؤثرة المملوءة بالحكمة والدعوة ووجههم إلى الفكر الإسلامى والنظام الإسلامى ويمكن القول أن الشيخ الندوي كان يرصد ويترقب اللقاءات الخاصة والاجتماعات العامة لنشر الإسلام وعرض الفكر الإسلامى الصحيح والدعوة إلى الرجوع إلى الإسلام من جديد۔

نعم! إنه مفكر إسلامي، المفكر الذى يعطي كل قضية من قضايا الأمة نصيبها من الاهتمام، بدأ حياته العلمية والدعوية بالعمل الدؤوب للصحوة الإسلامية، وقام بدور ملموس فى الصحوة الإسلاميه الجديدة ونستطيع أن نقول: إن الأربعة من شخصيات القرن العشرين أثرت تأثيرا عميقا فى المجتمع البشرى وتسببت في الصحوة الإسلامية الجديدة، على رأسهم الامام البنا ويتلوه الأستاذ الشهيد السيد قطب والأستاذ أبو الأعلى المودودي والإمام الندوي رحمه اللّٰه وإن جميع هؤلاء طالبوا المسلمين أن يمتثلوا الإسلام بكامله ولا يختاروا جزءا دون جزء يقول الله جل جلاله "أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض" إلا أنهم (أي هؤلاء الأربعة المذكورين) اختلفوا فى بعض الأفكار والمناهج، ومن توسع الإمام الندوي أنه اعترف بكل حركة وجماعة إسلامية وصرخ بإفادتها فى كتاباته وأقر لها أنها عاملة للصحوة الإسلامية، وداعيةٌ إلى الإسلام وقيمه وحضارته، وان اختلف مع بعض منها فى بعض الأشياء فأوضح موقفه فى ذلک الأمر من غير أن ينكر جميع منجزاتها وخدماتها بل سلك طريق التعاون على البر مع الإعذار في الأمور الخلافية۔

نعم! إنه مفكر إسلامى ذو فكر بالغ وشعور مرهف وقلب حنون وضمير واع ومعرفة عميقة بالتاريخ والديانات والحضارات والأقوام، فكيف يمكن له أن يرى السياسة رجساً من عمل الشيطان ويتصورها الشجرة الممنوعة مع أنه يؤمن بأن الإسلام يشمل جميع جوانب الحياة، وكيف يمكن له أن يرى السياسة منكرا مع أنه يؤكد على ضروة قيادة الإسلام للعالم ويشتاق إلى أن تكون كلمة الله هي العليا كأكثر ما يشتاق الانسان إلى شيء يحبه من زينة الدنيا وزخرفها وأموالها ومناصبها.

ولكنه ما اختار موقف من يتوغّل فى السياسة ويأخذ كل رطب ويابس وطيب وردي، لأنه يتصور السياسة أكبر سبب للرقي والازدهار والسلطة، وكذلك ما سلك طريق الحائر بين النور والظلام بل إنه أرشد إلى الصحيح والصواب وفرق بين الحق والباطل ونبه الحكام إلى الفرق بين الهداية والجبابة وأرشدهم إلى الطريق الإسلامي القويم في السياسة. كان يرى السياسة وسيلة للإصلاح، إصلاح الحكم، وإصلاح النظام الاجتماعى والاقتصادى والتعليمى وإصلاح المجتمع البشرى حتى أنه قال فى إحدى خطبه فى دولة باكستان: إن الإسلام فى أشد حاجة إلى استيلاء لأنه لا يمكننا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بدون الاستيلاء الذى هو مطالب فى الآية الكريمة بتضمنها الأمر والنهي. اختار موقف المصلح لإصلاح السياسة والساسة فألف أشهر كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ودعا العرب من خلال هذا الكتاب ان يعرفوا مقامهم ويرجعوا إلى شأنهم وويقوموا بتحليل دقيق فى استيراد ما تصدره الحضارة الحديثة وينتقلوا من الصراعات القبلية والعنصرية إلى الوحدة الإسلامية ومن نظام قبلي أو عنصري أو غربي إلى النظام الإسلامي الكامل وينتقلوا من الاحتلال إلى الاستقلال ثم الفتوح ويأخذوا شأنهم القيادي ويسوسوا العالم بمكانتهم التي منحهم الله تعالى باختيار جزيرة العرب لبعثة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ويقتضي هذا أن يزينوا أنفسهم باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وبحمل رسالته الخالدة السائدة الرائدة القوية الأبدية التى يمكن باتخاذها مأخذا ومصدرا ومرجعا ومنهجا النجاح في السياسة والحكم وقيادة العالم وإصباغه بصبغة الإسلام من الأمن والسلام.

وينشد دائما بيت محمد اقبال بل جعله عنوانا لخطبه فى البلاد العربية۔

کرے یہ کافر ہندی بھی جرأت گفتار — اگر نہ ہو امرائے عرب کی بے ادبی
یہ نکتہ پہلے سکھایا گیا کس امت کو — وصال مصطفوی، افتراق بو لہبی
نہیں وجود حدود و ثغور سے اس کا — محمد عربی سے ہے عالم عربی

"إنه لا يتم الاتصال بمحمد صلى الله عليه وسلم إلا بانقطاع أبى لهب، وإنه لا يصح الإيمان بالله إلا بالكفر بالطاغوت، كذلک لا تتم الفكرة الإسلامية الا بإنكار القوميات والوطنيات والفلسفات المادية، إن العالم العربي أيها السادة! لا يتكون ولا يظهر إلى الوجود بالثغور والحدود، إنما يقوم على أساس هذا الدين الإسلامي وعلى الصلة بمحمد صلى الله عليه وسلم۔

وجه الشيخ ومن بواعث الأسف أن عامة الناس أصغوا إليه بسامع قلوبهم قبل أذانهم ولكن لم يعمل بما دعا إليه أصحاب الحكم والسلطة إلى العرب دعوته فى خطبه التي نشرت في رسالة بعنوان "احاديث صريحة مع إخواننا العرب" وكتب سلسلة "الاسمعيات" الدعوية التي تشتمل على كتابات بعنوان اسمعي يا مصر واسمعي يا ايران واسمعي يا زهرة الصحراء، وجّه نداءه إلى العرب وحكامهم هكذا:

فهيئوا نفوسكم للجهاد والدعوة وإذا قلدتم أمانة فأحسنوا القيام عليها، هذه وصيتي لكم ، وربما لا تقيمون وزنا لها ولكنكم ستذكرون ذلك في المستقبل "فستذكرون ما أقول لكم وأفوض امري إلى الله إن الله بصير بالعباد ـ غافر ـ ٤٤) ألف كتابه سيرة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد في تاريخ دعوته كما ألف كتابه رجال الفكر والدعوة في تاريخ الدعوة والكفاح عبر العصور، وقام بجولات دعوية ألقى فيها خطبا توجيهية نشرت بعناوين مختلفة مثل "حديث بورما" و "حديث كاشمير" "نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان" إنه ما جلس منهزما ومتعبا بل سافر وسافر راجيا رحمة الله ودعا الناس بقوة وتأثير عميق، كان مفكرا لا يشغله هم عن هم، وألم عن ألم، وأسف عن أسف، ولا تشغله قضية عن قضية ومهمة عن مهمة فكان يتناول القضايا كلها في وقت واحد لا قضايا الأسرة بل قضايا الأمة المسلمة العالمية وكان لسان الأمة الناطق بالحق الذي لا يعرف لغة السياسة واللباقة بل يجهر بالحق بدون أن يترك الحكمة الدعوية، وكان يستنفد طاقته في عرض الحلول لقضايا الأمة المسلمة.

نعم! إنه مفكر إسلامي يتأثر بكل كارثة المسلمين ويتألم بأوضاعهم الراهنة المتدهورة، ويتناول القضايا والمشكلات المحلية والعالمية ويعرض الحلول لها، تارة يختار موقف الحوار والمصالحة وتارة يحرك النفوس ويجمعهم على كلمة ،أما موقفه من قضية فلسطين كارثة المسلمين جميعا، فكان سماحته أعلن بصراحة أنها لا تنحل إلا بجهاد وقوة إيمانية ،إنها تحتاج إلى رجل يجعلها قضيته الشخصية قياما وقعودا ومناما وصحوا، وصرح أنها لا تنحل إلا بقوة مؤمنة مخلصة وجهود إيمانية جبارة ولا تنحل بالحوار والسياسة واللباقة ابدا.

نعم ! إنه مفكر قام موقف القائد المخلص الحكيم عقب كل فتنة ومصيبة وبلاء ودسيسة محلية أو دولية ،شاهده التاريخ في موقفه من خضوع العرب وتقليدهم للغرب، وفي موقفه من الحركات العربية الهدامة ومن النظام الاقتصادي والتعليمي الغربي وفي موقفه من الأحوال الشخصية للمسلمين في الهند واختلاط الحضارات فيها وفي البلاد العربية وفي موقفه من العبادة والسياسة والسلوك والأدب والتاريخ والإصلاح.

نجح في إنشاء جمعية "الرسالة الإنسانية" في بلادنا الهند الذي كان مناوئاً لحركة إحياء التطرف الهندوسي بين كثير من الهندوسين وانضم إليها كثير من الهندوس ومن اصحاب الدعوات والديانات المختلفة وأهل المناصب وغيرهم، ولقيت هذه الحركة في الهند تجاوبا واسعا ونجاحا كبيرا، مع كل ذلك حينما عبر في أحد اجتماعاتها أحد من غير المسلمين عن رأي تؤيد وحدة الأديان رد عليه الشيخ ردا واضحا وصرح بأن الإسلام هو الطريق الوحيد لمعرفة الله عز وجل حسب قول الله عز وجل: "وأن هذا صراطي مستقيما"

لقد سرى الإسلام في دمه ولحمه وتغلغل في أحشاءه فأخرج كل ما أخرج من الأفكار والإنتاجات من الإسلام وللإسلام، ومختصر القول أنه ولد للإسلام ومات للإسلام، فيا

أباالحسن طبت حيا وطبت ميتا، فيا من فقدنا بفقدانک القيادة المؤمنة الداعية المخلصة، ياليت ذكراک تكون مبدأ الصبح الجديد للإسلام والمسلمين

"وما احسن ما وصفه به ريحانة عصرنا العلامة الشيخ القرضاوى حفظه الله وأطال بقائه، قال: "وأتاه الله القلب الحي والعاطفة الجياشة بالحب لله العظيم ولرسوله الكريم ولدينه القويم فهو يحمل بين جنبيه نبعا لا يفيض وشعلة لاتخبو وجمرة لا تتحول إلى رماد. ويقول الدكتور عبدالقدوس أبو صالح حفظه الله تعليقا على هذه القطعة "هذا القلب الذى يعيش مع الله فى حب وشوق راجيا خائفا، راغبا راهبا، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، كما يعيش فى هموم الأمة على اتساعها ويحيا فى آلامها وآمالها، لا يشغله هم عن هم ولا بلد عن أخر ولا فئة من المسلمين عن الفئات الأخرى۔

ويسرني الآن أن أقدم بين يدي العلماء وأصحاب الفكر مجموعة البحوث المطروحة إلى المؤتمر العالمي حول "موقف الشيخ الندوي من الأفكار المعاصرة، دراسة مقارنة". وأعتقد أن هذه المجموعة تتميز عن جميع الأعمال السابقة التى تتعلق بالشيخ الندوى وحياته ومنجزاته، لأنها متنوعة من حيث الفكر والمواضيع والمحتوى، ويستوعب جوانب من شخصيته وتحيط إنجازات الشيخ الندوى فى مجال العلم والأدب والدعوة واللقاءات والرحلات وإلقاء الخطب فى بلاد شتى، ومنعتنى ضخامة الكتاب أن أقدم إلى القراء الكرام جميع البحوث فى صورتها الأصلية التى أعدها الباحثون فرأيت من المناسب الإعداد والترتيب والحذف لبعض الاجزاء من المقالات وشارک فى هذا العمل زميلنا الأستاذ الأخ محمد غزالي الندوي، فحذفت من جميع المقالات قطعا تشتمل على بيان سيرة الشيخ الندوي كما حذفت القطع التى تشير إلى ركائز فقه الدعوة عند الشيخ لأن الشيخ العلامة يوسف القرضاوي حفظه الله قدمها بتوضيح كامل وحللها تحليلا شافيا، ويستطيع أن يراجع القارئ كتاب الشيخ القرضاوي لتناول التفاصيل لركائز فقه الدعوة عند الشيخ۔

وتحيط هذه المقالات عدة جوانب حياة الشيخ أبى الحسن، وهي مقدمة إلى المؤتمر ضمن ثلاثة محاور المقررة،

1. موقف الشيخ الندوى من عرض الدعوة الإسلامية ونقد الحضارات
2. موقف الشيخ الندوى من السياسة المعاصرة والعالم الاسلامى
3. موقف الشيخ الندوى من الأدب والتعليم والتزكية

وإنني إذ أقدم هذه المجموعة بين يدي القراء أوجه شكري وتقديري إلى الباحثين المحترمين الذين اعتنوا بجمع جوانب مختلفة من حياة الشيخ ومنجزاته وقدموا كتابات قيمة.

وبهذه المناسبة أشكر الله جل وعلا على أنه وفقنا لعقد هذا المؤتمر المبارک المهم وإنجاز هذا العمل العلمي المتميز وأشكر جزيل الشكر جميع من شاركوا فى هذا المؤتمر بورقة

علمية وواجهوا مشاق السفر على دعوة متواضعة من عبد ضعيف وأهنئ جميع موظفي مؤسسة العلامة ابي الحسن علي الندوي التعليمية والخيرية ومن يتعلق بها، وأشكر على وجه خاص سعادة الأستاذ كمال أختر الندوي، والأستاذ الطبيب محمد غياث الصديقى الندوي، والأستاذ الدكتور مسعود خالد الذين بذلوا جهودا جبارة في تنظيم هذا المؤتمر وإزالة كل عائق دونه، وبخاصة أرفع اسمى معانى الشكر والتقدير إلى الاستاذ محمد كمال أختر الندوى الذى لم يدخر وسعا فى دعم هذا المؤتمر، فجزاهم الله احسن الجزاء.

وفى الأخير اريد أن أوضح أن هذه المجموعة لقد طبعت فى عجالة بالغة ولذلک يمكن أن توجد فيها أخطاء، فإنى مسؤول بالأخطاء، وستكون الطبعة الثانية منزهة من الأخطاء كما اردت أن تشمل المجموعة ترجمة المشاركين وجميع تفاصيل المؤتمر فى طبعتها الثانية، وأدعو الله أن يتقبل منا هذا العمل ويثبت لنا أجرا عنده ويوفقنا للطبعة الثانية في أقرب فرصة ونشر فكر الإمام الندوى كاملا.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

د. محمد طارق الأيوبى الندوى

مركز الثقافة والتحقيق، عليكره

٢٠١٤/٢/٨م

شَيْخُ الدُّعَاةِ

الأستاذ ابورياش ـ عمان

شَهِــدَتْ لَكَ الْأَفْذاذُ والْعُلَــمَاءُ ... وتَضوَّعَتْ مِسْكاً بكَ الْأَرْجَاءُ
بُلِّغْتَ يَا بَحْرَ الْعُــلُومِ مَكَــانَــةً ... مَا حَازَهَا الْكُبَراءُ والْعُظَمَــاءُ
هَذَا مَقَامُــكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ اعْتَلَى ... وكَــأَنَّهُ فَوْقَ الْأَنَامِ سَــمَاءُ
يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْمُسَجَّى فِي الثَّرَى ... مَنْ مِنْكُمَا قَدْ مَسَّــهُ الإِفْنَــاءُ
هَلْ ذَلِكَ الْجَسَدُ الطَّهُــورُ تَفَرَّقَتْ ... أَجْــزَاؤُهُ وَأَقَــامَ فِيهِ فَنَــاءُ
أَمْ أَنَّــهُ مَــا زَالَ غَضّاً يَانِعــاً ... مَــا مَسَّــهُ تَلَفٌ وَلَا إِعْيَــاءُ
أَنْفَقْتَ عُمْــرَكَ قَائِداً وَ مُجَاهِــداً ... أَسَــداً تَهابُ نِزالَهُ الْأَعْــدَاءُ
وَقَضَيْتَ دَهْرَكَ وَاعِــظاً وَ مؤَدِّباً ... وَ مُفَــكِّراً دَانَتْ لَهُ الْأُدَبَــاءُ
زَانَتْكَ يَا ابْنَ الطِّيِّبِــينَ فَضَــائِلٌ ... وَخِصَــائِلٌ وَ شَمَائِلٌ غَــرَّاءُ
قَدْ كُنْتَ دَوْماً لِلْحَقِيقَةِ نَاشِــداً ... مَا شَابَ سَعْيَكَ رِيبَةٌ وَ رِيَــاءُ
وَنَذَرْتَ نَفْسَكَ فِي سَبِيلِ رِسَــالَةٍ ... فِيهَا لِمَنْ يَبْغِي النَّجَاةَ غَنَــاءُ
قَدْ صَانَهَا مِنْ قَبْلِكُمْ أَجْدَادُكُــمْ ... وَبِهَا تَمَسَّكَ آلُكَ الشُّرَفَــاءُ
لِلّهِ وَالْإِسْــلَامِ كُنْــتَ مُجَنَّــداً ... لَمْ يَثْنِ عَزْمَكَ أَوْ يَهِنْكَ عَنَاءُ
وَمَضَيْتَ فِي دَرْبِ الدُّعَاةِ وَنَهْجِهِمْ ... فَتَعَلَّمَتْ مِنْ فِكْرِكَ الْحُكَمَاءُ
مُذْ قَدْ نَشَأْتَ حَمَلْتَ هَمَّ عُرُوبَــةٍ ... قَــدْ مَزَّقَتْــهَا الْفِتْنَــةُ الْعَمْيَاءُ
فِيهَا تَرَبَّــصَ كُلُّ عِلْــجٍ حَاقِــدٍ ... وَبَغَى عَلَيْهَا الشَّرُّ وَالدُّخَــلَاءُ
فَالْغَــرْبُ يَعْلَــمُ أَنَّ فِي إِسْــلَامِنَا ... مَا إِنْ تَمَسَّكْنَــا بِهِ اسْتِعْــلَاءُ
فَتَــحَــزَّبُــوا وَتَأَلَّــبُوا وَتَلَبَّــبُوا ... وَلَهُ بِكُلِّ قُوَى الضَّلَالِ أَسَاؤُوا

فَوَقَفْتَ يَا شَيْخَ الدُّعَاةِ بِوَجْهِهِمْ ... وَعَلَى الْجَبِينِ عَزِيمَةٌ وَمَضَاءُ
جَادَلْتَهُمْ يَا شَيْخُ بِالْحُسْنَى وَلَمْ ... تُذْعِنْ وَإِنْ عَصَفَتْ بِكَ الْأَنْوَاءُ
كَمْ مَنْصِبٍ قُلِّدْتَهُ وَشَغَلْتَهُ ... لِلنَّاسِ كَانَ بِهِ هُدًى وَسَنَاءُ
أَدَّيْتَ فِيهِ أَمَانَةً وَحَمَلْتَهَا ... مَا شَابَهَا زَيْفٌ وَلَا أَهْوَاءُ
وَنَهَضْتَ بِالْإِسْلَامِ تُعْلِي رُكْنَهُ ... كَيْمَا تُرَفْرِفُ رَايَةُ الْعَلْيَاءُ
أَسَّسْتَ رَابِطَةً لَهُ أَعْضَاؤُهَا ... حَقًّا هُمُ الأَخْيَارُ وَالْأَبْنَاءُ
بَذَلُوا لَهُ الْغَالِي النَّفِيسَ وَأَخْلَصُوا ... لَمْ تُلْهِهِمْ عَنْ غَيْرِهِ أَشْيَاءُ
أَصْدَرْتَ كُتُبًا فِي الْحَدِيثِ رَوَائِعًا ... وَمُؤَلَّفَاتٍ مَا لَهَا إِحْصَاءُ
وطَرَحْتَ فِيهَا مِن بَدَائِعِ فِكْرِكُمْ ... مَا فِيهِ حَقًّا لِلْوَرَى إِثْرَاءُ
مِنْ بَحْرِكُمْ نَهَلَ الدُّعَاةُ عُلُومَهُمْ ... وَتَفَقَّهَ الْأَقْطَابُ والنُّجَبَاءُ
خَرَّجْتَ أَجْيَالاً لَهُمْ بَصَمَاتُهُمْ ... وَلَهُمْ سَنَاءٌ مُشْرِقٌ وَضَّاءُ
كَمْ نَحْنُ يَا شَيْخَ الدُّعَاةِ بِحَاجَةٍ ... لَكَ فِي زَمَانٍ ضَاعَ فِيهِ وَفَاءُ
فِي عَالَمٍ فِيهِ الْأَوَاصِرُ قُطِّعَتْ ... وَتَنَاثَرَتْ فِي سَاحِهِ الْأَشْلَاءُ
وَغَدَا غَرِيبًا دِينُ أَشْرَفِ أُمَّةٍ ... مِن بَعْدِ أَنْ حَاقَتْ بِهِ الْأَرْزَاءُ
حَتَّى لَهُ أَبْنَاؤُهُ قَدْ حَارَبُوا ... وَكَأَنَّهُمْ عَنْ دِينِهِمْ غُرَبَاءُ
قُمْ يَا أَبَا الْحَسَنِ النَّدْوِيِّ لِكَيْ تَرَى ... كَيْفَ ادْلَهَمَّتْ حَوْلَنَا الْأَجْوَاءُ
فَلَعَلَّ بَعْضَ حُضُورِكُمْ وَمُرُورِكُمْ ... مِنْ نُورِهِ قَد تُشْرِقُ الظَّلْمَاءُ
شَيْخَ الدُّعَاةِ وَهَلْ تَفِيكَ قَلَائِدٌ ... وَمَدَائِحٌ وَقَصَائِدٌ عَصْمَاءُ
يَا أَيُّهَا الشَّيْخُ الْجَلِيلُ مَقَامُهُ ... مَاذَا يَقُولُ بِمَدْحِكَ الشُّعَرَاءُ

الشيخ أبو الحسن الندوي، حكيم الوسطية

أ.د.حسن الأمراني
أستاذ الأدب والنقد بجامعة الشارقة
الإمارات العربية المتحدة

يتناول هذا البحث بعضا من مظاهر الوسطية، باعتبارها منهجا اتصف به الشيخ أبو الحسن الندوي في حياته فكرا وسلوكا.

وسأرصد هذه الوسطية من خلال المحاور الاتية:

1 ــ الوسطية في السلوك

2 ــ الوسطية في العبادة

3 ــ الوسطية في الأدب والثقافة.

4 ــ الوسطية في السياسة

5 ــ الوسطية في الدعوة

6 ــ الوسطية في الموقف من الحضارة الغربية

استهلال: في مفهوم الوسطية

في الصحاح للجوهري (مادة:و.س.ط.): كل موضع صلح فيه "بين" فهو وسْط، بتسكين السين، وإن لم يصلح فيه "بين" فهو وسَط، بالتحريك.فالوسْط، بالتسكين، يكون بين شيئين، وأما الوسَطُ، بالتحريك، من كل شيء فهو أعدله. ومنه قوله تعالى: (قال أوسطهم ألم أقلْ لكم لولا تُسبِّحون)"القلم:28"، أي أعدلهم. وقال تعالى: (وكذلك جعلناكم أمَّةً وسطًا)"البقرة:143"، أي عدلا، فهي أمَّة العدل. ويقال: فلان وسيطُ في قومه، إذا كان أوسطهم نسبًا، وأرفعهم محلا. ويقال أيضا:شيءٌ وسط، أي بين الجيد والرديء.

وقال الراغب في مفرداته، مادة:(و.س.ط): "وسَط الشيء ما له طرفان متساويا القدر.ويقال ذلك في الكمية المتصلة كالجسم الواحد إذا قلت وسَطُهُ صَلْبٌ وضربت وسَط

رأسه بفتح السين. ووسْطٌ بالسكون، يقال: في الكمية المنفصلة كشيء يفصل بين جسمين نحو وسْط القوم كذا. والوسَط تارة يقال: فيما له طرفان مذمومان. يقال: هذا أوسطهم حسباً إذا كان في واسطة قومه،وأرفعهم محلا، وكالجود الذي هو بين البخل والسرف فيستعمل القصد المصون عن الإفراط والتفريط، فيمدح به نحو السواء والعدل والنصفة، نحو: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً" (البقرة:143) وعلى ذلك: "قال أوسطهم" (القلم:28)، وتارة يقال فيما له طرف محمود ومذموم كالخير والشر ويكنّى به عن الرذل، نحو قولهم: فلان وسط من الرجال تنبيها أنه قد خرج من حد الخير."

ومن النصوص الدالة على أنّ (أوسط الناس نسبًا أشرفهم) ما جاء في الكامل للمبرّد(4_365)، من رسالة بعث بها محمد بن عبد الله الحسني إلى المنصور: (فأنا أوسط بني هاشم نسبًا، وخيرهم أمًّا وأبًا).

واستئناسا بالمعنى القرآني لا يكون الشيء وسطا إلا إذا كان عدلا ، والنسبة وسَطِيَّة، وعلى هذا فالوسطيَّة هي فضيلة بين رذيلتين، والاعتدال ما كان بين الإفراط والتفريط، ولكن هذا لا يعني أن الوسطية تعني الوقوف بين شيئين، فليس هنالك توسط بين الخير والشرّ، ولا بين النُّور والظَّلام، ولا بين الفجور والتَّقْوى، ولا بين الإيمان والكفر. والوسطيّة هنا، أي العدل، يقتضي الصدع بالحقّ واتّباعه، وما سواه هو الهوى الذي نُهينا عن اتباعه واتخاذه ربًّا.

وحين يستقيم مفهوم الوسطيّة في وجدان المؤمن، ويخالط شَغاف قلبه، يصطبغ كله ذاتًا وفكرًا وسلوكًا بهذه الوسطية، فتنعكس على حياته كلِّها، وهو يردِّد قول الحقِّ سبحانه: (قل إنَّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين) "الأنعام:163". وبهذا تحقّق الشيخ ابو الحسن الندوي رحمه الله تعالى، فصارت الوسطية عنده منهجًا وسلوكًا انعكس على كل حركاته وسكناته. ونحن نريد أن نتلمس ذلك من خلال بعض المظاهر المحددة.

1 ــ **الوسطية في السلوك**: عاش الشيخ أبو الحسن في الهند، وهي مجمع الديانات والمذاهب المختلفة، وعاش مع فئات من ذوي هذه المذاهب، من مسلمين وهندوس وسيخ ونصارى وغيرهم، وكان بعض هذه المذاهب يوغل في تعذيب الذات مما يراه تقرُّبًا إلى الله

تعالى وتبتُّلا. (وقد رأينا مظاهر غريبة وعجيبة لهذا التبتل، ولتلك الرهبانية، فالبعض منهم تجنب الاغتسال طول عمره، والآخر لا يرتدي إلا المسوح والثياب الخشنة، ومن كان يعيش عريانا حتى في موسم البرد القارس، وآخر يجهد نفسه بالتعبد قائما في الحر الشديد طول عمره، لا يتحرك من مكانه، ومنهم من كان يعتزل الناس، ويغادر إلى كهف أو غار، ويلزمه لا يبرحه أبدا طول حياته، وآخر يحلف ألا ياكل إلا أوراق الشجر طول حياته، ومنهم من كان يعيش حياته كلها متبتلا بعيدا عن الزواج والنساء، ويرى قطع التناسل من العبادة المقربة، وآخر يرفع إحدى يديه في الهواء ويعذّبها طول عمره حتى تجفّ، ومنهم من كان يعتقد أن حبس النفَس من العبادة، والآخر يعلق نفسه في شجرة رأسا على عقب.

هذه هي أفضل صور وأشكال العبادات الراقية المتطورة المقرِّبة إلى الله، وأعظم وسيلة لتزكية النفس وتطهير الأرواح قبل الإسلام. فلما جاء الإسلام حرّر الإنسانية من هذه الأغلال والسلاسل والمصائب، وأنجاها من جميع أنواع التعيب والإيذاء، وبيَّن لها أن هذه المظاهر ليست إلا ألعابا بدنيّة، وأصنافا من المسرحيات الجسمية، وأن الله عزَّ وجلَّ لا ينظر إلى قالب الإنسان كم تعذّب، وكم تحمَّل من المشاقِّ، وإنما ينظر إلى القلوب، فلا يكلِّف نفسا فوق طاقتها، وهذا ما صرَّح به القرآن الكريم إذ قال: (لا يُكلِّفُ الله نفسا إلا وسعها) "البقرة:286"، وأعلن بأعلى صوت: إنَّ هذه الرهبانية ليست إلا ابتداعا واختلاقا من عند أنفسهم، ماأانزل الله بها من سلطان، قال تعالى: (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) " الحديد: "27")(1)

عاش الشيخ أبو الحسن وسط كل تلك التيارات والمذاهب، ولكنه تسربل بالوسطية الإسلامية، فتحقق بذلك سلوكا، ولم يتأثر بشيء من أخلاط المذاهب والنحل، كما حدث لبعض المسلمين في الهند، حتى ابتدعوا في الدين ما ليس فيه، بل انسلخ بعضهم عن الإسلام تماما، كما هو شأن البابية والبهائية والقاديانيه. لقد تحقق الشيخ أبو الحسن بروح الإسلام، فعصمه الله تعالى من الشطط، ومن الميل إلى الإفراط أو التفريط، فهو يعيش حياة الزاهدين، ولكنه يعيشها مع الناس ولا يعتزلهم، فيكون سلوكه بذلك قدوة وأسوة ودعوة. لا يحرم على نفسه ما أحله الله تعالى، ولكنه يؤثر حياة السابقين من أهل الخير، في الميل إلى الزهد والرضا

بالكفاف والعفاف والغنى عن الناس. يحضر المؤتمرات العالمية، ويترل الناس في الفنادق الفخمة، ولكنه يؤثر أن يترل في بيوت البسطاء من أهل الهند، ولاسيما من أتباع جماعة التبليغ.(2)

ومن مظاهر الوسطية في السلوك ما عُرف به رحمه الله من لين الجانب، ورقّة القلب، والتواضع مع الناس جميعا، وليس مع المسلمين وحدهم. ولكن ذلك كله لا يصرفه عن الجهر بالحق في المواطن التي تستوجب ذلك، فهو إذا انتهكت حرَمة من حرمات الله تحول أسدا هصورا يزأر، ويستوي في ذلك أن يكون امام الحكام وأمام الرعية.

يقول د. محمد اجتباء الندوي عن أبي الحسن: (لم يكن يهمه العيش الرغيد، والطعام اللذيذ، (3) والفراش الناعم الوثير، كان يجلس على الحصير، ويأكل الجشب، ويلبس الخشن، ينام قليلا ويسهر كثيرا، كانت حياته كلها جهادا، وكفاحا، ومثابرة، وثباتا.

كان جريئا في الحقّ، ومقداما في إحقاق الحقّ وإبطال الباطل، وصريحا في تقديم قضية الإسلام ورسالته ومبادئه وقيمه ، قويا في التكلم في أمور المسلمين أمام الملوك والأمراء والحكام، ولكن بلين ورفيق، وتهذيب وادب، وخلق ونبل.)(4).

والذي يطالع كتابه (في مسيرة الحياة) يجد مجموعة من المواقف التي تؤكد هذا الكلام. ولكني أحب أن أسوق شهادة بما رأيت، فقد زرت الشيخ أبا الحسن في قريته (رائي بريلي) ورأيت كيف يعيش عيشة ما لبثت أن تذكرت معها كلمة الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة: "اجلس بنا نؤمن ساعة"، وأعتقد أن كل من زاره في بيته المتواضع يتذكر حياة الصحابة الكرام، وهذا ما ذكره لي أيضا الدكتور حيدر الغدير يوم زيارته له، فقد أحسَّ بالشعور نفسه. وقد قلت في نفسي يومذاك : أهذا الشيخ الزاهد هو نفسه الذي يهابه الحكّام ويضربون له ألف حساب؟

لم يكن الشيخ أبو الحسن متحققا بالوسطية في سلوكه الفردي فقط، بل جعل ذلك من جوهر دعوته، داعيا المسلمين إلى التحقق بهذه الوسطية، ممثلا لذلك بما يناسب من الأمثلة. ففي شهر يناير من عام 1986 تأسست في مقر ندوة العلماء ــ دار العلوم، بلكنهو، رابطة الأدب الإسلامي، وقد كان ذلك اليوم مشهودا، وشارك فيه الأساتذة الضيوف من الهند ومن خارجها، كما شارك أساتذة دار العلوم ، بكلمات قيمة، وقصائد معبرة، وكان لتلاميذ الدار

وطلبتها مشاركات أيضا، وكانت لغة المؤتمر هي العربية، بالإضافة إلى أنه أنشدت قصائد باللغة الأوردية، لغة المسلمين في عموم الهند، وما زلت أذكر تلميذا لم يجاوز سن الطفولة آنذاك، واسمه محمد إسماعيل، (وقد علمت من بعض زملائه أنه صار اليوم أستاذا نبيها)، ينشد بصوت شجي قصيدة إقبال الرائعة: (دعاء طارق). وقد أشاد الأساتذة الضيوف بندوة العلماء التي أثبتت أنها قلعة للعربية في القارة الهندية (وقد أشاد بذلك الشيخ أبو الحسن في كتابه: في مسيرة الحياة،2\160). إلا أن الدكتور محمد علي الهاشمي ألقى كلمة، وبعدما حيى القيمين على ندوة العلماء وأشاد بفضلهم قال كلاما مفاده ما يلي: (نحن الآن رأينا الصورة، ونرجو أن تكون الحقيقة مطابقة للصورة. فليس المهم أن تكون الصورة جميلة بقدر ما هو مهم أن تعبر عن الجوهر، وأن يكون الجوهر سليما)، ولم يكد ينهي كلمته حتى كانت توزع علينا رسالة لطيفة للشيخ أبي الحسن، وهي رسالة صغيرة الحجم كبيرة الفائدة، وعنوانها: (الصورة والحقيقة)، وعجبنا لنباهة المنظمين من جهة، ولسبق أبي الحسن إلى معالجة الموضوع في رسالة من جهة أخرى. وقد كان هذا دأبه في كل مجلس وفي كل آن: التركيز على الجوهر لا على الصورة، وهو بذلك يستوحي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم). (رواه مسلم)

ولقد كانت للشيخ أبي الحسن كلمة أخرى تدل على المعنى نفسه سمعناها منه كثيرا، ودونها في بعض كتبه، وهي ضرورة العناية بالقيمة لا بالقامة. يقول في كتابه (في مسيرة الحياة: 76/2): "ليست العبرة بالقامة والحجم والكثرة، وإنما العبرة بالقيمة. هناك شيئان يوزنان: القامة والقيمة، ولكن الله سبحانه وتعالى فضل القيمة على القامة.إنني كلما أقرأ الآيات الأخيرة من سورة الأنفال، عجبت وعجبت وكدت أحار وأغلب على أمري، إذا قرأت قول الله تعالى: (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)"الأنفال:73".

لمن يقال هذا؟ لهذه الحفنة البشرية التي تألفت من المهاجرين والأنصار، تألفت من الأنصار أصحاب الدار ومن المهاجرين المغتربين، الذين لم يتجاوز عددهم خمسمائة وألف.. ما نسبة هذه القلة القليلة التي كانت تعيش في يثرب التي سميت بعد ذلك بمدينة الرسول

صلى الله عليه وسلم، ما وزن هذه القلة وما عدد أفرادها؟ ما وزن هذه القلة في الميزان السياسي، وفي الميزان الدولي،وفي الميزان الاجتماعي، حتى في الميزان العلمي؟ إنهم ـــــ كما أعتقد ـــــ لم يبلغ عددهم ألفين...إنه يقال لهذه المجموعة الصغيرة التي قام عليها الإسلام، وقامت على أعناقها رسالة الإسلام...فثبت بذلك أن المسلم بقيمته لا بقامته".

2 ـــ الوسطية في العبادة:

كان الشيخ أبو الحسن رحمه الله حريصا على اتّباع السنة في كل شيء، وأهمّها العبادة، فكان يحرص على التقيد بآداب الرسول صلى الله عليه وسلم وما كان عليه الصحابة. ونحن نعرف أن بلاد الهند بيئة ترعرع فيها الغلو في العبادات، كما نقلنا سابقا عن العلامة سليمان الندوي، وأن بيئة مثل هذه كان يسهل أن يجرَّ فيها الإنسان إلى الغلوّ والمغالاة، وقد أصاب ذلك الغلوّ حتى بعض الفئات المسلمة، ولكن حرص الشيخ أبي الحسن على الالتزام بالسنة حماه من الوقوع في الغلو، ومن هنا ألف كتابه الشهير: (ربانية لا رهبانية)، ومعلوم أن جذور الغلوّ كانت قد بدأت في العهد الأول للإسلام، كما هو واضح في حديث الرهط الذين جاءوا إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا بها فكأنهم تقالوها، ثم قالوا: أين نحن من النبي صلى الله عيه وسلم وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ فقال أحدهم: أما أنا فأقوم الليل ولا أنام، وقال الثاني: وأما أنا فأصوم الدهر لا أفطر، وقال الثالث: وأما أنا فأعتزل النساء، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني). (متفق عليه).

وهذا نص مما يقوله الشيخ أبو الحسن رحمه الله، وهو شديد الدلالة على ما نريد: (إنني لا ألح على منهاج خاص من التزكية درج عليه جيل من أجيال المسلمين، واشتهر في الزمن الأخير بالتصوف ـــــ من غير حاجة إلى ذلك ـــــ فقد كان في كلمات الكتاب والسنة ومصطلحاته غنى عنه، ولا أبرئ طائفة ممن تزعم هذه الدعوة وتضطلع بها، من نقص في العلم والتفكير، أو خطأ في العمل والتطبيق، ولا أعتقد عصمتها، فكل يخطئ ويصيب، ولكن لا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا، ونسد هذا المكان الذي

كان يشغله الدعاة إلى الله والربانية والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها وصلتها بالله والدعوة إلى إصلاح الباطن، والعناية بالفرد قبل المجتمع.) (5)

فهذا النص شديد الأهمية، فهو بالإضافة إلى دعوته إلى الوسطية في العبادة، يدعو إلى أمر بالغ الأهمية، وهو عدم الوقوع في فخّ مصطلحات مستحدثة لا تستوجبها الحاجة، والاكتفاء بالمصطلحات القرآنية، ذلك بأن العدول عن المصطلح القرآني إلى سواه هو بداية الزلل، لأن كل مصطلح يجر من ورائه دلالاته التي قد تبعد قليلا أو كثيرا عن دلالات المصطلح القرآني. وهكذا فإن اختيار مصطلح التصوف، بدلا من المصطلحات القرآنية، كالتزكية والربانية، كان مدخلا لكثير من التصورات، بل والسلوكات أيضا، التي ما أنزل الله بها من سلطان، و لم تكن على عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم.

3 ـــ الوسطية في الموقف من الثقافة الغربية:

كان الشيخ أبو الحسن رجلا متمكنا من عدد من اللغات، منها الأوردية والعربية والفارسية والإنجليزية، واطلع على الثقافات والآداب التي تضمنتها هذه اللغات اطلاع خبير، وقد مكنته الإنجليزية من معاشرة الفكر الغربي معاشرة تسمح له بتقويم ذلك الفكر والحكم عليه . ونحن نعرف أن الطبقة المثقفة في البلاد الإسلامية قد انقسمت انقساما مريعا في الموقف من الحضارة الغربية، فهنالك من دعا إلى أن نأخذ الغربية بخيرها وشرها، وحلوها ومرها، إذا أردنا لأمتنا الخير والنهضة، وهذا ما نادى به طه حسين في كتابه: (مستقبل الثقافة في مصر)، ومنهم من انكب على نفسه، ودعا إلى أن نصم آذاننا عما حولنا من حضارة الغرب، رغم ضجيج آلة هذه الحضارة المصمة للآذان، ومن هؤلاء الأستذ أنور الجندي رحمه الله، وبقيت طائفة ثالثة في حيرة من أمرها، لا تعرف ما تأخذ وما تدع من هذه الحضارة. وثلة من العلماء والدعاة والمفكرين جمعوا المعرفة بحضارة الشرق وحضارة الغرب، فدعوا إلى التجديد على بصيرة، وجعلوا الوسطية هاديا ونصيرا، وقد كان الشيخ أبو الحسن من أبرز هؤلاء، وقد ساعده على ذلك النشأة الحسنة، وكونه تربى في كنف أبيه العلامة عبد الحي الحسني الندوي، ثم في رعاية أخيه الدكتو عبد العلي الحسني الندوي، الذي كان هو أيضا من المطلعين على الثقافتين الإسلامية والغربية، فكان أثره على أخيه عظيما.

ولعل بعضهم يرى أن الجمع بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية كالجمع بين الأضداد:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي بأعجب من أن أجمع الجَدّ والفهما

ولكن الجمع بين الأضداد لم يكن عزيزا على همة أبي الحسن رحمه الله. يقول متحدثا عن سنوات التكوين: (لقد ولدت في بيت كان موضوعه الحبيب بل هوايته التأليف في سير الرجال وطبقاتهم، وتراجم العلماء وأهل الفضل، وخاصة الذين أنجبتهم أرض الهند... قد نشأت بصفة خاصة على حب التفنن في الفضائل والجمع بين الأشتات بل الأضداد من الفضائل الإنسانية وأنواع العلوم والمعارف والآداب والثقافات وعلو الهمة، والقدرة الفائقة على التنسيق بينها، وتسخيرها للوصول إلى غاية مثلى وخدمة العلم والدين، حتى لو أدى ذلك إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، ويعدونها من ضالة الآداب وبراية الآداب.)(6)

وعلى هذا لم يكن من المستغرب أن يقف الشيخ أبو الحسن موقفا عدلا من الحضارة الغربية. (7)

إنه الموقف الذي يستوحي الآية الكريمة: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا، اعدلوا هو اقرب للتقوى)""المائدة:8". وقد كان أبو الحسن رحمه الله شديد الإعجاب .بمحمد إقبال، فلم يكن غريبا أن يلتقي الرجلان العظيمان في الموقف من الحضارة الغربية، فهي حضارة لا تخلو من خير ونفع، وإن كان شرها أكبر من خيرها، وضررها أكثر من نفعها (8). ولقد عاش محمد إقبال في الغرب، ولا سيما في بريطانيا والمانيا، حيث نال من هناك شهاداته العلمية العليا، وقد شبَّه الحضارة الغربية بنار النمرود. ولكنه يحمد الله تعالى على أن نجاه من هذه النار كما نجى إبراهيم من نار النمرود من قبل.

وكذلك هو شأن الشيخ أبي الحسن، فقد اطلع على الحضارة الغربية واستفاد مما فيها من عناصر الخير، إلا أنه لم يفتن بها، بل كثيرا ما حذر من أحابيلها. وهو يدعو إلى عودة الشباب المسلم المثقف إلى الإسلام بمعناه الواسع من جديد، وتحريرهم من رق الفلسفات الغربية التي آمن بها كثير منهم بوعي ودراسة، وأكثرهم بتقليد وتسليم، ويقيم في عقولهم أسس الإسلام من جديد ويغذي عقولهم وقلوبهم.(9)

على أنه ظل راغبا في إقامة جسر التعاون والتفاهم مع هذه الحضارة، ومن هنا كان إنشاء المركز الإسلامي في جامعة أكسفورد، وذلك في شهر أكتوبر من عام 1985، وهو المركز الذي جعل من بين أهدافه التعريف بحقيقة الحضارة الإسلامية في الغرب، وإحداث تواصل فعال بين الشرق والغرب. وقد طالما أثنى الأمير شارلز، أمير ويلز ولي عهد بريطانيا، على جهود هذا المركز.وقد اختير أبو الحسن لرئاسة المركز، وبمساعدة الدكتور فرحان نظامي، وقد ألقى سماحته خطابا في افتتاح المركز، وكان مما قال فيه: "إن قيام هذا المركز الإسلامي في جامعة أكسفورد مبشر بالخير، تنفتح به أبواب جديدة من المعرفة الصحيحة والتفاهم، وتنكشف سبل جديدة للبحوث والدراسات العلمية، لا بد من تعميم الوعي الصحيح لما قدمه الإسلام من دروس الإنسانية والسعي لرفع الإنسان نحو الذروة السامقة والقمة العالية، كانت البشرية تئنّ تحت وطأة الدمار والهلاك، وكادت تلفظ أأنفاسها الأخيرة، فقام النبيّ صلى الله عليه وسلم، ونفخ فيها روح الحياة وبعثها من جديد، وإن التقدمات الهائلة التي أحرزها الإنسان في القرون التالية، تدين لهذا الجهاد والقائد العظيم في سبيل إنقاذ البشرية، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الرائد لهذا الجهاد والقائد لهذا الكفاح، ولولا قيامه بهذه الجهود للأخذ بيد البشرية، لما كان لهذه الجامعات والمؤسسات من عين ولا أثر".(10)

4 ـــ الوسطية في الأدب:

منذ وقع الاحتكاك في العصور الحديثة بين الحضارة الغربية والعالم الإسلامي، انطلاقا من حملة نابليون على مصر عام (1789م) حتى استعمار فرنسا الجزائر عام (1830م) ودخول الإنجليز إلى الهند وإعلان الملكة فكتوريا نفسها إمبراطورة على الهند عام (1877م)، بدأت الفكرة الغربية تتغلغل في العالم الإسلامي، ومن ضمن ذلك الأدب، وصار الشرق الإسلامي موضوعا أثيرا لدى أدباء الغرب، حيث كتب الأديب الإنجليزي روديار كبلنج: (كتاب الأدغال)، مستلهما وجوده في الهند، وكتب الشاعر الألماني غوته ديوانه: (الديوان الشرقي للشاعر الغربي)، كما كتب الشاعر الفرنسي فكتور هيجو ديوانه: (الشرقيات) . وكما تباينت مواقف أدباء الغرب في كتاباتهم تلك بين الإعجاب والاستهجان، كذلك بدأت تتشكل مواقف متباينة داخل كتاب العالم الإسلامي وأدبائه

تجاه الحضارة الغربية، بعامة، والأدب الغربي بخاصة, فهناك من ظل متشبثا بالثقافة القديمة رافضا كل جديد، ظنا منه أن ذلك يمثل نوعا من التشبث بالأصالة وحفاظا على الهوية والحصانة ضد الاقتلاع الحضاري، بينما انسلخت طائفة من أدبائنا وأقبلوا ـــــ هروبا من تقليد القديم ـــــ يقلدون كل ما ظهر في الغرب من المذاهب والاتجاهات والأفكار.

وكما عهدنا الشيخ أبا الحسن، وهو الأديب المرهف، المتعدد المواهب واللغات، ينحو نحو الوسطية في المواقف كلها، وجدناه يتخذ في الأدب موقف الوسطية الذي يبحث عن المفيد والجميل، ولا يهمه في ذلك ـــــ إن أرضى الحق ـــــ أن يغضب المحافظين والحاثيين على السواء. بل لقد كانت له اجتهادات خاصة ومتميزة في مجال الأدب، ومنها أنه كان سباقا إلى تجاوز النظرة الاستشراقية إلى الأدب العربي، حيث فتح عيون الناس على أن الأدب العربي ليس محصورا فيما كلف به المستشرقون، وقدموه لنا في تواريخهم لآدابنا (9)، بل لقد بين لنا أن عيون الأدب العربي ليست وقفا على تلك المظان المذكورة والمشهورة، وإنما أجمل الآداب وأصدقها وأبينها وأروعها ليست مبثوثة في كتب الآداب، بقدر ما هي كامنة في كتب تبدو لأول وهلة أبعد ما تكون عن الأدب، وذلك مثل كتب السيرة، وكتب التاريخ، وحتى كتب الأصول والفقه. فقد نبه مثلا، خلال اختياره عضوا في مجمع اللغة العربية بدمشق، على نظرة جديدة للأدب العربي، عندما وقف عند نص أدبي رائع أوردته كتب السيرة، وهو حديث كعب بن مالك، رضي الله عنه، وهو من الثلاثة الذين خلفوا.

كما أن كتابه: (مختارات من أدب العرب) دل على ذوق أدبي رفيع وحس مرهف ونظر جديد إلى الأدب العربي. وقد أشاد الأستاذ علي الطنطاوي رحمه الله بهذا الكتاب ومنهجه، فكان مما قال: "ولقد كنت أتمنى من قديم أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه إلى فضاء الحرية، وإلى ضياء النهار، فلا نقتصر في الاختيار على (وصف الكتاب) للجاحظ، وهو جمل مترادفة لا تؤلف بينها فكرة جامعة، ولا يمدها روح، ولا تخالطها حياة، وعلى ألاعيب ابن العميد، وغلاظات الصاحب، وهندسات القاضي الفاضل، فننفر التلاميذ من الأدب، ونكرهه إليهم!!

وكنا نقول لهم: إن البيان الحق عند غير هؤلاء، وإن أبا حيان التوحيدي أكتب من الجاحظ، وإن كان الجاحظ أوسع رواية وأكثر علما، وأشد تصرفا في فنون القول، وأكبر أستاذية، وإن الحسن البصري أبلغ منهما، وإن ابن السماك أبلغ من الحسن البصري، وإن النظر فيما كتب الغزالي في الإحياء، وابن خلدون في المقدمة، وابن الجوزي في الصيد، وابن هشام في السيرة، بل والشافعي في الأم، والسرخسي في المبسوط، أجدى على التلميذ وأنفع له في التأدب من قراءة حماقات الصاحب ومخرقات الحريري وابن الأثير." (11)

في حوار أجرته مجلة المشكاة المغربية مع سماحة الشيخ الندوي سألناه إن كان يصح أن نطلق مصطلح (الأدب الإسلامي) على النصوص الأدبية التي ينتجها الغربيون من غير المسلمين، وتتلاقى تصوراتها مع التصور الإسلامي، (وذلك أمر أثار جدلا بين أهل الأدب الإسلامي منذ أقدم الأستاذ محمد قطب على تقديم نماذج من الأدب الغربي في كتابه عن منهج الفن الإسلامي) فقال الشيخ :لا، فقلنا : إذن ما التسمية التي تقترحها لذلك الأدب؟ فقال دون تردد: (أدب صالح). هذا هو المقياس إذن، وهذا هو الميزان الذي يزن به الشيخ أبو الحسن الأدب، سواء أكان شرقيا أم غربيا: الأدب الذي ندعو إليه، والأدب الذي ندعو إلى قراءته والاستفادة منه، يجب أن يكون صالحا.الصلاح والجودة هما سر تقدم الأدب. ومن هنا لم يكن الشيخ أبو الحسن مناصرا ولا عدوا للأدب، بالنظر إلى منشئه، بل بالنظر إلى الأدب نفسه. وهو يشرح لنا سر إعجابه بإقبال فيقول: (إن أعظم ما حملني على الإعجاب بشعره هو: الطموح، والحب، والإيمان، وقد تجلى هذا المزيج في شعره وفي رسالته أعظم مما تجلى في شعر معاصر، وهي تندفع اندفاعا قويا إلى كل أدب ورسالة يبعثان الطموح وسمو النفس، وبعد النظر والحرص على سيادة الإسلام وتسخير هذا الكون لصالحه، والسيطرة على النفس والآفاق، ويغذيان الحب والعاطفة، ويبعثان الإيمان بالله والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبعبقرية سيرته، وخلود رسالته، وعموم إمامته للبشرية كلها.) (12)

وقد رأينا من قبل كيف كان ميالا إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، بل كثير من علماء الأدب أيضا. ففي يناير من عام 1986م، وفي ندوة العلماء، دار العلوم، بلكنو، أسست رابطة الأدب الإسلامي، وكان بعض مؤسسيها ممن

يعادي الشعر الحر، الذي ظهر في العالم العربي في منتصف القرن الماضي على يد نازك الملائكة، وكان يسمي ذلك الشعر (الشعر المنفلت) ويعتبره مؤامرة على تراثنا. وقد أخبرني بعض أدباء الهند، ومنهم الأستاذ عبد النور الندوي رحمه الله، أنه ظهرت هذه الحركة في الهند أيضا، وذلك بعد الجيل الذي خلف جيل إقبال. ولكن الشيخ أبا الحسن لم يكن عدوا لشيء من ذلك ما دام يحمل رسالة سامية، أو بتعبير آخر: (ما دام صالحا)، فقد يستمع لذلك الشعر، بل ويطرب له أيضا، ولذلك انضم كثير من الشعراء الإسلاميين الذين يكتبون الشعر التفعيلي إلى رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وتقوت بهم، ومنهم على سبيل المثال، ممن أفضى إلى ربه:الشاعر حسين علي محمد والشاعر عبد المنعم عواد يوسف من مصر، والشاعر محمد بنعمارة والشاعر فريد الأنصاري من المغرب، رحمهم الله جميعا.

وإذا كان الشيخ أبو الحسن يرحب بالأدب الصالح مهما كان مصدره، فإنه في مقابل ذلك كان محاربا للأدب المنحرف مهما كان مصدره. ومما لا ريب فيه أن الآداب في العالم الإسلامي في العصور الحديثة قد أصيبت بلوثة الفساد، نتيجة تأثرها بالفلسفات والمذاهب الغربية المنحرفة، ففي العالم العربي مثلا ظهر عندنا الفكر الوجودي، ممثلا في بعض الشعراء، من أمثال صلاح عبد الصبور، وفي بعض المنابر الثقافية، من أمثال مجلة (الآداب) البروتية، كما وجدت المذاهب اليسارية، بمختلف اتجاهاتها، كالشيوعية والفوضية، مرتعا خصبا في بلادنا، واغترب الأدب الإسلامي في بلاده، مما دعا الشيخ أبا الحسن إلى النهوض بمواجهة ذلك الانحراف، وكان من بين تلك الوسائل التي كان يواجه بها الانحراف، رابطة الأدب الإسلامي العالمية. يقول في (مسيرة حياة): " إن الكاتب بتأثير الأسرة والبيئة وانتمائه إلى طبقة خاصة ومؤسسة خاصة (ندوة العلماء) لم يغفل..الميول والنزعات الأدبية السائدة في عصره، ودراسة الحركات الأدبية واستعراض آثارها الإيجابية أو السلبية على النشء الجديد وأوساط المشتغلين بالعلم والأدب، والتفرس لأخطار تحرر الأدب والشعر والفكر والبحث عن ربقة الدين والأخلاق، بل معارضتها للدين ومجابهتها له، ونتائجها الخطيرة المريرة والقيام بمقاومة هذه الفتنة، وتنبيه الناس لها، لم يغفل المؤلف شيئا من ذلك، وهذا الذي حمله على قبوله لمسؤولية (رابطة الأدب الإسلامي) ورئاسته".(13)

لم يكتف الشيخ أبو الحسن بوصف ما آلت إليها الآداب من الانحدار والتردي، بل كان شأنه في ذلك شأن النطاسي الخبير الذي يبحث عن أصل الداء لاجتثاثه، والكشف عن الدواء الناجع. وهكذا ففي ندوة من ندوات رابطة الأدب الإسلامي بالهند، وصف أصل الداء، مبينا أن انحراف الأدب كان نتيجة لانحراف الفكر، فقال: " إن السبب الأكبر والأساسي لانحراف الغرب وضلاله وزيغه واختلاله، هو حرمانه من نور النبوة والرسالة، فإن النبوة وحدها هي التي تخرج الإنسان من الظن والتخمين، وتبلغه إلى الإيمان واليقينن. و لم يزل الغرب رغم جميع فتواحاته وانتصاراته المادية، وفي رحلته الطويلة في العلم، محروما من النبوة."

ثم صرح بعدذ لك "بأن القيادة العلمية والفكرية والأدبية للعالم كله من واجبات المسلمين، وهي حق للأمة الإسلامية، وماذا سيجر من شقاء وبلاء لو تخلت الأمة عن منصبها ودورها القيادي، وما تلحق بها كذلك من خسائر وأخطار" (14)

ولن يستطيع أدباء الإسلام أن ينهضوا برسالتهم الملقاة على عاتقهم إلا باسترجاع روح النبوة، تلك الروح التي تلبست محمد إقبال فأبدع أيما إبداع في شعره الحي الذي أيقظ القلوب، وأحيا النفوس وألهب المشاعر:

" لقد أصبح العالم من غزو الإفرنج وظلمه خرابا يبابا، فقم يا باني الحرم، لبناء العالم من جديد، قم من السبات العميق الذي طال أمده واشتدت وطأته". (15)

5 ـــ الوسطية في الدعوة:

سخر الشيخ أبو الحسن حياته كلها للدعوة إلى الله، وهو يستحضر قوله تعالى: "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك" (آل عمران:159)، فكان لين الجانب مع الأولياء، دمث الخلق مع الأعداء، عاش في بيئة تضم الملل والنحل المختلفة، هي الهند، فتوجه بدعوته لا إلى المسلمين وحدهم، بل إلى عموم سكان الهند. وقد أدرك أن المسلمين، ولاسيما بعد انفصال باكستان عن الهند، صاروا من الأقليات (ويسميها أبو الحسن "الأقلية الكبيرة" كما في مسيرة الحياة:3\63)، في مقابل الهندوس الذين ظهرت فيهم حركات متطرفة تسعى إلى طرد المسلمين من الهند، فخاطب جميع الفئات، باعتبار المصلحة الوطنية، ومن هنا فإنه كانت هناك حركة في العالم العربي والإسلامي، الذي لم يشهد تعدد المذاهب

والأديان، تهاجم العلمانية، وترى أن دعاة العلمانية يريدون فصل هذه الأمة عن دينها ومقوماتها، ولكن الشيخ أبا الحسن كان يرى أنه لا سبيل للمسلمين في الهند إلى المحافظة على كيانهم إلا العلمانية، وهو ما لم يستوعبه بعض الدعاة، ولاسيما في العالم العربي، أو لم يستوعبوه على الأصح إلا في هذه الفترة التي تسمى بفترة الربيع العربي. أما الشيخ أبو الحسن فقد أعلن بكل وضوح، وفي أكثر من مناسبة، وفي أكثر من موضع، أنه لا سبيل إلى المحافظة على الوجود الإسلامي في الهند إلا العلمانية. ففي 6 أكتوبر 1991 انعقدت ندوة برئاسته، تحت إشراف جمعية المثقفين المسلمين لعموم الهند في مدينة لكنؤ، ألقى فيها كلمة، وضرب مثلا برجل ثريّ ورّث ولده حديقة، وأوصاه بعدم اقتلاع شجرة بعينها، فلم يحفظ الوريث الوصية، فلدغته حية.ثم قال:" وهذه الحكاية تنطبق على العلمانية، وهذه أهميتها في الهند، فلو اقتلع أحد هذه الشجرة التي تصون البلاد، وتحفظها من الويلات الكثيرة، واقتلعت معها شجرة (اللاعنف)، لابتلعت الهند حيات التطرف والإرهاب والعصبيات والطائفية، ولن يبقى شيء".(16)

وانتصارا لفكرة دعوة عموم أهل الهند، بغض النظر عن الدين أو المذهب، أنشأ الشيخ أبو الحسن حركة مباركة، هي (رسالة الإنسانية) وذلك في عام 1951م، وكان يعقد لها الندوات والمؤتمرات، ولأنها كانت دعوة وسطية كان يشارك فيها وجهاء وأعلام من طوائف غير مسلمة ، بل ويتولى رئاسة بعض حفلاتها كبار الهندوس. يقول الشيخ أبو الحسن: "لقد كنت مع نشاطاتي العلمية، وانشغالاتي العلمية والأدبية، ورحلاتي الداخلية والخارجية، لا تزال هذه الحقيقة ماثلة أمام عيني: أنه لا يجوز التغاضي ، في البلاد التي قررنا أن نعيش فيها ونسكنها، عن تقدير الوضع الصحيح والنزعات الهدامة المثيرة والأخطار المستقبلية، ولذلك كان يستولي علي دائما التفكير في نشر (رسالة الإنسانية)، والقيام بدعوتها على النطاق الواسع، وقد كانت هناك قبل ذلك جولات دعوية في هذا الصدد... وكانت لها نتائجها الطيبة المشجعة، ونظم برنامج جولة في مارس عام 1985م لمنطقة (بنديل كهند)... وكان من خصائص هذه الجولة أن فضيلة الشيخ السيد صدّيق أحمد البانْدَوي...كان يرافقنا في السفر، ويحاول جهده في إنجاح هذه المهمة ومساعدة هذه الجولة

بتأثيره الديني والخلقي ومكانته الاجتماعية وشخصيته المخلصة المحببة، فكان يتقدمنا كرائد، وينظم إقامتنا ويضع برنامج الاحتفالات والندوات، وقد رأس الاحتفال في "بنا" أميرها الهندوسي، وأبدى انطباعاته الطيبة...ورأس الحفل في "سيدهي" الدكتور سون سنغ، وهو أخو "أرجن سنغ" كبير الوزراء لولاية مدهية براديش سابقا وحاليا، جاء من "ريوا" لرئاسة الحفل، وأسندت رئاسة الحفل في "ستنا" إلى الدكتور "راهو" رئيس قسم العلوم." (17)

ولقد كانت (رسالة الإنسانية) واجهة من عدة واجهات يشتغل من خلالها الشيخ أبو الحسن، ويبلغ دعوته إلى الله عز وجل.

وقد كان رحمه الله وسطيا في دعوته، سواء أكان الخطاب موجها إلى الطبقات الشعبية أم إلى الطبقات الحاكمة. وإن أسلوب الحكمة المتبع هو الذي أدى إلى إسلام قرية كاملة من المنبوذين. (18)

على أن هناك أمرا مهما نبه عليه الشيخ أبو الحسن، والناس عنه غافلون، وهو كيفية التعامل مع المسلمين، ممن ابتلوا بتبني أفكار هدامة، وممن فتنوا ببعض المذاهب الفكرية والأدبية المخالفة لروح الإسلام، فراحوا يصدرون عنها فيما يكتبون، ويبشرون بها فيما ينشرون، وهم بصفة عامة يحتلون مواقع ذات أهمية كبيرة في الحياة العامة. وهم يمتلكون زمام كثير من المؤسسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ويتحركون من خلال كل ذلك لتشكيل الوعي الجماهيري بما يناسب تصوراتهم وأفكارهم.. ولقد وقف بعض دعاة الفكر والأدب الإسلامي من هؤلاء موقفهم من الأعداء، مما ولد رد فعل عنيفا عند أولئك، وراحو يتهمون، ليس المسلمين فقط، بل الإسلام نفسه بتهم التخلف والرجعية والانغلاق والانعزالية والتطرف وما إلى ذلك من الأوصاف المجافية لروح الحق. أما أبو الحسن فقد نظر إلى هؤلاء على أنهم مسلمون غافلون، فهم بحاجة إلى من ينبههم ويردهم إلى صفوف الأمة ردا جميلا، وذلك ما لا يكون بالقطيعة معهم، بل بالاتصال بهم، ومخاطبتهم على أنهم جزء من الأمة، وعلى أنهم قوة يجب استثمارها بالشكل الذي يخدم الأمة. يقول: " لابد من تفكير هادئ عميق، كيف نرد الطبقة المثقفة التي تحتكر الحياة، وتمتلك الزمام، إلى الإسلام

من جديد، وكيف نبعث فيهم الإيمان والثقة بالإسلام، وكيف نحررها من رق الفلسفات الغربية والعصرية ونظرياتها اللادينية؟" (19)

كم كنا سنوفر على أنفسنا من الجهد لو وعينا هذه الدعوة وعملنا بها؟ كم كنا سنربح من الجنود الذين سينضمون إلى صفوف الأمة، بدلا من أن يبقوا نهبا للفلسفات الغربية، حتى صار بعضهم (طابورا خامسا) لتلك الفلسفات الغربية، على غير إرادة منه؟ وما حجم الخير الذي كنا سنجنيه لو جادلناهم بالتي هي أحسن، ولم نتزلق ـــ كما حدث لبعضهم ـــ إلى مهاوي التفسيق والتكفير، فأعنا الشيطان على إخوة هم منا ونحن منهم؟

6 ـ الوسطية في السياسة:

هذا مجال فيه كثير من المحاذير، ولذلك اعتبر بعضهم، عن إخلاص، أن السياسة رجس من عمل الشيطان، فاجتبوا كل شيء له صلة بالسياسة، وما علموا أنهم بذلك يعتزلون الحياة نفسها، ولا شك أن الإخلاص هو المنطلق، ولكن الإخلاص ينبغي أن يكون مقرونا بأن يكون العمل صوابا.

أما أبو الحسن فقد كان له في السياسة صولات وصولات، ولكن من منطلق الداعية، لا من منطلق السياسي المحترف. فلذلك كان يلتقي بالزعماء السياسيين والحكام، ويكاتبهم، وينصح لهم، ولكن برفق ولين. ولو رجعنا إلى سيرته (في مسيرة الحياة) لتبين لنا عدد الزعماء والرؤساء والملوك الذين التقى بهم ناصحا. (20)

وكان رحمه الله يلخص فلسفته في دعوة الحكام إلى الإصلاح في كلمة طالما كان يرددها، وهي: "نحن نريد أن يصل الإيمان إلى أهل الكراسي، لا أن يصل أهل الإيمان إلى الكراسي" (21) وقد سمع أبو الحسن هذه الحكمة من أحد حكماء اليمن، والحكمة يمانية، ومنذ ذلك الحين اتخذها شعارا ومنهجا، حيث وجدت في نفسه قبولا واستجابة وانسجاما مع ما كان يومن به، ولأنه المنهج الذي كان يتبعه الإمام السرهندي، وهوالإمام الذي كان أبو الحسن يكن له تقديرا عظيما. (22)

إذا كان صحيحا أن السياسة هي فن الممكن، وإنه لصحيح، فإن أبا الحسن الندوي سياسي من الطراز الأول. فالناس من السياسة أحد رجلين: إما رجل يرى السياسة رجسا

من عمل الشيطان، فهو يعتزلها بكل صورها، ويهرب منها أي مهرب، وإما رجل يراها سلما للارتقاء إلى منصب الحكم، وإلى الحصول على جاه دنيوي عارض، وإن رآه عريضا، فهو يأخذها بكل ما تتصف به من ضروب المكر، أو يسعى إلى غايته عن طريق مبدأ ميكيافيللي (الغاية تبرر الوسيلة)، فلا يراعي في ذلك أخلاقا ولا أعرافا ولا قيما.

ولكن هنالك صنفا ثالثا يرى السياسة منهجا للإصلاح، يقوم على الرفق والنصح، ويسعى إلى استنبات النموذج المثالي في الواقع بالحكمة والموعظة الحسنة. فقد كان رجاء ابن حيوة معينا لعمر بن عبد العزيز على اتباع طريق الصلاح، والشيخ أبو الحسن من هذا الصنف. وهنا ينبغي أن نذكر بما قررناه، وهو أن الوسطية التي هي فضيلة بين رذيلتين، لا تعني دائما الوقوف في وسط الطريق، بين الظلمة والنور، وبين الخير والشر، بل هي النور والخير، وهي تعني العدل والقسط، فأيما طريق حقق لنا العدل، فذلك هو طريق الوسطية، حيث لا منزلة وسطى بين الجنة والنار.

لقد كنت في ريعان الشباب ممن يرى أن القوة ـــــ وربما الثورة الدموية ـــــ وحدها السبيل إلى تحقيق الغايات، وإصلاح ما فسد من أوضاع الأمة، السياسية والاجتماعية والاقتصادية والخلقية، وكان ذلك من فعل تأثير حياتنا الجامعية التي كانت تسودها شعارات الثورة الحمراء، والعنف الثوري، لذلك وقفت، كما وقفت معظم الحركات الإسلامية، مع الثورة الإيرانية التي قادها الخميني، باعتبارها ثورة إسلامية. ولكنني عندما التقيت بشيخنا أبي الحسن، تعلمت منه شيئا كثيرا. وقد كان موقفه واضحا من الثورة الإيرانية، ورؤيته ثاقبة، في وقت ضلت فيه العقول والأحلام، وزلت فيه الأقدام. لقد قال لنا رحمه الله عندما لقيناه في لكنهو عام 1986، وقد سألناه: ما الذي يمنع من مؤازرة الثورة الإيرانية؟ فكان جوابه: إذا كنا سننتصر لها لأمر واحد فقط، وهو أنها أعلنت الوقوف ضد الاستكبار العالمي (وهذه عبارته رحمه الله تعالى) فما الذي يمنعنا من الوقوف مع كوبا مثلا، وهي تقف ضد الاستكبار العالمي منذ عقود؟ إن الميزان عندنا هو العقيدة. فهل هي حقا ثورة إسلامية؟ في تلك الفترة كان رحمه الله قد كتب كتابه القيم: (صورتان متضادتان:السنة والشيعة)، وقد بين في هذا الكتاب الفرق الجوهري بين السنة والشيعة، وقد كان بعض أهل السنة من

المناصرين للثورة الإيرانية يتذرع ويقول إن الخلاف بين الطائفتين خلاف تاريخي فقط، ولم يعد له وجود الآن، لأن المصحف الذي يوزع في طهران اليوم هو نفسه الموجود في بقية أنحاء العالم. ولكن الأيام، ولاسيما في الأحداث الأخيرة التي يشهدها العالم العربي، أثبتت أن الخلاف أعمق من أن يكون تاريخيا(23).

وعلى الصعيد العملي، أشار الشيخ أبو الحسن، في كلمة ألقاها في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي العام الثالث، الذي انعقد في 1987 إلى أن (من إعجاز القرآن أنه أشار إلى نوع جديد من الهجوم والغزو على البلد الأمين، والبيت العتيق، لم يجربه العرب في العصر الجاهلي وفي زمن البعثة، وهو حرب المؤامرات والدعايات والدعوة إلى إثارة الفتن)، ووضح ذلك قائلا: (وأشرت في ذلك إلى الاستراتيجية الإيرانية العقائدية والسياسية، التي ظهرت طلائعها في موسم الحج الماضي، وقلت: إن العرب لم يكونوا يعرفون إلا الحرب السافرة والهجوم العلني، والذي كان من نماذجه غزو أبرهة بجيشه مكة، الذي جعله الله هباء منثورا، أما إرادة الإلحاد بظلم فلم يعرفها العرب، وأنذر بها القرآن الكريم وهدّد عليها بقوله: (نذقه من عذاب اليم)، وهو مصير هذه المخططات الرهيبة الدقيقة التي يفكر فيها المقنعون بالإسلام، الهاتفون بقيام دولته ومجده كذبا وزورا". (24)

يقول: د.محمد أكرم الندوي:" لم يهتم الشيخ الندوي بالسياسة كأحد لاعبيها فقط، ولكنه عاش الأوضاع السياسية للمسلمين في الهند والعالم العربي والإسلامي يتأثر بها ويستوحيها، ويقوم بإسداء التوجيهات والنصائح للمسلمين.

يرى الشيخ الندوي أن السلطة نتيجة لا غاية، وكان يرشد الجماعات الإسلامية إلى ان تجعل غاية سعيها وعملها الدعوة إلى الله، كما كان يؤكد أن الهدف من إقامة حكم إسلامي هو الهداية وليس الجباية، وكتابه (التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات المودودي وسيد قطب) يترجم عن موقفه من الفكر السياسي الإسلامي" (25).

وللشيخ أبي الحسن رسالة "بين الجباية والهداية"، وهي رسالة كتبها في الحجاز.قال رحمه الله:" كتبت هذه الرسالة بعضها في مقري وبعضها على الحافلة التي تنقلني مع الركاب من مكة إلى جدة، وبعضها على الميناء في انتظار الباخرة، ثم سلمتها إلى الشيخ عبد الله

البياوي المقيم في مكة المكرمة، الذي بلغها إلى الشيخ عمر بن الحسن، وعلمت فيما بعد برسالة منه إلي انه قرأها على الأمير سعود". (26) وهذه الرسالة كان من مبادئها وأصولها الدعوة إلى إصلاح ما بدأ يظهر في البلاد العربية، ولاسيما في جزيرة العرب، من فساد. يقول: "لقد لاحظت في إقامتي الطويلة في الحجاز ـــــ في تجربة دارس للقرآن ولهم بالتاريخ ـــــ المرحلة الانتقالية التي هي من أدقّ مراحل الشعوب والبلاد ، وكيف بدأ البلد يحذو حذو البلد النامي الذي تشيع فيه الرفاهية والرخاء، وتتغير أوضاعه بسرعة، ويقفو أثر بلاد مصر والشام والعراق التي تتزعم التحرر والانطلاق، ويقلد البلدان الغربية التي لا وازع لها من خلق ولا دين، وكل ذلك إنما هو نتيجة تخلي هذه البلاد عن تلك الدعوة والحركة التي قامت لإصلاح العقيدة وإشعال العاطفة الدينية، فتحقق بفضلها ما لم يكن يتصور، وأصبح بها المستحيل ممكنا، فقامت دولة تستطيع ـــــ إذا أراد الله ـــــ أن تعيد التاريخ على أعقابه، وتحقق من تكوين المجتمع الإسلامي المثالي ما كان يحلم به المعنيون بالإسلام، والذي هو من أشد حاجات العصر). (27)

وهكذا نجد أبا الحسن دائما يبشر ولا ينفر، ويُطمعُ من يتحدث إليه من الحكام في أن يضطلع بمهمة إعادة مجد الإسلام. ولكن هذا لا يمنعه من أن يحذر من مغبة الانزلاق إلى الشهوات، والانحراف عن منهج الله تعالى، والركون إلى الترف والإسراف، والجحود بنعمة الله، فإن ذلك من أهم أسباب زوال النعم، وإحلال النقم. يقول متمما كلامه عن أرض الحجاز: " ولكنها منيت ـــــ على مرّ الأيام ـــــ بمشاكل ومحن، تمنى بها الحكومات الناشئة، من ضعف الدعوة والحسبة الدينية، وفقد القدوة الصالحة، وسيطرة الدوافع الاقتصادية والاستغلالية على الجهاز الإداري، وما قدر الله أخيرا من التضخم المالي، والعثور على منابع الثروة وأسباب الرخاء، فكانت تلك نتائج طبيعية منطقية نفسية، يقررها القرآن في إيجازه وإعجازه، ويشهد به تاريخ الحكومات والمجتمعات في حدوده وأسلوبه". (28)

لعله يتبادر إلى الذهن أن هذه النصائح التي كان الشيخ يقدمها إلى حكام الحجاز، وينتقد من خلالها مظاهر التغريب والانحراف التي بدأت تفرض سلطانها على تلك البلاد ، قد تجعله مائلا في مواقفه السياسية إلى خصومها، مثل ما حدث لغيره، عندما وقعت كارثة

احتلال الجيش العراقي للكويت. فقد سارعت جهات عدة، حكومية وغير حكومية، إلى مساندة حاكم العراق آنذاك، وكان من يبن هذه الجهات منظمة التحرير الفلسطينية، وكذلك كان شأن بعض الحركات والشخصيات الإسلامية (29)، وزلت الأقدام مرة أخرى، وزاغت الأفهام، ولكن الشيخ أبا الحسن وقف موقف الحكيم، مستنكرا ما سيجره ذلك الموقف الأثيم على الأمة من الهزائم والمصائب المنكرة. فقد اعتبر الغزو العراقي للكويت مأساة، "نكس رأس الملة الإسلامية بكاملها" (30)، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يصور ما آلت إليه الأمور في دول الخليج من انهيار في الأخلاق، وانغماس في حياة الترف، حيث أشار إلى حياة الترف والبذخ، ودعا إلى هجرها. (31). وفيما يلي بعض مما كتب في سيرته عن ذلك الحادث الأليم : "وقصرت في المقال الذي قدمته في هذا المؤتمر على الإشارة إلى هذا الغزو اللاديني واللاخلقي واللامبدئي، الذي جاء في غير أوانه، وفي غير مكانه، وبدون أي مبرر له، والذي يتنافى مع الضمير الإنساني ، ومبادئ الأخلاق العامة، والقوانين الدولية ، فضلا عن التعاليم الإسلامية السامية النبيلة ، وأكدت بالإضافة إلى ذلك على ضرورة إيقاظ الوعي الديني ، وإنشاء الحركات الإصلاحية ، وأشرت إلى حياة البذخ والترف ، ودعوت إلى هجرها."

وأضاف قائلا: " ولم يكن يناسب لي في هذا الوقت القصير، وفي هذا الجو الذي يسوده الحزن والكآبة، وفي هذا البلد الذي يملأ أرجاءه القلق والاضطراب ـــــ أن أتعرض لنقد المجتمع الذي يوجد فيه العالم العربي والإسلامي ، ولاسيما المملكة العربية السعودية، من الناحية الدينية والخلقية ، والحديث عن الواقع بالتفصيل والصراحة ، أو أشير إلى مواطن الضعف في الحياة لهذه الدول العربية الإسلامية ، لأنه يزيد العالم العربي ألما ، ويكون بمثابة إثارة جرحه وآلامه ، ويبرر للمعتدي اعتداءه ، وللمؤيدين تأييدهم ، وقد كنت جربت ذلك في بلادي". (32)

هكذا إذن يتبين كيف أن الشيخ أبا الحسن الندوي كان في قلب الأحداث السياسية، يعيشها، ويسهم في توجيهها، ويدعو إلى ما يصلحها، ويعين الذي يريد الإصلاح على ما

يريد، ويحذر من مغبة الفساد والانحراف، وتلك هي مهمة الداعية المحتكم إلى الوسطية، والمتصف بالحكمة. (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا) "البقرة: 269".

خاتمة:

تتعدد مناهج الحركات الدعوية، وتتباين طرق إصلاح المصلحين، إلا أنه لا يماري أحد من أهل الحق والخير في أن الوسطية هي الطريق اللاحب، وهي المنهج الواضح الذي يعبر أصدق تعبير عن روح الإسلام.

ولكننا عند التطبيق العملي قد نجد بعضا من التباين بين الدعاة أو الحركات. وعلى الرغم من الإقرار بشمولية الإسلام، إلا أن هنالك من قد يغلب جانبا على جانب، كأن يغلب الجانب الفكري التنظيري على الجانب العملي التطبيقي، فنجد مثلا تضخما في الأنشطة العامة، وضمورا في الجانب التعبدي، أو نجد عناية فائقة في السمت، وتساهلا في الروح، فقد يحدثك المرء باستفاضة عن مقومات الفكر الإسلامي، ثم تراه ينجر في سلوكه إلى ما ينافي روح الإسلامي، كالوقوع في الغيبة أو النميمة، وهو لا يكاد يرى أن ذلك شيء جلل.

وبعض الحركات الإسلامية تقصر عملها على التربية الروحية، وترى العناية بالجانب الفكري أو السياسي من فضول الاهتمامات، وأخرى ترى الإسلام كله في الخدمات الاجتماعية لا تتعداها. صحيح أن هنالك من يرى ـــ عن حق ـــ أن الشمولية لم تتأت إلا للجيل الأول من الصحابة، وأن الشمولية اليوم لا تتحقق إلا من خلال أعمال كل العاملين للإسلام، إذ هذا يعنى بالروح، وذاك يعنى بالفكر، والثالث يعنى بالجمال..وهكذا يكمل بعضنا بعضا.. ولكن بعضا ممن آتاهم الله الحكمة عرفوا كيف يتحققون بتلك الشمولية، مع الاحتكام إلى الوسطية في كل جانب من جوانب حياتهم، ولعل هذا ما سعينا إلى تبينه من خلال شخصية الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى، بالوقوف على العناصر الستة التي مثلنا بها على هذا الأمر، وعسى أن يكون قد تحقق بعض مما التمسناه غاية، والله الموفق للصواب.

هوامش:

---

(1) الرسالة المحمدية، للسيد سليمان الندوي، دار القلم، دمشق، 2005، ص.240

(2) ذلك أمر شهدته بنفسي، على مدى السنوات التي عرفت فيها الشيخ الندوي رحمه الله. فقد كنا نلتقي، في مؤتمرات رابطة الأدب الإسلامي، في تركيا والمدينة المنورة ومصر وغيرها، وكنت أنا أمين الرابطة العام، فكان يؤثر الزهد والتواضع ومرافقة المساكين. وأذكر أنه في المدينة المنورة كنا نترل في فندق من فنادقها، وكان هو يؤثر مرافقة فقراء الهند في مساكنهم، فإذا كان وقت الاجتماع التحق بنا. ورغم أنه كان يترل ضيفا على رجل اسمه محمد نور عبد الغني نور ولي، وذكره في مسيرة الحياة(393/1)، وقال عنه: (مضيفنا القديم)، وكان الرجل صاحب فندق، إلا أن الشيخ أبا الحسن كان يفضل مساكن أهل الهند المتواضعة. فكان بذلك يحقق ما يريد من العيش في تواضع، ويمكّن أولئك الذين يترل ضيفا عليهم من الاستفادة من علمه وعمله، إذ العلم عنده مقترن بالعلم، امتثالا لقوله تعالى: (أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين يعلمون،إنما يتذكر أولو الألباب) "الزمر:9"، فالعلماء حقا هم الذين يتوجهون إلى الله عز وجل في جوف الليل بالتضرع والقيام.

(3) مما روى لي بعض من لا أتهم ان الشيخ أبا الحسن كان مدعوا في بيت من بيوت بعض الوجهاء، فقُــدّم للضيوف من أصناف الطعام ما لذ وطاب. ولكن الشيخ الحكيم التفت إلى أمر ذي أهمة قصوى، وهو الوقت الذي تقضيه النساء في إعداد تلك الموائد، فالتفت بأدب جم إلى المضيّف وقال: " متى تذكر نساؤكم الله تعالى؟"

(4) أبو الحسن الندوي، الداعية الحكيم، والمربي الجليل:دار القلم، دمشق، ، 2001 ، ص.19

(5) ربانية لا رهبانية، طبعة دار القلم بدمشق، ص.26، ضمن سلسلة كتب قيمة، رقم 37، وقد نقل النص د.محمد اجتباء الندوي في كتابه السالف الذكر، ص.120

(6) د.محمد اجتباء الندوي، مرجع مذكور، ص.12 ــ 13

(7) كان رحمه الله يكرر على مسامعنا: (إن الشيء من معدنه لا يستغرب)، وكذلك نحن لا نستغرب موقف شيخنا رحمه الله، لأنه جاء من معدنه.

(8) يراجع الفصل الرابع من كتاب أبي الحسن : (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين).

(9) تنظر رسالة (إلى الإسلام من جديد:186 ــ 187) وكتاب د.اجتباء الندوي الآنف الآذكر.

(10) في مسيرة الحياة:81/2

(11) مقدمة كتاب (المسلمون في الهند)، ومخارات من أدب العرب، ص 6، عن كتاب د.اجتباء الندوي الآنف الذكر، ص 146 ــ 147

(12) روائع إقبال، طبعة دار القلم، دمشق.ص 9، وأورده أكثر من واحد ممن ترجم لإقبال.

(13) مسيرة حياة: 2 \ 159. وهذا الذي أشار إليه أبو الحسن، من تجاوز الأدباء مرحلة التحرر من الدين إلى مرحلة معارضة الدين، قد نظّر له بعض الأدباء الغربيين، ومنهم الوجودي ألبير كامي Albert Camus من أنه يجب الانتقال من (اللادين) non-religion إلى مرحلة (مناهضة الدين) anti-religion.وقد طبق ذلك بعض أدباء العالم الإسلامي، دون حاجة إلى تنظير.

(14) نفسه:167

(15) بيت لإقبال، أورده الشيخ ابو الحسن في آخر كلمته المشار إليها.

(16) في مسيرة حياة: 3 \ 131

(17) في مسيرة حياة: 2 \ 79 ــ 80

(18) نشرت الخبر جريدة (الرائد) في أحد أعدادها، في ثمانينيات القرن الماضي، وذكرت أن من أسباب إسلامهم أن سماحة الشيخ شرب من الإناء نفسه الذي شرب منه بعض المنبوذين، وهو ما لم يعهدوه من الطبقات الأخرى.

(19) إلى الإسلام من جديد:186 ــ 187. (نقلا عن د.اجتباء الندوي، مرجع مذكور،127)

(20) في عام 1994م عقد في مدينة وجدة بالمغرب الملتقى الدولي الأول للأدب الإسلامي، وقد سلمني الشيخ أبو الحسن رحمه الله تعالى عددا من الرسائل اللطيفة، وطلب مني تقديمها إلى الملك الحسن الثاني رحمه الله، وكان قد التقاه من قبل أكثر من مرة، ولكنه كان في كل مرة، كما صنع مع كثير من الزعماء، لا ييأس من تذكيرهم بما ينتظرهم من مسؤوليات تجاه أمتهم. وفي كتابه: (أسبوعان في المغرب الأقصى)، ذكر أنه في رحلته التي كانت في عام 1976، التقى الملك الحسن الثاني الذي أقام على شرفه والوفد المرافق له مأدبة ملكية في مراكش، فألقى سماحة الشيخ كلمة، كان مما قال فيها: " إنني أسعد بتبليغ رسالة إليكم عن العالم الإسلامي، أراها أمانة في عنقي ومسؤولية على عاتقي، وهي أن المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها ينتظرون بفارغ الصبر أن يطلع من أفق العالم الإسلامي نجم جديد، يعلقون به آمالهم، إنهم يعيشون وضعا مرديا عصيبا عجيبا، يحتاجون فيه إلى قائد عصامي، مؤمن ألمعي، يمتاز بإخلاصه ويقينه، وعزمه الراسخ وقلبه الواثق، وقد صور القرآن هذا الوضع تصويرا بينا معجزا فقال: (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا الا ملجأ من الله إلا إليه)"التوبة:118".

إن المسلمين يعيشون مثل هذا الوضع ولا يرون ملجأ من الله إلا إليه، وقد كان يطلع من أفق العالم الإسلامي في الماضي شخصية عملاقة عصامية، تحول مجرى التاريخ، لكن ذلك يحتاج إلى الإيمان والإخلاص، والشهامة والغيرة، وصدق الولاء والوفاء، وإنما ينهض بذلك من يريد أن يخدم الإسلام ويرضي ربه، ويقنع ضميره، ويؤدي مسؤوليته ساميا عن الأغراض السياسية والأغراض الشخصية، وكان الناس

يتطلعون في هذا العهد الأخير إلى والدكم العظيم السلطان محمد الخامس، ولكن لم يمهله الأجل، ومن يدري إذا كان الله قد كتب لكم هذا الشرف، ويريد أن يسوق إليكم هذه السعادة". وانظر أيضا: رحلات العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي، جمعها ورتبها وعلق عليها سيد عبد الماجد الغوري، دار ابن كثير، دمشق ـــ بيروت 2001، ص 448

(21) في أحد مؤتمرات الرابطة ذكر الشيخ أبو الحسن هذا الشعار، ثم أضاف: " إن حاكما عربيا ذكر لي أنه على استعداد ليحطم الكرسي وما فيه على أن يسلمه لغيره، كناية عن تدمير كل شيء من أجل الحفاظ على السلطة". وقد دفعني الفضول وحب المعرفة إلى تبين صاحب هذا القول، فلما خلوت إلى سماحته وسألته عن صاحب القول أجاب دون تردد: إنه حافظ الأسد. وبقيت معه ساعة، فلما ودعته قال لي: (خدا حافظ)، ثم قال: أفهمت ما قلت لك؟ قلت: نعم، حفظك الله، وهي كلمة التوديع عندكم، فابتسم رحمه الله.

وقد دلت الأحداث التي ما تزال قائمة منذ 2011 حتى الآن على صدق هذا الشعار.

(22) في مسيرة الحياة:2، ص . 23، وكذلك ص.55

(23) مما رواه لي سماحته رحمه الله شخصيا، أنه قال: (كنت أطوف حول الكعبة مع الخميني، فسمعته يدعو ويقول: "ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان" ثم يتوقف، ثم يكرر الدعاء دون أن يتم الآية الكريمة، فاقتربت منه وقلت: "ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا"، قال: فكأنني طعنته.

(24) في مسيرة الحياة:210/2

(25) أبو الحسن الندوي، العالم المربي والداعية الحكيم: د.محمد أكرم الندوي، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى 1427 ـــ 2006، ص.155 ــ 156

(26) رحلات العلامة أبي الحسن الحسني الندوي، مرجع مذكور، ص.31

(27) نفسه: ص.30

(28) نفسه

(29) كنت يومذاك (أي في شهر أغسطس 1990) في الخرطوم، وزرت كلا من المشير سوار الذهب، والدكتور حسن الترابي. وقد كان الترابي من أشد المتحمسين لموقف حاكم العراق آنذاك.

(30) في مسيرة الحياة"84/3

(31) نفسه

موقف الندوي من عرض الدعوة الإسلامية

د/ سراج الدين الأسرع ابن بلال
مدير أكاديمية عناية الله العالمية، نيجيريا

كان –رحمه الله تعالى([i])- كثيرا ما يتمنى أن يفهم المسلمون أنهم في حالة الطوارئ, ويقول:"إنني أريد أن أقول لكم مرة ثانية:هذه الحياة التي نعيش في البلاد العربية,هذه الحياة اللاهية المترفة,هذه الحياة المتعامية عن الحقائق,الحياة التي تستند دائما إلى الملاهي وتوافه الأمور وهذه الحياة التي قد غلب فيها الهزل على الجد,اسمحوا لي أن أقول بصراحة,هذه الحياة قد غلب فيها الجبن على البطولة,هذه الحياة فد علب فيها حب المادة-إذا قلت لكم على حب الله ورسوله,وعلى حب المال في سبيله,فأني لا كون مبالغا مجازفاً في القول-هذه الحياة التي إذا رآها إنسان من بعيد,إذا زار إنسان بلد عربياً,ورأى هذه المهازل, ورأى هذه الملاهي,ورأى هذه الأغاني في حالة الطوارئ وأنهم سمعه وبصره,هل الذي يراه حقيقة أم خيال؟إننا نعيش في حالة الطوارئ,كان الأحرى بالبلاد العربية,والعواصم العربية أن تكون كلها في حالة الطوارئ ليلا ونهارا,كله جد,كله لباب,كله تقشف,كله استعداد, كله حذر وإشفاق, لولا هذه العقيدة الكريمة التي نلتقي عليها, ولولا أن مصيرنا مرتبط بمصيركم, ومقدار ذلكم ندل,ومقدار شرفكم تتشرف[(ii)]".

أما موقفه من الوسطية فالشيخ الندوي عالم وسطي المذهب وكان اتباعه وتبنّيه للمنهج الوسطي في دعوته وفي تعامله إنما ذلك نابع عن إيمانه بالله وحبه لرسوله الكريم –صلى الله عليه وسلم-واقتدائه بصحابته الكرام-رضوان الله عليهم- الذين عرف عنهم الرحمة والرأفة

([i])ذكر الكاتب قبل هذا نبذة عن حياة الشيخ الندوي ومكونات شخصيته وصفاته وثناء العلماء عليه وأهم مؤلفاته، وقد ذكر الكاتب أشياء قيمة إلا أننا حذفناها اجتنابا للتكرار وتقليلا لصفحات الكتاب وأيضا لتوفر كتب كثيرة في سيرة الإمام الندوي يستطيع أن يراجعها من يريد أن يطلع على سيرته

(ii)كتاب "تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا" ,للندوي,طبعة دار عرفات,ص:20.

في التعامل بينهم وحب الخير للآخرين, وكان الشيخ الندوي متصفا بصفات هؤلاء السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم, يقول الشيخ القرضاوي–حفظه الله تعالى-:" ومن عاشر الشيخ ـــ ولو قليلا ـــ لمس فيه هذا الخلق الرضي، ووجده مثالا مجسدا لما يدعو إليه، فسلوكه مرآة لدعوته، وهو رجل باطنه كظاهره، وسريرته كعلانيته، نحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا نزكيه على الله عز وجل. ومن هذه الأخلاق الندوية: الرِّقّة، والسماحة، والسخاء والشجاعة، والرفق، والحلم، والصبر، والاعتدال، والتواضع، والزهد، والجِدُّ، والصدق مع الله ومع الناس، والإخلاص، والبعد عن الغرور والعُجْب، والأمل والثقة والتوكل واليقين والخشية والمراقبة، وغيرها من الفضائل والأخلاق الربانية والإنسانية(i)". ولا شك أن من اتصف بهذه الخصال المباركة كان ديدنه إرادة البناء لا إرادة الهدم، وكذلك جمع الشمل لا تفريقه مرفقا بالناس لا مشددا عليهم.

موقفه من الخطاب إلى الملوك والرؤساء والوزراء :

وكان –رحمه الله تعالى– يقيم العلاقة مع ملوك ورؤساء المسلمين, وربما زارهم وناصحهم, وبعض مؤلفاته تحمل خطابات موجهة صريحة وضمنية إلى حكام المسلمين.

ومن الدول التي له علاقة طيبة بحكامها المملكة العربية السعودية والأردن والباكستان والإمارات والمغرب, وله رسائل وإرشادات وجهها إليهم(ii).

كما كانت له –رحمه الله تعالى- رسائل خاصة لبعض حكام العالم الإسلامي يدعوهم فيها إلى التمسك بكتاب الله والعودة إلى سنة نبيه–صلى الله عليه وسلم-, وكان قد شارك علماء المسلمين في مراسلة بورقيبة حاكم تونس الأسبق لما قال كلمته القبيحة عن القرآن الكريم, فاجتمع المشايخ عبد العزيز بن باز وحسنين محمد مخلوف، وأبو الحسن علي الحسني الندوي، وأبي بكر محمود جومي، والدكتور محمد أمين المصري، -رحمهم الله جميعا-

(i) موقع الشيخ القرضاوي, "http://qaradawi.net/component/content/article/6452.html" .

(ii) ينظر: "السيد أبو الحسن الندوي حياته وإسهاماته العلمية",ص:64.

بإرسال برقية وذلك بتاريخ 1394/4/16 هـ، هذا نصها[i]: "السيد الحبيب بورقيبة، رئيس الجمهورية التونسية – تونس.

نسبت إليكم صحيفة "الشهاب" بعددها الصادر بتاريخ 23/ربيع الأول/ تصريحات مكفّرة لما فيها من الطعن في القرآن الكريم، والمصطفى صلى الله عليه وسلم، ودعوتكم لرجال التعليم لنشرها بين الطلاب. فإن كنتم قد اقترفتموها، فالواجب عليكم المبادرة إلى التوبة والعودة إلى الإسلام، والأوجب عليكم المبادرة إلى التكذيب الصريح، ونشره في العالم بجميع وسائل النشر، وإعلان عقيدتكم الإسلامية الصحيحة في الله تعالى وكتابه ورسوله، تبرئة من الكفر، وتسكينا للفتن، وتطمينا للمسلمين في سائر الدول، وتقريرا لصلاحيتكم لحكم أمة إسلامية عريقة في الإسلام، وإن عدم التكذيب دليل على الإصرار والردة، ومثار فتن لا يعلم عواقبها إلا رب العالمين، تحمل وزرها ووزر من يرتكس فيها إلى يوم الدين، {وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ[ii]}".

أساليبه ووسائله في الدعوة إلى الله في الدعوة :

لما كان من صفات الداعية أن يعرف أحوال المدعوين وطرق إيصال دعوته إليهم حتى يصل إلى الهدف من أقرب طريق، وبأكثر النتائج، وأقل الخسائر. فقد كان الشيخ الندوي –رحمه الله تعالى– ممن اتصف بهذه الحكمة؛ إذ استعمل كل الوسائل المفيدة لأجل الدعوة إلى الله تعالى, فأتت بنتائج ملموسة في العالم الإسلامي بدءاً ببلده الهند. **وكان من أهم وسائله الدعوية ما يلي:**

– التدريس وإنشاء الهيئات العلمية والدعوية: فقد مارس عمل التدريس بعد أن أتم دراسته النظامية؛ إذ عين مدرسا لعلوم القرآن الكريم والتفسير والأدب العربي بدار العلوم لندوة العلماء, وذلك في عام 1934م لما بلغ العشرين من عمره واستمر عطاؤه في عمل التدريس إلى عام 1944م[iii]. كما اعتنى بضبط تدريس العلوم الإسلامية؛ إذ أسّس مركزا

(i) ينظر: "حكم الإسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض" (ص: 6).

(ii) سورة النور الآية: 11.

(iii) ينظر: "السيد أبو الحسن الندوي حياته وإسهاماته العلمية", ص: 58.

للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنّة النبوية عام 1943 م، شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام 1960 م، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند[i].

وكذلك بناؤه جسرا علميا بين علماء المسلمين ؛ وذلك بتأسيسه المجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم- ندوة العلماء في لكهنؤ عام 1959 م. وكذلك تأسيسه جسرا دعويا بين المسلمين وبين غيرهم؛ إذ كان -رحمه الله تعالى- قد أسّس حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام 1951 م[ii].

- الكتابة والتأليف: فقد بدأ الشيخ الندوي في هذا المجال في وقت مبكر من عمره, إذ نشرت له أول مقالة في مجلة المنار, وكانت بعنوان:"ترجمة الشيخ الإمام أحمد بن عرفان الشهيد", وذلك عام 1931م لما كان عمره سبعة عشر عاما أو ثمانية عشر عاما. كما ألف أول كتاب له بعنوان: "إسلاميات" الذي هو أول كتاب مقرر في الدراسات الإسلامية لمرحلة الليسانس بجامعة عليكرة عام 1938م, ثم تتابع له بعد ذلك مؤلفات نافعة مثل: "سيرة السيد احمد الشهيد" وهذا أول ما ألف باللغة الأردية عام 1939, وكتب عربية قرر تدريسها لطلبة المدارس العربية بالهند منها : كتاب " مختارات في الأدب العربي", وكتاب"قصص النبيين للأطفال" و"القراءة الراشدة" وسيرة خاتم النبيين".

كما ألف كتابه المشهور: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين خلال عام 1944-1947م. وألف كما كبيرا من الكتب التي ظهرت فيها جليا معايشته لواقع الأمة الإسلامية ودعوته إلى النهوض بها نهوضا يضاهي ما عليه سلف الأمة. قال الشيخ القرضاوي-رحمه الله تعالى-:" الشيخ أبو الحسن الندوي أحد أعلام الدعاة إلى الإسلام، بلا ريب ولا جدال. عبرت عن ذلك: كتبه ورسائله ومحاضراته التي شرقت وغربت،

(i) ينظر : مقدمة "السيرة النبوية "لأبي الحسن الندوي (ص: 29).

(ii) ينظر : مقدمة "السيرة النبوية "لأبي الحسن الندوي (ص: 29).

وقرأها العرب والعجم، وانتفع بها الخاص والعام.كما أنبأت عن ذلك: رحلاته ونشاطه المتعدد المتنوع في مختلف المجالس والمؤسسات[i]".

كما أنه –رحمه الله تعالى- قد مارس نشاطاته الدعويّة والإصلاحية في داخل بلده وفي خارجه؛ إذ قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام 1939 م، وتعرّف خلالها على عدد من العلماء منهم الشيخ عبد القادر الرّأي فوري الذي منه تلقّى التربية الروحية ، والتقى كذلك بالشيخ محمد إلياس الكاندهلوي الذي تأسّى به في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع[ii].

واستغلّ تلك الرحلات واللقاءات في الدعوة إلى الإسلام وإيقاظ نوره في القلوب, ومن ذلك ما جاء في حديثه مع علماء المسلمين في جدة إذ قال:"سيدور حديثي حول حاجة اليوم الكبرى في ضوء دراستي وفي ضوء سياحاتي وجولاتي , ليس في المنطقة الشرقية الإسلامية فقط, بل في المنطقة الغربية والمركز الحضاري, والمركز القيادي في العالم كأمريكا وأوروبا, وكالشرق غير الإسلامي كشبه القارة الهندية وما جاورها من البلاد[iii]".

- وكان يحث على تنظيم لقاءات هادفة تذكر بالله تعالى وتوجه إلى الخير والسعادة, ويقول:" لا بد من اللقاءات ولا بد من الصحبة, ولا بد من أن نعيش حياة إسلامية نخرج إلى مناطق فيها تقوم الحياة الإسلامية وفيها يوجد المجتمع الإسلامي المثالي أو شبه المثالي أو نصف المثالي أو ربع المثالي, ولكن لا بد لنا أن نشاهد الإسلام يسعى على قدميه, نشاهد الإسلام تتنفس برؤيته[iv]".

موقفه من الصحوة الإسلامية المعاصرة :

(i) موقع الشيخ القرضاوي, "http://qaradawi.net/component/content/article/6452.html".

(ii) ينظر : مقدمة "السيرة النبوية" لأبي الحسن الندوي (ص: 29).

(iii) "حاجة العالم", للندوي, دار النشر: المجمع الإسلامي العلمي, ص:6.

(iv) "أحاديث صريحة في أمريكا", للندوي, طبعة مؤسسة دار الرسالة-بيروت, الطبعة الثالثة, سنة 1404هـ-1984, ص:80.

كان –رحمه الله تعالى – كما سبقت الإشارة إلى ذلك أنه كثير الاهتمام بالإسلام ونشر تعاليمه وتربية الشباب عليه, ويرى أن قيام الصحوة الإسلامية وثباتها ودوامها إنما يكون بحسن التربية, ولذلك قال في أحد لقاءاته في أمريكا:"الإسلام هنا في نشوء وفي تكون وهو في دور الطفولة ويجب أن نشعر بمسؤوليتنا نحو هذا المجتمع وأن نكون واعين نعرف أن هذا المجتمع الذي قد ولد بفضل الله تعالى وبحوله نرجو أن يقوم وينشأ ويترعرع ويبلغ سن الرشد حتى تتوفر عنده أسباب التربية, ما هي اسباب التربية؟ اسباب التربية: العقيدة, الإيمان والدراسة والثقافة والصحبة والمجاهدة, يقول الله تبارك وتعالى: (والذي جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين[i])".

وقال–رحمه الله تعالى– عن الفريق المطلوب للبعث الإسلامي الجديد: إن"الأقطار الإسلامية اليوم بحاجة إلى فريق يتجرد عن المطامع,ويخلص للدعوة,ويبتعد عن كل ما يوهم بأن همه الدنيا والمادة,والتغلب على الحكومة لنفسه أو عشيرته أو حزب يحل العقد النفسية والعقلية التي أحدثتها الثقافة الغربية أو أخطاء "رجال الدين" أو سوء التفاهم أو قلة الدراسة والابتعاد عن الإسلام وجوه بالمقابلات والصداقات, والمحادثات والمراسلات والرحلات, وبالأدب الإسلامي الصالح المؤثر والروابط الشخصية والزهد في حطام الدنيا والعزوف عن الشهوات وتمثيل أخلاق الأنبياء وخلفائهم[ii]".

موقفه من الحركات العالمية :

وكان– رحمه الله تعالى– يعتني بالتربية الإسلامية التي لا تستمد فلسفتها من الغرب ولا من الشرق,ويعتني ويحث على العناية بالطفولة والنشء والكتابة للأطفال والناشئين بوصفهم رجال الغد.

ويؤمِّل الأمة أن تعود صورة الإسلام الحقيقية وأن يستقيم الأمر في المجتمع الإسلامي, ويقول:"لست قانطا من ظهور حقيقة الإسلام في هذا العصر, ولا نصدق أبدا بأن الزمان

(i) سورة العنكبوت الآية 69.

(ii) "ردة..ولا أبابكر لها", للندوي,نشر وتوزيع:المجمع الإسلامي, سنة النشر:1399ه,1978م, ص:31.

قد تغير والمسلمين قد ابتعدوا جدا عن روح الإسلام, فلا أمل في حقيقة الإسلام وغلبتها من جديد[i]".

وقال أيضا:"إننا نحتاج إلى حقيقة الإسلام والإيمان للظفر على الحقائق المبثوثة في العالم, أما صورة الإسلام فهي عاجزة عن أن تقهر هذه الحقائق وتنتصر عليها وإن كانت حقائق ممزوجة بالباطل؛ لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أي حقيقة[ii]".

ويقول أيضا حول الفريق المطلوب للبعث الإسلامي الجديد: "والأقطار الإسلامية اليوم بحاجة إلى فريق يتجرد عن المطامع,ويخلص للدعوة,ويبتعد عن كل ما يوهم بان همة الدنيا والمادة,والتغلب على الحكومة لنفسه أو عشيرته أو حزب,يحل العقد النفسية والعقلية التي أحدثتها الثقافة الغربية أو أخطاء "رجال الدين" أو سوء التفاهم أو قلة الدراسة والابتعاد عن الإسلام وجوه بالمقابلات والصداقات,والمحادثات والمراسلات والرحلات,وبالأدب الإسلامي الصالح المؤثر والروابط الشخصية والزهد في حطام الدنيا والعزوف عن الشهوات وتمثيل أخلاق الأنبياء وخلفائهم[iii]".

نقد الفكرة الغربية والحضارة المادية أو الجاهلية الحديثة:

وقد شغل الحديث عن ذلك حيزا كبيرا من مؤلفاته-رحمه الله تعالى- فمن ذلك قوله:" إن أتباع أساليب الحضارة الغربية في الحياة الاجتماعية والإيمان بمبادئ حياتها ومنهج اجتماعها يحمل نتائج بعيدة المدى، وإن أوروبا اليوم مصابة بالجذام الخلقي، ولا يزال جسمها يتقطع ويتعفن حتى أصبح الجو كله موبوءاً، وسبب هذا الجذام هو الإباحة الجنسية والخلقية التي تسود أوروبا اليوم، وتتخطى حدود الحيوانية والبهيمية. والسبب الحقيق لهذه البهيمية والحيوانية هي حرية المرأة المطلقة، والتبرج المطلق ، والاختلاط الذي لا حد له ولا نهاية، وإدمان الخمر. فأي بلد إسلامي سار على هذا الدرب وطرح الحشمة وسمح

(i) "بين الصورة والحقيقة", للندوي, نشر المجمع الإسلامي العلمي, الهند, الطبعة الثانية, سنة 1400هـ-1980م, ص:20.

(ii) "بين الصورة والحقيقة", ص:5.

(iii) كتاب "ردَة..ولا أبابكر لها" , ص:31.

بالاختلاط بجميع أنواعه، وشجع التعليم المختلط كانت النتيجة ذلك هي التفسخ الخلقي والجنسي ، والثورة على سائر الحدود الخلقية، والدينية ، وفي عبارة وجيزة، الجذام الخلقي الذي أشرنا إليه آنفاً، والذي أصيب به الغرب، إننا نرى معالم هذا الجذام واضحة في البلاد الإسلامية التي تحمست في تقليد الحضارة الأوروبية ورفع الحجاب، وشاع فيها الاختلاط، وظلت الصحافة والسنيما والتلفزيون والعلوم والأدب، والحياة الطبقة الحاكمة تشجعها، بل تقودها وتوجهها(i)".

وقال أيضا في التخطيط وإصلاح الأوضاع:"لقد أصبحت الأقطار الشرقية ـــــ من غير استثناء تقريباً ـــــ فريسة الحضارة الغربية في الزمن الأخير،وانحرفت في سيلها العارم من غير امتناع ومقاومة، لفقد العقل الراجح المتزن في القيادة وفقد((عملية التمييز والاختيار المحكمة)) في الوجهين، وعدم وجود التصميم أو التخطيط الحكيم في نظام المعارف وتنظيم البلاد تنظيماً جديداً قائماً على التجارب الحديثة . وبسبب وجود نظم وأوضاع كانت نتيجة الانحراف عن التعاليم الإسلامية الصحيحة ، لا قرها العقل و العدل، ولا تصلح للبقاء في أي عصر من العصور فضلا عن هذا العصر القلق التأثر(ii)".

قال -رحمه الله تعالى- حول الفلسفة التي حملتها أوروبا إلى الشرق:"حملت أوروبا إلى الشرق الفلسفات التي قامت على إنكار أسس الدين,وإنكار القوة المصرفة لهذا العالم, القوة الواعية التي أخرجت هذا العالم من العدم إلى الوجود, وبيدها زمام الكون(ألا له الخلق والأمر)وعلى إنكار عالم الغيب والوحي والنبوءات, وإنكار الشرائع السماوية,,إنكار القيم الروحية والخلقية, ومنها ما تبحث في علم الحياة والنشوء والارتقاء,ومنها ما تتصل بالأخلاق,ومنها ما تدور حول علم النفس,ومنها ما موضوعها الاقتصاد والسياسة, مهما

(i) "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية", للندوي, دار القلم, الطبعة الرابعة, سنة 1403هـ ــــ 1983م, ص: 170.

(ii) "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية" , ص: 19.

اختلفت هذه الفلسفات في ألوانها وأهدافها وأسسها فإنها جميعاً تلتقي على النظرية المادية المحضة إلى الإنسان وإلى الكون والتعليل المادي لظواهرهما وأفعالهما[i]".

وعن العصبيات التي انتشرت في أوساط المجتمع الإسلامي قال-رحمه الله تعالى-:"العالم الإسلامي أصبح بعد ما غزته أوربا سياسياً وثقافياً يخضع لهذه العصبيات الدموية والجنسية والوطنية,ويؤمن بها كقضية علمية,وحقيقة مقررة وواقع لا مفر منه,وأصبحت شعوبه تندفع اندفاعاً غريباً إلى إحياء هذه العصبيات التي أماتها الإسلام, والتغني بها, وإحياء شعائرها,والافتخار بعهدها الذي تقدم على الإسلام,وهو الذي يلحّ الإسلام في تسميته بالجاهلية, وليس في معجمه تعبير أهول أو أفظع منها,ويمن الإسلام على المسلمين بالخروج عنها, ويحثهم على شكر هذه النعمة التي لا نعمة أعظم منها,:(واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها[ii]). (بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين[iii]). (هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم[iv]).[v]".

وقال أيضا:"هناك نزعات جاهلية, ومبادئ جاهلية حاربها الإسلام بكل وضوح وحاربها الرسول بكل قوة,كالعصبية الجاهلية التي تقوم على حدة الدم أو الوطن أو الجنس,وتمجد هذه العصبية وتبالغ في تقديسها والدفاع عنها,والقتال تحت رايتها,وتوزيع المجتمع الإنساني على أساسها حتى تصبح ديانة وعقيدة,ولا شك أنها في عمقها ورسوخها وقوتها وشمولها تنافس الأديان,وتسعد الإنسان,وتحبط مساعي الأنبياء وتحدد الدين الذي جاء ليحكم على الحياة في العبادات والطقوس,وتقسم العالم الإنساني إلى معسكرات متحاربة,والأمة التي قال الله عنها:"وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون)في أمم كثيرة[vi]".

(i) كتاب" ردَة..ولا أبابكر لها", ص:10.

(ii) سورة آل عمران: الآية 103.

(iii) سورة الحجرات: الآية 17.

(iv) سورة الحديد: الآية 9.

(v) كتاب" ردَة..ولا أبابكر لها", ص:20.

(vi) كتاب" ردَة..ولا أبابكر لها", ص:17.

ومن ذلك قوله عن القومية العربية:"فمن المؤسف المحزن المخجل أن يقوم في هذا الوقت في العالم العربي رجال يدعون إلى القومية العربية المجردة من العقيدة والرسالة، وإلى قطع الصلة عن أعظم نبي عرفه تاريخ الإيمان وعن أقوى شخصية ظهرت في العالم، وعن أمتن رابطة روحية تجمع بين الأمم والأفراد والأشتات. إنها جريمة قومية تبز جميع الجرائم القومية التي سجلها تاريخ هذه الأمة، وإنها حركة هدم وتخريب تفوق جميع الحركات الهدامة المعروفة في التاريخ، وإنها خطوة حاسمة مشئومة في سبيل الدمار القومي والانتحار الاجتماعي[1]".

الخاتمة:

فتتلخص نتائج هذه الورقة البحثية في الآتي:

- نسب الشيخ أبي الحسن الندوي, ينتهي نسبه إلى السيد الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب–رضي الله عنه–. وكانت أسرته أسرة عربية عريقة.
- من مكونات شخصية الشيخ الندوي العلمية والدعوية كونه نشأ في بيئة علمية إسلامية.
- من أبرز صفات الشيخ الحسن الندوي–رحمه الله تعالى– أنه داعية حق يدعو لله وفي الله ويعيش للإسلام، ويعمل لأجل نشره ونصرته.
- كان كثيرا ما يؤكد أن العودة إلى الكتاب والسنة هي الحل لإيجاد مجتمع فاضل, وأن الحاجة الكبرى اليوم هي وجود مجتمع مثالي نموذجي يرضاه الله تبارك وتعالى ويكون في صالح الإنسانية.
- الشيخ الندوي عالم وسطي المذهب, ومن أخلاقه :الرِّقَّة، والسماحة، والسخاء والشجاعة، والرفق، والحلم، والصبر، والاعتدال، والتواضع.
- كان –رحمه الله تعالى– يقيم العلاقة مع ملوك المسلمين ورؤسائهم, ويزورهم ويناصحهم.
- من أساليبه ووسائله في الدعوة إلى الله في الدعوة:التدريس وإنشاء الهيئات العلمية والدعوية والكتابة والتأليف.

---

(1) كتاب: العرب والإسلام, للندوي, (ص: 74–75) تحت عنوان:"اسمعوها مني صريحة: أيها العرب" .

- كان يرى أن قيام الصحوة الإسلامية وثباتها ودوامها إنما يكون بأسباب التربية وهي:العقيدة, الإيمان والدراسة والثقافة والصحبة والمجاهدة.
- كان يؤمِّل الأمة أن تعود صورة الإسلام الحقيقية.
- كان يرى أن أوروبا مصابة بالجذام الخلقي بسبب الإباحة الجنسية والخلقية التي تسود أوروبا اليوم.

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه.

فهرس المصادر:

1- "القرآن الكريم"

2- "أحاديث صريحة في أمريكا", للندوي, طبعة مؤسسة دار الرسالة-بيروت, الطبعة الثالثة, سنة 1404هـ-1984.

3- "السيد أبو الحسن الندوي حياته وإسهاماته العلمية" , تأليف شاكر عالم شوق, مجلة القسم العربي جامعة بنجاب, لاهور-باكستان, العدد العشرون, 2013م.

4- "السيرة النبوية" لأبي الحسن الندوي . السيرة النبوية لأبي الحسن علي الندوي, الناشر: دار ابن كثير – دمشق, الطبعة: الثانية عشرة - 1425هـ.

5- "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية", للندوي, دار القلم, الطبعة الرابعة, سنة 1403هـ ــــ 1983م.

6- "العرب والإسلام", للندوي, المكتب الإسلامي,بيروت, الطبعة الثانية 1389هـ.

7- "إلى الإسلام من جديد", للندوي, طبعة دار المختار الإسلامي القاهرة, الطبعة الرابعة:1398-1978م.

8- "بين الصورة والحقيقة", للندوي, نشر المجمع الإسلامي العلمي, الهند, الطبعة الثانية, سنة 1400هـ-1980م.

9- "تعالوا نحاسب نفوسنا وقادتنا", للندوي, طبعة دار عرفات, الهند.

10- "جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية , لأبي عبد الله شمس الدين بن محمد بن أشرف بن قيصر الأفغاني, دار الصميعي (أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراة من الجامعة الإسلامية),الطبعة: الأولى- هـ - 1996م.

11- "حاجة العالم", للندوي, دار النشر: المجمع الإسلامي العلمي.

12- "حكم الإسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض" لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز, الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة, الطبعة: السنة السابعة، العدد الأول، رجب 1394هـ/1974م.

13- "ردَة..ولا أبابكر لها", للندوي,نشر وتوزيع:المجمع الإسلامي, سنة النشر:1399ه,1978م.

14- موقع إسلام ويب"
http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=62117".

15- موقع الشيخ القرضاوي, "
http://qaradawi.net/component/content/article/6452.html ".

الحكمة وخصائصها في الخطاب الدعوي للشيخ أبي الحسن الندوي

د.محمد مراح
أستاذ مشارك كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية
جامعة قطر

المفتاح – على غير ما اعتاد المتحدثون والمحاضرون في تسمية مداخل حديثهم مقدمات أو توطئات؛ فقد إخترت كلمة (المفتاح)، تقديرا مني أنها أنسب دلالة على ما أرغب التعبير عنه في صدر تناول موضوع المحاضرة .

إذا سمحنا لأنفسنا باستعارة أداة تحليل وظفها الأستاذ عباس محمود العقاد ــــــــ رحمه الله تعالى ــــــــ في تحليل الشخصيات الإسلامية الكبيرة تحت مظلة (العبقرية)،ماكان يسميه (مفتاح الشخصية)، ثم عدّلنا هذا الاستعمال على النحو الآتي ذكره : (مفتاح العطاء الدعوي) للشيخ أبي الحسن الندوي ــــــ رحمه الله تعالى ــــــ فسيجد الدارس نفسه أمام حقيقة هي : أن تراث الشيخ الندوي قد كون شخصية دعوية هائلة يصح تسميتها (الشخصية الإعتبارية الندوية الدعوية) يستعصى الولوج إليها وفهمها على حقيقتها دون مفتاحها وهو (فيوض الإيمان)؛ فهو الروح السارية في تلك الشخصية على تنوع عطائها وثرائه .

ومن لم يهتد لهذا المفتاح فعبثا يحاول فتح الباب الرئيس ، والتجول في أنحاء الصرح المنيف الذي شيده سماحته على مد بصر عمره رحمه الله .فالتعويل على العقل وحده ليصل بك إلى إدراك المقولات الندوية لن ينيل المبتغى ، ويزيح السُّتر عن المشهد الدعوي الإيماني المتلألئ . فكل قضية أو فكرة أو خاطرة،أو تحليل عزلته عن هذه الروح (الإيمان) في شخصيته الإعتبارية الدعوية ،يتعذر إدراكها على وجهها بصورة موضوعية حقيقية .

ومقاربة موضوع الحكمة في خطابه الدعوي بالبحث والدراسة يسبح في هذا الفضاء الإيماني النوراني . و من بهجة الدارس لتراث الندوي أن الفكر والدعوة فيه أمران متلازمان حد التلاصق والتعاوض ؛ فكل فكره دعوة، وكل دعوته فكر .

وسنقارب بالدرس الموضوع عبر المحورين الآتيي الذكر:

-مفهوم الحكمة الدعوية لدى الشيخ أبي الحسن الندوي

-خصائص الحكمة والدعوة في الخطاب الدعوي الشيخ أبي الحسن الندويالندوي

*مفهوم الحكمة لدى الشيخ أبي الحسن عند الندوي.

فضلت الاتجاه قصدا لمفهوم الحكمة لدى الشيخ أبي الحسن الندوي ، دون العبور على المفاهييم اللغوية والإصطلاحية . ففد كتب فيها باحثون كثيرون ولا جديد يؤمل في إعادة النظر فيها *. كما أني لو نحوت المنحى التقليدي في العبور على هذه المرحلة فسوف أثقل البحث بكمٍ من المعلومات المُعادة التي يمكن مراجعتها فيمظانها .

تناول سماحته مفهوم الحكمة ــ حسب ما عثرت عليه ــــ في إتجاهين هما :

مفهوم الحكمة في القرآن الكريم : " المراد من الحكمة : الأخلاق الفاضلة ، والآداب الإسلامية ؛ لأن القرآن أطلق لفظ الحكمة على هذه الأخلاق في مواضع شتى ، ذكر في سورة الإسراء التعاليم الخلقية الأساسية في موضع واحد . من قوله تعالى

(وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) إلى قوله : (كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) [الإسراء : 23 ــ 38]..... ختمها بقوله : (ذلك مما أوحى إلبك ربك من الحكمة) الآية : 39 ... إن الحكمة في المصطلح القرآني لها صلة عميقة وثيقة بالأخلاق "(1).

واستنباطه لمفهوم الحكمة الذي وردت به في القرآن الكريم ، يبرهن به على المعنى المشترك بين وجوه الورود القرآني بها وهو (الأخلاق) ، فكأن الحكمة في القرآن الكريم تلخيص بليغ للأخلاق ، والحكيم بالتالي هو صاحب الخلق الرفيع ، المتره عن خوارم المروؤة فضلا عن الوضيع من الأخلاق . واللفتة الحسنية الندوية هنا ذات ملمح ذكي ورائع ؛ لأن الحكيم إذا إنفصلت في شخصيته الحكمة بمعنى إدراك الخيروالتوجيه إليه دون تمثله

والتخلق به ، لم يعد هناك وجه لوصفه بالحكيم . ولذا وردت في القرآن الكريم مقرونة بالأنبياء والصالحين ، وهم القدوات الأوائل للدعاة الذين أمر الحق الحكيم أن يلتزموا الحكمة في دعوقم لله .

و على ضوء هذا ـــــ فيما يبدوـــــ ـــيفهم ماذهب إليه سماحة الشيخ أبي الحسن ـــ رحمه الله تعالى من أن الدعوة إلى الله لا يمكن تقييدها بحدود وقوانين مرسومة سلفا كي تأتي التصرفات عليها في كل ما يعرض للدعاة في دعواقم إلى الله أو كما قال:

" إن من يضع القوانين المحددة للدعوة أو التربية يجنى عليها ، على إطلاقها وحريتها وحيويتها ، ويجنى على الدعاة "(2). فكأن في مستوياقم الخلقية الرفيعة مع الله ومع العباد ما يلهمهم السلوك المناسب في الموقف المناسب ، وتلك الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيرا كثيرا .

وهكذا يفهم موقف الشيخ أبي الحسن المنبهر إزاء كلمة الحكمة في القرآن الكريم ؛ "الحكمة الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية (أدعو إلى سبيل ربك\الآية :...) النحل :125لا أعتقد أنها من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى ... القرآن يحل هذه المشكلة فأطلق وقيد، وأوجز وأعجز ، فقال : (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة). ولكن هناك نماذج من الدعوة الحكيمة ، نماذج رائع، نماذج خالدة على مر التاريخ "(3) ، تلك النماذج الدعوية من الرسل ترسم الحكمة بدعواقا (4) .

ثم كأن الحكمة لديه إلهام رباني للداعية الذي يصطبغ بصفتين هما : تملك الفكرة ، وتسيطر على نفسه ، والثاني : التجرد عن المطامع الدنيوية والزهد في المناصب والملك(5).

*خصائص الحكمة والدعوة في الخطاب الدعوي لأبي الحسن الندوي\

2 أفضى بنا إستقراء الخطاب الفكري\ الدعوي لسماحة الشيخ أبي الحسن الندوي ـــــ رحمه الله تعالى ـــــ إلى إستخلاص أربعة خصائص بارزة تميز الحكمة فيه، تشي بها كثير من الأفكار والقضايا التي كان يطرحها في محاضراته ومقالاته وكتبه .هذه الخصائص هي : 1 ـ التوازن ـــــــ2 ـ العمق 3ـ صراحة القول ـــــ4ـ الرمزية.

1 ـ التوازن

التوازن أحد أهم مميزات المنهج الإسلامي، خصوصا في تشريعه ، ومنهج تطبيقه ، وبناء الشخصية الإسلامية . وقد أفاض في بيانه كثير من العلماء والكتاب المسلمين في العصر الحديث .كما عُنوا بالإرشاد إليه عمليا وهم يوجهون ويرشدون مسار الإحياء الإسلامي المعاصر.

لقد إنسكبت (فيوض الإيمان) لدى الشيخ أبي الحسن الندوي على مجريات الحراك الدعوي في الساحة الإسلامية المعاصرة، فدفعت بكثير من مقولات وأفكار وتصرفات ذاك الحراك نحو المعيار الإسلامي الدقيق في فهم الواقع البشري ، وحسن تقديره ، دون الإكتفاء بمنطق الأحداث وضروراتها وتأثيرات البشر فيها ؛ بأهوائهم ، ونقائصهم ، وأحيانا بشهواتهم ، وطاقاتهم الإدراكية البشرية المحدودة .

فجاءت محصلة التفاعل الإيماني للشيخ الندوي معها أن رد الشارد إلى الأصل ، والقسطاس المستقيم ، كما نلمسه في مجموعة من القضايا التي يصح أن يلحق بها كثير غيرها فتُفهم على ضوئها .

أ ـــ دعوى خُلو الأرض من الشرك والدعوة للتوحيد :لاحظ سماحته، غفلة واستهانة بمستوى الشرك المتبقى في العالم ، يضاهي أو يفوق من الناحية الكمية ما كان عليه أيام البعثة المحمدية. وإلتفات دعوي أكثر لإقامة الحكم الإسلامي والدعوة إلى خلوص التشريع في الأرض لله وحده . فنبه إلى إعادة التوازن لهذا التصور ؛ كما يتضح في موقفه الآتي : التوازن في الدعوة إلى التوحيد ومناهضة الشرك الخالص في صورته التي عرفت في رسالات الأنبياء مع أقوامهم وعلى نهجها دعوة النبوة الخاتمة ، وخلد القرآن كل ذلك في محكم التتريل، فهذا هو الشرك الأصلي الذي أنزلت الرسالات وبعث الرسل ومعهم الكتب لمناهضته ومقارعتهوهزيمته واستئصاله، وإنتفاء الدعوة بخلو وجه الأرض منه إلا من جاهللا يعقل، فهذا تنكر ونكران لأصل الدعوة النبوية والشرك المناهضة له بالتتريل وتقليل من شناعة الشرك الوثني. وهذا لا يمنع من الدعوة إلى خلوص التشريع في الأرض لله وحده وإقامة الحكم الإسلامي ، فلا تكون بديلا عن الدعوة إلى التوحيد و محاربة الشرك الوثني

في الدرجة الأولى فإنها لا تزال أكثر إنتشارا وأعظم إثما ومن يشرك بالله فقد إفترى بهتانا عظيما – وقوله تعالى : (إن الله لايغفر أن يشرك به ......) النساء :الآية48(6) .

فمن المعلوم أن إكراهات الواقع كثيرا ما تصرف العاملين في الحقل الإسلامي عن الأصل، وتوخي تسديد المعوج الناشز حتى إن كان فرعا . ولهذا كان من الحكمة التنبيه على ضرورة التوازن الفكري والاعتقادي والعملي ؛ فالانحراف العقائدي ــ خصوصا ــ في أبشع صوره وهو الشرك ، مصدر كل الانحرافات التي تنجر إليها البشرية ، وتاريخ الاعتقاد في الأرض كما يقصه القرآن الكريم خير إثبات لهذه الحقيقة ، ولهذا كان من الحكمة اليقظة دوما إلى أثر الشرك المدمر في الأرض على الحياة والأحياء .

ب ــ دعوة كل قبيل سياسي من المسلمين على جهة ما جار وفرط :

إهتدى سماحته ببصيرته الإيمانية الغامرة أن الحكمة تقتضى التوازن في الخطاب إزاء الكيانات السياسية القائمة على أرض المسلمين تحكمهم وتسوسهم؛ ففريق منهم لم يأبه للرصيد الحضاري والإرث الإسلامي الرائع للبلاد التي يتولون حكم أهلها؛ من محاربة جهود إصطباغ الحياة فيها بالصبغة الطبيعية وهي صبغة الإسلام عقيدة ومنهجحياة؛ لذا فهو يرى ضرورة إقناع الدول الإسلامية ذات الماضي الحضاري الإسلامي الرائع وهي اليوم تحارب التوجه بالحياة للإصطباغ بالصبغة الإسلامية ، وتمارس حرب إبادة ضد الدعوة ودعاتها ، بعقم سلوكها، والأجدى توجيه طاقاتها لعدو مشترك، وإلى ما يقوى طاقاتها(7).

فكأني به يشي إلى الإمكان التنبيهي الذي يحمله ذاك الإرث الحضاري الباذخ في تصالح الحاضر معه، وإستنفار الطاقات الحية لمواجهة العدو المشترك ماديا كان أو معنويا كالمهلكات الخلقية من انحرافات عن سنن الفطرة ، وقويم السلوك ، والمثبط عن النهوض والتقدم .

ونشدانا للتوازن الدعوي،يوجه سماحته إلى إقناع الدول المسالمة بضرورة تطبيق الشريعة ، وإقامة أسس الحكم الإسلامي والشعور بالتقصير في إقامة الإمامة العامة التي سنحاسب عليها(8)، بطبيعة الحال بما لهذا الضرب من الدول من موادعة للإسلام ، وفطرة سياسية سليمة ، لا تطوي كشحا عن بغض ونفور من شهود واقع تشريعي إسلامي يلف الحياة

والمجتمع فيها . ولكن لعوارض قد يكون بعضها واردا خارجيا أو جهالة لوجوب عيش المسلمين في كنف دينهم عقيدة وشريعة .

ولا يُخطئ النظر السليم ما تنطوي عليه هذه النظرة من توازن محسوب لكل حال ، وما يصلحها ويؤطرها على الحق أطرا .

ج ـــ توازن ميزان الدعوة حسب حال الموزون :

الدعوة الإسلامية النافذة حالة إيمانية حية في القول والفعل والعمل، تبعث أشعة نورها في أرجاء المكان الذي تتحرك فيه؛ والداعية الحصيف ـــــ كما يستخلص من الحكمة الحسنية الندوية ـــ هو من يحسن توزيع دفق تلك الأنوار حسب طبيعة الزمان والمكان ؛فالدعوة الى الإسلام بالحكمة في البلاد غير الإسلامية ،والإلتزام بالقيم الخلقية الإسلامية والقيم الإسلامية في البلاد ذات الأقلية المسلمة ، مما يلفت الأنظار إليه ويستهوي القلوب ، والقيام بالمسؤولية الخلقية للقيادة الروحية وإنقاذ المجتمع من الإنهيار الخلقي والخواء الروحي (9) ، فالحكمة التيأوجب الله أن تأتي الدعوة عليها ـــــ كما فهمها أبو الحسن الندوي ـــــ لا تؤطرها القواعد والقوانين الجامدة ، إنما هي تقدير ناجع لمطلوب ناجز. فيمنح خصيصة التوازن في تقدير صرف الحكمة لحال الموزون فعالية مُجدية بإذن الله ورحمته وهدايته .

3 ــالعمق

القارئ للعطاء الدعوي للشيخ أبي الحسن الندوي من الناحية النظرية ، يلاحظ وفرة هائلة في المحاضرات التي نقلها مريدوه وتلاميذه إلى كتب أوكتيبات . وكانجمهور تلك المحاضرات متنوعا تنوع المنابر التي أُلقيت فيها ؛ بين مساجد يؤمها عموم المسلمين ، ومراكز ثقافية وإسلامية مفتوحة للعموم أيضا ، وقاعات محاضرات جامعية لجمهور الطلاب الجامعيين ، وتجمعات لمسلمين في بلاد المهجر بالغرب ، ومراكز خاصة .

وقد يكون من الطبيعي أن يغلب على نوعية الطرح الفكري والدعوي في أكثر هذه المقامات توخي البسيط من المعلومات واالأفكار والتوجيهات .ولا غرابة إن إكتست هذا الطابع في مجملها . لكن عند تدقيق الدارس في مضامينها يجد إحتواءها على لفتات بعيدة

الغور ، عميقة الملمح ، مما سمح لنا بتوصيف الحكمة لديه بسمة (العمق) الذي تثبته أمثلة وافرة ، نورد بعضها.

أ ـــــــ مشاكلة الحقيقة لا توجب مطابقتها :كثيرا ما تدفع الأحوال البائسة، والحكومات الجائرة فئات من الناس وخصوصا الشباب إلى التعبير عن رفضها في صورة الثورة العارمة والرفض العنيف . وقد تصادف أحوالهم نزعة تدين تتطلع للتغير الجذري، بإنتهاج أعنف الوسائل ، على إعتبار الإسلام ثورة ضد الظلم ، والإنحراف .وعلى الرغم من أن الإسلام في العديد من جوانبه هو كذلك ، إلا أن مطابقة السلوك مع الحقيقة الدينية قد تلتبس على كثيرين ،بتضليل من المشاكلة بين الحقيقة وموهومها ، فتنجم الإنحرافات وقد تُركب الشعارات الجاهلية على المبدأ الإسلامي فيعطي الإنطباع على أنه كذلك على الحقيقة، وتحوطا لهذا التلبيس الخطير يرى سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي : ضرورة وجود الدعوة والحركة الإيمانية القويمة ، بمضمونها ومقوماتها ورجالها، تملأ الفراغ الذي نشأ عن مساوئ العصر وحضارته , أما عدم وجودها فستملؤه الحركات والإتجاهات المنحرفة تحت شعارات زائفة باسم الإسلام كالثورية تجرف إليها القوى الشبابية وكل المتبرمين بواقع الأمة المرير، والعصرالكئيب(10):(إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير)النور : 29

ب ـــــ تجنب تضخم العضو السياسي في الجسم الإسلامي المنسجم : أثرت أحوال الأمة على كثير من حركات الإحياء الإسلامي، ومنظريها وملهميها، فأصطبغت كتاباتهم بصبغة تفسيرية سياسية لمبادئ وأحكام الإسلام، تدفع بالمتتلمذين عليها إلى النظر والإشراف على كل الإسلام من النافذة السياسية وحدها بدءا من العقائد إلى المعاملات والأخلاق وحتى العبادات.في حين أن الحقيقة الإسلامية تتسم بالتناسق المعجز الدقيق بين أجزاء جسمها المحكم الصنعة.

وإدراكا من سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي رحمه الله تعالى للتشوه الذي يمكن أن يلحق بالحقيقة الإسلامية بتضخم جانب فيها على غير طبيعته دعا في أكثر من مقام إلى ضرورة تجنب المبالغة في تسييس عرض الإسلام وتفسيره، والمبالغة في التنظير ووضعه على مستوى الفلسفات ، فحقائقه هي أصوله الباقية والدائمة(11).

وقد يكون من المفيد في هذا السياق إعادة قراءة نظراته السياسية على ضوء المستجدات والتحولات التي يمر بها العالم الإسلامي، خصوصا ماتضمنته من ملاحظات على ما يمكن أن يكون عليه الأداء الإسلامي قبيل أو أثناء التمكين الإسلامي .

ج ـــــ الحضارة الداعية : تشدنا الحكمة الدعوية الندوية إلى لفتة حضارية، تؤكد لنا العمق والثرى الإبداعي في باقة العطاء الدعوي التي خلفها تعبق بها الأجواء الإسلامية. فقد نبه المسلمين وهم يشيدون معالم حياقم المعاصرة إلى أهمية تمثيل الحضارة الإسلامية في منجزات المسلمين الحضارية المعاصرة ,، دعوة صامتة للإسلام(12)ذالك أن الأثر الفكري والنفسي لقسمات المنجز الحضاري بليغة بعيدة الغور؛ فالقيم التي تنطوي أو تنطق بها أشياء الحضارة ومظاهرها المادية، تبعث رسائل محددة تخاطب الفكر والوجدان.

د – اجتهاد الشارع: الذي يشرع في تداول ما يترل إليه من خلافات فقهية أوكلامية أي خلافات الرأي في مسائل بطبيعتها إجتهادية تحتمل الآراء المختلفة كما هو مألوف على المستوى العلمي بين المجتهدين والفقهاء والعلماء بمناهج الاستنباط . فيتدوالها الشارع بعقلية ونفسية العامة الذين تتباين مستوياقم الثقافية، فيفشو بينهم التراع والتعصب الذي قد يأخذ مداه إلى المواجهات العنيفة.لذا ينصح مولانا أبو الحسن الندوي العلماء بحفظ العلم ومقامه بأن يتداولوا خلافاقم العلمية وفق قواعدها وآدابها، وتجنيب العوام الخوض أو كما قال :عدم تتريل المسائل الخلافية إلى الشارع (13). وبالطبع فالأساليب المناسبة لتحقيق ذلك كثيرة ، وقد يكون أحداها تعليم العلماء مريديهم والعامة أن ما يتناهي إلى أسماعهم من خلافات بين العلماء والفقهاء شأن علمي طبيعي، وليس لهم الخوض فيه على اعتبارهم لا يحوزون التأهيل العلمي، فيصير الأمر كالجاهل بالطب ويسمح لنفسه بإعطاء المرضى وصفات علاجية قد تضرهمأو تودى بهم. فبما للعلماء من مترلة مسموعة مطاعة من مريديهم قد يرعوي العامة عن الخوض فيما لا يصح منهم الخوض فيه، مع إلتزام الاقتداء كل بمن يأتم به دون كبير طعن على المخالف .

ه ـــــ أنسنة الدين : على الرغم من أحكام وشرائع الإسلام يسرها الله تعالى للمكلفين كي تكون في متناول الالتزام فعلا وتركا، فإن مصدرها الإلهي يحفظ عليها التتريه عن الأنسنة،

بمعنى إنزالها مترلة ما يتفتق عنه الفكر البشري من إبداعات ونظم، وآدائها وفق تعبيراتهم اللغوية والاصطلاحية التي مهما بلغت عبقريتها تظل في حدود الإمكان والإبداع البشري وما يعتوره من نقص وعرضة التبدل والتغيير ، لذا فمن الحكمة ـــــ كما يرى الشيخ الندوي ـــــ ضرورة تنبه الدعاة إلى خطورة تأدية أحكام الدين : فرائض وتشريعات بمضاهاتها بماتعارف عليه البشر من عوائد وممارسات وأنظمة واحتياجات ، أي التنبيه على خطورة المصطلح في نقل الحقائق الدينية والترخص من بعضهم فيإطلاقاتها على ما يشابهها من دلالات قد تبدو لغوية أو ممارسات اجتماعية أو رجاءات نفسية أو جسمانية(14).

و ـــــ قوة المسلم : القوة في الإسلام والمسلمين هي الأصل ، أما الضعف والنقص والهوان فأعراض لا تُخرج وحدها من حظيرة الإسلام لكنها تضعف الفاعلية، وتُؤخر الإنجاز الإيجابي ، والنصر . لهذا كان من الواجب على المسلمين إمتلاك القدرة على النفع والضرر(15)، أي أسباب القوة كي يتمكنوا من النفع على إقتدار حين يكون الموقف يقتضيه ، والمقدرة على الضرر حين يقتضى ذلك العدل ودفع الصائل والعدوان.

4 – صراحة القول

حملت عناوين رسائل عديدة لأبي الحسن الندوي كلمة (صريحة) أو ما تفيده*مضافة للجهة المخاطبة بالقول ، كالعرب ومصر وإيران وغيرهما ، مما يكشف عن خاصية من خصائص الحكمة لديه ، وهي القول الصريح في المقام الذي يقتضيها. وقد لزم هذا السنن في قضايا كثيرة، كالأزمات التي عرضت لها بعض البلاد الإسلامية، والتقصير أو الأخطاء وحتى بعض الانحرافات التي تظهر لدى العرب خصوصا بإعتبارهم حملة الدعوة الإسلامية الأوائل ، وحامليها للعالم حتى صاروا ممثلي الإسلام على الوجهين الحسن والقبيح لدى الآخرين . ولم ينج من المصارحة الندوية الدعاة وممثلوا الإحياء الإسلامي. وكذلك الشعوب الإسلامية ـــ مثلا ـــ ما يراه منوجوبإنتهاء حالات الصراع المدمر بين الشعوب الإسلامية والحكام(16) ، وتبدو الأهمية القصوى للحكمة الصريحة هذه في المنعطف الخطير الذي تمر به أمتنا الإسلامية في هذه الأيام ، وعودة الصراعات المذهبية والطائفية، إثر انتهاء الخلافات الأيديولوجية بين الحكومات والدول.

5 – الرمزية

لا شك أن للطبيعة الشاعرة لدى الشيخ أبي الحسن الندوي أثر شديد الوضوح في عطائه الفكري والدعوي، فأنطبع بها منهجه الحكيم ، فخرجت علىصورة حكم رمزية تؤدى معاني بليغةنأخذ بعضها :

أ ــــ الدنيا وقف: فشبه إستخلاف الإنسانية في الأرض بالوقف الذي يقتضى أن يتُصرف فيه وفق شرط الواقف ، لكن أكثر الناس تعسفوا في الأمر وخالفوه، وذهبوا في الإنتفاع بالوقف حسب مبتغياتهم وشهواتهم . ومن حق العنصر البشري الذي أنتهكت حقوقه في الإنتفاع بريع الوقف كما أذن مالكه الحقيقي واشترط أن يرفعوا الدعاوى القضائية أمام محاكم لتُوقف العدوان وتأمر برد الحال إلى نصابها . لكن العجيب أن المدعى عليهم هم القضاة أنفسهم ، في حين أن المنتظر أن من يقيم المحكمة ويعملوا على الإنصاف ليسوا مؤهلين لهذا بحكم الحال ، ويقصد المسلمين الذين وضح ورسم لهم صاحب الوقف كيفية الانتفاع به، وأقامهم نظارا عليه . والحل غير متأتى إلا من خلال مصلحة الأوقاف في هذه الأمة التي عليها حشد قدراتها الدعوية من خطباء ودعاة للإصلاح وجمع الكلمة، وتجنب القضايا الخلافية (17).

ب ــــ هزة الأرض وخصوبة قلوب المؤمنين : علامتان من علامات الحياة الحية على الحقيقة لا المجازهما : الحركة القوية الواثقة والخصوبة المنتجة المثمرة . وإدراكهما في عالم المادة من أيسر المدركات . لكن سبر القلوب والنفوس للعثور عليهما لا يتُاح إلا من خلال منهج الإيمان الرباني الفياض .

لهذا فحركة قلب المؤمن الساجد تهز أرض الركون للمادية الطاغية، وتُحجم سطوتها على الكيان الإنساني في قواه اللطيفة من نفس وفكر وقلب هي جوهره الذي كان به إنسانا يفقد إنسانيته باستسلامه وخنوعه لعرامة الشهوات وثقل المادة . سجدة ــــــ كما قال سماحته ــــ تهز الأرض بها تقاوم سطوة المادية(18) حينئذ تصير الأرضالخصبة في قلوب المؤمنين(19).

أنظر قوله :" ألفت أنظاركم إلى أرض غير هذه الأرض ، قلما حظيت من البلاد الإسلامية باهتمام وعناية ، ألا وهي أرض قلوب أمتنا الإسلامية ، فإنها ذات ثروات زاخرة ، وخزائن ثرة ، وقوى وطاقات مكنونة لا يعلم مداها إلا الله ، ومن الواجب أن نعرف قدرها ، ونبرزها ، ونستخدمها ، ونهيئ لها فرصة العمل والتأثير)(20).

نخلص إلى أن خطاب الشيخ أبي الحسن الندوي الدعوي الذي استقطب كما نوعيا من قضايا الدعوة الإسلامية المعاصرة ، قد وسمته حكمته الجليلة ، فترك بهذا للأجيال ما تستضيء به في مسارها في الدعوة إلى الله وتنسج على منواله ، لمن أتاه الله القلب المضيء بأنوار الإيمان ، والعقل المستنير بحكمة القرآن وخير الأنام صلى الله عليه وسلم.

**هوامش **

*[الحكمة في الدعوة إلى الله لسعيد بن وهف القحطاني\فقد توسع في الموضوع كثيرا وأوفاه حقه \ نسخة PDF ــ موقع صيد الفوائد*www.saaid.net*

ــــ (1) الندوي، الشيخ أبو الحسن محاضرات في الفكر والدعوة ، جمع وتحقيق وتعليق سيد عبد الماجد الفوري، ط1. بيروت ــ دمشق: ، دار إبن كثير ، ؛ 1422ه ــــ 2001م ، ج3 ،ص 231. نسخة PDF ، موقع: abulhasanalinadwi.wordpress.com

2ــــ أبو الحسن الندوي ،حكمة الدعاة وصفة الدعاة ،المجمع الإسلامي العلمي ، ندوة العلماء ، لكنو (الهند) ص20 . نسخة PDF موقع : abulhasanalinadwi.wordpress.com

3 ــــ المصدر نفسه ،ص10

4 -المصدر نفسه، ص 10

5 ــــ المصدر نفسه ، ص 35

6ــ الدعوة إلى الله : صيانة المجتمع من الجاهلية وحماية الدين من التحريف : ص ص 22- 24 . نسخة PDF موقع: abulhasanalinadwi.wordpress.com

7 ــــ أبو الحسن الندوي الدعوة الإسلامية في الوقت الحاضر، المجمع الإسلامي العلمي ــ رقم 213 ،ط 1408 ه ــــ 1987م ص رقم : 222 ، 1409هـــ 1989م. ص 17 نسخة PDF موقع: abulhasanalinadwi.wordpress.com

8 ــــ المصدر نفسه ، ص 18

9 ــــ المصدر نفسه ص19-20

10 ـــ المصدر نفسه ص 20 ـ 2

11 ـــــ المصدر نفسه ،ص11 . أنظر أيضا رسالته :الدعوة إلى الله : صيانة المجتمع من الجاهلية وحماية الدين من التحريف ، المجمع العلمي الإسلامي العلمي ، ندوة العلماء ــ لكنؤ ــ الهند . رقم 238 . ط2؛ 1412ه ـــ 1992م . ص ص 14- 18 . نسخة PDF موقع : abulhasanalinadwi.wordpress.com

12 ـــــ الندوي ، أبو الحسن :الدعوة الإسلامية في الوقت الحاضر، المصدر السابق ص .ص16 – 17 . نسخة PDF موقع: abulhasanalinadwi.wordpress.com

13 ـــــ الندوي، الشيخ أبو الحسن محاضرات في الفكر والدعوة ، جمع وتحقيق وتعليق سيد عبد الماجد الفوري، ط1. بيروت ــ دمشق: ، دار إبن كثير ، ؛ 1422ه ـــ 2001م ، ج1 ،ص 231. نسخة PDF ، موقع \ص95. نسخة PDF ، موقع : abulhasanalinadwi.wordpress.com

14 ـــ الندوي ، أبو الحسن :الدعوة إلى الله : صيانة المجتمع من الجاهلية وحماية الدين من التحريف: ص ص14 – 21 . نسخةPDF موقع : abulhasanalinadwi.wordpress.com

15 ،ص .ص الندوي، الشيخ أبو الحسن محاضرات في الفكر والدعوة ، جمع وتحقيق وتعليق سيد عبد الماجد الفوري، ط1. بيروت ــ دمشق: ، دار إبن كثير ، ؛ 1422ه ـــ 2001م ، ج1،ص 231. نسخة PDF ، موقع ص . ص 187ـــ188. نسخة PDF موقع : abulhasanalinadwi.wordpress.com

*أنظر مؤلفاته ورسائله :سمعوها مني صريحة أيها العرب ــــــاسمعي يا إيران ـــ اسمعي يا زهرة الصحراء ــــاسمعي يا سورية ــــاسمعي يا مصر

16 ـــــ أبو الحسن الندوي مقالات في الدعوةج2.ص191 -192

17ـــ أبو الحسن الندوي محاضرات في الدعوة الدعاة: ج،1ص ص :87 – 98

18ـــــ أبو الحسن الندوي محاضرات في الدعوة والدعاة ج3 .ص244- 245

19 ـــــ المصدر نفسه، ص 255

20ـــــ المصدر نفسه،ص 256

بحث اختيارات الشيخ الندوي للآيات القرآنية المتعلقة بالأفكار المعاصرة

د. عصام بن عبدالمحسن الحميدان
قسم الدراسات الاسلامية والعربية
جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران

فإن أغلب تراث الشيخ أبو الحسن علي الندوي رحمه الله يدور حول موضوع واحد، هو : إحياء الأمة الإسلامية

وهذه الوحدة الموضوعية تتفرع إلى فروع، منها:

1. نقد الواقع الجاهلي المعاصر سلباً أو إيجاباً بما يتضمنه من أفكار وأطروحات حتى لا تكاد تخلو له مقالة ولو قصيرة من نقد للواقع، وأقل نظرة لهذه الكتب والمقالات تدل على ذلك،
2. تحذير المسلمين من الانسياق وراء المادية الطاغية، التي تنسى الله والدار الآخرة، وتذكير المسلمين بما كان عليه حالهم في تاريخهم المجيد وحضارتهم العريقة، وضرب الأمثلة على ذلك.
3. إيقاظ الروح العربية الإسلامية لأنها هي المؤهلة لقيادة العالم، لذا كان يحرص على مخاطبة العرب قبل غيرهم ليبعث فيهم هذه الهمة، وينبههم على الأخطار المحدقة بهم من كل جانب، التي تريد أن تفصلهم عن أمتهم ودينهم وحضارتهم.

وقد ترك الشيخ رحمه الله تراثاً كبيراً مباركاً في مختلف فنون العلم، اطلعت على القسم العربي منه كله، فوجدته يحقق تلك الأهداف بكل جدارة وجمال.

ومع أن الشيخ رحمه الله استنفر كل خيله ورجله في تعرية الجاهلية المادية المعاصرة، إلا أن من أبدع ما تميز به إنصافه للمخالفين، فيثني على الصفات الجيدة فيهم، كما أثنى على بعض اليهود الذين ميَّزهم القرآن الكريم عن سائر اليهود بصدق الإيمان فقال (إن القرآن يشهد بوجود أفراد صالحين في اليهود المغضوب عليهم، فيقول (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون* يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف

وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) (آل عمران: 113-114) ولكن لا أثر لهم في المجتمع الإنسان وفي المسيرة الإنسانية، لأنهم أفراد) [i]

وكما أثنى على بعض عقلاء الغرب كألكس كاريل مؤلف كتاب (الإنسان ذلك المجهول)[ii]، وآيدن رئيس وزراء بريطانيا سابقاً [iii]، وتشارلز جدر أحد كبار أساتذة الأديان في أمريكا[iv].

وكان أكثر ما يحرص عليه في نقده لهذا الواقع بأفكاره واختراعاته الثقافية من الاستشهاد بأقوال المفكرين الغربيين أنفسهم، ليدفع الباطل بلسان أهل جنسه، ثم يصل إلى النتيجة التي يقررها القرآن الكريم عن الجاهلية وحقيقتها، وتحصين المسلمين من شرورها، والأفكار الإسلامية التي يجب على المسلم التزامها.

وإن من أهم ما ينبغي الالتفات له والتركيز عليه ما اختاره الشيخ رحمه الله من الآيات القرآنية المتضمنة نقداً للجاهلية وتحصيناً للمسلم منها، لأن القرآن هو الأصل الذي لا يتغير، وهو المرجع في كل زمان ومكان، وهو المصدر المعصوم الذي يسلط الضوء على جميع الجوانب الهامة في التعامل مع الجاهلية.

والشيخ رحمه الله مشهور بحسن استشهاده للآيات القرآنية والأحاديث النبوية في مواضعها من مقالاته وكتبه، كما سيرد في البحث.

لذا اخترت في هذه الورقات تناول هذا الموضوع(اختيارات الشيخ الندوي للآيات القرآنية المتعلقة بالأفكار المعاصرة) لأني لم أر من جمع مثله من قبل بالرغم من بالغ أهميته للدارسين في القرآن وعلومه، والدارسين لمنهج الشيخ الندوي رحمه الله في تآليفه وأطروحاته. والله المستعان.

---

[i] أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين(24) الإسلام أثره في الحضارة(97،98) وأزمة هذا العصر(15،16)

[ii] ماذا خسر العالم(239)

[iii] ماذا خسر العالم(241)

[iv] الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية(178)

المبحث الأول: أهمية الرسالات في الحضارة:

إن أساس أي حضارة هو الاعتماد على مصدر معصوم، وليس ذلك إلا من العزيز الحكيم، فالمصدر المعصوم هو الذي يبني الفكرة الشاملة غير المتلبسة بالقصور البشري، والحضارة أساساً هي فكرة قبل أن تكون مدنية أو صناعة أو سلوكاً، ومتى كانت هذه الفكرة صحيحة بنت حضارة صحيحة والعكس صحيح، والشواهد على ذلك من التاريخ جلية ناصعة.

ولا سبيل لهذه الحضارة الصحيحة إلا رسل الله تعالى وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام الذين يمثلون الحضارة خير تمثيل، ويضعون لها الأسس والقواعد التي تقوم عليها، لأنهم نقلة المصدر المعصوم الأمناء، وقد اعترف لهم بالطهر والتجرد كل العقلاء في التاريخ، أما الماديون فهم معرضون عن أي مصدر غيبي، آمنوا بالمادة رباً وبالقوانين دستوراً وبالفلسفة نبيا ورسولاً، فضلّوا وأضلّوا، وهنا ينبري الشيخ الندوي رحمه الله فيناضل ليثبت للعالم أن الحضارة يجب أن لا تتنكر للغيب، وأن تظل رابطتها بالسماء موصولة بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام، يقول رحمه الله: (ليس الغريب أن يمرض الإنسان وليس شيئاً مروعاً ،، الغريب المروع المفزع هو فقدان الطبيب، وهو الذي حذرت منه الديانات السماوية، وحذرت منه الأنبياء وهو أن يفقد الأطباء.. ويسود الفساد على المجتمع الإنسان كله، وهو الذي يصوره القرآن بقوله المعجز البليغ (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس) (الروم: ٤١)

والشيء الأساس هو وجود أولو بقية عندهم أثارة من شعور وبقية من غيرة إنسانية ومن حياة الضمير ومن الوعي الصحيح ، بقية من التألم والاهتمام بمصير الإنسانية، يتحدون الفساد ويصرخون به ويخاطرون بمستقبلهم في سبيل الدعوة والإصلاح (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليك مريب) (هود:62) فكثير من المرجوين الذين كان لهم الغد المضمون والمستقبل المشرق كانوا يخاطرون بمستقبلهم وبإمكانياتهم ويخاطرون بأهلهم ويتحدون الباطل).[i]

---

[i] أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين(50)

وتوقع الشيخ أن يحارب فكرته المعارضون فدفع رحمه الله كل الشكوك حول الرسالات قائلاً: (هل في ذلك ما يتنافى مع العقل السليم، أو ينقض قانونا من قوانينه أو السنن التي سنها؟ وهل هذا خلاف لقدرة الله وشهادة التاريخ ؟ وهل يخالف ذلك الحس والتجربة ؟ وقد رد القرآن على هذه الشكوك الثلاثة في آية واحدة وهي قوله تعالى(وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعُلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) (الأنعام: 91) وتفيد الكلمات الأولى في الآية أن الذي ينكر الرسالة والنبوة هو لا يعرف صفات الله في الحقيقة و لم تحصل له معرفة تامة بها). [i]

وبين أن أسس الحضارات السابقة كانت عن طريق الرسل، قائلاً: (ثم تعرضت الآية للرد على من ادعى أن دعوة النبوة بدع من الأمر لم يسبق له نظير، فقالوا (ما أنزل الله على بشر من شيء) وهنا يتساءل القرآن فيقول (قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورا وهدى للناس) وخبر نبوة موسى من الأخبار المستفيضة المتواترة التي لا تقبل الجدال،وقد كان من هؤلاء المستغربين للنبوة المحمدية وفي مقدمتهم يهود المدينة فقال مخاطبا لنبيه(قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً) ثم قدم حجة حسية وتجريبية على إمكان النبوة ، وهو تدرج الإنسان من الجهل إلى العلم، ومن الأمية إلى الثقافة(وعلِّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) [ii]

وهكذا يبدأ بداية صحيحة فالذي يعترف للرسل بالأحقية في قيادة الحضارة فسيتلقى عنهم كل وحي، بما في ذلك القرآن الكريم، وهي النتيجة التي يسعى لها العقلاء الحكماء، ومنهم الشيخ رحمه الله. وهي بداية دامغة لكل ماديّ يتخذ المادة رباً، وينبت من كل جذور الماضي.

---

[i] بين الدين والمدنية(86)

[ii] بين الدين والمدنية(87)

ولا يكتفي الشيخ رحمه الله بإثبات عصمة الرسل وأحقيتهم في بناء الحضارة، ولكن يرد على القائلين بعقيدة عدم ختم النبوة، تلك الفكرة التي تؤصل انحرافاً فكرياً يشابه الانحراف المادي الإلحادي، فكلاهما هدفه إثبات صلاحية الإنسان في صناعة الحضارة بعيداً عن الوحي.

لذا انبرى الشيخ لبيان أساليب القرآن وطرقه في تقرير هذه الحقيقة وغرس هذه العقيدة(عقيدة ختم النبوة):

1. فمنها ما يختص بصاحب الرسالة الذي ختم به الأنبياء، وانتهت عليه سلسلة النبوءات، فقال(ما كان محمدٌ أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) (الأحزاب: ٤٠)

2. وكذلك قد وصف القرآن صاحب الرسالة الأخيرة الذي ختم به الأنبياء بصفات تشير إشارة بليغة إلى خلود رسالته، وكونه قدوة صالحة..

3. ومن هذه الأساليب القرآنية ما جاء في وصف الرسالة بأنها قد بلغت طورها الأخير من الكمال(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) (المائدة: ٣)

4. وكذلك صرح القرآن بأن هذا الدين قد قدر له البقاء والغلبة والانتشار، وأنه سيبلغ ذروة المجد والعزة (ليظهره على الدين كله) [i]

المبحث الثاني: خطورة الأفكار الجاهلية المعاصرة:

أخطر الأفكار المعاصرة التي غزت العالمين العربي والعالمين الجاهلية المعاصرة التي تسلخ المجتمعات من الدين، وتجرده من أي إيمان بالله الواحد سبحانه، ولكنها تتلبس بلبوس الحضارة والقومية والمدنية والحرية، والقومية العربية صورة من صور الجاهلية المعاصرة، يقول الشيخ: إن الحركة القومية لأي بلد عربي أدهى وأمر من كل حركة أخرى للقومية، لأن من شأن هذه الحركة أن تحملهم على احترام الجاهلية القديمة، وتمجيد الآباء والأمجاد في الجاهلية أو على الأقل تقلل من كراهيتها من قلوبهم، وتمنع من الاستهانة بها،

---

[i] (النبوة والأنبياء:177-190)

والعهد الجاهلي هو الذي ذكره القرآن الكريم كالعهد المثالي للكفر، وأثار في النفوس كراهيته وأبرز مساويه بطرق متعددة. ومن أسلوب القرآن الكريم أنه إذا أراد أن يبرز كراهية أي عمل وقبحه أو شناعة أي اتجاه فكري وخلقي، ويصور وخامته ينسبه إلى الجاهلية الأولى، فيقول(يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) (آل عمران: ١٥٤) (أفحكم الجاهلية يبغون) (المائدة: ٥٠) (ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) (الأحزاب: ٣٣) (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية) (الفتح: ٢٦) [i]

وهذا لأنها-القومية العربية- متعلقة بأهداب الجاهلية الملحدة قال: ذم الله شعائر الجاهلية وأبطالها وعظماءها في غير رفق وتحفظ، فقال(وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون) (القصص: ٤١)(وما أمر فرعون برشيد* يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود) (هود: ٩٧ — ٩٨) ولكن كثيراً من الأقطار الإسلامية والشعوب الإسلامية بتأثير الفلسفات الغربية والتفكير الغربي وحده أصبحت تمجد عهدها العتيق الذي سبق الإسلام وحضارته وتقاليده، وتحرص على إحياء شعائره وتخليد عظمائه وأبطاله كأنه عهدها الذهبي وكأنه نعمة حرمها الإسلام إياها). [ii]

وقال: (تسلط على الأمة الإسلامية عفريت من الحياة الجاهلية، واعتدى عليها بصنوف من الخبال وضروب من الأذى والوبال ظهرت في كثير من أخلاقها وأفعالها،...(وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا) (الأعراف: ١٤٦)

أما الحضارة الغربية التي هي أم الكبائر، فقد: شبت الحضارة الغربية مسيطرة على الكون كافرة بالله، مؤمنة بالمادة، ونشأ رجالها لا يؤمنون إلا بقوتهم وصناعتهم، وأصبحت مراكزها الكبرى-أمريكا وأوربا بما فيها روسيا- حربا على الغيب والروح والأخلاق والنظم السماوية وقرب الزمان الذي تبلغ فيه هذه الحضارة غايتها المادية والصناعية ، ويظهر زعيمها الأكبر (الدجال) وهو في ذروة التقدم المادي والصناعي، وأوج الكفر بالله،

---

[i] أكبر خطر على العالم الإسلامي(22)

[ii] ردة ولا أبا بكر لها(17)

والدعوة إلى المادية والإلحاد وعبادة الطبيعة. إن ذلك كله تصوير للحضارة المادية والصناعية الميكانيكية والعلوم الطبيعية التي تبلغ غايتها ونهايتها ويتزعمها الدجال).[i]

وهاهو الشيخ يبين رأي القرآن الكريم في ذلك: (إن القرآن يخاطب رجال هذه الحضارة المادية وقادتها، وتلاميذهم النجباء الأوفياء في العالم الإسلامي، وفي الشعوب المسلمة بالتعيين، ويصورهم تصويرا دقيقا تتجسم فيه ملامحهم وقسمات وجوههم، وما أبلغ هذه الآيات التي تكفلت الرد على المادية الملحدة وزعمائها الدجالين(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا* أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) (الكهف: 103-105)[ii]

ونتيجة هذه الحضارة المادية الإلحاد: (بدأ الإلحاد ينتشر بسرعة غريبة في الشباب المثقف في العواصم العربية وتبدر من المتحمسين منهم كلمات يخاف منها على صاحبها الكفر والمروق من الدين، وأصبحوا لا ينظرون إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم كمنقذ للعرب ، ومصدر الحياة الجديدة والكرامة والشرف والخلود لهذا الشعب العظيم، ويرجعون إلى الماضي السحيق ويحيون أمجاده وحضارته، ويغضبون للجاهلية إذا ذمت وتأخذهم حمية الجاهلية.

إنه نذير شر خطير وطليعة ردة فكرية وثقافية ودينية..... ويصدق عليهم قوله تعالى(قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا* أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً) (الكهف: 103-105) [iii]

القاديانية من الأفكار الجاهلية: ويخصص الشيخ فرقة القاديانية ببحث مستفيض لبيان ضلال هذه الفكرة، ومعارضتها لأصول الإسلام، فسمى بحثه(القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام) بين فيه تاريخ القاديانية وأساس نشأتها وسببه، ثم وضَّح موقف الإسلام

---

[i] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(111-112)

[ii] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(116-117)

[iii] موقف العالم الإسلامي تجاه العالم الغربي(92)

منها كفكرة جاهلية، وبالرغم من أنه لم يستشهد بآيات من القرآن الكريم على ضلال هذه الفكرة، إلا أن تفنيده لها مبني على أصول الإسلام وصريح القرآن والسنة، نظراً لأنها تريد أن تقتلع جذور الإسلام (إن القاديانية لم يفطن العالم الإسلامي لخطرها بعد، ولم ينتبه إلى أنها ليست مجرد عقيدة، أو طائفة دينية فحسب ، وإنما هي مؤامرة منظمة ضد النظام الإسلامي القائم، وثورة ماكرة على الإسلام الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ومعاندة له...

وهكذا ترشح القاديانية نفسها لتكون ديناً عالمياً له نبيه وأصحابه وخلفاؤه ومقدساته وتاريخه وشخصياته وأدبه وتقطع صلة أتباعها ومعتنقيها عن التراث الإسلامي الخالد وعن التاريخ الإسلامي وعن الشخصيات الإسلامية وعن مركز الإسلام الروحي...

إن القاديانية قد هبطت بمستوى الإنسانية إلى الحضيض بتتويجها مثل غلام أحمد في نذالته وسخافته وترشيحها إياه لمنصب النبوة العظمى...

إنها المسألة ليست مسألة قطر أو دولة ، وليست مسألة محلية أو داخلية، إنما هي مسألة العالم الإسلامي كله، هي مسألة العقيدة الإسلامية وكرامة الرسول وشرف الإنسانية) [i]

التشيع من الأفكار الجاهلية: وكما وضح الشيخ رحمه الله مبكراً ضلال فرقة القاديانية، فقد كان من أوائل من نبه إلى خطر التشيع البدعي في إيران على الفكر الإسلامي، فوضح في بحثه(صورتان متضادتان عند أهل السنة والشيعة الإمامية) خطأ الفكرة الشيعية المؤلهة للأئمة، الطاعنة في الصحابة، معتمداً في ذلك على كتابات أئمة الشيعة القدماء والمعاصرين ومنهم الخميني في كتابه(كشف الأسرار) [ii]

المبحث الثالث: التحذير من المادية الإلحادية:

لم يمل الشيخ رحمه الله من محاربة المادية الإلحادية بكل الأسلحة الفكرية التي يملكها، وخصص لنقضها مساحات شاسعة من كتبه ومقالاته ومحاضراته، ليس ذلك عبثاً؛ ولكن لما رأى من تأثيرها في أبناء المسلمين وسلالة العرب، ولا شك أن هذا هو أخطر داء فكري

---

[i] القاديانية(17-23)

[ii] الشيخ أبو الحسن الندوي بحوث ودراسات(406) بحث الدكتور أحمد الحليبي: جهود الندوي في الفكر الإسلامي المعاصر.

يفتك بالأمة الإسلامية، وكأن الشيخ رحمه الله ينظر من حجاب الغيب، فقد وقد ما خاف منه، وانتشر الإلحاد في أبناء المسلمين، وأحفاد الصحابة.

ولنترك للشيخ يجلي هذه الطامة خير جلاء، حين يبين أصل هذه الفكرة فيقول: (داء هذا العصر الذي لا ينجح فيه الدواء ولا يؤثر فيه العلاج هو الاستغناء التام عن الدين ، و لم يلق رجال الدعوة الدينية من العنت والشدة في أحط أدوار الفسق والفجور وفي أحلك عهود المعصية والغفلة ، ما يلاقونه في دعوة هؤلاء الذين لزموا الإعراض التام في هذه المسائل الكلامية فلا تعنيهم سلباً ولا إيجاباً(إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين) (النمل:)) [i]

وحال الماديين في أوربا كذلك: (أما الأوربيون فقد حرموا أنفسهم الدين ، فلم يبق لهم رادع من خلق أو وازع من دين ، أو مرشد من علم إلهي يرشدهم إلى الجادة ، ونسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا(إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين) (الأنعام:29) فاعتقدوا بطبيعة هذه العقيدة أن ليس للإنسان وراء اللذة والراحة والانتفاع المادي والعلو في الأرض وبسط السيطرة عليها – كمملكة لا سيد لها ولا وارث – التغلب على أهلها والاستئثار بخيراتها وخزائنها ، مقصد ولا غاية) [ii].

(فهؤلاء الأوربيون يتبعون سنن من قبلهم الذين قص القرآن الكريم خبرهم: تأملوا في الآية القارعة الزاجرة المنبهة التي وصف الله فيها الكفار ، وشنع فيها على غفلتهم، وتماديهم فيما هم فيه من باطل ولهو، (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد) (الرعد:31) إن موضع الاعتبار في قوله (أو تحل قريباً من دارهم) فنحن كلنا يجب أن نكون على حذر من أن ينطبق علينا قوله تعالى(وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) (يوسف:105) وأن نتعظ بالحوادث التي تقع منا على غلوة سهم كما يقول العرب) [iii]

---

[i] ماذا خسر العالم:252)

[ii] (ماذا خسر العالم:235)

[iii] أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين(86)

ومن خصائص هذه المادية الإلحادية الاهتمام بالمادة أكثر من الفكر: (تأملوا في قول الله تعالى(واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه) (هود: ١١٦) هذا كان شأن الأمم في كل زمان، فقد اتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين، فقد تهالكوا على أدوات الترف والبذخ وتنافسوا فيها، واقتبسوها من الخارج ومن الشعوب السابقة، المخترعة لها).[i]

(وقد اتسمت الحضارة المادية في العهد الأخير بالتدجيل في كل شيء، والتلبيس على الناس، وتسمية الأسماء بغير أسمائها، وتمويه الحقائق، هذا شأن الشعارات والفلسفات التي حلت محل الأديان، وسحرت النفوس والعقول.......)[ii] (وقد سرت هذه الروح الدجلية المدلسة في هذه الحضارة لسيرها على خط معارض لخط النبوة..)[iii]

مثال على التدجيل الحضاري من القرآن الكريم:

يسلط الشيخ أحد أبحاثه الطويلة لبيان هذه الفكرة من خلال تأملاته في سورة الكهف، فيربط بين قصص هذه السورة المكية الجليلة -التي يستحب قراءتها أسبوعياً يوم الجمعة تذكيراً للمسلم من الدجال بشتى صوره، واهتماماً بشأنها في حياة المسلم- ربطاً محكماً يدور حول قصة الصراع بين النظرتين والعقيدتين والنفسيتين، صراع بين الإيمان بالمادة وما يتبعها، وبين الإيمان بالغيب والإيمان بالله. [iv]

ومن ذلك قصة أصحاب الكهف: (فلقد كانت هذه خطة أصحاب الكهف وأصحاب الإيمان والمعرفة في كل عصر، وهي إيثار الإيمان والعمل الصالح، والصلة الروحية بالله على المظاهر والظواهر والأسباب والقوى، والتمرد على المادة وأصحابها والاستهانة بزخارف الدنيا ومتعها(ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه

---

[i] أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين(54)

[ii] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(13)

[iii] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(14)

[iv] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(24)

ورزق ربك خير وأبقى) (طه:103) وقد عارضت الحضارة المادية هذه الروح، وهذا الاتجاه بخط مستقيم، فقد قامت على تقديس المادة ورجالها).[i]

ومن قصص السورة التي ركزت على هذا الجانب قصة موسى والخضر: (وما تشتمل عليه من روح ومغزى تتحدى التفكير المادي الذي يلح على أن الحياة هي التي فهمها الإنسان، وعلى أن هذا الكون هو الذي أحاط به علماً، وأن ليست الحقيقة إلا ما تتراءى للعيون، وأن الإنسان يستحق أن تسند إليه إدارة هذا العالم، ويخول حق التشريع..)

(لقد قامت الفلسفات المادية على هذا الأساس، وقد قامت الحضارة العصرية على هذا التفكير والعقيدة، وسورة الكهف وقصة موسى والخضر بصفة خاصة تنقض هذا الأساس).[ii]

وفي ثنايا سورة الكهف كذلك تأملات لها ارتباط، كتمثيل الحضارة المادية : (ولا أجمل في وصف هذه الحضارة المتهورة ووصف صاحبها الذي يتشبع بروحها من قوله تعالى(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً) (الكهف:28) .. لقد كان أمره فرطا في كل ما يختاره ويؤثره، وفي كل ما يدين به ويدعو إليه).[iii]

وربط المؤمنين غير الماديين أفراداً وجماعات بالله سبحانه: (فقد أوصى الله تعالى نبيه وكل قارئ للقرآن أن يشترط كل إرادة وعزيمة بمشيئة الله تعالى(ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) (الكهف: ٢٣ - ٢٤) [iv] ، وليس الفرد هو المخاطب الوحيد بقوله(ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا) بل المجتمعات والحكومات والمنظمات والمؤسسات كلها معنية مكلفة بها ، وهي روح الحضارة التي تقوم على أساس الإيمان بالغيب.[v]

---

[i] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(69)

[ii] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(98)

[iii] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(71)

[iv] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(76)

[v] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(78)

وبيان الصورة الحديثة للشرك في العصر الحاضر وهي: (ما امتازت به الحضارة المادية بشدة الاعتماد على وسائلها وقواها وطاقاتها، فتعلن حكوماتها تحقق مشاريعها العمرانية والاقتصادية..)[i]

(هذا الشرك الذي اتجهت إليه الحضارة العصرية المادية، فقد اتخذت الأسباب الطبيعية والمادية والفنية وأصحاب الاختصاص فيها، أربابا وأولياء من دون الله، ووضع الرجل العصري حياته تحت تصرفهم). [ii]

(وهكذا يصور القرآن الحياة التي يؤمن بخلودها الماديون ويعكف على عبادتها النفعيون والأبيقوريون ويزيف مكاييلها وموازينها التي يعتمد عليها قصار النظر وعباد الأسباب(المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا) (الكهف: ٤٦) [iii]

المبحث الرابع: مكانة المرأة في الفكر الإسلامي والفكر المعاصر:

لا ينسى الشيخ أن ينبه المسلمين إلى أهمية مكانة المرأة في العالم المعاصر الذي يضع المرأة في مكان لا يليق بمكانتها ولا قدرها عند الله، فالقرآن الكريم اهتم بالمرأة وصاغ لها نظاماً لا يقل أهمية عن نظام الرجل: (إن الآيات التي وردت في القرآن عن نصف المجتمع الإنساني والجنس اللطيف تثير الثقة في المرأة بمكانتها في هذا المجتمع ومترلتها عند الله والقدرة على الوصول إلى أعلى البر والتقوى وتكوين المجتمع الصالح، وتقرن المرأة دائما بالرجل في قبول الأعمال، والنجاة والسعادة والفوز في الآخرة، فيقول الله تعالى(ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) (النساء:) ويقول(فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) (آل عمران: ١٩٥) وهذه الآيات لا تكتفي بمنح الفرص والوسائل للحياة الطيبة بل تكفلها للمرأة وتعدها إياها .

---

[i] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(77)

[ii] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(80)

[iii] الصراع بين الإيمان والمادية (تأملات في سورة الكهف)(81)

والحياة الطيبة كلمة جامعة عميقة المعاني تعطي معنى الحياة المثالية السعيدة الفاضلة وتشتمل على جميع شعب الكرامة والرضا وهدوء البال وما لا يأتي في الحصر(من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) (النحل:97)

ولا يكتفي بقرن الإناث مع الذكور والإشارة إلى أنه لا فرق في الأعمال الصالحة والصفات الكريمة بين الذكور والإناث وكفى، بل بالعكس من ذلك يفرد الصفات صفة صفة فإذا وصف الذكور بها وصف الإناث بنفس الصفة وأفردهن بالذكور وإن طال البيان..اقرأ معنى قول الله تعالى(إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً) (الأحزاب:35)

ولا يكتفي القرآن بأنواع العبادات والقربات، بل يشرك الأخوات المسلمات مع الرجال الأقوياء العلماء أصحاب الإرادة القوية والفتوة وعلو الهمة والصبر والتعرض للمعارضة، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله) (التوبة: ٧١) [i]

المبحث الخامس: أهمية الاقتران بين الإيمان والمادية:

وهكذا يصل الشيخ رحمه الله إلى العلاج والحل، بعد أن شخص المرض، والعلاج في نظره ليس في رفض المادية وإلغاء الحضارة المبنية عليها، ولا في العب منها دون فكر صحيح، ولكن في الاستفادة من مقدراتها، والنظر إليها بفكر إسلامي صحيح (إن المأثرة الخالدة من مآثر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا فجعل هذين المتنافرين المتباعدين الذين عاشا في خصام دائم وعداء سافر وحقد مستمر يتعانقان في إلف وود، ويتعايشان في سلام ووئام، إنه صلى الله عليه وسلم رسول

---

[i] الإسلام أثره في الحضارة(57-59)

الوحدة، بشير ونذير في الوقت ذاته، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة من الإيمان والاحتساب، والعطف على البشرية، وابتغاء رضوان الله، وعلمنا هذا الدعاء الجامع المعجز الواسع(ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة) (البقرة:٢٠١) إنه أعلن بالآية القرآنية(إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) (الأنعام:١٦٢) أن حياة المؤمن ليست مجموعة وحدات متفرقة مضادة، بل هي وحدة تسيطر عليها روح العبادة والاحتساب.. إنه قضى على نظرية الانفصال بين الدين والدنيا، فجعل الحياة كلها عبادة، وجعل الأرض كلها مسجداً).[i]

ويفصل الشيخ في استنباط هذه الفكرة من القرآن الكريم فيقول: (إن موقف الإسلام في ذلك بيِّن واضح ، فقد أخبر أن الإنسان خليفة الله في الأرض قد سخر الله العالم لأغراضه الصحيحة بتصرف منه وغير تصرف فقال(هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً) (البقرة: ٢٩) ، وقال (الله الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار* وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار* وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار) (إبراهيم:32-34) ، وقال(ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) (الإسراء:70) ليلاحظ القارئ الإطلاق في قوله { وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } ، وقوله { وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ} ، وقال(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون* وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم* والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون) (النحل:508) . قد منَّ الله في هذه الآية على الإنسان بتمكينه لبلوغ غايته من غير شق النفس ، واستدل به على رأفته به ، ورحمته له ، وقال(والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون* لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم

---

[i] الإسلام أثره في الحضارة(75،76)

عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون) (الزخرف:12-14) . وما أجدر الإنسان أن يقول إذا استوى على سيارة أو طيارة { سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} ، فهو أبعد من أن يكون مقرناً لقطع من صفيح وحديد لا حياة فيها ولا حركة ، يسخرها له تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، ولا ينس أنه راجع إلى الله ومحاسب على ما أوتي من قوة وسعة ، فإن أساء استعمال هذه القدرة والتمكين عوقب على ذلك . وكذلك لا ينس أنه عبد خاضع لله منقاد لحكمه لا يملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، ولا يطغ ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

وقال(لقد أرسلنا رسلنا بالبيات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز) (الحديد:25). فالحديد فيه منافع للناس ومن أكبر منافعه أنه يستخدم لنصر الله ورسله ، ولذلك قدم عليه ذكر إرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

فالمسلم ينتفع بكل ما خلق الله وأودع في الكون من قوة في سبيل الجهاد في سبيل الله ، وفي نشر دينه ، وإظهاره على الدين كله وإعلاء كلمته ، وفيما أباح الله له ورغبة فيه من تجارة مشروعة وكسب حلال ، وسفر بر ، ومنافع مباحة). [i]

ويمثل الشيخ لبعض هذه المقدرات المدنية الحضارية: (وحقيق أن يقال – لمن أصبح يتطير في أوربا من هذه الآلات ، ومن الطيارات التي تقذف القنابل ، وتدمر المنازل ، وتنسف القرى والمدن ، والغواصات التي تغرق بواخر الركاب المسالمين والتجار الآمنين ، واللاسلكية التي تذيع الكذب والزور ، وتنشر الخلاعة والمجون ويشكو منها ، ويوجه إليها الملام(قالوا طائكم معكم) (يس: ١٩) فإن العلوم الطبيعية تسخر للإنسان القوة المادية ، وليس من شأنها أن تعلمه أيضاً كيف يستعملها ، وفيم يضعها ، كالكبريت يعطيك ناراً ؛ ولك أن تحرق بها بيتاً على سكانه ، أو تطبخ طعاماً أو تستدفئ بالنار ، والذي يعلم كيف يستعمل الإنسان القوة وفيما يضعها هو الدين ، فالدين يرشد الإنسان كيف ينتفع بقوته انتفاعاً حقيقياً ،

---

[i] ماذا خسر العالم(232،233)

وكيف يشكر نعمة الله ، ويحظر على الإنسان أن يكون بقوته التي خوله الله إياها معيناً على الظلم والجريمة والإثم والعدوان ، كما قال موسى عليه السلام(قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين) (القصص:17) ، وقال سليمان(قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) (النمل:40)) [i]

والعالم الإسلامي جزء من هذه الفكرة (إن علة العالم الإسلامي هو الرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة والهدوء الزائد في الحياة ، فلا يقلقه فساد ، ولا يزعجه انحراف ، ولا يهيجه منكر ، ولا يهمه غير مسائل الطعام واللباس ، ولكن بتأثير القرآن والسيرة النبوية – إن وجدا إلى القلب سبيلا – يحدث صراع بين الإيمان والنفاق ، واليقين والشك ، بين المنافع العاجلة والدار الآخرة ، وبين راحة الجسم ونعيم القلب ، وبين حياة البطالة وموت الشهادة ، صراع أحدثه كل نبي في وقته ، ولا يصلح العالم به ؛ حينئذ يقوم في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي ، بل في كل أسرة إسلامية في كل بلد إسلامي(فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى* وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططا) (الكهف:14)) [ii]

والأمة الإسلامية لا تستطيع أن تؤثر في الحضارة الإنسانية المتعطشة إلى رسالة الإسلام إذا كانت متطفلة على مائدة الحضارات الأجنبية، تغرف من بحرها، وتغوص في موجتها إلى الآذان، إنها لا تستطيع أن تسترعي انتباهها فضلاً على أن تحمل الشعوب الأخرى على تقليدها إلا إذا كانت مؤمنة عميقة الإيمان بأن حضارتها مستقلة ذات شخصية خاصة، ربانية سماوية، صالحة لكل زمان ومكان ، قائمة على أسس متينة مستفادة من الكتاب والسنة، منبثقة من هدي الله وتعاليم النبوة.[iii]

[i] ماذا خسر العالم(234) وبين الدين والمدنية(100 وما بعدها)

[ii] ماذا خسر العالم(290)

[iii] الشيخ أبو الحسن الندوي بحوث ودراسات(365) بحث الدكتور أحمد الحليبي: جهود الندوي في الفكر الإسلامي المعاصر.

نظرة الامام الندوي إلى الحضارة الغربية وتاريخها

د.برزان ميسر الحامد
العراق / جامعة الموصل/ كلية التربية/ قسم التاريخ

المقدمة :

الحمد لله العليم الحكيم، القائل في كتابه العزيز ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَـكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (المائدة: 48) والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وعلى اله وصحبه الطيبين الطاهرين. **وبعد:**

يعد موضوع بحثنا الموسوم (نظرة الإمام الندوي إلى الحضارة الغربية وتاريخها) من المواضيع العلمية المهمة التي تستحق البحث والكتابة، ومن أهم القضايا التي يواجهها العالم الإسلامي والأقطار التي نالت حريتها واستقلالها، وتستطيع أن تقرر مصيرها، وتحدد اتجاهها. ومن هنا جاء اختيارنا لهذا الموضوع للوقوف على أهم المواقف التي تبناها العلامة الندوي تجاه الحضارة الغربية وتاريخها وكيفية الاستفادة منها مع الاحتفاظ بالقيم والمبادئ التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف والإبقاء على أصالته والمحافظة عليها، ذلك أن قضية الاقتباس عن الحضارة الغربية وكيفيته كانت ولا زالت من اخطر المسائل التي اعترضت وما زالت تعترض الفكر الإسلامي المعاصر.

هذا وقد اشتمل البحث على عددٍ من الفقرات المهمة، كان أولها نبذة عن حياة العلامة الندوي وجهوده الدعوية، ورحلاته العلمية، واهم مؤلفاته، ثم عرض لمفهوم الحضارة لغة واصطلاحا واهم المفاهيم التي جاء بها بعض المفكرين من المسلمين والغربيين، لنعرج بعد ذلك إلى أهم المواقف التي اتخذها أو يجب أن يتخذها العالم الإسلامي حسب ما جاء بها العلامة الندوي تجاه الغرب وحضارته وثقافته، وهو خاتمة لموضوع بحثنا. وقد اعتمد البحث

على بعض مؤلفات العلامة الندوي المهمة ذات العلاقة، فضلا عن بعض المصادر والمراجع الثانوية الأخرى.

الحضارة لغة واصطلاحاً: ([i])

اولاً: الحضارة لغة:

تلفظ الحضارة بكسر الحاء وفتحها، وهي مشتقة من الفعل حضر على وزن فعل، وحضر ضد غاب، ومنه الحضر والحاضرة، والحضارة: بمعنى المدن والقرى والأرياف[(ii)] .

سميت بذلك لان اهلها حضروا الامصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار وعمران، أي سكن وإقامة، وعليه كانت الحضارة لغة تعني: الاقامة في الحضر، خلافاً للبادية التي يمكن أن تكون قد اشتقت من الفعل المجرد (بدا) ومضارعه (يبدو) أي برز وظهر، ثم أطلق اللفظ على المكان وصارت تعني الاقامة خارج الحضر، واستعمل القطامي لفظ الحضارة ولفظ البادية بمعناها اللغوي السابق، مفتخرا ببداوة قومه ومستخفا بساكني المدن والقرى والارياف، في قوله:

ومن تكن الحضارة اعجبته فأيّ رجال باديةٍ ترانا[(iii)]

وجاء في الحديث الشريف (لا يبع حاضرٍ لبادٍ)[(iv)] ولما سئل عبدالله بن عباس عن ذلك قال: " لا يكون الحاضر سمساراً له" وهذا منهي عنه لما فيه ضرر المشتركين، فان المقيم إذا

([i]) ذكر الكاتب قبل هذا نبذة عن حياة الشيخ الندوي ورغم أن ذكره يحمل قيمة علمية إلا أننا حذفناه لتوفر هذه المعلومات في كتب ألفت في سيرة الشيخ الندوي.

([ii]) جمال الدين ابي الفضل محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، لسان العرب، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه: عامر احمد حيدر، راجعه: عبدالمنعم خليل ابراهيم، (ط1، لبنان – بيروت، دار الكتب العلمية، 2005م)، مج 3، ص186؛ المعجم الوسيط، إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، قام باخراجه: ابراهيم مصطفى واخرون، اشرف على طبعه: عبدالسلام هارون، (القاهرة، مطبعة مصر، 1960م)، ج1، ص180.

([iii]) ابن منظور، المصدر السابق، مج3، ص186؛ السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: عبدالكريم الغرباوي، (د.م، د.ت)، ج11، ص40؛ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي، القاموس المحيط، (لبنان-بيروت، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، د.ت)، ج2، ص9، 10.

([iv]) صحيح البخاري عن أبي هريرة، برقم 2150. وينظر شرح الحديث في كتاب فتح الباري لشرح البخاري.

توكل للقادم في بيع سلعة الناس إليه، والقادم لا يعرف السعر ضرَّ ذلك المشتري فقال عليه الصلاة والسلام: (دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض) [i] وهذه إشارة إلى ما بين البداوة والحضر من اختلاف.

ويقال فلان حضري إذا كان من أهل الحاضرة، والحاضرة والحاضر تعني الحي العظيم أو القوم الحضور، وحاضرة الشيء: القريبة منه، قال تعالى: ﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ [ii] والتجارة الحاضرة: النقد، قال تعالى: ﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ ﴾ [iii] وحاضرة البلاد : المدينة التي يقيم فيها رجال الحكومة[iv].

ويقال فلام بدوي إذا كان من أهل البادية، والحضر خلاف البدو، والحاضر خلاف البادي. والحضري لما تميز به عن البدوي بالثبات والإقرار وعدم التنقل والترحال، فان ذلك ساعده على أن يثري حضارته مقر إقامته بجميع مظاهر النمو والتطور والإبداع العلمي والفني والعمراني والاجتماعي، فالحضارة هي محضن كل تطور أو انجاز إنساني[v].

ثانياً: الحضارة اصطلاحاً:

1- الحضارة في الفكر الغربي

أ- ما ذهب إليه (ول ديورانت) المؤرخ الأمريكي في موسوعته الضخمة (قصة الحضارة) (بأنها نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي، وبالتالي فالحضارة هي تجسيد للنشاط الفكري عند الإنسان عبر اجتيازه معارج الحياة، وتاريخ الحضارة هو سجل لعلماء هذا الفكر ومدى فعاليته في مختلف نواحي الحياة. وهي تتألف

(i) **صحيح مسلم**، برقم 2799. و ينظر شرح الحديث في كتاب شرح مسلم للامام النووي.

(ii) سورة الأعراف، الآية 163.

(iii) سورة البقرة، الآية 282.

(iv) **المعجم الوسيط**، ج1، ص180؛ ابن منظور، المصدر السابق، مج3، ص186.

(v) **المعجم الوسيط**، مج1، ص180؛ ابن منظور، المصدر السابق، مج3، ص186؛ زيدان عبدالفتاح قعدان، **المعجم الإسلامي** (أول معجم شامل بكل المصطلحات الإسلامية المتداولة وتعريفاتها) (ط1، الأردن، عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، 2012م)، ج1، ص352.

من أربعة عناصر: الموارد الاقتصادية، النظم السياسية، التقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ من حيث ينتهي الاضطراب والقلق)[i].

ب- أما (ارنولد توينبي) فيعزو جوهر الحضارة إلى أنها (كيان اجتماعي موحد قابل للفهم بمعزل عن جميع الظواهر الاجتماعية التي قد تبرز في بعض أجزاء هذا الكل الاجتماعي العضوي، فهي وحدة حضارية تهئ للدارس أن يفهمها فهماً يعبر منه إلى تعيين وتحديد نشوء هذا الكل وعوامل اندثاره أيضا)[ii].

2- الحضارة عند المفكر المسلمين

أ- **الحضارة عند (ابن خلدون)**: " بأنها نهاية العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير، فقد تبين أن أهل البدو اقرب إلى الخير من أهل الحضر، والله يحب المتقين"[iii].

ثم يذكر ابن خلدون بان الحضارة هي: " تفنن في الترف وأحكام الصنائع المستعملة في وجوهه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضاً، وتتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف، وما تتلون به من العوائد، فصار طور الحضارة في الملك يتبع طور البداوة ضرورة، لضرورة تبعيةالرّفه للملك"[iv].

([i]) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، (ط3، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1965م)، ج1 من مج1، ص3؛ وينظر: احمد اسماعيل الجبوري، الحضارة والنظم الإسلامية، (ط1، عمان، دار الفكر، 2013)، ص23.

([ii]) ارنولد توينبي، مختصر دراسة التاريخ، ترجمة: فؤاد محمد شبل، مراجعة: محمد شفيق غربال، (ط2، القاهرة، مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، 1967م)، مج

([iii]) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، (القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، 2006م)، ج2، ص473.

([iv]) المقدمة، ج2، ص538، 539.

ويذهب ابن خلدون إلى أن الحضارة: "هي أحوال عادية زائدة على الضروري من احوال العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرّفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتاغير منحصر" [i].

ثم ينتقل ابن خلدون في التعريف بالحضارة إلى مستوى أرقى، فيقول: "أن الملك والدولة غاية للعصبية، وان الحضارة غاية للبداوة، وان العمران كله من بداوة وحضارة وملك وسوقة له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد من أشخاص المكونات عمراً محسوساً" [ii].

ب- **الحضارة عند مالك بن نبي بأنها:** " مجموع الشروط الأخلاقية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذلك من أطوار نموه"[iii].

ج- **الحضارة عند سيد قطب:** " بأنه الإسلام هو الحضارة"[iv] ويضيف سيد قطب لهذا التعريف الأصول والقيم التي تقوم عليها الحضارة وهي أصول ثابتة تتمثل في: " العبودية لله وحده"، "والتجمع على آصرة العقيدة فيه"، "واستعلاء إنسانية الإنسان على المادة"،" وسيادة القيم الإنسانية التي تنمّي إنسانية الإنسان لا حيوانيته"، " وحرمة الأسرة"، "والخلافة في الأرض على عهد الله وشروطه"، "وتحكيم منهج الله وشريعته وحدها في شؤون هذه الخلافة"[v].

د- **ويذهب المودودي إلى أنها:** " مجموعة المبادئ والأفكار والأصول والتربية التي تثمر لونا من ألوان الحياة الاجتماعية بمقوماتها المختلفة"[vi].

([i]) المصدر نفسه، ج2، ص814.

([ii]) المقدمة، ج2، ص817.

([iii]) مالك بن نبي، القضايا الكبرى، (ط1، لبنان – بيروت، سوريا، دمشق، دار الفكر، 1991م)، واعيد طبعه سنة 2000م، ص43.

([iv]) سيد قطب، معالم في الطريق، (الطبعة الشرعية السادسة، بيروت، القاهرة، دار الشروق، 1979م)، ص114.

([v]) المصدر نفسه، ص120.

([vi]) هو سيد أبو الاعلى المودودي من اسرة مسلمة بالهند محافظة، اشتهرت بالتدين والثقافة، اصدر مجلة، "ترجمان القرآن" الشهرية المستقلة عام 1932، وكان لها دور أساس في الحركة الإسلامية في القارة الهندية، بلغ عدد مؤلفاته (70) مصنفا ما بين كتاب ورسالة. توفي سنة 1399هـ/1978م. ينظر: موقع ويكيبيديا الموسوعة الحرة (لا يوجد مرجع مقروء).

٥- **أما ابن الأزرق فقد نظر إلى الحضارة على أنها:** " النهاية في أكمل العمران الخارج به إلى الفساد، والغاية في الشر البعيد عن الخير، ومن سلم من ذلك فلا خفاء في قربه من الخير"[i]

من كل ما تقدم نخلص إلى القول بان الحضارة هي عبارة عن مجموع المفاهيم والقيم والتصورات والعقائد والقوانين والمبادئ والعادات التي تشكل سلوكاً معينا ومحددا عند الإنسان، وتحدد له طريقة معينة في الحكم والعيش والحياة والتعامل مع الآخرين.

موقف العالم الإسلامي من الحضارة الغربية من وجهة نظر العلامة الندوي

العالم الإسلامي أمام مشكلة الحضارة الغربية:

واجه العالم الإسلامي في منتصف القرن التاسع عشر المسيحي مشكلة في غاية الدقة والتعقد والخطورة، وعلى الموقف الذي يتخذه تجاه هذه

تلك هي مشكلة الحضارة الغربية الفتية، الدافقة المشكلة الحاسمة يتوقف مستقبله كعالم له شخصيته وكيانه. بالحياة والنشاط والطموح وقوة الانتشار والاستيلاء، وهي من اقوى الحضارات البشرية التي عرفها التاريخ، والتي لم تكن إلا مظهرا من مظاهر العوامل التي تكونت واحتدمت قديما، وظهرت في أوانها.

واجه العالم الإسلامي هذه المشكلة وجهاً لوجه، لأنه هو زعيم الرسالة الدينية والخلقية، وصاحب الوصاية على المجتمع البشري، بعدما انسحبت الديانات القديمة من معترك الحياة، وصاحب القوة الكبرى التي يحسب لها الحساب، وصاحب الدول الواسعة في هذا القرن، فكان تحدي هذه الحضارة المادية الالية للعالم الإسلامي اعظم من تحديها لأي امة، ولاي حضارة، ولأي مجتمع بطبيعة الحال[ii].

([i]) ابن الازرق، بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: محمد بن عبدالكريم، (ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 1976م)، ج1، ص73.

([ii]) أبو الحسن علي الحسني الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الاقطار الإسلامية، (ط2، بيروت، دار الندوة للتوزيع، 1968م)، ص11؛ سلمى زين العابدين حمّاد، اثر الإسلام والعلماء المسلمين في النهضة الاوربية، (ط2، المدينة المنورة، دار الفجر الإسلامية، 2003) ، ص27-29.

وكانت هذه الحضارة أي الحضارة الغربية بمعناها الواسع عبارة عن مجموع من العقائد والمناهج الفكرية، وفلسفات ونظم سياسية واقتصادية، وعلوم طبيعة وعمرانية واجتماعية، وتجارب خاصة مرت بها الشعوب الاوربية التي تزعمت هذه الحضارة في رحلتها الطويلة، وكانت مظهر تقدم العلم البشري وعلوم الطبيعة وعلم الآلات والعلوم الرياضية، ومجموع نتائج جهود علماء وباحثين عبر القرون.

فكانت مزيجا غريبا من اجزاء لا يكون الحكم عليها واحداً متشابهاً، كانت مزيجا من السليم والسقيم، ومن الصواب والخطأ، في النتائج والاحكام. ومن البديهيات في العلم التي لا تقبل الجدال والشك، ومن التخمينات والتحكمات في الاراء والدعاوي التي تقبل المناقشة الطويلة والجدال الكثير، ومما هو خميرة من الاختبارات والبحوث الطويلة ومما هو فج لا يزال في دور التجربة والاختبار، والنشوء والارتقاء، ومما لا يختص بإقليم أو عنصر من علوم تطبيقية، وبالعكس مما تجلت في الطبيعة الاوربية، وأثرت فيه البيئة الغربية، وولدته حوادث تاريخية خاصة اكتوت بنارها هذه الأمم، ومما له صلة قوية عميقة بالدين والعقائد، ومما لا صلة له بالدين مطلقاً، وذلك الذي زاد في تعقد هذه المشكلة وخطورتها، واحرج مركز العالم الإسلامي، وكان فيه بلاء ومحنة لذكاء قادته وزعمائه، وأصحاب التوجيه فيه[1].

وبناء على ما تقدم فقد كانت هنالك ثلاثة مواقف يستطيع العالم الإسلامي أن يقفها أمام هذه المشكلة الطريفة، لا يكون لهذه الثلاثة رابعاً من وجهة نظر الإمام الندوي.

الموقف الأول: الموقف السلبي: وهو أن يرفض العالم الإسلامي هذه الحضارة (الحضارة الغربية) وما جاءت به بتاتا، ويقف منها موقف المعارض الثائر، أو موقف المعتزل الحائد، لا يقتبس منها شيئا ولا يسمح بدخول علم من العلوم التي كان للأوربيين فيها التفوق والاختصاص، ولا ينتفع بتجارب الغرب في مجالات الطبيعة، والكيمياء والرياضة

---

(1) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الاقطار الإسلامية، ، ص11، 12؛ وينظر: أبو الحسن علي الحسني الندوي، موقف العالم الإسلامي تجاه الحضارة الغربية، (الهند، لكهنو، مطبعة ندوة العلماء، 1963م)، ص10.

وعلم الميكانيكا، ولا يستورد شيئا من الآلات، والصنائع والأجهزة، وأدوات الحرب والبضائع ومرافق الحياة[1].

وإذا انتقلنا إلى الحكم الطبعي والشرعي لاتخاذ هذا الموقف والنتائج التي يمكن أن تتمخض عنه، نجد انه لابد أن ينتج التخلف الشديد عن ركب الحياة، ويقطع صلة هذا الجزء عن باقي اجزاء العالم ويكون جزيرة منقطعة لا مناعة لها ولا قيمة، والبر لا مكان فيه للجزر المنقطعة الصغيرة، ولا حرب مع الطبيعة البشرية، ومنطق الحوادث والحقائق، وهو بصرف النظر عن كل هذا، ضيق في العقل، وتعطيل للقوى الفطرية وجناية على الإسلام، وسوء تفسير للدين الذي يحث على استعمال العقل والتفكير في الكون، واقتباس الصالح النافع أينما كان مصدره، ويأمر بإعداد القوة الممكنة للدفاع عن الدين وإرهاب العدو، وينظر إلى الإنسان كخليفة الله في هذه الأرض، سخر له البحار والأنهار، وسخر له الشمس والقمر، وسخر له الليل والنهار، واتاه من كل ما سأله بلسان المثال أو بلسان الحال. وامتّن على عباده بإنزال الحديد الذي فيه بأس شديد ومنافع للناس، وضرب رسوله المثل لامته باقتباس بعض أساليب الحرب والدفاع من غير المسلمين وغير العرب، فحفر الخندق في الأحزاب كما كان يحفره الفرس. وعلى هذه السير سار أصحابه وفقهاء أمته من بعده، فكانوا يسايرون الزمن ويجارون الأمم في الأساليب الحربية واتخاذ آلات الحرب ووسائل القوة، وتعلمه العلوم النافعة، ويسبقونها أحياناً.

ولو حاول قطر من الأقطار أن يغمض عينيه ويكتم سمعه عن تحدي هذه الحضارة الصارخ، أو أن يرفضها رفضا باتاً، وصمم على أن يعيش في غزلة عن العالم المعاصر، منطويا على نفسه، لما استطاع ذلك أن يواجه ثورات لا أخر لها، وعصيانا وتمرداً في الداخل، لأنه يعارض الفطرة البشرية الإنسانية الوثابة الطموح، الولوعة بالجديد، الطالبة للمزيد، الطامحة دائما إلى المجد والقوة والتجديد، ويعارض كذلك السنن الكونية وطبائع الأشياء، ولو فعل

---

[1] الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص12، ص13؛ موقف العالم الإسلامي، ص11، نزيه شحادة، صفحات من الحضارة الإسلامية، (ط1، بيروت، دار النهضة العربية، 2006)، ص21-22.

ذلك قطر من الأقطار لتسرب هذه الحضارة إلى اسر هذا القطر وبيوته، كما يتسرب الماء في القرية أو المدينة إذا أحاط بها السيل من كل جانب، وطغى عليها الفيضان[i].

ثم يذكر العلامة الندوي، أن الفترة التي تعيش فيها بعض الأقطار الإسلامية بعيدة عن الحضارة الحديثة بخيرها وشرها، زاهدة في مرافقها وأساليبها، منطوية على نفسها، تكون دائما فترة قصيرة مضطربة مهددة بالغزو الحضاري والثقافي من الخارج، وموجات هذه المدنية العاتية التي تتغلغل إلى الجذور والأعماق، وتذهب بالقيم والمفاهيم ومبادئ الأخلاق، وتعمل على صرف قوة نفوذ هذه الحضارة، والسعي إلى ضعف هذه الأقطار الروحي والمادي، وفقدها ما يقاوم هذه الحضارة الحديثة من إيمان وقوة شخصية وثقة. كما أن هذه الفترة (السلبية) لن تطول في أي قطر من أقطار الشرق لان التقاليد والعادات والجهاز الاجتماعي أو الإداري الذي ليس وراءه عقيدة راسخة قائمة على فقه وبصيرة، وليس معه ذكاء والمعية، والمقدرة الكافية على تطبيق الحقائق والمبادئ الدينية الخالدة على الحياة المتطورة وحاجاتها الجديدة. والتمييز بين ما يصلح للاقتباس من الحضارة الجديدة ومنتجاتها وما لا يصلح، لا يستطيع أن يقف طويلا في وجه هذه الحضارة العارمة، وكل قطب أو قيادة تمني نفسها بالاحتفاظ بالقديم، والانحصار في دائرتها من غير هذه المقومات التي ذكرناها ومن غير إيمان جديد قوي وعقل واعٍ منتج مهددة بالانهيار عاجلاً أم أجلاً.

فالاقتباس من الحضارة الغربية ومرافقها ومنتجاتها أن لم يكن عن إرادة وتصميم، وباختيار وتمييز، وعن فقه وبصيرة، هجمت على هذا القطر أو ذاك أو المجتمع غصباً رغم إرادته على الرغم من قادته وولاة أمره وعلمائه وزعماء دينه، ورحب بها أهل البلاد، وفتحوا لها الأبواب، والتهموها بصالحها وفاسدها، واكتسحت القيم الدينية والخلقية وغُلِب قادة البلاد أو ولاة أمرهم، وأفلت منهم الزمام إلى آخر الأبد[ii]

الموقف الثاني: موقف الاستسلام والتقليد: أي الوقوف موقف الاستسلام والخضوع الكامل، موقف المقلد، المؤمن المتحمس، والتلميذ البار الصغير الذي لم يبلغ بعد سن التمييز،

([i]) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص14؛ موقف العالم الإسلامي، ص13.

([ii]) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص21، 12؛ موقف العالم الإسلامي، ص13، 16، 17.

وهو أن يقبل العالم الإسلامي — أو جزء منه — هذه الحضارة — المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة — بحذافيرها، يقبلها بعقائدها الأساسية، ومناهجها الفكرية، وفلسفاتها المادية، ونظمها الاقتصادية والسياسية، التي نشأت واختمرت في بيئة بعيدة عن بيئة هذه الأقطار تحت ضغط عوامل وحوادث خاصة، وبتوجيهها، ويحاول تطبيقها في هذا البلد الإسلامي برمتها، ويتحمل في سبيل ذلك كل صعوبة وعنت، ويدفع له أعظم ثمن، وأبهظ قيمة[i].

ويضرب العلامة الندوي على ذلك مثالا، حيث ذكر بان الأمة التركية (الأتراك العثمانيون) هي أول من قلد أو اتخذ هذا الأسلوب من التفكير والمنهج من العمل تحت ما يسمى (بحركة التغريب)، أو الـ (westernization) وكان ذلك نتيجة طبيعة لعوامل كثيرة، ورحلة طويلة، فقد حاربت أوربا مدة طويلة من غير أن تستعد لهذه الحرب، وتتسلح بسلاح عدوها العلمي والصناعي، وفرطت في اقتباس العلوم المفيدة من أوربا والصناعات والفنون الحربية والتنظيم الإداري تفريطا مجرما، وأبدى العلماء وزعماء الدين ضعفا وقصوراً في توجيه الأمة والبلاد توجيها علماً وفكرياً، وفي الأشراف على اتجاهاتها التي يترفها الزمان والمكان، وتغير الأحوال في العالم كله، وتقرير الصالح منها، وتزييف الطالح، ووقفوا على ما وقف عليه العلم والمعرفة والتفكير في القرن الثامن عشر، وفوق كل ذلك فقد استغل السلاطين —إلا من عصم ربك — اسم الدين واسم الخلافة لصيانة مصالحهم الخاصة، والحفاظ عليها وتحقيق رغباتهم، وكانوا من أسباب تأخر البلاد، والهزائم والانتكاسات التي تحققت بالأمة، وممالاة الأعداء في بعض الأحيان.

أن هذه الجوانب وان كانت شخصية أو فردية ولكنها لم تكن سراً مكتوما وكانت تشير السخط والكراهة في نفوس الشباب والحريصين على سلامة البلاد ومجدها[ii].

أن المحنة التي كانت تواجهها تركيا في أواخر القرن التاسع عشر مع أنها كانت أول تجربة لبلد إسلامي من نوعها، وكان قد مر المجتمع الإسلامي من قبل بنوعين من التجارب:

(i) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص39.

(ii)الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، ص39، 40، وينظر: السيد أبو الاعلى المودودي، نحن والحضارة الغربية، (جدة) الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1987م)، ص112.

كانت التجربة الأولى التي مر بها المجتمع الإسلامي في القرنين الأول والثاني، هي أن المجتمع الإسلامي كان قويا فتيا دافقا بالحيوية وصلاحية التقدم، وكانت ترافقه حركة لا تزال في طريقها نحو الغزو والانتصار، وكانت بإزائه الحضارتان القديمتان العظيمتان، الأولى: الحضارة الرومية واليونانية في الغرب، والثانية: الحضارة الإيرانية في الشرق، وكانت الحضارتان غنيتين في العلوم والصناعات والثقافة والأدب والنظم الفلسفية، وفي أرقى أساليب المدنية والاجتماع، والمجتمع الإسلامي الذي كان بعيداً عن كل نوع من هذه الأنواع، وحافلا بالثقة والاعتداد بالنفس، اقتطف من هذه الذخائر ما يلائمه، وينسجم مع طبيعته ويفي بحاجته، بدون أن يصاب بالرق الفكري والدهشة والخضوع الزائد، اخذ جميع ما يناسبه ويجدر به، والدي رآه غير جدير به صاغه في قالبه أولاً ثم وضعه في مكانه، ولم يجنِ هذا الاقتطاف المحدود والتلقي على روح ذلك المجتمع ونزعاته الخلقية لاستقلاله وسيادته[1].

أما التجربة الثانية التي مر بها المجتمع الإسلامي في القرن السابع، فهي عندما استولى التتار على قلب العالم الإسلامي ومركزه، وأصبح المسلمون خاضعين لهم ومنقتحين سياسيا، واجه المجتمع الإسلامي في ذلك الحين فاتحا كان فقيرا قليل البضاعة في الحضارة والمدنية والعلم والصناعة والقانون والتشريع. حيث لم تكن لديه حضارة ولا فلسفة للحياة، وكان من الناحية المدنية والاجتماعية والرقي الفكري في حالة بدائية شأن الأمم الوحشية وسكان الصحاري. لذلك لم يكن هنالك أي مبرر أو معنى للخضوع والتلمذة وانصهار المجتمع الإسلامي المفتوح في حضارة الفاتح ومدنيته وفلسفة حياته وأفكاره وقيمه، بل على العكس من ذلك بدأت الأمة الفاتحة تتأثر تدريجيا بالأمة المفتوحة، تتأثر شيئا فشيئا بحضارتها ومدنيتها وعلومها وصناعتها وطرق حياتها الراقية وآدابها الجميلة الواسعة وعقائدها الدينية

([1]) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص40، 41؛ المودودي، نحن والحضارة الغربية، ص117؛ عبدالرحمن حسن حنكه الميداني، الحضارة الإسلامية، (ط1، دمشق، دار القلم، 1998)، ص63-64.

السامية وأفكارها القبلية، وأخيرا اعتنقت تماما دين الأمة المفتوحة وحضارتها، وصارت بعد أن اصطبغت بصبغتها حامية للإسلام ورفعت رايته بحماسة وتفانٍ[i].

غير أن الوضع الذي واجهه الأتراك العثمانيون في أواسط القرن التاسع عشر كان يختلف عن التجربتين السابقتين، أنهم وان كانوا يحكمون مملكة حرة واسعة الأرجاء، ولكنهم فقدوا إلى حد ما — روح الثقة بالنفس وعرفان الذات بمر العصور وكر الليالي والدهور، حيث لم يكن فيهم حماس القرون الأولى ولا قوة الإيمان واليقين، وإزاء ذلك كانت الحضارة الغربية فائضة بالروح الجديدة والطاقات الجديدة وممتلئة بالحماس الجديد والآمال الجديدة، ولم يكن باستطاعة الأتراك أن يغمضوا أعينهم عنها وكان مركز حكومتهم في قلب أوربا، وكانت أنظار قادة العالم الإسلامي المعاصر الذي لم يجرب هذه المحنة من قبل متجهة إلى تركيا، كيف تخرج من هذه المحنة، وكيف تتغلب على هذه المشكلة وأي طريق تختاره[ii].

وكان الخروج من هذه المرحلة الدقيقة العسيرة بنجاح يحتاج إلى ذكاء وقّاد ومعرفة صحيحة عميقة للإسلام والحضارة الغربية في وقت واحد، وشجاعة أدبيه وبطولة، وكان ذلك عملاً عملاقاً في الواقع، وكان لابد لتركيا أن تعمله وكان العالم الإسلامي كله على استعداد تام لإتباعها والسير في ركبها، وكان يرتبط به مستقبل العالم الإسلامي الحضاري والفكري، والديني والسياسي إلى حد كبير ولم يكن ذلك يقبل أي تأجيل أو إهمال ولا يمكن أن تمر به تركيا مرا خاطفا سريعا[iii].

وكانت هذه المهمة الدقيقة أما تنوء بها الطائفة القديمة التي كانت تتألف من العلماء القدامى التي لم تكن تعرف للأسف الشديد المقتضيات الجديدة والتطورات الحديثة إلى حد

(i) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص41؛ المودودي، نحن والحضارة الغربية، ص117؛ ولمزيد من التفاصيل ينظر: زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، نقله عن الالمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: فاروق عيسى الخوري، (ط8، بيروت، دار الجيل – دار الافاق الجديدة، 1993)، ص366-367.

(ii) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص41-42 ؛ المودودي، نحن والحضارة الغربية، ص118.

(iii) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص42.

كبير، ولم تكن تعي خطورة الموقف وضخامة الخطر الذي نشأ لتركيا بتأثير القوة الناهضة من أوربا وعارضت التنظيمات العسكرية والإصلاحات الجديدة التي قام بها السلطان سليم الثالث (1789-1807م) وخليفته السلطان محمود (1808-1839م) لتؤهل تركيا لمجارات الشعوب الأوربية عسكريا وعلميا ولمسايرة العصر الحديث.

أما الجيل الجديد الذي كان قد تلقى ثقافته في عواصم أوربا أو في بعض الكليات العصرية في تركيا، فقد نشأ على الاستهانة بقيم الدين واليأس من مستقبله، وكراهة رجاله واحتقارهم وعلى تقديس الحضارة الغربية، وفُقد في هذا الجيل العقل النابغ الراجح المتعمق الذي يقدر على نقد فلسفة الحياة الغربية، ومعرفة جوانب الضعف فيها، وجوانب الإفراط والتطرف، ومعرفة ما يصلح لتركيا الزعيمة للعالم الإسلامي اقتباسه والإفادة منه، وما لا يصلح ولا يتفق مع طبيعتها وتاريخها ومكانتها في العالم ومركزها في الشرق الإسلامي، وأكثرهم من نوع (العسكريين) والمعلمين الذين لم تكن ثقافتهم واسعة ولا عميقة ولا حرة، من امثال ضياء كوك الب، الذ دعا بكل قوة وصراحة إلى سلخ تركيا من ماضيها القريب، وتكوينها تكوينا غربيا قوميا خالصاً، وايثار الحضارة الغربية على أساس أنها امتداد للحضارة القديمة التي ساهم الاتراك على زعمه في تكوينها وحراستها[1].

ومما تجدر إليه الإشارة، أن دور الشعب التركي في اقتباس الحضارة الغربية كان دوراً تقليديا يخلو من كل (أصالة) وابتكار ومن كل عصامية وإنتاج، فلم تعمل شيئا جديا للسيطرة على هذه الحضارة التي انطلقت من الغرب المادي، لتحقيق السيطرة التي دعا إليها، وحلم بها ضياء كوك الب في إحدى مقالاته، ولم تعمل شيئا لامتلاك ناصيتها والتغلب على قيادالها، إنما كان دورها دور الاستيراد ودور الاستعارة ودور التطبيق لا أكثر ولا اقل ، ولم ينبغ فيها في هذه الفترة نابغة، في العلوم التطبيقية، ولا عملاق في العلوم والآداب، ولا مؤسس مدرسة جديدة من مدارس الفكر والفلسفة، ولا من يمدّ هذه الحضارة بشيء أصيل له قيمته العلمية، ولذلك بقيت شعبا متوسطا يعيش على حاشية الشعوب الأوربية، ولم

---

(1) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص43، 44، 47؛ المودودي، نحن والحضارة الغربية، 119، 120، 124، 125.

يكن هذا قيمة ما ضحى به هذا الشعب من السطوة السياسية والحماسة الدينية، والدوافع الخلقية، والزعامة في العالم الإسلامي[i].

نتائج تقليد الحضارة الغربية:

وبعد أن عرضت موقف العالم الإسلامي الثاني تجاه الحضارة الغربية، حسب ما جاء به الشيخ العلامة الندوي، لابد من الوقوف على النتائج التي يمكن أن تتمخض عن تقليد حضارة الغرب، وهي نتائج بعيدة المدى. فأوربا اليوم مصابة بالجذام الخلقي، ولا يزال جسمها يتقطع ويتعفن حتى أصبح الجو كله موبوءاً، وسبب هذا الجذام هو الإباحية الجنسية والخلقية التي تسود أوربا اليوم، وتتخطى حدود الحيوانية والبهيمية، والسبب الحقيقي لهذه البهيمية والحيوانية هي حرية المرأة المطلقة، والتبرج المطلق، والاختلاط الذي لا حد له ولا نهاية، وإدمان الخمر، فأي بلد إسلامي سار على هذا الدرب ونزع الحشمة وسمح بالاختلاط بجميع أنواعه، وشجع التعليم المختلط كانت نتيجة ذلك التفسخ الخلقي والجنسي، والثورة على سائر الحدود الخلقية والدينية، وباختصار فالجذام الخلقي الأنف الذكر والذي أصيب به الغرب نراه واضح المعالم في البلاد الإسلامية التي تحمست في تقليد الحضارة الأوربية ورفع الحجاب، وشاع فيها الاختلاط، وظلت الصحافة والسينما والتلفزيون والعلوم والأدب وحياة الطبقة الحاكمة تشجعها بل تقودها وتوجهها.

الموقف الثالث: وهو الموقف العادل المتزن الذي يجب أن يسير عليه العالم الإسلامي في الإفادة من الغرب وحضارته، وذلك من خلال معرفة طبيعة الأمة الإسلامية، ومركزها في هذا العالم، ثم تحديد موقفها من هذه الحياة التي تصوغ الحضارات، وتشكل المجتمعات والمدنيات.

فالأمة الإسلامية هي صاحبة المركز الأول والرسالة الدينية الأخيرة، وهذه الرسالة هي التي تسيطر ويجب أن تسيطر على جميع مواقفها وتصرفاتها ومركزها مركز القيادة والتوجيه، والحسبة على العالم، والقران الكريم يعلن بقوة وصراحة: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ﴾[ii]. ﴿وَكَذَلِكَ

(i) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص53، 54، موقف العالم الإسلامي، ص28، 29.

(ii) سورة آل عمران، الآية 110.

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[i]. فلا يجوز أن يكون مكان هذه الأمة في مؤخر الركب، وفي صف التلاميذ والحاشية، وان تعيش على هامش الأمم وترضى- من القيادة التوجيه، والامر والنهي، والخلق والابداع- بالتقليد والتطبيق، والخضوع والاطاعة، فلا يكون موقفها الصحيح إلا موقف الحر الكريم، القوي الإرادة، المستقل التفكير، الذي يأخذ — إذا اضطر واحتاج — من حوله بإرادة واخيار ما يطابقه ويلائمه، وما لا يرزؤه في شخصيته وتفوقه وامتيازه، وثقته بنفسه ومركزه، وينبذ مالا يلائمه ويضعف شخصيته ومركزه ويفقده امتيازه، ويدمجه في غيره. ولهذا نُهيت هذه الأمة عن التشبه بقوم في شعائرهم وشاراهم[ii].

والامة الإسلامية هي امة ذات هدف معين في الحياة، ورسالة كاملة في العالم، وحضارتها وثقافتها، وكفاحها وانتاجها، وكل ما يتصل بها من حركة ونشاط خاضع لعقيدتها وغاياتها ورسالتها، فلا قيمة عندها لفلسفة تقول (العلم للعلم) و (القوة للقوة) و(الاكتشاف للاكتشاف) وكذلك ليس من مهمتها بسط السيطرة على الإنسان أو على الاكوان، وتسخير الطاقات البشرية، أو القوى الطبيعية والفلكية لإثبات قوتها أو تقرير فتوحها المادية والعلمية، فان ذلك عندها ضرب من العبث، ونوع من الانانية المتخمة، والقران الكريم يتلو عليها ويضبط اتجاهاتها وطموحها بقوله تعالى ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[iii].

فالإسلام يسمح بالكفاح في سبيل الحياة والطبيعة والعلم، وقد يحث عليه لصالح البشرية وللغايات الكريمة الى حد الضرورة، وقد ضرب الله لها مثلا في القرآن بالإنسان القوي العليم الصالح المصلح الذي يسخر القوى الكونية والمادية، ويملك اعظم مقدار من الاسباب والوسائل ويوسع فتوحه ومغامراته وهو في كل ذلك، وفي اوج قوته وسلطته وسيادته

([i]) سورة البقرة، الآية 143.

([ii]) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص219، 220؛ موقف العالم الإسلامي، ص100، 101.

([iii]) سورة القصص، الاية 83.

وتسخير للقوى والاسباب، مؤمن بربه، خاضع له، مؤمن بالأخرة، ساعٍ لها، مقر بضعفه ، رحيم بالإنسانية وبالأمم الضعيفة، حامٍ للحق ، يستخدم كل قوته وجهوده ومواهبه، وجميع وسائله وذخائره لخدمة الانسانية، وتكوين المجتمع الصالح، واعلاء كلمة الله، واخرج الناس من الظلمات الى النور، ومن عبادة الناس والمادة الى عبادة الله، كسيرة سيدنا سليمان بن داوُد (عليه السلام) في عصره، ومثلها كذلك ذو القرنين في عصره، والخلفاء الراشدون والائمة المهديون في عصورهم [i].

اما موقف الامة الاسلامية من هذه الحياة، فهو موقف من لا يراها الغاية الاسمى والمثل الاعلى، وسدرة المنتهى في السعادة والتقدم، انما ينظر اليها كمرحلة عابرة لابد من اجتيازها، وكوسيلة للوصول الى الفوز الاكبر (بالأخرة) والحياة الدائمة، والعيشة الراضية. ان القران يقرر بكل وضوح وقوة قصر هذه الحياة الدنيا، وتفاهتها وتضاؤلها في جنب الاخرة، فيقول مثلا ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [ii].

ثم يذكر ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الأخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [iii]. ويقول ايضا: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الأخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [iv].

كما يقرر القران الكريم وبكل وضوح وقوة، ان هذه الحياة ما هي الا قنطرة وسبيل الى الاخرة، وفرصة للعمل، فنقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [v]، وكذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [vi]، ويقرر ان الاخرة خير وابقى فيقول: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ

(i) الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية، ص220، 221؛ موقف العالم الإسلامي، ص102.

(ii) سورة التوبة، الاية 38.

(iii) سورة العنكبوت، الاية 64.

(iv) سورة الحديد، الاية 20.

(v) سورة الكهف، الاية 7.

(vi) سورة الملك، الآية 2.

وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (i)، ويذم ويشنع على من يؤثر الدنيا – هذه الفانية العارضة السقيمة الناقصة على الاخرة – الباقية الخالدة، الواسعة الصافية من الاكدار، الخالية من الاخطار فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا وَرَضُواْ بِالْحَياةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّواْ بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ (ii).

ويقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ﴾ (iii).

كما ويمدح القران الكريم من يجمع بين الدنيا والاخرة مع ايثار جانب، الاخرة على جانب الدنيا، ومعرفة قيمتها وفضلها والحرص عليها، فيقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (iv). ويقول على لسان نبي الله موسى ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَـا إِلَيْكَ﴾ (v). ويمدح خليله ابراهيم (عليه الصلاة والسلام) فيقول: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (vi).

وخير ما يمثل موقف المؤمن من هذه الحياة، ويحدده بدقة ومقدرة ليست فوقها دقة ومقدرة، هي الجملة الحكيمة المأثورة عن رسول الانسانية محمد (صلى الله عليه وسلم) في احدى خطبه في ايام الجمعة، (ان الدنيا خلقت لكم وانكم خلقكم للأخرة) فالمسلم يجمع بين الانتفاع بمرافق الحياة واسباب الدنيا واستخدامها لشيء خلق لأجله وسخر له، وبين السعي للأخرة والكفاح لها كفاية خلق لأجلها، فهو ينظر الى الدنيا وقواها ووسائلها كمطية ومركب لا كراكب ومتصرف، وكمملوك ورقيق لا كمالك وسيد، ووسيلة لا كفاية، وينظر الى الاخرة كفاية ينتهي اليها مطيته، وذلك مثل النبوة الذي مثله الرسول

(i) سورة الانعام، الاية 32.

(ii) سورة يونس، الاية 7.

(iii) سورة هود، الاية 15.

(iv) سورة هود، الاية 16.

(v) سورة الاعراف، الاية 156.

(vi) سورة النحل، الاية 122.

الاعظم محمد (صلى الله عليه وسلم) اذ قال: (مالي وللدنيا وما انا والدنيا انما انا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) [i]. وقد تجلت هذه النفسية أو النظرة القرانية إلى الحياة، في حياة الرسول محمد (ﷺ) وتعاليمه وسلوكه، وكلامه وعواطفه وامانيه ودعائه وسره وعلنه، وكذلك تجلت في حياة الصحابة (ﷺ) ومن سار على نهجهم وغرارهم من التابعين الاخيار والمؤمنين من هذه الامة[ii].

أن الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ومركز هذه الأمة في العالم، ومعرفة رسالتها والايمان بقيمتها، والتأكيد على قيمة الاخرة، وما بعد هذه الحياة من سعادة وشقاء وجنة ونار، والتأكيد على الجانب الخلقي والروحي من الحياة، هو الخط الفاصل الذي يشكل الحد الفاصل الرسمي (Lime of Demqreation) بين الحضارتين، حضارة يوافق عليها الإسلام، ويتحمل مسؤوليتها ويباركها، وتتجلى فيها الشخصية والاصالة والاتباع، وحضارة يتبرأ منها الإسلام، ويخسر فيها المسلمون، وتتجلى فيها العبودية والرضوخ والاستسلام، والعبادة التي لا تعرف إلا التقليد، تقليد الببغاوات، ومحاكاة القرود[iii].

أن الفراغ الهائل الأكبر في العالم الإسلامي هو وجود ذلك العبقري العصامي – على حد تعبير العلامة الندوي – الذي يواجه الحضارة الغربية بشجاعة وإيمان وذكاء، ويشق له طريقا خاصا بين مناهجها ومذاهبها، وبين فضائلها ورذائلها، طريقا يترفع فيها عن التقليد والمحاكاة وعن التطرف والمغالاة، غير خاضع فيها للأشكال والمظاهر، والمفاهيم بسطحية، متمسكا بالحقائق واسباب القوة، وباللباب دون القشور.

العبقري العصامي الذي يشق له ولبلاده وامته طريقاً مبتكراً يجمع فيها بين الإيمان الذي اختص به الانبياء والرسل والدين الذي اكرمه الله وامته به عن طريق الرسول الأكرم محمد ﷺ وبين العلم الذي ليس ملك أمه ولا بلد ولا عصر، يأخذ من الدين الدوافع الخيرة التي هي اعظم قوة واغنى ثروة في خدمة الانسانية وبناء صرح المدنية: والغايات الرشيدة الصالحة

(i) صحيح الترمذي، برقم 2299 ، وينظر شرح الحديث في المستدرك على الصحيحين للحاكم برقم 7969.

(ii) الندوي، موقف العالم الإسلامي، ص105، 106؛ وللمزيد ينظر: الميداني، المرجع السابق، ص110-113.

(iii) الندوي، موقف العالم الإسلامي، ص109.

التي لا يوحيها إلا الدين السماوي والتربية السليمة، ويأخذ من الحضارة الغربية الآلات والوسائل القوية الكثيرة التي انتجتها وتوصلت إليها في سيرها العلمي الطويل وفي جهادها المتواصل الشاق، و لم ينتفع بها الغرب لافلاسه في هذا الإيمان وفقرة في هذه الدوافع الخيرة وفي هذه الغايات الصالحة، بل اصبحت تستخدم في شقاء الانسانية وتقويض اركان المدنية أو لغايات تافهة لا قيمة لها(1).

العبقري العصامي هو الذي يعامل الحضارة الغربية بكل علومها ونظرياتها واكتشافاتها وطاقاتها كمواد خام يصوغ منها حضارة قوية عصرية مؤسسة على الإيمان والاخلاق والتقوى والرحمة والعدل في جانب، وعلى القوة والانتاج والرفاهة وحب الابتكار في جانب أخر، ولا يعامل الحضارة الغربية كشيء قد تم تكوينه وتركيبه وختم عليه فلا يؤخذ إلا برمته ولا يقبل إلا على علاته، انما يأخذها كأجزاء، يختار منها ما يشاء، ويركب منها جهازاً يخضع لغاياته وعقيدته ومبادئه ونظام خلقه وما يكلفه به دينه من منهج خاص للحياة.

العبقري العصامي هو الذي يأخذ من علوم الغرب ما تفتقر إليه امته وبلاده وما تنفع عمليا وما ليس عليه طابع غرب أو شرق، انما هي علوم تجريبية تطبيقية، وينفض عن كل ما يأخذه من الغرب غباراً لصق به في القرون المظلمة، وفي عصر الثورة على الدين، وفي حالة توتر اعصاب وقلق نفوس، يأخذ العلوم المفيدة مجردة من روح الاركاد والعداء للدين ومن النتائج الخاطئة، ويطعمها بالإيمان بفاطر الكون ومدبره، ويستنتج منها نتائج اعظم واوسع واعمق واكثر سعادة للإنسانية مما توصل إليه اساتذها الغربيون.

العبقري العصامي هو الذي لا ينظر إلى الغرب كإمام وزعيم خالد، والى نفسه كمقلد وتلميذ دائم، انما ينظر إلى الغرب كزميل سبق، وكقرين تفوق في بعض العلوم المادية والمعاشية فيأخذ منه ما فاته من التجارب ويفيض عليه بدوره ما سعد به من تراث النبوة، ويعتقد انه أن كان في حاجة إلى أن يتعلم من الغرب كثيرا، فالغرب في حاجة إلى أن يتعلم

---

(1) المصدر نفسه، ص113، 114.

منه كثيرا، وربما كان ما يتعلمه الغرب منه افضل مما يتعلمه هو من الغرب، ويحاول أن ينهج بذكائه وجمعه بين حسنات الغرب والشرق وقوى الروحانية والمادية — منهجا جديدا يجدر بالغرب تقديره وتقليده، ويضيف إلى المدارس الفكرية، والمناهج الحضارية مدرسة جديدة تستحق كل عناية ودراسة وتقليد واتباع[1].

هذا هو العبقري العصامي الذي لا يزال مفقودا في صفوف القادة والزعماء في العالم الإسلامي على كثرتهم وتنوعهم وهذا هو العملاق حقا الذي يبدو في جانبه القادة المقلدون المطبقون صغاراً متواضعين كالأقزام.

وإنما اعظم تجربة وابعدها اثراً ليس في محيط شعب أو بلد، وليس في محيط العالم الإسلامي فحسب بل في محيط العالم وفي محيط الانسانية كلها، وان التاريخ شاخص ببصره إلى من يقوم بها في الاقطار الإسلامية والعربية، ممسك قلمه ليسطر له سطور الثناء والاجلال ويقلد الزعامة الحقيقية ومركز التجديد في العالم الإسلامي، والعبقرية والعصامية في التاريخ الانساني.

من كل ما تقدم تخلص إلى القول أن الدين الإسلامي لا يمنع إذا وجد العبقري العصامي –على حد تعبير الشيخ العلامة الندوي– الاخذ من الحضارة الغربية لكن بشرط أن يكون ذلك الاخذ أو الاقتباس بحذرٍ وترو ٍ دون اندفاع، فلا ينظر إليها على أنها هي المثل الاعلى للحياة أو المورد العذب وإنما ينظر إليها على أنها متاع الحياة الدنيا وانه سيفارقها أو تفارقه فهي عرض زائل مهما بدت في العرض الانيق والصور الخداعة البراقة، فالمؤمن يعتقد اعتقادا جازماً أن الحياة السعيدة انما هي الحياة الأخرة التي جعلها الله ثوابا لأوليائه كما سبقت الإشارة، فلا حرج على المسلم أن يستفيد من أي أمر لا يتعارض مع دينه، ولا حرج عليه من أن يستفيد من مصانع الغرب وآلاته المختلفة ما دام ذلك لم يصل إلى انه يكون على حساب دينه وقيمه أو تقليداً اعمى لا يفرق فيه بين المفاهيم الغربية والمفاهيم الإسلامية كما هو الحال في كثير من الاقطار الإسلامية للأسف الشديد، حيث كانوا كحاطب ليل أو

([1]) الندوي، موقف العالم الإسلامي، ص105، 106؛ ارشيد يوسف أبو رشيد، الحضارة الإسلامية، (ط2، الرياض، مكتبة العبيكان، الرياض، 2005)، ص464 – 466.

كتلميذ صغير امام استاذه ينظرون إلى الغرب بكل انبهار ونسوا أهم يملكون مالا يملكه الغرب من القيم والمبادئ الإلهية التي لا يوجد لها مثيل في تنظيم الحياة البشرية من جميع الجوانب، ونسوا كذلك انه يجب عليهم أن يكونوا هم القدوة للغرب المتحير في سلوكه المتخبط في جهله، وان تقدمهم انما هو ظاهر من الحياة الدنيا وان السعادة كلها في ايدي المسلمين لو ارادوا تحقيقها حينما يعتزون بدينهم ويوصلوه إلى تلك القلوب الخاوية والافكار البالية في العالم الجاهلي فيرتوون من معينه الفياض ويخرجون من حياة الفسق والفجور والظلم والطغيان إلى عدل الإسلام ونوره المشرق دائما[1].

وفي نهاية الحديث عن موقف العالم الاسلامي عن الغرب وحضارته وثقافته من وجهة نظر العلامة الندوي – استعرض قطعة جميلة من كتاب "الطريق إلى مكة" للأستاذ محمد اسد، فقد بدأ فيها الاتزان والرصانة الفكرية وهي تحدد بلباقة فائقة ومقدرة كبيرة – الخط العادل المتزن الذي يجب ان يسير عليه العالم الاسلامي في الافادة من الغرب، وتبني الوسائل الحديثة حيث يقول:

ان عالمي الإسلام والغرب لم يكونا يوما اقرب احدهما من الاخر، كما هو اليوم، وهذا القرب هو صراع ظاهر وخفي، ذلك ان ارواح الكثيرين من المسلمين والمسلمات لتتغضن رويداً رويداً تحت تأثير العوامل الثقافية الغربية، انهم يتركون انفسهم، ويبتعدون عن اعتقادهم السابق بان تحسين مقاييس المعيشية يجب ان لا يكون سوى واسطة لتحسين احاسيس الإنسان الروحية، انهم يسقطون في وثنية "التقدم" نفسها التي تردى فيها العالم الغربي بعد ان صغروا الدين إلى مجرد صلصلة رخيمة في مكان ما من مؤخرة الاحداث، ولذلك تراهم يصغرون مقاما ولا يكبرون، ذلك ان كل تقليد ثقافي، بخلاف الخلق والابداع لابد ان يُحقّر الامة ويقلل من شأنها.

انا لا اعني ان المسلمين لا يستطيعون ان يفيدوا كثيرا من الغرب، وبخاصة في مجال العلوم والفنون الصناعية، ذلك ان اكتساب الافكار والاساليب العلمية ليس من الحق

([1]) ينظر: غالب عواجي، كيف نقف من الحضارة الغربية وافكارها، موقع الدرر السنية، موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة.

(تقليداً) وبالتاكيد ليس في حالة قوم يأمرهم دينهم بطلب العلم حيثما يمكن ان يوقد، ان العلم لا غربي ولا شرقي، ذلك ان الاكتشافات العلمية ليست إلا حلقات في سلسلة لانهاية لها من الجهد العقلي الذي يضم الجنس البشري بأكمله، ان كل عالم يبنى على الأسس التي يقدمها له اسلافه، سواء كانوا من بني امته أو من ابناء أمة غيرها، وعملية البناء والاصلاح والتحسين هذه تستمر وتستمر، من انسان إلى انسان ومن عصر إلى عصر، ومن مدنية إلى مدنية، بحيث ان ما يحققه عصر معين أو مدنية معينة من اعمال علمية جليلة لا يمكن مطلقا ان يقال انها (تخص) و(تعود إلى) ذلك العصر أو تلك المدنية، فقد يحدث في مختلف الازمنة والعهود ان تسهم امة ما، امضى عزيمة واشد همة من غيرها، بنصيب اكبر في صندوق المعرفة، ولكن الجميع مع الزمن يشتركون، وبصورة شرعية صحيحة في هذه العملية، لقد جاء حينٌ كانت مدنية المسلمين اقوى وامضى من مدنية واوربا فنقلت إلى اوربا كثيرا من الاختراعات الصناعية والفنية ذات الطبيعة الثورية، واكثر من هذا مبادئ (تلك الطريقة العلمية) نفسها التي يرتكز اليهم العلم الحديث، والمدنية الحديثة، ومع ذلك فان اكتشافات جابر بن حيان الكيمياوية لم تجعل الكيمياء علماً (عربيا) كذلك لا يمكن ان يقال ان الجبر وعلم المثلثات هما علمان (اسلاميان) مع ان الاول منهما بسطه الخوارزمي، والثاني البسكاني، وكلاهما كانا مسلمين، تماماً كما لا يستطيع احد ان يتكلم عن نظرية الجاذبية (الانكليزية) مع ان صاحبها كان انكليزيا، كل هذه الاعمال العلمية العظيمة هي ملك مشترك بين الجنس البشري كله. اذا فان المسلمين اذ تنبؤا كما هو من واجبهم ان يفعلوا، الطريق والوسائل الحديثة في العلوم والفنون الصناعية، فانهم بذلك لا يفعلون أكثر من اتباع غريزة التطور والارتقاء التي تجعل الناس يفيدون من خبرات غيرهم، ولكنهم اذا تبنوا وهم في غير حاجة إلى ان يفعلوا ذلك — اشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فانهم لن يفيدوا من ذلك شيئا.

ذلك ان ما يستطيع الغرب ان يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون افضل واسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها، ومما يدلهم عليه دينهم نفسه. ولو ان المسلمين احتفظوا برباطة

جأشهم وارتضوا الرقي وسيلة لا غاية في ذاتها، لما استطاعوا ان يحتفظوا بحريتهم الباطنية فحسب، بل وبما استطاعوا ايضا ان يعطوا انسان الغرب سر طلاوة الحياة الضائع[1].

الخاتمة:

وبعد الانتهاء من الاطار النظري لهذا البحث المتواضع لابد من عرض أهم النتائج التي توصلنا اليها وهي كالآتي:

1- أن العلامة الندوي كان من المفكرين المسلمين الذين لهم مكانة مهمة في العالم الإسلامي، فقد كان صاحب منهج متميز، ميزّه عن غيره من المفكرين والباحثين المعاصرين، وذلك بسبب معرفته لعدد من اللغات، وسعة اطلاعه على مصادر الحضارات غير الإسلامية، فضلا عن تعمقه في دراسة التاريخ الإسلامي.

2- أن الحضارة بمفهومها العام سواءٍ اكانت عربية اسلامية أو غربية اوربية، فهي في نهاية الأمر تمثل مجموع المفاهيم والقيم والتصورات والعقائد والقوانين والمبادئ والعادات التي تشكل سلوكا معينا ومحددا عند الانسان، وتحدد له طريقة معينة في الحلم والعيش والحياة والتعامل مع الآخرين.

3- لا يمكن للعالم الإسلامي وباي شكل من الاشكال أن يقف تجاه الحضارة الغربية موقف المعارض الثائر، أو موقف المعتزل الحائد، لا يسمح بالاقتباس منها ولا بدخول أي علم من العلوم التي كان للأوربيين التفوق فيها، لان ذلك سوف يؤدي إلى انعزاله عن باقي اجزاء العالم ويكون جزيرة منقطعة لا مناعة لها ولا قيمة على حد تعبير العلامة الندوي، فضلا عن التخلف الشديد الذي يمكن أن يلحق به عن ركب الحياة.

4- من جهة أخرى يرى العلامة الندوي، أن على العالم الإسلامي أن لا يقف موقف المستسلم المقلد المتحمس المتلهف إلى تقبل الحضارة الغربية بطيبها وخبثها كالتلميذ الصغير البار امام استاذه الكبير، لان ذلك سوف يؤدي إلى اصابته بوباء الجذام الخلقي الذي اصاب اوربا، وهذا ما حدث للامة التركية (الاتراك العثمانيون) عندما انسلخوا عن محيطهم

---

(1) محمد اسد (ليوبولد سابقا)، الطريق إلى مكة، ص 374 – 367 (نقلا عن: أبو الحسن علي الحسيني الندوي، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الاقطار الإسلامية)، ص228-230.

الإسلامي ولحقوا بركب الحضارة الغربية، على الرغم من وجود علمائها وزعماء دينها وولاة امرها.

5- دعا العلامة الندوي إلى اتخاذ موقف متزن يسير عليه العالم الإسلامي للإفادة من الغرب وحضارته وثقافته، فلا يقف موقف الثائر المعارض ولا موقف المقلد المستسلم، بل يجب عليه أن يتخذ موقفا وسطاً لا يكون على حساب دينه ومبادئه وقيمه، ذلك لأنه الأمة الإسلامية هي صاحبة المركز الأول والرسالة الدينية الاخيرة، وبالتالي يجب أن تسيطر على جميع مواقفها وتصرفاتها، فتنظر إلى الغرب كقرين تفوق في بعض العلوم المادية والمعاشية، فتأخذ منه ما فاتها من التجارب والعلوم، وتفضي عليه بدورها ما سعدت به من تراث النبوة. وهذا هو الموقف السليم الصالح الذي يجب على الأمة والعالم الإسلامي أن يتخذه ويسير عليه.

فلسفة التاريخ والحضارة عند الإمام الندوي

أ.د. احمد إسماعيل عبد الله الجبوري
العراق / جامعة الموصل / كلية التربية /
قسم التاريخ

المقدمة :

تميز الشيخ أبو الحسن الندوي الداعية المجاهد والأديب المتميز بجمال الأسلوب وصدق الكلمات ، وأوتي بلاغة القلم في اللغة العربية ، إذ لم تعرف الهند مثله كاتباً إسلامياً ، فقد أتقن اللغة العربية الفصحى وأصبح متحدثاً بارعاً فيها .

ولقد كتب الإمام الندوي وأدلى بدلوه في فلسفة التاريخ والحضارة وعصور الازدهار والانحطاط في العصور الإسلامية ، ولاحظ ان القرنين السادس والسابع الميلاديين يعدان من أحط ادوار التاريخ ، وعد الإنسانية منحدرة فيها وفقد الإنسان التمييز بين الخير والشر ونسي خالقه .

ويرى الإمام الندوي انه قبل ظهور الإسلام لم تكن على ظهر الأرض امة صالحة المزاج، ولا مجتمع قائم على أساس الأخلاق والفضيلة ، ولا حكومة مؤسسة على أساس العدل والرحمة ولا قيادة مبنية على العلم والحكمة ولا دين صحيح مأثور عن الأنبياء .

ويذكر ان ادوار التاريخ لم تعرف أكمل وأجمل وأزهر في جميع النواحي من دور الجيل الأول من المسلمين وهو دور عصر الرسالة والخلافة الراشدة ، فقد تعاونت فيه قوى الروح والأخلاق والدين والأدوات المادية في تنشئة الإنسان وظهور المدنية الصالحة .

ويجد ان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامها وحكم فيها الجيل الأول من المسلمين يعدُ فصلاً جديداً متميزاً في تاريخ الاديان والأخلاق وظاهرة جديدة في عالم السياسة والاجتماع وانقلب به تيار المدنية واتجهت به الدنيا اتجاهاً جديداً .

وظهر هذا واضحاً في تأثير العقلية الإسلامية والشريعة السمحاء في أخلاق الأمم مثل أوربا في الهند بعد الفتح الإسلامي ، ويشير الى أقوال بعض المؤرخين الذين يرون انه ما من ناحية من نواحي تقدم أوربا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضل كبير وأثار حاسمة.

ويطرح الإمام الندوي مسألة قيادة المسلمين للعالم ومن ثم انعزالهم ، اذ لابد من حضارة تقود العالم ويرى ان فلسفة ما وراء الطبيعة والفلسفة الإلهية التي ظهرت في أوربا أنهكت القوى العقلية ونتج عنها اضطهاد ديني واستبداد سياسي ، وفي ذلك يشير الى قول غوستاف لوبون من ان مصر أكرهت على انتحال النصرانية ، وهبطت الى حضيض الانحطاط ، ولم يخلصها منه سوى الفتح العربي الإسلامي ، ويذكر ان أوربا في القرن السابع الميلادي لم ينبثق منها فجر الحضارة والعلم بعد ، ولم تظهر الأندلس العربية الإسلامية ، وكانت أوربا بمعزل عن قافلة الحضارة الإنسانية .

ويرى إن الجور والظلم يؤديان الى الانحطاط والهرم ، وهو بذلك يوافق العلاّمة ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) ويرى ان سقوط الحضارة بسبب لفساد والظلم وهذه وقعت كثيراً في التاريخ وقد أشار اليها القرآن الكريم بقوله تعالى (كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك واورثناها قوما اخرين ما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين) ، ويلاحظ الإمام الندوي إن كل ناحية من نواحي الحياة الفاسدة تستدعي اهتمام المصلح وتشغل باله ، ولهذا ظهر المسلمون وتزعموا العالم وعزلوا الأمم المريضة من زعامة الإنسانية التي استغلتها وإساءات عملها ، وساروا بالإنسانية سيراً حثيثاً متزناً عادلاً .

وقد توفرت فيهم الصفات التي تؤهلهم لقيادة الأمم وتضمن سعادتها وفلاحها في ظلم وتحت قيادتهم ، وتمثل هذا في الجيل الأول من المسلمين في عصر صدر الإسلام .

وتطرق الى مسألة في غاية الأهمية وهي المد والجزر في الحضارة الإسلامية أي الازدهار والقوة والانحطاط والضعف في التاريخ الإسلامي وحضارته ، ووجه نقده للحضارة الأوربية وماديتها ، وأن انتقال القيادة الإسلامية الى غير الأكفاء والضعفاء من المسلمين ويطلق عليهم ابن خلدون الجيل الثالث ، وفصل الدين عن السياسة من بين أسباب انحطاط

المسلمين وسوء تمثيلهم للإسلام ،وانقسام المسلمين وتفرقهم وفقرهم الى قائد كبير مثل صلاح الدين الأيوبي ساهم في ضعف المسلمين ، وكان أسوء جيل من المسلمين امتاز بالجبن والخضوع والخنوع ، حتى انهار صرح الدولة الإسلامية على يد المغول سنة 656هـ/1258م .

وتضمن البحث المحاور الآتية :

مفهوم الفلسفة والتاريخ والحضارة.

حضارة العرب قبل الإسلام

ارتقاء حضارة المسلمين

الانقلاب الحضاري في التاريخ

أفول حضارة العرب المسلمين ودورهم القيادي

المسلمون والحضارة الغربية

مفهوم الفلسفة والتاريخ والحضارة[i]

1- الفلسفة لغة : أصل كلمة الفلسفة يونانية تتألف من مقطعين " فيلا – سوفيا " وتعني في اللغة العربية " حب الحكمة " [ii].

2- الفلسفة اصطلاحاً : هنالك عدة تعريفات للفلسفة فقد عرفها أفلاطون بأنها التفكير بجميع الأشياء وفي جميع الأزمات[iii] ، وعرفها أرسطو بأنها العلم الذي يبحث عن

(i) ذكر الكاتب قبل هذا نبذة عن حياة الشيخ الندوي، ورغم أنه ذكر أشياء قيمة إلا أننا حذفناها لتوفر كتب كثيرة في سيرة الإمام الندوي.

(ii) الشهرستاني، الملل والنحل : 155/2 ؛ ابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص 134 ؛ ابن النديم ، الفهرست ، ص 332 ؛ حامد حمزة الدليمي ، فلسفة التاريخ والحضارة ، ص 19 ؛احمد إسماعيل الجبوري ، تاريخ العلوم عند المسلمين ، ص 130 .

(iii) حامد الدليمي ، فلسفة التاريخ ، ص 20 ؛ عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، ص 211-212 .

العلل الأولى ومبادئ الموجودات[i] ، وعرفها ابن سينا بأنها معرفة الوجود كله بالعقل واستعمال النفس الإنسانية للمعرفة واستحصال الإنسان للفضائل[ii] .

3- التاريخ : عرفه ابن خلدون بقوله " إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول ، والسوابق من القرون الأول ، تنمو فيه الأقوال ، وتضرب فيه الأمثال ، وفي باطنه نظر وتحقيق ، وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق وجدير بأن يُعد في علومها وخليق[iii]

4- الحضارة لغة :

من حاضرة او الحاضرة من الحواضر ، وهي القرى ، وهي نوعان الأولى حواضر المدن التي تعني القرى المحيطة بالمدن او الملاصقة لها ، والثانية تعني القرى البعيدة عن المدن ، لأن الحواضر او القرى تنشأ عن الاجتماع الإنساني الذي يولد المدن لاحقاً[iv] .

وعرفها ابن خلدون بقوله " والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستمادة أحواله ، والكلف بالصنائع التي توفق من أصنافه وسائر فنونه ، ومن الصنائع المهيأة للمطابخ او الملابس او المباني او الفرش او الأبنية ولسائر أحوال المترل ، وإذا ابلغ التأنق هذه الأحوال المترلية الغاية تبعه طاعة الشهوات فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة " [v] .

5- الحضارة اصطلاحاً :

هي مجموعة المنجزات المادية والثقافية ، التي أنجزها أبناء شعب من الشعوب عبر التاريخ من اجل تحسين مستوى معيشتهم ، لذلك فالحضارة ثمرة الجهود الإنسانية التي تتراكم عبر العصور المختلفة والتي جاءت معبرة عن تفاعل الإنسان مع البيئة[vi] .

(i) احمد فؤاد الاهواني ، فجر الفلسفة اليونانية ، ص 16 ؛ حامد الدليمي ، فلسفة التاريخ ، ص 20 .

(ii) المرجع نفسه ، ص 20 ؛الكروي ، المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، ص 281 .

(iii) المقدمة ، ص 9-10 .

(iv) حامد الدليمي ، فلسفة التاريخ ، ص 206 ؛ أرشيد يوسف ، الحضارة الإسلامية ، ص 9 .

(v) ابن منظور ، لسان العرب : 4/196-197 ؛ عبد الرحمن الميداني ، الحضارة الإسلامية ، ص 19 .

(vi) المقدمة ، ص 443 ؛ عبد الرحمن الميداني ، الحضارة الإسلامية ، ص 19-20 .

حضارة العرب قبل الإسلام

لقد طرح الإمام الندوي مسألة في غاية الأهمية وهي ان العرب كانوا قبل الإسلام منعزلين عن الحضارة والاختلاط والتأثير مع الأمم الأخرى المتمدنة ، فقد عزلتهم البحار الثلاث ، والصحراء من جانب آخر ، واتصفوا بالانقسام والضعف و لم يفكروا يوماً في الانتصار على الأمم المجاورة(i) .

وقد تقاسم الفرس والروم الشرق والغرب و لم يفكروا يوماً بغزو الجزيرة العربية لوعورتها وقلة خيراتها ومواردها ، وأكتفوا بالمراقبة السياسية عليها وإنشاء الإمارات في الجزيرة(ii) .

و لم يكن للعرب دور أساسي في تاريخ العالم وتأثيرهم محدود على الحضارة العالمية ، ولكن مع هذا فهي امة موهوبة على بدواتها ، ولكنها كانت مواهب ضائعة ، ولا يذكرون إلا بفصاحة اللسان والشجاعة ، وجودة خيلهم ووفائهم(iii) .

ويشير الإمام الندوي الى المادية الجامحة والحسية المطلقة والانسياق مع النزعات والأهواء بصرف النظر عن المبادئ والأخلاق ، إلا ان تفقد الفطرة البشرية أصالتها ونظافتها ، وتصبح مريضة ممسوخة ويتعطل الوجدان السليم ، ويشل الحس الخلقي فلا يعمل ولا يؤثر ، وقد ولد نبي الله لوط (عليه السلام) في أمة هذا شأنها ، وقد بلغت الذروة في الانحطاط الخلقي والرذيلة(iv) ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك في قوله تعالى : (اتاتونَ الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازاجكم بل انتم قوم عادون)(v) .

اما منزلة العرب في العالم قبل الإسلام من قبل جيرانهم في الشرق والغرب فيذكر ان يزدجرد قال " اني لا اعلم في الأرض امة كانت أشقى واقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم " (vi) ويقصد هنا العرب .

(i) المد والجزر في تاريخ الإسلام ، ص 13 .

(ii) المرجع نفسه ، ص 14 .

(iii) المرجع نفسه ، ص 14-15 ؛ الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص 52-53 .

(iv) الندوي ، بين الدين والمدنية ، ص 47 ؛ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص 156-157 .

(v) سورة الشعراء ، اية 165-166 .

(vi) ابن كثير ، البداية والنهاية : 7/41-42 ؛ نزيه شحادة ، صفحات من الحضارة الإسلامية ، ص 20-21.

فأجابه المغيرة بن شعيب قائلاً " أيها الملك انك قد وضعتنا في صفة لم تكن بها عالم ، فأما ما ذكرت من سوء الحال ، فما كان أسوأ حالاً منا ، واما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع ، كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيّات ، ونرى ذلك طعامنا ، واما المنازل فانها هي ظهر الأرض ، ولا نلبس إلا ما غزلنا من اوبار الإبل وأشعار الغنم ، ديننا ان يقتل بعضاً بعض وان يبغي بعضنا على بعض ، وان كان احدنا ليدفن ابنته وهي حية ، كراهية ان تأكل من طعامه " [(i)] .

هنا يريد الإمام الندوي ان يقول ان حضارة العرب لم تكن مغالة وقوية لتؤثر في حال العالم وانما كانت ضعيفة مفككة وغير قادرة على التأثير الحضاري على العالم .

ارتقاء حضارة المسلمين

يشير الإمام الندوي الى سرعة تغير حال العرب وانقلاب الحقائق بعد ظهور الإسلام ، اذ خرج العرب المسلمون من الصحراء فاتحين ، يقهرون ويغلبون ، وهذه القوة خرجت من مدينة رسول الله (ﷺ) سنة 11هـ/632م ولم يعترضها أي شيء ، ولم تكن جيوش فارس والروم ومصر وغيرها المعدودة بمئات الألوف التامة السلاح لم تقف هذه الجيوش الجرارة بوجه المسلمين ، ولم يقف سيرهم ، حتى دخلوا الشام وفلسطين وسهول العراق وفارس ، وربوع مصر ، والمغرب الأقصى ، وأودية هملايا ، وسال هذا السيل القوي بالمدنيات العريقة ، او الحكومات القوية ، والأمم العريقة في مجدها وسلطانها ، فأصبحوا خبراً بعد عين كما جاء في قوله تعالى : (فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق) [(ii)] .

وكان العرب يكرهون مواجهة الفرس والروم لقوتهم في العدة والعدد ، ولكن هذه المرة هانوا عليهم وغزوهم في عقر دارهم ، ومزقوا جموعهم ، وهدموا عروشهم ، وفتحوا كنوزهم ، واقتسموا أموالهم ، وسبوا ذراريهم ، وكسروا شوكتهم ، فلم تعد أبداً ، وهلك كسرى فلا كسرى بعده وهلك قيصر فلا قيصر بعده كما جاء في قوله تعالى: [(iii)] .

(i) المصدر نفسه : 7/41-42 ؛ الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص 54 .

(ii) سورة سبأ ، آية 19 ؛ المد والجزر في تاريخ الإسلام ، ص 19-20 .

(iii) سورة الأعراف ، آية 137 ؛ المرجع نفسه ، ص 22 .

لقد كان العرب المسلمون بعيدين عن المدنية والترف ، خرجوا من الجزيرة العربية بثياب بسيطة ونعال مخصوفة وسيوف بالية الأجفان ورثة المحامل ، فيما لبثوا ان ملكوا الدنيا وامتلكوا ناصية أمم بعيدة الشأن في المدنية ، انقلب رعاء الشاة والإبل رعاة لأرقى طوائف البشر في العلم والمدنية والنظام ، وصار هؤلاء أساتذهم في العلوم والآداب والأخلاق والتهذيب وحقت كلمة الله تعالى : (ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين) [i] .

الانقلاب الحضاري في التاريخ

لقد كان العرب قبل الإسلام ضعفاء ليس لهم أي دور حضاري واضح يرتقي الى مستوى الحضارات المجاورة ليؤثر ويتأثر بها ، وكان خموداً عجيباً ، ولكن الشيء الذي أدهش المؤرخين هو الانقلاب الحضاري العجيب وهو لغز من الغاز التاريخ وهو ظهور الإسلام وما حدث للعرب المسلمين هو اغرب ما وقع في التاريخ الإسلامي ، وتحولهم من امة ضعيفة هزيلة الى أمة قائدة في الحضارة الإنسانية وفاعلة فيها وأشار المؤرخون الأوربيون أنفسهم الى هذا الانقلاب الحضاري بدهشة الى ما حدث ، ففي هذا الصدد يقول المؤرخ جيبون " بقوة واحدة ونجاح واحد زحف العرب على خلفاء أغسطس في الروم ، واصطخر في فارس ، وأصبحت الدولتان المتنافستان في ساعة واحدة فريسة لعدو لم يزل موضع الازدراء " [ii] .

ان الهدف الجذري من بعثة الأنبياء ، وان غاية تعاليمهم ومنتهى أعمالهم ، هو إحداث التغيير في هذه الحياة الدنيا المحدودة ، والقيام بالانقلاب الصالح ، وتأسيس الحضارة البشرية على الأسس الصحيحة ، وان الإسلام يهدف أصلاً الى تخريج جماعة من الصالحين تقوم ببناء المدنية الإنسانية على أساس الخير والفلاح[iii] .

(i) سورة القصص ، آية 5 ؛ الندوي ، المد والجزر ، في 22-23 .

(ii) الندوي ، المد والجزر ، ص 23-24 ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص 11-12 .

(iii) الندوي ، التفسير السياسي للإسلام ، ص 101-102 .

ويشير انه منذ عصر الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) اخضع العرب عدداً كبيراً من المدن والقلاع ، وانشأوا المساجد لعبادة المسلمين وامتد سلطان المسلمين من الهند حتى المحيط الأطلنطي[i] .

اما المؤرخ الأمريكي " ستودارو" فيذكر " كاد يكون نبأ نشوء الإسلام النبأ الأعجب الذي دوّن في تاريخ الإنسان ، ظهر الإسلام في امة كانت من قبل ذلك العهد متضعضعة الكيان وبلاد منحطة الشأن فلم يمضِ على ظهوره عشرة عقود حتى انتشر في نصف الأرض ممزقاً ممالك عالية الذرة ، مترامية الأطراف وهادماً أدياناً قديمة كرّت عليها الحقب والأجيال ومغيّراً ما بنفوس الأمم والأقوام ، وبانياً عالماً حديثاً متراص الأركان هو عالم الإسلام " [ii] .

ان سر قوة المسلمين وهذا الانقلاب العظيم الذي لا يوجد له مثيل في التاريخ ان العرب أصبحوا بفضل تعاليم محمد (ﷺ) أصحاب دين ورسالة ، فبعثوا بعثاً جديداً ، وخلقوا من جديد وانقلبوا داخل أنفسهم ، فانقلبت لهم الدنيا غير ما كانت وانقلبوا غير ما كانوا[iii] .

وهذا هو الجيل الأول من المسلمين الذين غيرّوا وجه التاريخ وفي هذا يقول ابن خلدون " لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد ، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم ، فحدهم مرهف ، وجانبهم مرهوب والناس لهم مغلوبون " [iv] .

وتكون الدولة في عهدهم في الطور الأول كما يشير ابن خلدون بقوله " طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية

(i) المرجع نفسه ، ص 24 .

(ii) المرجع نفسه ، ص 25 .

(iii) الندوي ، المدر والجزر ، ص 43 .

(iv) المقدمة ، ص 159 ؛ حامد الدليمي ، فلسفة التاريخ ، ص 224 . ؛ احمد إسماعيل الجبوري ، تاريخ العلوم عند المسلمين .

المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا ينفرد دونهم شيء لأن ذلك هو مقتضى العصبية التي وقع بها الغلب وهي لم تزل بعد بحالها " [i] .

ونظروا الى العالم من حولهم ، فاذا الفساد ضارب أطنابه ، واذا الظلم ماد رواقه ، واذا الظلام مخيّم على العالم كله ، وكل شيء في غير محله ، فمقتوه وبغضوه ، ونظروا الى الأمم وطوائف البشر حول جزيرتهم ، وطالما رأوها بتعظيم وإجلال وغبطة وإكبار ، فاذا هم انعام ودواب في صورة البشر[ii] ، كما جاء في قوله تعالى : (ويأكلون كما تاكل الانعام والنار مثوى لهم) [iii] .

وقد استهان المسلمون بأعدائهم وما فيهم من ترف ونعيم وزخارف الدنيا وزينة وقرأوا قوله تعالى (زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه) [iv] ، وقوله تعالى (فلا تعجبك اموالهم ولا اولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق انفسهم وهم كافرون)[v] .

وهذا يوافق ما ذكره ابن خلدون من ان سبب سقوط الحضارة هو الترف والنعيم وظهور الفساد والظلم بين الناس حيث قال " انما همتهم النعيم والكسب وخصبُ العيش والسكون في ظل الدولة الى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابع ذلك . فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ، ويتنعمون فيما أتاهم الله من البسطة ، وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ، ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية ، حتى يصير ذلكَ خلقاً لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم يتعاقبها الى ان تنقرض العصبية ،

(i) المقدمة ، ص 163 ؛ عبد العمري ، تاريخ العلم عن العرب ، ص 247 .

(ii) الندوي ، المد والجزر ، ص 43-44 .

(iii) سورة محمد ، آية 12 .

(iv) سورة طه ، آية 131 .

(v) سورة التوبة ، آية 55

فيأذنون بالانقراض ، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اشرافهم على الفناء فضلاً عن الملك ، والتهمتهم الأمم سواهم " [i] .

وكذلك يوافق رأي شبنكلر عندما يرى ان الحضارة تمر على الدول كما تمر الفصول الأربعة على السنة فالربيع هو ازدهار الحضارة وتطورها وقوتها ، فالعرب المسلمين كانوا في فترة الربيع ، والخريف هو فصل موت الحضارة واضمحلالها ، والعالم كان في فترة الخريف فماتت حضارتهم وقامت مكانها الحضارة الإسلامية الجديدة مثلما حدث لحضارة فارس[ii] .

ولذا نجد ان الله سبحان وتعالى أورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم واستخلفهم في الأرض ومكنهم فيها من اجل بناء حضارة جديدة على ضوء الدين الجديد كما جاء في قوله تعالى : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون) [iii] ، وقوله تعالى: (وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا) [iv] .

وان حضارة الإسلام قادمة لا محالة ولا مجال لعودة الحضارات القديمة وقوله (ﷺ) " إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده ، واذ هلك قيصر فلا قيصر بعده ، والذين نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله " [V] . أي ان المسلمين بدينهم الجديد وحضارتهم قادمون ومغيرون وجه التاريخ .

أفول حضارة العرب المسلمين ودورهم القيادي

(i) المقدمة ، ص 131-132 .

(ii) حامد الدليمي ، فلسفة التاريخ ، ص 250 .

(iii) سورة الأنبياء ، آية 105 .

(iv) سورة النور ، آية 55 .

(V) الترمذي ، سنن الترمذي ، رقم الحديث 2216 ، ص 607 .

لما طال الأمد على المسلمين ، وقست قلوبهم ، ونسوا وتناسوا ما لأجله بعثهم الله على كثرة من الناس وتوافر أمم من أمم الأرض كما جاء في قوله تعالى : (كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) [i].

ويشير الإمام الندوي الى مسألة في غاية الأهمية ألا وهي ان المسلمين نسوا الهدف الذي خرجوا من اجل تحقيق من جزيرتهم ، وهو إخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله ، وأصبحوا يحكمون الناس حكم الناس على الناس وصاروا يعيشون حياة لاهية حرة ، حياة ترف وحب الدنيا ، وصاروا لا يختلفون عن الأمم الذين خرجوا لمقاتلهم ، عادوا ليقلدوها في المدينة والترف الحضاري وسياستها وأخلاقها ومناهج حياتها[ii] .

وفي هذا الصدد يشير ابن خلدون ان المسلمين تحولوا من الجيل الأول الى الجيل الثالث بقوله " فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ، ويفقدون حلاوة العزّ والعصبية بما هم فيه من ملكة القهر ويبلغ فيهم الترف غايته بما تفتقوه " توصلوا اليه " من النعيم وغضارة العيش ، فيصيرون عيالاً على الدولة ، ومن جملة النساء والولدان المحتاجين للمدافعة عنهم ، وتسقط العصبية بالجملة ، وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها ، وهم في الأكثر اجبن من النسوان على ظهورها فاذا جاء الطالب لهم لم يقاوموا مدافعته ، فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر الموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يأذن بأنقراضها " [iii] .

وكذلك نجد ان المسلمين أصبح لا هم لهم سوى الأكل والشرب والتناسل وأصبحوا كرعايا الناس ليس لهم فرقان ولا نور يمشون به بين الناس وتشبه أمراء المسلمين بملوك غير

(i) سورة آل عمران ، آية 110 .

(ii) المد والجزر ، ص 63-64 .

(iii) المقدمة ، ص 159 ؛ حامد الدليمي ، فلسفة التاريخ ، ص 224 .

المسلمين ، وكبار الأغنياء ، وكاد ان يسبق فجارهم فجارها ، تحاسد وتباغض ومنافسة في السلطان والركون الى الدنيا ، وإخلاء الى الترف والنعيم والفساد(i) .

ويشير ابن خلدون الى هذه المسألة بقوله " ثم لا يزالون يتلونون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة الحاشية في جميع أحوالهم ، وينغمسون فيها ، وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة ، وينسلخون عنها شيئاً فشيئاً ، وينسون خلق البسالة التي كانت بها الحماية والمدافعة " (ii) .

وقال " رتبيل ملك رُخَّج(iii) وسجستان(iv) لرسول الخليفة يزيد بن عبد الملك " " وقد جاءوا اليه يطالبونه بالخراج " ما فعل قوم كانوا يأتونا : خماص البطون ، سود الوجوه من الصلاة ، نعالهم خوص ؟ قالوا : انقرضوا ، قال : أولئك أوفى منكم عهداً واشد بأساً ، وان كنتم أحسن منهم وجوهاً " (v) ، فلم يعط أحداً من عمال بني أمية ، ولا عمال ابي مسلم على سجستان من تلك الإتاوة شيئاً(vi) .

هنا بحث " رتبيل " عن الجيل الأول من المسلمين الذين كانوا اشد قوة وأكثر تقوى وخوف من الله ، وكان يخشاهم ، في الوقت الذي لم يخاف من الجيل اللاحق لعلمه بضعفهم وقلة قوتهم ونكث عهدهم .

وبدأ ضعف دور العرب الحضاري والقيادي منذ القرن الثاني للهجرة وازداد ضعفاً في القرون اللاحقة ، وتحول المسلمون من مصلحين الى مفسدين في الأرض ، عندها بعث الله اليهم قوماً اولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار(vii) .

(i) الندوي ، المد والجزر ، ص 63-64 .

(ii) المقدمة ، ص 158 .

(iii) رُخَّج : كورة ومدينة من نواحي كامل ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : 38/3 .

(iv) سجستان : وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة من بلدان المشرق ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان : 19/3 .

(v) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 14 .

(vi) المصدر نفسه ، ص 104 .

(vii) الندوي ، المد والجزر ، ص 66 .

وهنا يوافق رأي ابن خلدون بقوله " تحول حالهم بالملك والترف من البداوة الى الحضارة ، ومن الشظف الى الترف والخصب ، ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به ، وكسل الباقين عن السعي فيه ، ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة ، فتنكسر صورة العصبية بعض الشيء ، وتؤنس منهم المهانة والخضوع "[i] .

عندها سلط الله عليهم المغول والتتار وهم الجيل الأول الذين كانوا أسقى الناس واجهلها وأوحشها فوضعوا فيهم السيف واجروا دمائهم سيولاً وانهاراً ، وأقاموا من رؤوسهم صروحاً وتلالاً ، وتمكن في قلوبهم الوهن والضعف حتى أصبحوا لا يصدقون بهزيمة التتار[ii] .

وهنا يذكر ابن خلدون " وهم في الأكثر اجبن من النسوان على ظهورها ، فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعته "[iii] .

وأشار ابن الأثير الى ذلك بقوله " سمع عن بعض أكابرهم انه قال " من حدثكم ان التتر انهزموا وأسروا فلا تصدقوه " وقال وقع رعبهم في قلوب الناس حتى كان احدهم اذا لقي جماعة ليقتلهم واحداً واحداً ، وهم دهشون ، ودخلت امرأة من التتر داراً وقتلت جماعة من أهلها ، وهم يظنونها رجلاً ، ودخل واحد منهم درباً فيه مئة رجل ، فما زال تقتلهم واحداً واحداً حتى أفناهم ، ولم يمد احداً يده بسوء اليه ، ووضعت الذلة على الناس فلا يدفعون عن أنفسهم قليلاً ولا كثيراً[iv] .

جيل من المسلمين ضعفاء ، وجيل من التتر أقوياء ، ويذكر انه اخذ أسيراً منهم ، فألقى نفسه من الدابة وضرب رأسه بالحجر الى أن مات ، ولم يسلم نفسه للأسر[v] .

هذا التحول الذي طرأ على المسلمين من القوة الى الضعف ومن العز الى الذل بسبب ركونهم الى الدنيا وترفها وفي هذا الصدد يقول ابن الأثير " لقد بقيت عدة سنين معرضاً

(i) المقدمة ، ص 159 .

(ii) الندوي ، التفسير السياسي للإسلام ، ص 121 .

(iii) المقدمة ، ص 159 .

(iv) الكامل في التاريخ : 12/ 377 ، 378 ، 384 .

(v) المصدر نفسه : 384/12 .

عن ذكر هذه الحادثة ، استعظاماً لها كارهاً لذكرها ، فانا أقدم اليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الإسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فيا ليت أمي لم تدلني ، ويا ليتني متُّ قبل حدوثها ، وكنت نسياً منسياً " [i] .

ويرى الإمام الندوي ان الحضارة الإسلامية بعد الخلافة الراشدة تأثرت بالحضارة اليونانية والفارسية وابتعدت عن الحضارة الإسلامية الأصلية ، وابتعد المسلمون عن التعاليم الإسلامية ، وإظهار مظاهر الترف والغنى في كل مناحي الحياة في المأكل والملبس والعمارة والفن ، في الوقت الذي يحث الإسلام على عدم التبذير والإسراف ، وكل ما يؤدي الى الغفلة في الحياة وانشغال القلب في الدنيا والترف ، وفي الوقت الذي كانت فيه عوامل رقي ونمو في المدنية ، فهي ايضا من عوامل انحطاط المدنية[ii] .

ونلاحظ ان لم يزد المسلمون إلا ضعفاً ، ولم تزدد أخلاقهم على مر الأيام إلا انحطاطاً وتدهوراً ، ولا أحوالهم ولا شؤونهم إلا فساداً حتى أصبحوا اليوم اضعف جيل إسلامي في التاريخ بحيث أصبحت بلاد المسلمين مالاً سائباً لا مانع له ، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس ، وطعمة لكل أكل ، وحق قول الرسول (ﷺ) " يوشك الأمم ان تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها فقال قائل ، ومن قلة نحن يؤمئذ ؟ قال : بل انتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاءً كغثاء السيل ، وليترعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت " [iii].

ونتيجة لهذا ظهر في المسلمين أسوأ جيل عرفه تاريخ الإسلام ، وهذا الجيل يصفه ابن خلدون " وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ، ويلبسون على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يموهون بها " يخدعون بها " وهم في الأكثر اجبن من النسوان على ظهورها ، فاذا جاء الطالب لهم لم يقاوموا مدافعته " [iv] .

(i) المصدر نفسه : 358/12 .

(ii) بين الدين والمدنية ، ص 101-102 .

(iii) ابو داود ، سنن ابي داود ، رقم الحديث : 4297 : 108/4 .

(iv) المقدمة ، ص 159 .

هذا الجيل متنور الذهن ، ولكن مظلم الروح ، أجوف القلب ، ضعيف اليقين ، قليل الدين ، قليل الصبر والجَلَد ، ضعيف الإرادة والخلق ، يبيع دينه بدنياه ، وأجله بعماجله ، ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية وعزة وهمية ، وضعيف الثقة بنفسه وامته ، عظيم الاتكال ، كثير الاستناد الى غيره ، كما جاء في قوله تعالى : (واذا رايتهم تعجبك احسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كاهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم)[i].

وهؤلاء هم الذين نشروا في المسلمين الجبن والوهن ، وصرفوا المسلمين عن الاتكال على الله ، ثم الاعتماد على أنفسهم ، الى الاعتماد على غيرهم ، والتكفف لديهم والالتجاء في مواقع الخطر اليهم ، اطفؤوا في قلوبهم شعلة الجهاد في سبيل الله والحمية للدين[ii].

المسلمون والحضارة الغربية

يرى الإمام الندوي ان المسلمين ومنذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي واجهوا مشكلة في غاية الدقة والخطورة ألا وهي مشكلة الحضارة الغربية الفتية الدافقة بالحياة والنشاط وقوة الانتشار والاستيلاء ، وهي من أقوى الحضارات التي عرفها التاريخ[iii].

واجه العالم الإسلامي هذه المشكلة لأنه كان قائد الرسالة الدينية والخلقية وصاحب القوى الكبرى التي يحسب لها الحساب ، وصاحب الدول الواسعة ، فكان تحدي هذه الحضارة المادية للعالم الإسلامي أعظم من تحديها لأي امة ولأية حضارة أخرى ، وهي خلاصة لتجارب خاصة مرت بها الشعوب الأوربية ، وأصبحت مظهر تقدم العلم البشري وعلوم الطبيعة وعلم الآلات والعلوم الرياضية[iv].

إذن كان لابد للعالم الإسلامي ان يقف موقفاً واحد من بين ثلاثة مواقف الأول موقف السلبية : وهو ان يرفض العالم الإسلامي هذه وما جاءت به بتاتاً ، ويقف منها موقف المعارض الثائر ، او موقف المعتزل المحائد ، لا يقبس منها شيئاً ولا يسمح بدخول علم من

(i) سورة المنافقون ، آية 4 .

(ii) الندوي ، المد والجزر ، ص 75-76 .

(iii) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، ص 11-12 .

(iv) الندوي ، الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية ، ص 12 .

العلوم التي كان فيها الأوربيين التفوق والاختصاص ، وهذا لابد ان ينتج عنه التخلف الشديد عن ركب الحياة[i] .

والموقف الثاني هو موقف الاستسلام والخضوع ، موقف المقلد المؤمن المتحمس ، وهو ان يقبل العالم الإسلامي او جزء منه هذه الحضارة المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة بحذافيرها ، بكل عقائدها ومناهجها ، وفلسفتها ونظمها الاقتصادية والسياسية ، وهذه نشأت في بيئة تختلف تماماً عن بيئة العالم الإسلامي ، ويحاول تطبيقها في هذا البلد الإسلامي او ذاك ، ويتحمل في هذا كل صعوبة وعنت ، ويدفع له أعظم ثمن[ii] .

اما الموقف الثالث والصحيح ، وهو الموقف العادل والذي يجب ان يقفه العالم الإسلامي، وهو الأمة الإسلامية هي صاحبة الرسالة الدينية الأخيرة وهذه الرسالة هي التي يجب ان تسيطر على جميع مواقفها وتصرفاتها ، كما جاء في قوله تعالى : (كنتم خير امة اخرجت للناس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)[iii] ، لذا يجب ان لا يكون مكان هذه الأمة في آخر الركب ، وان تعيش على هامش الأمم وترضى بذلك ، فلا يكون موقفها صحيح ، إلا اذا كان موقف الحر الكريم ، القوي الإرادة ، المستقل التفكير ، ويختار ما يلائمه ويطابقه ، ويترك ما لا يلائمه ويضعف شخصيته ومركزه ويفقده امتيازه ويدمجه في غيره[iv] .

لذا نهيت هذه الأمة عن التشبه بقوم بشعائرهم وشاراتهم ، وهي امة ذات هدف معين في الحياة ، ورسالة كاملة في العالم ، وحضارتها وثقافتها وكفاحها ، وإنتاجها ، خاضع لعقيدتها ورسالتها ، وليس من مهمتها بسط السيطرة على الإنسان او على الأكوان ، وتسخير الطاقات البشرية او القوى الطبيعية ، كما جاء في قوله تعالى (تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين)[V] .

(i) المرجع نفسه ، ص 13-14 .

(ii) المرجع نفسه ، ص 49 .

(iii) سورة آل عمران ، آية 110 .

(iv) المرجع نفسه ، ص 219 .

(V) سورة القصص ، آية 83 .

ويرى الإمام الندوي ان الحضارة الغربية قد ولدت وترعرعت في عصر قد ثار على الدين وأسسه من الإيمان بالغيب وغير ذلك ، وثاروا على الذين تزعموا الدين واستغلوه لشهواتهم وأنانياتهم ، واشتد غضبهم لسوء سيرتهم وهمجيتهم ووقوفهم في سبيل التقدم وحرية العقل والعلم ، فترافق نشوء الحضارة والصناعة والاتجاه المادي الضيق والاتجاه الى تنظيم الحياة على أسس مادية خالصة ، وقطع صلة المجتمع والبشرية عن الله الخالق لكل شيء(i) .

ويؤكد على ان التصميم الحضاري محنة ذكاء ، وعصامية وعبقرية ، وقوة إرادة وفقه دين ليس مجرد عملية نقل وتطبيق ، وتعديل وتحسين ، ان الإسلام قد حدد حدود الحلال والحرام ، وحرم تخطي هذه الحدود ، وأفسح المجال بينها للتمتع التزيه ، من غير إسراف وإجحاف ، ومس بحقوق الآخرين ، ومن دون الوقوع في الإثم والفحشاء والمنكر والتبذير، وهذه هي التي تحدد أحكام اللباس والطعام والعشرة والاجتماع والمتعة ، والابتعاد عن الفساد الذي يؤدي الى سقوط الحضارة ، والاحتفاظ بالشخصية الإسلامية وأصالتها وعدم الشعور بالنقص وعدم الثقة(ii) .

ويرى ان الحضارة الغربية قد أخذت الكثير من الحضارة الإسلامية بما فيها طرق البحث العلمي الصحيحة ، والتي يرتكز عليها العلم الحديث ، وكل ما قدمته الحضارة الإسلامية ، والحضارة الغربية هو ملك الناس اجمع(iii) .

ويؤكد على ان الحضارة الإسلامية يجب ان يكون أساسها ان تملك نعومة الحرير في مسايرة المقتضيات، والحاجات والحقائق غير معترضة ولا مختلفة ، وغير متخيلة ولا مبالغ فيها ، أي حضارة تؤثر وتتأثر بالحضارات الأخرى مع الحفاظ على أصالتها وثوابتها ، وصلابة الحديد ، وثبات الجبال على حدود القصيدة والأخلاق أي انها مفتوحة العقل

(i) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، ص 225 .

(ii) المرجع نفسه ، ص 227 .

(iii) المرجع نفسه ، ص 230 ؛ إبراهيم بيومي مدكور ، اثر العرب والإسلام في النهضة الأوربية ، ص 162-163 ؛ للمزيد ينظر : زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب ، ص 239 .

والضمير ، منشرحة الصدر ، مهيئة لاقتباس العلوم النافعة ، واقتباس النظم والأساليب التي لا تمس جوهر الدين ، ولا تغير وضع الأخلاق[i] .

الخاتمة

تبين لنا من خلال البحث الاستنتاجات التالية :

1. ان ازدهار حضارة المسلمين وقوتهم ومن ثم ضعفهم وانحطاطهم تابعاً للمدد والجزر في الإيمان ، وقوة معنوياتهم التي تنبثق من الدين ، وان منبع قوة هذه الأمة في باطنها وهو القلب والروح .
2. لم يكن للعرب دور أساسي في تاريخ العالم وتأثيرهم محدود على الحضارة العالمية قبل الإسلام ، ولم تكن حضارة فعالة وقوية .
3. تغير حال العرب المسلمين وانقلاب الحقائق بعد ظهور الإسلام والانقلاب الحضاري العجيب ، والذي يعد لغز من الغاز التاريخ .
4. تحول العرب بعد ظهور الإسلام من امة ضعيفة هزيلة الى امة قائدة في الحضارة الإنسانية وفاعلة فيها .
5. ان سر قوة المسلمين والانقلاب الحضاري العظيم الذي لا يوجد له مثيل في التاريخ كان بفضل تعاليم الإسلام والرسول (ﷺ) وأصبحوا أصحاب دين ورسالة ، وبعثوا بعثاً جديداً وخلقوا من جديد .
6. ان الجيل الأول من المسلمين هم الذين غيروا وجه التاريخ واثروا في الحضارة الإنسانية ، وأصبحت دولتهم ضمن الطور الأول كما يشير الى ذلك العلاّمة ابن خلدون .
7. رأى المسلمون من حولهم فساد العالم والظلم والظلام مخيم على العالم كله ، وكل شيء غير محله فنعتوه وبغضوه وثاروا عليه .
8. استهان العرب المسلمون بأعدائهم وما فيهم من ترف ونعيم وزخارف الدنيا وزينة وحبهم لها .

(i) المرجع نفسه ، ص 227-228 .

9. أيقنوا بأن حضارة الإسلام قادمة ولا مجال لعودة الحضارات القديمة .

10. لما تناسى المسلمون ما لأجله بعثهم الله ودنسوا الهدف الذي خرجوا من اجله ، وصاروا يعيشون في ترف وحب الدنيا ، ضعفوا وهانوا على الأمم .

11. ظهر في المسلمين جيل هو أسوأ جيل عرفه التاريخ ، جيل ضعيف الإرادة والخلق يبيع دينه بدنياه ، وبسببهم أصبحت بلاد المسلمين مالاً سائباً ، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس ، وهؤلاء نشروا في المسلمين الجبن والوهن ، ابتداءً من سقوط بغداد على يد المغول سنة 656هـ/1258م والى اليوم .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الأولية :

ابن ابي اصيبعة : موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي (ت 668هـ/1269م) .

1- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق : د. نزار رضا ، بيروت ، 1965 .

ابن الأثير : عز الدين علي بن ابي الكرم محمد بن محمد (ت 630هـ/1232م) .

2- الكامل في التاريخ (12) جزء ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1965 .

البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (ت 279هـ/892م) .

3- فتوح البلدان ، باعتناء دي خويه ، ليدن ، 1866م .

الترمذي : ابو عيسى محمد بن عيسى بن سورة (ت 279هـ/909م).

4- سنن الترمذي ، الطبعة الأولى ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، 2000م.

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت 808هـ/1405م).

5- المقدمة ، الطبعة الثانية ، المطبعة العصرية ، بيروت ، 2008 .

ابو داؤد : سليمان بن الاشعث السجستاني الازدي (ت 275هـ/888م) .

6- سنن ابو داؤد ، لطبعة الرابعة ، دار الحديث ، القاهرة ، 1988 .

الشهرستاني : ابو الفتح محمد بن عبد الكريم بن ابي بكر بن احمد (ت 548هـ/1153م) .

7- الملك والنحل (3) أجزاء ، تحقيق : عبد العزيز محمد الوكيل ، دار الاتحاد العربي للطباعة ، مؤسسة الحلبي وشركاؤه ، القاهرة ، 1968 .

ابن كثير : عماد الدين ابو الفداء إسماعيل بن عمر (ت 774هـ/1372م) .

8- البداية والنهاية في التاريخ (10) أجزاء ، الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، 1932 .

ابن منظور : محمد بن ابي مكرم بن علي بن احمد الأنصاري (ت 711هـ/1311م).

9- لسان العرب ، دار صادر ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ، 1955 – 1956 .
ابن النديم : ابو يعقوب محمد بن إسحاق (ت 385هـ/995م) .
10- الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، 1978 .
ياقوت الحموي : ابو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626هـ/1228م) .
11- معجم البلدان (5) أجزاء ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، 1955 .

ثانياً : المراجع

أرشيد ، يوسف ابو أرشيد
12- الحضارة الإسلامية ، الطبعة الثانية ، الرياض ، 2005 .
الاهواني ، احمد فؤاد
13- فجر الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، 1954 .
الجبوري ، احمد إسماعيل
14- الحضارة والنظم الإسلامية ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، عمان ، 2013 .
15- تاريخ العلوم عند المسلمين ، الطبعة الأولى ، دار الفكر ، عمان ، 2014 .
الدليمي ، حامد حمزة
16- فلسفة التاريخ والحضارة ، دار الطيف ، واسط ، 2004 .
شحادة ، نزيه
17- صفحات من الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 2006 .
عاشور وآخرون ، سعيد عبد الفتاح
18- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية ، الطبعة الثانية ، دار ذات السلاسل ، الكويت، 1986 .
العمري ، عبد الله
19- تاريخ العلم عند العرب ، الطبعة الأولى ، دار الجدلاوي ، عمان ، 1990 .
الكروي ، إبراهيم سلمان ، عبد التواب شرف الدين
20- المرجع في الحضارة العربية الإسلامية ، الطبعة الثانية ، منشورات ذات السلاسل ، الكويت، 1987 .
ماجد ، عبد المنعم
21- تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ، د/ت .
مدكور ، إبراهيم بيومي
22- اثر العرب والإسلام على النهضة الأوربية ، الهيئة المصرية للتأليف والنشر ، 1970 .
الميداني ، عبد الرحمن حسن هنكة

23- الحضارة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، 1998 .

هونكة ، زيغريد

24- شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة : فاروق بيضون وكمال دشوقي ، منشورات دار الأناقة ، بيروت ، 1967 .

الندوي ، ابو الحسن علي الحسفي

25- بين الدين والمدنية ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1981 .

26- التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ ابي الاعلي المودودي والشهيد سيد قطب ، دار آفاق الغد ، القاهرة ، 1980 .

27- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ، دار الندوة ، بيروت، 1968 .

28- في مسيرة الحياة ، دار القلم ، بيروت ، 2012 .

29- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الطبعة السادسة ، دار الكتاب العربي ، بيروت، 196.

30- المد والجزر في تاريخ الإسلام ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، 1998

موقف العلّامة أبي الحسن الندوي من واقع المسلمين ومنهجه في التجديد والإصلاح

د. مسعود بودوخة
كلية الآداب واللغات جامعة سطيف 2/ الجزائر

تمهيد:

جاءت رسالة الإسلام فكانت نورا أشعّ على العالم، فأخرجت أقواما من وهدة الجاهلية إلى نور الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

وعرفت أمة الإسلام خلال تاريخها فترات مدّ وجز، تفاوتت فيها أحوالها واستطاعت — مع ذلك — أن تستوعب كثيرا ممّا ألّم بها، وحوّلت بعض هزائمها إلى انتصارات حضارية. وسبب ذلك أنّ روحها كانت حية، وبنيانها كان متماسكا، وحضارتها كانت هي الأعلى.

ولكنّ الأمة الإسلامية لم تعرف طيلة تاريخها ظروفا أحلك من التي تعيشها الآن، ذلك أنها لا تواجه هزيمة عسكرية عارضة تمحوها كرّة من الكرّات على عدوّها، ولا تواجه مشكلة داخلية قد تتجاوزها بحنكة أولي الألباب فيها، وإنّما تواجه هزيمة حضارية نافس فيها ضعفُ أبنائها كيدَ أعدائها، وحقّ عليها قول نبيّها مخبرا أصحابه عنها:"توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قيل: أو من قلة يا رسول الله؟ قال: لا أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السيل".

وواقع الأمّة الإسلامية اليوم يحمل على الأسى الشديد؛ أعداءُ متربّصون متحكّمون، وأبناء متفرّقون عاجزون، وحكّامٌ مستبدّون، وشبابٌ متغرّبون مسلوبون.

وقد توالت جهود الدعاة المصلحين، فكانوا نجوما هادية في ليل الأمّة الحالك، ومصابيح هدى يهدي بهم الله من شاء إلى صراط مستقيم.

ومن هؤلاء الدعاة المربين مولانا أبو الحسن الندوي، فهو شامة بين الدعاة، وقامة بين المربّين، محض النصح للأمّة، وعاش حياته متألّما لحالها، باذلا جهده وعلمه في سبيل نهضتها،

وعودتها إلى دينها وقيامها على أمانة الله التي ائتمنها عليها، وأداء الرسالة التي في عنقها تجاه الإنسانية، مع ما يستتبع ذلك من العزّة والنصر والتمكين، والخروج من ربقة الانحطاط إلى رحاب الازدهار والشهود الحضاري.

والمتأمل لعناوين الكتب التي ألّفها العلامة أبو الحسن وما قدّمه من محاضرات ودراسات يجدها تدور على محور واضح المعالم، هو الواقع المرير الذي تشهده الأمّة الإسلامية بفعل عجز أبنائها وكيد أعدائها، بعد أن كانت هادية العالم إلى الحق والخير والجمال، والطريق السديد لخروج الأمة من هذا الواقع وعودتها إلى الإسلام من جديد إنقاذا لنفسها وللبشرية قاطبة، وأداء للأمانة العظيمة التي أنيطت بها.[i]

ومن دلائل عمق فقه الإمام الندوي أنه لا يحمّل مسؤولية انحطاط المسلمين أعداءهم بقدر ما يحمّلها المسلمين أنفسهم، إذ ديدن الأعداء الكيد والتربّص، أما المسلمون فأُتُوا من تقصيرهم وبعدهم عن دينهم.

وبعد رحلة قادت الإمام الندوي إلى دول المشرق الإسلامي ومعايشته لأوضاع المسلمين عن كَثَب خرج من هذه الرحلة بخلاصة عامّة يجملها في أمرين:

ــ بعد الحكام العرب عن الدين ومنهجه.

ــ وضعف وعي الشعوب العربية[ii].

نعم الحكّام والمحكومون يتقاسمان مسؤولية الانحطاط ويشتركان في افتقادهم لأكبر منبع للقوة والحياة وهو الإيمان، واستسلامهم إلى عدوّين هما أفتك بهم وأضر لهم من الغول والتتار كما يقول العلامة أبو الحسن، هذان العدوان هما:

ــ الشكّ وضعف اليقين الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه.

---

[i] ينظر مثلا من هذه العناوين: ماذا خسر العالم الإسلامي، أكبر خطر على العالم الإسلامي، في سبيل القيادة والسيادة، واقع العالم الإسلامي، العرب والإسلام، مذكرات سائح في بلاد الشرق، وامعتصماه، دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها ...

[ii] مذكرات سائح في بلاد الشرق، دار ابن كثير، دمشق، 1422هـ/ 2001م ، ص 282

ـــ والذلّ النفسي الذي جعلهم يشعرون بالذلة والهوان في داخل أنفسهم، وفي أعماق قلوبهم، فيزدرون كل ما يتصل بهم من دين وأخلاق ومبادئ[i].

كان الإمام أبو الحسن يتألّم لأوضاع المسلمين، ويشير إلى الخلل العام الذي أصاب الحياة الإسلامية والفكر الإسلامي، في الميادين المختلفة، السياسية والأخلاقية والاجتماعية والعلمية، ولكنها كلها فروع عن أصل واحد هو الانحطاط الحضاري.

الانحطاط الحضاري:

إذا كان لأوضاع المسلمين السيئة من عنوان يجمعها فهو الانحطاط الحضاري، ولقد عاش العلامة أبو الحسن متألّما لهذا الانحطاط متحسّرا على أوضاع المسلمين الراهنة لافتا الأنظار إلى أسباب هذا الانحطاط وسبل الانعتاق من ربقته. ويصوّر حال المسلمين في فجر القرن الرابع عشر الهجري فيصفهم بأنهم "أمة جوفاء، لا روح فيها ولا دم، وصاروا كصرح عظيم من خشب منخور قائم، لايزال يؤوي الناس ويهول من بعيد، أو كدوحة قد تآكلت جذورها، ونخر جذعها العظيم ... وأصبحت بلادهم مالا سائبا لا مانع له، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس، وطعمة لكل آكل"[ii].

والمفارقة المؤلمة في واقع المسلمين المرير أنّهم لم يكونوا في فترة من فترات التاريخ أغنى وأقوى وأوسع منهم في هذا الزمان – كما يقول العلامة أبو الحسن – ولكنهم مع هذا لم يكونوا أهون ولا أذلّ ولا أضعف ولا أخف في الميزان السياسي الدولي منهم في هذا الزمان، وهذا تناقض تحار فيه الألباب[iii].

نعم إنه تناقض مؤلم وهو دليل قاطع على أن أسباب العزة والتمكين لم تكن في يوم من الأيام مالا يكنـــز، أو مساحة تتّسع، وإنما هي أسباب أخرى أوّلها الإيمان والاعتزاز به، وتمثّله في حركة الحياة.

---

[i] المد والجزر في تاريخ الإسلام، دار القلم ، دمشق، الدار الشامية، بيروت، 1419هـ/1998م، ص 74

[ii] المرجع نفسه، ص71.

[iii] أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين، دار الصحوة، ط1، 1405هـ/ 1985م، ص 72.

ولّما كانت الطبيعة لا تقبل الفراغ، وكان الصراع والتدافع سنّة ماضية في الخلق إلى يوم الدين، كان انحطاط المسلمين الحضاري متزامنا مع سطوع نجم حضارة الغرب اللادينية، وقد أدّى انسحاب المسلمين من ميدان الحياة وتنازلهم عن قيادة العالم إلى أن قادت أوربا العالم، ولكنها قادته إلى الجاهلية[i].

إن الصراع بين الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية ليس صراعا بين حضارتين عاديتين، لا إنّه يمثّل أكثر فصول الصراع إثارة بين حضارة وفلسفة في الحياة تقوم على المادية واللّادينية، وبين حضارة يمثّل التوحيد عمادها ومحورها الذي لا تقبل الدوران على غيره من المناهج والمذاهب والفلسفات[ii].

وإذا كان الوحي الإلهي هو منبت الحضارة الإسلامية وأساسها، فإن الثورة على الدين كانت هي منبت الحضارة الغربية، فحين اشتد الصراع بين الكنيسة وتعاليمها المضادة للعلم والعقل والحرية وبين سعي الساعين إلى التخلّص من ربقتها وأغلالها وكتبت الغلبة لهؤلاء، رسخ في عقولهم ووقر في قلوبهم – حين لم يجدوا نور الحق – أن الدين (مطلقا) عقبة كؤود في طريق الحرية والعلم والحياة، وما درى هؤلاء أنهم جَنَوا على أنفسهم وعلى الإنسانية قاطبة.

وبعد أن كان المسلمون قطبا حضاريا يجذب إليه غيره من الأمم والشعوب والأفراد، أصبحت حضارة الغرب هي القطب الجاذب، وساهمت فتوحاتها العلمية واختراعاتها التقنية وفلسفاتها المادية في تقوية سلطانها على العقول والقلوب، ولذلك وجدنا العلامة أبا الحسن يجعل من أهم العوامل التي غيّرت اتجاه العالم الإسلامي، الحضارة الغربية وما رافقها من ثروة هائلة أثّرتا في أخلاق الأمّة وحياتها[iii].

ووصل الأمر بالشعوب الإسلامية إلى أنّ كثيرا منها ــ وبتأثير الفلسفات الغربية والتفكير الغربي ــ أصبحت تمجّد عهدها العتيق الذي سبق الإسلام وحضارته وتقاليده،

---

[i] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الغد الجديد، القاهرة، 1426هـ/ 2005م ، ص235.

[ii] مذكرات سائح في بلاد الشرق، ص55.

[iii] كارثة العالم العربي وأسبابها الحقيقية ، رابطة العالم الإسلامي، مكة، 1387هـ، ص 16.

وتَحِنُّ إليهوتحرص على إحياء شعائره وتخليد عظمائه وأبطاله وملوكه وأمجاده، كأنه عهدها الذهبي، وفي ذلك من الجحود والنكران ما لا يعقل[i].

وإذا كان الانحطاط الحضاري لدى المسلمين عامّا شاملا لمختلف المجالات فإن هناك ثلاثة جوانب تبرز أكثر من غيرها في فكر العلامة أبي الحسن الندوي هي:

الجانب السياسي، والجانب الأخلاقي، والجانب الفكري، وسنتناولها تباعا بإذن الله.

الجانب السياسي:

الجانب السياسي من أكثر الجوانب حساسية في الأزمة التي تعيشها الأمّة الإسلامية؛ ذلك أنّه لا سيادة للمسلمين على أنفسهم ولا شهادة ممكنة لهم على غيرهم إذا لم يمتلكوا قرارهم السياسي، فيمنعوا غصب الغاصب واعتداء المعتدي، إن لم يستطيعوا إقامة الحجّة على غيرهم بتبليغهم الرسالة.

وأبرز مظاهر النّكبة التي يعيشها المسلمون هذه التفرقة الظالمة بينهم، وتلك التجزئة التي كرّستها الحدود السياسية بين الشعوب المسلمة، حتى صارت هذه الشعوب المسلمة منصرفة إلى نفسها وقضاياها جاهلة أو معرضة عما يقع للمسلمين في مناطق أخرى من حوادث وخطوب، وفاقم هذا الأمر سكوت كثير من الحكومات الإسلامية سكوتا مطلقا، وتجاهل صحفها وإعراضها عن نشر ما يجلّي هذه الحوادث، وينير الرأي الإسلامي العام، ويُطلع المسلمين على مآسي إخوانهم الأشقّاء[ii].

وحين غابت عن المسلمين معاني الوحدة افتقدوا قوّتهم، وغابت عنهم كثير من قيم التواد والتراحم والتعاطف والتعاون، وزال معنى الجسد الواحد الذي تتداعى له الأعضاء بشكوى العضو بينها.

وليت الأمر وقف عند هذا الحد، بل وُجد بين المسلمين من تنادى بالعصبية الجاهلية للعرق والجنس بدل الدين. فحينِ هبّت هذه الريح الجاهلية الهوجاء وجدت بين العرب من يميل معها ويتحمّس لها "فوقع أكثر أبناء العرب وشبابهم وكثير من كهولهم وعلمائهم تحت

---

[i] ردة ولا أبا بكر لها، مكتبة السداوي، مكة، ط2، 1413هـ/ 1992م، ص 16-17.

[ii] وامعتصماه، المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء، لكنو، الهند، ط2، 1980م، ص 16.

تأثير قيادة ترى التخلّص من أثر الإسلام في النفوس والعقول والحياة الاجتماعية والسياسية أهمّ وأوجب من محاربة الصهيونية واستعادة المقدّسات الإسلامية"[i].

ويتحسّر مولانا أبو الحسن الندوي على أنّ هذا الوضع الخطير لم يجد من يقاومه من الأحزاب والهيئات، ففاقد الشيء لا يعطيه، فإذا لم تكن هذه الأحزاب متشبّعة بروح الإسلام وعقيدته فكيف تكافح لأجل مبادئه، أو تناضل لإعلاء كلمته؟ إنّ هذه الأحزاب لم تعد "تتفجّع على أن المواهب الإنسانية تضيع، وأن الشباب يقع فريسة الشذوذ والانحراف والفساد الخلقي، وأنّ النظام التعليمي المعاصر خاطئ أو عقيم يحتاج إلى التغيير والتعديل ... كل ذلك لا يهمّ أحدا، وإنما الهمّة مصروفة في الحصول على الملك والسلطان"[ii]، أما الزعامات والقادة والسياسيون فلا يقلّ أكثرهم فسادا وتشبّعا بالمادية والمصالح الشخصية[iii].

وكانت نتيجة هذا الواقع أنّ المسلمين لم يعودوا قادرين على توجيه السياسات الدولية وفق ما يخدم مصالحهم أو يردّ عنهم العدوان، يقول العلامة الندوي: "الأمة الإسلامية لا تستطيع اليوم أن تفرض ثقلها السياسي في خريطة العالم، ولم تعد لها كلمة مسموعة في أيّ قضية"[iv]... وليست هناك اليوم أي دولة إسلامية تستطيع أن ترغم باحتجاجها أو بإبداء رفضها وعدم موافقتها قوة كبرى على مراجعة النفس واستخدام التأمل في قضية إسلامية ما[v].

وقد كان العلامة الندوي يتألم أشد التألم لهذه الأوضاع التي يعيشها المسلمون وعبّر عن مشاعره هذه بكلمات وجيزة ولكنها ذات معان عميقة فقال: "رأيت العالم الإسلامي وهو يمرّ بظروف وأحوال وخزت ضميري، وآلمت قلبي، وجرحت شعوري، ومزّقت كبدي ..."[vi].

---

[i] في تقديم كتاب الإسلام الممتحن لمحمد الحسني، من تقديم العلامة أبي الحسن الندوي، دار المختار الإسلامي، ط1، 1397هـ/ 1977م، ص 13.

[ii] الطريق إلى السعادة والقيادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1402هـ/ 1982م، ص 53.

[iii] مذكرات سائح، ص 171.

[iv] الطريق إلى السعادة والقيادة، ص 27.

[v] المرجع نفسه، ص 28.

[vi] المرجع نفسه، ص 27.

فلسطين، هموم وآلام:

وأبرز قضية تتجلّى فيها مأساة المسلمين على المستوى السياسي في العصر الحديث قضية فلسطين، فلقد أخذت شطرا من همّ العلامة أبي الحسن الندوي وكتاباته ومحاضراته.

وهو يردّ أسباب ضياع فلسطين من المسلمين إلى عوامل ثلاثة:

ــ فقدان الدوافع النفسية إلى الاستماتة والتفاني في سبيل المبدأ و العقيدة.

ــ طغيان العقل على العاطفة وفقدان روح المغامرة.

ــ عدم وجود شخصية في الشعوب العربية والحكومات العربية كلّها تملك فلسطين عليها مشاعرها وتفكيرها، وتصبح همّها الشاغل[i].

وفي مقدمة هذه العوامل كلها: الإفلاس الروحيّ وفقدان الإيمان، وانطفاء الحماسة الدينية في الشعوب والدول العربية[ii].

ويسجّل السيّد الندوي بألم شديد شهادة تصوّر حال بعض قادة العرب الذين يفترض فيهم أن يكونوا أول المدافعين عن فلسطين الجادين في العمل لأجلها وشعبها؛ ففي أحد اجتماعات كبار المندوبين والوزراء العرب لأجل تدارس الوضع الفلسطيني لم يغادروا قاعة الاجتماعات إلى الفندق إلا وهم محمولون من شدّة ما شربوا من الخمر[iii].

وحين زار فلسطين في رحلته إلى بلاد المشرق العربي شاهد بنفسه حال المسلمين في فلسطين وهم يواجهون كيد الصهاينة ومكرهم مع من تحالف معهم من القوى الغربية، وتخلي العرب عن إخوانهم.

وبدا له الفلسطينيون حينئذ كالأيتام الغرباء وسط غابة من الوحوش المفترسة التي لا ترحم، قال رحمه الله: "ولم أجلس إلى أحد إلا ووجدته منكسر الخاطر جريح النفس، يحكي حكايات تُدمع العين وتُحزن القلب"[iv].

---

[i] مذكرات سائح، ص 273 – 274.

[ii] المرجع نفسه، ص 96.

[iii] المرجع نفسه، ص 252.

[iv] المرجع نفسه ص 254.

أما من لجأ من هؤلاء الفلسطينيين إلى دول الجوار فأشدّ بؤسا وأسوأ حالا، فهاهم اللاجئون في الأردنّ ـــ كما يصفهم السيد أبو الحسن ـــ في بؤس وهوان، وضَنَك وشقاء، توالت عليهم المحن والهموم، ولم يجدوا ركنا شديدا يأوون إليه[i].

وفي أثناء الظروف الحالكة يمرّ العيد على مولانا أبي الحسن وهو بين المسلمين في فلسطين فلا يجد عندهم طعم العيد، ولا لونه ولا رائحته، بل هو "عيد شاحب وكأنّ الناس ممثّلون في ملابس العيد، كأنّهم يحاولون أن يفرحوا ويظهروا السرور ... والحقائق تأبى ذلك، والآلام تصارع الأفراح فتغلبها" ثم يصف أبو الحسن حاله وهو في هذا الوضع بقوله: "وقد تجدّد حزني في هذا اليوم فلم أشعر بسرور ولا نشاط"[ii]، وكأنّ لسان حاله وحالهم يردد بيت المتنبي: عيد، بأيّة حال عدت يا عيد ؟

الجانب الإيماني ـــ الأخلاقي:

إن ما عاناه ويعانيه المسلمون سياسيا ليس إلا محصّلة ونتيجة لما افتقدوه في الجانب الإيماني والأخلاقي.

وإذا كانت الأمم الأخرى استعاضت عن الإيمان والأخلاق بما وضعته لنفسها من نظم وفلسفات، فإنّ المسلمين لا حياة لهم من دون إيمانهم وأخلاقهم، وحين ربّى الرسول ـــ صلّى الله عليه وسلم ـــ أصحابه على الإيمان العميق في مكّة، لم يستغرقوا بعد ذلك إلا زمنا يسيرا في تقويض أهم إمبراطوريتين في ذلك العهد؛ إمبراطوريتا الفرس والروم.

ولقد كان العلاّمة أبو الحسن الندوي شديد التحسّر على ضياع الإيمان والأخلاق من حياة المسلمين وإقبالهم على شهوات الدنيا وزخارفها، وتنافسهم على حطامها، وكان يرى أن علّة العالم الإسلامي هي الرضا بالحياة الدنيا، والاطمئنان بها والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة[iii].

---

[i] المرجع نفسه، ص 265.

[ii] المرجع نفسه، ص 256.

[iii] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 245.

وكان رحمه الله دائم الحديث عن تهافت المسلمين على الشهوات ونهمهم للحياة، وتنافسهم في أسباب الجاه والفخار وافتتانهم بالزخارف والمظاهر الجوفاء[i]، ويعتبر هذه جناية كبيرة جناها المسلمون على أنفسهم حين قطعوا صلتهم بدينهم وبربّهم، وما تلا ذلك من هوانهم[ii].

والعلامة أبو الحسن يقرّر هذه الحقائق من منطلق دراسته الواسعة لتاريخ الأمم، وما يعتريها من نهوض وانحطاط، فشهادة التاريخ تثبت أنّ الترف والبذخ والإسراف في الاعتداد بالبهرج والزخارف والإقبال الشديد على الملذّات والشهوات هي آفة الحضارات الآفلة، وعلّة الأمم الزائلة، وهو ما أصاب المسلمين وطبع حياتهم في هذا العصر، فـ "هذه الحياة التي يعيشها كثير من الناس في بلادنا الإسلامية والعربية حياة ما أنزل الله بها من سلطان، وما تكفّل الله لها بتأييد ونصر، هذه الحياة لا تصلح للبقاء طبيعيا وعقليا ودينيا وخلقيا، هذه الحياة اللاهية الساهية، هذه الحياة الباذخة المترفة، هذه الحياة التي مثلها الأعلى المادّة والمعدة لا تصلح للبقاء"[iii].

وضمن هذه الحياة التي يحياها المسلمون تحوّلت حقائق الإسلام وتعاليمه إلى صورة، وفقدت الحقيقة الإسلامية، نعم فقدت "حقيقة الإسلام التي تدعو إلى معرفة الله تبارك وتعالى، معرفة تحقّر معها الدنيا وزخارفها ومظاهرها، حقيقة الإسلام التي تعلّم إيثار الآخرة على الدنيا ... وتنكر البذخ والترف المدمّر للأمم والشعوب"[iv].

وفي كتابه (المد والجزر في تاريخ الإسلام) يتحدّث مولانا أبو الحسن بحسرة ومرارة عمّا جرى لهذه الأمة حين نسيت دينها، وبيّن أحوالها السيّئة في القرون الأخيرة، ووصف جيل المسلمين منذ مطلع القرن الرابع عشر الهجري فقال: "ظهر جيل في المسلمين متنوّر الذهن ولكن مظلم الروح، أجوف القلب ضعيف اليقين، قليل الدين، قليل الصبر والجلد، ضعيف

---

[i] المرجع نفسه، ص239.

[ii] الرجع نفسه، ص 126.

[iii] أحاديث صريحة مع إخواننا العرب، ص 86.

[iv] المرجع نفسه، ص 42.

الإرادة والخلق، يبيع دينه بدنياه وآجله بعاجله، ويبيع أمته وبلاده بمنافعه الشخصية وبجاه وعزّة وهمية"[i].

والمفارقة في واقع المسلمين أنّهم ـــ وفي الوقت الذي كان يفترض أن يواجهوا مادية الحضارة الغربية التي أهلكت الحرث والنسل وزرعت الإلحاد والظلم والبغي والفساد ـــ انساقوا وراء بريقها وبهرجها ففقدوا أعزّ ما يملون، ونسُوا إيمانهم وأخلاقهم فشملتهم سنّة الله في خلقهم.

وما أصعب مقاومة شجرة المادية التي لا تذوي ولا يعروها الذبول ـــ كما يقول العلامة أبو الحسن ـــ "وإذا أصيب أهل دين في العقيدة أو ضعف في الخلق أو ضعف في الدعوة لم يستطيعوا أن يقاوموا المادية الفتيّة، والدعوات المعارضة القوية"[ii].

ويتضاعف تألّم العلامة الندوي، ويشتد قلقه حين يلاحظ ويسجّل "عدم وجود الأطباء الناصحين، المدلّلين المستنكرين لهذه الأوضاع القاسية، الذين لا يطيب لهم طعام ولا شراب ولا نوم في هذا الوضع، ويتعكّر عليهم صفو الحياة"[iii].

الجانب الفكري ـــ العلمي:

وليس الجانب الفكري – العلمي لدى المسلمين بأحسن حالا من الجوانب الأخرى السياسية والأخلاقية، بل ربما كانت الشيخوخة الحضارية نالت أوّل ما نالت هذا الجانب الحي من الأمّة، كما لاحظ ذلك العلّامة أبو الحسن الندوي وهو يصف حال المسلمين في القرون المتأخرة، "فلا سعة في العلم ولا ابتكار في التفكير والإنتاج، ولا عبقرية في العقل، ولا حماسة في الدعوة، ولا عرضًا جميلاً ومؤثرًا للإسلام ومزاياه ورسالته إلا النادر القليل"[iv].

---

[i] المد والجزر في تاريخ الإسلام، ص 08.

[ii] رجال الفكر والدعوة في الإسلام دار القلم ، دمشق، الدار الشامية، بيروت، 1423هـ/ 2002م، 100/1.

[iii] أحاديث صريحة مع إخواننا العرب، ص 49-50.

[iv] ردة ولا أبا بكر لها، مكتبة السداوي، مكة، ط2، 1413هـ/ 1992م، ص 10.

ومن مظاهر هذا الضعف العلمي والجمود الفكري ما لا حظه العلامة أبو الحسن عند زيارته للمسجد الأقصى من خلوّ الدروس فيه من الروح القوية، والغوص في الأعماق والاهتداء إلى أسباب النكبة الحقيقية[i].

كان هذا تكريسا من المسلمين – وهم في أحلك الظروف – لانصرافهم عن الحقائق والجواهر إلى الأشكال والمظاهر، وهو من أبرز علامات الانحطاط ليس في المجال العلمي فحسب، بل وفي شتى المجالات التي يعمّها التقهقر الحضاري.

وقد سجّل أبو الحسن – رحمه الله – أسفه وتألمه لما آلت إليه مجالس الذكر وقراءة القرآن في مصر – على سبيل المثال – بما استحدثه الناس من هتاف أثناء قراءة القرآن، وانصرافهم عن تدبّره والخشوع له إلى الصراخ بشكر القارئ[ii].

ورافق ضعف المسلمين في مجال الفكر والعلم تقدّم للغرب فيهما بعيدا عن الدين والإيمان، فكان أن عجز كتّاب المسلمين ومفكروهم عن مواجهة الحضارة الغربية ونقد أسسها وقيمها ... وليت الأمر وقف عند هذا بل تعدّاه إلى أن استُلب كثيرٌ من هؤلاء الكتاب والمفكرين من قبل حضارة الغرب وقيمها، وأصبحوا من الدعاة المتحمّسين إليها، الناقدين الناقمين على قيم دينهم وحضارتهم في لبوس من التجديد زيّنه الشيطان لهم، فضلّوا وأضلّوا.

وكانت نتيجة تلك المقدمات أن اكتسحت الأقطار الإسلامية والعربية موجة طاغية من الردة الفكرية والعقائدية، تأكل الأخضر واليابس ... موجة تريد أن تبتلع كل ما اعترض سبيلها من قيم ومفاهيم وعقائد وتصوّرات وشعائر ومظاهر[iii].

وحين أخلّ المسلمون بواجبهم في ميدان العلم والفكر، وأسلموا قيادهم إلى أعدائهم، تأخّروا في أنواع الصنائع والمنتجات، فلم يعاقبوا بالتبعية لغيرهم في الغذاء والكساء والدواء فحسب، بل عوقبوا بالعبودية والحياة الذليلة التي يأنف منها كلّ عزيز النفس حيّ الضمير[iv].

---

[i] مذكرات سائح، ص 254.

[ii] المرجع نفسه، ص 100.

[iii] عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، الهند، ط2، 2000 م، ص 23.

[iv] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 246.

معالم الطريق

لا يعني تألّم العلّامة أبي الحسن لأوضاع المسلمين أنه يبكي هذا الواقع بكاء اليائس الذي انقطع رجاؤه في النهضة والإصلاح، وفقد الأمل في عودة المسلمين إلى أسباب العزة والنصر والتمكين، بل هو واسع الأمل متوقّد الحماس، عظيم التطلع إلى نهضة المسلمين وتقدّمهم، وعودتهم إلى طريق السعادة والقيادة بعد هذا التيه الذي وجدوا أنفسهم فيه.

ومّما يعزّز هذه القناعة لدى العلّامة أبي الحسن ما يراه ماثلا أمامه من إفلاس حضارة الغرب التي ملأت الدنيا وشغلت الناس، إفلاس في شتى الميادين الروحية والأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكثيرا ما كان ـــ رحمه الله ـــ يؤكّد حقيقة كون العالم على مفترق الطرق؛ فإمّا أن يتقدّم المسلمون لقيادته إلى طريق الحقّ والإيمان والخير والإحسان، وإمّا أن يقاد إلى سبل لا يعلم مؤدّاها إلا الله[i].

ومن العوامل التي تعزّز الأمل في نهوض المسلمين من جديد ما يشير إليه تاريخ الأمم بوجه عام وتاريخ المسلمين بوجه خاص، من أنّ أمّة الإسلام عرفت كثيرا من المحن والشدائد خرجت منها وتجاوزتها الواحدة تلو الأخرى، وأن تاريخ الإسلام نفسه كان طيلة القرون التي خلت بين مدّ وجزر.

ويركّز العلّامة أبو الحسن على عوامل البقاء والنّماء التي حفظت كيان الأمة إزاء المؤثرات الخارجية العنيفة، والتقلبات التي لا تكاد تنتهي، فيخلص إلى أن أمة الإسلام إنما حفظت كيانها بقوتين:

ـــ الحيوية الكامنة في وضع الإسلام، وصلاحيته للحياة والإرشاد في كلّ بيئة، وفي كلّ محيط، وفي كلّ عهد من عهود التاريخ.

ـــ أن الله قد تكفّل بأن تمنح هذه الأمة التي قضى ببقائها وخلودها رجالا أحياء أقوياء في كل عصر، ينقلون هذه التعاليم الإسلامية إلى الحياة، ويعيدون إلى هذه الأمة الشباب والنشاط[ii].

---

[i] مذكرات سائح في بلاد الشرق، ص 118.

[ii] رجال الفكر والدعوة في الإسلام، 91/1.

ولكنّ الأمة بحاجة كما يقول العلّامة أبو الحسن رحمه الله إلى أن تربّى من جديد على قيم الإسلام وأخلاقه ومعانيه، ومن هنا كان المهمّ الأهمّ لقادة العالم الإسلامي وهيئاته ودوله غرس الإيمان في قلوب المسلمين ... وكان واجب رجال التربية وولاة الأمر محاربة ما يضعف رجولة الشباب، ويبعث على التخنّث والعجز ...[i]

ومن هنا كان غرس الإيمان الذي يقاوم موجة اللادينية التي أشاعتها حضارة الغرب وإعادة الثقة المفقودة إلى نفوس الشباب والطبقات المثقّفة بمبادئ الإسلام وعقائده وحقائقه ونظمه وبالرسالة المحمّدية، كلّ هذا من أعظم الجهاد في هذا العصر، ومن أعظم القربات وأفضل العبادات كما يقول العلّامة أبو الحسن رحمه الله[ii].

ولا ينهض بهذه المهمّة العظيمة إلا ورثة الأنبياء من العلماء والدّعاة الربّانيين الصادقين، الراسخين في العلم والدين، أولئك الذين " يربطون القلوب بالله عند النكسة التي تصاب بها الحكومات الإسلامية، أو فتنة المادة و الشهوات، والتنافس في البذخ والثراء التي تُمنى بها المجتمعات المسلمة ربطا وثيقا جديدا، ويبعثون في النفوس النأي عن الأغراض الخسيسة، والتكالب عل حطام الدنيا، ويكرّهون إليها الحياة الذليلة، والمتعة الرخيصة، والخضوع المستكين للسلطات والشهوات"[iii].

إن هذه هي مهمّة الأنبياء الذين يبعثون على حين فترة من الرسل، فيعيدون الأمّة إلى الجادّة، يهوّنون في عينها حطام الدنيا وشهواتها، ويعظّمون عندها شأن الأمانة التي أنيطت بها أفرادا وأمما.

ولقد أدرك العلامة أبو الحسن أهمية القدوات الربّانيين والقادة المجدّدين في حياة الأمّة واهتمّ بتلك النماذج الفذّة التي حفل بها تاريخ الإسلام فأخرج للأمّة موسوعته القيمة (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) ليقدّم للأجيال الحاضرة صفحات من الدّعوة والعلم والجهاد تكون نبراسا ملهما لكلّ ساعٍ إلى إعادة إحياء مجد الأمّة التليد، وتاريخها المجيد،

---

[i] ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 258.

[ii] ردة ولا أبا بكر لها، ص 19.

[iii] القرن الخامس عشر الهجري الجديد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، 1401هـ/ 1981م، ص 36.

إيمانا منه بأنّ "خير وسيلة لإشعال المواهب وإثارة الروح وتقويم الأخلاق والعزم على مكافحة البيئة الموبوءة والمجتمع الفاسد، والتسامي لمعالي الأمور، هي سير عظماء الرجال وزعماء الإصلاح والتجديد، والربّانيين والصدّيقين"[i].

لقد توفّي مولانا أبو الحسن رحمه الله ولكن كلماته بقيت صرخات وآهات توقظ النائم وتنبّه الغافل وتبصّر الحائر، وتدلّ على الطريق الصحيح للعزّة والنّصر والتمكين، ونيل رضا المولى في الدنيا ويوم الدين.

انتقل رحمه الله إلى جوار ربّه، وبقيت مؤلّفاته ومحاضراته، تستنهض همم الدعاة، وتشحذ عزائم العاملين، وتدلّهم على النهج الأمثل للدعوة والتربية، والطريق الأقوم للفكر والإصلاح، سعيا نحو إعادة الأمة إلى عزّها ورشدها، ورقيّها إلى مستوى رسالتها العالمية ومجدها، بعد قرون من المحن والانحطاط الحضاريّ الأليم.

قائمة المراجع:

أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين، دار الصحوة، ط1، 1405هـ/ 1985م

الإسلام الممتحن لمحمد الحسني، من تقديم العلامة أبي الحسن الندوي، دار المختار الإسلامي، ط1، 1397هـ/ 1977م

الإنسانية تنتظركم أيها العرب ، المجمع الإسلامي الهندي، لكنو، الهند (د ت)

رجال الفكر والدعوة في الإسلام دار القلم ، دمشق، الدار الشامية، بيروت، 1423هـ/ 2002م

ردة ولا أبا بكر لها، مكتبة السداوي، مكة، ط2، 1413هـ/ 1992م

الطريق إلى السعادة والقيادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1402هـ/ 1982م

عاصفة يواجهها العالم الإسلامي والعربي، المجمع الإسلامي العلمي، لكنو، الهند، ط2،2000م

القرن الخامس عشر الهجري الجديد، مطابع الرشيد، المدينة المنورة، 1401هـ/ 1981م

كارثة العالم العربي وأسبابها الحقيقية ، رابطة العالم الإسلامي، مكة، 1387هـ

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الغد الجديد، القاهرة، 1426هـ/ 2005م

المد والجزر في تاريخ الإسلام، دار القلم ، دمشق، الدار الشامية، بيروت، 1419هـ/1998م

مذكرات سائح في بلاد الشرق، دار ابن كثير، دمشق، 1422هـ/ 2001م

المسلمون تجاه الحضارة الغربية، دار المجتمع، جدة، ط1، 1407هـ/1987م

وامعتصماه، المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء، لكنو، الهند، ط2، 1980م

[i] رجال الفكر الدعوة، 81/1.

نظرية الإصلاح في فكر الشيخ أبي الحسن الندوي

أ.م.د باسل خلف حمود
كلية العلوم الإسلامية جامعة الموصل، العراق

إن الدارس والمتتبع لكتب ومقالات ومحاضرات وخطب ودروس وحلقات الشيخ أبو الحسن الندوي في حله وترحاله يدرك ابتداء بان الشيخ صاحب نظرية إصلاحية إسلامية شاملة ومحكمة وواعية قضى حياته من اجل إصلاح حال الأمة ونهضتها وإعادتها إلى مكانتها الرائدة في توجيه وقيادة وأستاذية العالم ، ورفع راية الإصلاح في كل المحافل المحلية والعربية والإسلامية والدولية من خلال الندوات والمؤتمرات واللقاءات وقاعات الدرس الجامعية والحلقات المسجدية والمنابر الإعلامية المقرؤة والمسموعة والمرئية مخاطبا فئات المجتمع جميعا من الشباب والفتيات إلى رجال الأمة ونسائها إلى المختصين في العلوم الشرعية و السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى علماء الأمة وقادتها وزعمائها ورؤسائها وملوكها ، ساعيا وباذلا جهوده في سبيل إيقاظ الأمة من غفلتها ونفخ الروح فيها لتستعيد مجدها وموقعها الحضاري كيف لا وقد اطلع الشيخ الندوي " على مشكلات أمته الإسلامية وطوف بها في رحلاته، وخالط علماءها وأدباءها ،خاصتها وعامتها، وقادتها وزعماءها، وحاضر في جوامعها وجامعاتها، وعرف ما تعانيه الأمة من أمراض وأدواء، بعضها أدواء فكرية، مثل التعلق بالغرب والسير في ركابه، والجري وراء فلسفاته ونظرياته ومذاهبه، وفقدان اليقين والثقة بعظمة الإسلام وخلود رسالته، وروعة أحكامه، إلى حد انتشار الردة الفكرية كما سماها الشيخ في كتبه وبعضها أدواء أخلاقية وسلوكية، جعلت الأمة تنتشر فيها أخلاق المنافقين، وتتبع سبيل المفسدين، ولا تسلك سبيل المؤمنين، ولا تتبع صراطهم المستقيم"([i]) .لقد فشا في الأمة حب الدنيا ، وكراهية الموت كما اخبر بذلك الرسول الكريم محمد صل الله عليه وسلم، وهو سر الوهن الذي أصاب نفوسهم، ونزع الرهبة من

([i]) – فقه الدعوة عند العلامة أبو الحسن الندوي ، يوسف القرضاوي، موقع الشيخ القرضاوي على الشبكة الالكترونية.

صدور أعدائهم، وشاع فيهم إضاعة الصلوات، وإتباع الشهوات، والاستهانة بالفرائض، واقتراف المحارم، وترك الائتمار المعروف والتناهي عن المنكر، وضيعت الأمانة، ووسد الأمر إلى غير أهله([i]).

وفي ظل هذه الأجواء انبرى الشيخ الندوي من خلال كتاباته العلمية الواعية، وجهوده الدعوبة المخلصة والمؤسسات التي استحدثها وترأسها وعضويته فيها السعي لتحقيق الإصلاح والنهضة الإسلامية المنشودة منذ نصف قرن، وسد الثغرات العلمية الهامة فيها، وملأ الفراغ الفكري في تفهم أسرار الشريعة وفي تحليل الوقائع والأحداث، وفي تشخيص الأمراض والشبهات ووصف الأدواء اللازمة لها، ليكون علما من أعلام الدعوة الإسلامية ومصلحا من مصلحيها،حتى وصفه الدكتور مصطفى السباعي في تقديم كتابه رجال الفكر والدعوة في الإسلام بقوله" :فهو عالم مصلح، وداعية مخلص، دأب منذ آتاه الله العلم على الدعوة إلى الله بقلمه ولسانه، وبرحلاته المتعددة إلى أقطار العروبة والإسلام، وبجولاته الموفقة في ميادين الدعوة حتى انه اليوم ليعد من أبرز أعلام الإسلام المصلحين في ديار الهند، له تلاميذه المنتشرون في كل بلد، وله كتبه ومؤلفاته التي تتميز بالدقة العلمية وبالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي،ووسائل معالجتها، عدا عما يمتاز به من روح مشرقة، وخلق نبوي كريم، ومعيشة تذكرك بعلماء السلف الصالح في زهده وتقشفه وعبادته وكرامة نفسه"([ii]) .

وسوف نتناول في بحثنا هذا المباحث الآتية:

-الإصلاح في اللغة

-الإصلاح في القرآن الكريم

-الإصلاح في الاصطلاح

-أسس وركائز الإصلاح في فكر الشيخ أبو الحسن الندوي

---

[i] -ينظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ،أبو الحسن الندوي،دار القلم –دمشق ،ط3، 1425هـ-2004م/146-156.

[ii] – رجال الفكر والدعوة في الإسلام ،الندوي، المقدمة، دار القلم، الكويت، ط5 ، 1977م /5

- الأصول التي أقام عليها الشيخ الندوي دعوته في الإصلاح

-مجالات الإصلاح عند الشيخ أبو الحسن الندوي

الإصلاح في اللغة :

الإصلاح ضد الإفساد ، يقال رجل صالح في نفسه من قوم صلحاء ، ومصلح في أعماله وأموره، الصلح يختص بإزالة النفار بين الناس, وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحا ، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده ، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح([i]).

الإصلاح في القرآن الكريم :

ورد الإصلاح في القرآن الكريم بمعاني ودلالات عدّة منها: الإصلاح ما يقابل الإفساد﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا﴾ (الأعراف: 56) ،وما يقابل السيئة﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ (التوبة: 102) ، وتوفيقَ الله لعباده لعمل الصّالحات ﴿يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اتّقُوا اللّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (الأحزاب: 71)، ومحو التباغض بين المتخاصمين: ﴿وَلاَ تَجْعَلُواْ اللّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَنتَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ النَّاسِ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾)البقرة: 224)و قد أشارت الكثير من النصوص إلى مفهوم الإصلاح بمعانيه المتعددة، وجعله القرآن جوهر رسالات السماوية ، فوصف به إبراهيم عليه السلام : ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(البقرة: 130)، وعيسى عليه السلام ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾)آل عمران(46: ،وشعيب عليه السلام ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود: 88) يقول الإمام الرازي في تفسيره (والمعنى: ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي ونصيحتي, وقوله ما (استطعت) فيه وجوه: الأول أنه ظرف والتقدير مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكنا منه لا آلو فيه جهدا. والثاني أنه بدل من الإصلاح, أي المقدار الذي استطعت منه. والثالث أن يكون

---

[i] – المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني، المكتبة التوفيقية –مصر/289.

مفعولا له أي ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه. ثم يميز القران الكريم بين الإصلاح الحقيقي على الوجه السابق بيانه وادعاء الإصلاح﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ،ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ يقول القاشاني: "كانوا يرون الصلاح في تحصيل المعاش، وتيسير أسبابه،وتنظيم أمور الدنيا لتوغلهم في محبة الدنيا"([i]) وتعدد تعريفات الإصلاح نابع عن تعدد الزوايا التي ينظر منها، وبالتالي فان العلاقة بين هذه التعريفات هي علاقة تكامل لا تناقض وان كان تعريف الإصلاح بأنه:تغيير تدريجي جزئي سلمي،يؤيده حديث الرسول صل الله عليه وسلم:" من رأى منكم منكراً فليغيره بيده إن استطاع، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان، ليس بعد ذلك من الإيمان شيء"([ii]).

ويأخذ الإصلاح كنمط للتغيير أشكال عدة أهمها التقويم الذي عبر عنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه بقوله "إني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني". والتقويم يعبر عن موقف يتجاوز كل من موقفي الرفض المطلق والقبول المطلق إلى موقف نقدي قائم على اخذ وقبول الصواب، ورد ورفض الخطأ، فهو نقد للسلطة لتقويمها أي بهدف الكشف عن أوجه قصورها عن أداء دورها ، ومن أشكال الإصلاح النصح لقوله صل الله عليه وسلم"الدين النصيحة، قيل : لمن يا رسول الله !؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم "([iii]) يقول الباقلاني بعدما ذكر فسق الإمام و ظلمه " يجب و عظه و تخويفه ، و ترك طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله "([iv])

---

[i] - محاسن التأويل ، جمال الدين محمد بن سعيد القاسمي القاهرة –مصر،1957م:252/1.

[ii] – صحيح مسلم،ابو الحسين مسلم بن حجاج،كتب الإيمان ،باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وان الإيمان يزيد وينقص،رقم الحديث 78،رقم الصفحة42.

[iii] – صحيح مسلم ،كتابالايمان ،باب بيان ان الدين النصيحة رقم الحديث95 رقم الصفحة 44.

[iv] – التمهيد ، الباقلاني/186.

الإصلاح في الاصطلاح:هناك أكثر من تعريف للإصلاح في الاصطلاح فهو الإرادة الباحثة عن الخير وتقويم الاعوجاج أو تغيير قواعد عمل النظام المجتمعي ومعالجة القصور والاختلال التي تعوق التنمية والنهوض بالمجتمع من جميع مناحيه الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

والإصلاح وفق هذا التعريف يعني أن الإصلاح ليس عملا سياسيا وحسب بل عمل حضاري شامل يتناول المفاهيم والقيم والأفكار والعادات والتقاليد والمؤسسات والأفراد إذ أنه يمس كافة جوانب الحياة المادية والفكرية والروحية والأخلاقية للمجتمع، هذا بالإضافة إلى أن الإصلاح (كنمط تغيير تدريجي جزئي) هو عمليه مستمرة باستمرار الزمن .وهناك من لا يفرق بينه وبين مصطلح الثورة (كمنط تغيير فجائي كلي) في مستوى التغيير وشموله ، وإنما من حيث الأسلوب في التغيير وزمن التغيير فكلاهما يعنى التغيير الشامل والعميق ، لكن الثورة تسلك سبل العنف غالبا والسرعة في التغيير ، بينما تتم التغييرات الإصلاحية بالتدريج ، وكثيرا ما تعطى الثورة الأولية لتغيير الواقع ، بينما تبدأ مناهج الإصلاح عادة بتغيير الإنسان فكرا وخلقا وسلوكا([i]) .

الإصلاح في فكر الشيخ أبو الحسن الندوي:

شغل مسألة إصلاح وتغيير واقع وحال الأمة الشيخ أبو الحسن الندوي لأسيما وان الأحداث التي عاصرها وعلى رأسها سقوط الخلافة العثمانية دعمت إيمانه بان الإسلام لابد أن يتولى الزمام لإنقاذ العرب و العالم لان الحل الوحيد لمأساة الإنسان يكمن في تحول قيادة العالم إلى أيد مؤمنة بقيم الإنسانية ومن خلال القراءة والتقصي والمتابعة في كتب الشيخ ومقالاته وخطبه وما كتبه العلماء والمفكرين عن الشيخ الندوي وجدنا أن ملامح نظرية

---

[i] – مفهوم الإصلاح السياسي والاجتماعي الإسلامي ،كمال بدر الدولة ،مقال منشور على الشبكة الالكترونية بتاريخ2012/2/20

الإصلاح في فكر الشيخ يقوم على أسس ومرتكزات كما يسميها البعض ومن أهم هذه الأسس والمرتكزات هي([i]):

1- تعميق الإيمان بالله تعالى، فى مواجهةالمادية([ii])

2- إعلاء الوحي على العقل

3- توثيق الصلة بالقرآن الكريم ،

4- توثيق الصلة بالسنة والحديث الشريف، والسيرة النبوية العاطرة

5- إشعال الجذوة الروحية

6- البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق،

7- إحياء روح الجهاد في سبيل الله،

8- استحياء التاريخ الإسلامي وبطولاته

9- نقد الفكرة الغربية، والحضارة المادية المعاصرة

10- نقد الفكرة القومية والعصبيات الجاهلية:

11- تأكيد ختم الدعوة الإسلامية للدعوات السماوية، ورسالة محمد للرسالات الربانية ردًا على القاديانية بفتنتهمالجديدة

12- مقاومة الردة الفكرية

13- تأكيد دور الأمة المسلمة في هداية البشرية:

14- بيان فضل الصحابة ومترلتهم في الدين:

15- التنويه بقضية فلسطين:

---

[i] - الركائز العشرون لفقه الدعوة عند العلامة أبي الحسن الندوي ، يوسف القرضاوي، من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر ومن رجال الدعوة والإصلاح أبو الحسن الندوي، محمد أمين حسن محمد بني عامر ،بحث منشور في مجلة كلية الشريعة جامعة اليرموك الأردن على الشبكة الالكترونية.

[ii] - ذكر الكاتب هذه الأسس والمرتكزات وشرحها بالتفصيل ولكننا اكتفينا بنقل الأسس والمرتكزات وحذفنا شرحها لوجود هذه الأسس بالتفصيل فى كتاب الشيخ القرضاوى.

16-العناية بالتربية الإسلامية الحرة

17- إعداد العلماء والدعاة والمربين الصادقين

18- ترشيد الصحوة الإسلامية،

19- دعوة غير المسلمين إلى الإسلام :

20-العمل على تغيير أنظمة التعليم المستوردة من الغرب، والمنتشرة في طـــول الـــبلاد الإسلامية وعرضها،وصوغ هذه الأنظمة صياغة إسلامية تتفق مع الشعوب الإسلامية وعقيدتها، فصلاح أنظمة التعليم يترتب عليه صلاح المجتمع وفسادها يترتب عليه فساد المجتمع([i]).

الأصول التي أقام عليها نظريته في الإصلاح ([ii]):

ارتبطت دعوة الندوي بكتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتباس من سيرة السلف الصالح رضوان الله عليهم، وقد أشار الندوي إلى ذلك بقوله :"وسمة الدعوات الحية المخلصة أنها تقتبس النور من مشكاة النبوة وتسير على نهجها"([iii]) .

فضلا عن النظرة الشمولية للإسلام لنظام الحياة ،لقد فهم الندوي الإسلام فهما شاملا يستوعب الزمن كله، ويستوعب الحياة كلها ويستوعب كيان الإنسان كله من مولده حتى وفاته، يضع له كل النظم التي تجعله يسير في طريق الاستقامة الموصل إلى جنة الله ورحمته، لذلك نجد أن كتاباته شملت جوانب الحياة كلها العقدية والتعبدية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية.

ثم النظرة الواعية للحضارة الغربية والعمل على التخلص من سيطرة الثقافة الغربية، يقول الندوي:"إن الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية ومركز هذه الأمة في العالم، ومعرفة رسالتها والإيمان بقيمتها، والضغط على قيمة الآخرة وما بعد هذه الحياة -من سعادة وشقاء وجنة ونار -والتركيز على الجانب الخلقي والروحي من الحياة، هو الخط الفاصل الذي يشكل

---

[i] - أبو الحسن الندوي ،الغوري /111.

[ii] - من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر ومن رجال الدعوة والإصلاح أبو الحسن الندوي، محمد أمين حسن محمد بني عامر ،بحث منشور في مجلة كلية الشريعة جامعة اليرموك الأردن على الشبكة الالكترونية.

[iii]- بعض سمات الدعوة المطلوبة في هذا العصر، الندوي/22.

الحد الفاصل الرسمي بين الحضارتين، حضارة يوافق عليها الإسلام، ويتحمل مسئووليتها، ويباركها، وتتجلى فيها الشخصية وأصالة الإتباع، وحضارة يتبرأ منها الإسلام ويخسر فيها المسلمون، وتتجلى فيها العبودية والرضوخ والاستسلام، والعبادة التي لا تعرف إلا تقليد الببغاوات، ومحاكاة القرود"([i]) .

مجالات الإصلاح في فكر الشيخ الندوي:

أولا :الإصلاح السياسي:

لا يقتصر الإصلاح في فكر الشيخ بقضية العودة إلى تطبيق القرآن الكريم والسنة النبوية في حياتنا الفردية ومعاملاتنا الجماعية اليومية بل يتناول الإصلاح السياسي من خلال تحكيم شرع الله وإقامة حدوده والتزام المصالح العليا للأمة المسلمة وإقامة العدل والمساواة بين المسلمين على اختلاف قومياتهم وأعراقهم وأجناسهم وان أساس التفاضل بينهم مدى التزامهم بالأحكام والتوجيهات الإسلامية لكن الإصلاح السياسي في نظر الشيخ لا يأتي بثورة أو انقلاب عسكري مفاجئ إنما بالتدريج والتربية والعمل الدعوي الدؤوب والمستمر ،لذلك لم يخالف الشيخ الندوي الجماعات الإسلامية الكبرى والمعروفة العاملة للإسلام في الساحة العربية والإسلامية في أهدافها الكبرى من استعادة مجد الإسلام وعودة سيادة الشريعة الإسلامية على المجتمعات الإسلامية وإحلالها محل القوانين الوضعية ومطاردة الأفكار والمفاهيم والقيم والتقاليد الغربية التي سادت كثيرا من البلاد الإسلامية ليقود مكانها الأفكار والمفاهيم والقيم والتقاليد الإسلامية وإقامة الدولة والحكم وبناء مجتمع متكامل ومتوازن توجهها عقيدة الإسلام وتسودها مفاهيمه وتصبغها أخلاقياته وتحكمها تشريعاته فلا ينبغي أن يحسب الشيخ الندوي في زمرة الذين يرفضون الحكم الإسلامي أو ينكرون العمل السياسي كما يقول الشيخ القرضاوي فهذا ظلم للشيخ وإدراج له مع الذين يقولون: لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة فهو بالقطع بريئ منهم وإنما كان للشيخ تحفظ على

---

[i] -الصراع بين الفكرية والفكرة الغربية ،أبو الحسن الندوي /205.

بعض الوسائل والمناهج التي يتخذها بعض العاملين للإسلام في الوصول إلى الحكم أو السعي إلى إقامة الدولة المسلمة التي تمكن لدين الله في الأرض([i]).

وهذا ما قاله بصراحة للإخوان قديما، عندما التقى بقادقم في زيارته الأولى والأخيرة لمصر سنة 1951م، ولا بأس أن أنقل هنا شيئا مما قاله في رسالته النابضة بالحيوية والحرارة والإخلاص: (أريد أن أتحدث إلى الإخوان) :

"ليس خطب الدعوة الدينية والتجديد الإسلامي بهين أيها الإخوان الكرام، فليست رسالتها ومهمتها قلب نظام فقط أو تغيير وضع سياسي بوضع سياسي آخر ونظام اقتصادي بنظام اقتصادي آخر، ولا نشر الثقافة والعلم، ومكافحة الأمية والجهل أو محاربة البطالة والتعطل، أو معالجة عيوب اجتماعية أو خلقية، إلى ذلك مما يقوم له الدعاة والمصلحون في أوربا وفي الشرق، وإنما هي دعوة الإسلام التي تشمل العقيدة والأخلاق والأعمال والسياسة والعبادة والسلوك الفردي والاجتماعي وتتناول العقل والقلب والروح والجسم وتعتمد على تغير عميق في القلب والنفسية والعقيدة والعقلية؛ وتنبع من القلب قبل أن تنبع من قلم أو صحيفة كتاب أو منصة خطاب، وتنفذ على جسم الداعي وحياته قبل أن يطالب بتنفيذها على المجتمع والأمة إلى أن يقول:امتازت دعوة الأنبياء وجهودهم بتجردها من التفكير في المنافع المادية والثمرات العاجلة، فكانوا لا يبتغون بدعوتهم وجهادهم إلا وجه الله، وامتثال أوامره، وتأدية رسالته، تجردت عقولهم وأفكارهم من العمل للدنيا ونيل الجاه وكسب القوة لأسرهم أو أتباعهم والحصول على الحكومة، حتى لم يخطر ذل ببال أصحابهم وأتباعهم، وكانت هذه الحكومة التي قامت لهم في وقتها والقوة التي حصلت لهم في دورها، لم تكن إلا جائزة من الله ووسيلة للوصول إلى أهداف الدين وتنفيذ أحكامه وتغيير المجتمع وتوجيه الحياة كما قال الله تعالى(الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)(الحج:41) و لم تكن هذه الحكومة قط غاية من غاياتهم أو هدفا من أهدافهم أو حديثا من أحاديثهم أو حلما من

---

[i] -التركيز على إصلاح الفرد أولا ،يوسف القرضاوي ، موقع القرضاوي ،2003/4/2.

أحلامهم، إنما كانت نتيجة طبعية للدعوة والجهاد كالثمرة التي هي نتيجة طبعية لنمو الشجرة وقوة إثمارها" ([i]).فهو لا ينكر العمل السياسي إنما يجعله نتيجة من نتائج الإصلاح وانتشار الدعوة أو أثرا للتغيير الإيماني والأخلاقي بالتالي قبول الناس بحكم الإسلام وقيادته وسياسته لأحوال الأمة يقول الشيخ أيضا في رسالته - ردّة ولا أبا بكر لها- :"إنني لم أكن في فترة من فترات حياتي ممن يقول بفصل الدين عن السياسة وممن يفسر الدين تفسيرا لا يتصادم مع الوضع - مهما شذ وانحرف عن الإسلام - وينسجم مع كل مجتمع ولا ممن يعتبر السياسة الشجرة الملعونة في القران بل أنا في مقدمة من يدعو إلى إيجاد الوعي السياسي الصحيح في الشعوب الإسلامية وإيجاد القيادة الصالحة وممن يعتقد أن المجتمع الديني لا يقوم إلا بالملك الديني الصحيح والحكم الصالح المؤسس على أسس الإسلام ولا أزال ادع والى ذلك حتى ألقى الله إنما المسالة ترتيب وتقديم وتأخير وما تقتضيه حكمة الدين وفقهه وما تفرضه الأوضاع"([ii]).

ثانيا:الإصلاح الاقتصادي :

إنّ معظم الدول الإسلامية تعاني مشكلات التخلف والتضخم والغلاء والتبعية والمديونيات والفوائد الربوية ، والخلل النقدي والبطالة وكل صور الفساد المالي والاقتصادي في ظل تسلط الأنظمة التي لا تتخذ من المنهج الإسلامي أساسا في سياساتها الاقتصادية، فلا بد من إيقاظ الإيمان في نفوس أفراد الأمة أولاً، فهو الحافز لإقامة تنمية حقيقية تتسم بالذاتية، ومن جانب آخر يكون السياج المانع من الاجتراء على مواردها وإهدارها فيما لا ينفع، أو في تحقيق مصالح شخصية تضرُّ بالصالح العام، فالإيمان لا تحرّكه إلا العقيدة، والعقيدة في تفسيرها البسيط هي: تصور الإنسان عن الإله والكون والحياة وطبيعة العلاقة بينهم، وقد تميز الإسلام بالربط بين مكونات العقيدة الواردة في هذا المفهوم.

إن القيم الإسلامية لها دور بارز في زيادة الإنتاج نوعاً وكماً من خلال القضاء على الانحرافات الاقتصادية، كالغش والخداع والربا والاحتكار ومن ذلك الالتزام بضوابط

---

[i] - أريد أن أتحدث إلى الإخوان ،أبو الحسن الندوي

[ii] - ردّة ولا أبا بكر لها، الندوي /22.

الإنتاج التي أكد عليها القرآن الكريم، ومنع الإسراف في استخدام الموارد، والعمل على إزالة الضرر، والأخذ بأولويات الإنتاج، وتجويد وإتقان المنتج، لذلك أشار الشيخ إلى قضية الإصلاح الاقتصادي وتطوير مختلف أنواع الصناعات في مواطن كثير من كتبه ومقالاته وخطبه لاسيما في كتابه :"الخطر الأكبر على العالم العربي وكيف يستعيد العرب مكانتهم" إذ ليس من المنطق أن تعتمد الأمة الإسلامية على أعدائها أو على الأقل مناوئيها في حياتها ومعيشتها يقول الشيخ فيه :"لابد للعالم العربي كالعالم الإسلامي من الاستقلال في تجارته وماليته وصناعته وتعليمه لا تلبس شعوبه وجماهيره إلا ما تنبته أرضه تنسجه يده وتستغني عن الغرب في جميع شؤون حياتها وفي كل ما تحتاجه إليه من كسوة وطعام وبضائع ومصنوعات وأسلحة وجهاز حربي وآلات وماكنات وأدوية فلا تكون كلا على الغرب وعيالا عليه في معيشتها ومتطفلة على مائدتها "([i]) ويضيف أيضا في سياق التأكيد على ضرورة وجود صناعة حربية عربية لمواجهة التحديات والمخاطر التي تواجه الأمة العربية "إنّ العالم العربي لا يستطيع أن يحارب الغرب –إذا احتاج إلى ذلك ودعت إليه الظروف – وهو مدين له في ماله وعيال عليه في لباسه وبضائعه ، لا يجد قلما يوقع به على ميثاق مع الغرب إلا القلم الذي صنع في الغرب ،ولا يجد ما يقاتل به الغرب إلا الرصاص الذي افرغ في الغرب إن عارا على الأمة العربية أن تعجز عن الانتفاع بمنابع ثروتها وقوتها وان يجري ماء الحياة في عروقها وشرايينها إلى أجسام غيرها وان يدرب جيوشها وكلاء الغرب وضباطه ،ويدير بعض مصالح حكومتها رجاله فلابد للعالم العربي أن يقوم هو بنفسه بحاجاته :تنظيم التجارة والمالية ،وحركة التوريد والتصدير ،والصناعة الوطنية ،وتدرب الجيش ،وصنع الآلات والماكنات "([ii]) يهدف النظام الاقتصادي الإسلامي إلى تنظيم المعاملات بشكل يستطيع معه الوصول إلى مستوى معيشي كريم لأفراد المجتمع يتصف بالنمو المطرد والمستقر وذلك من خلال التوظيف الكامل للموارد البشرية والطبيعية،

---

[i] – الخطر الأكبر على العالم العربي وكيف يستعيد العرب مكانتهم،الندوي ،دار الصحوة للنشر والتوزيع –القاهرة، ط1، 1414هـ –1994م /67-68.

[ii] – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ،الندوي ،دار القلم –دمشق،ط3، 1425-2004م/299.

والعدالة في توزيع الدخل والثروات بما يحقق للفرد الحياة الكريمة الرغدة في الدنيا والفوز برضا الله في الآخرة . وتتفاعل هذه المقومات مع بعضها لتسيير النظام الاقتصادي حسب القواعد الكلية للشريعة الإسلامية المشار إليها وطبقاً للأساليب والإجراءات التي تتفق مع مقتضيات الزمان والمكان،ولا يخرج النشاط الاقتصادي عن هذا الإطار العقدي، فالرغبة أو الحاجة تترجم إلى سلوك، ولهذا السلوك نتيجة إما إيجابية أو سلبية ([i])، فإذا ما كان الإيمان متوفراً فإن النتيجة لا شك معروفة ويكون مردودها إيجابياً، وأما إذا غاب هذا الإيمان فإن النتيجة محكومة بالهوى الذي لا يفرِّق بين الحلال والحرام، ولا يعير حقوق الآخرين كثيراً من الاهتمام ، وهو ما يستدعي أن تتبنى الدول وجماعات الإصلاح دعوة إيقاظ الإيمان في نفوس الأمة وهذا ما ركز عليه الشيخ من ضرورة بناء الفرد وفق القيم والمبادئ الإسلامية قرآنا وسنة نبوية شريفة.

ثالثا:الإصلاح الاجتماعي:

- يبدأ هذا الإصلاح بإصلاح الإنسان والمجتمع البشري، ذاتاً ومفاهيم وقيماً، وأخلاقاً وتربية، وهو الهدف الأساس لكل عملية الإصلاح في الإسلام، ولذلك توجّهت الآيات الكريمة في مجمل القرآن الكريم إلى خطاب الفرد بنفسه، لكي يؤمن ويتوب ويُصلح نفسه قبل الآخرين ومن ثمّ تتّجه إلى خطاب الجماعة المؤمنة للإصلاح، في نفسها وحالها، كي تصلح الآخرين ومن ثمّ تتّجه إلى مطالبة الناس جميعاً بالإصلاح لأنّ في ذلك فلاحهم ونجاتهم وبقاء النوع الإنساني واستمراره على الأرض، بدلاً من إفسادها وهلاكهم جميعاً نتيجة لسوء عمل البشر وفساد تدبيره ، فمحور الإصلاح، كما يراه الإسلام ، وكما يعرضه القرآن الكريم، يبدأ بالتربية وإصلاح الذات: من الإنسان، فأهله وذرِّيّته، ثمّ المجتمع، الأقرب فالأقرب، والأولى فالأولى، فلا يتناسى الإنسان المُصلح نفسه، فيكون من الذين ذمّهم الله تعالى بقوله: (يا أيُّها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون * كَبُر مَقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) (الصف:2-3) ولا يغفل عن عائلته التي هو مسؤول عنها، قال

---

[i] - منهج الإصلاح الاقتصادي في الإسلام ،احمد حلمي سيف النصر،شبكة الالوكة2012/12/28.

تعالى: (يا أَيُّها الذينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُم وأهلِيكُم نَاراً وَقُودُها النّاسُ والحِجَارَةُ...) (التحريم:6) ولا ينسى وظيفته في المجتمع لقوله صلّ الله عليه وسلم : "من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإلم يستطع فبلسانه فإلم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الإيمان "([i]) وتتكامل حلقات التربية في البيت مع نظيراتها في المجتمع: المدرسة والجامعة، والمحيط الاجتماعي، في الشوارع ودوائر الدولة، والمجالس العامّة، وغيرها، وهذه بدورها تؤثّر في تشكيل الشخصية الخارجية للفرد وسلوكه الاجتماعي العام، ولذلك يجب العمل على أن يكون التعامل في كل هذه المجالات قائماً على أساس إحترام الإنسان وإكرامه، كما أراد الله تعالى، بقوله : (ولقد كَرَّمنا بني آدم وحَمَلناهم في البرِّ والبحرِ ورزقناهم من الطّيِّبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خَلَقنا تفضيلاً) (الإسراء: 70) والهدف الأساسي لمنهج التربية في الإسلام هو الإصلاح في كل نواحي المجتمع يجب أن ينطلق من محور إصلاح الإنسان، الذي يقود الحياة ويُدير الأعمال ويُوجِّهها، وبمقدار ما يتمّ التغيير ويفلح الإصلاح في الإنسان الفرد، في ذاته ونفسه، في أفكاره وقيمه، في سلوكه ومناهج عمله.. تتم عملية التغيير في المجتمع كلّه وتتقدّم عملية الإصلاح، يقول تعالى: (إنّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتّى يغيِّروا ما بأنفسهم) (الرَّعد: 11)وهذا قانون إلهي وسنّة إجتماعية فتقدّم المجتمع وتطوّر مفاهيمه وتغيّر واقعه لا يتم الا بالعمل على تربية الإنسان وترقية أفكاره منذ الصغر([ii]) . وهو ما أكد عليه الشيخ الندوي من خلال كتبه ومقالاته وخطبه في ضرورة تربية النشء تربية إسلامية صحيحة نابعة من فهم سليم للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

رابعا :الإصلاح الثقافي :

تعد عملية الإصلاح الثقافي صمام أمان الإصلاح الشامل ولاشك أن المتفحص للواقع الحضاري للأمة الإسلامية، يلحظ أن الأمة لازالت تعاني من خلل فكري ومنهجي في المجال الثقافي بسبب الغزو العسكري والثقافي الغربي للبلدان الإسلامية من الشرق الى الغرب، وأن فشل مشاريع التنمية إنما يعود بالأساس إلى فقدان الأمة قيمها الثقافية النابعة من العقيدة

---

[i] – تقدم تخريجه.

[ii] – نظرية الإصلاح من القرآن الكريم ،إحسان الأمين ،موسسة العارف للمطبوعات ، ط1 /32.

الإسلامية، ومن بين أهم القيم الثقافية القاتلة التي تم استنباتها في التربة العربية والإسلامية من طرف الغرب، الفصل بين الدين والعلم وبين الدين والدولة والدين وبين العقل والإيمان، انطلاقا من التصور الغربي الذي مر بتجربة تاريخية، تجسدت في علاقة الكنيسة بالمجتمع وبالقيم الدينية، وقد كان من مستتبعات هذه العلاقة المتوترة، حصول انفصال وقطيعة بين الدولة والدين([i])، لذلك أكد الشيخ في كتاباته على آلية وضع المناهج والمضامين والدقة في اختيار موضوعات الكتب المنهجية لما لها من اثر بالغ في سلوك وعقيدة وفكر المتعلم والنشء الجديد حيث رأى أنّ المنهج الإصلاحي الذي نريده ينبع أساسًا من تكوين الفرد تكوينًا نوعيًّا، ويحمل على بعض المصلحين الذين خلطوا الواقع الإصلاحي بالتجربة والروح الغربيّة، وكان يندهش من المسلمين الذين اطمأنّوا لتدريس أبناءهم في المؤسسات العلميّة الغربيّة، وغفلوا عن هدف الغرب في القضاء على الهويّة الإسلاميّة لهم، وتنبّه إلى ضرورة إحداث تغيير شامل في الجامعات الإسلاميّة من خلال ربط العلم بالتربية؛ وأولى اهتمامًا كبيرًا بالمنهل العلمي الذي يتلقّاه الشباب، فلا بدّ من تصفية هذا المنهل من خلال توحيد التعليم ليكون وحدة شاملة تجمع بين الوسائل والغايات([ii]). وأن الإصلاح الثقافي ممكن التحقق، وأن دعوات الأنبياء والرسل والمصلحين، إنما كانت دعوة ثقافية، من خلال إحداث انقلاب جذري في كيان الفرد والجماعة بهدف الاستجابة للقيم الجديدة، القيم البانية،والقيم الحضارية التي تنهض بها الأمة.

خامسا:الإصلاح الإداري:

إنّ الشيخ أبو الحسن الندوي ينطلق في نظرته للإصلاح الإداري من نظرة الإسلام إلى الرقابة الذاتية في الإدارة نظرة عامة وشمولية، تنطلق من كون الأخلاقيات الإسلامية تأخذ مفهوما واسعا، فبقدر ما يتدخل الإسلام ويوجه في الشؤون العامة يتدخل في الشئون الخاصة، لذا أوجب الإسلام قبل كل شيء أن يراعي الفرد الرقابة الذاتية التي ينبغي على الموظف الإداري والعامل المهني أن يراعيها قبل الرقابة الإدارية، ولأنها أحد أهم المتطلبات

---

[i] - في نظرية الإصلاح الثقافي ،محمد يتيم ، دار الانتشار العربي /210

[ii] - الركائز العشرون لفقه الدعوة عند العلامة أبي الحسن الندوي ؛ يوسف القرضاوي.

الأخلاقية، يجب على الفرد المسلم تنمية الشعور بالمسئولية، حيث تعتبر إحدى الخصائص الأساسية المطلوبة في الموظف الإداري.

والإسلام يدعو إلى تفعيل السلوك الإداري قبل التوظيف وبعده وتنمية الإحساس لديه بأهمية الالتزام بالأخلاق والسلوكيات الإسلامية على اعتبار الوظيفة جزء من الأمانة التي كلف الإنسان المؤمن بحملها وحفظها و التي تسهم في تهذيب السلوك وتزكيته، وكذا ضرورة إيقاظ الضمير الديني الذي يوجه الخطوات ويسدد التصرفات، وإذا كان هناك عدد من الصفات الأخلاقية التي ينبغي على الفرد المسلم التحلي بها في التعامل مع الآخرين، فإن الالتزام بهذه الصفات في مجال العمل يكون أوجب وأهم، ذلك لأن المهنة أو الوظيفة هي محور علاقة مباشرة بين الفرد ومن حوله ممن يتعاملون معه من الزملاء والرؤساء والمرؤوسين، وتؤدي القيم الفاضلة التي يعتنقها الفرد المسلم المستمدة من عقيدة التوحيد ومبادئ الشريعة دورا أساسيا في التأثير على سلوكه ونشاطاته وممارساته اليومية وهذا ما أكد عليه الشيخ في كتبه ورسائله في بناء وإعداد وتربية جيل إيماني وفق المناهج والمقررات التي تنطلق من العقيدة الإسلامية والاستغناء عن المناهج المستورة والأيدي العاملة الغربية واكتفاء الأمة الإسلامية واعتمادها على أبنائها في إدارة شؤونها ومؤسساتها لذلك يقول الشيخ أبو الحسن الندوي في سياق تغيير المناهج لما لها من اثر في بناء الشخصية المسلمة الجادة في إدارة أعماله اليومية الخاصة و المؤسساتية العامة :" لابد من قلب نظام التربية و والتعليم المستورد من الغرب المنتشر والسائد في العالم الإسلامي ، رأسا على عقب وصوغه صوغا إسلاميا جديدا يتفق مع شخصية الشعوب المسلمة وعقيدتها ورسالته وقامتها وقيمتها ... وبغير ذلك لا يقوم العالم الإسلامي على قدميه ورأسه وعقله وإرادته وتفكيره ولا تدار الحكومات والأجهزة الإدارية والمرافق العامة برجال مؤمنين أقوياء أمناء مخلصين يطبقون التعاليم الإسلامية في الحكومة والإدارة والتربية والإعلام والمجتمع فتمثل الحياة الإسلامية بجمالها وكمالها وينشأ المجتمع الإسلامي بسماته وخصائصه"([1]).

[1] -القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع، الندوي ، مطابع الرشيد-المدينة المنورة ،1401هـ-1981 /76-77.

فالإصلاح الإداري عند الشيخ يبدأ بإصلاح الإنسان وتربيته وتنشئته تنشئة إسلامية وفق القيم والمبادئ والأحكام الشرعية وتعزيز وترسيخ الرقابة الذاتية لأنها تغني عن كثير من النظم والتوجيهات والمحاسبة والتدقيق والمتابعة، ولو أن كل موظف في مكتبه، وعامل في مهنته وصانع في مصنعه، راقب الله تعالى فيما هو مؤتمن عليه لكان له الأثر الفعال على الأداء وتحقيق الأهداف، لذا فإن الموظف المؤمن هو أقدر الناس على القيام بالعمل، لأنه أكثرهم مراقبة لله، فلا يقصر في عمله، ويتعدى ذلك أنه لا يقتصر اهتمامه على نظافة أدائه وإتقانه فحسب، بل يجتهد في نظافة أداء المؤسسة كلها والتي يعمل فيها. وبذلك يحقق معنى الاستخلاف الحقيقي الذي من اجله خلق الله الإنسان لاستعمار الأرض وإقامة الدين والتمكين له.

الخاتمة:

أولا: إن نظرية الإصلاح في فكر الشيخ أبو الحسن الندوي تقوم على مجموعة من الأسس والمرتكزات لكن أهم هذه المرتكزات هو تعميق الإيمان بالله و الاحتكام إلى شريعته في شؤون الحياة جميعها وانه خالق الكون ومدبر أمرها فله الخلق والأمر من خلال إعلاء الوحي لأنه مصدر العقائد والشرائع والأخلاق ولان نور العقيدة فوق نور العقل وان الفلسفات المختلفة ليست لها تصور صحيح أو دقيق عن الإلوهية والكون والحياة والإنسان، وتوثيق الصلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية باعتبار الأول دستور الإسلام ورسالة الله عزوجل إلى البشرية جميعا والثاني مبينة للقرآن الكريم وشارحته نظريا وهي التطبيق العملي له.

ثانيا: إيجاد و ترسيخ الوعي في أبناء الأمة الإسلامية من كل ما يعرضها إلى الضعف والتهاون والاعتماد على الأخر من خلال السعي لجمع كلمة المسلمين وعدم تفرقهم والتقريب وعدم التباعد والبناء لا الهدم من خلال المناهج العلمية والتربوية والعناية بالتربية الإسلامية التي تستمد فلسفتها من الإسلام عقيدة وشريعة وقيما وأخلاقا وبيان دور الجيل الأول من الصحابة الذين هم الصورة المثلى للتربية النبوية

ثالثا: نقد الفكرة الغربية والنزعة المادية الحسية والعصبية القومية المستمدة من الحضارتين الرومانية واليونانية وعدم الاستسلام للغرب والانقياد له انقيادا أعمى مع التنويه الى التقدم

العلمي والتكنولوجي الذي حققه الغرب وضرورة الأخذ منها والاقتداء بها في هذا الجانب لاسيما في وسائله لا غاياته والياته لا منهج حياته.

رابعا:إعداد الدعاة العاملين والعلماء المخلصين الربانيين الصادقين القادرين على فهم متطلبات الحياة ومواكبة العصر واستيعاب التطورات العلمية في جميع المجالات بحيث يكون لهم القدرة على توجيه فئات المجتمع جميعا ومن ثم تأخذ على عاتقها الترشيد والتربية وفق المنهج النبوي البعيد عن الغلو والتشدد وإثارة المسائل الخلافية والجزئية من خلال المؤسسات العلمية الرصينة ووضع المناهج التي تلبي هذا الغرض.

خامسا :إن مجالات الإصلاح وفق نظرية الشيخ أبو الحسن الندوي لا تقتصر على الجانب الديني فقط إنما تشمل الإصلاح السياسي لاسيما تحكيم شرع الله وإقامة حدوده والتزام المصالح العليا للأمة والعدل والمساواة بين الناس على مختلف قومياتهم وأعراقهم وأجناسهم لكن الإصلاح السياسي لا يأتي بثورة أو انقلاب عسكري إنما بالتدريج والتربية والعمل الدعوي الدؤوب المستمر فهو لا ينكر العمل السياسي إنما يجعله نتيجة من نتائج الإصلاح وانتشار الدعوة أو أثرا للتغيير الإيماني والأخلاقي بالتالي قبول الناس بحكم الإسلام وقيادته وسياسته لأحوال الأمة يقول الشيخ أيضا في رسالته – ردّة ولا أبا بكر لها– :"إنني لم أكن في فترة من فترات حياتي ممن يقول بفصل الدين عن السياسة وممن يفسر الدين تفسيرا لا يتصادم مع الوضع – مهما شذ وانحرف عن الإسلام – وينسجم مع كل مجتمع ولا ممن يعتبر السياسة الشجرة الملعونة في القران بل أنا في مقدمة من يدعو إلى إيجاد الوعي السياسي الصحيح في الشعوب الإسلامية وإيجاد القيادة الصالحة وممن يعتقد أن المجتمع الديني لا يقوم إلا بالملك الديني الصحيح والحكم الصالح المؤسس على أسس الإسلام ولا أزال ادع والى ذلك حتى ألقى الله إنما المسالة ترتيب وتقديم وتأخير وما تقتضيه حكمة الدين وفقهه وما تفرضه الأوضاع.

سادسا: أما الإصلاحَ الاقتصادي يرى الشيخ أبو الحسن الندوي أن القيم الإسلامية لها دور بارز في زيادة الإنتاج نوعاً وكماً من خلال القضاء على الانحرافات الاقتصادية، كالغش والخداع والربا والاحتكار والالتزام بضوابط الإنتاج التي أكد عليها القرآن الكريم، ومنع

الإسراف في استخدام الموارد، والعمل على إزالة الضرر، والأخذ بأولويات الإنتاج، وتجويد وإتقان المنتج، لذلك أشار الشيخ إلى قضية الإصلاح الاقتصادي وتطوير مختلف أنواع الصناعات في مواطن كثير من كتبه ومقالاته وخطبه لاسيما في كتابه :"الخطر الأكبر على العالم العربي وكيف يستعيد العرب مكانتهم" إذ ليس من المنطق أن تعتمد الأمة الإسلامية على أعدائها أو على الأقل مناوئيها في حياتها ومعيشتها يقول الشيخ فيه :"لابد للعالم العربي كالعالم الإسلامي من الاستقلال في تجارته وماليته وصناعته وتعليمه لا تلبس شعوبه وجماهيره إلا ما تنبته أرضه تنسجه يده وتستغني عن الغرب في جميع شؤون حياتها وفي كل ما تحتاجه إليه من كسوة وطعام وبضائع ومصنوعات وأسلحة وجهاز حربي وآلات وماكنات وأدوية فلا تكون كلا على الغرب وعيالا عليه في معيشتها ومتطفلة على مائدتها.

سابعا: أما ما يخص الإصلاح الثقافي العلمي المتمثل بالمناهج التعليمية أكد الشيخ في كتاباته على آلية وضع المناهج والمضامين والدقة في اختيار موضوعات الكتب المنهجية لما لها من اثر بالغ في سلوك وعقيدة وفكر المتعلم والنشء الجديد حيث رأى أنّ المنهج الإصلاحي الذي نريده ينبع أساسًا من تكوين الفرد تكوينًا نوعيًّا، ويحمل على بعض المصلحين الذين خلطوا الواقع الإصلاحي بالتجربة والروح الغربيّة، وكان يندهش من المسلمين الذين اطمأنّوا لتدريس أبناءهم في المؤسسات العلميّة الغربيّة، وغفلوا عن هدف الغرب في القضاء على الهويّة الإسلاميّة لهم، وتنبّه إلى ضرورة إحداث تغيير شامل في الجامعات الإسلاميّة من خلال ربط العلم بالتربية؛ وأولى اهتمامًا كبيرًا بالمنهل العلمي الذي يتلقّاه الشباب، فلا بدّ من تصفية هذا المنهل من خلال توحيد التعليم ليكون وحدة شاملة تجمع بين الوسائل والغايات وأن الإصلاح الثقافي ممكن التحقق، وأن دعوات الأنبياء والرسل والمصلحين، إنما كانت دعوة ثقافية، من خلال إحداث انقلاب جذري في كيان الفرد والجماعة بهدف الاستجابة للقيم الجديدة، القيم البانية،والقيم الحضارية التي تنهض بها الأمة.

ثامنا: أما الإصلاح الإداري عند الشيخ يبدأ بإصلاح الإنسان وتربيته وتنشئته تنشئة إسلامية وفق القيم والمبادئ والأحكام الشرعية وتعزيز وترسيخ الرقابة الذاتية لأنها تغني عن كثير من النظم والتوجيهات والمحاسبة والتدقيق والمتابعة، ولو أن كل موظف في مكتبه،

وعامل في مهنته وصانع في مصنعه، راقب الله تعالى فيما هو مؤتمن عليه لكان له الأثر الفعال على الأداء وتحقيق الأهداف.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أبو الحسن علي الحسيني الندوي الإمام المفكر والداعية الأديب ، عبد الماجد الغوري.،دار ابن كثير، بيروت – لبنان ، 1999م.

أحاديث صريحة مع أمريكا،أبو الحسن الندوي،مؤسسة الرسالة-بيروت،ط1، 1398ه-1978م،مجموع محاضرات ألقاها في أمريكا وكندا.

أريد أن أتحدث إلى الإخوان،أبو الحسن الندوي مجمع الإسلامي العلمي،لكهنؤ-الهند.

إذا هبت ريح الإيمان ،أبو الحسن الندوي ،مؤسسة الرسالة ،ط 10 ،1406ه-1985م.

بعض سمات الدعوة المطلوبة في هذا العصر، أبو الحسن الندوي ، من بحوث المؤتمر الأول لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة.

ترشيد الصحوة الإسلامية،أبو الحسن الندوي ، محاضرة ألقاها بالمجمع الثقافي الكبير في أبو ظبي.

التركيز على إصلاح الفرد أولا ،يوسف القرضاوي ، موقع القرضاوي ،2003/4/2.

التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي والشهيد سيد قطب،أبو الحسن الندوي ،دار أفاق الغد –القاهرة،1980م.

الخطر الأكبر على العالم العربي وكيف يستعيد العرب مكانتهم،أبو الحسن الندوي ،دار الصحوة للنشر والتوزيع –القاهرة، ط1 ،1414ه -1994م .

ربانية لا رهبانية ،أبو الحسن الندوي ،دار القلم – دمشق، ط1 ،1421ه-2000م.

رجال الفكر والدعوة في الإسلام ،ابو الحسن الندوي، المقدمة، دار القلم، الكويت، ط5 ، 1977م .

ردّة ولا أبا بكر لها،ابو الحسن الندوي .

الركائز العشرون لفقه الدعوة عند العلامة أبي الحسن الندوي ، يوسف القرضاوي

الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ،الندوي .

فقه الدعوة عند العلامة أبو الحسن الندوي ، يوسف القرضاوي، موقع الشيخ القرضاوي على الشبكة الالكترونية.

في نظرية الإصلاح الثقافي ،محمد يتيم ، دار الانتشار العربي .

القادياني والقاديانية ،ابو الحسن الندوي،

القرن الخامس عشر الهجري الجديد في ضوء التاريخ والواقع، الندوي ، مطابع الرشيد-المدينة المنورة، 1401ه-1981م .

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين،أبو الحسن الندوي،دار القلم – دمشق ،ط3 ،1425ه-2004م.

محاسن التأويل ، جمال الدين محمد بن سعيد القاسمي القاهرة –مصر،1957م:252/1

محاضرات في الفكر والدعوة،أبو الحسن الندوي، محاضرة القيت 1977م أمام عامة المسلمين المقيمين في أمريكا.

المصطلحات الأربعة في القرآن،أبو الأعلى المودودي ،الدار الكويتية،ط4،د-ت.

المفردات في غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني، المكتبة التوفيقية -مصر/289.

مفهوم الإصلاح السياسي والاجتماعي الإسلامي ،كمال بدر الدولة ،مقال منشور على الشبكة الالكترونية بتاريخ2012/2/20

من أعلام الفكر الإسلامي المعاصر ومن رجال الدعوة والإصلاح أبو الحسن الندوي، محمد أمين حسن محمد بني عامر ،بحث منشور في مجلة كلية الشريعة جامعة اليرموك الأردن على الشبكة الالكترونية.

نظرية الإصلاح من القرآن الكريم

نفحات الإيمان،أبو الحسن الندوي

واقع العالم الإسلامي وما هو الطريق السديد لمواجهته وإصلاحه ،أبو الحسن الندوي.محاضرة

التوجيه العقدي في فكر الشيخ الندوي وأثره في تحصين الأجيال دراسة عقدية تحليلية

د. بشار شعلان عمر النعيمي
قسم اصول الدين, كلية العلوم الإسلامية
جامعة الموصل, العراق

فإنّ مما أكرم الله به أمتنا، وأعلا به راية التوحيد والإيمان، أن جعل فيها علماء عاملين، جعلوا جلّ همهم خدمة الإسلام، وإثراء المكتبة الإسلامية بعشرات المصنفات التي تحفظ للمسلمين موروثهم العلمي، والذي كان وما زال سبباً رئيساً في نهضة أمتنا وإعلاء شأنها على سائر الأمم.

لقد كان الشيخ الإمام (أبو الحسن النّدوي) رحمه الله تعالى من هؤلاء الرجال الذين حُقّ فيهم أن يقال: رجال ولدوا عظماء؛ ذلك لأجل العطاء الذي قدموه في سبيل الإسلام ديناً ومنهجاً في الحياة، بذلوا الغالي والنفيس وهجروا الراحة وناعم العيش، وحملوا هموم الأمة على ظهورهم، وذهبوا ينتشرون في الأرض يعلمون الناس أمر دينهم، ويرشدون شباب الإسلام إلى جادة الحق وصراط الله المستقيم، وأقاموا لأجل حماية أجيال المسلمين حصوناً عالية منيعة من العلوم والمعارف التي كانت من أهم عوامل نهضتهم وريادتهم في الحياة.

ويأتي هذا البحث كعينة صغيرة لبيان عظيم الأثر الذي تركه عطاء الشيخ النّدوي (رحمه الله) لأمة الإسلام، ويسلط البحث الضوء على جانب العقيدة الإسلامية في فكر الشيخ النّدوي وتوجيهه المسلمين إلى العناية بالعقيدة عناية بالغة تكون سبباً لإسعادهم في الدنيا والآخرة، وذلك من خلال ما سطره الإمام النّدوي في كتبه التي غدت كالنجوم تهدي الناظر فيها إلى الحق المنبلج في ظلام هذه الحياة المتلاطمة الأمواج من المحن والفتن، ومحاولات الإضلال والإغواء التي تنتهجها قوى الشر ضد أمة الإسلام.

وتتلخص فكرة البحث في بيان المنهج العفدي الذي اتبعه الإمام النّدوي في إيضاحه لكبرى قضايا العقيدة الإسلامية، فقد ألف العديد من الكتب في جانب العقيدة والسلوك الإيماني، وقد عاش في الهند، وهو بلد ذو بيئة تحيط بها معتقدات فاسدة منها ما هو كفر

صراح، كالهندوسية والطاوية والبوذية والجينية والزرادشتية وغيرها، ومنها ما هو ضلال مبين كضلال القاديانية والباطنية، والعلمانية وغيرهم.

ويوضح البحث أثر التوجيه العقدي للشيخ الندوي في حماية ورعاية وصيانة الأجيال من المعتقدات الفاسدة والأفكار الهدامة المنتشرة في الهند وغيرها، فقد آتى هذا المنهج أكله وثمرته في تحصين شباب المسلمين في الهند خاصة والعالم عامة، لما حمله لهم من قيم الإيمان والهداية وإنارة البصيرة في كتبه التي ألفها في بيان قضايا الإيمان ومحاضراته القيمة التي كان يلقيها على مسامعهم في مختلف البلدان.

المبحث الأول

عناية الشيخ النّدوي بقضايا الإيمان بالله تعالى وأثر ذلك في الأجيال

المطلب الأول: تأكيد الشيخ النّدوي على عقيدة الإيمان بالله تعالى وأثر ذلك:

لقد عني الشيخ النّدوي (رحمه الله) بقضايا العقيدة عناية بالغة وكبيرة إذ هي المحور المشترك في جميع رسالات الرسل السابقين الذين بعثهم الله عز وجل لهداية العالمين، وفي ذلك قال الله سبحانه تعالى: ((وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًاأَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ))[i]، وقال عز وجل: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ))[ii]، فالآيتان الكريمتان ناطقتان بمحور رسالات الرسل السابقين وهو عقيدة الإيمان وتوحيد الله تعالى.

وتظهر العناية الكبيرة للشيخ الندوي ببيان قضايا العقيدة من خلال توجيهاته السديدة، باعتبار العقيدة الإيمانية الخالصة هي مناط قبول عبادة الخلق للخالق، يقول الشيخ النّدوي رحمه الله تعالى في بيانه لحقيقة العقيدة والإيمان وأثرها في العبادة لله تعالى: " وقوام العبودية تصحيح العقيدة والإيمان، ومن تطرق إلى عقيدته خلل، وتعرض إيمانه لفساد، لم تقبل منه عبادة، ولم يصح له عمل، ومن صحت عقيدته واستقام إيمانه، كان القليل من عمله كثيراً، وهنا وجب على كل إنسان أن لا يدخر وسعاً في تصحيح إيمانه، وأن يكون الحصول عليه والاستيثاق منه غاية عمله، ونهاية سؤله، ولا يعدل به شيئاً ولا يتأخر في دقيقة "[iii]،

([i]) سورة النحل: من الآية 36.

([ii]) سورة الأنبياء: الآية 25.

([iii]) الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك ــ طبعة دار القلم ــ الكويت ــ دون رقم وسنة: ص 68، 69.

فهذه الكلمات المضيئة تظهر المكانة العظيمة للعقيدة الصحيحة التي بصلاحها وبعدها عن مفاسد الاعتقاد تقبل الأعمال، وتنال الدرجات، وترفع المترلات.

وقد أوضح معلماً مهماً من معالم التغيير في حياة الناس، ألا وهو تأثير الإيمان الصحيح في الأخلاق والميول، فقال رحمه الله: كان الناس ـــ عرباً وعجماً ـــ يعيشون حياة جاهلية، يسجّلون فيها لكل ما خلق لأجلهم، ويخضع لإرادهم وتصرفهم، لا يثيب الطائع بجائزة، ولا يعذب العاصي بعقوبة ولا يأمر ولا ينهى، فكانت الديانة سطحية طافية في حياتهم، ليس لها سلطان على أرواحهم ونفوسهم وقلوبهم، ولا تأثير لها في أخلاقهم واجتماعهم، كانوا يؤمنون بالله كصانع أتم عمله واعتزل وتنازل عن مملكته لأناس خلع عليهم خلعة الربوبية، فأخذوا بأيديهم أزمّة الأمر، وتولوا إدارة المملكة وتدبير شؤوها وتوزيع أرزاقها، إلى غير ذلك، فكان إيمانهم بالله لا يزيد على معرفة تاريخية، وكان إيمانهم بالله وإحالتهم خلق السموات والأرض إلى الله لا يختلف عن جواب تلميذ من تلاميذ فنّ التاريخ يقال له: من بنى هذا القصر العتيق؟ فيسمي ملكاً من الملوك الأقدمين من غير أن يخافه ويخضع له؛ فكان دينهم عارياً عن الخشوع لله ودعائه، وما كانوا يعرفون عن الله ما يحببه إليهم، فكانت معرفتهم مبهمة غامضة، قاصرة مجملة، لا تبعث في نفوسهم هيبة ولا محبة[i].

ثم قال رحمه الله: انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح، ذات تأثير على الأخلاق والاجتماع، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها، آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، العزيز الحكيم، الغفور الودود، الرؤوف الرحيم، له الخلق والأمر، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه، إلى آخر ما جاء في القرآن من وصفه، يثيب بالجنة، ويعذب بالنار، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، يعلم الخبء في السموات والأرض، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، إلى آخر ما جاء في القرآن من قدرته وتصرفه وعلمه[ii].

([i]) ينظر: الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـــ طبعة دار ابن كثير ـــ دمشق، بيروت ـــ ط4 ـــ 1426هـ، 2006م: ص 152، 153.

([ii]) ينظر: المصدر نفسه: ص153.

ففي هذه الكلمات يجمل الشيخ الندوي رحمه الله تعالى الحالة العقدية التي كان عليها الناس، والتي كانت أشبه بليل طويل أرخى سدوله على عقولهم المغلفة بالجهل، والمغطاة بالعصبية الجاهلية المقيتة، لكنهم بعد إيمانهم بالله تعالى رباً وسيّداً للكون لا مشارك له في ربوبيته وإلوهيته، ولا قسيم معه في الخلق والأمر والتدبير، خرجوا بذلك الإيمان الخالص من ربقة تقليد الآباء والأجداد إلى الخضوع لنداء الإيمان الذي صدح به رسول الله محمّد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم)، فنفضوا عن عقولهم أغطية الكفر والشرك بالله تعالى، وشحذوا هممهم بغذاء الإيمان والعقيدة الخالصة لله تعالى، فأصبحوا قادة بعد أن كانوا منقادين، وغدوا أسياداً بعد أن كانوا مسودين.

فقد ركز الشيخ الندوي (رحمه الله تعالى) على نقطتين جوهريتين نتجتا عن هذا التغير الذي نبع من نبع الإيمان النقي والعقيدة الصافية، كانتا السبب الرئيس في هذه الرفعة العالية، والانتقالية النوعية، وهاتان النقطتان هما:

الأولى: الإيمان بالله تعالى، وترك عبادة الأصنام والأوثان، وذلك بقوله رحمه الله سبحانه: " آمنوا بالله الذي له الأسماء الحسنى والمثل الأعلى، آمنوا برب العالمين الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، الخالق البارئ المصور، العزيز الحكيم، الغفور الودود، الرؤوف الرحيم، له الخلق والأمر، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه ... " ، فالإيمان هو الذي رفعهم، وغير مسار حياتهم من الهبوط نحو وديان الضياع والتخلف، إلى الصعود والارتقاء نحو قمم التمكين والرقي والريادة.

الثانية: المعرفة والمراد بها العلم، والعلم صنو الإيمان، فالإيمان يرفع والعلم يزيد الرفعة رفعة وارتقاء، وهذا ما عناه الشيخ الندوي رحمه الله تعالى بقوله: " انتقل العرب والذين أسلموا من هذه المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية، ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح، ذات تأثير على الأخلاق والاجتماع، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها ".

وهاتان النقطتان لم يأت بهما الشيخ الندوي رحمه الله تعالى، ضرباً من الخيال، أو نتيجة بلا مقدمة، بل كانت عرضاً دقيقاً للبيان القرآني الذي ربط العلم بالإيمان ربطاً وثيقاً ومنيعاً، فتوجيه الشيخ الندوي هو توجيه القرآن الكريم، فقد قال الله تبارك وتعالى في بيان تأثير امتزاج العلم بالإيمان وتأثيره في حياة أهل الإيمان: ((يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ

أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)) [i]، وقد أكد الشيخ الندوي (رحمه الله) وثاقة صلة العلم بالإيمان بالله عز وجل، وذلك بقوله: " كان من الخطأ الفادح أن انقطعت صلة العلم بالرب، فحاد عن الصراط المستقيم، فجاء الوحي الإلهي الذي نزل على النبي الأمي يصله بالله، ويربطه بالرب تبارك وتعالى، حيث جاء العلم مقروناً باسم الرب لكي يعلم البشر ضرورة بداية العلم، والتعليم والقراءة باسم الرب، الذي وهب هذه النعمة الغالية، ومنَّ بها على عباده وهو الذي خلقه، فلا يتقدم تقدماً متزناً إلا تحت توجيهه وهدايته "[ii].

إن عناية الشيخ الندوي بقضايا الإيمان بالله تعالى تعليماً وتثقيفاً وترسيخاً في القلوب له من الأهمية بمكان، إذ الإيمان هو أساس وركيزة صلة العبد بالله تعالى، ويظهر أثر ذلك في صيانة شباب الأمة وأبنائها عن دواخل الشر والأفكار الهدامة التي يبثها الغرب تجاههم ليل نهار، فتركيز الشيخ الندوي (رحمه الله تعالى) على قضية الإيمان بالله تعالى هو سور منيع يُبنى حول المسلم ليحفظ له مقومات الإيمان من وساوس الشيطان، وليزيد منعته أمام أهل الفسق والعصيان، فالإيمان النقي الخالص هو الذي يخرج الإنسان من الظلمات إلى النور، كما أنه يحفظه من جميع الشرور، وفي ذلك قال الله تعالى: ((اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)) [iii]، فالإيمان بالله تعالى هو باب السعادة للمسلم في دنياه وأخراه[iv]. .

والإيمان بالله تعالى هو بداية جوامع الخير للمسلم، ومع الاستقامة يحصل العبد على التكامل الإيماني الذي يجعله ينجو من النيران ويفوز بالجنان، فقد جاء في جواب الرسول

(i) سورة المجادلة: من الآية 11.

(ii) الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، الطريق إلى السعادة والقيادة ــ طبعة مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط1 ــ 1402هـ، 1982م: ص 135، 136.

(iii) سورة البقرة: الآية 257.

(iv) ينظر: الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، أثر الإيمان في تحصين الأمة من الأفكار الهدامة ــ طبعة الجامعة الإسلامية ــ المدينة المنورة ــ ط1 ــ 1423هـ، 2003م: ص254.

(صلى الله عليه وسلم) للذي سأله فقال: " يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ " فأجابه النبي (عليه الصلاة والسلام) وقال له: " قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، فَاسْتَقِمْ "[i].

كما يظهر أثر التوجيه الإيماني في تقويم السلوك وتشذيب الأخلاق، فللإيمان أثر كبير وبالغ في تقويم السلوك، وتزكية النفس؛ لأن نظام الأخلاق في الإسلام يشمل أموراً حثّ الشارع على فعلها، والتحلي بها، لما لها من الأثر في صلاح المجتمع والأفراد، وقربهم من الله تعالى، فبالتزامها تسود المحبة وتتقارب القلوب، ويتعامل الناس بالمودة والتراحم والتعاون، وتوجد الثقة بين أفراده، ويشعر الجميع بالرضا والأمن، كما يشمل أموراً من الخُلق القبيح والتي نهى الإسلام عنها وحذر منها، لما لها من أثر في بعد المسلمين عن ربهم، وتنافرهم وتناحرهم وضعف الرابطة فيما بينهم، وانبعاث بذور الفرقة والشر بينهم، فهذه الأخلاق الرذيلة توغر الصدور، وتبعث الشرور، وتفرق جمع المسلمين، فتضعف الرابطة الإيمانية بينهم، وتهدم هذا السور المنيع، وتصبح فيه ثغرات وممرات يدخل منها الشر الفكري، والمكر الجلي والخفي، ويصبح المجتمع ميداناً لخيل العابثين، والحاقدين المتربصين، فالأخلاق الإسلامية الفاضلة هي التي لها الأثر العظيم في قوة ترابط الإيمان بين أفراد المجتمع المسلم، وقد كثرت الآيات القرآنية المتعلقة بموضوع الأخلاق، ولا شك أن كثرة الآيات في موضوع الأخلاق يدل على أهميتها، ومما يزيد في هذه الأهمية أنّ هذه الآيات منها ما نزل في مكة قبل الهجرة، ومنها ما نزل في المدينة المنورة بعد الهجرة، ففي الحالة الأولى ارتبطت الأخلاق بالعقيدة ارتباطاً وثيقاً، وبالثانية ارتبطت بالتشريع ارتباطاً متيناً، وهذا يدل على أن الأخلاق أمرٌ مهم للغاية لا يستغني عنه المسلم، وأن مراعاة الأخلاق تلزم المسلم في جميع الأحوال، فهي تشبه أمور العقيدة من جهة عناية القرآن بها في سوره المكية والمدنية على السواء[ii].

ومن ذلك يظهر أثر التوجيه العقدي القيم للشيخ الندوي وعنايته بقضايا الإيمان بالله تعالى، التي تنتج الحصانة والصيانة للمسلمين وأجيالهم على مدى العصور ومر الدهور.

المطلب الثاني: بيان الشيخ الندوي لتوحيد الله عز وجل وأثر ذلك:

(i) رواه مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ) ــ صحيح مسلم ــ كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، بالرقم (38) ــ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ــ طبعة دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ د.ر.ت: 65/1.

(ii) ينظر: الدكتور عبد الله الجربوع، أثر الإيمان في تحصين الأمة من الأفكار الهدامة: ص563؛ الدكتور عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة ــ طبعة مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط1 ــ 1425هـ، 2005م: ص79.

إنّ من أهم القضايا التي عني بها الشيخ الندوي أشد العناية هي قضية توحيد الله تعالى، وذلك لما تشغله هذه القضية من مكانة مهمة ورئيسة في عقيدة الإسلام، وكذلك تفشي وانتشار مظاهر الشرك، وخصوصاً في الهند البلد الذي عاش فيه الشيخ الندوي رحمه الله تعالى، وقد أوضح الشيخ الندوي معالم الشرك بالله تعالى في كتابه (العقيدة والعبادة والسلوك في ضوء الكتاب والسنة والسيرة النبوية)، وتحدث عن أنواعها التي اختلفت باختلاف عقائد الناس، فقال رحمه الله تعالى: " والسجود بجميع أنواعه لا يجوز إلا لله تعالى، والمناسك ومظاهر التعظيم الأقصى، وشعائر الحب والتفاني خاصة بالبيت والحرم، وتخصيص الحيوانات للصالحين، والتقرب باحترامها ونذرها وذبحها إليهم حرام، وغاية التعظيم في تذلل وخشوع من حق الله تعالى، والذبح تقرباً وتعظيماً من حق الله تعالى، والاعتماد على العرافة والكهانة والمخبرين بالمغيبات كفرٌ وجبتٌ "[1]، ففي هذا النص يبيّن الشيخ الندوي أنواعاً من الشرك الذي سقط فيه الناس، وهو يفرق تفريقاً دقيقاً بين من يفعلها من المسلمين وهو جاهل بآثارها، وبين من هو من غير المسلمين، فالأول يفعلها جهلاً والثاني يفعلها كفراً، ولهذا فقد فرق الشيخ بينهما بعبارة دقيقة وذلك بقوله: " والتقرب باحترامها ونذرها وذبحها إليهم حرام "، فالحرام حكم متعلق بأفعال المكلفين الذين هم في دائرة الإسلام ووصف الإيمان، فهو إثم يلحق من ارتكب فعلاً قد نهى الإسلام عنه، أما ما يفعله غير المسلم من ذلك فلا يسمى حراماً بل يسمى شركاً.

وبعد هذا البيان الموجز للشيخ الندوي شرع الشيخ في بيان ركن توحيد الله تعالى، وذلك من خلال وحدة رسالات رسل الله جميعاً، وقد جعل له عنواناً مهيباً وهو (هدف النبوة الأساسي وأهم مقاصد البعثة القضاء على الجاهلية الوثنية العالمية)، فقال: " إن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة هو تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده، وكانت حملتهم مركزة موجهة إلى الوثنية القائمة في عصورهم، الممثلة بصورة واضحة في عبادة الأوثان والأصنام والصالحين المقدسين من الأحياء والأموات، الذين كان يعتقد أهل الجاهلية أن الله قد خلع عليهم لباس الشرف والتأله، وجعلهم

---

(1) أبو الحسن الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك: ص72.

متصرفين في بعض الأمور الخاصة، ويقبل شفاعتهم فيهم بالإطلاق، بمترلة ملك الملوك يبعث على كل قطر ملكاً، ويقلده تدبير تلك المملكة في ما عدا الأمور العظام " [i].

وقد عزا الشيخ سليمان الندوي (رحمه الله) الزيغ والفساد في العقيدة إلى ثلاثة أسباب رئيسة كانت وراء الخلل الذي أصاب عقائد الناس، وذلك باعتقاد عقائد ضالة وزائغة تقود الناس إلى الضلال المبين، وهذا حال عقائد الأديان السابقة، يقول الشيخ الندوي رحمه الله: " هناك ثلاثة أسباب رئيسة جعلت الأديان السابقة والشرائع السالفة تحيد عن الجادّة، وتضلّ في عقيدة التوحيد، وتقع فريسة سوء التفاهم ونحوها، رغم أنّ بعثتها لم تكن في هذا الكون إلا لدعوة التوحيد وتبليغ رسالته، وهذه الأسباب هي:

أولاً: عقيدة التشبيه والتمثيل والتجسيم.

ثانياً: فصل الصفات عن الذات، وجعلها مستقلة.

ثالثاً: الانخداع من أنواع وضروب الأفعال المختلفة والمتلوّنة "[ii].

وبعد ذلك أوضح الشيخ الندوي هذه الأسباب الثلاثة انطلاقاً من الوقائع المشاهدة التي رآها في الواقع المعاصر، فقال في بيانها:

أولاً: التشبيه والتمثيل:

لقد أحدث أتباع المذاهب والديانات السابقة تشبيهاتٍ وتمثيلاتٍ وهمية أو مجسّمة، ونتج من ذلك أنّ اسم (الله) الرب الحقيقي، اختفى من أذهانهم، وحلّت محلّه هذه التشبيهات والتمثيلات، وأصبحت بمثابة الإله، ثمّ تجسمت وتحوّلت إلى الأوثان والأصنام، وطفق الناس يعبدونها ويسجدون لها، حتى إنّ الجهلة جعلوا حبَّ الله لعباده ورحمته بهم وشفقته عليهم تمثالاً وجسماً بعد تشبيهه وتمثيله، وهؤلاء يعتقدون أن المرأة رمزٌ للحب الإلهي، فجعلوا يعبّرون عن علاقة الخالق مع المخلوق بعلاقة الأب مع الابن، وأصبح (الله) عندهم (أمّاً)، وقد بلغ الأمر عند بعض الهندوس إلى درجة أنهم عبّروا عن ذلك بحبّ الزوج لزوجته، وما يتمثل به بعض النّسّاك من ارتدائهم ملابس النساء، والتحلّي بحليّهنّ ليس إلا

(i) أبو الحسن الندوي، العقيدة والعبادة والسلوك: ص73.

(ii) السيد سليمان الندوي، سليمان بن أبي الحسن بن محمد شيِّر المعروف بالحكيم محمدي (ت1373هـ)، الرسالة المحمدية ــ تحقيق: محمد رحمة الله حافظ الندوي ــ طبعة دار القلم ــ دمشق ــ ط1 ــ 1426هـ، 2005م: ص 230.

إبراز لهذه الحقيقة عندهم، زاعمين أنّ الله يحبّهم كما يحبّ الرجل قرينته، وهكذا كان الأمر عند الروم والإغريق، إذ تمثّل لهم الإله بصورة امرأة.

ولمّا كان ذِكر المرأة على ملأ من الناس عند الأمم السامية مخالفـــاً للثقافـــة الســـامية وحضارتها؛ حلّ الأب محلّها، وهو يعدّ رأس الأسرة، وبالتالي تمثّل لديها الإله أبـــاً دون أم، وبدء أمر بني إسرائيل يدلّ على أنهم كانوا يعتقدون أن الإله هو الأب، وجميـــع الملائكـــة والبشر أولاده، لكن في نهاية المطاف أصبح بنو إسرائيل هم فقط أبناء الله.

أما النصارى فقد حلّ تمثيل الأب والابن فيهم محل الحقيقة والواقع، وعرب الجاهليـــة كانوا على نفس الفكرة، فكانوا يتصورون أن الله هو الأب، والملائكة بناته[i].

وقد رد الشيخ الندوي على هذه العقائد الفاسدة في التعامل مع الله تعالى إلهاً ورباً لهذا الكون أجمع، ويثني على شريعة الإسلام التي جاءت بنور التوحيد فأزال نوره ظلام الجهـــل والشرك الذي أحاط بقلوب الناس وبعقولهم، وغلفها بالضلال والعمى، وفي ذلك يقـــول الشيخ الندوي: أول ما قامت به هذه الشريعة هو القضاء على كل هذه التمثيلات، والصور الوهمية والخيالية، واستئصال جذور الأفكار الزائغة والنظريات الضالة التي أخذت الطريق إلى توحيد الباري تعالى[ii].

وقال أيضاً: إن الإسلام لا يرى أن الله سبحانه وتعالى هو (أب العالمين)، وإنما هو (ربُّ العالمين)؛ لأن مكانة الرب ودرجته أسمى وأعلى وأرفع من الأب، فعلاقة الوالد مـــع ابنـــه مؤقتةٌ عارضة، لكنّ علاقة الربّ مع عبده لا تزال مستمرة قائمة متواصلة دون انقطاع، منذ أن خلقه إلى أن يتوفاه، فإنّ الله الذي يدعو إليه الإسلام هو ودودٌ ورؤوف ولكنه سبحانه وتعالى ليس بأب ولا أم[iii].

ثانياً : فصل الصفات عن الذات:

إنّ هذا السبب هو السبب الثاني الذي تسبّب في إفساد عقيدة التوحيد لدى المـــذاهب الأخرى، وذلك ما يسمى بقضية فصل الصفات، وتعني: إعطاء الصفات كلّهـــا مكانـــةً مستقلةً على حدة، وفصلها عن الذات، وهذا هو الملاحظ في الديانة الهندوسية مـــثلاً لـــو

(i) ينظر: السيد سليمان الندوي، الرسالة المحمدية: ص 231، 232.

(ii) ينظر: المصدر نفسه: ص233.

(iii) ينظر: المصدر نفسه: ص234.

أُحصيت الآلهة الموجودة لديهم لم تُحصَ لكثرتها، والسبب في ذلك أنهم جعلوا كلَّ صفة من صفات الله تعالى درجة منفصلة عن الذات، ثم سمّوها آلهة، وقاموا بتجسيم جميع التشبيهات والتمثيلات الموجودة في باب الصفات، فلمّا جاؤوا في بيان صفة القوة والبطش لله تعالى، أظهروها باليد الحقيقية، ونحتوا له سبحانه وتعالى أيادي كثيرة، ولما أرادوا التعبير عن حكمة الله تعالى جسّموا صفة الحكمة بالرأس، ثم نحتوا له بدل رأس واحد رأسين.

وعند استعراض فرق وطوائف الهندوس يتبيّن أنهم توزّعوا في جماعات مختلفة، نظراً إلى نشوء فكرة تجسيم صفات الله تعالى فيهم، فإنّ لله سبحانه وتعالى ثلاث صفات عظيمة وهي: الخالقية، والقيّوميّة، والإماتة، وقد جعل الهندوس هذه الصفات الثلاث شخصيات مستقلة على حدة، وأطلقوا عليها أسماء خاصة، مثلاً أطلقوا اسم (برهما) على الخالق، و(وشنو) على القيوم، و(شيو) على المميت، ونتج عنْ ذلك ثلاث فرق تبنّت كل واحدة منها عبادة واحد من هؤلاء الثلاثة.

و لم يقتصر الأمر على الهندوس بل إن النصارى كذلك نحوا منحاهم، وساروا على منهجهم، فاتخذوا الصفات الثلاث: (الحياة، والعلم، والإرادة) شخصيات مستقلة، وسمّوها الأقانيم الثلاثة، فجعلوا الأب رمزاً للحياة، وروح القدس رمزاً للعلم، والابن رمزاً للإرادة[i].

ولمّا بعث الله تعالى الرسول الكريم محمّداً (صلى الله عليه وسلم) كشفت رسالته النقاب عن هذه الأخطاء الفاحشة، والجهالات العمياء، وأثبت أنّ الذين انخدعوا بتعدّد الصفات وجعلوها شخصيات مستقلة إنما وقعوا فريسة الجهل والغواية، وحادوا عن الصراط السويّ[ii].

ثالثاً: الانخداع من أنواع وضروب الأفعال المختلفة والمتلونة:

هذا هو المصدر الثالث للشرك هو الانخداع بتعدّد الأفعال وتنوّعها، فظنّ بعض الناس أن القائم بهذه الأفعال المختلفة هم شخصيات مختلفة، وكل فعل تقوم به شخصية مستقلة على حدة، فمنها من هو مميت ومحيي، ومن هو يأمر بالحرب والقتال، ومن هو يدعو إلى الصلح،

(i) ينظر: السيد سليمان الندوي، الرسالة المحمدية: ص234، 235.

(ii) ينظر: المصدر نفسه: ص235.

ومن هو يحبّ العباد، ومن هو يبغضهم، ومنها من هو إله للعلم، وإله للثروة والمال، وبالجملة فإنهم قد اختلقوا لكل كلمة ولكل غرض إلهاً خاصاً حتى تجاوز عدد آلهتهم المئات.

فجاء الإسلام وصحّح لهؤلاء السفهاء هذه العقيدة الباطلة الزائغة، وبيّن لهم أنّ هذه ضروباً من الأفعال الصادرة من الله الواحد الأحد[i].

هذا بيان لما تعانيه عقائد الناس من فساد وزيغ وضلال، فكان منهج الشيخ الندوي يصبّ جلّه على معالجة ذلك، لقد لخص الشيخ الندوي بقوله: " إن الأنبياء عليهم السلام كان أول دعوتهم وأكبر هدفهم في كل زمان وفي كل بيئة هو تصحيح العقيدة في الله تعالى، وتصحيح الصلة بين العبد وربه، والدعوة إلى إخلاص الدين وإفراد العبادة لله وحده " لخص بذلك عقائد الناس، ولهذا التوجيه العقدي آثار مهمة جداً يمكن تلخيصها في أثرين مهمين:

الأثر الأول: **الحفاظ على الأجيال من الشهوات والنزوات:**

إن من الأهمية بمكان معرفة خطورة الشهوات والنزوات على الناس؛ لأنها تقطع صلة العبد بالله تعالى، وتجعله فريسة سهلة لإبليس وجنوده، ومن خلال نظرة إلى الواقع الذي كان الناس يعيشونه قبل بعثة نبي الله نوح (عليه الصلاة والسلام) يتبيّن الخطر الكبير والشرّ المستطير الذي تشكله الشهوات والنزوات على صفاء التوحيد الذي تنعم به قلوب الموحدين لله تعالى، فقد ذكر الإمام ابن جرير الطبري عن ابن عباس (رضي الله عنهما): أنه كان بطنان من ولد آدم، وكان أحدهما يسكن السهل، والآخر يسكن الجبل، وكان رجال الجبل صِباحاً وفي النساء دمامة، وكان نساء السهل صِباحاً وفي الرجال دمامة، وإن إبليس أتى رجلاً من أهل السهل في صورة غلام، فآجر نفسه منه وكان يخدمه، واتخذ إبليس ـــ لعنه الله ـــ شيئاً مثل الذي يزمر فيه الرعاء، فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله، فبلغ ذلك من حولهم، فانتابوهم يسمعون إليه، واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة، فتبرج النساء للرجال، ونزل الرجال إليهن، وإن رجلاً من أهل الجبل هجم عليهم وهم في عيدهم ذلك، فرأى النساء وصباحتهنّ، فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك، فتحولوا إليهم، فنزلوا عليهن فظهرت الفاحشة فيهم، فهو قول الله سبحانه تعالى: ((وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى))[ii]، وهذا أول سبيل سلكه الشيطان لإضلال الناس[i].

([i]) ينظر: السيد سليمان الندوي، الرسالة المحمدية: ص236.

[ii] سورة الأحزاب: من الآية 33.

الأثر الثاني: **إيقاظ الفطرة النقية التي جُبل عليها الناس:**

لقد كان الناس كلهم على فطرة التوحيد، فجاء الشيطان وأفسد على الناس تلك الفطرة السليمة، ويشهد لحالة الإيمان الفطري للناس، الحديث القدسي الذي ورد فيه: «وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ[ii] عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا» الحديث[iii].

واستخدم الشيطان في إضلال الناس طريقة الغلو في الصالحين والأولياء، فقد كان بين آدم ونوح (عليهما السلام) علماء على طريق التوحيد، يعلمون الناس أمر دينهم، ويصلونهم برهم، فنالوا إعجاب الناس، وأحبوهم حبّاً كبيراً، وكان من بينهم صالحون خمسة، ذكرهم القرآن الكريم في سورة نوح، وذلك في قوله تعالى: ((وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا))[iv]، قال الطبري في تفسير هذه الآية: كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوّروهم، فلما ماتوا، وجاء آخرون دبّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يُسقون المطر فعبدوهم[v].

وقد روي عن ابن عباس (ﷺ) أنه قال: « صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ، أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْب بدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى

---

[i] ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير (ت310هـ) ــ قصص الأنبياء ــ طبعة دار ابن حزم ــ بيروت ــ ط 1 ــ 1429هـ، 2008م: ص 108.

[ii] أي: أزالتهم، مأخوذ من الجَوَلان، وهو الزوال عن المستقر [الحَميدي، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله (ت488هـ)، تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم ــ تحقيق: د. زبيدة محمد سعيد ــ طبعة مكتبة السنة ــ القاهرة ــ ط 1ــ 1415هـ، 1995م: ص 498].

[iii] رواه مسلم، صحيح مسلم، كتاب صفة النار، باب صفات أهل الجنة والنار، بالرقم (2865): 2197/4.

[iv] سورة نوح: الآية 23.

[v] ينظر: الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير (ت310هـ) ــ جامع البيان عن تأويل أي القرآن الشهير بتفسير الطبري ــ تحقيق: أحمد محمد شاكر ــ طبعة مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط 1 ــ 1420هـ، 2000م: 639/23.

الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ »[i].

فهذا بيان للانحراف العقدي نحو عبادة الأصنام، دبّ إلى النفوس بسبب تعلّقها بالصالحين تعلّقاً تجاوز الحدّ في أصول وضوابط المحبة الصحيحة، إذ استغل إبليس اللعين العباد ليلفتهم من عبادة الخالق إلى عبادة المخلوق، وأنه لم يدخلها عليهم جملة واحدة، بل دخل بها عليهم بطريق التدريج شيئاً فشيئاً، وكلما ألفت النفوس أمراً، مشى بها إلى الخطوة التي تليها، حتى يسلس له قيادها، ولا تنفر منه، وانتهى الأمر بمطيعيه والسائرين في سبيله إلى الشرك والمروق من عقيدة التوحيد الخالص، الذي عاش عليه الناس لقرون عشرة خلت منذ أُهبط آدم إلى الأرض، حتى استعصت النفوس، ومالت إلى الهوى، وانحرفت عن الحق، فأضلها الشيطان، ولو أن القلوب تعلقت بالخالق دون المخلوق، وعلمت أن صلاح الصالحين من عباد الله إنما هو لأنفسهم، وأنه لن ينال أحد مكانتهم عند الله إلا إذا عمل كما كانوا يعملون، واجتنب كما كانوا يجتنبون؛ لنهج أصحابها النهج السوي، ولنجوا من الشرك والضلال.

ولا شك أن للصالحين في النفوس مكانة رفيعة، ولكن ينبغي أن لا تتجاوز ذلك إلى حدّ التأليه والعبادة، فالصالحون يبرؤون مما يُلصق بهم من ادعاء ذلك[ii].

إن الحفاظ على فطرة الأجيال صافية نقية يعصمها من الوقوع في شَرَك الشيطان ومكائده، لأنّ هذه الفطرة ليست معصومة من المفسدات والمغيّرات، وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: والعلوم الفطرية حاصلة مع صحة الفطرة وسلامتها، وقد يعرض للفطرة ما يفسدها ويمرضها، فترى الحق باطلاً كما في البدن إذا فسد أو مرض فإنه يجد الحلو مراً، ويرى الواحد اثنين، فهذا يعالج بما يزيل مرضه[iii].

---

[i] رواه البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت 256هـ)، صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ((وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ))، بالرقم (4920) ـ تحقيق: محمد زهير ناصر الناصر ـ طبعة دار طوق النجاة ـ ط1 ـ 1422هـ، 2001م: 160/6.

[ii] ينظر: سعد يوسف أبو عزيز ، قصص القرآن دروس وعبر ـ طبعة دار الفجر للتراث ـ القاهرة ـ ط 2 ـ 1425هـ، 2004م: ص 41 ـ 43؛ محمد السيد الوكيل ـ نظرات في أحسن القصص ـ طبعة الدار الشامية، دار القلم ـ بيروت، دمشق ـ ط 1 ـ 1415هـ، 1994م: 71/1، 72.

[iii] ينظر: ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت728هـ)، درء تعارض العقل والنقل ـ تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن ـ طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ د.ر ـ 1417هـ، 1997م: 306/3.

وهذا ما ركز عليه الشيخ الندوي رحمه الله، وجعله منهجاً علمياً للحفاظ على المسلمين وأبنائهم من مفسدات الفطرة، ومما يكدر صفاءها ونقاءها المستمد من توحيد الله تعالى.

المبحث الثاني

عناية الشيخ النـّـدوي بقضايا النبوة وأثر ذلك في الأجيال

المطلب الأول: تأكيد الشيخ النّدوي على أن الإيمان بالرسل ضرورة، وأثر ذلك.:

تعدّ قضايا النبوة من أهم قضايا العقيدة بعد قضايا الإيمان بالله تعالى، إذ تعد النبوة بوابة المعرفة الصحيحة للإيمان بالله عز وجل، ومن هذا المنطلق دأب الشيخ النّدوي (رحمـه الله) على العناية الفائقة بقضايا النبوة، وكتب في ذلك كتباً عديدة شملت جميع أعمار المسلمين، حتى الأطفال الصغار وجه لهم أهمية العناية بقضايا النبوة من خلال كتابه القيم (قصص النّبيين للأطفال) والذي ألفه في (280) صفحة قدم فيها عرضاً شاملاً لقضايا النبوة من خلال حياة الرسل والأنبياء ودعوهم عليهم الصلاة والسلام، وما ذلك إلا دليل على العناية الكبيرة التي أولاها الشيخ النّدوي للنبوة وقضاياها.

إنّ البشرية جمعاء لا يمكن أن تهتدي إلى ما هو خير لها في دنياها وما هو شرّ عليهم فيها؛ لقصورها في معرفة بعد الحدث في زمن المستقبل قرب أو بعد، وهو ما يسمى في مصطلح العقائد بعلم الغيب، والذي يعلم علم الغيب وحده هو الله سبحانه وتعالى، قال الله عز وجل في بيان ذلك: ((وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ))[i]، فلا يستطيع أحد أن يطلع على غيب الأمور ومكامن الدهور إلا الله سبحانه وتعالى، وقد جرت سنة الله تعالى أن يختار صفوة من خلقه يطلعهم على بعض علم الغيب بما تقتضيه إرادته سبحانه وحكمته، ليكون لهذه الصفوة من الخلق مكانة عظيمة في نفوس الخلق أجمعين، لهم الريادة والقيادة والسيادة، وهم رسل الله تعالى إلى خلقه، يطلعهم الله تعالى على غيبه ليكون ذلك دليلاً من دلائل نبوتهم ورسالتهم، قال الله تعالى: ((عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا))[ii]، وبعلم بعض الغيب الذي يطلعهم عليه المولى تبارك وتعالى، يهدون العباد إلى خير الدنيا وخير الآخرة، ويحذرونهم وينذرونهم من خطوب الدنيا والآخرة، وهذا المعنى العظيم من معاني الغيب

---

[i] سورة الأنعام: من الآية 59.

[ii] سورة الجنّ: الآيتان 26، 27.

المتعلق بالأنبياء لخصه الشيخ الندوي بكلمات وجيزة اللفظ غزيرة المعنى، فقال رحمه الله تعالى: " لقد وقفوا عليهم السلام على جبل النبوة يشرفون منها ـــ بقدر ما يريد الله ـــ على عالم الغيب والشهادة، ويخبرون بما يهجم على هذه البشرية وعلى هذه المدنية في المستقبل القريب والبعيد، وما يكمن لها من خطر وضرر، ثم ينذرون قومهم شفقة وإشفاقاً، وحبّاً وإخلاصاً "[i].

وتزداد عناية الشيخ الندوي بتوجيه الناس إلى أهمية قضايا النبوة في إدراك حيثيات الإيمان بالله تعالى، فنداء الفطرة الكامنة في الإنسان يستدعي منه الإيمان بالله تعالى إيماناً تاماً كاملاً لا يشوبه شيء، وعبادة الله تعالى، وإفراده بالقصد والتوجه والدعاء، وكل ذلك يستلزم وجود أدلاء أمناء يبيّنون للناس مضامين الإيمان الذي يريده الله تعالى من العباد، وهؤلاء الأدلاء الأمناء هم رسل الله تعالى وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول الشيخ الندوي: " يلح القرآن على أنّ الأنبياء هو الأدلاء على ذات الله وصفاته الحقيقية، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة، التي لا يشوبها جهل ولا ضلال، ولا سوء فهم ولا سوء تعبير، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم، لا يستقل بها العقل، ولا يغني فيها الذكاء، ولا تكفي سلامة الفطرة وحدة الذهن والإغراق في القياس، والغنى في التجارب، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنة، وهم أهل الصدق وأهل التجربة، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدق كذلك: ((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ))[ii]، وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم: ((لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ))[iii]، فدل على أن الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى، وعلم مرضاته وأحكامه والعمل بها، الذي تمكنوا به من الدخول في الجنة، والوصول إلى دار النعيم "[iv].

يتضح من خلل كلمات الشيخ الندوي أنه يرى الإيمان بالرسول ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها، وهذا ما يعبّر عنه علماء العقيدة بحاجة البشرية إلى الرسل، وقد عقد الإمام

---

[i] الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم ــ طبعة: دار القلم، الدار الشامية ــ دمشق، بيروت ــ ط7 ــ 1420هـ، 2000م: ص20.

[ii] سورة الأعراف: من الآية 43.

[iii] من السورة والآية أنفسهما.

[iv] الشيخ أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم: ص21.

القيم ابن القيم فصلاً أسماه (اضطرار العباد إلى معرفة الرسول) أظهر من خلاله أنّ الإيمان بالرسل ضرورة لا غنى للبشرية جمعاء عنها، فقال رحمه الله: " ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل، ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم، فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير. وما ظنك بمن إذا غاب عنك هديه وما جاء به طرفة عين فسد قلبك، وصار كالحوت إذا فارق الماء ووضع في المقلاة، فحال العبد عند مفارقة قلبه لما جاء به الرسل كهذه الحال بل أعظم، ولكن لا يحس بهذا إلا قلب حي "(i)، وحاجة الناس إلى الرسل أشد وأكثر من حاجتهم إلى الأمور الأخرى في حياتهم.

لقد عرّض الشيخ الندوي بمن أعطى العقل سلطة غير محدودة، وأطلق له عنان التفكير، وأضفى عليه صبغة العصمة، والعقل ليس له من ذلك أي شيء، وهؤلاء هم البراهمة، فقال الشيخ الندوي معرّضاً بهم: " ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم، لا يستقل بها العقل "(ii)، وهذا توجيه عقديٌّ مهم يبرز حدود العقل، كما يُظهر في نفس الوقت أهمية الرسل في دلالة الخلق على الله سبحانه وتعالى، فالبراهمة الهندوس زعموا أنّ إرسال الرسل عبثٌ لا يليق بالحكيم؛ لإغناء العقل عن الرسل، لأن ما جاء به الرسل إن كان موافقاً للعقل حسناً عنده فهو يفعله وإنْ لم يأت به، وإن كان مخالفاً له قبيحاً فإنْ احتاج إليه فعله وإلا تركه(iii).

(i) ابن القيم الجوزية، الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي (ت751هـ) ــ زاد المعاد في هدي خير العباد ــ طبعة مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية ــ بيروت، الكويت ــ ط 27 ــ 1415هـ، 1994: 69/1.

(ii) الشيخ أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم: ص21.

(iii) ينظر: السفاريني، شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي (ت1188هـ)، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضيّة في عقد الفرقة المرضية ــ طبعة مؤسسة الخافقين ــ دمشق ــ ط2 ــ 1402هـ، 1982م: 256/2.

ويظهر من هذا التوجيه العقدي المهم أثران عظيمان وهما:

الأثر الأول: الحكمة من إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام: وتتحدد معالم هذه الحكمة من وجوه ثلاثة وهي:

الوجه الأول: إن الإنسان يحتاج إلى الرسل للفت نظره إلى الحق، وتسديد خطواته للوصول إليه من أقرب السبل.

والإنسان يريد بلوغ السعادة المثلى، والمصلحة الفضلى، التي ترضي الله تعالى، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة أوامر الله تعالى ونواهيه، وقد اختار الله سبحانه أقرب السبل لمعرفة أوامره تعالى ونواهيه، وذلك باصطفائه الرسل من البشر يرسلهم إلى خلقه ليبلّغوهم أوامر الله ونواهيه(i).

الوجه الثاني: لما كان الإنسان مخلوقاً على وجه يقتضي ــ بحسب حكمة الخالق ــ اختبار إرادته وسلوكه في الحياة؛ ولا يتم اختبار إرادته وسلوكه إلا بأن يوضع في مجال الاختبار الكامل، وذلك: بتعريفه بطرق الخير وطرق الشر، ثم بإرشاده إلى طرق الخير وحثّه عليها، وترغيبه بالثواب إذا هو اختارها وسلك فيها، وبتنبيهه على طرق الشر وتحذيره منها، وترهيبه من العقاب إذا هو اختارها وسلك فيها، ثم بتوجيه الأوامر والنواهي له، وتحديد طرق الحلال والحرام.

ولا يمكن معرفة أوامر الله ونواهيه، وطرق الحلال والحرام التي حدّدها، إلا من جهته تعالى، وقد اختار الله أقرب السبل لمعرفة ذلك بأن أوحى إلى طائفة من البشر اصطفاهم لحمل رسالاته للناس، وكمّلهم بالكمال الإنساني، وعصمهم عن المعاصي والذنوب والانحرافات في السلوك، وصانهم عن الخطأ في نقل أحكام الله وشرائعه للناس، وأيّدهم بتأييد معجز من عنده.

ولو لم يرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، لكان للناس على الله حجة بأنه لم يرسل لهم من يبلّغهم أوامر الله ونواهيه، وسائر شرائعه لخلقه، ويرغبهم بثوابه، وينذرهم عقابه، حتى يعرفوا واجبهم نحو ربّهم(ii).

(i) ينظر: حبنكة الميداني، الشيخ عبد الرحمن حسن (ت1425هـ) ــ العقيدة الإسلامية وأسسها ــ طبعة دار القلم ــ دمشق ــ ط14 ــ 1430هـ، 2009م: ص272.

(ii) ينظر: المصدر نفسه.

الوجه الثالث: الإنسان في نفسه كتلة من الغرائز والدوافع التي تتطلب إشباعها بأية وسيلة من الوسائل.

ففيه غرائز شهوات البطن والفرج والحواس، وغرائز التملك والسيطرة والمقاتلة، ونحوها من بقية غرائز الإنسان التي تنبع من أنانيته ونظرته لذاته، ولهذه الغرائز انفعالات متعددة.

وكل غريزة في الإنسان تلح عليه داخلياً بتحقيق مطالبها، ولو بطريقة عشوائية، أو بطريقة ينتج عنها الضرر بمرتادها، أو الضرر بمجموعة كبرى من الناس حوله، دون شعور بآلام الآخرين، أو بفساد أوضاع المجتمع.

فإذا تُرك الإنسان لنفسه، من غير بيانٍ لواجبه بوصفه فرداً في مجموعة إنسانية كبرى، جرى وراء تحقيق مطالب وغرائزه وشهواته، بوسائل القوة أو المكر والخديعة والاحتيال، ولم يكن لديه وازع خلقي يردعه عن الجور والظلم، والسلب والفتك بالآخرين، جرياً وراء تحقيق لذاته الخاصة به.

وهذه الغرائز والدوافع والانفعالات في الإنسان تتطلب التوجيه والتهذيب والتربية، حتى يجعل التهذيب منه فرداً صالحاً لبناء مجموعة بشرية مثاليّة صالحة، إذا اقترن بأمثاله وأكفائه من أبناء جنسه، الذين عولجوا بالتربية والتوجيه والتهذيب.

وهذا يقود إلى الحديث عن الحاجة إلى المصلح الذي يستطيع أن يحمل أسس الإصلاح المتينة، ويؤثر بها تأثيراً فعّالاً، ولابد أن يكون هذا المصلح معصوماً يتلقى نظام الإصلاح ووسائله من عالم الغيب، حتى يكون أسوة صالحة لغيره في أفعاله، وحتى يتجنب نواحي الخطأ في إصلاح الآخرين، وفي تحديد نظام حياتهم.

وهذا هو الرسول المعصوم الذي يرسله فاطر السموات والأرض، والعالِم بنفوس خلقه وبإمكاناتهم، ولذلك كان الناس بحاجة إلى قادة من رسل الله، يتحلون بجميع الكمالات الإنسانية، ويكونون الأسوة الحسنة لجميع الناس، ولذلك أرسل الله الرسل المعصومين عن الخطأ في تبليغ الشريعة، والمعصية في السلوك[i].

فهذا الأثر يحصن الأجيال من سموم الأفكار التي يروج لها أصحاب الدعوات الضالة، كما أنه يحفظهم من الانحرافات السلوكية والسقطات الخلقية التي تهوي بالمجتمعات والأمم حين تنتشر فيها، وكذلك يفعل الأثر التالي.

(i) ينظر: حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها: ص274، 275.

الأثر الثاني: محدودية العقل في العلم والإدراك:

يزعم الناس في عالم اليوم أنّه يمكنهم الاستغناء عن الرسل والرسالات بالعقول التي وهبهم الله إياها، ولذلك نراهم يسنُّون القوانين، ويحلُّون ويحرمون، ويخططون ويوجهون، ومستندهم في ذلك كلّه أن عقولهم تستحسن ذلك أو تقبحه، وترضى به أو ترفضه، وهذا خطأ بيّن وشطط كبير؛ لأن العقل له مجال محدّد في إدراك الأمور لا يمكن أن يدرك الأشياء إلى ما لا نهاية، فهناك أمور هي مصلحة للإنسان لا يستطيع الإنسان إدراكها بمجرد عقله؛ لأنها غير داخلة في مجال العقل ودائرته، فمن أين للعقل معرفة الله ـــ تعالى ـــ بأسمائه وصفاته؟ ومن أين له معرفة تفاصيل شرعه ودينه الذي شرعه لعباده؟ ومن أين له معرفة تفاصيل ثوابه وعقابه، وما أعدّ لأوليائه، وما أعدّ لأعدائه، ومقادير الثواب والعقاب، وكيفيتهما ودرجاتهما؟ ومن أين له معرفة الغيب الذي لم يُظهِر اللهُ عليه أحداً من خلقه إلاّ من ارتضاه من رسله؟ إلى غير ذلك مما جاءت به الرسل، وبلغته عن الله، وليس في العقل طريق إلى معرفته، كما أنّ الذي يدرك العقل حسنه أو قبحه يدركه على سبيل الإجمال، ولا يستطيع أن يدرك تفاصيل ما جاء به الشرع، وإن أُدرِكت التفاصيل فهو إدراك لبعض الجزئيات وليس إدراكاً كلياً شاملاً، فالعقل يدرك حسن العدل، وأما كون هذا الفعل المعين عدلاً أو ظلماً فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كلّ فعل وعقد[i].

ولا يخفى على كلّ ذي لبّ رشيد أنّ العقول قد تحار في الفعل الواحد، فقد يكون الفعل مشتملاً على مصلحة ومفسدة، ولا تعلم العقول مفسدته أرجح أو مصلحته، فيتوقف العقل في ذلك، فتأتي الشرائع لبيان ذلك، وتأمر براجح المصلحة، وتنهى عن راجح المفسدة، وكذلك الفعل يكون مصلحة لشخص مفسدة لغيره، والعقل لا يدرك ذلك، وتأتي الشرائع ببيانه، فتأمر به من هو مصلحة له، وتنهى عنه من حيث هو مفسدة في حقّه، وكذلك الفعل يكون مفسدة في الظاهر، وفي ضمنه مصلحة عظيمة لا يهتدي إليها العقل، فتجيء الشرائع ببيان ما في ضمنه من المصلحة، والمفسدة الراجحة[ii].

(i) ينظر: ابن القيم الجوزية، الإمام أبو عبد الله شمس الدّين محمد بن أبي بكر بن أيـوب الدمشـقي (ت751هـ) ـــ مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ـــ طبعة دار الكتب العلمية ـــ بيروت ـــ د.ر.ت: 117/2؛ الأشـقر، الأستاذ الدكتور عمر بن سليمان بن عبد الله العتيبي (ت1433هـ) ـــ الرسل والرسـالات ـــ طبعـة دار النفـائس ـــ الكويت ـــ ط4 ـــ 1410هـ، 1989م: ص36.

(ii) ينظر: ابن القيم الجوزية، مفتاح دار السعادة: 117/2.

المطلب الثاني: بيان الشيخ الندوي لصفة العصمة في حق الأنبياء، وأثر ذلك.:

إن صفة العصمة هي من أكثر صفات الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام التي عني بها الشيخ الندوي عناية بالغة، ولعل ذلك أيضاً راجع إلى تقوية الاعتقاد بالرسل لتحذير المسلمين من مزالق وشباك القاديانية، ولقد تأثر الشيخ الندوي بالشيخ ولي الله الدهلوي (رحمهما الله تعالى)، فقد نقل عنه عبارات كثيرة في كتابه (النبوة والأنبياء)، تنم عن تأثره الكبير بعبارات الشيخ الدهلوي، وفي نفس الوقت يحكي هذا النقل الاتجاه العقدي للشيخ الندوي في قضية عصمة الأنبياء، يقول الشيخ الندوي رحمه الله: " يقول شيخ الإسلام أحمد عبد الرحيم الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة) وهو يذكر ما يجب أن يتصف به هداة السبل ومقيمو الملل ـــ يعني الأنبياء ـــ سلام الله عليهم، يقول رحمه الله[1]: ثم لا بد لهذا العالم أن يثبت على رؤوس الأشهاد أنه عالم بالسنة الراشدة، وأنه معصوم فيما يقوله من الخطأ والإضلال، ومن أن يدرك حصة من الإصلاح، ويترك حصة أخرى لا بد منها، وذلك ينحصر في وجهين: إما أن يكون راويا عن رجل قبله انقطع عنده الكلام لكونهم مجمعين على اعتقاد كماله وعصمته وكون الرواية محفوظة عندهم، فيمكن له أن يؤاخذهم بما اعتقدوه، ويحتج عليهم، ويفحمهم، أو يكون هو الذي انقطع عنده الكلام، وأجمعوا عليه.

وبالجملة فلا بد للناس من رجل معصوم يقع عليه الإجماع يكون فيهم، أو تكون الرواية محفوظة عندهم، وعلمه بحالة الانقياد وتوليد هذه السنن منها، ووجوه منافعها، وعلمه الآثام، ووجوه مضارها؛ لا يمكن أن يحصل بالبرهان، ولا بالعقل المتصرف في المعاش ولا بالحس، بل هي أمور لا يكشف عن حقيقتها إلا الوجدان. فكما أن الجوع والعطش، وتأثير الدواء المسخن أو المبرد لا يدرك إلا بالوجدان، فكذلك معرفة ملائمة الشيء للروح ومباينته لها لا طريق إليها إلا الذوق السليم.

وكونه مأمونا عن الخطأ في نفسه إنما يكون بخلق الله علماً ضرورياً فيه بأنّ جميع ما أُدرك وعلم حق مطابق للواقع بمنزلة ما يقع للمبصر عند الإبصار، فإنه إذا أبصر شيئاً لا يحتمل عنده أن تكون عينه مؤفة، وأن يكون الإبصار على خلاف الواقع، وبمنزلة العلم بالموضوعات اللغوية، فإن العربي مثلا لا يشك أن الماء موضوع لهذا العنصر، ولفظ الأرض

---

(1) الشيخ أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء: ص60.

لذلك مع أنه لم يقم له على ذلك برهان، وليس بينهما ملازمة عقلية، ومع ذلك فإنه يخلق فيه علم ضروري.

وإنما يحصل ذلك في الأكثر بأن يكون لنفسه ملكة جبلية يكون بها تلقي العلم الوجداني على سنن الصواب دائما، وإن يتتابع الوجدان، ويتكرر تجربة صدق وجدانه، وعند الناس إنما يكون بأن يصحح عندهم بأدلة كثيرة برهانية أو خطابية أن ما يدعو إليه حق، وأن سيرته صالحة يبعد منها الكذب، وأن يروا منه آثار القرب، كالمعجزات واستجابة الدعوات، حتى لا يشكوا أن له في التدبير العالي منزلة عظيمة، وأن نفسه من النفوس القدسية اللاحقة بالملائكة، وأن مثله حقيق بألا يكذب على الله، ولا يباشر معصية، ثم بعد ذلك تحدث أمور تؤلفهم تأليفاً عظيماً، وتُصَيِّره عندهم أحب من أموالهم وأولادهم والماء الزلال عند العطشان، فهذا كله لا يتحقق انصباغ أمة من الأمم بالحالة المقصودة بدونه، ولذلك لم يزل المشغولون بنظائر هذه العبادات يسندون أمرهم إلى من يعتقدون فيه هذه الأمور أصابوا أم أخطأوا، والله اعلم "[i].

وقد سلط الشيخ الندوي في كلماته الضوء على مجمل الأثر الذي تتركه عصمة الأنبياء في نفوس الأتباع لهم، فقال: وقد كان في هذه العصمة التي اتصف بها الأنبياء ضمانٌ لسلامة أتباعهم وأمتهم في العقائد والشرائع، وأمانٌ مما استهدفت له الأمم والأجيال والبشرية الماضية من الوقوع في المهالك، والتورط في الشبهات، والحيرة في أمر القادة ونتيجة أتباعهم[ii].

والذي يبدو أن الشيخ الندوي (رحمه الله) أوجز الكلام في بيان أثر الاعتقاد بعصمة الأنبياء، وعبّر عنها بأنها الضمان للأمة في عقائدها وشرائعها، وذلك يتلخص في ضرورة التفريق بين النبوات والعبقريات من جهة، وبين النبوات والدعوات الإصلاحية من جهة أخرى، وبين النبوات والفلسفات من جهة ثالثة؛ لأن العصمة تعدّ الضوء الكاشف لما يمكن نسبه للبشر العادين دون الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ويمكن إجمال ذلك في فروق ثلاثة يضمن علمها تحصين الأجيال من الوقوع في المهالك التي وقع فيها السابقون كما أشار إلى ذلك الشيخ الندوي، وهذه الفروق هي:

(i) ولي الله الدهلوي، أحمد عبد الرحيم ابن الشهيد وحيه الدين ـــ بن معظم بن منصور (ت1176هـ) ـــ حجة الله البالغة ـــ تحقيق: سيد سابق ـــ طبعة دار الجيل ـــ بيروت ـــ ط1 ـــ 1426هـ، 2005م: 154/1.

(ii) الشيخ أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء: ص60.

1. الفرق بين النبوات والعبقريات:

على الرغم من الفارق الكبير في المقارنة بين النبوات والعبقريات لكن بيان هذا الفرق له من الأهمية بمكان، ذلك لأن الجيل المعاصر تأثر بأسماء العباقرة ومقالاتهم ظنّاً منه أن ذلك لونٌ من ألوان الثقافة والمدنية والمعاصرة، فغاية هذا البيان هو إظهار مكانة النبوة وعلوّ مترلتها وعظيم أثرها، وكذلك بيان البون الشاسع في المقارنة بين النبيّ والعبقري.

ونظرة عن كثب إلى أحوال العباقرة في مختلف النواحي تتكشف كثير من السقطات الخلقية تجعلهم غير صالحين لأن يؤتسى بهم في كل شيء؛ كما أن لكل عبقري كبوات فكرية تجعل أنظمته ومبادئه عرضة للاعتراض والنقد، وذلك بسبب بُعدها عن وجه المصلحة، ومخالفتها لمجموعة الطبائع الإنسانية، باعتبار أنّ واضعها متأثر بوجهة نظر خاصة، من خلال مزاجه الخاص، دون أن يدرس نفوس الآخرين وأمزجتهم، ودون أن يقدر على الإحاطة بها، ومن ثمّ تكون أنظمته غير موثوق بها ثقة كاملة دائماً بوصفها نظم حياة صالحة لمجموعة بشرية.

أما الأنبياء فباعتبار أن مصدر علمهم ونُظُمهم وحيٌ من عند الله تعالى، فتعاليمهم معصومة عن الخطأ والزلل.

ويضاف إلى ذلك أنّ العبقرية إنما تكون في ناحية خاصة، فلم يوجد العبقري الذي يتفوق في كل جوانب الحياة الإنسانية[i].

2. الفرق بين النبوات والدعوات الإصلاحية:

هناك فرقٌ واضح بين النبوات التي هي اصطفاء إلهي وبين الدعوات الاصلاحية التي هي اختيار بشري لنيل الدرجات الرفيعة العليا من الله تعالى، فمنهج الأنبياء وسيرهم يختلف عن منهج خلفائهم اختلافاً واضحاً بيّناً، والفرق بينهما أن منهج الأنبياء إيمانٌ ووجدان، وشعور وعاطفة، وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره وتفكيره وتصرفاته، والثاني اعتراف وتقدير، وقانونٌ مرسوم، كما أنّ الأنبياء (عليهمّ الصلاة والسلام) يتكلمون عن الآخرة باندفاع والتذاذ، ويدعون إليها بحماسة وقوة، وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية

(i) ينظر: حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها: ص282.

والحاجة الاجتماعية، وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة، وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية التي ينتظم بها العيش في المجتمع[i].

3. الفرق بين النبوات الفلسفات:

إنّ من يتأمل ويمعن النظر في نظريات الفلاسفة، ومذاهب أهل الفكر، حول الكون تكوين نفس الإنسان، وحول الأمور التي تتصل بما وراء المادّة، يجد تناقضاً وتهافتاً، ومخالفة للواقع، باعتبار أنها فلسفات لا تعتمد على منطق رياضي أو تجريبي، ثم لا يكاد يرى وحدة في وجهات النظر الفلسفية بين الفلاسفة.

لكنه لا يجد شيئاً واحداً عن أيّ نبيّ أو رسول من رسل الله (عليهم السلام) يخالف الواقع بعد مرور العصور، وبعد إمكان كشف ما تحدّث الرسول به من الغيوب في زمانه، وذلك حينما يصبح من الأمور التي يمكن الاتصال بها عن طريق الحس.

كما أنه لا يجد أي اختلاف في الأصول الاعتقادية، وفي الأسس العلمية، بين الأنبياء والرسل، وإنما يرى وحدة المعارف التي أتّوا بها، والاعتقادات التي نادوا إلى الإيمان من أمور الغيب؛ وذلك لأن بحوث الفلاسفة في أمور الغيب ضربٌ من ضروب الحدس والتخمين، والاستدلالات الخطابية والشعرية، التي تعتمد على برهان سليم، فهي قد تصدق وقد تكذب، بينما علم الأنبياء هو وحيٌ من السماء, وعن مصدر صحيح وقطعي ثابت، معتمد على علم مَنْ خلق وصوَّر، وهو بكل شيء عليم.

ومن خلال ذلك كله يتبيّن الهدف والأثر المشترك، وهو أنّ مهمة الأنبياء لا يمكن أن تأتي عن طريق العباقرة ولا عن طريق الفلاسفة، ولا حتى عن طريق أصحاب الدعوات الإصلاحية إن أرادوا ذلك في منأى عن الأنبياء والرسل؛ لأنّ مهمة الأنبياء والرسل (عليهم الصلاة والسلام) تحمل أخباراً عن كثير مما هو داخل في عالَم الغيب الذي يرتبط به صلاح وإصلاح الناس، كما أنها تحمل بياناً للصراط المستقيم الذي يُحدّد سلوك الناس في حياتهم، ليتعاملوا بالقسط، وينالوا السعادة في الدنيا وفي الآخرة[ii].

الخاتمة والنتائج

(i) ينظر: الشيخ أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء: ص46.

(ii) ينظر: حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها: ص282، 283.

ظهر عدد من النتائج من خلال هذا البحث الموجز في منهج التوجيه العقدي في فكر الشيخ أبي الحسن الندوي (رحمه الله تعالى)، وتتلخص فيما يأتي:

1. امتاز أسلوب الشيخ أبي الحسن الندوي بالسهولة والجزالة ودقة العبارة، فهو يتحدث عن كبرى قضايا العقائد ويعبّر عنها بأسلوب سهل يفهمه الجميع.

2. عاش الشيخ الندوي في بيئة تتصارع فيها العقائد، وتتعدد في الأديان، وهذا المظهر جعل منهج الشيخ الندوي يمتاز بشمولية المعرفة، وسعة العلم، فكان يوجّه علومه ومعارفه لتصحيح المسار الخاطئ لعقائد الناس سواء منهم من كان معتقداً للديانات الوضعية أو العقائد الضالة من الفرق، وحتى المعتقدات التي خيمت على عقول بسطاء المسلمين بسبب الجهل والفقر.

3. تظهر العناية الكبيرة للشيخ الندوي ببيان قضايا العقيدة من خلال توجيهاته السديدة، باعتبار العقيدة الإيمانية الخالصة هي مناط قبول عبادة الخلق للخالق، فكان يوجه عقيدة الناس نحو الاعتقاد الصحيح، وكانت كلماته المضيئة تظهر المكانة العظيمة للعقيدة الصحيحة التي بصلاحها وبعدها عن مفاسد الاعتقاد تُقبل الأعمال، وتنال الدرجات، وترفع المنـزلات.

4. خَلُص للشيخ الندوي رؤية عقدية واضحة متكاملة عن النقلة النوعية للمجتمع الجاهلي إلى مجتمع الإسلام، فهو يرى أن العرب الذين أسلموا انتقلوا من المعرفة العليلة الغامضة الميتة إلى معرفة عميقة واضحة روحية ذات سلطان على الروح والنفس والقلب والجوارح، ذات تأثير على الأخلاق والاجتماع، ذات سيطرة على الحياة وما يتصل بها، وهذا ما جعلهم في مكانة عظيمة بين الناس، وذلك يتكرر في كل عصر وأوان حين يعود الناس إلى الاعتقاد الصحيح.

5. أبان الشيخ الندوي أثر التوجيه الإيماني في تقويم السلوك وتشذيب الأخلاق، وأوضح مكانة الإيمان في التأثير الكبير والبالغ في تقويم السلوك، وتزكية النفس؛ لأن نظام الأخلاق في الإسلام يشمل أموراً حثّ الشارع على فعلها، والتحلي بها، لما لها من الأثر في صلاح المجتمع والأفراد، وقربهم من الله تعالى، فبالتزامها تسود المحبة وتقارب القلوب، ويتعامل الناس بالمودة والتراحم والتعاون، وتوجد الثقة بين أفراده، ويشعر الجميع بالرضا والأمن، كما يشمل أموراً من الخلق القبيح والتي نهى الإسلام عنها وحذر منها، لما لها من أثر في بعد المسلمين عن ربهم، وانبعاث بذور الفرقة

والشر بينهم، فهذه الأخلاق الرذيلة توغر الصدور، وتبعث الشرور، وتفرق جمع المسلمين، فتضعف الرابطة الإيمانية بينهم.

6. عني الشيخ الندوي بتوجيه الناس إلى أهمية قضايا النبوة في إدراك حيثيات الإيمان بالله تعالى، فنداء الفطرة الكامنة في الإنسان يستدعي منه الإيمان بالله تعالى إيماناً تاماً كاملاً لا يشوبه شيء، وعبادة الله تعالى، وإفراده بالقصد والتوجه والدعاء، وكل ذلك يستلزم وجود أدلاء أمناء يبيّنون للناس مضامين الإيمان الذي يريده الله تعالى من العباد، وهؤلاء الأدلاء الأمناء هم رسل الله تعالى وأنبياؤه عليهم الصلاة والسلام.

7. عرّض الشيخ الندوي بمن أعطى العقل سلطة غير محدودة، وأطلق له عنان التفكير، وأضفى عليه صبغة العصمة، والعقل ليس له من ذلك أي شيء، فأبان أن لا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا عن طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهذا توجيه عقديٌ مهم يبرز حدود العقل، ويُظهر أهمية الرسل في دلالة الخلق على الله سبحانه وتعالى، وذلك من منطلق عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

8. أوجز الشيخ الندوي الكلام في بيان أثر الاعتقاد بعصمة الأنبياء، وعبّر عنها بأنها الضمان للأمة في عقائدها وشرائعها، وذلك يتلخص في ضرورة التفريق بين النبوات والعبقريات من جهة، وبين النبوات والدعوات الإصلاحية من جهة أخرى، وبين النبوات والفلسفات من جهة ثالثة؛ لأن العصمة تعدّ الضوء الكاشف لما يمكن نسبه للبشر العادين دون الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام

المصادر

القرآن الكريم

الأشقر: الأستاذ الدكتور عمر بن سليمان بن عبد الله العتيبي (ت1433هـ):

1. **الرسل والرسالات** ــ طبعة دار النفائس ــ الكويت ــ ط4 ــ 1410 هـ، 1989م.

ابن تيمية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت728هـ):

2. **درء تعارض العقل والنقل** ــ تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن ــ طبعة دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ د.ر ــ 1417هـ، 1997م.

حبنكة الميداني: الشيخ عبد الرحمن حسن (ت1425هـ):

3. **العقيدة الإسلامية وأسسها** ــ طبعة دار القلم ــ دمشق ــ ط14 ــ 1430هـ، 2009م.

الحَميدي: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله (ت488هـ):
4. **تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم** ــ تحقيق: د. زبيدة محمد سعيد ــ طبعة مكتبة السنة ــ القاهرة ــ ط 1ــ 1415هـ، 1995م.
سعد يوسف أبو عزيز:
5. **قصص القرآن دروس وعبر** ــ طبعة دار الفجر للتراث ــ القاهرة ــ ط 2 ــ 1425هـ، 2004م.
السفاريني: شمس الدين أبو العون محمد بن أحمد بن سالم الحنبلي (ت1188هـ)
5. **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضيّة في عقد الفرقة المرضية**

ــ طبعة مؤسسة الخافقين ــ دمشق ــ ط2 ــ 1402هـ، 1982م.
السيد سليمان الندوي، سليمان بن أبي الحسن بن محمد شِيْر المعروف بالحكيم محمدي (ت1373هـ):
7. **الرسالة المحمدية** ــ تحقيق: محمد رحمة الله حافظ الندوي ــ طبعة دار القلم ــ دمشق ــ ط1 ــ 1426هـ، 2005م.
الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير (ت310هـ):
8. **جامع البيان عن تأويل أي القرآن الشهير بتفسير الطبري** ــ تحقيق: أحمد محمد شاكر ــ طبعة مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط 1 ــ 1420هـ، 2000م.
9. **قصص الأنبياء** ــ طبعة دار ابن حزم ــ بيروت ــ ط 1 ــ 1429هـ، 2008م.
الدكتور عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع:
10. **أثر الإيمان في تحصين الأمة من الأفكار الهدامة** ــ طبعة الجامعة الإسلامية ــ المدينة المنورة ــ ط1 ــ 1423هـ، 2003م.
الدكتور عبد الكريم زيدان (ت1435هـ):
11. **أصول الدعوة** ــ طبعة مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط1 ــ 1425 هـ، 2005م.
الشيخ أبو الحسن النَّدْوي، علي بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني :
12. **الطريق إلى السعادة والقيادة** ــ طبعة مؤسسة الرسالة ــ بيروت ــ ط1 ــ 1402هـ، 1982م.

13. **العقيدة والعبادة والسلوك** ــ طبعة دار القلم ــ الكويت ــ دون رقم وسنة.
14. **ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين** ــ طبعة دار ابن كثير ــ دمشق، بيروت ــ ط4 ــ 1426هـ، 2006م.
15. **النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم** ــ طبعة: دار القلم، الدار الشامية ــ دمشق، بيروت ــ ط7 ــ 1420هـ، 2000م.

ابن القيم الجوزية، الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الدمشقي (ت751هـ):

16. **زاد المعاد في هدي خير العباد** ــ طبعة مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار الإسلامية ــ بيروت، الكويت ــ ط 27 ــ 1415هـ، 1994م.
17. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة** ــ طبعة دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ د.ر.ت.

البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت 256هـ):

18. **صحيح البخاري** ــ تحقيق: محمد زهير ناصر الناصر ــ طبعة دار طوق النجاة ــ ط1 ــ 1422هـ، 2001م.

محمد السيد الوكيل:

19. **نظرات في أحسن القصص** ــ طبعة الدار الشامية، دار القلم ــ بيروت، دمشق ــ ط 1 ــ 1415هـ، 1994م.

أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت261هـ):

20. **صحيح مسلم** ــ تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ــ طبعة دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ د.ر.ت.

ولي الله الدهلوي، أحمد عبد الرحيم ابن الشهيد وجيه الدين ــ بن معظم بن منصور (ت1176هـ):

21. **حجة الله البالغة** ــ تحقيق: سيد سابق ــ طبعة دار الجيل ــ بيروت ــ ط1 ــ 1426هـ، 2005م.

معالم الخطاب الديني عند الامام ابي الحسن الندوي

عبد السلام حمود غالب الانسي
صنعاء، اليمن

الحمد لله رب العالمين القائل (وقولوا للناس حسنا) والصلاة والسلام على الرسول القائل (يسرو ولا تعسرو وبشرو ولا تنفرو ..).....

فنحن بصدد كتابة ورقات معدودة في هذا الموضوع حول معالم الخطاب الديني عند الامام ابي الحسن الندوي رحمة الله عليه وهو موضوع مهم و الذي يحتاج لطول بحث واستقصاء نظرا لخطورة الموضوع ومكانته العظيمة ولما يتعلق بسبب الوجود في الدنيا وتعبيد الناس لله رب العالمين وتبصيرهم بامور دينهم وكذلك عمارة الأرض كما امر الله ({ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) } الذاريات

فالانسان هو خليفة الله في أرضه وهو عبد من عبيد الله تعالى ولما كان الخطاب هو اساس التبيغ بالكلمة والموعظة الحسنه فقد انقسم الناس في ذلك الى فئات ما بين المتساهل والمتشدد ما بين تارك للخطاب الإسلامي وما بين متشدد فيه ووسط وهو الذي نسعى لتوضيح معالمه كما قام به الامام ابي الحسن الندوي في خطابة الديني والتجديد لذلك والحرص على ما ينفع الناس والتوسط دون افراط او تفريط والتنوع ما بين الترهيب والترغيب وما بين التيسير والتبشير ، ونحن من خلال هذه الورقات نحاول اظهار التراث الذي تركه الامام الندوي محاولين تسليط الضوء على بعض انجازاته وارائه وخطاباته .

ونسال الله ان يوفقنا الى طاعته وعبادته واتباع هدي رسوله الذي نشهد له بانه قد بلغ الرسالة وادي الامانة ونصح لهذه الأمة فصلوات ربي وسلامه عليه وعلى اله وصحبه ومن سار على نهجه الى يوم الدين .

وسنتكلم في هذا البحث حول التالي :

ثناء العلماء عليه .

مفهوم الخطاب الديني وما يتعلق به .

مفهوم الخطاب الديني وأهميته .

سلبيات الخطاب الديني .

معالم الخطاب الديني عند الإمام ابي الحسن الندوي .

الإمام ابي الحسن الندوي والخطاب الديني المنشود.

نماذج من خطابات الإمام ابي الحسن الندوي وجهوده الدعوية والتربوية .

ثناء العلماء عليه [i]

ومما قالوا عن الشيخ الندوي وثناء العلماء عليه :([ii])

1-قال عنه د. مصطفى السباعي: "الندوي.. ذخرٌ للإسلام ودعوته، وكتبه ومؤلفاته تتميز بالدقة العلمية، وبالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها".

2-وقال عنه المفكر الشهيد سيد قطب: "الندوي.. رجل عرفته في شخصيته وفي قلمه، فعرفت فيه قلب المسلم، وعقل المسلم، وعرفت فيه الرجل الذي يعيش بالإسلام وللإسلام، على فقه جيد للإسلام.. هذه شهادة لله أؤديها".

3-وقال عنه الشيخ عبد العزيز بن باز: "الندوي.. العلامة المفضال".

ومن ثناء العلماء عليه ايضا ([iii])

4- قال عنه الشيخ الغزالي ــ - رحمه الله - ــ: هذا الإسلام لا يخدمه إلا نفس شاعرة محلقة، أما النفوس البليدة المطموسة فلا حظ لها فيه.. لقد وجدنا في رسائل الشيخ الندوي لغة جديدة، وروحًا جديدة، والتفاتاً إلى أشياء لم نكن نلتفت إليها.. إن رسائل الشيخ هي التي لفتت النظر إلى موقف ربعي بن عامر رضي الله عنه- بين يدي «رستم»قائد الفرس وكلماته البليغة له، التي لخصت فلسفة الإسلام في كلمات قلائل، وعبرت عن أهدافه بوضوح بليغ، وإيجاز رائع: «إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»..

---

[i]) ذكر الكاتب قبل هذا نبذة عن حياة الشيخ الندوى، وقد حذفناها لتوفر هذه المعلومات فى كتب ألفت فى سيرة الشيخ الندوى

[ii]) نقلا عن موقع نداء الاسلام http://www.al-eman.com تاريخ الزياره 2014/1/20م .

[iii]) المختار الاسلامي للكاتب خالد سعد النجار مقال عن ابي الحسن الندوي .http://www.islamselect.net /تاريخ الزيارة 2014/1/20م

أبو الحسن الندوي – فيما أعلم – هو أول من نبهنا إلى قيمة هذا الموقف وهذه الكلمات، ثم تناقلها الكاتبون بعد ذلك وانتشرت.

5- وقال الشيخ القرضاوي: كان يتمتع بخمس صفات تميزه عن غيره من العلماء، فهو إمام رباني إسلامي قرآني محمدي عالمي.. فأما أنه رباني فلأن سلف الأمة قد أجمعوا على أن الرباني هو: من يعلم ويعمل ويعلّم، وهي الصفات الثلاثة التي كان يتحلى بها الشيخ، وأما أنه إسلامي فلأن الإسلام كان محور حياته ومرجعه في كل القضايا والدافع الذي يدفعه إلى الحركة والعمل والسفر والكتابة والجهاد، ساعيا لأن يقوي الجبهة الداخلية الإسلامية في مواجهة الغزوة الخارجية عن طريق تربية الفرد باعتباره اللبنة الأساسية في بناء الجماعة المسلمة، وأما أنه قرآني فلأن القرآن هو مصدره الأول الذي يستمد منه ويعتمد عليه ويرجع إليه ويستمتع به ويعيش في رحابه ويستخرج منه اللآلئ والجواهر، وأما أنه محمدي فليس لمجرد أنه من نسل الإمام الحسن حفيد الرسول – صلى الله عليه وسلم – فكم من حسنيين وحسينيين تناقض أعمالهم أنسابهم «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه» بل لأنه جعل من الرسول الكريم أسوته في هديه وسلوكه وحياته كلها واتخذ سيرته نبراسا له في تعبده وزهده وإعراضه عن زخارف الدنيا وزينتها فهو يعيش في الخلف عيشة السلف.

6- وقال د. أحمد الشرباصي – رحمه الله –: له غرام أصيل باقتناء الكتب. فأعز ما يحرص عليه من عرض الحياة هو كتبه، فهو لا يقتني الكتب للزينة بل ليهضمها قراءة وبحثاً ونقداً، وله قدرة على الارتجال بالعربية يتدفق كالسيل، بلغة فيها الصور البيانية البليغة.

7- ووصفه الشيخ علي الطنطاوي لما زاره سنة (1373هـ/1954م) في لكهنؤ فقال: وجدته في الأحوال كلّها، مستقيماً على الحق، عاملاً لله، زاهداً حقيقيّاً، زهد العالم العارف بالدنيا وأهلها.

8- ويقول عنه د. حسن الوراكلي: لقد وجدتني بإزاء رجل رزقه الله من محبة مصطفاه ومجتباه، ومن التعلق بإرث النبوة رزقاً حسناً، فهو ينفق منه باليمين والشمال، سراً وعلانية، بالليل والنهار، وزاده منه باق لا ينفد!

و لقد وجدتني بإزاء رجل ملك عليه حبه لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولإرث نبوته سمعه وبصره وفؤاده، فعاش حياته يتنفس بهذا الحب، ويبصر به ويسعى.. عاش يرعاه ويتعهده، ويستحث عليه، ويندب إليه مبصراً بآثاره البعيدة في الإحياء

والانبعاث ، حدثني وأفاض بأحاديث أسرت لبي وأخذت بعقلي كـالبحر في عمقـه.. كالغيم في صفوه.. من مشكاة السبع المثاني كان يقبس.. من مصباح الجوامع النبوية كـان يستمد.. كانت أحاديثه إلي تطيب بالحب الذي يضفرها من ألقه الأخضر وبمائه الشـذي كالشجر إذ يتزل عليه ماء مبارك من السماء فيطيب، ويطيب ما حوله.

مفهوم الخطاب الديني وما يتعلق به

مفهوم الخطاب الديني واهميته :

مفهوم الخطاب الديني :

الخطاب الإسلامي هو الخطاب الذي يستند إلى مرجعية إسلامية مـن أصـول ديـن الإسلام: القرآن والسنة، وأي من سائر الفروع الإسلامية الأخرى، سـواءً كـان منـتج الخطاب منظمة إسلامية أم مؤسسة دعوية رسمية أم غير رسمية أم أفرادا متفرقين، جمعهـم الاستناد إلى الدين وأصوله كمرجعية لـرؤاهم وأطروحـاتهم لإدارة الحيـاة السياسـية والاجتماعية والاقتصادية والمؤسساتية والثقافية التي يحيونها، أو التعاطي مع دوائر الهويـات القطرية أو الأممية أو الوظيفية التي يرتبطون بها ويتعاطون معها.

والخطاب الإسلامي يمتاز بالتجديد في إطار أسس العقيدة الإسلامية، وترتبط مضامينه بحاجات المسلمين، وفق احتياجاتها ووفق أولوياتها، وتتصل مقاصده لمعالجة التحديات الـتي تواجهها الأمة، .

وتعريف اخر لمفهوم الخطاب الديني :

ينحصر المعنى فى مجمل التعريفات حول السعي لنشر دين الله عقيـدة وشـريعة وأخلاقاً، ومعاملات وبذل الوسع في ذلك، لتعليم الناس ما ينفعهم في الدارين وبـذل أقصى الجهد والطاقة من اجل خدمة هذا الدين الحنيف وامتثالا لامر الله تعـالى وامـر رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولابد لمن يتصدر لهذا المقام من شروط يلتزم بها لتعينه في هذا المجال وليس مجـال البحث عنها ولكن نذكر بعضها على عجالة :

- الإخلاص وابتغاء الأجر من الله سبحانه .
- العلم اللازم لذلك مما هو معلوم من الدين بالضرورة .
- أيضا الأسلوب الأمثل الحكمة والموعظة الحسنة .

-الصبر والتحمل لما يلحقه فسوف يواجه بعض من المشاكل والمتاعب فالصبر الصبر.

-أيضا الرحمة للناس تكون شعار يتمثل به أثناء سيره في هذا المجال .

-وكذلك الأهم مما سبق القدوة الحسنة من ابلغ صور التبليغ.

سلبيات الخطاب الديني المعاصر

1-المذهبية الضيقة والحزبية البغيضة قال تعالى { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [المؤمنون:53] ،فكل واحد يدعي انه على الحق وما سواه هو الباطل ويتعامل مع الناس على هذا الاساس ويبرز في خطابه للآخرين.

2-الجمود والركود وعدم التجديد والإبداع في الأسلوب والطريقة مما يدفع المخاطب الى الملل و السئامة .

3-التكرار والبعد عن الابتكار حيث أصبح الكثير يردد موضوع واحد حول الترغيب او الترهيب او التعلق بالدنيا او ترك الدنيا والتعلق بالآخرة والتعلق بالماضي وعدم اخذ العبر مما مضى وجعله طريقا نحو المستقبل لنرسم للأمة طريق متميزا وواضح المعالم بالاستفادة من الماضي

4-قلة الهمة ودوافع التبليغ عند أصحاب الخطاب الديني فينهزم عند أول المعوقات.

5-الانطواء والانكفاء على الموجود وجعل الخطاب الديني محصور في تلك الامكنه المعروفة ولا يخرج منها وعدم البروز في الأماكن التي تحتاجها ألامه في الحضارة والتقدم والرقي والاستفادة من الأخر ووضع الحلول والبرامج المنقذة للبشرية فتكون من صميم الدين الحنيف منهلها ومرجعها .

6-التقليد في الخطاب من البعض ويكون نسخة طبق الأصل في الإلقاء واختيار الموضوع وحتى في الحركات والسكنات بعيدا عن اثبات الذات وبروز الشخصية .وكذلك يبرز من بعض الجماعات والطوائف في الخطاب

7-الانهزام أمام التيارات المعادية للإسلام والإحباط النفسي وضعف المواجه لتلك التيارات المعادية والمحاربة لهذا الدين العظيم والوقوف عند اول عقبة كئود ورد اللوم نحو الدين وابناء هذا الدين .

فلا بد لنا من البحث عن الحلول والخروج من هذه المئازق التي يضعها أعداء الإسلام بلا انهزام او رجوع الى الوراء

8-الانتقاد والهجوم اللاذع على الأخر والمخالف بعيدا عن النقد البناء حيث يقول القائل (رحم الله أمراء اهدي الى عيوبي) واصبح ميدان لتبادل التهم والقاء المبررات بعيدا عن المقصد المنشود والمستوى المطلوب والغاية السامية والمكانة الرفيعة التي يسعى اليها من حمل رسالة الانبياء والمرسلين وهي الدعوة والتبليغ.

9-ادعاء التزكية والإخلاص والحسن والكمال في العلم والمعرفة وما سواه ليس بشيء فيخاطب الناس بشيء من الغرور والعلوا (فلا تزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى ..)

تلك السلبيات التي ذكرناها مما نلاحظه اليوم في الخطاب الديني وما ذكره الباحثين حول ما سبق .

ومما يمكن ملاحظته في خطابات ابي الحسن الندوي وكتاباته نرى انه قد استفاد وافاد وطور الخطاب الديني واجاد في ذلك لما له من فصاحه وملكه فكريه كما ذكر ذلك عنه الرفقاء و الاصدقاء ،ونذكر الركائز التي اتركز عليها الامام الندوي في خطاباته وكتاباته والتي ادت الى نجاحه وابهاره للعالم وتاثيره الفريد في نفوس العلماء والدعاه والحكام وكذلك طلاب العلم ناهيك عن العامة والخاصه .

اهم المرتكزات التي اعتمد عليها الندوي في الخطابات الدعوية والفكريه كما بينها القرضاوي

ويرى فضيلة الشيخ القرضاوي أن فقه الدعوة عند العلامة أبي الحسن الندوي يقوم على ركائز وأسس تبلغ العشرين، منها انطلق، وإليها يستند، وعليها يعتمد وهي:([i])

1- [ii]تعميق الإيمان في مواجهة المادية.

2- إعلاء الوحي على العقل.

3- توثيق الصلة بالقرآن الكريم باعتباره كتاب الخلود، ودستور الإسلام وعمدة الملة، وينبوع العقيدة، وأساس الشريعة.

---

[i])منقول من فقه الدعوة عند ابي الحسن الندوي للقرضاوي

[ii])ذكر الكاتب هذه الأسس الركائز وشرحها بالتفصيل ولكننا حذفنا الشرح واكتفينا بذكر الأسس والركائز لوجودها بالتفصيل فى كتاب الشيخ القرضاوى۔ غير أننا لم نقدر على حذف بعض الأشياء، وهل يملك أحد قلبه

4- توثيق الصلة بالسنة والسيرة النبوية.

5- إشعال الجذوة الروحية «الربانية الإيجابية».

6- البناء لا الهدم.

7- إحياء روح الجهاد في سبيل الله. لان الامه الاسلامية بغيره تصبح لقمة سهله للاعداء يبتلعونها متى شاؤا

8- استيحاء التاريخ. وذلك من خلال التامل في الماضي وخاصة سيرة الانبياء وكذلك الصالحين والعظماء والتاريخ يعيد نفسه ومن كان بغير ماضي فلا حاضر له فاستفاد من الماضي واستشرف المستقبل في كتاباته واطروحاته

9- نقد الفكرة الغربية والحضارة المادية أو الجاهلية الحديثة.

10-نقد الفكرة القومية والعصبيات الجاهلية.

11- تأكيد عقيدة ختم النبوة.

12- مقاومة الردة الفكرية. ومن ذلك ما كتب حول ردة ولا ابا بكر لها.

13- تأكيد دور الأمة المسلمة واستمرارها في التاريخ نبراس هداية للبشرية،حيث دعا في معظم خطاباته الى العوده الى الاسلام من جديد والى الدور القيادي للمسلمين وخاصه العرب في الكلمة العصماء والوصية العظيمة التي تكتب بماء الذهب وهي اسمعوا ايها العرب كلمات ناريه قوية تدعوا الي تحمل المسئولية وغيرها من الخطابات .

14- بيان فضل الصحابة ومنزلتهم في الدين، ومما قام به الرد على من يتهم الصحابه ويسبهم على الملاء وحذر منهم .

15- التنويه بقضية فلسطين وتحريرها ،وان ذلك على عاتق المسلمين جميعا ومن المواقف خطابه امام رئيس منظمة التحرير الفلسطينية في السعودية وذكر جهادهم ضد اليهود وان فلسطين لن تتحرر الا بالجهاد في سبيل الله والعوده الى الاسلام وتعاليمة ومن المواقف عندما زاره الجنرال محمد ضياء الحق رئيس الجمهورية الإسلامية الباكستانية في كراتشي عام 1984م، فقدّم إلى فخامته تمثال قبة الصخرة الرخامي ـــ الذي كان أُهدي إلى سماحته كهديةٍ تذكارية من كلية العلوم بالأردن ـــ تلميحا منه بأن استخلاص المسجد الأقصى المبارك مسئولية من مسئوليات رئيسٍ مؤمنٍ لبلدٍ مسلمٍ كبير كباكستان، وكان

آخر لقائه مع الرئيس ضياء الحق عام 1986م ،هكذا كان فكر الندوي وطموحه لتحرير فلسطين وان ذلك مسئولية الجميع .

16- العناية بالتربية الإسلامية الحرة التي لا تستمد فلسفتها من الغرب ولا من الشرق.

17- العناية بالطفولة والنشء والكتابة للأطفال والناشئين بوصفهم رجال الغد .

18- إعداد العلماء والدعاة الربانيين.

19- ترشيد الصحوة والحركات الإسلامية التي يشهدها العالم الإسلامي.

20- دعوة غير المسلمين للإسلام.

سمات الخطاب الديني المنشود عند ابي الحسن الندوي :

الخطاب الإسلامي المنشود لا بد له من سمات وركائز ينطلق منها ليحقق المراد ، وأهم هذه الركائز والتي نلاحظها او نلاحظ جلها في فكر ابي الحسن الندوي من خطاباته الدينية وجهده الدعوي :

1-الربانية في المصدر والمنشيء :

فالخطاب الإسلامي يجب أن يكون ربانيا في مبدئه ومصدره ومنشئه.. يستمد كل مبادئة وقيمه من تعاليم الدين الحنيف التي امر الله بها وامر بنشرها بين الناس لانقاذ البشرية من الظلمات الى النور مستنيرا بنور سيد الخلق اجمعين محمد صلى الله عليه وسلم .

ولقد اتسم خطاب ابي الحسن بالربانية والدعوة الى التمسك بالعقيده الصحيحه والصافيه بعيدا عن اتربة البدع والمخالفات ويتضح ذلك جليا في جل خطاباته والدعوة الى التوحيد الصافي من المنبع الصافي بعيدا عن الانحرافات العقدية ويتضح ايضا من خلال كتاباته ونصحه للفرق المنحرفه والبعيده عن المنهج كما كتب حول القديانية وانتقد منهجهم ووضح باطلهم وغيرها من الفرق البعيده عن المنبع الصافي .

ويقول ابي الحسن الندوي كا ذكر ذلك القرضاوي ان الناس اذا حرموا من العلماء الربانيين ابتلوا بغيرهم اذ الربانية مهمه في حياة الامة وخاصة علمائها ومفكريها فيقول :

وإذا حرم الناس الدعاة الربانيين ابتلوا بآخرين من الدعاة ، وهم صنفان:([i])

[i])موقع القرضاوي مقال حول نظرية الامام الندوي في الاصلاح والمنشور بتاريخ الأربعاء 01 صفر 1424هـ - 02/04/003م http://qaradawi.net/library/72/3755.html تاريخ الزيارة 2014/2/2 .

صنف من " الدعاة على أبواب جهنم، من دعاهم إليها قذفوه فيها " كما وصفهم حديث حذيفة في الصحيحين، ولما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عنهم، قال: " هم من بني جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا ".

فهؤلاء هم الذين دعوا إلى (تغريب الأمة) ونشروا فيها (الفكرة الغربية) بما تحمله من فلسفة مادية، ونظرة إباحية، وعصبية قومية، وهم الذين أججوا الصراع بين هذه الفكرة و (الفكرة الإسلامية).

وهؤلاء هم الذين هيمنوا على أَزِمَّة التعليم والتربية والثقافة والإعلام في البلاد الإسلامية المختلفة، مكن لهم الاستعمار، الذي صنعهم على عينيه. وهيأ لهم أسباب النفوذ والتأثير، بما ملكهم من سلطات لا ينازعهم فيها أحد، فسلطوا على عقول الأجيال وقلوبهم وأذواقهم وسلوكياهم، يوجهونها كما يشاؤون، بل يصنعونها كما يشاؤون.

والصنف الثاني هم: دعاة الدين الزائفون، الذين يتحدثون عن الدين بألسنتهم، و لم تتشربه قلوبهم، و لم تمثله أعمالهم، تكذب أفعالهم أقوالهم، ويكذب باطنهم ظاهرهم (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) الصف:3،2، وهؤلاء الدعاة المحسوبون على الدين هم في الواقع فتنة لأهل الدين وعائق عن الوصول إلى الله. ومما سبق فان الربانية في المنهج والعمل تقود الى النجاح في الخطاب الديني والمنعكس على حياة الامة ومسيرتها ودعوتها

2- ان يكون عالميا للبشرية جمعاء :

فالخطاب الإسلامي عالمي للناس كافة قال تعالى عن رسوله الكريم حين بعثه (وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) فلا يقف عند مكان معين او لون وجنس او طائفة دون أخرى والملاحظ في سيرة الإمام ابي الحسن الندوي ان خطاباته ودعوته قد حرص ان تكون للناس جميعا باختلاف احزابهم ومنظماتهم ودولهم ويتجلى هذا في كتبه وابحاثه وخطاباته وكذلك في رحلاته واستضافاته من جميع المذاهب والجماعات الاسلاميه داعيا الى لم الشمل وتوحيد الكلمه ورص الصفوف لانقاذ البشريه من الظلام الدامس الذي عم العالم اليوم .

وقد عمل الشيخ جهاد في ذلك وسافر الى مختلف انحاء العالم حامل هذا الفكر العالمي للبشرية جمعاء ومذكراته شاهد على ذلك ورحلاته العلمية وغيرها دليل على ما ذكرنا .

3- الإنسانية في الخطاب و مراعاة الناس واحتياجاهم

فالنـــزعة الإنسانية هي لحمة الخطاب الإسلامي لإنقاذ البشرية والإنســـانية ورفـــع مكانتها ونشر الخير والأمن والأمان في مختلف أرجاء المعمورة حيث ينبغي في الخطـــاب الديني الدعوة الى التراحم بين البشر على اختلاف اديانهم ودعوة الى التعايش السلمي فيمـــا بينهم بعيدا عن القتل وسفك الدم والتحريض ضد الاخر فلقد تعايش الرسول في المدينـــة المنوره مع اليهود حتى غدرو به فعاقبهم على ذلك ونحن ايضا لا بد من ذلك اثناء التعامـــل مع الاخر .

اما بالنسبة لفكر ابي الحسن وخطابه الديني ايضا لقد اقتداء بالرسول في خطابه وكذلك سلف هذه الامه والدعوة الى التراحم والتعايش المتبادل خاصه ومحتم عابي الحسن النـــدوي مجتمع مختلط متعدد الديانات والعقائد .

4- وسطية المنهج .

الخطاب الإسلامي يراعي التوازن بين العقل والوحي، وبين المـــادة والـــروح، بـــين الحقوق والواجبات، ويراعي جميع جوانب الحياة دون افراط او تفريط دون غلـــوا او تشدد وانحلال فهو منهج الاعتدال والتوسط

ومما يبين ذلك الحكمة وهي وضع الشيء في مكانه ومما ذكر عن حكمة ابي الحســـن ووسطيته ([i])العقل والحكمة

فقد آتاه الله: العقل والحكمة "وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا"[البقرة:269]، والحكمة أولى وسائل الداعية إلى الله تعالى، كما قال -عز وجل- "ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّـــكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"[النحل125].

ولهذا نجده يقول الكلمة الملائمة في موضعها الملائم، وفي زمانها الملائم، يشتد حيـــث تلزم الشدة، حتى يكون كالسيل المتدفق، ويلين حيث ينبغي اللين، حـــتى يكـــون كالمـــاء المغدق، وهذا ما عرف به منذ شبابه الباكر إلى اليوم.

والوسطية في منهج ابي الحسن الندوي ايضا امتثالا لتعاليم الدين الحنيف وسعيا لنشره بين الناس وتعليمه للاخرين

---

[i])ويكيبديا الاعوان المسلمين حول فقه ابي الحسن الدعوي تاريخ الزيارة 2014/1/31 بقلم الدكتور يوسف القرضاوي فقه الدعوة عند ابي الحسن الندوي .

5- الايجابية في الخطاب .

فينبغي ان يكون خطابنا الديني ايجابي في جميع مناحي الحياة وان يكون نافع للبشـــريه ولا ينكفئ على نفسة وعلى شخصياته وذكرياته وانتصاراته ولكن مساهما في المجتمع بايجابية وترك الدور السلبي وعدم التمسك بشعارات تتردد دون عمل وتجديد وإبداع ونقـــديم مــا يخدم الإنسانية والبشرية وما ينقذها من براثين الجهل والغواية والضلالة وما يـــدعو الى تميـــز المسلم في جميع حياته وتقديم الحلول والمقترحات المتمثلة في الامور التالية :

تحقيق التنمية المستدامة : والتي يُقصد بها التنمية التي تفي باحتياجات الجيل الحالي دون المساس بقدرة الأجيال القادمة

تحقيق العدالة الاجتماعية : إن الخطاب الإسلامي يكون قاصرا إن تجاهـــل "العدالـــة الاجتماعية" التي تحدث عنها القرآن ودعا الى تكوين المجتمع الفاضل الذي يسوده التكافل والترحم والتعاطف . فالعدل أساس بناء المجتمع وكذلك تقوم عليه الـــدول وان الله لينصر الدولة العادلة وان كانت كافرة فما أحوج الأمة ودعاتها ورعاياها الى اتباع هذا المنهج القويم والسديد ونشره بين المجتمعات واظهاره للعالم .

القضاء على البطالة : إن الناظر لزيادة معدلات البطالة في العالم يدرك بلا شك عمـــق المشكلة التي تواجه المجتمعات التي تنشد الرفاهية في المعيشة، وتطمح إلى تحسين الأوضـــاع الاجتماعية وتطبيق التنمية المستدامة. فلا بد من توجيه الخطاب الديني الى وضـــع الحلـــول والبدائل الإسلاميه لهذه الظاهرة العالمية المتفاقمة والمنتشرة في اسقاع المعمورة

الاهتمام بالبيئة والمحافظة عليها : إن الخطاب الديني والإسلامي لا يغفل مشاكل البيئة التي أدت إليها الثورة الصناعية المعاصرة؛ فأحدثت خللا كبيرا في البيئة؛ فلابد من توعيـــة الناس وعدم إغفال هذا الجانب والدعوة الى التوازن و الترتيب والتنظيم لجميع جوانب حياتنا وبيئتنا التي نعيش فيها والاهتمام بالنظافة والهندام والمظهر الحسن فالله جميل يحب الجمال ويقول (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها انه لا يحب المفســـدين) ونهـــى الرسول عن تغيير منار الأرض .

من الايجابية في خطاب ابي الحسن الندوي كلامه للعرب ودعوتهم الى الرياده والسياده للعالم والرجوع الى ما كانوا عليه في القدم .

خطاب ابي الحسن للعرب اسمعوا ايه العرب اسمعوها مني صريحةً أيهـــا العـــرب ب الإسلام أعزّكم الله

حيث قال :

"لو جُمع لي العربُ في صعيدٍ واحد واستطعتُ أن أوجّه إليهم خطاباً تسمعه آذانهـــم، وتعيه قلوبهم لقلتُ لهم :

أيها السادة ! إنّ الإسلام الذي جاء به سيدنا محمد العربي صلى الله عليه وسلم هو منبع حياتكم، ومِنْ أُفُقه طلع صبحُكم الصادق، وأن الـــنبـــي صلى الله عليه وسلم هو مصدر شرفكم وسبب ذكركم، وكل خير جاءكم –

بل وكل خير جاء العالم – فإنّما هو عن طريقه وعلى يديـــه، أبى الله أن تتشـــرفوا إلا بانتسابكم إليه وتمسُّكِكُم بأذياله والاضطلاع برسالته، والاستماتة في سبيل دينـــه، ولا رادّ لقضاء الله ولا تبديل لكلمات الله، إن العالم العربي بحرٌ بلا ماءٍ كبحر العَروض حتى يتخـــذ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إماماً وقائداً لحياته وجهاده، وينهض برسالة الإسلام كما نهض في العهد الأول، ويخلـــّص العالَم المظلوم من براثن مجانين أوروبا– الذين يأبون إلا أن يقبروا المدنيّة وقضوا على الإنسانية القضاء الأخير بأنانيتهم واستكبارهم وجهلهم- ويوجّه العالم من الانهيار إلى الازدهار، ومن الخراب والدِّمار والفوضى والاضطراب، إلى التقـــديم والانتظام، والأمن والسلام، ومن الكفر والطغيان إلى الطاعة والإيمان ، وإنه حق على العا لم العربي سوف يُسألُ عنه عند ربه فلينظر بماذا يجيب ؟

6– التدرج في المراحل :

غاية الخطاب الإسلامي الوصول بالناس لتطبيق الدين في حياتهم ليفوزوا في الـــداربن ، ولتحقيق المراد لا بد من التدرج والمرحلية في ذلك اقتداء بالرسول الأعظم صلى الله عليـــه وسلم . حيث بدء الرسول بالأهم فألاهم ورتب حيات الناس ونظمها تدريجيا.

وقد حرص على هذا العلامة ابي الحسن في خطاباته ودعوته وتعاملاته مع الاحـــرين ومما ساعده في ذلك وفهمه الثقافة الكبيرة ولاطلاع الواسع ومعرفة ســـيرة الرســـول ومراحل دعوته وخطابه وكذلك الخلفاء وائتمة الهدى من العلماء والفقهاء حيث كانت ثقافته عاليه كما ذكر ذلك عنه القرضاوي بقوله قد تزوّد الشيخ بأنواع الثقافة الستة الـــتي ذكرتها في كتابي "ثقافة الداعية" وهي: الثقافة الدينية، واللغوية، والتاريخيـــة، والإنســـانية،

والعلمية، والواقعية، بل إن له قدمًا راسخة وتبريزًا واضحًا في بعض هذه الثقافات، مثل الثقافة التاريخية، والذي يظهر جليا في كتاباته وخطاباته .

7- الشمول لجميع الجوانب

ان الخطاب الإسلامي والديني جزء من هذا الدين الذي جاء كاملا وشاملا لما يحتاجه الانسان في حياته ومعاده فلا بد من السير في خطين متوازيين والتوازن في ذلك والاعتدال والتوسط فلا نغفل عن الاخرة من اجل الدنيا ولا تنسى نصيبك من الدنيا حيث من الملاحظ على الكثير من الدعاه اقتصاره على جانب واحد في دعوته ومسيرته.

اما ابي الحسن الندوي فالمتامل لخطابه ومسيرته الدعوية يتضح حرصه على الشمول والاستيعاب لجميع الجوانب الحياتيه وما يتعلق بالاخره فلم يكن صوفيا منغلقا محتبسا عن المجتمع ولم يكن منطويا منفرد عن احداث العالم العربي والاسلامي ومما يدل على هذا رحلاته وسياحته في العالم الاسلامي وخطاباته للامه في سلسلة الاسمعيات وغيرها فكان ملما بجل الجوانب التي تحتاجها الامه الاسلامية ومتلكما في مختلف القضايا الهامه

8- ارتباط بالأصل واتصال بالعصر

فالخطاب الإسلامي يبرز خصوصية الأمة وتفردها ويرتبط بأصوله؛ العظيمة وكذلك يستخدم مستجدات العصر والياته من اجل مصلحة الأمة فلابد من جعل الخطاب الديني متصلا بالأصول العامة للشريعة وعدم إغفال الواقع المعاصر الذي نعيش فيه فالحكمة ضالة المؤمن أنا وجدها فهو أحق بها

والمتامل لخطابات ابي الحسن وكتاباته الدعوية يرى هذا واضحا جليا فهو متمسك بالعقيده الصافيه الربانية البعيده عن البدع والمخالفات مقبلا على مرضات الله تعالى ورسوله الكريم داعيا الى التمكس بالاسلام والا حل للامه اليوم الا بالتمسك به والعوده اليه ولا يمنع الاخذ بما ورد في العصر الحالي واستخدام الوسائل المعينه في ذلك متمثلا قول الرسول احكمة ضالة المؤمن اينما وجدها فهو احق بها .

9-التنوع في الخطاب والتجديد:

بما أن الخطاب الإسلامي خطاب عام للعالمين، والناس لهم مشارب مختلفه ومذاهب متنوعة ؛ لذلك لا بد للخطاب الإسلامي أن يكون متنوعا يروي ظمأ الجميع من مفكرين ومثقفين ورياضيين وعلماء ومتعلمين واغنياء وفقراء يخاطب كل على

حسب فهمه وقدرته ولابد من التنوع ما بين الترغيب والترهيب وما بين التفكر والتـدبر والتأمل والاستنباط والاستنتاج قدوتنا في ذلك إمام المتقين وسيد المرسلين الرسول العظيم محمد صلى الله عليه وسلم . فكان مخاطبا للصغير والكبير للعالم والجاهل للغني والفقير للمسلم والكافر وكذلك للنساء والرجال للسيد والعبد .

ومما سبق حول التنوع في الخطاب فلقد قام به ابي الحسن الندوي في خطاباته ودعوته وكتاباته منوعا ذلك في الخطاب للعلماء للدعاه وكذلك للحكام فلقد خاطبهم كـثيرا وايضا الجماعات الاسلامية المختلفه وداعيا العرب والعجم الى الاسلام واتبـاع منهجـه والتمسك به وكذلك التنوع في اسلوب الخطاب بين الترهيب والترغيـب وكـذلك السرد القصصي واخذ العبرة والعظة من الامم السابقه فله الكثير من الكتابات حول السيرة النبوية وقصص الانبياء وكذلك العظماء والعلماء .

10حكمة بلا تهور :

والحكمة هي وضع الشيء في مكانه من غير زيادة ولا نقصان ، وهي شأن الرسول – صلى الله عليه وسلم– الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، حيث يقول تعالى (وانك لعلى خلـق عظيم) سورة ن ووجهه إلى أفضل أساليب الخطاب فقال عز وجل: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} (النحل: 125, ومراعاة المخاطبين وأحوالهم في بلاغة وفصاحة منقطعة النظير مراعيا للإحداث ومتغيراتها من سلم وحـرب وفرح وسرو ر وحزن من حياة وموت وربح وخسارة ......

11–صدع بالحق بلا انهزام

: الخطاب الإسلامي يجهر بفكرته في وضوح وقوة، ولا يطلب رضا الناس فالنـاس وإرضائهم غاية لا تدرك ولكن رضا الله تعالى ورسوله هو المطلب المنشـود والمـراد المقصود . ومما يمكن ذكره في هذا ما قام ب هابي الحسن الندوي في الهند ابان اصدار قانون يخالف تعاليم الاسلام وتعميمه في الهند فقام ونصح وراسل الحكومة وقابلها كما يـروي ذلك احد الكتاب ([i])

لما أراد الهندوس أن يصدروا قانونا للاحوال الشخصية يعمم على جميع سكان الهند بمن فيهم المسلمين مع انه يتضمن مواد تنافي بعض أحكام الشريعة .

---

[i])موقع طريق الحقيقه عام 2008م http://www.factway.net .

فسعى السيد الندوي, بحكمته, لمنع صدور هذا القانون و كتب الى غاندي لكنها قتلت قبل ان تقرا ما كتب لها , فقرر مقابلة راجييف غاندي الذي خلفها ,و قابلـــه و اقنعـــه, بحكمته, بمسعى المسلمين. تجاوب غاندي مع مطالب المسلمين وهدد اعضاء حزبه بفصلهم من عضوية الحزب ان هم لم يصوتوا على الفانون الذي يريده المسلمون , وتم التصـــويت على القانون حسب رغبة المسلمين.

12–مراعاة الأولويات

والشريعة الإسلامية راعت الأولويات فى التشريع والأحكام, والفقهاء باســـتقرائهم عرفوا أن ترتيب الأولويات سنة تشريعية, فبنوا عليها قواعدهم الفقهية, واحتكموا إليهـــا, فأحرى بالخطاب الاسلامي والديني ان يهتم بما سبق : ونذكر طرف من القواعد العامه التي سطرها العلماء من روح الشريعه الاسلامية فلا ننغفل عناه في خطابنا

فالشريعة تقدم الفرض على النافلة.

وتقدم النص على الاجتهاد.

ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

والمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة.

ويدرأ الضرر العام قبل الضرر الخاص.

ويرتكب أخف الضررين وأهون الشرين مخافة ضررٍ أكبر وشر أخطر.

وطلب العلم أولى من التنفل عند التعارض.

ومحاربة الشرك الجماعي مقدم على محاربة الشرك الفردي.

واعلم أن ما يجمع الأمة خير مما يفرقها,

تلك ابرز القواعد التي ينبغي للداعية مراعاتها ولقد خبرها ابي الحسن الندوي وقام بها ايما قيام ودعى اليها وعلمها لطلابه وسعى جاهدا الى الاهتمام بالاهم ثم الاهم

13– التيسير والتسهيل على الناس

اقتداء بسيد الناس اجمعين الرسول الأمين حيث قال (يسرو ولا تعسروا وبشرو ولا تنفرو) فكان الرسول ما خير بين أمرين الا اختار أيسرها وانـــب الرســـول معاذ بن جبل حينما اطال في الصلاة بالناس فقال (افتانا انت يامعاذ من ام فليخفف ..) فكان مما يلاحظ على خطابات ابي الحسن التسهيل والتيسير على الناس اقتداء بســـيد

الناس اجمعين محمد ابن عبد الله الصادق الامين صلواة ربي وسلامه عليه فكانت خطاباته مقتضبه بسيطه في لغة واضحه وسهله معبره فصيحة متواضعه والمتامل لكتاباته يراى ذلك مسطرا فيها باعذب الكلمات وانقاها فرحمةالله عليه .

14 –الدعوة إلى جمع كلمة المسلمين

امتثالا لقوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ..) ونبذ الفرقة المذهبية والطائفية والحزبية وغيرها والاجتماع تحت راية واحدة وكلمة واحده لا اله إلا الله محمد رسول الله والدعوة الى ذلك وتطبيقها على ارض الواقع .

ويتمثل ذلك في خطابات الشيخ والامام ابي الحسن الندوي .

وخطاباته كانة متسمه لجميع الفرق الإسلامية ودعوته الى نبذ الفرقه والشتات وجمع كلمة المسلمين حكاما ومحكومين لتزداد قوة المسلمين وتؤثر في العالم ويرجع المسلمين الى القيادة ويتجلى ذلك في رحلاته وسفرياته الى جميع البلدان العربية والاسلامية وغيرها وخطاباته لجمع الكلمة ونبذ الفرقه .

وما يدل على ذلك ما سطره في كتبه ومذكراته ودعوته الى جمع الكلمة وحرصه على الابتعاد عن مواطن الخلاف وكذلك تعرضه للاخرين بادب وانتقاد بناء كما يذكر القرضاوي ([i])عنه ذلك فيقول كان منهج الشيخ يتجة إلى البناء لا الهدم، وإلى الجمع لا التفريق، وكان يتجنب إثارة الخلاف بين المسلمين، ويمس القضايا الشائكة مسا رقيقا، تمثل فيه الحكمة البالغة، والحوار بالتي هي أحسن. وقد وفق في هذا توفيقا قلّ أن يتوافر لغيره. ذلك لطبيعته السمحة، وصدره الرحب، وخلقه العذب، وقدرته على معالجة المشكلات الصعبة بطريقة سهلة، وأسلوب حكيم.

انظر كيف عالج قضية التصوف — على رغم ما يعرف من موقف السلفيين فيها — بطريقته المتميزة في كتابه الرائع (ربانية لا رهبانية) وكيف عالج فيه قضية (المصطلحات) وجنايتها على الحقائق. إذا تشبث الناس بها، وجعلوا العبرة في الأسماء لا المسميات، وفي العناوين لا في المضامين. ولو أنهم وضعوا بدل اسم التصوف أو عنوانه اسما أو عنوانا آخر مثل (التزكية) المذكورة في القرآن أو (الإحسان) المذكور في الحديث، لاتفق الجميع، وارتفع الخلاف.

---

[i])ما نقله القرضاوي في موقعه ابي الحسن الندوي كما عرفة .

وانظر كيف عالج قضية (سب الصحابة) عند الشيعة، وكيف رد عليهم ردا علميا بعد غاية في الأدب والتهذيب، وذلك في كتابه (صورتان متضادتان). يعني بهما الصورة التي يعتنقها الشيعة عن الصحابة، وهي صورة قاتمة، توحي بأنهم لم يستفيدوا من تربية النبوة وتوجيهها وأدبها، حتى أقرب الناس إليه، مثل أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة، فكيف بغيرهم. وهذا يدلنا على عمق فهمه وحرصه على لم الصف وجمع الكلمة

15-الاستقلالية والاعتماد على الذات

والدعوة الى ذلك والى الانتاج وانقاذ البشريه كما كان اسلافنا الاوائل حيث قدموا للبشريه الشيء الكثير في مختلف المجالات فلابد ان يتسم الخطاب الديني بالدعوة الى الانتاج والى العمل والى الابتكار وخدمة الناس وانه من باب الجهاد والدعوة ايضا .

ومن مواقف ابي الحسن الداعية الى ذلك ما قام به في مسيرته الدعوية واستقلاله عن الاخرين وعدم طلب يد العون من الاخرين متعللا بالاستقلاليه والاعتماد على الذات لينجح خطابنا ويثمر في الاخرين ، وفي حياة الشيخ الندوي مواقف كثيرة فيها دروس وعبر للعاملين على طريق الدعوة ومنها ما يرويه الشيخ يوسف القرضاوي فيقول [i]: أذكر أنه حينما زارنا منذ أكثر من ثلاثين عامًا في قطر، وكان يشكو من قلة موارد (دار العلوم) بندوة العلماء، اقترح عليه بعض الإخوة أن نزور بعض الشيوخ وكبار التجار، نشرح لهم ظروف الدار ونطلب منهم بعض العون لها فقال: لا أستطيع أن أفعل ذلك! وسألناه: لماذا؟ قال: إن هؤلاء القوم مرضى، ومرضهم حب الدنيا، ونحن أطباؤهم، فكيف يستطيع الطبيب أن يداوي مريضه إذا مد يده إليه يطلب عونه؟ أي يطلب منه شيئاً من الدنيا التي يداويه منها؟!

قلنا له: أنت لا تطلب لنفسك، أنت تطلب للدار ومعلميها وتلاميذها حتى تستمر وتبقى. قال: هؤلاء لا يفرقون بين ما تطلبه لنفسك وما تطلبه لغيرك ما دمت أنت الطالب، وأنت الآخذ!! وكنا في رمضان، وقلنا له حينذاك: ابق معنا إلى العشر الأواخر، ونحن نقوم عنك بمهمة الطلب. فقال: إن لي برنامجًا في العشر الأواخر لا أحب أن أنقضه أو أتخلى عنه

---

[i])ما نقله موقع طريق الحقيقه حول ابي الحسن الندري داعية المشرق بتاريخ 2008/5/16 مقال منشور .

لأي سبب، إنما فرصة لأخلو بنفسي وربي. وعرفنا أن للرجل حالاً مع الله، لا تشغله عنـــه الشواغل، فتركناه لما أراد، محاولين أن نقلده فلم نستطع، وكل ميسر لما خلق له.

نماذج من جهوده الدعوية وخطاباته الدينية والتربوية

مخاطباته للجماعات الاسلامية وتنوير طريقها ونصحها ومنها

جماعة الاخوان المسلمين (i)

زار الداعية أبو الحسن الندوي القاهرة في منتصف 1370 هـــ، وكتب وهو نزيلاً لها رسالةً إلى جماعة "الإخوان المسلمون" يحضهم على الخير والسعي للدعوة والتمسك بالمبادئ وعدم الرضوخ للضغوطات وعدم الإنخداع بزخارف الحكومة، وتذكيرهم أن الحكومة ما هي إلا ثمرة الدعوة لذا عليهم العمل على نشر الدعوة بالحكومة، لا العكس، وأن الـــدعوة ليس مقصدها قلب نظامٍ أو تغييره بآخر فقط، بل أوسع من ذلك.

والرسالة تصلح لكل الحركات الإسلامية التي تتنافس على السياسة والحكم اليوم حيث أن الحركات الإسلامية دخلت المعترك السياسي واقتربت من استلام زمام الحكم، فأحببتُ تعميمها حيث حذفت بعض الأجزاء منها. وسبحان الله! من يقرأ الرسالة يجد وكأن الشيخ يقصد بها هذه الأيام !

والرسالة بعنوان "منذ خمسين عاما أريد أن أتحدث إلى الإخوان"، وضـــمنها بـــبعض الاقتباس من رسالته الأخرى "الهداية والجباية".

ومن ابرز ما نصح به وارشد الاخوان بعد ان بين خصائص دعـــوتهم حيـــث ذكـــر خصائص دعوة الاخوان في النقاط التالية :

خصائص دعوة الإخوان :

وقد اجتمع لهذه الدعوة خصائص كثيرة لم تجتمع على ما علمنا منذ أمد بعيد لحركـــة دينية وإصلاحية في هذا البلد.

1- منها شخصية الداعي الأول وهو فضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا رحمه الله عليه فقد كان شخصية فريدة وقد كان- رحمه الله- يجمع بين الفهم الواسع للإسلام والغيرة الملتهبـــة عليه والنشاط الدائم والعمل المتواصل لإعلائه والخطابة الساحرة والشخصية الجذابة والنفـــوذ

(i) الموسوعه الحرة للاخوان المسلمين http://www.ikhwanwiki.com/ تاريخ الزيارة 2014/1/20م

العميق في نفوس أصحابه وإخوانه أو بلفظه هو نفسه "الفهم الدقيق والإيمان العميق والحب الوثيق"، ولا بد للزعيم المسلم وقائد الدعوة الدينية أن يجمع بين هذه الصفات.

2- اجتمع لهذه الدعوة ما قلما تجتمع للحركات الدينية من قوة الإيمان وقوة العمل والعلم العصري والتنظيم الحديث والأدب والصحافة والصناعة والتجارة مما جعل هذه الدعوة دعوةً شعبيةً عصريةً عامةً يجتمع فيها العالم الديني مع المثقف المدني مع التاجر الكبير مع العامل الصغير مع الكاتب الأديب مع الصحافي البارع مع الصانع الماهر مع الفلاح القوي مع الطالب الشاب مع المعلم الوقور مع الموظف المسئول مع الطبيب النطاسي مع المحامي الكبير مع السياسي المحنك تجمع بينهم رابطة الإخوان وتربطهم شخصية الداعي الكبير.

3- لقد بعثت تربية الداعي والاشتغال بالدعوة ورد الفعل ضد التحلل والتفسخ حماسةً عظيمةً وتماسكًا عجيبًا في نفوس الدعاة وجعلت من الشعب "الرخو الرقيق"- كما قال زعيم من زعماء الإخوان- شبابنا أثبتوا بطولتهم في حرب فلسطين وجددوا ذكريات تاريخ الجهاد الإسلامي وأثبتوا رجولتهم وعصاميتهم في عهد الاعتقال والمحنة والتعذيب.

4- امتاز الداعي الأول والدعاة بدورهم بالتصريح بالحقائق الإسلامية والظهور في المظاهر الدينية التي كان الناس يخجلون منها فتشجع الناس وأصبح الدين في هذا البلد شيئًا لا يخجل منه المثقفون والمتظرفون وبدأ الناس يصلون في المقاهي والنوادي والولائم وقارعة الطريق بعد ما كانوا يستحيون من ذلك وأصبح الخطباء والكتاب يطالبون بالحكم الإسلامي وتطبيق أحكام الإسلام الاجتماعية ويثيرون موضوعات دينية كانت وقفًا على رجال الدين ولم تكن تتجاوز دائرة البحث العلمي ولا شك أن ذلك من نتائج الحركة الإسلامية القوية.

خطابه ونصحه للجماعات الإسلامية الاخون نموذج : :

استحضروا أيها الإخوان هول الموقف وغربة الإسلام وضعف المسلمين فقد أشرفت الدعوة الإسلامية على أثر وفاة نبيها صلى الله عليه وسلم على الانقراض واجتمع للمسلمين حادثان؛ حادث وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وحادث ارتداد أمتهم وقومهم ولكن ذلك بالعكس أثار فيهم روح المقاومة والجهاد وألهب غيرتهم، وقال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: "أينقص الدين وأنا حي"، وأبى المسلمون أن يستسلموا لهذه الحوادث ويخذلوا

الدعوة فلم يحافظوا على وضع الإسلام وتراثه فقط بل فتحوا فارس والروم والإمبراطوريتين اللتين كانتا تحكمان العالم وأضافوهما إلى ثروة الإسلام جزاهم الله عن نبيه ودعوته وعن المسلمين خير ما جزى خلفاء الأنبياء وقادة الدعوة الإسلامية الأمناء الأقوياء.

ومما ذكر ايضا ليس خطب الدعوة الدينية والتجديد الإسلامي بهين أيها الإخوان الكرام فليست رسالتها ومهمتها قلب نظام فقط أو تغيير وضع سياسي بوضع سياسي آخر ونظام اقتصادي بنظام اقتصادي آخر ولا نشر الثقافة والعلم ومكافحة الأمية والجهل أو محاربة البطالة والتعطل أو معالجة عيوب اجتماعية أو خلقية إلى غير ذلك مما يقوم به الدعاة والمصلحون في أوروبا وفي الشرق وإنما هي دعوة "الإسلام" التي تشمل العقيدة والأخلاق والأعمال والسياسة والعبادة والسلوك الفردي والاجتماعي وتتناول العقل والقلب والروح والجسم وتعتمد على تغير عميق في القلب والنفسية والعقيدة والعقلية وتنبع من القلب قبل أن تنبع من القلم أو صحيفة كتاب أو منصة خطاب وتنفذ على جسم الداعي وحياته قبل أن يطالب بتنفيذها على المجتمع والأمة.

ومن ابرز الوصايا وخطاباته القوية خطابه للعرب:

إسمعوها مني صريحةً أيها العرب: بالإسلام أعزّكم الله، "لو جُمع لي العربُ في صعيدٍ واحد واستطعت أن أوجّه إليهم خطاباً تسمعه آذانهم، وتعيه قلوبهم لقلتُ لهم : أيها السادة ! إنّ الإسلام الذي جاء به محمد العربي صلى الله عليه وسلم هو منبع حياتكم، ومِنْ أُفُقه طلع صبحُكم الصادق، وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو مصدر شرفكم وسبب ذكركم، وكل خير جاءكم – بل وكل خير جاء العالم – فإنّما هو عن طريقه وعلى يديه، أبى الله أن تتشرفوا إلا بانتسابكم إليه وتمسُّكِكُم بأذياله والاضطلاع برسالته، والاستماتة في سبيل دينه، ولا رادّ لقضاء الله ولا تبديل لكلمات الله، إن العالم العربي بحرٌ بلا ماءٍ كبحر العَروض حتى يتخذ محمد صلى الله عليه وسلم إماماً وقائداً لحياته وجهاده، وينهض برسالة الإسلام كما نهض في العهد الأول، ويخلّص العالَم المظلوم من براثن مجانين أوروبا– الذين يأبون إلا أن يقبروا المدنيّة وقضوا على الإنسانية القضاء الأخير بأنانيتهم واستكبارهم وجهلهم– ويوجِّه العالم من الانهيار إلى الازدهار، ومن الخراب والدّمار والفوضى والاضطراب، إلى التقديم والانتظام، والأمن والسلام، ومن الكفر والطغيان إلى الطاعة والإيمان، وإنه حق على العالم العربي سوف يُسألُ عنه عند ربه فلينظر بماذا يجيب ؟!

ونصحه في الخطابات والرسائل للدول :

ومن سلسلت خطابات ونصائحه وارشاداته ما خاطب به الدول العربية في سلسلة الاسمعيات اسمعي يا مصر ويا سوريا ويا ايران وما بذل فيها من التفاني في نصح الدول حكام ومحكومين في أسلوب راقي ومتميز

جهوده في الخطاب الديني والدعوي تمثل في حرصه على النقاط التالية كما ذكر ذلك القرضاوى :([i])

كان – رحمه الله – يرى أن الأحداث التي عاصرها وعلى رأسها سقوط الخلافة، دعمت إيمانه بأن الإسلام لابدّ أن يتولّى الزمام لإنقاذ العرب والعالم، لأن الحل الوحيد لمأساة الإنسان يكمن في تحوّل قيادة العالم إلى أيد مؤمنة بقيم الإنسانيّة، وكان محور إصلاحه:

–مكافحة الغزو الفكري، وبثّ روح الاعتزاز بالإسلام في المسلمين، ومقاومة الردّة وآثارها، وخاطب العرب وركّز عليهم اهتمامه، لأنّهم في رأيه يحملون استعداداً روحيّاً ومعنويّاً وماديّاً لقيادة العالم الإسلامي، وبالتالي لقيادة العالم أجمع، وكان حريصاً على نهضة العرب بمواهبهم وكفاءاتهم.

–وحدّد واجب العلماء والطبقة المثقفة في مقال منشور بمجلّة «البعث الإسلامي»قائلاً: «إن مسؤوليّة العلماء والمفكّرين المسلمين في العصر الحديث –بعد مواجهتهم للتحدّيات المعاصرة وإثباتهم أن الإسلام قادر على قيادتها وترشيدها والسموّ بها– هي أن يفضّلوا الإسلام على كل جماعة، ومؤسّسة، ومدرسة، وطائفة، وحزب، وإذا رأوا أن بقاء الإسلام يتطلب أن نمح جميع الأسماء واللافتات والشعارات والشارات والأحزاب والجماعات، فليكن ذلك موضع عنايتهم، ولا يقع تلكؤ منهم أو إحجام للحظة واحدة، وليكن مصلحة الدين والعقيدة مفضّلة على عمل كل مصلحة حزبيّة، أو جماعيّة، وليكن واضحاً أن الدين والإيمان وازدهارهما هو الهدف، سواء رجع الفضل إلينا أو لغيرنا من الإخوان في العقيدة والدين».

–ومن أبرز تأمّلاته: قضيّة الإصلاح والتغيير، حيث رأى أنّ المنهج الإصلاحي الذي نريده ينبع أساساً من تكوين الفرد تكويناً نوعيّاً، ويحمل على بعض المصلحين الذين خلطوا الواقع الإصلاحي بالتجربة والروح الغربيّة، وكان يندهش من المسلمين الذين اطمأنّوا لتدريس أبناءهم في المؤسسات العلميّة الغربيّة، وغفلوا عن هدف الغرب في القضاء على الهويّة

---

[i])المختار الإسلامي ابي الحسن الندوي للكاتب خالد سعد النجار .

الإسلاميّة لهم، وتنبّه إلى ضرورة إحداث تغيير شامل في الجامعات الإسلاميّة من خلال ربط العلم بالتربية؛ وأولى اهتماماً كبيراً بالمنهل العلمي الذي يتلقّاه الشباب، فلا بدّ من تصفية هذا المنهل من خلال توحيد التعليم ليكون وحدة شاملة تجمع بين الوسائل والغايات.

ومما قام به الشيخ ان اخذ على عاتقه دعوة الناس وتذكيرهم بإرث النبوة الذي فرطوا فيه، ويستنهض هممهم للعودة إليه، وصياغة حياتهم وِفْقَهُ، ولا مخلص لهذه الامه الا العوده الى الدين واتباع المرسلين .

ومن مواقف و زهد الشيخ أبو الحسن الندوي:

لقد كان الشيخ الندوي يرفض المكافآت التي تُعطى لأمثاله في مقابلة جهود يقوم بها، وهي مشروعة ويقبلها غيره من العلماء، ولكنه أَلَى على نفسه أن يقدِّم ما عنده من علم وجهد لله تعالى، لا لعَرَضٍ من الدنيا.

يُحكى أنه عندما دُعي إلى سوريا، أستاذاً زائرًا لجامعة دمشق، ولكلية الشريعة فيها خاصّة، في عهد عميدها الداعية الفقيه الدكتور مصطفى السباعي، ألقى عددًا من المحاضرات المهمة العميقة، تعب عليها، وبذل جهدًا لا يُنكر في إعدادها، وكان لها تأثير عميق ووقع مشهود بين الأساتذة والطلاب.

وكان موضوعها "التجديد والمجددون في تاريخ الإسلام"، وهي التي ظهرت بعد ذلك تحت عنوان: "رجال الفكر والدعوة في الإسلام". وعلى عادة الجامعة صُرفت له مكافأة، كما تُصرف لكل الأساتذة الزائرين، وهنا كانت المفاجأة؛ فقد رفض الشيخ الندوي أن يأخذ مكافأة على محاضراته!! و لم يجد الإداريون والماليون في الجامعة حلاً إلا أن يتبرع به للطلاب الفقراء.. . وغير ذلك من الأمثلة الكثير.

ومما ذكره ايضا الامام القرضاوي حول زهد ابي الحسن الندوي :

حيث يقول في مقال له ومن المعروف أن الشيخ حين أعطي (جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام) وكان مقدارها ثلاثمائة ألف ريال سعودي في ذلك الوقت — على ما أذكر— تبرع بها الشيخ كلها، بعضها لفقراء الحرمين، وبعضها لفقراء الهند ومدارسها الدينية.

وكذلك فعل بكل مبالغ الجوائز التي حصل عليها، مثل جائزة سلطان بروناي في التاريخ الإسلامي، وجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، حيث اختير ليكون (الشخصية

الإسلامية) لعام 1419هـ وقيمة الجائزة مليون درهم.. لم يدخل جيبه شيء من قيمة هذه الجوائز، بل أنفقها كلها في سبيل الله.

من مواقفه ونصحه للاخرين :

ومنها صبره ونصحه للاخرين وحرصه على التضحية وبذل الخير والنصح في سبيل الدعوة والصبر عليها كما روا نائبه في الرابطه حول نصحه له حيث يقول الدكتور "عبدالقدوس أبو صالح" (خليفة الشيخ في رئاسة الرابطة): كان لي مع سماحة الشيخ الندوي ـــ رحمه الله ـــ موقف جعلني أوقف حياتي للأدب الإسلامي ورابطته العالمية، فقد عقدت الرابطة مؤتمر الهيئة العامة الثالث في مدينة (استانبول)، وكنت لاقيت صعوبة بالغة في إرضاء بعض أعضاء الرابطة، فرجوت من الشيخ الندوي أن أنفرد به في لقاء خاص، أطلعه فيه على ما أعانيه في رئاسي لمكتب البلاد العربية نائباً له، ورجوته أن يقبل استقالتي.

ولكن الشيخ الذي يعرف بهدوئه ورحابة صدره انتفض غاضباً، وقال لي: "...لو أنك زرتني في منزلي لرأيتني أستعين بعجلة المعوقين لأنتقل من منزلي إلى المسجد القريب الذي لا يبعد أكثر من خمسين متراً، وقد قطعت من بلدي إلى (استانبول) مئات الكيلومترات ثقة بك وبإخوانك.. والله لا تستقيل.. لا تستقيل.. أما ما تعانيه في رئاستك لمكتب البلاد العربية من المشكلات فسدد بها وقارب.

وهكذا لم أجد بداً أمام غضبة الشيخ، وأمام ثقته الغالية، إلا أن أعاهده على ألا أترك العمل في الرابطة حتى ألقى وجه الله .([i])

موقفه ونصحه للعلماء :([ii])

حست حدّد واجب العلماء والطبقة المثقفة في مقال منشور بمجلّة (البعث الإسلامي) قائلاً: إن مسؤوليّة العلماء والمفكّرين المسلمين في العصر الحديث ـــ بعد مواجهتهم للتحدّيات المعاصرة وإثباتهم أن الإسلام قادر على قيادتها وترشيدها والسموّ بها – هي أن يفضّلوا الإسلام على كل جماعة، ومؤسّسة، ومدرسة، وطائفة، وحزب، وإذا رأوا أن بقاء الإسلام يتطلب أن نحمي جميع الأسماء واللافتات والشعارات والشارات والأحزاب والجماعات فليكن ذلك موضع عنايتهم ولّا يقعن تلكؤ منهم أو إحجام للحظة واحدة،

---

[i])مقال منشور في طريق الحقيقه بتاريخ 2008/5/16 داعية المشرق ابي الحسن الندوي .

[ii])مقال منشور لمحمد شاهين اعلام الصحوه الاسلامية مجلة الغرباء .

وليكن مصلحة الدين والعقيدة مفضّلة على عمل كل مصلحة حزبيّة، أو جماعيّة، ولـيكن واضحاً أن الدين والإيمان وازدهارهما هو الهدف، سواء رجع الفضل إلينا أو لغيرنا من الإخوان في العقيدة والدين .

الخاتمة والتوصيات

هذه ورقات جمعت فيها على عجالة ما تناثر في عدة بحوث حول الموضوع وما يتعلق بالخطاب الديني عند الإمام ابي الحسن الندوي وتوصلت الى النتائج التاليه :

-ان الموضوع يحتاج الى بحث مستفيض لأهميته وطرحه بموضوعيه اكثر وابراز معالمه عند الامام ابي الحسن الندوي وجهوده في الخطاب الديني والنماذج الخطابية التي قام بها .

-وايضا ضرورة ترشيد الخطاب الديني والاستفاده من موروث الإمام الندوي في خطاباته الدينيه ومواقفه حسب مقتضيات العصر وما يحتاجه الناس كما قام نه الندوي في الهند رغم اختلاف الاديان واختلاف اللغاة وكذلك الفرق الاسلامية المتعدده في شبه القارة الهندية .

-وكذلك الحرص على الالتزام بمبادئ الدين والشريعة الغراء ودعوة الناس الى ذلك والاقتداء بسيد الانبياء ومن سار على نهجه من العلماء والائمة .

-ضرورة التوسط والاعتدال في الخطاب الديني وجعله منهج حياة يقودنا الى بر الامان .

-البحث في موروثنا الإسلامي وما تركه لنا العلماء والمفكرين والمصلحين واستشراف المستقبل فمن لا ماضي له لا حاضر له.

-تجنب سلبيات الخطاب الديني من اجل نشر الخير بشكل أفضل وميسر وسهل .

وفي الاخير اسأل الله ان ينفع بهذه الكلمات وان يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

مقدم الى المؤتمر المقام في الهند فبراير حول ابي الحسن الندوي وافكاره المعاصره

المراجع والمصارد :

1- القران الكريم والحديث النبوي

2-مقومات الداعية الناجح للدكتور علي بن عمر بن أحمد بادحدح

3-منطلقات أساسية لخطاب إسلامي معاصر أ.د.عصام البشير

4-وسطية الإسلام صالح حبيب الله

5-وسطية الإسلام وسماحته لوهبة الزحيلي

6- الخطاب الدين من خلال الاحاديث لمحمد عرابي مجلة الوعي الاسلامي الصادره بدولة الكويت العدد 569 عام 2012 .

7-ويكبيديا الموسوعة الحره سيرة ابي الحسن الندوي .

8-موقع المختار الاسلامي .

9-موقع نداء الايمان موضوع عن ابي الحسن الندوي

10-موقع موسوعة الاخوان الحرة ويكبيديا الاخوان ابي الحسن الندوي

11-طريق الاسلام http://ar.islamway.net/scholar /1494 مقال عن ابي الحسن الندوي اعداد محمد طارق زبير النّدوي .

12-موقع الامام الشيخ يوسف القرضاوي وما كتبه حول ابي الحسن الندوي وفكره وفقه وغيرها من المقالات والمواضيع المتعدده .

البعد الأخلاقي في فكر الشيخ أبي الحسن الندوي

د. الجمعي شبايكي
نائب رئيس جامعة الأمير عبد القادر للتكوين العالي في الطور الثالث والتأهيل الجامعي والبحث العلمي فيما بعد التدرج
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة - الجزائر

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّآءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .
(البقرة/ 177)

أهمية الموضوع:

يعتقد البعض أن الدين قضية شخصية تخص علاقة الفرد بربه، ويقتصر على طقوس وعبادات يؤديها لربه في مكان محدد وزمن معين، فالإنسان المتدين فقط من كانت تلك حاله، فإذا ما ابتعد عن أماكن وأزمنة التقديس حق له أن يفعل ما يشاء ويتصرف كيفما شاء، إنه فهم ساذج وقاصر للتدين، قد يلائم بعض الأديان ولكنه لا يتوافق على الأقل مع مفهوم التدين في الإسلام، لأن التدين في الدين الإسلامي يرتبط ارتباطا وثيقا بالسلوك؛ فلا يعتبر متدينا البتة من اقتصر على أداء العبادات والطقوس والشعائر للمعبود وساءت أخلاقه وسلوكاته مع العباد[i].

---

[i] ـــ انظر كتاب "أهمية الحضارة في تاريخ الأديان وحياة أصحابها" لأبي الحسن علي الندوي فله في هذا الشأن كلام جميل أودعه في المقدمة، الناشر: مكتبة العلامة عبد الحي الحسني، لكنهو ـــ الهند ـــ ط. الأولى: (1402ه)، ص: 10 وما بعدها.

من أجل ذلك قسم علماء الإسلام علوم القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام رئيسية: (علم التوحيد، علم التشريع، علم الأخلاق أو السلوك) وتعتبر الأخلاق أهم مرتكز في الدين حيث يقوم عليها التشريع، بل إن التوحيد والعبادة لا يستقيمان بغير أخلاق، وقد أنجز الكثير من العلماء أعمالا متعددة حولها وبنوا عليها تصوراتهم وأفكاره التي تربط علاقتهم بالمسلمين وغير المسلمين.

ويعتبر الشيخ أبو الحسن الندوي رائدا في هذا الشأن، حيث كتب في مجالات كثيرة وواسعة، وضمّن كتاباته جانبا كبيرا من علم الأخلاق والسلوك، سواء ما تعلق منها بالفرد أو المؤسسات أو الأمة، فكتب (أزمة إيمان وأخلاق، أزمة هذا العصر الحقيقية، الإسلام فضله على الحضارة وفضله على الإنسانية، أضواء على الحركات والدعوات الدينية والإصلاحية..، إلى الإسلام من جديد، الإنسانية تنتظركم أيها العرب، بين الدين والمدنية، التربية الإسلامية الحرة، دور الإسلام في نهضة الشعوب، دور الأمة الإسلامية في إنقاذ البشرية وإسعادها، الصراع بين الإيمان والمادية أو تأملات في سورة الكهف، الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية الحرة، العقيدة والعبادة والسلوك، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين....الخ)

فانطلاقا من قيمة هذا الجانب (علم الأخلاق والسلوك) في علاقة المسلم بأخيه وبالمجتمع الذي يعيش فيه وبالمجتمعات التي تحيط به.

وانطلاقا أيضا من اهتمام الشيخ في دعوته الإصلاحية بالأخلاق والسلوك.

سنحاول من خلال الوريقات القليلة التي بين أيدينا:

— أن نبرز جهود الشيخ — رحمه الله — التي انصبت حول هذا الجانب الهام من الدين.

— وأن نبين منهجه وتصوراته الخاصة من خلال مؤلفاته ونصوصه العديدة.

ولن أروم ببحثي هذا تناول سيرة الشيخ أبي الحسن الندوي، فقد كفاني عناء هذا الجانب باحثون ودارسون كثيرون والحمد لله، ولكني بصدد إبراز جانب من أعمال الشيخ أراها من الضرورة بمكان، حيث تمثل جوهر الدين وقوامه وأساس دعوته، ألا وهو جانب الأخلاق والقيم.

فلقد حظي القرن الثالث عشر هجري (العشرين ميلادي) بشخصيات علمية بارزة شكلت في مجملها نهضة دينية كبرى، هدفها إصلاحُ ما أفسدته التراكمات الثقافية

والسياسية والاجتماعية على المفاهيم الإسلامية، وبعثُ أمة قوية دينيا ودنيويا، ولا يتأتى ذلك إلا بالكشف عن سمات هذا الدين وجوهره.

الإصلاح والتجديد في القرن الرابع عشر هجري/ التاسع عشر ميلادي [i]:

لم تتوقف الدعوة إلى الإصلاح والتجديد في كل فترات التاريخ الإسلامي، والسبب بسيط؛ وهو أن أحوال الناس متجددة ومتقلبة، يحتاجون فيها دوما إلى من ينير لهم طريق الخير ويأخذ بأيديهم إلى بر الأمان ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقد تكفل الله ببعث هؤلاء الدعاة المصلحين بين الحين والحين لكي يجددوا أمر هذا الدين ويحيونه عند كل تيه أو ركود، وجاء في الحديث: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[ii] والمراد بالمجدد في كل عصر: الذي يدعو إلى تجديد ما أثر فيه القدم والبلى وذلك بإصلاح ما فسد وإحياء ما اندثر.

ومن هؤلاء الأعلام المجددين في القرن الرابع عشر الهجري/ القرن العشرين ميلادي، ممن قد اختلفت مواطنهم وترجهاتم وأسسهم في فهم الدين وتنوعت أيضا أدواتم ووسائلهم وربما حتى بواعثهم، ولكن اجتمعت آراؤهم على ضرورة إصلاح أحوال المجتمع وتغييرها وفق التصور الديني الإسلامي:

- محمد عبده (1266- 1323هـ / 1849- 1905م) (مصر)
- عبد القادر داموللا الكاشغري (1278 ـ 1342ه/ 1862- 1924) (تركستان/ آسيا الوسطى)
- محمد إقبال (1289-1357هـ /1873-1938م) (باكستان)
- عبد الحميد بن باديس (1307-1358ه/1889-1940م) (الجزائر)
- أبو الكلام محي الدين أحمد آزاد (1306 - 1377 ه / 1888- 1958م) (الهند)
- الطاهر بن عاشور (1296 - 1393ه /1879ـ/1973م) (تونس)
- أبو الأعلى المودودي (1321- 1399 هـ / 1903- 1979 م) (الهند)

---

[i] ـــ انظر موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين: إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، مطبعة دار الجيل: بيروت (لبنان)، الطبعة الأولى 1425ه/2004م.

[ii] ـــ المستدرك على الصحيحين: الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد بن عبد الله، ط. دار المعرفة، بيروت ـــ لبنان ـــ (1418هـ / 1998م)، ح/8639، ج5/731.

- عبد العزيز بن باز (1330 - 1420هـ / 1911 - 1999م) (السعودية)
- الشهيد سعيد رمضان البوطي (1347 - 1434 هـ / 1929 - 2013 م) (سوريا)

هؤلاء العلماء وكثير ممن لم نذكرهم لسبب الإيجاز - إذ لا يكاد يخلو بلد من البلدان الإسلامية خلال القرن العشرين من أسماء بارزة في التجديد والفكر والدعوة والإصلاح، بل إن القرن العشرين يزخر بكثرة العلماء في هذا المجال بصورة لم تعهدها الأمة الإسلامية منذ زمن بعيد - قد ساهموا بشكل كبير في إثراء المكتبة الدينية والثقافية والعلمية، كما كان لهم دور لا يستهان به في الثورات المعرفية، التحررية والنهضوية.

اهتمام المصلحين والمجددين بالأخلاق والكتابة فيها:

كل الثورات والدعوات الإصلاحية والنهضوية في العصر الحديث كان الباعث لنشأتها هو موقف المجتمع السلبي اتجاه الدين أو الوطن، ولعل العالم الإسلامي كان أكثر استعدادا وتهيؤا لهذه الثورات لوجود الوعي الديني الذي يبعث على القلق والإنكار في هذه البلاد أكثر من أي عالم آخر أو مجتمع آخر[i]، فقامت الثورات هنا وهناك من أجل إزاحة تلك السلبيات التي تعيق التقدم والتطور، وتعالت صيحات الدعاة والمفكرين لأجل إصلاح الجوانب الفكرية والثقافية والسلوكية في الفرد والمجتمع، فكانت النتيجة أن ظهر في العصر الحديث تياران:

الأول: اتجاه ليبرالي يرى أن السبيل إلى التقدم والتطور يكمن في تحرير المجتمع من كل التبعات الدينية والثقافية، ليتسنى له الانطلاق وتحقيق ما حققته الحضارة الغربية من تمدن ورقي.

والثاني: اتجاه ديني يرى أن التقدم والتطور لا يحصل أبدا بالانسلاخ من الخصوصية الدينية والثقافية للمجتمع، بل يكفي أن يتحرر المجتمع من الأفكار المعيقة والسلوكات السلبية.

ضمن هذه الفكرة المناهضة للفكر الليبرالي التغريبي، نشأت ثورات تحررية دينية كثيرة وكبيرة في القرن العشرين، قد تختلف في الوسيلة والمنهج ولكنها تكاد تتحد في البواعث والأهداف.

---

[i] ـــ الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية: أبو الحسن الندوي، ط. دار الندوة للتوزيع ـــ لبنان ـــ الطبعة الثانية (1388ه ـــ 1968م)، ص: 59.

والواقع إن تلك الثورات الإصلاحية هي في مجملها امتداد للبعثات السماوية التي ترتكز مهمتها في الدعوة إلى تغيير السلوك الفردي والجمعي؛ فحقيقة الرسل أنهم ثوار على الباطل والظلم والاعوجاج، أرسلهم الله لإحداث تغيرات على المستويين الثقافي والاجتماعي، كما أن نزول الوحي بالقرآن الكريم على الرسول الأمين هو في حد ذاته "ثورة اجتماعية ودينية على تلك الاتجاهات القَبَلية ونظمها ومؤسساتها، داعياً إلى إقرار نظم جديدة في سبيل بناء مجتمع متحرر من النظرة القبلية الطبقية وقائم على أساس العدالة العالمية"[i].

فدعوات الرسل والدعوات الإصلاحية، تنبع من مشكاة واحدة هي (منبع العدل الإلهي)، وتهدف إلى غاية واحدة هي (إصلاح الفرد والمجتمع)، لذلك نعتبر هذه الدعوات، دعوات أخلاقية بامتياز، إذ الهدف منها إصلاح السلوك الفردي والجمعي بما يحقق العدل الإلهي، لأجل ذلك كان لكل ثورة بواعثها التي تدفعها إلى النشأة والظهور، ولكنها دائما ما تكون ضمن دائرة الصراع بين الجور والقسط، بين الباطل والحق، بين الظلم والعدل، ومن الطبيعي جدا أن تكون للثورات التجديدية والإصلاحية في العصر الحديث بواعث ضمن نفس الدائرة أيضا، قد تتنوع وتتعدد ولكنها ترتبط أساسا بالانحراف الأخلاقي وتراجع المستوى الديني للمجتمع.

من هذه البواعث على سبيل المثال لا الحصر:

1. اتساع حياة المسلم وتشعبها.
2. تنوع المجتمع الإسلامي.
3. تنوع حاجات المجتمع.
4. تنوع علله وأسقامه.
5. تنوع مطالبه ومقتضياته.
6. حاجة الإنسانية إلى الأخلاق أكثر من أي وقت مضى.
7. الحاجة إلى ما يرشد المسلمين في أعمالهم اليومية ومعيشتهم الفردية والجماعية.

كل ذلك دفع بالدعاة والمفكرين أن يبحثوا ويبتكروا أدوات ووسائل جديدة لدفع عجلة الوعي الديني وبعث الأخلاق الحميدة في مجتمع العصر الحديث.

الكتابة في علم الأخلاق:

---

[i] ـــ محمد الشرقاوي: نزول الوحي بالقرآن ثورة اجتماعية ودينية، مركز الدراسات العصبية القبلية، 16-05-2007.
http://m.ahewar.org/s.asp?aid=382380&r=0&cid=0&u=&i=0&q

الأخلاق الحميدة والقيم المثلى شعار الدين الإسلامي وعنوان المسلم الرباني، فمن الطبيعي جدا أن يهتم المسلمون بالأخلاق والقيم في كتاباتهم وتآليفهم، حتى لا يكاد يخلو عصر من العصور إلا وتجد فيه من اهتم بتهذيب الأخلاق والكتابة فيها، فكتب:

- الماوردي أبو الحسن علي بن محمد ت (364هـ): أدب الدنيا والدين.
- ابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ت (463هـ): بهجة المجالس وأنس المجالس.
- أبو حامد الغزالي محمد بن محمد ت(505هـ): إحياء علوم الدين/ بداية الهداية / ميزان العمل.
- الباهلي الإشبيلي أبو الحسن سلام بن عبد الله بن سلام ت (544هـ): الذخائر و الأعلاق في آداب النفوس و مكارم الأخلاق.
- السمرقندي محمد بن أبي بكر ت (573هـ): شرعة الإيسلام إلى دار السلام.
- ابن الجوزي أبو الفرج عبد الرحمن ت (597هـ): منهاج القاصدين/ ذم الهوى.
- ابن قيم الجوزية ت (751هـ): زاد المعاد في هدي خير العباد.
- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب ت (817هـ): سفر السعادة.
- التهانوي أشرف علي بن خالق ت(1362هـ): تعليم الدين.
- ابن مسكويه أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب ت (932هـ): تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق.

إلى غير ذلك من كتب الرقائق، والآداب، والسلوك، والمواعظ، والزهد، والأخلاق، والتزكية، التي تشكل في مجملها مكتبة عظيمة وتراثا قيما تكفي لسد حاجة المريدين ممن يسعى للتحلي بالأخلاق الحميدة والسلوك القويم، وتغني نهم وشغف العلماء والمصلحين للكتابة فيها.

غير أن الحاجة للأخلاق ظلت قائمة، ببقاء الصراع الأبدي بين الحق والباطل وبين الخير والشر، والمستجَد في الأمر هو ظهور بواعث أخرى في العصر الحديث دفعت بالدعاة والعلماء للكتابة من جديد في علم الأخلاق والسلوك، إذ لم تعد تكفهم خزانة التراث، أو على الأقل لم تعد تسد حاجتهم لأسباب متعددة منها:

1. اتساع وتضخم المكتبة الإسلامية.
2. الحاجة إلى الاختصار بسبب:
   أ. تعقد الحياة والشعور الزائد بقيمة الوقت.
   ب. قصور همة هذا الجيل ونفوره من كل ما هو طويل ومقعد.
   ج. كثرة مطالب الحياة وتكاليفها.

3. الحاجة إلى مخاطبة الناس بلغة عصرهم.
4. الحاجة إلى مراعاة نفسية ومنطق وأسلوب العصر.
5. مراعاة ما استجد من أمراض نفسية ومواطن الضعف
6. مراعاة تغير الفكر الديني والتصور الإسلامي.

وهكذا كتب العديد من علماء العصر الحديث في الأخلاق والآداب والمواعظ، كجزء من العملية الإصلاحية التقويمية للمجتمع الحديث.

مكانة الشيخ أبي الحسن الندوي العلمية والدعوية واهتمامه بالأخلاق:

الشيخ أبو الحسن الندوي علم بارز في ميدان الدعوة غني عن التعريف، قد ذاع صيته شرقا وغربا حتى صار اسمه عَلَما لبلدته لكنهو ومقترنا بكبار نبلاء ورموز الهند، لذلك سأتجنب التعريف به إلا بقدر ما نستبين به مكانته في الدعوة والعلم بين علماء القرن العشرين، ويتحقق ذلك بمجرد أن نسرد بعضا من أعماله وإنجازاته العظيمة في هذا المجال.

فمن بين إنجازاته العلمية والدعوية:

1. في الكتابة والتأليف: بدأ رحمه الله تعالى نشاط الكتابة والتأليف في سن مبكرة؛ فقد نشر له صاحب مجلة "المنار" الشيخ محمد رشيد رضا مقالته الأولى سنة (1931م) بعنوان " ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد" وكان سنه يتراوح بين السابعة عشر والثامنة عشر[i]، وخلال مسيرة حياته العلمية والدعوية ألف الشيخ رحمه الله كثيرا من المؤلفات بالغلة العربية والأردية، حيث بلغت مؤلفاته باللغة العربية والمترجمة إليها (169) كتابا[ii].
2. في التدريس: باشر التدريس سنة (1934م) بدار العلوم لندوة العلماء[iii]، أي في سن العشرين، فساهم بتطوير المناهج الدراسية بشكل ملحوظ إلى جانب جهوده في التكوين العلمي والأدبي.
3. في الدعوة: إن الإمام الشيخ أبا الحسن الندوي - رحمه الله - داعية بلا منازع، وبامتياز، ومن الطراز الرفيع أيضا، حمل هموم التجديد والإصلاح مذ كان شابا يافعا بدار العلوم لندوة العلماء عندما وضع أول كتاب مقرر في الدراسات الإسلامية لمرحلة

---

[i] ـــ انظر مقال: السيد أبو الحسن الندوي حياته وإسهاماته العلمية: شاكر عالم شوق، مجلة القسم العربي/ جامعة بنجاب، لاهور ـــ باكستان، العدد العشرون، 2013م، ص: 58 ـــ 59.

[ii] ـــ انظر كتاب: سماحة الداعة المجاهد الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي ومؤلفاته العربية: محمد طارق زبير الندوي، الناشر: رابطة الأدب الإسلامي العالمية/ مكتبة شبه القارة الهندية، ط. الأولى: (1417ه/1996م)

[iii] ـــ المرجع نفسه: 58.

الليسانس بجامعة عليكره عام (1938م)[i]، فانشغل عقله ووجدانه بهموم الأمة وقضاياها، يشهد على ذلك كثرة تأليفه في هذا الجانب، ورحلاته، وانخراطه في كثير من المناصب، وتأسيسه لعدد من المراكز والمؤسسات العلمية والدعوية.
وبالجملة فإن الشيخ – رحمة الله عليه – كان شعلة وقادة، إماما، عالما، داعية، مصلحا ومجددا، عاش للأمة أكثر مما عاش لنفسه، وخسرت الأمة بوفاته أكثر مما خسر أهله[ii]

الأخلاق عند أبي الحسن الندوي

مما سبق ذكره يتبين لنا أن الشيخ أبا الحسن الندوي أحد أعلام الدعاة إلى الإسلام بلا ريب ولا جدال. تنبئ عن ذلك كتبه ورسائله ومحاضراته ورحلاته ونشاطه المتعدد المتنوع في مختلف المجالس والمؤسسات.

فقد آتاه الله تعالى قلبا حيا، وعقلا وحكمة، وثقافة واسعة، وعاطفة جياشة وحبا للدين، وبخبرته الطويلة في مجال الدعوة وإصلاح المجتمع، استطاع الجمع بين التراث الغابر، والواقع الحاضر، بين القديم والجديد، ين العقل والنقل، وبين الدين والدنيا، وبين العلم والإيمان، وبين الثبات والتطور، وبين الأصالة والمعاصرة. فتحققت له درجة كبيرة من الاطلاع على روح الدين وتعاليمه، والوعي بجوهره وحقيقته، قلما نجدها عند غيره من الدعاة والمصلحين.

والحق أن الشيخ – رحمة الله عليه – كان بالغ الاهتمام بالبحث في قضايا ومشكلات المجتمعات الإسلامية وإنقاذها من الضلالة والضياع، وكان يؤمن إيمانا جازما بأن الدين الذي " يضع أهله في قفص من طقوس وتقاليد دينية، وفرائض وواجبات شرعية، إنه دين هزيل شاحب، قد فقد الحيوية، إنه دين لا جاذبية فيه، إن الدين وثيق الصلة بالحضارة، فلا بد أن يكون هناك انسجام وتجاوب بين ما يعتقده الإنسان ويؤمن به، وبين الحياة التي يعيشها...فالدين صبغة يصطبغ بها الإنسان من الرأس إلى القدم، تصطبغ به حياته. تصطبغ به أساليب فكره، تصطبغ به موازين القيم، تصطبغ به المقاييس التي يطبقها للحياة، تصطبغ به حياته المترلية وحيانه العائلية وحياته المدنية"[iii].

لكن وفق أية أسس يمكن وصل الدين بالحياة، وربط التدين بالواقع المعاش؟

بالاعتماد على مبدأ الرحمة والعدل الاجتماعي يبني الشيخ أبو الحسن الندوي – رحمه الله – أسس الحضارة المنشودة.

---

[i] ـــ المرجع نفسه: 59.

[ii] ـــ نظرا لقيمة الرجل ومكانته بين علماء الأمة كتب الكثيرون عن سيرته ومسيرته العلمية والدعوية، فأحيلك عليها لمزيد من الاطلاع والتفصيل.

[iii] ـــ أهمية الحضارة في تاريخ الأديان وحياة أصحابها: أبو الحسن علي الندوي، ص: 11 ـــ 13.

الدعوة لحضارة تتأسس على مبدأ الرحمة والعدل الاجتماعي:

قد شغلت مسألة بناءِ حضارةٍ قوميةٍ إسلاميةٍ أربابَ الفكر في القرن العشرين بالذات، إثر الاصطدام الحضاري بين الشرق والغرب، وعقب الإحساس بالفوات الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، "غير أن معاناة المجتمع الغربي الذي يشكو فراغا في الحياة، فراغا في القلب، فراغا في العقل، فراغا طمس معالم النور والحياة، وحول الإنسان إلى آلة، والعقل إلى شيطان مدمر، والمدنية جحيما [i]"، قد ألهمت بعض الدعاة المصلحين بما فيهم أبا الحسن الندوي، إلى البحث عن أسس بناء حضارة نقية من شوائب المدنية وخالية من المادية المدمرة.

وبالجملة: إن المجتمع الغربي لا يفتقد إلى أسباب التطور والتقدم العلمي، ولكنه يعاني من فراغ وجودِ أمةٍ تحمل رسالة، وتحمل سيرة، صاحبة بصيرة، صاحبة خلق"[ii]، تكون قدوة صالحة على مستوى الشعوب والأمم، فراغا لا يمكن أن تملأه إلا الحضارة الإسلامية التي تشبعت بنور الإيمان والقرآن، فكان لها أثرا طيبا في قلوب الأمم من قبل، واحتضنتها إلى صدرها، "لأنها كانت حضارة طبيعية عادلة عاقلة، مؤسسة على مبدأ المساواة الإنسانية ومبدأ الرحمة بها"[iii].

بهذه الفكرة صدح الشيخ أبو الحسن الندوي مدويا في الملتقيات والندوات والمؤتمرات وكل المجالس التي يحضرها داعيا المسلمين: "أن تكونوا جنة للعالم الإسلامي كله، بل للمجموعة البشرية كلها، وللحق والعدل، والإنصاف والمساواة، أينما وجدت، وأن تكونوا بحيث لا يقع ظلم في ناحية من نواحي العالم الإنساني، احتراما لكم...يحتاج العالم كله إلى جماعة تحتضن الحق وتتألم للإنسانية، وتعيش في حب البشرية"[iv].

ولا يمكن أن تتحقق هذه القيادة الإنسانية إلا بحضارة " قوية عصرية، مؤسسة على الإيمان والأخلاق والتقوى، والرحمة والعدل في جانب، وعلى القوة والإنتاج، والرفاهية، وحب الابتكار في جانب آخر"[v].

---

[i] ــ الإنسانية تنتظركم أيها العرب: أبو الحسن الندوي، ط. المجمع الإسلامي العلمي ، لكنهو ــ الهند ــ 1420هــ / 1999م.

[ii] ــ أزمة هذا العصر الحقيقية: أبو الحسن الندوي، محاضرة ألقية في قاعة جامعة الإمارات العربية، (في مدينة العين) في 15/ صفر 1404ه، الموافق لــ 19 نوفمبر 1983م.

[iii] ــ أهمية الحضارة في تاريخ الأديان وحياة أصحابها: أبو الحسن علي الندوي، ص: 14 ــ 15.

[iv] ــ الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية: أبو الحسن الندوي، ط. المجمع الإسلامي العلمي ، لكنهو ــ الهند ــ الطبعة الأولى (1424هــ / 2003م)، ص: 29.

[v] ــ الدعوة الإسلامية في العصر الحاضر: جبهاتها الحاسمة ومجالاتها الرئيسية: أبو الحسن علي الندوي، الناشر: المجمع الإسلامي العلمي (ندوة العلماء)، لكنهو ــ الهند ــ (1408ه/1987م)، ص: 18.

" حضارة حكيمة عادلة، حضارة مؤسسة على توحيد الله تبارك وتعالى والإيمان به، وعلى ذكر الله تعالى، واستحضار قدرته، واستحضار الآخرة، والإيمان بأن الآخرة خير من الأولى، مؤسسة على العدل الاجتماعي، وعلى الاحترام للإنسانية، والرحمة بها، وعلى الجمع بين الواجبات والحقوق في وقت واحد، والأخذ والعطاء، والإفادة والاستفادة في حين واحد، وعلى الاعتراف بقيمة الإنسان أيا كان وأينما كان..."[i].

خطوات الإصلاح الأخلاقي في الهند كما يراها الشيخ أبو الحسن الندوي:

— الإصلاح بالأسلوب السلمي: فقد أيد الشيخ أبو الحسن الندوي أسلوب الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي (Ahmad Sirhindi) (971 -1034هـ = 1563 - 1625م)[ii] في التغيير بالتركيز على فكرة الإصلاح والنصيحة، مع التجرد من كل ما هو عند غيره من مال ونشب وعز وجاه، حيث إن هذا الأسلوب من شأنه أن يورث صاحبه قوة النفس والحرية ومعاني الإنسانية السامية، فينقلب الحساد وممن يضمر له العداء أقزاما لا يتطاولون إلى إنسانيته الرفيعة ورجولته الشامخة، ويخضعون له كما يخضع كل صغير للكبير، وكل فقير للغني، ويتضاءلون أمامه كما تتضاءل الكثبان والربى أمام الطود الشامخ والجبل الناطح للسحاب[iii].

هكذا استطاع الشيخ السرهندي أن ينفذ بروحانيته في قلوب كبار الوزراء والمستشارين في الدولة، "ويسيطر على عقولهم، وحتى كان يملي عليهم الأحكام كما يملي ملك البلاد، فيمتثلون أمره وينفذون رغباته، ويوجه الدولة وهو قاعد في زاويته بسرهند توجيها دينيا بواسطة تلاميذه الروحيين وخدمته المخلصين الذين يديرون دفة الحكومة"[iv].

بهذا الأسلوب السلمي الذي ينبذ العنف، استطاع رجل وحيد "أن يقضي على عقيدة وحدة الوجود التي تغلغلت في أحشاء التصوف، والأدب والشعر، وعلى فكرة استقلال الطرق عن الشريعة، وعلى كثير من العقائد والأفكار والعادات التي تسربت إلى المسلمين من الجاهليات المختلفة"[v].

---

[i] ـــ أهمية الحضارة في تاريخ الأديان وحياة أصحابها: مصدر سابق، ص: 14.

[ii] ـــ الفاروقي السرهندي: من علماء الهند، الداعين إلى نبذ البدع، ويلقب بمجدد الألف الثاني، نسبته إلى (سهرند) ومعناها غابة الأسد، بين دهلي ولاهور، ومولده ووفاته فيها. تفقه وحج، واشتغل بالتدريس، وحبسه السلطان (جهانگير) قيل: لامتناعه عن السجود تعظيما له، وأطلق بعد ثلاث سنوات، فعاد الى سهرند. من مؤلفاته رسائل في (المبدأ والمعاد) و (إثبات النبوة) و (المعارف اللدنية) و (ردّ الشّيعة).الأعلام: الزركلي، ج143/1.

[iii] ـــ انظر الدعوة الإسلامية في الهند: أبو الحسن الندوي، ص: 12 وما بعدها.

[iv] ـــ المصدر نفسه: ص: 18.

[v] ـــ المصدر نفسه: ص: 21.

— **نشر العلم الصحيح:** وإذاعة مصادر الدين الأولى، وتأليف كتب دسمة قوية مبتكرة تمهد العقول والنفوس لإحداث التغيير كما فعل الإمام ولي الله الدهلوي وتلاميذه، حيث "نشروا علم الحديث وشمروا عن ساق الجد في نصر الدين ومحاربة البدع، والدعوة إلى الكتاب والسنة وتزكية النفوس، حتى نفقت سوق الحديث وقامت دولة العلم، واستعدت النفوس للنصر المؤزر للدين"[i].

— **إقامة المعاهد لخدمة الدين:** فبعد الغزو السياسي والثقافي والديني إبان الاحتلال الإنجليزي وانقطاع كل الأمل في كل ثورة أو انقلاب عسكري من أجل تغيير الواقع المر، الذي جعل الجيل الجديد ينسلخ عن الإسلام انسلاخا كليا، ويثور على الحضارة الإسلامية والديانة الإسلامية، اتجه أسلوب العلماء إلى "فتح المدارس العربية والمعاهد الدينية، فأنشأوا هذه المعاقل ليحتفظوا ببقايا الحياة الإسلامية وليكافحوا تيار الغرب المدني والثقافي، ويخرجوا منها دعاة الإسلام والوعاظ والمرشدين وعلماء الدين، ليحفظوا على المسلمين دينهم ويعيدوا الثقة إلى نفوسهم، فأسس مولانا محمد قاسم النانوتوي (1297ه) (مدرسة ديوبند) سنة 1283هـ، وأسس مولانا سعادت علي و(مدرسة مظاهر العلوم) في سهارنفور في نفس ذلك العام، ثم تواترت المدارس الدينية في أنحاء الهند"[ii]. فكان لها تأثيرا عظيما في المجتمع الهندي بفضل قيامها على أساس الزهد والتضحية والجهاد.

— **المزاوجة بين العلوم الدينية والمدنية:** لما رأى بعض العلماء أن الهوة قد اتسعت جدا بين التعليم المدني والتعليم الديني، وحدثت بين المتخرجين من المدارس الدينية والمتخرجين من المدارس المدنية فجوة وجوفة تتسعان على مر الأيام...ولكل أمة لغة خاصة وثقافة خاصة ونفسية متميزة لا يفهمها الآخر...وقد أصبح هذا العصر يطلب من العالم الديني ثقافة أوسع، وأسلوبا للدعوة أرقى وأقرب إلى نفسية هذا العصر، واطلاعا على ما تجدد من العلوم والأفكار والمسائل والحاجات، أنشأ القائمون على ندوة العلماء (مدرسة دار العلوم) سنة 1326ه ورسالتها الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع، والتصلب في العقيدة والمبادئ، والتوسع في الجزئيات والوسائل، فتخرج منها علماء ومؤلفين كانوا ملتقى الثقافتين وبرزخا بين الطائفتين[iii].

— **الدعوة والاتصال الجماهيري:** يقول الشيخ أبو الحسن الندوي: " إن المجتمع هو الغصن الكريم الذي يقوم عليه عش نظام صالح فإذا كنتم تريدون إقامة هذا

---

[i] ـــ المصدر السابق: ص 24 ـــ 25.

[ii] ـــ: المصدر نفسه : ص: 31.

[iii] ـــ المصدر نفسه: ص: 34.

العش، فلا بد أن يكون ذلك الغصن موضع عنايتكم ورعايتكم "[i] فحيث أن التعليم وحده لا يكفي، والاعتزال لا يفيد، والانزواء لا يصح، فلا بد إذن من الاتصال بطبقات الشعب لإحداث التغيير والإصلاح، لأنها لا تشعر بمرضها وفقرها في الدين، ويجب أن يبتدأ بغرس الإيمان في القلوب ومبادئ الإسلام ثم الأركان والعلم والذكر، مع مراعاة الآداب التي تقوي هذه الدعوة وتحفظها من الفتن، منها إكرام كل مسلم، ومنها عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الداعي وترك ما لا يعنيه، والقارئ لمقال الشيخ أبي الحسن الندوي (حركة التبليغ وصاحب دعوتها مولانا محمد إلياس)[ii]، يستشعر تأثره البليغ بهذه الدعوة وصاحبها، حتى أن العبارات تنبعث صارخة، قوية من قلبه ووجدانه، بصورة لا نعهدها في أي حديث أو مقال آخر له، وحسب قراءتنا فإن هذه الدعوة قد أثرت فيه من جانبين:

الأول: النتائج الإيجابية التي حققتها حركة التبليغ؛ حيث حولت ألوفا من الناس واللصوص والقتلة إلى أمناء على الأموال والأعراض، يعفون على المحارم ويقبلون على العلم في تواضع وحفاوة وضيافة ودماثة وخلق وإيثار على النفس وألفة ومودة وعزوف عن الشهوات وصبرا على المشاق وإيمانا وصلاح، كل ذلك من غير جمعية، ولا جامعة، ولا دعاية، ولا صحيفة، ولا اكتتاب.

الثاني: شخصية مولانا محمد إلياس، وتأثيرها كان من جونب ثلاث:

1. يقين مولانا محمد إلياس وإيمانه الراسخ بحقائق الإسلام الذي كان يندفع به للتفاني في الدعوة وتحمل كل أنواع المشاق من أجلها.
2. حبه للناس وتألمه وتوجعه وقلقه الدائم من حالة التيه والغفلة التي يعيشون فيها.
3. طريقته في التغيير: حيث عرف أن الناس لا يتعلمون الدين ولا يتغيرون في الأخلاق إلا إذا خرجوا من محيطهم الفاسد الذي يعيشون فيه، فدعاهم إلى الانقطاع عن أشغالهم والخروج عن أوطانهم لمدة محدودة قد تكون شهرا وقد تكون أكثر من ذلك، فكانت النتيجة أن تغيرت أخلاقهم، وتحسنت أحوالهم، واشتعلت عواطفهم الدينية، وانتشرت الدعوة في الهند وباكستان من غير نفقات باهظة ومساعدات مالية ونظم إدارية.

الخاتمة:

إن الدين ليس قلقلة لسان أو بعض الأفعال تؤدى في اليوم والليلة، أو لباسا يضفي عليك مظهر الخاشع المتعبد، إنما هو جوهر كل الأعمال والتصرفات، ينبع من القلب

---

[i] ـــ الطريق إلى السعادة والقيادة للدول والمجتمعات الإسلامية: أبو الحسن الندوي، ص: 68.

[ii] ـــ المصدر نفسه.

وينطبع في كل حركات الأعضاء، قال تعالى:﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الذين هم يراؤون وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (الماعون/4-7)، ﴿ إن الصلاة تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت/45)

فناكث العهد مثلا لا يمكن أن يكون عنصرا بناء في المجتمع بل هو معول هدم، أو جرثومة تؤذي وتفسد ما حولها، فلا يمكنك أن تعول عليه لا في صغيرة ولا في كبيرة

والكذاب مثله، والمنافق، وذو الوجوه، والمزور، والغاش، والحسود، والعاق لوالديه، والخائن و...و...و....الخ

فيجب أن نولي اهتماما كبيرا بتغيير النفس وإصلاحها، خصوصاً ونحن نواجه كثيرا من المفاسد؛ فهناك مجتمع مضطرب، وتضليل خارجي وإعلاميّ مركز، وأحقاد، وطائفيات، وأنانيات...فالمجتمع الذي ليست له مبادئ وأخلاق، ليست له مرتكزات حضارية، ولا يمكنه أن يقيم حضارة، بل إن التاريخ علمنا أن زوال الحضارات يبدأ بانهيار صرح الأخلاق.

لقد استوعب الشيخ أبو الحسن الندوي ــــ رحمه الله ــــ ببصيرته الحادة وعلمه الثاقب هذه الحقيقة؛ (حقيقة البعد الأخلاقي للدين)، فلهج بها لسانه في كل مجلس وارتفع بها صوته في محفل، ولا زال كذلك إلى أن توفاه الله إليه، فلم يشغل نفسه كثيرا بالفروع الفقهية والمسائل الاختلافية فيها، لعلمه بأن الانشغال بالجزئيات لا يؤسس حضارة، بل يجعل المرء يعالج همومه في أجواء الحلول المؤقتة والموضعية أو الآنية.

هذه النظرة ربما يستصغرها بعض الناس، لكنها مهمة للغاية، إذ تجد أصحاب الفهم السطحي للدين، يعيشون نوعا من الفوضى في المفاهيم والتطبيقات، ويتيهون في فوضى الجزئيات الحياتية الكثيرة، لأنهم لا يملكون أسسا عامة تضبط لهم أهدافهم، وتبين لهم صحة أو خطأ تفكيرهم، لذلك يجب أن نشهد بأن هذا الفهم المعمق للدين الذي ينبني على البعد الأخلاقي، هو أرقى وأهم مستوى في تقييم الفهم والحكم عليه بالنسبة لدرجات العقل ومراتبه الفكرية.

هذه الدائرة (الأخلاقية) يمكنها أن تشمل كل المجتمعات الإنسانية؛ مسلمة ومسيحية ويهودية وبوذية...وغيرها، مهما تنوعت مجالاتها الجزئية التي تختلف باختلاف المسائل الفكرية والأهداف الاجتماعية، ويمكن أن نؤسس بها الميزان العام أو الكلي لجميع الدوائر الفكرية الصغرى المختلفة، فتصبح القيد العام للتصرفات والعلاقات البيمجتمعية، والبيمجتعاتية، و بالتالي يمكن أن نستوقف النزاعات والخلافات المبنية على التفكير المفصلي ذو النزعة المهيمنة.

فإن قلت: هذا كلام جيد ومنطقي ولكنه عام!! فهلا شرحت لنا أسس الدائرة الأخلاقية التي نحتكم إليها في مجمل القضايا والمعالجات؟

قلت: للأخلاق مفهوم ضيق يطلق على (الأخلاق الحميدة من صدق، ووفاء، وتعاون، وحلم وبِرّ، وعطف...الخ)

ومفهوم واسع يشمل(كل سلوك ينبثق من مبدأ العدل أو الرحمة).

وطبقاً للمفهوم الضيق تأتي مرتبة الأخلاق بعد كثير من الواجبات الاعتقادية والعملية، بينما تكون في مفهومها الواسع منطلقا لكل الأعمال، حتى الايمان بالله سبحانه وتعالى وتوحيده. فإذا كان قلب المرء مريضا فلا اعتقاد ولا عملٌ يستقيم ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً ﴾ (البقرة/10)، ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور ﴾ (الحج/46)، وبالتالي فإن الدائرة الأخلاقية تتأسس على مبدأي **العدل والرحمة** الذين أشرنا إليهما آنفا في حديثنا عن أسس بناء الحضارة في دعوة الشيخ أبي الحسن الندوي، فأكثر المسائل الجزئية المفصلية يتحكم فيها مبدأ العدل أو الرحمة وقليل منها يدخل في دائرة مصالح العباد، أو دائرة الحكمة، يقول ابن القيم: " الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ; فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث ; فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل[i].

وفق هذا التصور الذي دعا إليه الشيخ أبو الحسن الندوي ـــ رحمة الله عليه ـــ وكرس حياته كلها من أجله، ندعو من جديد إلى ثورة أخلاقية قوامها العدل والرحمة ووسيلتها الوسائط التكنولوجية العصرية[ii]، من أجل بناء حضارة ، عبر عنها الشيخ ـــ رحمة الله عليه ـــ بقوله: حضارة تحقق السعادة والقيادة.

---

[i] ـــ إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر الزرعي، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ـــ لبنان ـــ الطبعة الأولى (1411هـ/1991م) ج12/3.

[ii] ـــ إذا كانت الثورات: في عصر الانتاج الكلامي، ركيزتها الكلام والرسائل الشفهية، وفي عصر الإنتاج الخطي، ركيزتها الرسائل المخطوطة، وفي عصر الإنتاج المطبوع، ركيزته الكتاب والمجلات والجرائد، وفي عصر الإنتاج السمعي البصري، ركيزتها الصورة المتمثلة في السينما والتلفزيون والكمبيوتر، فإن الثورات ـــ بكل أصنافها ـــ في عصرنا اليوم، ترتكز على الوسائط المتعددة "Multimedia". انظر: محمد الشرقاوي: نزول الوحي بالقرآن ثورة اجتماعية ودينية، مركز الدراسات العصبية القبلية،

.2007-05-16

http://m.ahewar.org/s.asp?aid=382380&r=0&cid=0&u=&i=0&q

أبو الحسن علي الحسني النّدُوي[i] ومنهجه في التفكير والإصلاح

أ/ د. عبد الوهاب فرحات
أستاذ العقيدة والتصوف الإسلامى
جامعة الامير عبدالقادر للعلوم الإسلامية، الجزائر

تمهيد:

يعد أبو الحسن الندوي من كبار العلماء والمفكرين الإسلاميين في شبه القارة الهندية الذين أسهموا بجهد مشكور في تجديد الفكر الإسلامي وإحيائه، وتحريره من الجمود الذي شلّ حركته،وذهب بروائه و نضارته.

شهدت على ذلك كتبه وبحوثه، ورسائله التي سارت بذكرها الركبان وبلغت ما بلغ إليه الليل و النهار، و انتفع بها العرب و العجم، و الكبير و الصغير، و العام و الخاص.

وتمتاز كتبه بخصيصة قلما وجدت في كتب غيره من المؤلفين وهي غزارة المادة العلمية، و بلاغة القلم وصناعة الإنشاء حدت بكبير قادة الإخوان و مربيهم في سوريا أعني الدكتور "مصطفى السباعي" أن يقول عنها: " وكتبه ومؤلفاته تتميز بالدقة العلمية، وبالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي، ووسائل معالجتها، عدا ما يمتاز به من روح مشرقة وخلق نبوي كريم، و معيشة تذكرك

---

[i] – انظر في ترجمته: يوسف القرضاوي، الندوي كما عرفته، ط1، دمشق، دار القلم 2001م، نذر الحفيظ الندوي الأزهري، أبو الحسن علي الحسني الندوي الامام و المفكر الداعية الأديب، ط2، دمشق: دار ابن كثير 1999م، و أوفى ترجمة عن حياته ما كتبه هو عن نفسه في كتابه في مسيرة الحياة و هو عبارة عن سيرة ذاتية له، انظر: أبو الحسن الندوي، في مسيرة الحياة، ط1، دمشق: دار القلم 1987م، و هو في ثلاثة أجزاء.

بعلماء السلف الصالح في زهده و تقشفه و عبادته و كرامة نفسه"[i] وهي شهادة لها قيمتها من رجل خبر الحياة كالسباعي.

والحقيقة التي لا جدال فيها أن الراحل أثرى المكتبة الإسلامية المعاصرة بمؤلفاته القيمة، ودراساته الرصينة، ابتداء من كتابه الخالد "ماذا خسر العالم الإسلامي بانحطاط المسلمين"[ii] الذي نال شهرة وصيتا في العالم الإسلامي، وكان رسوله الأول إلى العالم العربي، ورزق من القبول في الأوساط العلمية مبلغا عظيما فطبع عشرات الطبعات وترجم إلى معظم اللغات الأجنبية.

ولد أبو الحسن علي سنة 1914 م، ببلدة "رائي بريلي" في الهند، وكان رحيله عن الدنيا في 31 ديسمبر 1999، وفيما بين هذين التاريخين كان رحلة حياته التي خلفت آثاره الخالدة ومآثره التالدة.

منهجه في التفكير والإصلاح: ([iii])

غني عن البيان أن نشير إلى أن العصر الذي ولد فيه سماحة الأستاذ أبو الحسن الندوي، كان بداية القرن العشرين في الحقبة التي شهدت الصراع بين الفكرة الغربية والفكرة الإسلامية حيث امتد أوار هذا الصراع إلى سائر بقاع العالم الإسلامي.

وسط هذا الخضم الزاخر جاء الندوي كتجسيد للحديث الشريف "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"[iv]، فدخل معترك هذا التحدي الحاسم

---

[i]- د-مصطفى السباعي، مقدمة رجال الفكر و الدعوة في الإسلام، لأبي الحسن الندوي، ط9، الكويت: دار القلم 1993م، ج1، ص5.

[ii]- هو أشهر مؤلفات الشيخ أبي الحسن وأوسعها انتشارا في العالم الإسلامي و يذكر الندوي نفسه أن هذا الكتاب قد طبع ثلاثة عشر طبعة شرعية و هناك طبعات غير شرعية و قد طبع من آخر طبعة شرعية نحو تسعين ألف نسخة دفعة واحدة، و هذا الكلام الذي يقوله الندوي مضى عليه الآن أكثر من ربع قرن؟! انظر: لقاء مع العلامة أبي الحسن الندوي، مجلة الرائد الهندية، العددان 01 و 02 السنة الرابعة و العشرين الموافق 01 –16 جويلية 1982م.

[iii] – ذكر الكاتب قبل هذا نبذة عن حياة الشيخ الندوي ونبوغه في العلم والأدب ورغم أن ما ذكر يحمل قيمة علمية إلا أننا حذفناه لتوفر هذه المعلومات في كتب ألفت في سيرة الشيخ الندوي

[iv]-- أخرجه أبو داود من طريق أبي هريرة في أول كتاب الملاحم، و قال محمد آبادي في عون المعبود و "حديث أبي هريرة سكت عنه المنذري، و قال السيوطي في مرقاة الصعود، اتفق الحفاظ على تصحيحه منهم الحاكم في المستدرك و

وخاض غماره خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور، مقتحما ميدان الفلسفة حينا ومجال التاريخ حينا آخر مناقشا لقضايا الفقه والاجتهاد، والتجديد أحيانا أخرى.

واقفا ندّا للتيارات التغريبية على مختلف منازعها ومشاربها داخليها وخارجيها كاشفا الغطاء على نقاط ضعفها وهوالها بيراع حاذق ولسان فصيح.

طموحه في كل ذلك ينصب على إبقاء أفكار الإسلام وأحكامه ونظرياته حيّة غضة تتحكم في سلوكيات الناس وتوجه حياقم.

وعى الندوي جيدا المرحلة التي تعيشها أمته، وأدرك المسؤولية الملقاة على عاتقه، والتي لا مجال للنكوص عنها أو التنكب لها ولم يغفل -بحكم انشغاله في حركة المجتمع الثقافية و الاجتماعية- الصعوبات التي تكتنف عملية إعادة البناء الفكري والثقافي في الإسلام.

وما يحتاجه من تمييز بين الثابت والمتغير في الفكر الإسلامي و بخاصة في العملية الاجتهادية، وما يتطلبه أيضا من استيعاب شامل للواقع الفكري الذي تعيشه الأمة سواء من حيث المحتوى أو المنهج، ولم يكتف الشيخ بالمناداة بذلك بل بادر بنفسه لتشخيص الداء وإبراز مواطن الخلل ومكمن الفراغ، وحلّل الأسباب التي أدت إلى كل ذلك بجرأة وموضوعية.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن المشروع الإصلاحي وإن شئت قلت التجديدي الذي رامه الندوي كان يهدف بالأساس إلى إحياء واستنهاض، إحياء لما اندثر أو كاد من مقومات الأمة،وخصائصها الذاتية، ومعاقد الطرافة والابتكار فيها، واستنهاض لطاقاتها المعطلة وهمم أبنائها التي أوشكت على الاندثار تحت ركام و طغيان الروح الانهزامية.

ولعل أهم سمات المشروع الفكري للندوي أنه يستلهم عناصره ومكوناته من منهل القرآن الكريم، و السنة النبوية المطهرة وحياة الصحابة -رضى الله عنهم- ويصبو إلى بناء أمة واحدة تفرض وصايتها على العالم وحسبتها عليه، أمة قوية مرهوبة الجانب توجه الركب الإنساني إلى شاطيء الأمان ومرافيء النجاة.

البيهقي في المدخل، و ممن نص على صحته من المتأخرين ابن حجر، انظر: محمد شمس الحق آبادي، عون المعبود في شرح سنن أبي داوود، تح: عبد الرحمان محمد عثمان، المدينة المنورة: المطبعة السلفية 1969م، ج11، ص 396.

كما حرص الندوي في مشروعه على عرض الإسلام بما يتماشى مع متطلبات العصر، مبينا صورته الشاملة غير المجزأة، صورته الناصعة التي كانت عند الرعيل الأول من السّلف مستبعدا كل الشوائب التي علقت به عبر مخلفات القرون.

ويقوم منهج أبي الحسن الندوي في الاصلاح والدعوة على الأسس التالية:

الأساس الأول: عقيدة التوحيد النقية الواضحة: وبذل الجهد من أجل تعميقها في القلوب وترسيخها في النفوس حتى يتسنى مواجهة المادية الطاغية التي أعادت اللات و العزى إلى الحرم.

الأساس الثاني: إعادة الثقة بالرسالة المحمدية: وخلودها وبيان حاجة الناس إليها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وترسيخ جذور هذه العقيدة المهمة في سويداء النفوس.

الأساس الثالث: البناء لا الهدم والجمع لا التفريق: أما طريقته –رحمه الله– في معالجة الخلافات التي تنشأ بين المسلمين نتيجة الطبائع المختلفة والأذهان المتفاوتة فهو يستند إلى قاعدة إحسان الظن بهم، والتماس العذر لهم متمسكا بقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [i] و كان الندوي أميل بطبعه إلى جمع الصفوف المتحاربة،وتوحيد الجماعات المتنافرة يبغض الفرقة والتنابز والتدابر، يسعى جهده إلى ما يحقق مصلحة الإسلام الاجتماعية.

الأساس الرابع: التركيز على وصول الايمان إلى الحكام: بعدما سبر الندوي الظروف التي تعيش فيها الدعوة الإسلامية خرج بمنهج أفضل وأصلح للدعاة والعلماء وهو "التركيز على وصول الإيمان إلى الحكام، بدل التركيز على وصول جماعة مؤمنة إلى كراسي الحكم"[ii] و مما ساعد على نضوج هذه الفكرة تجربة الإمام "أحمد السرهندي"[i] الذي غير الوضع بهذا المنهج السليم و أحدث انقلابا سلميا طوعيا، وكانت تجربته تجربة ناجحة.

---

[i]– الحشر، الآية: 10

[ii]– أبو الحسن علي الحسني الندوي، نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان، ط2، بيروت، مؤسسة الرسالة 1987م، ص 11.

ولقد اعتنى سماحة الأستاذ الندوي بهذا المنهج ونصح به أعلام الصحوة الإسلامية، والجماعات و الأحزاب الإسلامية في العالم كله بالأخذ به، وبخاصة في هذه المرحلة الدقيقة التي تمر بها الأمة الإسلامية بخاصة، كما دعاهم إلى تجنب الطرق والمناهج التي تؤدي إلى التناحر، والتشاجر، والتطرف التي تؤدي لا قدر الله إلى اجتثاث شجرة الاسلام كلها لا سمح الله.

الأساس الخامس: محاربة اليأس والتشاؤم: وبعث الأمل والرجاء، والثقة والاعتزاز وهو في هذه الحيثية متفق مع الشيخ "سعيد النورسي"[ii] الذي رأى بأن حياة اليأس التي يعيش فيها المسلمون اليوم هي أحد العلل التي جعلت المسلمين يعيشون على أعتاب القرون الوسطى في الوقت الذي تقدم فيه غيرهم من الأمم و بخاصة الأوربيين و لعل مبعث هذا الأمل الذي يختلج في صدر الندوي ناشيء من يقينه بأن المستقبل لن يكون إلا لهذا الدين ،وأن الحكم في الأخير لن يكون إلا لحقائق وهدايات القرآن ذلك لأن هذا الكتاب يحتوي في ذاته على استعداد وقابلية تدفع أهله إلى مراقي التقدم المادي والمعنوي معا ، ولعله بسبب هذه الخصيصة أحب أدب إقبال لأنه وجده مفعم بمعاني الحب والطموح والإيمان.[iii]

الأساس السادس: إيجاد الرباط المقدس بين الدين و العلم: ذلك لأن مهمة الدين تحديد الغايات، أما مهمة العلم فهي التزويد بالوسائل ولعل الانفصام النكد الذي تتخبط فيه الحضارة الغربية الآن ناتج في الأساس من القطيعة بين العلم والدين، بين التقنية و الحكمة.

والمتأمل المنصف في بنية الحضارة الغربية المعاصرة يدرك أن السر الأعظم وراء خوائها هو بسبب غياب الهدف والمعنى في حياتها و هذا ما كان ملحظا لشاعر الإسلام و فيلسوفه "محمد إقبال" حينما قال: " إن هذه الحضارة سوف تنتحر بخنجرها لأن عشا قد بني على

---

[i]– من أعظم رجال الإصلاح و التجديد في بلاد الهند الإسلامية ولد سنة (971ه) و توفي عام (1034ه) من أهم مؤلفاته: "المكتوبات" و "اثبات النبوة" و كلاهما مطبوع أوفى ترجمة له ما كتبه الإمام الندوي، في سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الإمام السرهندي) حياته و أعماله، ط1 الكويت دار القلم 1980م، ج3.

[ii]– سعيد النورسي، الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط1، اسطنبول: سوزلر للنشر 1409ه، ص 32

[iii]– أبو الحسن علي الحسني الندوي، روائع إقبال، ط1، باتنة: دار الشهاب 1986م، ص 1.

غصن ضعيف لا خلود أبدي له "[i] فلا غرو أن نرى شيخنا يربط مصير أحدهما بالآخر كما نجده في مواضع كثيرة يفخم من شأن العلم، ويحث على ضرورة الانتفاع بالعقل حتى في القضايا الدينية كما يدعو إلى النظر في الآفاق والأنفس.

الأساس السابع: الجمع بين الدين والدنيا: فإذا كانت بعض المدارس الصوفية تؤمن بضرورة العزلة على المجتمع وترى الحياة الحقة في العيش في الأديرة والزوايا فإن الندوي كان يدعو إلى العبادة و العمل المنتج معا، و لقد تجلى هذا المنحى عند شيخنا في كتابه القيم "ربانية لا رهبانية" حيث أكد في كتابه هذا أن الربانية دعوة و جهاد ،و حب وعاطفة، ودين و دولة، ومصحف وسيف، الربانية كما يراها الندوي لا تدعو إلى التواكل و التكاسل والجمود، بل إنها تحول التراب تبرا والحصى جوهرا، والجماد حياناميا، وهي السر وراء نجاح الجهود الإصلاحية التي عرفتها الأمة عبر تاريخها الطويل، و كأن الندوي يحذو حذو أبي الحسن الشاذلي الذي كان يقول: " إن هذا الطريق ليس بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة ، وإنما هي بالصبر على الأوامر، واليقين في الهداية"[ii] ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.[iii]

و يقول أبو العباس المرسي لمريديه: " عليكم بالسبب،وليجعل أحدكم مكوكه سبحته، أو تحريك أصابعه في الخياطة أو الظفر سبحته".[iv]

و إن الأمة الإسلامية في أمس الحاجة إلى هذا النموذج الذي يجمع بين الدين والدنيا، وبين النظر و العمل، نموذج الصوفي الذي يعمل ونموذج العامل الذي يتصوف.

ذلك لأن الانشغال بالدنيا وحدها أغرق الغرب في حمأة الجحود و القنوط، ودفعه إلى استعمار الشعوب، و إذا تكشفت النفس الغربية عن شيء لاشك فيه، فإنما تتكشف عن قلق لا يعرف للحياة معنى ولا غاية.

---

[i]- أحمد معوض، العلامة محمد إقبال حياته و آثاره، ط1: القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب 1980م، ص 56.

[ii]- ابن عياد ،المفاخر العلية في المآثر الشاذلية، ط القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي و شركاؤه 1961م، ص 88

[iii]- السجدة، الآية: 24.

[iv]- عبد الوهاب فرحات، أبو الحسن الشاذلي حياته ومدرسته في التصوف، ط1: القاهرة، مدبولي2003م، ص 108.

كما أن الانصراف إلى الآخرة وحدها، والإعراض عن الدنيا بالكلية قد هبط بالشرق إلى المستنقع الآسن و الدرك الهابط الذي جر عليه نكبات الاستعمار والاستغلال.

على هذه الأسس المكينة بنى الندوي منهجه في الدعوة والإصلاح،وبجانب هذا المنهج اهتم —رحمه الله— بالحكمة والموعظة الحسنة مع المدعوين متأسيا بقوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾.[i]

فكان —رحمه الله— كالطبيب مع المرضى وهو يشخص لهم المرض، ويدرس طبيعته ويختار لهم الدواء حسب المرض وطبيعة المريض، و لم يكن ذلك الطبيب الذي لا يعرف إلا استعمال إبرة واحدة ويطعمها كل من يراجعه هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فهو يواجه المرض ويحاربه ولا يحارب المريض.

كما لم يغفل العلامة الندوي أهمية الأدب ودوره في تنمية شخصية المسلم، وتنمية شعوره بالانتماء إلى الإسلام و بعث شعور العزة و الكرامة فيه و بتاريخ أسلافه الصالحين.

وكان من منن الله عليه أن رزقه الله قلما سيالا في الكتابات الإسلامية، واقتدارا على اللغة العربية كأهلها فقد كان يجري في الكتابة كما يجري الماء النمير من غير أن يظهر عليه شيء من الكلفة، أو التصنع التي تصرف الكاتب عن الانسياق مع الفكرة، أو تصرف القاريء على مجاراة الموضوع.

ومن هنا فلا غرابة أن نجد الندوي من أول المنتبهين لإثارة قضية الأدب الإسلامي ،ودوره في معركة الإسلام الحاسمة في العصر الحاضر إذا أردنا أن يظل الإسلام إحدى القوى الروحية الكبرى الموجهة في المستقبل.

آثاره العلمية:

كان النشاط العلمي والتأليفي يشكل جزءا مهما من رسالة العلامة الندوي الإصلاحية، شأنه في ذلك شأن حكيم الإسلام "ولي الله الدهلوي" حيث ترك ذخيرة من الكتب هي ذريته الباقية لأنه تزوج و لم يعقب نسلا.

---

[i]- النحل: الآية: 125.

وفي كتابات مولانا أبي الحسن يقترن جمال التعبير، و روعة العرض مع خصوبة المادة وعمق النظرة ،و سعة الإطلاع، فكانت كتبه مزيجا من العلم و الأدب و الحكمة تشبع العقل و تروي العاطفة.

و أكثر ما كان يبدو هذا التوفيق في كتابه "رجال الفكر و الدعوة في الإسلام" حيث يحدثنا فيه عن أصحاب القلوب الحية من أمثال "عمر بن عبد العزيز" ،و" الحسن البصري"، و"الغزالي" إلى "الجيلاني"، و "جلال الدين الرومي"، و"ابن تيمية" ، و"السرهندي"، و"الإمام الدهلوي" واستطاع الرجل بقلمه البليغ أن يستعرض أفكارهم الإصلاحية ومآثرهم التجديدية، ويبين كيف أدوا دورهم في حماية حمى الإسلام في ظروف دقيقة ولحظات عصيبة من التاريخ.

ويعتبر هذا الكتاب بالإضافة إلى كتبه الأخرى "ربانية لا رهبانية"،و"روائع إقبال"، و"إذا هبت ريح الإيمان" تجديدا في كتابة السير و التراجم، وفتحا في هذا الباب وعسى أن يقيّض الله من يتابع خطوات الشيخ ويقتفي أثره في هذا السبيل.

أما كتابه في "السيرة النبوية" فهو يعد من أعظم كتب السيرة جمالا وروعة، و إثارة لحب النبي –صلى الله عليه و سلم- وإجلاله وإقناع الناس بنبوته، وصدقه،وكونه أفضل الرسل –عليهم السلام- وأجدرهم بالإقتداء و الإتباع، والكتاب يسد ثغرة عانت منها المكتبة الإسلامية المعاصرة حيث نجد أن التأليف في مناقب هذه الشخصية العظيمة قد انتقص إلى حد مدهش ينذر بالخطر على كيان المسلمين الديني وبخاصة في هذه الفترة التي فشا فيها تقليد الغرب، وعمت هيمنة الحضارة اللادينية مما أوجد في عقول النشء مركب النقص، و أنشأ عقدة الشعور بالدون كما هو الحال اليوم –و هذا و لا شك- نتيجة طبيعية كما جرت على ذلك سنن التاريخ إذا ركب في طبيعة البشر كما يقول المفكر المسلم محمد أسد:" أن الأمم و المدنيات التي هي أخصب من الناحية السياسية و الاقتصادية

تترك على الأمم التي هي أضعف منها في الحيوية روعة،وتؤثر فيها من الناحية الثقافية، والاجتماعية من غير أن تتأثر هي نفسها".[i]

والكتاب أخيرا مؤسس على الآيات القرآنية، والوثائق التاريخية، ودقائق الخُلق والخَلق في العادات و العبادات، و الأخلاق، والمعاملات لا يتصور مزيدا عليه.

أما "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ففيه رؤية دقيقة لعطاء الإسلام تبصر خلف غيوم الضعف، و التخلف القوة الحقيقية للإسلام، وتتحدث رغم المرارة و الإحباط عن إمكاناته الهائلة لإنقاذ البشرية من المأزق الذي آلت إليه،والكتاب في الحقيقة نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من منظور إسلامي، إذ دأب الباحثون والكتاب والمؤرخون أن ينظروا إلى المسلمين من خلال التاريخ العالمي من زاوية الأحداث، من زاوية الشعوب والأمم من زاوية التقلبات، ولكن مؤلف هذا الكتاب قلب الرؤية، وتخطى الإطار التقليدي فأراد أن ينظر إلى العالم من خلال المسلمين، بحيث يكون المسلمون عامل من عوامل التاريخ مؤثرين فيه لا متأثرين فحسب كما يحلو لبعض المستشرقين،و شتان بين النظرتين نظرة تنظر إلى المسلمين كأنهم ما خلقوا إلا ليخضعوا للحوادث، ويتأثروا مما يحدث لهم، ونظرة تنظر إلى المسلمين كأمة تستطيع أن تؤثر في المسيرة الإنسانية، وعلى الاتجاه العالمي، وعلى القيم و المثل.

لقد أدرك الندوي بثاقب فكره وبعد نظره أن خطأ المؤرخين يكمن في تصورهم للمسلمين حيث نظروا إليهم كشعب من الشعوب الكثيرة المعدودة بالمئات، شعب يعيش تحت رحمة الوقائع والتقلبات، و تحت رحمة الحكومات، والحضارات، والفلسفات، والمعسكرات، وتناسوا القوة الكامنة في الرسالة الإسلامية التي يحملها المسلمون، وهي الحقيقة الخالدة المسيطرة على جميع الاعتبارات السياسية، والاقتصادية والتي تتمثل أساسا في أن المسلمين أصحاب رسالة، أصحاب عقيدة تفرض وصايتها على العالم، وحسبتها على المجتمع الإنساني، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ﴾[ii]، وقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمْ

---

[i]- محمد أسد، الإسلام في مفترق الطرق، تر: عمر فروخ، ط بيروت: دار العلم للملايين، ص 18.

[ii]- الصافات، الآية: 172

الْغَالِبُونَ﴾ [i]، وقال أيضا :﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ [ii]،وقال: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [iii].

بهذه النظرة نظر الندوي إلى المسلمين معتبرا إياهم نقاوة العالم،وخلاصته إن هم استعادوا قيمتهم و أدوا واجبهم في تكوين المجتمع الإسلامي المؤمن القوي النقي أما إذا نكصوا على أعقابهم، وتولوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، وفاقد الشيء لا يعطيه، والمريض لا يعالج المريض.

والواقع إن هذا الوضع الديني، والخلقي، والاجتماعي ،والسياسي المزري الذي يعيشه العالم اليوم، بل الانهيار الإنساني والاحتضار المعنوي الذي يعانيه مجتمعنا المعاصر كله تفسير لقوله تعالى:﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [iv].

من هنا وفق الأستاذ الندوي في اختيار هذا العنوان "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، فكان هذا الكتاب بحق "ثورة في التفكير، وثورة في البحث والتحليل،وتقوية لمعنوية المسلمين، وإثارة لروح الثقة، و الاعتزاز فيهم بدينهم، ومركزهم والتهيؤ لقيادة العالم من جديد، ليردوا إلى الإنسانية اعتبارها وإلى العالم السعادة و السلامة" [v].

وإذا كان هذا الكتاب بهذه المثابة فلا غرابة أن يعتبر المفكر الإسلامي الكبير "محمد المبارك" هذا الكتاب بأنه من خيرة الكتب التي صدرت في هذا القرن. [vi]

ويذكر الأستاذ الدكتور محمد اجتباء الندوي أن المفكر الكبير كان يقول: " إن هناك أربعة كتب صدرت حديثا يجب على كل طالب،ودارس، وباحث أن يدرسها وهي:

---

[i]- الصافات، الآية: 173.

[ii]- المجادلة: الآية: 21

[iii]- آل عمران، الآية: 139

[iv]- الأنفال، الآية: 73.

[v]- مقتبس من فصل "قصة كتاب يحكيها مولفه" نقلا عن: نذر الحفيظ الندوي، أبو الحسن الندوي كاتبا و مفكرا،(مرجع سابق)، ص19.

[vi]- المرجع نفسه، ص20

"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ،و "العدالة الاجتماعية في الإسلام"، و" الرسالة الخالدة"،و "الإسلام في مفترق الطرق".[i]

أما "الأركان الأربعة" فحسبك في بيان قيمته العلمية شهادة المفكرة المهتدية "مريم جميلة" و التي تقول في رسالة بعثت بها إلى العلامة الندوي بعد صدور الكتاب نقتطف جزءا منها: " ...اسمحوا لي أن أقول بكل صراحة أن معظم الكتب التي ألفها الكتاب المسلمون في هذا الموضوع لم يعجبني، إذ أن أسلوب بعض الكتاب ركيك للغاية لا يغدو الخط القانوني و الرسمي، كما أن أكثر علماء المسلمين يتعرضون للموضوع بلهجة سلبية جارحة، و يحاولون أن يضطروا المسلمين الغافلين عن هذه العبادات إلى تأديتها بتخويفهم من عذاب الآخرة الأليم، و توجيه إنذارات تملأ قلوبهم وحشة و خوفا، فيقبلوا عليها خائفين لا مقتنعين، و من الذي ينكر عذاب الآخرة؟ إلا أن هذا الأسلوب السلبي يسيء الظن بالإسلام لدى العقول الجديدة ويمهد لها الطريق إلى الالحاد ،و المادية ظنا منها أن الإسلام، تعبير عن القيود الظالمة والإجبارات القاهرة ... إلا أنكم موفقون كل التوفيق في نقل أفكار الغزالي، والإمام الدهلوي إلى الجيل المعاصر بلغة العصر وأسلوبه، وزدتم عليها المقارنة بين عبادات الديانات كالهندوسية،والبوذية، واليهودية، والنصرانية".[ii]

أما "النبوة و الأنبياء في ضوء القرآن "فهو من الكتب الأثيرة عند مولانا أبي الحسن ذلك لأنه يعالج موضوعا خطيرا تشتد حاجة الطبقة المثقفة إليه، إذ أدرك الشيخ أن من أقوى أسباب انحراف الطبقات الموجهة و السائدة في العالم الإسلامي هو خضوعها الزائد للمفاهيم، و القيم المنافية لروح الديانات السماوية،وتمسكها بالأساليب الصناعية، والمناهج الفكرية الغربية حتى في تفسير الإسلام، و في مجال الدعوة و الإصلاح العام.[iii]

ومن هنا حاول الشيخ أن يبين منهج الأنبياء و فضلهم على الحياة المدنية والعقل الإنساني، وأن المعرفة الحقة المأمونة من أخطار التشكيك و التناقض تتمثل فيما يبلغونه للناس من أجل إنقاذهم وهدايتهم ، استعرض المؤلف كل هذه الأسئلة محاولا بقدر الجَهد و الطاقة أن يكشف عنها في ضوء القرآن الكريم.

---

[i]- محمد اجتباء الندوي، أبو الحسن الندوي الداعية الحكيم و المربي الجليل ،(مرجع سابق)، ص 86.

[ii]- نقلا عن: نذر الحفيظ الندوي، أبو الحسن الندوي كاتبا و مفكرا، (مرجع سابق)، ص 29.

[iii]- أبو الحسن الندوي، النبوة و الأنبياء في ضوء القرآن، ط5، دمشق: دار القلم 1980م، ص6

أما الكتاب الأخير من كتب أبي الحسن الندوي المفضلة لديه فهو "الطريق إلى المدنية"،والكتاب في الحقيقة كتاب وفاء وتحنان، يثير كوامن الغرام ،و يحرك سواكن الحب في قلب المسلم تجاه النبي محمد –صلى الله عليه و سلم– المبعوث رحمة للعالمين.

وحسب القاريء الكريم شهادة "أديب الفقهاء و فقيه الأدباء" الأستاذ علي الطنطاوي في تقديمه للكتاب،إذ يقول:

"لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي،ولكن لما قرأت كتابك يا أخي أبا الحسن!"الطريق إلى المدنية" أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، و لكن هموم العيش وطول الألفة قد غطياه بالغبار، فأزاح كتابك عن جوهره الغبار ".[i]

وقد كدت أفقد ثقتي بالأدب حين لم أعد أجد عند الأدباء هذه النغمة العلوية التي غنى بها الشعراء من لدن الشريف الرضي إلى البرعي، فلما قرأت كتابك وجدتها، وجدتها في نثر هو الشعر إلا أنه بغير نظام،فيا أبا الحسن إليك الشكر علي أن رددت إلي ثقتي بنفسي وثقتي بأدب لغتي"[ii]

وبالجملة فإن الباحث في كتب الندوي كلها تقريبا يجد طرافة البحث وأصالة التناول،و عمق الفكر التي تطبع مؤلفاته كلها بالإضافة إلى ما تبعثه داخل الانسان من مشاعر علوية مثل الإخلاص، وطلب الرضا الإلهي والحب له، والشوق والتحنان إليه، كما تزرع الطموح، والصدق، والثبات، والذاتية، وتدعوه إلى المساهمة في تكوين أمة ذات شأن لها قيمتها، ومكانتها، ووزنها بدلا من تلقينه طرائق العبودية،والخضوع للغرب، وإذا كان الرجل قد رحل عنا إلى عالم الخلود فإن آراءه التي أودعها مصنفاته ستظل كجذوة النار يستنير بها كل متمسك بعروة الدين، ومتشبع بمبادئه السمحة.

---

[i] – أبو الحسن الندوي، الطريق إلى المدينة، ط1، دمشق: الدار الشامية، 1999م، ص12

[ii] – المصدر نفسه و الصفحة.

رحلة ابي الحسن الندوي الى اليمن وتحليل افكاره

عبد الوهاب صالح التويتي ، **اليمن**

المقدمة

فإن الامة الاسلامية قد تعرضت إلى ضربات الاعداء ضربة تلو ضربة حتى فقدت توازنها وفقدت السيطرة على نظام حياتها.

ونحن نؤمن أن الله تعالى قد جعل لكل شيء قدرا فقال تعالى: { إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [آل عمران: 140].

وفي مسند البزار ومسند احمد من حديث حذيفة بن اليمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [تكونُ فيكم النبوَّةُ ما شاء الله أنْ تكون ، ثم يرفعها الله إذا شاء أنْ يرفعها ، ثم تكون خلافةٌ على منهاج النبوَّة ، فتكونُ ما شاءَ الله أنْ تكونَ ، ثم يرفعُها الله إذا شاء أنْ يرفعها ، ثمَّ تكونُ مُلكاً عاضّاً ما شاء الله أنْ تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أنْ يرفعها ، ثم تكونُ مُلكاً جبرية ، فتكون ما شاء الله أنْ تكون ، ثم يرفعها إذا شاء أنْ يرفعها ، ثم تكون خلافةً على منهاج النبوَّة ثُمَّ سكت][i].

وبالفعل فقد تدحرجت الامة على هذا المنوال وسلكت هذا السبيل فما ان رفعت النبوة حتى اجتمع الناس على خلافة راشدة استمرت ثلاثين سنة مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم في سنن الترمذي من حديث سفينة قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «الخلافة فِي أُمَّتِي ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثُمَّ مُلْكٌ بَعْدَ ذَلِكَ»[ii].

---

[i] مسند البزار 18 مجلد كاملا (7/ 223) ومسند الامام احمد 385/5 و399 و400 . وجامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم تأليف : الإمام الحافظ الفقيه زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب المتوفى سنة (795)هـ.

[ii] سنن الترمذي ت شاكر (4/ 503)

وقد مر ما يقرب من تسعون سنة على خلافة وملك الدولة الاموية ثم ستمائة سنة تقريبا على خلافة وملك الدولة العباسية وما يقرب من مثلها على خلافة وملك الدولة العثمانية حتى سقطت الخلافة الاسلامية في عام 1924م وتمزقت الامة الى دويلات متصارعة ومتناحرة أشرف عليها الاستعمار البريطاني وحدد الحدود وقسم المقسم ومزق الممزق وصنع حكاما جبريين بقوة الحديد والنار وأصبحت القضية قضية العلماء والعلماء فقط.

لم يألوا علماء الامة رضي الله عنهم جهدا من العمل لهذا الدين وإعادة الهوية الاسلامية الى اهلها والخلافة الى عرشها فتنادى المصلحون من كل حدب وصوب كا امثال الشيخ النورسي في تركيا وابو العلاء المودودي في الهند والامام حسن البناء في مصر والشيخ محمد بن عبد الوهاب في نجد وساندهم كثير من العلماء بل كل واحد منهم يعاهد اتباعه ويتعاقد معهم على نصرة الدين والملة المحمدية.

ونحن في هذا المقال سنتعرض إلى شخصية إسلامية عرفها التاريخ ودونها الزمن وحفظتها الصدور والسطور كان لهذه الشخصية أثراً بالغاً في نهضة الامة الاسلامية وكان لها أثر في تشخيص الواقع وفقه النوازل عندما كانت الامة تتخبط كانها في ظلام دامس.

فقد خرجت عن سكتها الحديدة ومسارها الصحيح ثم لم تجد النور اليهما مرة آخرى إلا من خلال وجود هذه الانوار المشرقة وهذه المصابيح المضيئة كأمثال شخصية المقال الذي نحن بصدده وهو الامام ابو الحسن الندوي في الهند فقد كانت له اسهامات كثير على مستوى العالم إلا أننا في هذه المقالة حددنا رحلته إلى اليمن فقط ومدى الاثر الذي تركه في اهل اليمن وطريقة المنهج الذي رسمه لأهل اليمن في حقبة كان الناس فيها احوج ما يكونون إلى مثل هولاء العلماء أن يلتقوا بهم ويسمعوا منهم.

المبحث الاول :ابو الحسن الندوي بين احداث جسام:

ولد ابو الحسن الندوي في عام 1914م العام الذي شهد فيه العالم الحرب العالمية الاولى والتي على انقاضها سقطت الخلافة الاسلامية في العام 1924م وابو الحسن الندوي في سن العاشرة من عمره وتوالت الاحداث إلى الحرب العالمية الثانية التي انتهت في عام

1945م والتي على اثرها سقطت دولة فلسطين تحت الاحتلال الصهيوني في عام 1948م فمنذ ولادته إلى وفاته عليه رحمة الله وهو يصارع الاحداث الجسام وينظر الى الامور العظام.

كان يعيش عليه رحمة الله في بيت علم فأبوه كان من علماء الهند المشهورين ومن المصنفين والمؤلفين المعدودين وأمه كانت من حفاظ كتاب الله تعالى وكانت تقول الشعر فحظي الصبي بمدرسة دينية علمية ادبية تحت سقف واحد فحفظ القرآن وتعلم اللغة الاوردية والفارسية ثم اللغة العربية على مشايخه من اليمن حتى اتقنها وافصح بها لسانه ، ولاشك من انه رضع حب الاسلام والعمل لهذا الدين كما رضع حليب امه الطاهره عليها رحمة الله.

فكان اذا تكلم اسمع الحاضرين من النوادر ما لم يسمعوه من غيره وكان يحمل هم العمل لهذا الدين ويضع له الحلول كما لو انه طبيب تشخيص حتى لفت انتباه القوم اليه وذاع صيته وتحول من داعية في الهند الى داعية في العالم الاسلامي باسره من خلال كتابه المشهور [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين].

في هذا الكتاب يتجلى للقارئ مدى سعة أفق هذا الرجل ومدى فهمه العميق لهذا الدين ومدى قدرته على فهم الواقع الذي كانت الامة تعيش فيه. فكان من منهجه أن يتنقل من بلد الى بلد ليلقي محاضراته على المسلمين من الامراء والعلماء والدعاة والمصلحين وجميع المهتمين.

المبحث الثاني: علاقة ابو الحسن الندوي باليمن:

اولا العلاقة الدينية:

تربط ابو الحسن الندوي باليمن علاقة دينية في المقام الاول فهو من العلماء المدركين لقول النبي صلى الله عليه وسلم عند الامام مسلم من حديث أبي هريرة: [الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْفِقْهُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ][i] وهو يدرك ايضاً حديث النبي صلى الله عليه وسلم عند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: [أَتَاكُمْ أَهْلُ الْيَمَنِ، هُمْ أَلْيَنُ قُلُوبًا وَأَرَقُّ أَفْئِدَةً، الْإِيمَانُ يَمَانٍ، وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَةٌ، رَأْسُ الْكُفْرِ قِبَلَ الْمَشْرِقِ][ii].

[i] صحيح مسلم (1/ 71)
[ii] صحيح مسلم (1/ 73)

وكان يدرك أن هناك احاديث كثيرة تشير إلى فضل اهل اليمن وكيف انهم مدد الامة على مر التاريخ وكان إلى جانب ذلك يدرك أن الامام حسن البناء وكثير من علماء الامة كانوا ينظرون إلى اليمن كأرض خصبة للخلافة الاسلامية وقيادة الدعوة إلى الله تعالى.

ثانيا العلاقة العلمية:

وفي المقام الثاني: كانت اليمن بالنسبة لابي الحسن الندوي عليه رحمة الله محل نسبه العلمي فهو يدين لعلماء اليمن تعليمهم له اللغة العربية والأدب العربي والحديث الشريف[i]. حيث أنه كان قد درس على علماء من اليمن انتشروا في اطراف الهند لتعليم الناس الاسلام فحظي بفضيلة الشيخ خليل بن محمد الانصاري اليماني وغيره من العلماء الذين تخرج على يديهم.

المبحث الثالث: ابو الحسن الندوي في اليمن:

أولا : الدعوات الموجهه اليه:

بعد أن تلقى عليه رحمة الله العديد من الدعوات المتوالية من قبل اتحاد الطلاب والهيئة العلياء للمجامع العلمية ومكتب التوجيه والإرشاد باليمن وبالاخص من قبل الشيخ عبد المجيد الزنداني الذي كان يومها على راس مكتب التوجيه والإرشاد.

وقد تواصلت مع زميلي أحد ابناء الشيخ عبد المجيد ليتاكد من هذه المعلومة فقال أن الشيخ عبد المجيد أكد أنه هو من ارسل اليه الدعوة شخصيا في سبعينيات القرن الماضي.

وكان قد قرر زيارة اليمن إلا أن المصادر ذكرت أن زيارته إلى اليمن كانت قد تأخرت كثيرا وكلما كانت تقترب من موعدها حدث ما يوجلها.

إلى العام 1976م تلقى دعوة خاصة وقام بترتيب إجراءات السفر إلا أنه حدث امر طارئ فتأجلت هي الاخرى إلى أن زار عمان في العام 1984م وكان هناك من اليمنيين ممن الح على سفره إلى اليمن وبالفعل توجه إلى صنعاء كمحطة أولى لزيارة النخبة في اليمن ونزل في فندق دار الحمد السياحي الواقع في بير العزب بشارع 62سبتمبر.

---

[i] نفحات الايمان بين صنعاء وعمان لابي الحسن الندوي نشر وتوزيع المجمع الاسلامي العلمي ندوة العلماء لكنو الهند. تقديم الاستاذ واضح رشيد الحسني.

وكعادة اهل اليمن في اكرام الضيف استقبلوه استقبال الفاتحين ورحبوا به واكرموه فهو لم يكن غريبا عليهم لان مؤلفاته كانت تدرس في المدارس للطلاب وكلماته كانت تردد في الخطب على المنابر فعرفه العوام وجملة الخواص.

وقد كنت اثنى دراستي في الجامعة اسمع شيخنا العلامة عبد المجيد الزنداني يردد اسمه كثيرا ويستشهد بما قاله في كتابه المشهور [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين] فعرفت من خلال كلمات الشيخ عبد المجيد الزنداني واستشهاداته المتكررة من كلام الامام الندوي أنه كان رجلا حركيا يحمل هم الامة بأسرها وكان رجلا عصريا يفهم الواقع الذي يعيش فيه ويترل النصوص حسب الحال والزمان وأنه كان متنورا ومنفتحا على الجميع يلملم ولا يشتت ويجمع ولا يفرق عينه تبكي على الاسلام ولا تبكي على الدنيا.

ثانيا خطاباته التي القيت في اليمن:

كان الامام الندوي فصيح اللسان قوي الحجة بليغ الموعظة يخاطب العقل ويحاكي الوجدان يعزف على اوتار القلوب حتى يسلبها من اهلها وهذا ما حدث في خطبته بجامعة صنعاء في 15/ مايو1984م بعنوان شلال الايمان والإخلاص ركز فيها على ربط الصناعة المادية ومخترعاتها بعدم قدرتها على صناعة الجانب الروحي الذي يربط المسلمين برابط الاخوة والدين.

ثم ضرب مثلا حيا بين شلال كندا المشهور والذي يولد الطاقة ويعد من عجائب الدنيا السبع وكيف أن البشر احسنوا استغلاله والاستفادة منه وبين شلال الايمان الذي خص الله به امة الاسلام عامة وأهل اليمن على وجه الخصوص، وذكرهم بدورهم التاريخي في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم وذكرهم كيف أن اجدادهم من خدموا الدين ونشروا العلم وكتبوا الحديث فحرك في السامعين والحاضرين عاطفة جياشة والهب حماسهم حتى اسر قلوبهم ثم بداء يحقق اهدافه من تلك المحاضرة والناس اذانا صاغية وقلوبا واعية.

فربط بين الحضارة العلمية التي تقود حياة الرفاه للإنسانية في هذا العصر وبين شلال الايمان الذي تفتقده هذه الحضارة المادية وتمتلكه الامة الاسلامية أنه شلال الايمان

والإخلاص لله تبارك وتعالى وسلامة القلوب وصفاء الصدور والحب البرئ وهو. الامر الذي جعل من المسلمين كيان محبوب ومتآزر.

وان شلال الايمان الذي تمتلكه الامة هو وحده الكفيل بتغذية الارواح واذا كان ذلك كذلك فإنه في اهل اليمن اعظم واصدق لان لسان النبوة شهدت لهم بذلك وان اليمنيين هم من اناروا العالم عندما اقتبسوا من صدورهم هذا النور الايماني واشعلوا به طريق الاخرين الى اقصى الشرق.

ثم خاطبهم أنه كان قد القى خطابا حدث فيه الغرب عندما زار امريكا وتمنى أن يصل إلى البيت الابيض وأنه قال لهم ان الشعوب الاسيوية التي تدعموها لا تحترمكم وتتربص بكم الدوائر وتتمنى لكم أي نكسة وتشمت فيكم مع أنها على موائدكم تتطفل.والسبب الحقيقي لذلك هو أنكم لا تدعموها لله وإنما دعمكم لمصالح سياسية وأغراض اقتصادية.

وكأنه يريد أن يقول لهم أن ما كان لله تعالى دام واتصل وما كان لغير الله تعالى انقطع وانفصل فخرج من هذا الامر وكأن الناس قد اقتنعوا بعدم الانجرار وراء الزيف الذي كان يرعد ويزبد في نهاية القرن الماضي بقيادة الكفر والإلحاد وبهذا حقق هدفه الاول من هذه الجملة ومن هذه المقالة.

وبعد أن وصل عليه رحمة الله بالناس إلى هذه القناعة من الانبهار بحضارة الغرب المادية مع عدم وجود الايمان المصاحب لها ركز على من يروجون لها ويعملون على تحقيق اهدافها خاصة الحكام ورواد الفكر الذين يعتبرون أن تعاليم الاسلام عبارة عن جزء من الماضي وأن هذه التعاليم الايمانية خطرا عليهم وأن الاسلام كما ذكر عليه رحمة الله جاء لحقبة معينة لتنظيم البشرية وأنه لم يعد صالحا لهذا الزمان.

فرد عليهم وعلى هذه الشبهات التي يطلقونها ويروجون لها وأن طاقة الايمان اقوى من الطاقة النووية ولكنهم فقط لم يكتشفوا هذه التعاليم وهذا الايمان الذي يوجد في صدر المؤمن الصادق. لاسيما وقد حاول قادة الغرب والشرق أن يملؤ فراغ الاخلاص بالقوة العسكرية والجاسوسية فما استطاعوا وأن الاسلام بتعاليمه جعل اتباعه يعيشونها واقعا

حياتيا ملموسا بأيسر الطرق وأسهل السبل كما قال تعالى: {لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ} [النور: 12].

ومن خلال هذا الطرح المتوازن والمتوازي استطاع عليه رحمة الله أن يصل بالحاضرين إلى قناعة أنهم مسؤلون عن تبليغ هذا الايمان وأنهم مسؤلون امام الله تعالى وأمام ماحباهم به من شهادة النبوة بحمل هذا الدين كما فعل اسلافهم وأجدادهم على مر التاريخ مؤكدا على دور طلاب الجامعة وأنهم لو استطاعوا أن يكتشفوا امتهم في هذا العالم الجديد فدورهم سيكون اكبر من دور كولمبس الذي اكتشف قارة امريكا.

فكانت هذه الخطبة العظيمة عبارة عن عقد عام ومعاهده مفتوحة بينه وبين اهل اليمن على العمل لهذا الدين ونصرة الاسلام وعدم الانبهار بما يحاول المغرضون والمشككون تقديمه على أنه هو الحق وماهو إلا زيف باطل قال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: 81].

وفي اليوم الثاني مباشرتا سافر إلى مدينة تعز والقى فيها محاضرة في جامع المظفر التاريخي الواقع وسط المدينة تحت عنوان المسلمون في رباط دائم ومن خلال العنوان نجد أن الامام الندوي كان يعتبر أن الامة ليست في مسارها الصحيح وانها في ارض المعركة على الهوية الدينية والهوية الشخصية وهذا آفق كبير وفقه دقيق ونظر ثاقب من عالم بدينه عارف بعصره بصير بأحوال أمته.

وكما لو أنه كان موفق بطرح افكاره لمن يخاطبهم فكأنه كان يتفرس القوم وينظر ما يصلح لهم فيقوله.

فتعز رأئدة العمل الاسلامي والتنظيم الدعوي وهي كذلك بالنسبة للتنظيم الناصري والاشتراكي فهي صاحبة افكار ومشاريع والذين امامه في تلك المحاضرة كانوا من علماء ووجهاء تعز.

فتجلى خطابه ملخصا فيه رؤيته لطرق التمكين وسبيل الانتصار لا اصحاب المشروع الاسلامي وما هو الواجب عليهم.

وكان قد استهل مقالته بأنه قد تجول بالعالم الاسلامي وتجول بالتاريخ من خلال سعة اطلاعه وأنه الرائد الذي لا يكذب اهله ثم عقد مقارنة بين حياة الرفاه التي اسقطت مملكة الهند وبين ما يجب أن يكون عليه اصحاب مشروع النهضة الاسلامية.

ونبه أيما تنبيه على أن الجزيرة العربية تتعرض لمخطط تدميري ومحاولة الغاء الاسلام وطمس الهوية فقد كان يدرك ما كان يدركه اخوانه في الدعوة الى الله مكانة وموقع الجزيرة العربية وأهميتها بالنسبة للعالم.

فالجزيرة العربية بما فيها من ثروات هائلة لا يستغني عنها العالم في العصر الحديث تعيش بين فكي كماشة تكاد أن تبتلعها وتقضي عليها فمن جهة الشرق المعسكر الشيوعي الذي كان يقوده الاتحاد السوفيتي ومن جهة الغرب المعسكر الرأسمالي الذي تقوده الولايات المتحدة الامريكية.

كانت هذه الافكار التي عرضها الامام الندوي بمثابة مدرسة تعليمية جديدة بمنهج جديد مفتوح على عصر السرعة وعصر السباق في التكنلوجيا وصراع الطاقات والسباق على التسلح.

وفي 17/5/ 1984م وصل الى مدينة الحديدة واستضافه فيها معهد النور وألقيت المحاضرة في ساحة المعهد في حشد كبير تحت عنوان معجزة الاسلام الخالدة ولكنه هنا ركز على العلم والعلماء مستشهدا بالمرتضى ابن محمد الحسيني الزبيدي وكيف جاء إلى زبيد فقط من اجل تعلم اللغة العربية والعلوم الشرعية وكيف الف كتب المعاجم المشهورة التي تداولها فيما بعد العلماء والملوك والأمراء وكيف أن كثيراً من العلماء حفظوا اللغة العربية وأشعارها رغم أنها كانت محصورة في الجزيرة العربية إلى أن جاءت البعثة المحمدية فأخرجتها إلى العالم وكيف أنها محفوظة بالقرآن الكريم.

فقد كان الاستعمار البريطاني في الهند ينشر اللغة الانجليزية فلما خرج من الهند بداء الناس ينظرون إليها كرمز للاستعمار وكذلك اللغة التركية والفارسية كلها اندرست بالهند وبقية اللغة العربية يحفظها الناس طواعية فقط لأنها لغة القرآن.

وكان الهدف من وراء هذا الاستشهاد هو تعريف الحاضرين أن العالم العربي لا قيمة له بدون اللغة العربية التي هي لغة القرآن والسنة ولو لم يكن هناك دين الاسلام لما استطاع العرب أن ينشروا لغتهم لأحد من الناس فربط المسلين بإسلامهم وحرضهم على التمسك بدينهم وحفز طلاب العلم على شحذ هممهم لقد كان يعطي كل ذي حق حقه ومستحقه ويوزع اهداف زيارته إلى كل فئة بنصيبها وما يصلح لها.

فعندما رجع إلى صنعاء وتوجه إلى معسكرات الجيش في 20 مايو القيت له محاضرة في معسكر المدرعات تحت عنوان مصدر قوة الاسلام ، وافتتح هذه المحاضرة بقولة تعالى : {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} [النساء: 104].

ثم شرحها لأفراد الجيش وبين لهم أن ما يواجهونه من الاعداء إنما هم بشر مثلهم ويتألمون مثلهم ويكلمون ويجرحون ولكن الفضل أن هؤلاء شهداء عند الله مبينا لهم منازل الشهداء وأولئك قتلى وموتى لا يرجون من الله ما ترجون.

وضرب لهم الامثلة تلو الامثلة والبطولات تلو البطولات من التاريخ الاسلامي وكيف كان اسلافهم يحبون الشهادة في سبيل الله تعالى فوجههم إلى نصرة الاسلام ونشر الدين وأنه لا يمكن أن يكون ذلك إلا بجهود البشر كما كان اسلافهم فكان حديثه للجيش اليمني كما لو أن الرجل يخطط لمعركة قادمة يدير شؤنها ويحقق اهدافها.

وفي نفس اليوم القيت له محاضرة بصنعاء بجامع المشهد تحت عنوان درس من قوم سباء ركز فيها على الدروس المستفادة من قصة سباء.

لقد استطاع الشيخ الندوي عليه رحمة الله خلال هذه الايام القلائل وهذه المحاضرات البسيطة أن يترك أثراً كبيراً في نفوس اهل اليمن بجميع شرائحه وطوائفه وقبائله ويحقق اهدافاً كبيرة لدى الجمهور الواسع الذي كسب وده واسر قلبه منها مايلي:

1ـــ خاطب العلماء وذكرهم بواجبهم ورسم لهم تصوره للطريق السليم في الدعوة الى الله والتعامل مع حكام العصر الذي يعيشون فيه.

2ـ خاطب طلاب العلم وحفزهم على الاهتمام بالعلم الشرعي والتأليف والتحقيق والتدقيق وعرفهم بواجبهم الذي يسدون فيه ثغرتاً هم عليها حراس وبواسطتها قادة.

3ـ وخاطب الجيش ورغبهم بالشهادة في سبيل الله تعالى وعرفهم بواجبهم المنوط بهم وأن الاسلام لا ينتصر إلا برجال امثالهم وفرق لهم بين من يقاتل من اجل التعاليم العسكرية والمصالح الدنيوية وبين من يبيع نفسه لله تعالى ويقاتل في سبيله ويمتلك الروح المعنوية الاسلامية التي كان يقاتل بها اسلافهم الاوائل.

4ـ وخاطب العوام ونقل لهم زيف الحضارة الكاذبة التي تخدع الناس وتحاول أن تحدث شرخا بين الاسلام وأهله ورد على الشبهات التي يروج لها اصحاب الافكار الهدامة بطريقة أو بأخرى والتي من شانها أن تنطلي على عوام الناس.

إلى غير ذلك مما لو وقفنا عليه وفصلناه وحللنا مفاهيم اقواله لوجدنا الشيء الكثير الذي يدلنا على سعة اطلاعه وصفاء تفكيره ونقاء منهجه فلا نستطيع أن نقول إلا أن الرجل عليه رحمة الله كان عالم بدينه عارف بعصره يشخص واقعه.

عليه رحمة الله وقدس الله روحه بالجنة والحمد لله رب العالمين.

الإسلام في القارة الأفريقية في كتابات الشيخ ابي الحسن الندوي

د. بشار اكرم جميل الملاح
كلية الآداب، قسم التاريخ
جامعة الموصل، العراق

أهداف البحث :

يهدف البحث إلى توعية وتنبيه الشباب المسلم بضرورة التمسك بالقيم الإسلامية واتخاذ القدوة الحسنة وعدم الانجرار وراء الغرب من خلال اتباع شخصياته الغير ملتزمة والداعية إلى القضاء على الإسلام ورجاله ، واتخاذ القدوة الحسنة يتمثل في اختيار شخصيات تاريخنا الإسلامي والمعاصر الفذة والتي قدمت الكثير للأمة الإسلامية والتي من بينها شخصية بحثنا الشيخ الجليل أبي الحسن الندوي والذي قدم للإسلام والمسلمين الكثير ، فضلاً عن ذلك فأن الهدف الأخر من البحث يتمثل في بيان ماكتبه الشيخ الندوي عن الإسلام في قارة أفريقيا ممثلاً بالمغرب الإسلامي وجنوب الصحراء الكبرى ووصفه لمشاهداته للمناطق التي زارها أو سمع عنها الكثير من الثقات .

منهجية البحث :

أعتمد البحث منهجية تقوم على عرض النصوص والأحداث التاريخية وتحليلها واستقراء الروايات التي تدور احداثها حول عنوان البحث ، فضلاً عن ذلك فقد تم مقارنة بعض النصوص التي تشير إلى محاولات الغزاة المستمرة لفصل المسلمين وزرع الفتنة بينهم من خلال التأكيد على القومية وهو ما فعله الفرنسيون حينما دعموا فكرة فصل البربر عن العرب ومقارنة تلك الفعلة بما فعله البرتغاليون في افريقيا حينما حاولوا زرع الفتنة بين المسلمين العرب والداخلين في الإسلام من الزنوج .

يدور البحث حول شخصية ادبية وعلمية بارزة تمثلت في الشيخ العلامة الداعية ابو الحسن علي بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني الندوي والذي ينتهي نسبه إلى الإمام الحسن

بن علي بن أبي طالب ﷺ كما يعود نسب جدته من جهة والده إلى سيدنا الحسين بن علي ﷺ وينتهي نسب أمه إلى سيدنا الحسن بن علي ﷺ فهو ذو نسب جليل من الجانبين[i].

اما مولده فكان في السادس من شهر محرم عام 1333هـ الموافق عام 1914م بقرية (تكيه كلان) بمديرية (راي بريلي) الولاية الشمالية من بلاد الهند[ii]، وجذور الشيخ الندوي عربية فقد هاجرت أسرته العربية الأصل من المدينة المنورة حوالي القرن السادس الهجري وكان أول من هاجر من اسرته السيد قطب الدين محمد المدني (581-677هـ) فأقام في مدينة دلهي وتولى مشيخة الإسلام فيها وبقي مجاهداً حتى توفي عام 677هـ .

وقد بارك الله تعالى في ذرية السيد قطب الدين فخرج منها الفقهاء والدعاة والعلماء والمجاهدون حتى ظهر منهم السيد علم الله بن فضيل الحسني المتوفى عام 1096هـ والذي كان قد انشأ المركز الديني التربوي والإصلاحي في بلدة (راي بريلي) في الهند ، وقد برز من ذريته العديد من العلماء الافذاذ وفي مقدمتهم (احمد بن عرفان) الذي قاد حركة دينية إصلاحية هامة في تاريخ الهند ، كما برز من أولئك الرجال جد الشيخ الندوي السيد (فخر الدين بن عبد العلي الحسني) والمولود سنة 1256هـ وهو مؤلف كتاب (مهرجان) في ثلاثة أجزاء وهو أول موسوعة باللغة الفارسية في العلوم والفنون والتراجم والسير

ومن صلب أولئك الرجال ظهر لنا الشيخ أبي الحسن الندوي الذي لم يكن أقل شأناً من سابقيه ، فكان عالماً جليلاً ورجلاً فذاً زار العديد من بلاد الإسلام داعياً وناصحاً معتزاً بالإسلام وباللغة العربية كونها لغة القرآن الكريم ، وعمل طوال حياته في مجال الدعوة إلى الله تعالى من خلال المحاضرات التي يلقيها أو من خلال الكُتب التي ألفها لاسيما تلك التي خاطب بها المسلمين في كافة بقاع الأرض والتي ناشدهم بصراحة الأخ الناصح ككتاب (احاديث صريحة مع اخواننا العرب والمسلمين) وكتب أخرى تظهر دور الإسلام في خدمة العالم والحضارة الإنسانية ككتاب (الاسلام اثره في الحضارة) وكتاب (دور الإسلام في تقدم البلاد التي دخلها) وكتاب (دور الإسلام في تقدم الشعوب) ، فضلاً عن كتب تحدث فيها عن زياراته للبلدان الإسلامية ككتاب (أسبوعان في المغرب الأقصى) وغيرها الكثير .

(i) ينظر : الحسيني ، قدرة الله ، العلامة السيد عبد الحي الحسني ، دار الشروق ، ط1 ، (السعودية:1983) ، ص74 .

(ii) آزادي ، عبد السلام ، التأصيل الإسلامي للغة العربية وآدابها في جهود الشيخ ابي الحسن الندوي ، ط1 ، (القاهرة:2006) ، ص32-33 .

وهنا لابد من الحديث عن ما كتبه الشيخ الندوي عن تاريخ وحضارة الإسلام في افريقيا وما وصل إليه المسلمون في تلك المنطقة اليوم ، وعلى الرغم من قلة المعلومات الواردة في مؤلفات الشيخ الندوي عن تلك البقعة من الأرض والتي تكاد تتركز في كتابه (أسبوعان في المغرب الأقصى) إلا أن تلك المعلومات لاتقل أهمية عما أورده الشيخ الندوي عن بقية المناطق ، فهو يبدأ كلامه ذاك في كتابه (أسبوعان في المغرب الأقصى) عن مدينة مراكش وموقعها ومكانتها في نفوس المسلمين كونها احتلت الصدارة لاسيما بعد سقوط الأندلس ونهاية الحكم الإسلامي فيها ، فقد أشار إلى تاريخ تلك المدينة الممتد إلى عام (500 ق.م) حينما قام أحد سكان (قرطاجنة) المدعو (هنو) بالرحلة إلى جبل طارق ليقيم عليها مستعمرة مصطحباً معه ثلاثين الف فرد على متن ستين سفينة ليقيموا عدة مستعمرات في اماكن مختلفة من المغرب الأقصى[i] كما قيل ان سكانها القدامى جاءوا من فلسطين بعد ان نفاهم سيدنا داؤد عليه السلام[ii] .

وفي عملية تأصيل الندوي لتاريخ وحضارة مراكش رغبة في تنبيه المسلمين اليوم سواء كانوا من سكان تلك المدينة أو المُدن الأخرى إلى عمق حضارتهم وامتدادها لفترات سابقة للإسلام ، ودعاهم لضرورة التصدي للطارئين على الحضارة الإسلامية ومنعهم من طمس صورة الحضارة الإسلامية العريقة فيقول في كتابه : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » : « أصبحت الديانات العظمى فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون لم يعرفوها ، وأصبحت مهود الحضارة والثقافة والحكم والسياسة مسرح الفوضى والانحلال والاختلال وسوء النظام ، وعسف الحكام ، وشغلت بنفسها ، لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، وأفلست في معنوياتها ، ونضب معين حياتها ، لا تملك مشرعاً صافياً من الدين السماوي ، ولا نظاماً ثابتا من الحكم البشري »[iii] .

وحينما يقارن الشيخ الندوي بين الحضارات القديمة وتأثيراتها وبين الحضارة الإسلامية وما فعلته في العالم يقول ان شمال أفريقيا بكل مدنه وقراه لم يعرف سوى القسوة

([i]) ابو الحسن علي الحسني الندوي ، اسبوعان في المغرب الأقصى ، مؤسسة الرسالة ، 1981 ، ص18 .

([ii]) الندوي ، المرجع نفسه ، ص18 .

([iii]) علي بن نايف الشحوذ ، النبوة والأنبياء في القرآن والسنة ،

والفروسية وشدة الشكيمة واستعصاء أهله على الفاتحين حتى ضرب المثل بأهلها البربر بالوحشية ، كما تشاغلتهم الحروب الداخلية وتمسكوا بالعادات والتقاليد القبلية فلا لغة راقية ولا حضارة رقيقة ولا دين معقول ولا مدينة مشهورة حتى جاء الإسلام فأقام حضارة وظهرت العديد من المُدن الكبيرة كالقيروان وفاس ومراكش ومكناس وسوسة وتلمسان وتونس لتنجب العديد من العلماء المختصين في الحديث النبوي والتفسير والفقه والتصوف والشعر والأدب والتاريخ والفلسفة[i] .

فضلاً عن ذلك فقد ضمت تلك المُدن العديد من المدارس كجامع القرويين وجامع الزيتونة تخرج منها الكثير من العلماء في شتى الفنون والمعارف وخلفوا أثاراً باقية مادامت اللغة العربية والحضارة الإسلامية بشكل عام باقية[ii]

لقد كان دور الإسلام كبيراً في تحقيق المساواة بين البشر في جميع بقاع الأرض من خلال الإقرار بأن البشر متساوون في الحقوق والواجبات وان المقياس الوحيد للتمييز بينهم هو التقوى كما في قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[iii] ، وهو ما أشار إليه الشيخ الندوي نقلاً عن هاملتون جب في كتابه تجاه الإسلام قوله : (لم يحرز مجتمع من المجتمعات البشرية نجاحاً مثل ما أحرزه الإسلام في إقرار المساواة بين الأجيال المختلفة بصرف النظر عن الطبقات البشرية وتنوع في الفرص وإمكانيات للعمل ، لقد تجلت من أوضاع الجالية الإسلامية الكبيرة في أفريقيا والهند واندونيسيا ومن الجالية الصغير في اليابان قدرة الإسلام على إذابة الاختلافات في الاجيال والتقاليد التي لا تزول على مر القرون وعلى مدار التاريخ ، فإذا كان لابد من إحلال عاطفة التعاون مكان الصراع والخصومة بين مجتمعي الشرق والغرب الكبيرين ، فلابد في ذلك من الاستعانة بالإسلام والاعتماد عليه في تحقيق هذا المطلوب)[iv]

([i]) أبي الحسن علي الحسني الندوي ، دور الإسلام في تقدم البلاد التي دخلها ودور المسلمين في التعريف بالأقطار التي عمروها وحكموها ، مقدمة على كتاب جنة المشرق ومطلع النور المشرق للسيد عبد الحي الندوي ، الهند ، ص5

([ii]) الندوي ، دور الإسلام ، ص5-6 .

([iii]) سورة الحجرات ، آية (13) .

([iv]) الندوي ، الإسلام أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية ، دار الصحوة للنشر ، (حلوان : د/ت) ، ص38-39 .
نقلاً عن :

ويشير الشيخ الندوي إلى دور المسلمين في نشر وتأليف الكتب الدينية في أفريقيا لاسيما في الأجزاء الشمالية منها ، فقد انجب ذلك الجزء العديد من العلماء الفقهاء المؤلفين كالقاضي عياض ، وأبو القاسم ، وعبد الرحمن التهيلي (شارح سيرة ابن هشام) ، وأبو الوليد الباجي (شارح الموطأ) ، والقاضي أبو بكر بن العربي (صاحب أحكام القرآن) ، وعبد الرحمن بن خلدون (صاحب المقدمة) ، ومحمد بن محمد الادريسي في الجغرافيا ، وابن بطوطة في الرحلات ، وابن رشيق القيرواني في الادب والشعر والنقد ، وقد تثبت بمؤلفاتهم وكتاباتهم علماء الشرق عدة قرون[i] .

لقد ذكر الشيخ الندوي خلال كلامه عن المغرب الأقصى عناية ملك المغرب الحسن الثاني بالعلماء القادمين من الأقطار الإسلامية لاسيما خلال شهر رمضان المبارك إذ يعهد لهم إلقاء الدروس والمحاضرات في القصر الملكي خلال الشهر الفضيل ، إلا ان الشيخ الندوي اشار إلى عدم تمكنه من حضور ذلك اللقاء لانشغاله بالمحاضرات التي كان لابد له من ان يلقيها خلال شهر رمضان في بلده[ii] .

وعلى الرغم من عدم مكوثه في تونس سوى ساعات قليلة في مطارها خلال توجهه إلى المغرب إلا أنه وبطبيعته الملتزمة والتي تبحث عن كل ما فيه طاعة الله تعالى سأل عن مكان الوضوء التي انتقدها قائلاً انها غير موجودة والحمامات على الطراز الغربي ، إلا انه قال هناك مكان للصلاة يسمى (بيت الصلاة)[iii] ، وحالما وصل إلى مدينة الدار البيضاء بدأ بوصف رحلته التي لا تخلو من صورة واضحة عن المجتمع المسلم هناك من خلال ذكر عادات وتقاليد السكان وتعاملهم ومدى تمسكهم بالإسلام والثقافة العربية ، فيشير إلى استخدام كلمات عامية تعود في أصولها إلى اللغة العربية وهو ما تفتقر إليه باقي الشعوب العربية إذ يذكر انهم وخلال بحثهم عن فندق يبيتون فيه في مدينة الدار البيضاء والتي تضم ثلاثة فنادق كبيرة وجيدة هي (الدار البيضاء ومرحباً و المنصور) استقبلهم موظف فندق

H.A.R.Gibb , Whither Islam , London , 1932 , P. 379 .

(i) الندوي ، أسبوعان ، ص64 .

(ii) الندوي ، المرجع نفسه ، ص64 .

(iii) الندوي ، أسبوعان ، ص72 .

المنصور الذي ذهبوا إليه أولاً قائلاً (عامر عامر) والتي تعني لاتوجد غرفة شاغرة والتي يستعيض عنها سكان بعض الأقطار العربية بكلمة (مليان) ، وتوقف الشيخ الندوي عند كلمة عامر قائلاً أنها اكثر بلاغة وأوفى بالمعنى وأقرب إلى العربية الصميمة ، فضلاً عن ذلك فأن القبائل العربية التي خرجت من شبه الجزيرة العربية مع الفاتحين واستقرت في البلاد التي فتحت احتفظت بالكلمات العربية الأصيلة مع تغيير بسيط في اللفظ فالمغاربة يقولون عن المكان الخالي بكلمة (خاوي) وهي كلمة عربية أصيلة يستخدم سكان دول أخرى كمصر كلمة (فاضي) بدلاً عنها[i] .

وربما ينطبق كلام الشيخ الندوي حينما قال : ((إن تاريخ حضارة الأمم ، وتاريخ نهضتها وزوالها يعلمنا أنه إذا أصيب مجتمع بشري بالتخمة بالمدنية والرفاهية وابتلى بالمسابقة المجنونة في الحصول على وسائل الترفيه وترقية المدنية ، وفي رفع مستوى المعيشة ، وبلغ رجال هذه المدنية قمة في البذخ وقمة في الترف ، وكانت عندهم جيوش كثيفة جرارة ، والعدد والعُدة التي يحاربون بها العدو ، ويقهرونه ، فأن هذا المجتمع يزول لا محالة ، وإن هذه المدنية ستنهار لا ينقذها شيء من هذا المصير المشئوم المحتوم والنهاية الاليمة المقدرة))[ii] .

وأمام النص السابق الذي يمقت فيه الشيخ الندوي الرفاهية وحب الحياة والتلذذ بها وترك الآخرة يعود ليذكر ابناء جزء كبير من القارة الأفريقية وهو المغرب العربي بأن للتمسك بالإسلام والحماسة الدينية دور كبير وواضح في اجلاء المستعمر الفرنسي من الجزائر ، وهو في نفس الوقت دعى إلى القضاء على الفكر الغربي المعادي للإسلام والذي تبناه الكثير من قادة العالم الإسلامي والمتمثل في محاربة طبيعة الشعوب الإسلامية الدينية ومحاولة التخلص منها أو التغلب عليها بكل حيلة ووسيلة ، الحرب الشعواء التي أسفرت في أكثر الأقطار الإسلامية عن الإخفاق والفشل ، ولكنها استهلكت جهود هؤلاء القادة وطاقات هذه الشعوب من غير ان تعود عليها بجدوى[iii] .

([i]) الندوي ، المرجع نفسه ، ص73 .

([ii]) أبو الحسن الندوي ، أحاديث صريحة مع أخواننا العرب والمسلمين ، دار الصحوة ، ط1 ، (الهند : 1985) ، ص88 .

([iii]) الندوي ، اسبوعان ، ص152 .

إن جهود الشعوب المسلمة وحفاظها على التزامها الديني كان حافزاً لطرد الغزاة الغربيين من تلك البلاد ، فخلال بناء ميناء في الدار البيضاء سنة 1907م من قبل شركة فرنسية اعتدى بعض العمال الفرنسيين على ضريح شيخ من الشيوخ مما أثار العمال العرب ودفعهم إلى الدخول في مشاجرة مع الفرنسيين انتهت بقتل (6 او 7) اوربيين لتستغل فرنسا الحادثة وتحتل المدينة بشكل خاص والمغرب بشكل عام حتى تم طرد تلك القوات على يد المقاومين المسلمين سنة 1955م[i] .

ويشير الشيخ الندوي إلى اهتمام سكان مدينة الدار البيضاء بالعلوم الشرعية والعلمية معاً فيقول انه وزميله كان قد لقيا شاباً يحفظ صحيح مسلم سنداً ومتناً ، كما ان المدينة عامرة بالمكتبات التي يأتي في مقدمتها مكتبة الرشاد ومكتبة الثقافة التي ضمت في ثناياها كتب ومؤلفات الشيخ الندوي الذي تحدث إلى بعض الشباب الذين لقيهم بعد ان صلى العشاء وسمع محاضرة للأستاذ ابو بكر الجزائري في الجامع المحمدي وكان سؤال أولئك الطلبة عن احوال الشيخ ابو الحسن الندوي والذي اجاهم من اين تعرفونه فقالوا من كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) فقال لهم انا مؤلف الكتاب فسلموا عليه وتناقشوا معه بمحتويات الكتاب وأعربوا عن قلقهم مما يتعرض له دعاة المسلمين[ii] .

وربما لم يحتج الشيخ الندوي إلى جهد كبير حينما دخل مدينة فاس التاريخية فهو يراها أمامه ويتذكر تاريخها من خلال مراجعته لكتابات المؤرخين والجغرافيين المسلمين عنها ، فيصفها بأنها أهم مراكز العلم والدين والتربية الروحية ويقارن بينها وبين مدن الهند قائلاً : (إن مكانتها في المغرب بالقياس إلى مركزها العلمي والثقافي وكثرة إنجاب الرجال والنوابغ وأئمة الفنون هي مكانة دلهي ولكهنئو ولاهو وملتان في شبه القارة الهندية) ، كما يعود ليذكرنا بمؤسس تلك المدينة التاريخية والذي ينتمي إلى سلالة مجيدة ذات جهد كبير في الإسلام فالمؤسس ادريس الثاني ذو نسب جليل والتأسيس تم في شهر فضيل هو شهر ربيع الأول سنة 192هـ ، وكل تلك الفضائل تأكدت في استجابة الله تعالى لدعاء ادريس

(i) الندوي ، المرجع نفسه ، ص76 .

(ii) الندوي ، نفسه ، ص77 .

الثاني لتلك المدينة حينما قال (اللهم اجعلها دار علم وفقه يُتلى بها كتابك وتُقام بها حدودك ، وأجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها)[i] .

لقد تصدى المسلمين في تلك البلاد الأفريقية لمحاولات الاستعمار الغربي الرامية لزرع بذور الفتنة بين العرب والبربر من خلال إصدار (الظهير البربري)[ii] والذي يدعو إلى فصل البربر عن العرب واستبدال اللغة العربية بلغة البربر القديمة وجعلها لغة الخطابة والمراسلات والتأليف والتصنيف ، والمكاتبة والمراسلة ، واختراع خط جديد لذلك ، وتأجيج النزعات البربرية الوثنية من خلال إحياء الأعراف والتقاليد الجاهلية وترجيح قوانين الغابات البربرية التي عاشوها قبل دخولهم في الإسلام ، وأمام كل تلك الأخطار يتذكر الشيخ الندوي موقف المسلمين في كل العالم الإسلامي الرافض لما فعله المحتل الفرنسي لإنجاح تلك الفتنة ، وربما لموقف جامعة القرويين من تلك الأزمة مثال واضح للرفض القاطع للفتنة فقد أوصى علماء وفقهاء الجامعة الأمة بقراءة الورد الآتي : ((يا لطيف الطف بنا فيما جرت به المقادر ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر))[iii] .

إن المتتبع لتلك الاحداث الرامية إلى فصل البربر عن تاريخهم وحضارتهم الإسلامية يصل للنتيجة التي تؤكد ان ملة الكفر واحدة ، فحينما وصل البرتغاليون ومن ثم الانكليز والفرنسيون وغيرهم من المحتلين إلى القارة الأفريقية لاسيما على الساحل الشرقي الأفريقي وغيره من المناطق عملوا على فصل الأفارقة الزنوج عن تاريخهم وحضارتهم الإسلامية وعملوا على غرس بذور الحقد والكراهية بين العرب والزنوج من خلال إفهام الأخيرين ان العرب هم من دمر القارة الأفريقية وهم من افرغها من شبابها من خلال استخدامهم كرقيق

(i) الندوي ، اسبوعان ، ص79 .

(ii) الظهير البربري : كلمة الظهير تعني المرسوم الملكي وقد ظهر بنسخته النهائية عام 1930م وقد أصدره المستعمرون الفرنسيون للفصل بين العرب والبربر ينظر : محمد المختار بن علي بن احمد الالغي السوسي ، سوس العالمة ، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر ، ط2 ، (الدار البيضاء:1993) ، ص100 .

(iii) الندوي ، أسبوعان ، ص80-81 .

، وعملوا على محاربة اللغة العربية وكذلك الحال مع اللغات واللهجات الأفريقية والاستعاضة عنها جميعاً بلغات المستعمر نفسه كالانكليزية والفرنسية والاسبانية[i] .

وحينما نعود لما شاهده الشيخ الندوي في المغرب العربي لاسيما خلال تجواله في جامعة القرويين والتي التقى بأساتذة كلية الآداب فيها وفي مقدمتهم الدكتور (عبد السلام الهراس) والذي وجد فيه الشيخ الندوي المثال الرائع للمسلم الداعي فهو مسلم ذو عقل سليم وفكر مستقيم وهو ذو دعوة متحمسة إلى الأدب الصالح والقيم والمُثل الإسلامية[ii] ، ولما لا يكون المسلم في هذا البلد بتلك الصفات الجميلة الجليلة المتشبعة بالعلوم والمعارف وهو يعيش في مدينة العلم والمعارف الإسلامية والتي تضم مكتبة عامرة بالكتب المهمة ككتاب موطأ الإمام مالك في مجلدين وهو مكتوب على الرق ، وكتاب (الفصوص في اللغة) وكتب أخرى كثيرة[iii] .

ويعود بنا الشيخ الندوي إلى التاريخ ليذكرنا بما كان يفعله الغرب المسيحي حتى بالذين سيدخلون في تلك الديانة من الشعوب الأفريقية من خلال عدهم مواطنين من الدرجة الثانية فهم غير متساوون مع البيض من المسيحيين ، وبشير الشيخ الندوي إلى عدم الاستقلال الديني في الحبشة فبعد ان قررت الدخول في المسيحية وترك الوثنية حددها اصحاب تلك الديانة من خلال قضاء مجمع (نيقية) بعدم استقلالها دينياً وإبقاءها تابعة للكرسي الإسكندري[iv] . وذلك الأمر معاكس تماماً لما فعله المسلمون تجاه الأفارقة فلون الزنجي وجنسه لم يحملا بأية حال إخوانه الجدد في الدين على ان يتعصبوا عليه ولاشك ان نجاح الإسلام قد تقدم في أفريقيا الزنجية تقدماً جوهرياً بسبب عدم وجود احساس باحتقار

([i]) محمد عبد الله النقيرة ، انتشار الإسلام في شرق أفريقيا ومناهضة الغرب له ، دار المريخ ، (الرياض : 1982) ، ص333 وما بعدها .

([ii]) الندوي ، اسبوعان ، ص83 .

([iii]) الندوي ، المرجع نفسه ، ص88 .

([iv]) الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، دار الغد الجديد ، ط1 ، (المنصورة:2005) ، ص44 .

الأسود فالإسلام لم يعامل قط السود على أنهم من طبقة منحطة كما كانت الحال في كثير من الأحيان في العالم المسيحي(i) .

ولم تقتصر كتابات الشيخ الندوي على تاريخ المنطقة (المغرب الإسلامي وجنوب الصحراء) بل وصلت إلى الزيارات الفعلية فبعد زيارته للمغرب الأقصى قام بزيارة مصر التي من خلالها زار دولة السودان والذي التقى بأعيانها وكبار رجالها، أمثال: السيد علي ميرغني باشا، والأستاذ إسماعيل بك الأزهري –رئيس وزراء السودان فيما بعد– وشوقي أسد سكرتير جمعية التبشير الإسلامي، ومحمد عوض إمام المسجد الجامع، والحاج محمد موسى سليمان قائد العمال ورئيس جمعية الشبان المسلمين(ii) .

ولما كانت مصر تشكل قلب القارة الأفريقية فقد دعاها خلال زيارته لها في خمسينيات القرن العشرين في مقالة له بعنوان (اسمعي يا مصر) دعاها إلى أخذ دورها في نشر الإسلام بين أبناء الجنوب الأفريقي الذين بقى قسم منهم على وثنيته والقسم الكبير منهم على الفطرة والسذاجة والبساطة بحيث تكون عملية تحويله إلى الإسلام بسيطة ، فيقول الشيخ الندوي لمصر ارسلي دعاتك ومبشريك ورجالك الصالحين يبلغون الدين ويتلون ايات الله تعالى وبذلك تنقذين أرواحاً كثيرة من النار وتخرجينها من الظلمات إلى النور وهو أمر افضل لكِ يا مصر من التودد لدول الغرب التي تخطبين ودها وتحرصين على صداقتها ، وهي لا تدوم على حال بل تجري وتدور مع أغراضها المادية ومصالحها السياسية ، فيوماً هي معك ويوم مع أعدائك ، وإذا كانت معك لم تكن بإخلاص وصدق وإنما هي المطامع والمصالح ، وما أضعف الصداقة التي تقوم على المطامع والأعراض(iii) .

وهنا يبدو دور الشيخ الندوي كداعية ومنبه لكل المسلمين حول خطورة المشروع الغربي الداعي إلى فصل المسلمين عن تاريخهم وحضارتهم والقضاء على ثقافتهم ولغتهم العربية وربطهم بتاريخ وحضارة الغرب .

الخاتمة :

(i) توماس ارنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة : حسن إبراهيم حسن وآخرون ، مكتبة النهضة المصرية ، ط3 ، (القاهرة:1970) ، ص394 .

(ii) محمد طارق زبير الندوي ، أبو الحسن الندوي الداعية الإمام ، مقال منشور على الشبكة الدولية (الانترنت)

(iii) أبو الحسن الندوي ، اسمعي يا مصر ، مقال منشور في مجلة الرسالة ، العدد (922) ، (2 مارس 1951م) .

بعد الانتهاء من البحث لابد من الإشارة لبعض النتائج المهمة التي تم التوصل إليها ومنها:

1- ان تاريخ الإسلام في أفريقيا كقارة وعلى الرغم من عدم زيارة الشيخ الندوي للكثير من بلدانه حظي بالشيء الجدير بالدراسة .

2- ان مارواه الشيخ الندوي عن المنطقة لاسيما خلال رحلته للمغرب الأقصى يضم الكثير من العبر التي يمكن الإفادة منها .

3- لابد لنا كمسلمين ان نهتم بكتابات الشيخ الندوي عن كافة بلاد المسلمين بصورة عامة وان نأخذ العبر من تلك الكتابات لنتمكن من حل مشاكلنا .

4- كلما وصل الشيخ الندوي إلى منطقة تاريخية في بلاد المغرب ذكر حدثاً تاريخياً مهماً حدث فيها ، كما استذكر شخصية قيادية مسلمة اسهمت في تحقيق الانتصارات المتلاحقة .

5- نبهنا الشيخ الندوي للكثير من فقهاء وعلماء ومفكري المغرب الإسلامي ، كما نبهنا للكثير من مؤلفاتهم الجليلة التي قدمت للمسلمين الكثير .

رحلات العلامة أبي الحسن الندوي بين العلم والتاريخ

أ. د. مصطفى أبو سليمان الندوي
جمهورية مصر العربية

فإن الله عز وجل قد غرس لهذا الدين غرسا مباركاً، وهذا الغرس يؤتي أكله كل حين بإذن ربه فيثمر ثماراً يانعة، ويطرح قطوفاً دانية تبعث في الخلق بهجةً وأملاً وحياةً وعطراً وثقةً ومدداً.

ومع كل موسم لها ترى الطرح يتجدد، والثمر يسفر عن مدى خصوبة التربة وثبات الجذر وديمومة العطاء.

وقد قال المصطفى ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[i]، فموسم الجني لشجرة الإسلام العظيمة يهب ثمار التجديد في كل مائة سنة لتلك الأمة المصطفاة لثمار قد امتلأت رواءً واستوت نضوجا من الأصل النبوي العظيم الذي تكفل الله بحفظه ومن ذاته تعالى كان فيضه.

وتلك الثمار النبوية المباركة هي تجديد للمنهج النبوي المبارك في شخص المجدد في عصره وأوانه بأخلاقه ودعوته وتربيته وجهاده وعلمه وأدبه ونتاجه وآثاره حضورا نبويا كاملا يحمل الراية لحاجة ذلك العصر وأهله.

وكان من هذه النماذج المشرقة التي هيأها الله للخلافة النبوية المباركة في ميدان الدعوة والعلم والأدب والتربية والذود عن هذا الدين ونبيه وأمته رائد بعث الربانية في أمة النبي ﷺ والمجاهد في مشرق العالم ومغربه لنفخ الروح الإسلامية والعاطفة القوية فيها سماحة العلامة الشيخ/أبو الحسن الندوي.

وقد تجلت هذه الخلافة النبوية والوراثة المحمدية في رحلاته الدعوية التي قام بها في مشارق الأرض ومغاربها يمثل بها جهاده ويُعرِّف بها العالم الإسلامي رسالته، ويلفت نظره

(i) أخرجه أبو داود رقم (4291).

إلى تاريخه الذي انزاح عن ناظريه، وضل عنه قلبه، ويخطب ويوجه ويحاضر ويدرس وينصح ويكتب ويصف الداء والدواء والبلاد والعباد، ويبرز العبر، ويحلل المشكلات، ويزرع الحلول، وينتقي الخلفاء، ويوجه العلماء كل ذلك بالمنهج النبوي الذي أقامه الله عليه وهيأه له، وبروح الإسلام وعاطفته الذي كان مستودعا لهما وناشرا لهما أينما حل أو ارتحل، وكانت تلك الرحلات خلاصة فكره وعصارة تجاربه وميدان جهاده، وإضافة له في ميزان العلم وذاكرة التاريخ.

وللإفادة من ذلك السفر الضخم لقاموس رحلات الشيخ تلك التي دونها بيده وسجل دقائقها وتفاصيلها بروحه وجعلها كرسالته محددة المعالم واضحة المنهج دقيقة العرض، ودليلا للسيرة والمسيرة نذكر الغاية من رحلاته والبلاد التي زارها، ودوافع تلك الرحلات، ومقاصدها وإضافاته العلمية وأعماله الدعوية في تلك الرحلات، وأهم الأحداث والأشخاص الذين قابلهم ، ثم الخصائص التي تميزت بها رحلاته وتدوينه لتلك الرحلات ثم نتائج ذلك السفر العظيم.

الغاية من تلك الرحلات:

كانت الغاية من رحلات العلامة الندوي هي الدعوة إلى الله، وتغيير الواقع الإسلامي المرير للمسلمين وتغيير فكرهم وتحويل وجهتهم وإزالة الغشاوة عن بصيرتهم وذلك بإعادة الثقة في تاريخهم واستمدادهم أسباب العزة والريادة من منهج أسلافهم، وقد رزق الشيخ نصيبا من التربية الدينية الأسرية ورعاية وعناية بنشأته الروحية والعلمية والبيئية واهتماما خاصا بتاريخ الرجال وسير العلماء والعظماء والأبطال من أبناء تلك الديانة الإسلامية وثمرات تلك الشجرة النبوية فامتلأ ثقة بدينه ومنهجه وقناعة بعلمائه والقائمين برسالته ودرس المناخات التي صنعتهم والطرائق والتجارب التي أنضجتهم والمناهج والمصاعب التي أسستهم فاكتمل التصور التربوي الإسلامي في قلبه وتحددت معالم الرسالة عنده فتحرك بها في الآفاق ونادى بها في المشارق والمغارب وبنى عليها في رحلاته اختيار موضوعاته العلمية ومادة محاضراته حتى ما كان يرتجله ارتجالا كان ينبع من ذلك التصور والرسالة التي ملأت نفسه ومهجته، وكذلك توجيهاته وإرشاداته التي كان يتحف بها كل من جالسوه وقابلوه

في جولاته ورحلاته كل ذلك ينسج من التصور ومن الرسالة ذاتها واتضح ذلك لما اعتزل التدريس وتفرغ لدعوة الجماهير المسلمة عموماً والمثقفة خصوصاً .

فما انتقل انتقالا ولا سافر سفرا ولا نزل محلا ولا زار مدرسة ولا جامعة ولا جماعة ولا هيئة ولا تنظيما ولا مؤتمرا إلا بقصد الدعوة إلى الله.

وأيضا ما تستلزمه تلك الرسالة الدعوية من مشاركة العلماء والدعاة والأدباء والقادة والعامة في مساعيهم وجهودهم العلمية والدعوية لتعزيز المد العلمي والتربوي والدعوي الإسلامي في جميع أقطار العالم، فشارك في مختلف رحلاته في الندوات والمحاضرات العلمية والأدبية وكذلك الروابط والمجمعات كرابطة الأدب الإسلامي العالمية ومجمعات اللغة العربية في مصر ودمشق وغيرها ومؤسسا لعدة جامعات ومراكز وجمعيات.

كما حدث في المجلس التأسيسي لجامعة المدينة المنورة وجامعة دمشق حين دعي لتأسيسها والتدريس فيها عام 1956م والمركز الإسلامي بأكسفورد الذي ترأسه الشيخ والمجمع الإسلامي للبحوث والحضارة الإسلامية بعمان الأردن، وكان برحلاته إلى تلك البلاد ومعايشة أهلها له ومعاشراته مدة مكوثه فيها، وكذلك رسائله وآثاره العلمية ومشاركاته الأدبية والخطابية كله يصب في تعزيز جهود إخوانه من العلماء لترسيخ المنهج الإسلامي وفتح نطاقه على كل المستويات.

وكل هذه المشاركات كانت هي مادة الرحلات ومقصدها وغرضها يصب ذلك كله في غاية الدعوة إلى الله والعودة الصحيحة إلى منهج الإسلام وتجديد الثقة به.

ويتضح ذلك من خلال أخف المشاركات أثناء تلك الرحلات .

فأثناء رحلته الأولى إلى الحج سنة 1947م أراد الشيخ أن يقدم رسالة له لتشق طريقها وتؤدي رسالتها في تعريف الناس في الحجاز بشخص المؤلف وتمهد له معرفة علمية وأدبية فتكون سابقا بين يديه إلى أوساطهم العلمية ومجالسهم الشرعية فتسهل عليه أداء رسالته وإيصال دعوته ونشر منهجه وفكرته وأوصل الشيخ الرسالة بهذا الهم الدعوي الصادق إلى البوليس المحلي والموظفين المحليين بالباخرة ليوصلها إلى قاضي البلد وكبار العلماء فيه وكان عنوانها «إلى ممثلي البلاد الإسلامية» وكانت أدبية بليغة من مستوى الداعية الرفيع كما قال

الشيخ الندوي نفسه وقدر الله لها ولصاحبها القبول في جميع الأوساط ومهدت له استفادات دعوية على نطاق واسع وكذلك رسالة «بين الجباية والهداية» التي انفتح على أثرها عمل التبليغ والدعوة في الأقطار الحجازية بفضل الله ثم إخلاص الشيخ وفكره السامق.

وقس على ذلك كل أحداث تلك الرحلات التي كانت تصب في ذلك المصب وتهدف إلى هذه الغاية النبيلة .

البلاد التي زارها الشيخ:

زار الشيخ رحمه الله عديدا من البلاد تقدر الرحلات إليها مكررة ما يناهز الستين رحلة يقارب الرحلة إلى الأقطار العربية منها ما يقارب الخمس وأربعين رحلة يدخل في ذلك كما ذكرت ما تكررت الزيارة إليه من الأقطار وهذا التعداد مقصوده الدول الكبرى كالحجاز وتركيا ومصر والإمارات والكويت والمغرب وبغداد وعمان ودمشق ناهيك عن المدن التي تنقل إليها بين تلك البلاد ذاهبا وآيبا رائحا وغاديا.

ونذكر من ذلك على سبيل المثال:

1- رحلته الأولى «مذكرات سائح في الشرق العربي»:

بدأت من ميناء جدة بالسعودية يوم السبت 12 ربيع الآخر سنة 1370هـ/20 يناير 1950م وانتهت في يوم الأحد 9ذي القعدة 1370هـ/ 12أغسطس سنة 1951م أي قرابة ستة أشهر.

وقد شملت هذه الرحلة بلدانا عديدة مصر السودان سوريا فلسطين الأردن، وقد ضم الكتاب أيضا بين دفتيه رحلة الشيخ الندوي إلى لبنان 1956/1375[1].

رحلته الثانية من نهر كابل إلى نهر اليرموك:

كانت في الفترة 4يونيو -حزيران سنة 1973م إلى 20أغسطس 1973م وكانت هذه الجولة في أفغانستان إيران لبنان سوريا العراق الأردن .

رحلته الثالثة:

---

(1) مذكرات سائح (صـ359، 368).

أسبوعان في المغرب الأقصى كانت في المملكة المغربية في الفترة من 5إلى 17مايو 1976م [i].

أما دوافع تلك الرحلات وأهدافها:

ذكرنا أن الغاية من الرحلات والأسفار عند الشيخ رحمه الله هي إرضاء الله بالدعوة إليه والقيام بواجب نشر دينه وبذر منهجه في كل محلة وقرية .

أما الأسباب والأهداف والدوافع التي كانت تقوم من أجلها الرحلات لتحقيق تلك **الغاية المرجوة فهي:**

أ- ما وهبه الله فيه من عالمية الدعوة وما يستلزم ذلك من حب السفر والترحال وإلف التنقل والتطواف وكأنه انطبق عليه قول الشاعر:

ما آب من سفر إلا وأزعجه   شوق إلى سفر للبين يدفعه

ب- تقوية علاقة الشيخ ومسلمي بلاده بتلك البلاد المزورة فقد ذهب الشيخ لكثير من البلاد اطلاعا على تاريخها أو مساهمة وتزويدا للدور الضخم التي تقوم به أو يمكن أن تقوم به تلك البلاد كمصر التي زارها سنة 1370هـ/ 1951م إدراكا لمكانتها الأدبية وإمامتها الفكرية في العالم العربي وتسديدا للدور الضخم التي تقوم به مصر في نقل الأفكار والثقافات[ii].

وكذلك رحلته إلى دول غرب آسيا سنة 1393هـ/ 1973م زار فيها أفغانستان وإيران ولبنان وسوريا والعراق والأردن نتيجة وجود صلات ثقافية وفكرية وتعليمية في هذه البلاد[iii] .

وكذلك رحلته إلى المغرب 1396هـ/ 1976م تحقيقا لرغبة قديمة له في زيارة المغرب لدراسة تاريخها ومجالسة كلا من أستاذيه العلامة/ تقي الدين الهلالي المراكشي ، وشقيقه زميل العلامة السيد أبو الحسن.

(i) أسبوعان في المغرب الأقصى (صـ66، 126)، رسالة ماجستير بعنوان الشيخ أبو الحسن الندوي أديبا الشريف فودة (صـ46).
(ii) في مسيرة الحياة: (1/217-218).
(iii) في مسيرة الحياة (1/350).

ج- دراسة واقع أقطار الرحلات دينيا وعلميا واجتماعيا لإمكانية التأثير فيهم والمساهمة في تحسين أوضاعهم .

د- التعرف برحلات تلك البلاد وقادة الفكر والعلم فيها والتذاكر معهم في الشئون العلمية والدينية والقضايا الإسلامية والمناهج الإصلاحية والمشاريع التعليمية ودراسة المشكلات العلمية والتربوية ووضع حلول لها ومسائل المعاهد الكبرى والمؤسسات التعليمية وذلك كما جاء في وصفه لنظام التعليم في سوريا ومصر وما جاء من نقد في ذلك وما أشار به من ابتكار منهجية جامعة دمشق عند زيارته لها عام 1956م .

هـ- التعريف بأهداف رابطة العالم الإسلامي ورسالتها وتمثليها في الرحلات والمؤتمرات[i] .

وقد قال الشيخ موجزا هدف رحلته الأولى إلى الشرق العربي :«وداعا أيتها الجزيرة العربية غير مهجورة ولا مملولة فليست هذه الرحلة إلا في سبيلك والاتصال بإماراتك العزيزة المنتشرة على ساحل البحر الأحمر والبحر البيض المتوسط أبلغها تحياتك وأرى ما فعلت الأيام بعد انفصالها عنك وما فعلت برسالتك التي حملتها عنك للعالم والأمانة التي تقلدتها» وهذا هو هدف الشيخ عموما من رحلاته كلها الوقوف على مدى التزام الدول الإسلامية برسالة الإسلام وكما أسلفنا كل هذه الروافد من الدوافع والأهداف لتصب في ذلك النهر العظيم نهر الدعوة الإسلامية وكم نحن في حاجة إلى دعاة يشخصون الداء ويصفون الدواء ومن الله الشفا[ii].

إضافته العلمية وأعماله الدعوية في رحلاته :

أما سر إضافات الشيخ العلمية وأعماله الدعوية التي عز لها نظير في الشيوع والتأثير فيرجع إلى أمرين؛ اكتمال البناء الروحي والعلمي للشيخ مما أدى إلى وضوح غايته وتمييز رسالته من ناحية وإنارة الله لباطنه وبصيرته من ناحية أخرى فأينما ولى وجهه ويمم شطره وسافر أو رحل أو نزل تخير من رسالته ومنهجه ما يناسب الزمن والبلد والحضور فألقى

(i) نهر كابل (ص6، أسبوعان صـ135).
(ii) الشيخ أبو الحسن الندوي أديبا (صـ156).

خطابه أو نظم محاضراته أو خط رسالته أو دوَّن مشاهدته أو عايش حدثه أو أسدى نصيحته مكمِّلا لما ينقصهم أو مكلِّلا لجهودهم ومساعيهم العلمية والدعوية أو مضمِّدا لجرح نازف عندهم مما يعانيه المسلمون في المشارق والمغارب واصفا الداء وأسبابه وعوامله محددا الدواء وعناصره وسبيل تحصيله في كافة المناحي العلمية والدعوية وخصوصا الروحية؛ التي هي عنده محل الأدواء ومدخل الدواء مصيبا بسهمه في ذلك غايته من الدعوة إلى الله ورد الدول الإسلامية إلى رسالة الإسلام ونهجه القويم .

والأمر الثاني ما كان للحركة من بركة وما كان لخلوص المقصد وصدق التوجه في السفر من فتوح وتوثيق وتسديد تجلّى ذلك التوفيق والفتح في حسن اختيار الموضوعات وانتقاء الكلمات وصفاء الأداء وكذلك طيب الأثر والقبول لجميع ما ألقى الشيخ ودرس وحاضر وخطب وأرسل في رحلاته وأسفاره .

يتجلّى أثر هذين الأمرين عند تتبع كل آثاره العلمية والدعوية والروحية في رحلاته وتنقلاته نذكر من ذلك على سبيل المثال ما ألقاه الشيخ في رحلته الأولى للحج عندما دعاه الشيخ محمد سرور الصبَّان نائب وزير المالية ومراقب الإذاعة السعودية إلى إلقاء سلسلة من الأحاديث اختار لها الشيخ رحمه الله عنونا «بين العالم وجزيرة العرب» يعبر عما في قلبه وضميره على لسان العالم ثم يرد هو بلسان جزيرة العرب والعالم إذ ذاك يقدم حقوق الشكر والتقدير على تلك المنن والهدايا الكريمة التي قدمتها جزيرة العرب للعالم ويعرض عليها جروح قلبه وفزع نفسه لماذا تخلت جزيرة العرب عن قيادتها وإمامتها وقالت له لسنا في حاجة إلى زيتك الذي تسير به الماكينات إننا في حاجة إلى ذلك النور والإيمان الذي اختصك الله به[i].

وكذلك لما نزل إلى مصر في خضم لقاءاته وفي أثناء مقابلاته أراد أن يُسمع مصر في رحلته إليها عام 1951م فكتب «اسمعي يا مصر» وخاطب مصر بنفس الروح التي خاطب بها جزيرة العرب وبنفس النهج الذي يجمعه من مكونات قلبه وروحه ولنفس تلك

(i) رحلات العلامة الندوي (ص39).

الغاية على حسب نصيب مصر من ذلك الدور فقال «يا مصر إن لك يدين فخذي بأحدهما الأشياء النافعة المفيدة وأعطي بالأخرى الروح والحياة وقدمي إلى الغرب تحائف الإيمان والإسلام ولا تنسي هذه الحكمة النبوية إن اليد العليا خير من اليد السفلى»[i].

حتى لما زار الشيخ جامعة دمشق ليكون عضوا مؤسسا لها ودعي لأداء سلسلة محاضرات فيها بلور غايته وترجم وجهته في تقديم النماذج التي صنعها الإسلام وأتحف بها أمة محمد ﷺ فعدَّلت وجهة الأمة إلى مسارها الصحيح وقلبت تيارها من التحلل والمادية إلى الجدية والربانية.

وقدم سلسلة محاضرات أثناء زيارته لدمشق وجامعتها في موضوع (رجال الفكر والدعوة).

وشرح بالغاية نفسها أسباب نبوغهم وأجواء تربيتهم ثم الطريقة التي ربوا عليها أجيالهم وما قدموه وأسهموا به في سبيل النصر والتمكين لهذه الأمة ولهذا الدين.

وكان قد واظب على هذه المحاضرات كبار العلماء كالأستاذ محمد المبارك والأستاذ مصطفى الزرقا والدكتور معروف الدواليبي والعلامة محمد بهجة البيطار وجماهير غفيرة من الشباب والطلاب استغرقت المحاضرات شهرين عبر عن غايته أثناء ذلك بضرب النموذج وإعطاء المثل للمجددين الإسلاميين عرضا تحليلا[ii].

وكذلك رحلته إلى تركيا في يونيو 1956م وتكلم مع الشباب الأتراك في أسباب القوة فيهم واستمدادها من تاريخهم وضرب لهم مثلا بمحمد الفاتح وكيف صنعه الإسلام، ومحمد بن القاسم الثقفي وكيف أعده الإسلام شابا قائدا فاتحا حتى فتح الهند ثم وصف الأسباب والعوامل التي تنحو بالشباب مثل هذا المنحى العظيم وتحط بهم على هذا الطريق القويم[iii].

وقس على ذلك كل اختياراته وجميع موضوعاته وأحاديث لقاءاته على كثرتها وتعددها وتنوعها كل يصب في المصب نفسه ويرجو الغاية نفسها.

أهم الأحداث والأشخاص الذين قابلهم:

(i) رحلات العلامة الندوي (صـ53).
(ii) رحلات العلامة الندوي (صـ96،97).
(iii) رحلة الشيخ إلى تركيا (صـ130، 131).

جمع قاموس رحلات الشيخ صنوفا من الأحداث وجملة من أفاضل العلماء والمشايخ ورجال الفكر والأدب والدعوة، فأفادهم واستفاد منهم وذاكرهم في أسباب النهوض العلمي والدعوي والتربوي وشاركهم في كثير من الجامعات والمؤتمرات وأجاب كثيرا من الدعوات تأسيسا وتدريسا ومحاضرة وكل من جالسه حتى من الأكابر والوجهاء نقل عنه وتأثر منه وتوجه به ، كما قال الشيخ العلامة القرضاوي في كتابه «الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته» و«رباني هذه الأمة» ما من عالم مفكر أو أديب إلا ونقل عن الشيخ وتأثر به وبمنهجه وغايته وطريقته ودعوته وذكر الشيخ محمد الغزالي على سبيل المثال أنه أول من لفت النظر إلى موقف سيدنا ربعي بن عامر حين دخل على رستم وظلال هذا الموقف روحيا ودعويا .

ومن الجدير بالذكر أن كثيرا من الشباب الذين قابلهم الشيخ وأشاد بهم ونوه بأشخاصهم وإمكاناتهم العلمية والشخصية صاروا فيما بعد علماء كبار لهم إسهامات في مجال العلم والعمل والدعوة كالشيخ القرضاوي نفسه والشيخ أحمد العسال عميد كلية الشريعة بباكستان والشيخ الدكتور أحمد الشرباصي، وزير الأوقاف المصري، وغيرهم، والشيخ عبد الله العقيل والشيخ عمر بن حسن آل الشيخ، وذلك ينم عن نور بصيرته وتوفيق الله له.

ونذكر من الأكابر الذين قابلهم الشيخ وأثنى عليهم في بعض كتاباته ومدوناته :

- قاضي جَدَّة ومدرس الحديث الشريف في المسجد النبوي قبل ذلك فضيلة الشيخ أحمد علي الحركان وكان يقرأ على تلاميذه رسائل الشيخ الندوي بل وربما أوقف دروس الحديث لهذا الغرض.

وكذلك الأستاذ الأديب الكبير أحمد عبد الغفور عطار الذي جمع له العلماء والأدباء وأصحاب والأقلام وناقشهم الشيخ وناقشوه وعن طريق ذلك أوصل إليهم منهجه ودعوته وفكره وفهمه وقدروا ذلك تقديرا كاملا دام انطباعه وأثره فيهم[i].

(i) رحلات العلامة الندوي (صـ37).

– وفي مصر رافقه الشيخ محمد الغزالي ترجمان الأخوان حينها وكاتبهم القدير في رحلاته وجولاته الدعوية.

– والشيخ الدكتور أحمد الشرباصي الذي رسم للشيخ صورة وصفية وضعت في أول كتاب الشيخ «ماذا خسر العالم».

– والأستاذ البهي الخولي ، المفكر الإسلامي ، صاحب كتاب (تذكرة الدعاة).

– والشيخ عبد الرحمن الساعاتي والد الشيخ البنا وسمع منه قصة ولده وحكاية استشهاده.

– والشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر وأعطاه رسالة محتواها وخلاصتها سبيل إصلاح الأزهر وإعادته لأداء دوره العظيم ورسالته الخالدة(i).

– وكذلك الشيخ حسنين مخلوف مفتي الديار المصرية .

– والشيخ محمد عبد الله اللطيف دراز.

– والشيخ أحمد شاكر، محدث الديار المصرية وقتها، وغيرهم.

وفي الشام أثناء رحلته لدمشق 19 رمضان 29 يونيو سنة 1951 عقد مقابلات شخصية ولقاءات عامة وخاصة الشيخ مكي الكتاني والشيخ أحمد الدقر والعلامة الشيخ محمد بهجة البيطار والشيخ أبي الخير الميداني والدكتور مصطفى السباعي والأستاذ الفقيه مصطفى الزرقا والشيخ أحمد كفتارو والشاب عبد الرحمن الباني الذي وصفه الشيخ بسلامة الفكر وصفاء الذهن وكان دليله في تلك الزيارة.

وفي الزيارة الثانية سنة 1956م لدمشق استقبله الدكتور السباعي والشيخ الفقيه مصطفى الزرقا وحضرا له محاضراته في التجديد في الفكر الإسلامي، وكذلك ممن حضر له الدكتور معروف الدواليبي والأستاذ محمد بهجة البيطار وكذلك فضيلة الدكتور سعيد رمضان البوطي(ii).

(i) رحلات الشيخ أبي الحسن (صـ50).
(ii) رحلات العلامة الندوي (صـ97).

وفي تركيا قابل عددا من العلماء والأستاذ محمد طنجي في المغرب ودليله في تركيا الأستاذ كمال أديب والأستاذ نافذ دانشمن أستاذ في علم الكلام والأستاذ عزت حسن أستاذ اللغة والأدب العربي وكذلك الدكتور علي كمال الذي استقبل الشيخ في بيته[i].

وفي بيت المقدس والخليل عام 1951 وبعدما توثقت علاقته بالشيخ أمين الحسيني المجاهد والمناضل والمفتي الكبير وقابل بعدها الملك عبد الله ملك الأردن الذي تعرف على الشيخ من خلال كتبه ورسائله وأوصاه بقضية فلسطين وبلاجئيها المساكين.

وفي الحجاز عام 1965م قابل الداعية المجاهد والقائد رئيس وزراء نيجيريا أحمد وبلو، وألقى بحضرته خطاب بعنوان «تمثيل الحياة الإسلامية الصحيحة مسئولية البلد الأمين» مذكرا الحجاز بروحه ورسالته.

وفي بغداد في عام 1973م قابل الشيخ عبد الرزاق الفياض رئيس ديوان الأوقاف العراقي والشيخ علي الصغير سفير المملكة العربية السعودية.

وفي عمان قابل الشيخ عبد اللطيف خان ووكيل وزارة الأوقاف الشيخ كامل الشريف وآخرون، وغير ذلك كثير مما لا يتسع له المقام.

أما عن أهم الأحداث في رحلات الشيخ:

فكل الأحداث التي قابلها الشيخ قدرا كان الله قد رتبها تغذية لغايته وتمحيصا وترسيخا لدعوته ومسيرته وسنعرض نماذج من ذلك ، أما الأحداث واللقاءات التي رُتبت له كانت كلها في هذا المضمار الذي يخدم الغاية ويمهد للصلاح والإصلاح في جميع المناحي والمجالات وما كان منها تغلب عليه الضيافة وثراء الاستقبال وجو الاستمتاع كان الشيخ لا يفتأ يذكّر فيه بتذكرة أو يستعرض منه عبرة أو يدوّن منه فكرة أو يجعل منه موضوع محاضرة أو رسالة.

فلما زار الشيخ في تركيا قبر الشيخ الرومي لم يلتفت فيه إلى الزينة وجلال البناء وإنما التفت إلى كومة التراب تحت الأنقاض التي هدرت منها أمواج العاطفة والمحبة والشوق التي

(i) رحلات العلامة الندوي (صـ161).

ملأت الدنيا روحا وعاطفة ولم يستفد منه المسلمون إلا تلك الزينات التي حنطوها متحفا جمدوا فيه الشوق وثلجوا فيه حرارة الحب.

ومن سيطرة الغاية وتأثير التاريخ على كل مشاعره:

إنه وقف مرة يتأمل ثكنة عسكرية في دمشق اسمها ثكنة معاوية بن أبي سفيان ، فوقف يتأملها ويستعيد فيها ذكريات ذلك الملك العظيم الذي كان أمير المسلمين في العالم وأكبر ملك على وجه الأرض فتقدم إليه عسكري مستغربا زيه وشكله وسأله عن هويته وكان قد نسي جواز سفره وكاد يقود الشيخ إلى مركز الشرطة لولا أنه أخبره أنه حاج يريد مكة فتركه ونجاه الله منه.

فانظر لسيطرة الغاية والرغبة في عودة المسلمين إلى سابق عهدهم حتى ملك ذلك على الشيخ مشاعره وسيطر على كل خطرة ونظرة ولحظة للشيخ أخلف الله علينا أمثاله[i].

وكان له أحداث مع الملوك والأمراء أذكر منها مقابلته مع الملك حسين ملك الأردن الذي استدعاه بحرارة وجلس يتحدث معه عن دقة الظرف الراهن وعسر هذه الفترة فذكره الشيخ أنه مسئول عن فلسطين واللاجئين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق وأننا جميعا موقوفون ومحاسبون بين يديه واستمع له الملك في إصغاء كامل وحضور تام وكان للشيخ مواقف مماثلة وكلمات مشابهة مع أمثاله من الملوك والأمراء كالملك فيصل بن عبد العزيز ، ملك المملكة العربية السعودية؛ والملك الحسن الثاني عاهل المغرب .

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ كان يسافر على حسابه وإذا نزل إلى بلد من البلاد نزل عند أحد أحبابه ومعارفه وتلامذته وإذا اضطر للنزول في فندق نزل على حسابه الخاص وإذا احتاج إلى المال أمده به أخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني ليكمل رسالته ويبلغ غايته ، وكان الأخ الأكبر يمده بالمال أحيانا وكذا أسرته ومشايخه ويمده بالوصايا والإرشادات كما وجهه إلى الدعوة في إفريقيا ودعا الله أن يجعل الشيخ الندوي وسيلة لذلك فهي قارة قاتمة تحتاج أن ينورها الله بنور الإسلام[ii] .

(i) رحلات العلامة الندوي (صـ89).
(ii) رحلات العلامة الندوي (صـ42، 53).

وكان تكفُّل الشيخ بتكاليف السفر صدقا منه بينه وبين ربه ،وتضحية يقدمها لدينه يستضئلها بين يدي أصحاب التضحيات من الأسلاف الأولين يرجو بها القبول عند الله، والقبول لغايته عند الناس؛ ولذلك ما كان لمثله من راتب منتظم من بعض الجمعيات الذي هو عضو تأسيسي فيها كان يستغني عنه احتسابا عند الله واستثمارا لغايته كما حكى عنه الشيخ المجذوب في مشاركته التأسيسية لجامعة المدينة المنورة وأنه كان لا يقبل منحا ولا راتبا ولا غيره وقال الشيخ أنّا لنا بزاهد وصاحب غاية مثله..!

حتى لما بعث له الشيخ محمد سرور الصبان بالدعوة للزيارة حجا وعمرة والمساعدة في تأسيس جامعة المدينة المنورة اعتذر والسبب الحقيقي أنه لا يملك تكاليف السفر وقال لرفقته سيأتي الله بنصرته الغيبية ومدده العاجل وكان الله دائما ما يسعفه بمدده ويفتح له من فضله[1].

وكان الله كثيرا ما يرتب له من ترتيبه ما يمحص به غايته ويرسخ في نفسه التربية الربانية المكينة.

فتحت عنوان «حيرة واضطراب» انتقل الشيخ من حلب إلى تركية في عام 1956م وأرسله أحد أخوانه بالشام بشيك بطياته 400 ليرة تركية ليصرفه فور وصوله من استانبول ليعتمد عليه في مصاريفه وحددوا له شابا سوريا من أخوانهم ليقيم عنده ، وذهب إليه الشيخ فلم يجده بعنوانه، وكان الشيخ لا يعرف اللغة التركية وهم لا يعرفون غيرها فلا استطاع أن يفهمهم مراده ولا هم استطاعوا أن يدلوه على شيء.

وكان سائق سيارة الأجرة الذي أوصله إلى هذا المكان ينتظر أجرته والشيخ ليس معه من المال ما يكفي طلبه فأعطاه أقل مما طلب من نثريات بسيطة من الليرات التركية كانت في جيبه.

فلما وصل إلى أحد من كان يحمل عناوينهم عن طريق أخوانه السوريين في تركيا ولما وصل إليه أعطاه العناوين والأوراق التي كانت معه فمزقها تمزيقا وكأنه خاف على نفسه من مظهر الشيخ الغريب ومن الأسماء التي كانت معه حتى حسِب الشيخ أنه مجنون ولما خرج الشيخ من عنده لم يقابل من يعرف الإنجليزية ولا العربية.

---

(1) رحلات العلامة الندوي (صـ185).

وأراد الشيخ أحد الأخوة ليقضي عنده الليلة فلم يجده الشيخ وكان اسمه الحاج نظيف جلبي حتى قضى الليلة واقفا في الشارع في غاية الحيرة وتذكر قول الله عز وجل وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [التوبة: ١١٨]، ويقول الشيخ: تذكرت أني قد ضقت في دمشق من كثرة الزائرين والداعين، ولما ضقت أراد الله أن يربيني على تحمل الناس وتعوِّد فتح الصدر لهم ، فلما انتقلت إلى استانبول لم أجد من يكلمني أو يعرفني أو يفهم لغتي.

يقول الشيخ: و لم تغن عني قوة الخطابة واللغة وسعة الثقافة شيء فعجزت الوسائل وضلت الحيل حتى توجهت إلى الله متذكراً قوله أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ [النمل: ٦٢]، حتى فتح الله له باب الفضل وقابل أربعة من السوريين من اخوانه أوصلوه للحاج نظيف الجلبي وأوصله الحاج إلى بغيته ومراده الأخ عبد الفتاح بعدما تمت حكمة الله من هذه الحيرة واستوعب الشيخ الدرس وتلقى ذلك المعنى الرباني الدقيق ثم جاءته الناس بعد ذلك أرسالاً وأفواجاً.

وذلك ليُعلم الله أن الله يتعهد أوليائه ودعاته في كل مكان حتى في رحلاتهم وأسفارهم وهو الذي يتولى تربية قلوبهم ويتكفل بإنجاح مساعيهم.

ومن الأحداث اللطيفة امتحان الطلبة للشيخ:

كان الشيخ في زيارته إلى الحجاز عام 1947م قد طلب لقاء جمع من الأدباء والصحفيين ليؤدي إليهم رسالته ويسدي إليهم توجيهه وإرشاده، و لم يكن الشيخ في تلك الآونة معروفاً عند أغلبهم فوجهوا إليه الأسئلة ليمتحنوه ويقدروا معرفته فسألوه في الأدب واللغة واختبروا دراساته ومعلوماته وناقشوه في أدب الدكتور طه حسين وعباس العقاد ويقيسون اطلاعه على اللغة الإنجليزية فأفاد الشيخ وأجاد ووجه وأرشد من خلال إجاباته

وما أراد أن يوصله إليهم بثه فيهم من خلال نظراته وإجاباته وقد كانت دعوته ورسالته تملأ عليه نفسه وروحه رحمه الله وأخلف علينا بمثله[i].

خصائص الرحلة عند أبي الحسن الندوي:

إن الذي يحدد مسار رحلة ما ومزاراتها وغالب الأحداث التي تجري فيها ومدى تأثيرها وإنجازاتها إنما هو الغاية من هذه الرحلة وأهدافها مع ما انطبعت به نفس الرحالة من حب السفر والانتقال وتمييز بعض المشاهدات المعينة التي تناسب ميوله وتوافق مزاجه وقد توافق الذوق عند الشيخ في حب السفر والترحال توافقا كبيرا مع غايته ووجهته فجاءت رحلاته وزياراته كلآلئ متناسقة في عقد الغاية الجامعة .

وقد كانت الغاية عند الشيخ أبي الحسن كما أشرنا من قبل إعادة ثقة العالم بهذا الدين وصلاحيته للنهضة بالعالم وقيادته في كل زمان ومكان وهذا ما كان يحدد على أساسه المقاصد لكل رحلة، ولأجله أيضا كان الشيخ يرتب أولوياته أثناء أسفاره في لقاءاته ومزاراته وكلماته ومحاضراته وموضوعات رسائله ومناقشاته ، بل وحتى تعليقاته على مرائيه ومشاهداته بل وهو ما كان يسيل خواطره ويصيغ أفكاره وكل ما كان يسترعي انتباهه من الجمالات الخلابة والمناظر الجذابة بعد إبداع الخالق فيها إلا ما تحمله في طياتها من تاريخ اُدخر فيه عز المسلمين وانتصاراتهم، وارتسمت عليه أذواقهم وأخلاقهم، وبدا عليه الحنين إلى أيامهم والحزن والأسى لأجل فراقهم.

ومن أول الخصائص:

1- كثرة الانتقال وتعدد المشاهدات والمزارات والهمة العالية والقدرة على الصبر والمواصلة .

كان الشيخ رحمه الله شعلة من النشاط فكان لا يرتحل للتتره والراحة وإنما تراه تكثر اجتماعاته ولقاءاته ومحاضراته حتى ليندهش المصاحب والمرافق أنه يريد أن يطوي المسافات

(i) رحلات العلامة الندوي (ص37).

ويجمع مختلف الأغراض والأشخاص والمطالب ويبسط مجال الوفت نيوسع الدائرة ويعمم المقال ويعذر إلى الله في البلاغ للدنيا كلها لو استطاع وللأمة كلها لو تيسر .

فتراه في رحلته إلى مصر عام 1951م زار كثيرا من الجماعات والجمعيات زار مؤسسة دار العلوم وجامعة القاهرة ومقرات الإخوان المسلمين وشباب سيدنا محمد ﷺ وجمعية أنصار السنة المحمدية وجمعية مكارم الأخلاق والرابطة الإسلامية والجمعيات الشرعية، وزار القناطر الخيرية ، وزار مدنا وقرى كثيرة كطنطا ، وبنها ، والحامول ، وحلوان ، وسنتريس ، والمحلة الكبرى ، ونكلة ، والعزيزية ، وقويسنا ، ونبروه.

كل ذلك مع ما فيه من اللقاءات والاجتماعات والمؤتمرات والمضايفات فقط في ستة أشهر إلا قليل، وهذا نموذج لا تختلف عنه كل رحلات الشيخ ووجهاته[1].

2- تنوع المزارات عند الشيخ وتميز وجهاته المقصودة .

ترى الشيخ في رحلاته يكثر من زيارة المساجد التاريخية ومقابر الصالحين والمربين والأئمة الأجلاء والملوك المشهورين والجامعات العلمية والشرعية وأماكن الغزوات والمعارك والمكتبات وبعض المنتزهات والقصور التاريخية العتيقة نذكر على سبيل المثال :

في مصر زار الشيخ الأزهر ومشهد الإمام الحسين ومسجد عمر بن العاص ومساجد الجمعية الشرعية وأنصار السنة وغيرها .

وفي الشام الجامع الأموي وجامع محيي الدين بن عربي والمسجد الأقصى وقبة الصخرة؟

وفي تركيا جامع أيا صوفيا ومساجد باستانبول وقونيه .

وفي بغداد مسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني ومسجد الشهداء ومساجد كثيرة .

ومن المقابر التي زارها :

في الحجاز زار بعد قبر النبي ﷺ قبور الصحابة والصالحين والتابعين.

---

(1) رحلات الشيخ (صـ51).

وفي مصر زار قبر سيدنا عبد الله بن الحارث وقبر الإمام الشافعي والسيدة نفيسة والسيدة زينب وغيرهم مع تعليق له على تلك المشاهد وما يفعل عندها من البدع والمخالفات .

وفي الشام زار قبر سيدنا بلال الحبشي وسيدنا خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبي.

وفي تركيا زار قبر سيدنا أبو أيوب الأنصاري وقبر مولانا جلال الدين الرومي.

وفي بيروت زار قبر الإمام الأوزاعي .

وكذا زار قبر مصطفى أتاتورك، عليه من الله ما يستحق .

وفي العراق زار قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكذا قبر الإمام أبي حنيفة وصاحبه أبي يوسف، وألم بالمشهد الكاظمي إلماما وغير ذلك مما لا يتسع المقام لذكره.

ومن المكتبات زار مكتبة الإسكندرية وكثيراً من المكتبات بالقاهرة والمكتبة السليمانية في تركيا ومكتبة الشيخ عبد الله المحمود في الإمارات وبعض المكتبات في الحجاز على ندرتها وبغداد وعمان.

وحتى المزارات التاريخية فقد كان يعول عليها إذا ما كان لها دور تاريخي يذكر وماض علمي عريق .

فزار الأهرامات وأبو الهول وقصر محمد علي .

وفي الحجاز خرج في صحبة بعض الكتاب والأدباء إلى بعض المنتزهات هناك.

وفي تركيا زار قصر دولمة بهجة من أهم قصور الدنيا ومتحف توب كابي.

وفي العراق زار متحف العراق .

وفي كابول زار منتزه بغمان الشهير.

وكل ذلك كان يدونه ويعلق عليه تعليقات يصيغها في قالب دعوته وتربيته وثقافته وثقته في تاريخه وأمله في مستقبل أمته[i].

(i) انظر لتعليقه على الأهرامات، وصخرة الانتحار في لبنان وخلية الملك سعود في بيروت ومرقد كمال أتاتورك وأبهة وزينة المشهد الكاظمي وقبر جلال الدين الرومي. (رحلات الشيخ أبو الحسن لسيد عبد الماجد الغوري).

لم يرعه من ذلك كله إلا حكمة الله وإبداعه في الأماكن وأصحابها وتمنيه حسن التفات المسلمين إلى عِبرها القاطرة وحِكمها السائلة وعدم الاكتفاء بمشاهدة مواطن الزينة فيها دون تدبر أو تفكر.

3- تقدير مدة الرحلات طولا وقصرا على حسب ما تقتضيه رسالته فيها.

ففي مصر عام 1951م قدر المقام فيها شهرين أو أكثر وبلغت الزيارة ستة أشهر لعظم دور مصر وحاجة الشيخ إلى توسيع مجال الدعوة فيها والإلمام بأكثر علمائها وأدبائها ومفكريها.

وفي الحجاز أيضا ستة أشهر لغاية الحج ومتطلبات الدعوة والحركة .

وفي المغرب أسبوعان .

ودمشق زيارة خاطفة في بعض المرات، وفي الأخرى أطال المقام .

وفي تركيا أسبوعان[1].

كل على حسب توفيق الله له في بلوغ غايته في ذلك السفر وقضاء حاجة دعوته في تلك البلد.

منهج الشيخ في تدوين رحلاته:

كان الشيخ رحمه الله حتى في تدوينه تسيطر عليه غايته وفكرته وتربيته وثقافته فلذلك تلاحظ في تدوينه لرحلاته بعض الملاحظات منها:

1- اقتضاب الشيخ في الوصف لمواطن الجمال ومناظر الجذب مما كان مبثوثا ومنتشرا في جميع الأقطار التي زارها الشيخ وإنما تراه يصفها وصفا دقيقا معبرا مجملا ليعطي للقارئ صورة عامة عن المكان الذي تمت زيارته وإنما يسهب أحيانا في وصف الأوضاع التعليمية والاجتماعية والجغرافية وتحليل أسباب الضعف والتردي فيها وعوامل الانحطاط عن سابق تاريخها .

---

(1) انظر مذكرات سائح ورحلات العلامة الندوي ومدة الرحلات فيها.

فتراه عند زيارته للقصر الذي دفن فيه أتاتورك لم يسرف في وصف الزينة التي تحيط به إنما أطنب في وصف كومة العظم التي آل إليها أمر صاحبها الذي أضر بالإسلام والمسلمين أيما ضرر وأن كل ما يستهوي الناظر حولها لا يغني عن صاحب القبر شيئا[i].

ولما زار خلية الملك سعود في لبنان مع ضخامتها وزينتها وفخامتها تراه يرثي لأحوال الفقراء والمساكين هناك مع وجود مثل هذا الترف والوفرة الباهظة في الزينة .

وتراه يسهب في وصف نظام التعليم في مصر ويذكر ميزاته وعيوبه وكذا تفصيل وصف نظام التعليم في سوريا وتعدد الأحزاب والجماعات والجمعيات فيها مع ذكر ما يسببه ذلك من خطر على مستقبل المسلمين.

2- حرص الشيخ على أن يدون كل شيء مما يدور في نفسه من خواطر وتعليقات حتى لكأن خافقه وهو ينبض إنما ينبض. في صدرك وصدى خواطره كأنما يساور عقلك كذلك وهو يصف حيرته واضطرابه في تركيا وهو يصف آماله وأشجانه عند موقعة مؤتة وعودة قيام المعركة على ميدان رأسه الفسيح بل رأس القارئ وهو يبث ويبوح بخواطره عند زيارة مدرسة ومرقد سيدنا عبد القادر الجيلاني والحال لو عاد الشيخ ونظر إلى الواقع الإسلامي الحالي على ما هو عليه ......!

3- تدوين الشيخ فقط لمشاهداته الشخصية وملاحظاته العينية فلا يصف الشيخ إلا ما يرى ولا يدون إلا ما شاهد وما استغربه أو أثار دهشته سأل عنه أهله ودون ما يسمع منه أثناء حضوره ومشاهدته لا كما فعل كثير من مدوني الرحلات أن يدونوا مشاهداتهم بعدها بفترة تطول أو تقصر، فكل تدوينه صدى لمرائيه ومسموعاته فتلاحظ ذلك في كل موصوفاته حتى الأشخاص الذين لم يقابلهم سمع من أهليهم وذويهم كما سمع عن الشيخ البنا من والده وعن السلطان عبد الحميد من المؤرخ التركي حامي دانشمند[ii].

4- تحرى الشيخ الصدق والدقة في كل ما يكتب دون أن يطوع شيئا لهوى أو يلوي شيئا لمراد .والرحالة صاحب الغاية ليس له من هوى ولا مراد إلا ما لا يخلو منه بشر سوى المعصوم ﷺ.

(i) زيارة الشيخ لتركيا، رحلات العلامة الندوي.

(ii) رحلات العلامة الندوي ص55, ص141

5- صياغة كل الأوصاف والتعليقات والمحادثات واللقاءات صياغة إسلامية خالصة أو بتعبير آخر تأثير تربيته وثقافته ودعوته على كل لقاءاته ومشاهداته وخواطره حتى إن القارئ الذي يخوض في غمار رحلات الشيخ ليكفيه من ذلك معرفة شخص الشيخ وفكره ومزاجه وميوله وغايته ، فهو في رحلاته كأنما يصف نفسه ويحلل ذاته وفكره .

6- سيطرة قضية فلسطين ولاجئيها في جميع رحلات الشيخ وتوجيهاته وزياراته ولقاءاته حتى لكأنها نفس يتردد فيه ودم ينبض في قلبه، فقد تكلم عن فلسطين في كل الأقطار العربية تقريبا ومع كل مسئوليها في مصر والشام والأردن وعُمان والمغرب ونظم فيها رسائله ومقابلاته وكذا كثير من محاضراته، وشغلت حديثه مع الملك فيصل والأمير سعود والملك حسين ومحمد الخامس وبمحضر الرئيس ياسر عرفات وعامة العلماء والأدباء وجل المؤتمرات والاجتماعات[i].

وأخيراً، هذا ما سمح به القلم القاصر والفكر مع كثرة الهموم والشواغل ، ولكنه دَيْنٌ لابد من أدائه وحق لا مناص من الوفاء به.

(i) انظر مذكرات سائح ورحلات العلامة الندوي .

موقف العلامة أبي الحسن علي الندوي في عرض الدعوة الإسلامية من الوسطية والاعتدال

أ.د. تقي الدين الندوي
أستاذ الحديث الشريف وعلومه في جامعة الإمارات سابقا
ورئيس الجامعة الإسلامية في مظفر فور أعظم جراه الهند

هذه كلمة وجيزة تبين موقف الشيخ في عرض الدعوة الإسلامية من الاعتدال والوسطية، ولا شك أن هذه المعاني مستمدة من الكتاب والسنة، قال الله تعالى في كتابه العظيم: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]، وأكّد النبي ﷺ لما أراد أن يبعث معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري إلى اليمن بقوله: ;يَسِّرَا وَلَا تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلَا تُنَفِّرَا وَتَطَاوَعَا[i]، وهذا المنهج في الدعوة اختاره العلماء الربانيون في كل عصر، منهم الإمام أحمد السرهندي (ت 1034هـ) وأولاده وتلاميذه والمنتسبون إليه.

وكان قد كتب سماحة الشيخ الندوي رحمه الله في ترجمة الإمام السرهندي[ii]: أن لمواجهة هذه الأوضاع التي كانت تظل الدولة وتحيط بها ثلاث طرق:

الأولى: أن يعتزلوا الدولة والبلاد ويتركوا حبلها على غاربها، ويشتغلوا بتربية الطالبين وإرشاد السالكين، هذا الطريق اختاره كثير من العلماء والمشايخ في عصره.

والثانية: أن يقطعوا الرجاء بصورة حاسمة من إصلاح السلطان.

والثالثة: أن يتصلوا بأعضاء الدولة وأمرائها وأن يسموا بأنفسهم ويترفعوا عن الجاه والمناصب.

---

i أخرجه أحمد في ;مسنده: (32/ 518).

ii ;رجال الفكر والدعوة في الإسلام: (3/305).

أما الطريق الأول: فما كان يلائم طبيعة الإمام، لأن الإمام السرهندي كان على يقين تام بأن الله تعالى هيأه لأمر عظيم كما قال: لو تصديت للمشيخة والإرشاد وأخذ البيعة من الناس لما وجد أي شيخ من مشايخ الطرق من يبايعه، لكن الله أراد بي أمراً آخر، وهو نشر الشريعة السمحة وتأييد الملة الحنيفية.

وأما الطريق الثاني: فإنه لا يسلكه من الدعاة أو القادة إلا صاحب عقلية سياسية قاصرة، محدود التفكير الذي يبدأ عمله من الشك وسوء الظن، وكان القيام بتكوين جبهة معارضة للدولة وإعلان الحرب عليها محفوفاً بالصعوبات والأخطار وكانت هذه الخطوة في الأوضاع السياسية السائدة في البلاد نوعاً من الانتحار في حق الإسلام إذ أخفقت في الماضي كل المحاولات لقلب نظام الحكم، لكن الشيخ السرهندي أكّد أن الجهود إذا نجحت -فرضاً- لخلع السلطان المغولي كان من المتوقع جداً أن يستولي الراجپوت الذين كانوا على مناصب عالية خطيرة في الدولة ويكون هذا ضربة قاصمة للسلطة المسلمة في هذه البلاد إلى الأبد، لهذا لم يبق بين يدي الإمام إلا طريق واحد وهو أن يبدأ باتصالات خاصة مع أركان الدولة وأعيانها بمعرفة عميقة للنفوس والذكاء الموهوب وبالحكمة الربانية والبصيرة الدينية، وبفضل الله تعالى تغير الحكم من عهد "أكبر"[i] هادم الإسلام إلى التمسك بالعقيدة الصحيحة وتغير المجتمع وأوضاع الدولة يوما بعد يوم إلى الإسلام حتى صار ولد حفيده "محيي الدين أورنك زيب" خادماً للإسلام وحافظاً له في الهند وذكّرنا عصر عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

ومنهم الإمام ولي الله الدهلوي (ت 1176هـ) وأولاده وتلاميذه، والعلماء المتأخرون الذين أخذوا منهجهما أثروا في المجتمع تأثيراً عجيباً لا يخفى على من درس تاريخ الهند الإسلامي، ومنهم الشيخ محمد إلياس رحمه الله (ت1944م).

واختيار هذا المنهج الذي هو منهج العلامة أستاذنا أبي الحسن الندوي رحمه الله وشرحه وبيانه في هذا العصر مهم جداً، ولفقدان هذا المنهج عند الدعاة والعلماء والمصلحين

---

[i] سلطان الهند في ذلك الوقت، وقد حكم أكثر من خمسين سنة.

المعاصرين انتشرت الفوضى والعنف والإرهاب، فهذا الموضوع يحتاج إلى مقالة طويلة، ولا أستطيع في هذا الوقت أن أفيها حقها، لكن شيخنا العلامة أبا الحسن الندوي شرح هذا الموقف في كثير من مؤلفاته ومنها كتابه: ;رجال الفكر والدعوة في الإسلام:، وكتابه ;الدعوة الإسلامية وتطوراتها في الهند:، و;حكمة الدعوة وصفة الدعاة:، ومن يريد أن يشاهد صورة عرض هذا المنهج في العالم الإسلامي فعليه بكتاب ;مذكرات سائح في الشرق الأوسط: و;ترشيد الصحوة الإسلامية: وغيرها من الرسائل.

إن الشريعة التي جاء بها رسول الله ﷺ هي شريعة تصلح لكل زمان ومكان، وصرح القرآن الكريم بأن هذا الدين قد بلغ طوره الأخير من الكمال والوفاء بحاجات البشر، والصلاحية للبقاء والاستمرار فقال : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُم نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وكذلك وصف الله في القرآن الكريم رسوله ﷺ الذي ختم به النبوة بصفات تشير إشارة بليغة إلى خلود رسالته وكونه قدوة صالحة وأسوة حسنة في كل عصر وجيل، ولكل طبقة من الناس من غير تقييد بزمان ومكان، فقال : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

لقد كانت بعثة النبي ﷺ مصدر كل خير ومنبع كل سعادة، وبفضل ذلك نشأ المجتمع الإسلامي الفريد، والعناصر التي كونت هذا المجتمع الإسلامي إنما هي ثلاثة: الأول : القرآن الكريم، الثاني: شخصية النبي ﷺ وسيرته وأخلاقه، الثالث: أقواله وأعماله وتوجيهاته التي يسمى مجموعها بالسنة، ويحتويها الحديث الشريف، لو تأملنا لعلمنا أن هذه العناصر الثلاثة بمجموعها عملت على إيجاد أمة جديدة، ولا يمكن أن يوجد مجتمع مثالي بدونها، وما نجد في حياة الصحابة رضي الله عنهم من خلق إسلامي وذوق سليم، والكيفيات الإيمانية العجيبة لم تكن نتيجة تلاوة القرآن وحده، وإنما كانت بجانب هذا فيها يد لتلك السيرة والأخلاق الفاضلة التي يشاهدونها والإرشادات والتعليمات التي يسعدون بها في عهد صاحب النبوة عليه الصلاة والسلام ،ولا شك أنهم رأوا أن القرآن يقرر أن هذه الدنيا ظل زائل، وأن الآخرة هي دار القرار ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ

﴿الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وإنما عرفوا حقيقة ذلك وتفسيره من أسلوب حياته عليه السلام وحياة أهل بيته ﷺ وكذلك كانوا يعرفون معنى كلمات الرحمة والتواضع والرفق والخلق وما إليها من التعليمات والتوجيهات، لكنهم لم يعرفوا مدى سعة هذه الكلمات إلا عند ما شاهدوا النبي ﷺ يعامل الضعفاء والعجزة والأطفال والنساء والفقراء وعامة أصحابه وأهل بيته تلك المعاملة السامية .

والواقع أن وقائع حياة النبي ﷺ المباركة وإرشاداته وتعاليمه تخلق ذلك الجو الروحاني، وهذه الوقائع هي مجموعة الحديث النبوي التي طبعت الأمة بخصائص متميزة .

إن المجتمع الإسلامي إذا تمسك بسنة النبي ﷺ فالله يحفظه من الانحراف والإفراط والتفريط، ويوفقه أن يختار منهج الاعتدال والوسطية في منهج حياته، كما يقول الشاعر الإسلامي محمد إقبال في شعره : إن هذا السر لا يعرفه إلا قليل من الناس أن المسلم ليس هو قارئ القرآن فحسب، بل حياته تفسير للقرآن الكريم الذي يتجلى في سلوكه، وهذا لا يكون إلا بالرجوع إلى أحاديث النبي ﷺ.

وقال أستاذنا سماحة الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله: لاشك أن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يزنوا به أعمال هذه الأمة واتجاهها، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث الذي يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، هذه الفجوة لا بد منها في السنن الإلهية, ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]، فلو لا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة، ولو لا التوجيهات النبوية الحكيمة، ولو لا هذه الأحكام التي أخذ بها المجتمع الإسلامي من الرسول صلى الله عليه وسلم لوقعت هذه الأمة في إفراط وتفريط، واختل الاتزان ، وفقد المثال العملي الذي حث الله على الاقتداء به بقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولاشك أن الحديث وسيلة قوية للحسبة في المجتمع الإسلامي، و لم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وبهذا كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية ، وظلت كتب السنة ولا تزال من مصادر الإصلاح والتجديد، ولا يستغني عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص والإسلام الكامل، ويشهد بهذه الحقيقة تاريخ الإسلام والمسلمين نفسه ، كلما ضعفت صلتهم بكتب الحديث غزت المجتمع الإسلامي تقاليد عجيبة ، وبدع ضالة، وأعراف دخيلة، وصدق قوله صلى الله عليه وسلم: :لتركبن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر ، وذراعاً بذراع:.

وبفضل الله ثم بجهود العلماء بقيت صورة عهد النبي ﷺ بجانب القرآن الكريم مسجلة، وبقاء حديث صاحب النبوة معجزة من معجزات الإسلام ، لا تشاركه فيها ديانة، إن الدين الإسلامي جاء ليبقى إلى يوم القيامة ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

موقف العلامة الامام أبي الحسن علي الحسني الندوي نحو الحضارة الغربية

الدكتور سعيد الرحمن الفيضي الندوى
(رئيس مركز الندوة للدراسات الاسلامية ، كندا)

العلامة الندوي قائد سفينة الانسانية :

ان العلامة الامام السيد أبا الحسن علي الحسني الندوي كان من المفكرين الذين قادوا الانسانية الى المسار الصحيح، والجهة المستقيمة، فقد أفادها بأفكاره وتوجيهاته، وأرشدها الى الموقف الصحيح، ذلك أن الناس كانوا بين الاقدام والاحجام مترددين ومتأرجحين، لا يعرفون الغاية في خضم الحضارات والثقافات، ولا يعرفون فكرة الوسطية متمثلة في كيان رجل، فجاء العلامة الندوي رحمه الله تعالى، ومثل الوسطية تمثيلا رائعا، حتى أعجب به المثقفون، فضلا عن عامة الناس.

عوامل تكوين شخصية العلامة الندوي:

ان العوامل التي كونت شخصية الامام الندوي كانت تتلخص في عدة نقاط:

أولا : ان أسرته كانت أسرة علمية، محتفظة بالدين، متمسكة بحبل الله المتين، وكان فيها من العلماء العباقرة الذين لهم كلمة مسموعة، أمثال الامام المجاهد السيد أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله، وكان أبوه العلامة عبد الحي الحسني وجده الشيخ فخر الدين وأخوه الطبيب الشيخ عبد العلي رحمهم الله من المثقفين بالثقافة العلمية والدينية، وكانت أمه من النساء الفاضلات، فكونت هذه البيئة العلمية الدينية شخصية العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي.

ثانيا : دار العلوم لندوة العلماء كانت قد مرت على تأسيسها عشرون سنة، وكانت لها جولة وصولة آنذاك بدوراتها السنوية، التي تعقد على مستوى البلاد فينة لأخرى، وكانت علاقة كباره لا سيما أبيه وأخيه قوية بهذه الدار العريقة في المجد والكرامة، وكانت جامعة بين القديم الصالح والجديد النافع، فلا بد له من الاطلاع على الحركات المعاصرة، والأفكار الهدامة والنزعات الحديثة.

ثالثا : شاعر الاسلام الثائر محمد اقبال؛ قد أعجب به العلامة اعجابا كبيرا، حتى ترجم أبياته الى اللغة العربية، وتشرف بلقائه في لاهور حيث كان يقيم فيها الدكتور اقبال، وكان العلامة الندوي كثيرا ما ينشد أبيات اقبال، ولا شك أن الدكتور اقبال قد انتقد الفكرة الغربية انتقادا لاذعا، **حتى**

هجم عليها في عقر دارها ، وكان يقول : لم يستطع بريق الحضارة الغربية أن يبهر لبي ، لأني اكتحلت باثمد المدينة۔

رابعا: القرآن والسيرة النبوية: القرآن هو كتاب اللّٰه المنزل على سيدنا محمد ﷺ، وهو كتاب كل مسلم، فجعل الامام الندوي فكرته مستقاة من هذا المصدر الثر، والسيرة النبوية كذلک، لان هذين المصدرين اذا تغافل عنهما الانسان ضاعت حياته، وقدقال رسولنا العظيم محمد ﷺ: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما ان تمسكتم بهما: كتاب اللّٰه وسنتي۔ (المؤطا للامام مالک)

خامسا: التاريخ وعلوم الاسلام: وقد درس الامام الندوي التاريخ القديم والجديد دراسة رجل متبصر، وقرأ علوم الاسلام قراءة فاحصة، حتى تجلت أمامه جوانب مضيئة للانحطاط والرقي، فكلما خطب وألقى محاضرة استمد فكرته من هذه المصادر حتى كان كلامه مدعما بالدليل۔ وقنع الناس بفكرته، وعملوا بما قاله وأبداه من آراء سديدة، وتوجيهات قوية رشيدة۔

سادسا: علاقته بالعلماء الربانيين: وكانت هذه العلاقة للاستفادة من هؤلاء المشائخ، لأنه كان يعتقد أن هذا الدين الاسلامي انتشر بواسطتين: رجال اللّٰه وكتاب اللّٰه، فلابد من الاعتناء بهذا الجانب المهم۔ وكان يختلف الى هؤلاء المشائخ أمثال الشيخ الرباني عبد القادر الرائفوري، والشيخ العلامة المحدث محمد زكريا الكاندهلوي والشيخ محمد الياس الكاندهلوي والشيخ محمد يعقوب المجددي رحمهم اللّٰه وغيرهم۔ فارتشف من معينهم، واستفاد منهم استفادة كاملة۔ حتى امتلأت بطاريته من الحرارة الايمانية۔ والحمد لله على ذلک۔

هذه هي بعض العوامل التي كونت شخصيته على حد علمي، وللناس فيما يعشقون مذاهب۔

الحضارة والثقافة:

اذا درسنا تاريخ هاتين الكلمتين وجدنا مدلولهما واضحا جليا ، فالثقافة عبارة عن العلوم والنظريات التي تتطور وتتجدد على مر العصور والدهور ، ولكن الحضارة تتشكل من النظم السياسية والوسائل الاقتصادية والعلم والفهم والدراية ، كأن الحضارة تترجم عن معاني العيش في هذه الدنيا، فلا يبقى انسان الا وهو يختار هذه الحضارة من المولد الى وفاته، وان لم يكن عالما، ومثقفا، متفقها، وهلم جراَ۔

الحضارة الاسلامية هي الحضارة الصحيحة:

الحضارة الاسلامية هي الحضارة النموذجية، لأنها تنبني على دعائم ثابتة من الايمان بالله رسوله ﷺ واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهي التي تحدث في جزاء الأعمال وعقابها، فلا يقدم نموذجا في قسم واحد فقط، بل في أقسام متنوعة للحياة والاجتماعية، وهذه هي معجزة الاسلام أن اللّٰه تعالى قدر لهذه الأمة المحمدية شريعة وقانونا وحضارة لا تزال ترشد ها الى الصراط المستقيم، تحل كل قضاياها، وتفک كل معضلاتها، وتفتح مغاليقها، ففيها دواء لكل داء،

وعلاج لكل مرض، وترياق لكل سم، والميزة الثانية لهذه الحضارة أن الله لا يزال يبعث لتمثيلها رجالا أكفاء، مجددين مصلحين، ينفون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطين، وتأويل الجاهلين، فهذه الحضارة فتية شابة، لا يعتورها القدم والبلى؛(فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون- (الروم:)-

يقول الدكتور عبد السلام الأزهري: أما قوام حضارة الاسلام فهو الايمان بالله الواحد الأحد وتحرير العقل البشري، والنفس الانسانية من الوثنية وتحرير الانسان من عبودية العباد وقيام الوحدة الانسانية العالمية وقيام ميثاق حركة الحضارة في مضامينها المختلفة من أجل اسعاد البشرية بالرحمة والاخاء ورعاية اليتيم وكفالة الضعيف وحماية المرأة، وأيما حضارة اذا تخلت عن الاطار الروحي والأخلاقي فهي على شفا هار، تنهار كما انهارات حضارة عاد وثمود وحضارة فرعون وحضارة سبأ-

أما حضارة الغرب القائمة على المادية البحتة، فستسير مسيرة مثيلاتها من الحضارات القديمة، وستنهار اذا بلغت رشدها وعمرها كما قال ابن خلدون"

(الامام أبو الحسن علي الحسني الندوي ومنهجه في الفكر والدعوة والاصلاح: ٧٠)-

وقد كان العلامة السيد أبو الحسن يصف الحضارة الاسلامية أنها حضارة انسانية خالدة كخلود الرسالة السماوية وأن لها جسم وروح، وقد استشهد بشهادات غير المسلمين في كتابه: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ان تأثير الاسلام في الديانة الهندوكية كان عميقا في العهد الاسلامي، وقول جواهر لا ل نهرو: ان نظرية المساواة الانسانية التي يعيش فيها المسلمون قد أثرت كثيرا في أذهان الهندوس-

لخص الامام الندوي المنن التي وفرها الاسلام للانسانية في عدة نقاط:

١-عقيدة التوحيد النقية

٢-مبدأ الوحدة النسانية والمساواة البشرية-

٣-اعلان كرامة النسان وسموه

٤-رد الاعتبار الى المرأة ومنحها حقوقها وحظوظها

٥-محاربة اليأس والنشاؤم وبعث الأمل والرجاء والثقة

٦-الجمع بين الدين والدنيا

٧-ايجاد الرباط المقدس الدائم بين الدين والعلم

٨-الجمع بين الدين الدنيا-

٩-استخدام العقل ولا انتفاع به حتى في القضايا الدينية

١٠-الوحدة العقائدية الحضارية-

(راجع للتفصيل: الاسلام وفضله على الحضارة للعلامة الندوي)

بداية الحضارة الغربية وأسسها:

بعد ما استفاد ت أوربا من تاريخ الأندلس وانتبهت من سباتها و تغلبت على نظام الحكم بدأت نهضتها، فجعلت ترتقي وتزدهر حتى بلغت أوجها في مدة قريبة، وقد جعلت أساسها الفكرة الأوروبية، وذكر العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي فكرة أوربا في أربع نقاط:

١ ـ الايمان بالمحسوس وقلة التقدير بالمحسوسات

٢ : قلة الخشوع والخضوع

٣ : شدة الاعتداد بالحياة والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها ـ

٤ : النزعة الوطنية ـ

وقال أيضا: اذا أردنا خلاصة هذه الآراء قلنا: انها المادية ـ

فالمادية هي كلمة جامعة تؤمن بها أوربا، فالكلمة التي ترددها هي لا اله الا البطن والمعدة، كأن أساسها في القرآن قول الله عزوجل: ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا و ما نحن بمبعوثين ـ ان المادية تحمل اسما براقا، وجسما لا معا، يجذب كل من يسكن اليها، ولا شك أن نبينا ﷺ قال: حفت الجنة بالماره وحفت النار بالشهوات ـ هذه هي حال المادية ـ

العلامة الندوي أول من دحض أباطيل الحضارة:

قد هجم الغرب على العالم الاسلامي في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، وكان هذا الهجوم شديدا للغاية، ولكن يحتاج رده الى سعة الفكر ودقة النظر والقوة والجراءة، وكانت شبه مفقودة فيمفكري تلك الآونة، فالنجم الذي طلع لرد هذا الهجوم الغربي هو العلامة السيد جمال الدين الأفغاني، ولكن تغلب عليه اللون السياسي، واكتفى بسعي اخراج الاستعمار من الدول الاسلامية، واختار تلميذه المفتي محمد عبده موقفا دفاعيا، وقام بتاويل بعض الحقائق المسلمة للاسلام، وكانت الآمال معقودة الاخوان المسلمين، ولكن حالت دون سيرها العوائق، مثل القومية العربية، وقام الشاعر الهندي أكبر الاله آبادي في شبه القارة الهندية برد هذه الحضارة بأبيانه النقدية اللاذعة، ولكن هذا الأسلوب لا يدوم، وقام الفيلسوف والشاعر الدتور محمد اقبال لكن انحصرت جهوده في منطقة دون منطقة، لأن أبياته كانت باللغة الأردية، وظهر في طبقة العلماء العلامة المودودي رحمه الله، وقاوم هذه الحضارة مقاومة مملوءة بالثقة واليقين، أعاد بها ثقة الشباب المسلم الى الاسلام، ولكن ظهرت منه أفكار وآراء في أصول الدين وشريعته صار بها مبعث الخلاف بين العلماء فانكمشت حركته في دائرة ـ

وكان العالم ينتظر شخصية تتصف بالوسطية وسعة الدراسة وحرقة القلب وتملك رصيدا كبيرا من العربية، وتكون نموذجا للزهد والاخلاص والمحاسن الاسلامية فقيض الله هذه الشخصية في صورة العلامة الندوي رحمه الله۔

درس العلامة الندوي تاريخ رقي الأمم وانحطاطها، وعرف عجر الحضارة الغربية وبجرها، فوصف لها وصفات ناجعة وردودا مقنعة، ولم يكتف بالنقد العام مثل الشخصيات الماضية، بل خاطب كل دولة واكتشف مكنونات حضارتها، وأشاد بخيراتها ثم نادى ضمير الانسانية وأخبرها بالخطر المحدق بها فقبل كل ذي غيرة اقتراحه، وزال مرض مركب النقص الذي كان مسيطرا على البلدان الاسلامية۔

ثلاثة مواقف تجاه الحضارة الغربية:

ولما صارت هذه المادية لها ارتقاء وازدهار، وأكب عليها الناس من غير شعور بأنفسهم، كانت مبعث خطر شديد على جميع المستويات، فانقسم الناس أمام هذه الحضارة الى قسمين:

(١) فريق رفض هذه الفكرة رفضا تاما، وتنازل عنها تنازلا كليا ـ

(٢) فريق قبل هذه الفكرة، واستسلم لها، وانقاد لها، وهو موقف الاستسلام والقبول۔

يقول العلامة الندوي: "ان هناك صراعا فكريا، بل معركة فكرية في عبارة أصح، في جميع الأقطار الاسلامية في هذ الوقت، نحن نستطيع أن نسميها صراعا ومعركة بين الأفكار والقيم الاسلامية والأفكار الغربية ـــــــ

ثم يقول: "واجه العالم الاسلامي في منتصف القرن التاسع عشر المسيحي مشكلة في غاية الدقة والتعقد والخطورة، هي مشكلة الحضارة الغربية الفتية، الدافقة بالحياة والنشاط والطموح وقوة الالنتشار والاستيلاء، واجه العالم الاسلامي هذه المشكلة وجها لوجه ــــ

وكانت هنال ثلاثه مواقف يستطيع العالم الاسلامي أن يقفها أمام هذه المشكلة الطريفة، لا أرى لهذه الثلاثه رابعا:

كان المواقف الأول: السلبية، وهو أن يرفض العالم الاسلامي هذه الحضارة وما جاءت به بتاتا ويقف منها موقف المعارض الثائر أو موقف المعتزل الحائد۔

والموقف الثاني: موقف الاستسلام والخضوع الكامل، موقف المقلد، وهو أن يقبل العالم الاسلامي أو جزء منه هذه الحضارة المادية الآلية ذات الطبيعة الخاصة بحذافيرها يقبلها بعقائدها الأساسية ومناهجها الفكرية"۔

وكان الموقف الثالث هو الوقف السديد: يقول العلامة الندوي:

"اذن فما هو الموقف الثالث؟ انه لا يمكن تحديد موقف العالم الاسلامي تجاه الحضارة الغربية حتى نعرف طبيعة الأمة الاسلامية، وهو الجمع الصالح المتزن العادل يستطيع أن يغير وجه الأرض" (الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الاسلامية بتلخيص كبير)۔

أبرز سمات العلامة الندوي لمقاوة الحضارة الغربية:

(۱) الايمان بثوابت الدين ايمانا كاملا

(٢) الاخلاص والتفاني

(٣) الجمع بين القديم الصالح والجديد النافع

(٤) الواقعية والوسطية

(٥) النقد الصريح والتحليل العميق.

(٦) الموسوعية والاحاطة.

كتب ومؤلفات للعلامة الندوي حول رد الحضارة الغربية:

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (٢) أحاديث صريحة في أمريكا

(٣) الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الاسلامية

(٤) الى الاسلام من جديد (٥) حديث مع الغرب

(٦) الحضارة الغربية الوافدة كما يراها الشاعر أكبر الاله آبادي

(٧) ردة ولا أبا بكر لها. (٨) الصراع بين الايمان والمادية

هذا غيض من فيض هذا الموضوع، والا أن سعته يريد بحر الا ساحل له، وقد قيل: حدث عن البحر ولا حرج.

الصحوة الإسلامية فى فكر الإمام الندوي

محمود القاعود
صحفى اسلامى
جمهورية مصر العربية

يُعد علامة الهند عليّ أبو الحسن الندوي (1913- 1999م) أحد أبرز علماء أمة الإسلام فى القرن العشرين ، ومن أكثرهم عمقاً وشمولية واستراتيجية، وكأن عناية الله بهذه الأمة قدرت بزوغ نجم الإمام الندوي فى سنوات عجاف شهدت تمزيق أمة الإسلام ،على يد الاستعمار وأعداء الرسالة المحمدية الذين تكالبوا من كل حدب وصوب ليواجهوا هذا الدين العظيم ، بوسائل غاية فى البشاعة والخسة ، وهو ما يُذكّر بمحنة الإسلام فى بداية الدعوة بمكة المكرمة، إذ عانى المسلمون من العنت والاضطهاد والحصار والملاحقة والمطاردة.. حتى أذن الله تعالى بانبلاج الفجر الساطع وانتصار رسالته الخاتمة التى أزهقت كل البدع والضلالات والوثنيات.

وبالنظر لأحوال أمتنا الإسلامية فى القرن العشرين نجد هواناً ما بعده هوان، وسقوطا ما بعده سقوط ..ففى هذا القرن، وضعت بريطانيا وفرنسا عام 1916 مخططا لتقسيم العالم العربي — تم بالفعل- عُرف باتفاقية (سايكس- بيكو) ومنحت بريطانيا لليهود وطناً فى فلسطين بمقتضى وعد " بلفور" عام 1917 وسقطت الخلافة الإسلامية على يد مصطفى كمال أتاتورك عام 1924م .. وتحوّلت الدول الإسلامية إلى مستعمرات ومنتجعات لبريطانيا وفرنسا وهولندا ، ونشأت حالة أقرب إلى ملوك الطوائف قبيل سقوط الأندلس ، وصار حكام الدول الإسلامية لا هم لهم إلا تعذيب الشعوب وتنفيذ أوامر دول الغرب .

وفى ظل هذه الحالة من الانحدار والتردي ، ومطاردة الإسلام وأهله بإيعاز من الغرب، كان لابد من ظهور الجيل الربانى الذى كان العلامة الندوي أحد أبرز أفراده ، خاصة فى دولة كُبري مثل الهند لها ثقلها وبها أكبر تعداد إسلامي فى العالم ، فأخذ على عاتقه رحمه

الله إيقاظ أمة الإسلام، والدفاع عن المسلمين وحثهم على النهوض من غيابات السقوط والخذلان والهوان .. كانت صيحاته كنذير يحمل مصباحا يُضيئ الطريق لهؤلاء الذين يعيشون فى ظلمات الجهل والتبعية والخمول ، وكان صيحاته لا تخص قطرا ولا بلدا بعينه .. وإنما تستصرخ الأمة بمفهومها الشامل الجامع ..

الصحوة الإسلامية فى رسائل الإمام الندوي :

فى خمسينيات القرن العشرين وجه الإمام الندوي عدة رسائل للدولة العربية .. كل دولة على حدة ، تتجلى فى هذه الرسائل عبقرية الدعوة وعمق المسئولية التى تحملها الإمام رحمه الله ، ففى رسالته المعنونة بـــ " اسمعي يا مصر" عام 1951م يهتف الإمام مستنهضاً شعب مصر الذى عانى من الاحتلال الإنجليزي فى تلك الفترة:

" إن مسئوليتك يا مصر أوسع وأعظم من تأدية رسالة الأدب وخدمة لغة العرب ، وما تجودين على الأقطار العربية الشقيقة برشحات الثقافة الأوربية وفتات المدنية الغربية . إنك بين آسيا وأوربا فأنت ملتقى الثقافتين ومجمع البحرين . إنك وسط بين مهد الإسلام ومشرق نوره ؛ وبين مولد الحضارة الغربية ومبعث العلوم المصرية ، فعليك مسئولية القارئين، وعندك رسالة الثقافتين .

فأما مسئولية آسيا والأقطار العربية فلا تخرجين منها يا مصر حتى تكوني قنطرة تعبر عليها إلى البلاد العربية تجارب أوربا وعلومها ونشاطها وكدحها في الحياة وجهادها للبقاء ، هنالك تقومين برسالتك ووظيفتك لهذه البلاد العزيزة التي ترتبطين بها برابطة دينية وروحية وثقافية وسياسية .

وأما مسئولية أوربا فلا تخرجين منها حتى تبلغي رسالة الجزيرة العربية – وهي الإسلام الذي احتضنته من زمان – إلى أوربا ، وحل المشاكل التي أعيت كبار المفكرين وأتعبت عظماء المشرعين ، وبذلك تؤدين واجبك المقدس نحو هذه القارة الأوربية التي استوردت منها شيئًا كثيرًا من العلم والمصنوعات والمنتجات ، ونظمت عليها مدنيتك وحياتك تنظيما جديدًا ، وتحسنين إليها أكثر مما أحسنت إليك وتصدرين إليها أفضل مما صدرت إليك "

يربط الإمام الندوي فى هذه الفقرة البليغة بين دور مصر فى آسيا ودورها فى أوروبا، لتكون النافذة والمعبر لباقى الدول الإسلامية ، وفى ذات الوقت تبليغ دعوة الإسلام لأوروبا ، وهو ما يوضح عظمة فكر الندوي الذى يقتدي بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى نشر الدعوة وتبليغها للناس كافة .

وفى ذات الرسالة يأسف الإمام الندوي لحال شعوب إفريقيا التى تعيش فى براثن الوثنية والشرك، ويستحث مصر أن ترسل الدعاة والعلماء لانتشال هذه الشعوب من مستنقعات الكفر والضلال وعبادة الأحجار:

" قد اختارك الله يا مصر قارة من أوسع القارات وأكثرها مواد خامة هي القارة الإفريقية ولا يزال جزء كبير منها على سذاجته وفطرته ، ولا تزال فيها أمم على الجاهلية والوثنية ، وعلى الجهالة والضلالة ، ولا تزال فيها أمم كاللوح الصافي يكتب الإنسان فيه ما يشاء ، وهذه الأجزاء من القارة وهذه الأمم خير حقل لجهودك وتربيتك ، وخير أرض لزراعتك وغرسك .

فأرسلي إليها دعاتك المبشرين ورجالك المصلحين ، وعلماءك المرشدين وأبناءك المعلمين ، يبلغونهم الدين ويتلون عليهم آيات الله ويعلمونهم الكتاب والحكمة ، وبذلك تنقذين بإذن الله نفوسًا كثيرة من النار ، وتخرجينها من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، وتكتسبين قلوبًا نقية وأرواحًا فتية وأجسادًا قوية ، ويكون ذلك خيرًا لك من هذه الأمم والدول الغربية التي تخطبين ودها وتحرصين على صداقتها ، وهي لا تدوم على حال بل تجري وتدور مع أغراضها المادية ومصالحها السياسية ، فيومًا هي معك ويومًا مع أعدائك ، وإذا كانت معك لم تكن بإخلاص وصدق ، وإنما هي المطامع والمصالح . وما أضعف الصداقة التي تقوم على المطامع والأعراض !"

والمتابع الآن لشئون القارة الإفريقية يتحسر على عدم الإنصات لرسالة الإمام الندوي، إذ صارت إفريقيا الآن مرتعاً للتنصير ومجلس الكنائس العالمي والحركات الإلحادية الشيطانية، بل يفتنون المسلمين هناك عن طريق الإغراءات بالأموال والمناصب، وتحوّل

المسلمون هناك إلى أقليات منبوذة تعانى العنت والاضطهاد ، بل التطهير العرقي كما فى بعض المناطق بنيجيريا وكذلك بإفريقيا الوسطي وأثيوبيا وأنجولا.

فهم الإمام الندوي لطبيعة القضية – الصحوة الإسلامية- جعله يستحث دول العرب ، الدولة تلو الأخرى .. أن حافظوا على دينكم ورسالتكم .. لننظر فى هذه الرسالة الحزينة الصارخة التى وجهها لسوريا عام 1956 م :

" قد خضع لك العالم يا سورية في القرن الأول، وقامت عليه وصايتك، لأنك كنت تمثلين ديناً جديداً قضى الله بظهوره وانتصاره، وتحملين الرسالة الكريمة التي تنقذ البشرية من الجهالة والظلم واستعباد الانسان للإنسان، ولا تعيشين لنفسك ولمصالحك وشهواتك، بل تعيشين للعالم ولصالحه ولخير الانسانية جمعاء، فمشى العالم كله في ركابك وأحبتك الامم المفتوحة، ومتى أحبت الامم المفتوحة فاتحها؟ فاختارت لغتك وثقافتك ودينك وعقيدتك أما وقد اشتغلت بنفسك وتخليت عن رسالتك، فقد انقطعت صلة العالم بك، وأصبحت قطراً من الاقطار، ودولة من الدول.

ولكن شأنك غير هذا الشأن يا سورية العظيمة، إن موقعك الجغرافي، وأهميتك الحربية، وتاريخك الماضي، وشعبك السليم المؤمن، كل يشير إلى أنك خلقت لغير هذا وأنك تسيئين إلى نفسك وتظلمينها لو اقتنعت بالدون، وزهدت في الزعامة العالمية!

ولكن كيف السبيل إلى ذلك، والزعامة ليست بالأمر الهين، وهنالك بلاد أوسع مساحة وأغنى في الوسائل و الامكانيات وأكثر عدداً وعدة ؟ !

إن السبيل الوحيد إلى ذلك يا سورية أن تحملي الرسالة التي حملتها في عهدك الأول، عهدك الزاهر الذهبي، وإن تتبني تلك الدعوة التي تبنيتها في القرن الاول فتتملكك كما تملكتك في العهد الأول، وتخلصين لها اليوم كما اخلصت لها بالأمس، وأن تجعلي العالم يشعر بحاجته إليك، وثيق بإخلاصك ونفعك، واحملي إليه رسالة الدين السماوي الذي أكرمك الله به منذ ثلاثة عشر قرناً يوم كنت تعانين من ظلم الرومان وحيفهم، ما يعاني كثير من الشعوب اليوم من الظلم والاستبداد، وشرور الاستعمار.

إن الامم يا سورية، لا تسود باللغات والثقافات، ولا تسود بالمدنيات والقوميات، إنما تسود بالرسالات والدعوات والأهداف والغايات، إنما تسود بالرسالات والدعوات والأهداف والغايات أسمى وأعلى، وأبعد عن الأغراض الشخصية أو الحزبية أو الاقليمية وأعرق في الإنسانية، كانت سيادة هذه الأمم التي تحتضن هذه الرسالات، وتدين بهذه الغايات أعمق وأرسخ وأوسع وأقوى ولا تزالين تملكين هذه الرسالة، وهي الرسالة التي حملتها إليه غزاة العرب ودعاتهم في العقد "

يُلاحظ من يقرأ رسالة الإمام الندوي .. أنه رسّخ أسلوبا فريدا في رسالة النهوض ، وهى أنه لا يعدد العثرات والسقطات أو يجلد الذات ، لكن عبقرية الندوي جعلته يُهيج الخواطر بالماضى العريق والانتصارات والانجازات ، ليمنح هذا الشعب الثقة كاملة في نفسه وأنه قادر على صنع المعجزات، ثم إذ به يلج للب الموضوع في رشاقة واتزان .. ويعلنها الندوي صريحة لا ارتفاع ولا زعامة يا سوريا إلا بالعودة للإسلام ورسالة الإسلام .. ووقتها فقط ستسود ين العالم !

وينبه الإمام الندوي إلى خطورة دعوات القومية التى انتشرت في خمسينيات القرن العشرين عقب الإطاحة ببعض الملكيات في العالم العربي، ونشوء الهوس القومي .. يُحذر الندوي من خطورة هذا الأمر .. وكان رحمه بعيد النظر في وقت فُتنت فيه الشعوب العربية بالقومية .. أعلنها صريحة " الأمم تسود بالرسالات والدعوات والأهداف والغايات " ..

الصحوة بين المسئولية والهدف:

للإمام الندوي رحمه الله رسالة صغيرة في حجمها ، عظيمة في معناها ومضمونها بعنوان " ترشيد الصحوة الإسلامية" وهى عبارة عن محاضرة ألقاها الإمام الندوي في أبو ظبي بدولة الإمارات، ويلخص فيها عدة حقائق يجب أن تكون حاضرة لدي من يعملون على الصحوّة .

* الصحوة الإسلامية مسئولية كبيرة وأمانة دقيقة:

* الصحوة من طبيعة الإسلام وواجباته، وحاجة البشرية الدائمة:

* يقـــترن بالصحـــوةِ الوعيُ المدني وفهم القضايا المعاصـــرة والحركات والتيارات العاملة النـــشيطة

* نتائج التغاضي عن الحقائـــق وواقع الحياة، والانطواء على النفس والذوق الخـــاص

* العناية ببقاء الشعور بأهمية الجهاد في سبيل الله وفضله

* كيف تقع حركات إصلاحية جذرية فريسة الجمود الذي تنشأ لإزالته، وتفقد الحيوية والحركية؟

– ضرورة كون الصحوة إيجابية، والتوقي من المجابهة وإثارة المشاكل والمعارضات من غير ضرورة

– أهمية الزهد والقناعة والعزوف عن حب العلو والتنافس في الدنيا في تاريخ الإصلاح والدعوة

– الحاجة إلى اقتران الصحوة بروح التضحية والبطولة

– تمثيل السيرة الإسلامية المثالية النموذجية أمام غير المسلمين

– الاضطلاع بقيادة البلاد الخُلُقية ومكافحة الفساد الخُلُقي والاجتماعي

– ممارسة الحقوق المدنية والجمهورية في شجاعة وذكاء للمحافظة على الشخصية الإسلامية، وتتبع ما يسن من قوانين وما تتجه إليه البلاد:

– العناية بتثقيف الجيل الجديد وترسيخ العقيدة الإسلامية المتميزة في نفوسه وعقليته

في هذه الخطوط العريضة جمع الإمام الندوي بشمولية رائعة وعمق استراتيجي أهداف وغايات ووسائل الصحوة والمخاطر التي يمكن أن تعرقل طريقها ، مدللا بأحداث ووقائع ، وضاربا الأمثال في الماضي والحاضر التي تشرح حال المجتمعات الإسلامية وما هو المطلوب للنهوض والخروج من ربقة الذل والخضوع لقوي الشر العالمية التي تكيد للإسلام والمسلمين.

الصحوة بين الواقع والعلاج :

يتحدث الإمام الندوي عن حقيقة الوضع ، لأنه دائما إذا تم التشخيص بطريقة صحيحة يكون العلاج ناجعا، وهذا عين ما وصل إليه الإمام:

" ليست المسألة انحطاط في الأخلاق وضعف في العبادات وترك للشعائر، ، وتقليد للأجانب، وإن كانت مسائل تستحق العناية والجهاد ، ولكن المسألة العالم الإسلامي اليوم أعظم واضخم من كل ذلك ، إنها مسألة كفر وإيمان ، إنها مسألة بقاء على الإسلام وخلع له ، إن المعركة قائمة بين الفلسفة الغربية اللادينية وبين الإسلام آخر الرسالات ، وبين المادية والشرائع السماوية ، ولعلها آخر معركة قامت بين الدين واللادينية وانها تحدد مصير العالم " أ.هـ (ردّة ولا أبا بكر لها) . (ص 18 – 19)

ويجد القارئ لتراث العلامة الندوي أنه أولى مصر اهتماما خاصاً في شأن الصحوة ، وأنه بنهوضها ينهض العالم الإسلامي .. يقول رحمه الله :

" لقد كان لمصر أن تنشئ قناة أفضل من قناة السويس ألف مرة، وأعود منها على الشعوب الإنسانية بالخير والسعادة ، وأعمق منها تأثيراً ، في اتجاه العالم ، ومصير الشعوب والأمم ، وأوسع تأثيراً في التاريخ الإسلامي، وهى قناة التعارف الصحيح المتبادل المتوازن بين الشرق والغرب، قناة تصل الشرق المتخلففى العلوم الطبيعية والصناعات المفيدة بالغرب الذى بلغ الذروة فيها ، وتصل الغرب الحائر المتخم بقوته المادية ، المفلس في الروح والأخلاق، البائس المتشائم، السالك في سبيل الانتحار ، بمنابع الرضا والهدوء والأمن العاطفي، والثقة المتبادلة ، والأمل القوي في مستقبل الإنسان ، الكامنة في رسالات الشرق الدينية والروحية التى يمثلها الإسلام في شكلها الكامل والنهائي ، وتصل وسائل الغرب الهائلة الجبارة المكدسة التى لا تعرف غاية بغايات الشرق النبيلة الكريمة الرحيمة التى لا تملك وسيلة ، تصل الغرب الذى يستطيع ولا يريد ، بالشرق الذى يريد ولا يستطيع ، فيفيض كل واحد منهما على الآخر أفضل ما عنده ، ويتعاونان – تعاون الشقيقين-في إسعاد البشرية وتهذيب المدنية ، هذه هى القناة الثقافية العقلية التى تعتبر — لو تحققت وظهرت إلى الوجود — فتحاً جديداً في العالم ، ومأثرة تاريخية تشغل أعظم مكان مشرف في التاريخ الحديث، وتكسب لمصر الزعامة الخالدة ، واشرف مركز تطمح إليه القلوب والأبصار"

ويردف العلامة الندوي معوّلا على ريادة مصر وثقلها بعودتها الإسلام :

" لقد كانت مصر جديرة باحتلال هذا المركز الخطير ، وتمثيل هذا الدور العظيم ، لو تهيأ لها – في أول عهدها بالحضارة الغربية والثقافة الأجنبية– إيمان قوي بخلود الرسالة الدينية التى أكرمها الله بها بالإسلام ، وشدة حاجة الإنسانية إليها ، والعزم الصحيح على الإخلاص لها، والاتصاف بصفاتها ، والتفاني في سبيلها ، والهضم الصحيح القوي للعلوم العصرية ، وتقوية نفسها بها ، وإخضاعها للدور الذى يجب أن تمثله في العالم المعاصر ، وتهيأت لها شخصيات قوية موجهة . (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ص 118 – 119)

وفى كتابه " تاريخ المد والجزر في الإسلام يكشف الإمام الندوي حقيقة يتغافل عنها البعض ألا وهى " الإيمان" الذى هو بمثابة روشتة علاج لأمراض الأمة جميعها : " المد والجزر في تاريخ الإسلام وأحوال المسلمين تابعان للمد والجزر في الإيمان ، وقوة معنوياتهم التى تنبثق من الدين ، وأن منبع قوة هذه الأمة في باطنها وهو القلب والروح، فإذا عمر القلب بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، وتزّكت الروح بتعاليم الدين والأخلاق الإسلامية ، وجاش الصدر بالحمية الدينية جيشان المرجل ، وأخذ المسلمون عدتهم من القوة المادية، وأعدّوا للعدو ما استطاعوا ، وأدركوا ما عليه العالم من جور وظلم ، ومن جهالة وسفاهة ، وضلال في الدين والدنيا وعلموا أن الزمان قد استدار كهيئته يوم جاء الإسلام ، والعالم قد عاد جاهليا كما بدأ " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ " (الروم : 41) فانعطفوا عليه ، ورأوا كأن العالم في حريق ولا ماء إلا عندهم ، فسعوا به يطفئون النار التى عمّت الدنيا ، ونسوا في سبيل ذلك لذاتهم ، وتكدّر عيشهم ، وطار نومهم ، وجنّ جنونهم؛ فعند ذلك يتحوّلون قوة خارقة للعادة ، لا يغلبها العالم ؛ ولو سعى بأسره وجميع شعوبه وجنوده ، ودوله ، ويصيرون قضاء الله الغالب وقدره المحتوم وكلمته العليا

"وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ "(الصافات: 171- 173).

" وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " (آل عمران: 139). (المد والجزر في تاريخ الإسلام ص 81 – 82).

خاتمة

لعل أفضل ما اختتم به هذه البحث السريع هى وصية الإمام الندوي التى تثبت أنه كان رجلا بحجم أمة ، حمل همّ الإسلام ونافح عنه حتى لقي ربه :

" إسمعوها مني صريحةً أيها العرب: بالإسلام أعزّكم الله، "لو جُمع لي العربُ في صعيدٍ واحد واستطعت أن أوجّه إليهم خطاباً تسمعه آذانهم، وتعيه قلوبهم لقلتُ لهم : أيها السادة ! إنّ الإسلام الذي جاء به محمد العربي صلى الله عليه وسلم هو منبع حياتكم، ومِنْ أُفُقه طلع صبحُكم الصادق، وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو مصدر شرفكم وسبب ذكركم، وكل خير جاءكم – بل وكل خير جاء العالم – فإنّما هو عن طريقه وعلى يديه، أبى الله أن تتشرفوا إلا بانتسابكم إليه وتمسُّكِكُم بأذياله والاضطلاع برسالته، والاستماتة في سبيل دينه، ولا رادّ لقضاء الله ولا تبديل لكلمات الله، إن العالم العربي بحرٌ بلا ماءٍ كبحر العَروض حتى يتخذ محمد صلى الله عليه وسلم إماماً وقائداً لحياته وجهاده، وينهض برسالة الإسلام كما نهض في العهد الأول، ويخلِّص العالَم المظلوم من براثن مجانين أوروبا– الذين يأبون إلا أن يقبروا المدنيَّة وقضوا على الإنسانية القضاء الأخير بأنانيتهم واستكبارهم وجهلهم– ويوجِّه العالم من الانهيار إلى الازدهار، ومن الخراب والدِّمار والفوضى والاضطراب، إلى التقدم والانتظام، والأمن والسلام، ومن الكفر والطغيان إلى الطاعة والإيمان، وإنه حق على العالم العربي سوف يُسألُ عنه عند ربه فلينظر بماذا يجيب ؟!"

هكذا كان الإمام الندوي عليه رحمات الله مناضلا حتى آخر لحظه في عمره المبارك الذى خصصه لمقاومة اللادينية واستنهاض الشعوب والأمم الإسلامية علها تفيق وترجع إلى طريق رسالة الإسلام التى من خلالها ساد المسلمون العالم .

رحم الله الإمام وجمعه مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

اثر التجربة التاريخية الإسلامية في الآراء السياسية للشيخ أبي الحسن الندوي

أ. م.د محمد خالد عبد البرهاوي
جامعة الموصل/ كلية الآداب

المقدمة

ترك الشيخ أبي الحسن الندوي إرثاً ثقافيا كبيرا كان من السعة بحيث انه شمل نواحي عديدة من مفاصل الفكر الإسلامي، وإذا ما أمعنا النظر في آرائه السياسية نجد أن الشيخ لم يقدم عملا أكاديميا مستقلا في موضوع الفكر السياسي الإسلامي، ربما لأنه كان على قناعة تامة بان الفكر السياسي الإسلامي متكامل الأركان من الناحية النظرية، وانه ليس بحاجة إلى مزيد من التنظير والشرح والتعليق، وان الأمة الإسلامية أحوج ما تكون، في ظروفها الحاضرة، إلى العمل والتشمير عن ساعد الجد، وبالرغم من هذا فلم تعدم كتابات الشيخ الندوي من إشارات، بين ثنايا كتبه ومحاضراته، تحمل دلالات سياسية وتلميحات عن آرائه التي كان يعتنقها في الفكر السياسي، غير أن هذه الإشارات لم ترد عنه على سبيل التنظير، بل إنها جاءت في إطار السياق العام الذي تتسم به كتاباته عامة، وهو سياق الوعظ والنفخ في الروح الإسلامية ودفعها دفعا إلى العمل والجد، وهذا البحث معني بصورة خاصة إعطاء تصور عام عن آراء الشيخ الندوي السياسية واثر التجربة التاريخية الإسلامية في بنائها ووضعها في السياق العام الذي هدف إليه الشيخ.

التمهيد

لا بد من تصدير هذا البحث بتمهيد يبين بعض المقدمات التي لا بد من الوقوف عليها لإدراك ماهية هذا البحث وإزالة أي لبس قد يقع عند الوهلة الأولى من قراءة عنوانه، فالحديث عن التجربة التاريخية وأثرها في صياغة الآراء السياسية للشيخ الندوي لا يعني أبدا بان الشيخ كان ينظر إلى التجربة التاريخية الإسلامية على أنها إحدى مصادر التشريع التي لا بد أن يكون لها حضورها عند الحديث عن الفكر السياسي أو أي حقل من حقول الحياة

اجتماعية أو اقتصادية أو إدارية، فمن خلال متابعة كتابات الشيخ يلاحظ بوضوح، لا لبس فيه، أن الشيخ كان معتمدا بصورة خاصة على مصادر التشريع المتعارف عليها في الشرع الإسلامي (الكتاب والسنة والإجماع والقياس) فقد التزم بان تكون كتاباته في ضوء القران والنواميس الآلهة والسنن الأزلية التي بينها القران وشهد بها تاريخ الأمم. وكان دائما يقدم الحوادث والسير التاريخية بما يدعم التوجيه القرآني والنبوي. فقد نظر إلى التجربة التاريخية الإسلامية التي جاءت بعد العهد الراشدي على أنها تجربة بشرية يشوبها ما قد يشوب أعمال بني الإنسان من عوارض الخطأ والنسيان، بالرغم من ما قد تحمله من صفحات مشرقة جديرة بالاقتداء، بعكس التجربة التاريخية التي حدث أبان العصر النبوي والراشدي المطبوعة بسنة المعصوم (صلى الله عليه وسلم) الذي لا ينطق عن الهوى، وكذا الحال مع العصر الراشدي الذي سار على الهدي النبوي.

ولا بد من الإشارة أيضاً في هذا التمهيد إلى أن الشيخ الندوي لم يقدم عملا أكاديميا معني بإيراد التفاصيل على وجه الدقة كما وقعت فعلا، فهذا من عمل المؤرخ، وهو لا يؤرخ لحادثة معينة، و لم يقدم نفسه على انه مؤرخ منذ البدء، فمن التاريخ سعى إلى استنباط العبر والدروس التي تساهم في بث روح العمل واليقظة في نفوس المسلمين، ولهذا السبب جاءت إشاراته التاريخية مجملة وعزيزة بالقدر الذي يكفي لتحقييق المراد منها وكفى.

ترتكز الرؤية السياسية عند الشيخ الندوي على بعض المقدمات الأساسية التي يرى أنها من ضروريات النهضة الواجب إتباعها إذا ما أُريد للأمة السير على طريق الرقي والنهوض، ويمكن الحديث عن هذه المقدمات عبر النقاط التالية:

أولاً: وجوب الأخذ بالأسباب الروحية لتحقيق النهضة

تتجه الرؤية السياسية عند الشيخ الندوي إلى أن نهضة الأمة الإسلامية وعودتها إلى قيادة البشرية لا تتعلق بالأخذ بالأسباب المادية فحسب، بل إنها تتعلق أيضا بالجانب الروحي وبالتعويل على القيم الخلقية والتربية الإيمانية، وبالبدء بإصلاح النفس من الداخل، وهو لهذا يعتقد بعقم التجارب والفلسفات والايدولوجيات التي تركز على الجانب المادي لبناء المجتمعات، والتي حاول حكام المسلمين التعويل عليها في سبيل إصلاح المجتمعات.

إن تركيز الندوي على أه الجانب الروحي في تنمية المجتمعات الإسلامية يتجلى في أوضح صوره في كتابه "نظامان إله للغلبة والانتصار" وهذا الكتاب هو في الأصل كلمة بعنوان (الطريق إلى النصرة) ففي هذا كتاب يشير الندوي إلى انه لا ينبغي للمسلمين التفريط في أهمية اعتقادهم بقدرة الله سبحانه تعالى على التدخل وخرق النواميس من اجل نصرة المسلمين، ذلك أن الله سبحانه وضع وسا وسنة تسمح بخرق القوانين والسنن الطبيعية إذا كان ذلك لصالح فئة من المؤمنين اخذو على عاتقهم الأخذ بيد البشرية إلى الهداية، وقد أشار إلى أن هناك نظامان إلهيان يحكمان الحي البشرية، نظام طبيعي قائم على قوانين تقضي بغلبة الكثرة على القلة، وغلبة القوة على الضعف، غلبة الوحدة على التشتت والفوضى، غلبة التنظيم على عدم التنظيم، غلبة قوة الإر على ضعف الإرادة، غلبة الاختراع والعلم على الجهل والكسل، هذا نظام قديم خلقه تعالى، ولكن هناك نظام آخر هو نظام الإيمان والعقيدة، والأخلاق، وهذا هو السلاح ي قاتل به المسلمون فانتصروا به، هذا السلاح الذي خرجوا به من جزيرة العرب، ثيابهم عة ونعالهم مخصوفة، وجفانهم بالية[i].

النظام الآخر، نظام العقيدة والإ ن، هو النظام الذي حثت عليه الشرائع، وهذا الاعتقاد عند الشيخ الندوي قائم على أس عمق إيمانه في أن الله سبحانه وتعالى خلق غايات أفضل وأسمى وأحق بالاهتمام والا حترام، فالنار تحرق والماء يغرق والسم يقتل، والترياق ينجع، والطبيب يعالج، والمرض رهق ويضعف، وهذه كلها غايات محترمة ومعقولة، يسير عليها هذا الكون، ولكن هناك غايات أفضل من هذه الغايات، وأحق بالاهتمام، وهي غاية هذا الخلق وهداية البشر ومعرفة الله وإقامة العدل في العالم، والمجتمع الصالح المثالي، فهذه الغاية الثانية هي التي يجب أن تخضع لها تلك الغايات الطبيعية وان تغير

(i) "نظامان الهيان للغلبة والانتصار" (وقفة قصيرة عند الحوادث الاخيرة في العالم الإسلامي)

المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ (الهند) الطبعة الثانية، 1413هـ/1992م. قام بالنشرمحمد غياث الدين الندوي. المطبعة الندوية ، ندوة العلماء، لكهنو (الهند)، ص27.

لها هذه الغايات طريقها وتترك الطريق للغايات السامية التي انزل الله لها كتبه المعجزة، وأرسل لها الرسل الصادقة المعصومة[i].

وبثقة كبيرة يشيز الشيخ الندوي إلى انه إذا تصادمت الغايتان الغاية الطبيعية والغاية الشرعية، الغاية العقلية والغاية الدينية، رجحت كفة الغاية الأخيرة لا محال، وانه هذا هو الأمر الذي يفسر سر حدوث المعجزات[ii].

ويستأنس الشيخ الندوي بالتجربة التاريخية الإسلامية لإيضاح هذا المعنى، انه لما تقدم سعد بن أبي وقاص لفتح المدائن كانت دجلة تزبد، وكانت في المد، وكان الفرس قد كسروا الجسور والقناطر وابعدوا السفن والقوارب، ووقف سعد على شاطئ دجلة وقفة قصيرة واستعرض الواقع الحاضر، استعرض الوضع الاستراتيجي كما يقول الكتاب العصريون، وقال لأصحابه: ماذا تشيرون علي؟ هل نرجع أو نقتحم دجلة؟ كان المسلمون واثقين بان الله سبحانه وتعالى قد خلقهم لغاية وان الله قد ربط مصير الإنسانية بهم، وان الله رؤوف بالإنسانية وان الله لم يخلق الإنسانية سدى، ولم يخلق العالم عبثا ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[iii] ، كان المسلمون واثقين بهذا المعنى، فعرفوا أن هؤلاء الذين يمثلون الإسلام، وهؤلاء الذين يحملون القبس الإسلامي، ومشعل الدعوة الإسلامية أن هذه الجماعة هي نواة الأمة الإسلامية الوحيدة التي أخرجت للناس، وبذورها الطيبة، أما دجلة فهو نهر يوجد مثله آلاف من الأنهار، فكيف يُسمح لدجلة بان يغرق هذا الجيش الذي ليس له غرض مادي، لم يخرج من جزيرة العرب ليبدل عرشا بعرش، وحكما بحكم، وملوكا بملوك، ليترع السيادة من الفرس ويقدمها إلى العرب، وليأخذ التاج من رأس كسرى ويضعه على رأس عمر رضي الله عنه، هذا حرام على المسلمين، فلما استعرض سعد الوضع عرف انه لا حيلة له إلا الاعتماد على الله، وانه إذا كان الله سبحانه وتعالى قد

(i) نظامان الهيان للغلبة والانتصار، ص9.

(ii) نظامان الهيان للغلبة والانتصار، ص10.

(iii) سورة المؤمنون، الآية، ص115.

رضي بان يبقى هذا الجيش يؤدي رسالته وينشر دينه وانه يدعو الخلق إلى عبادة الله وحده، فان الله تعالى يقهر دجلة على أن تفتح لهم الطريق(i) .

ثانيا: البدء بالتغيير من الداخل

تركز رؤية الشيخ الندوي في تحقيق النهضة على أن النهضة تتحقق أولا من داخل النفس المؤمنة، فأي رغبة في التغيير لابد أن تبدأ بتغيير الأنفس، فالنفس هي الأساس التي ترتكز عليها جميع خطوات الإصلاح التالية، فإذا ما تمت تحول الهدف إلى الدائرة الأكبر من النفس. إن الاعتقاد بان إصلاح المجتمعات يبدأ من إصلاح الأنفس والتربية الروحية هو في الأساس توجيه رباني ورد معناه في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(ii) ، كما إن العديد من الأدبيات السياسية قديما وحديثا تتجه نحو هذا المعنى، ولذلك فان العديد من كتب السياسة تقدم للحديث عن الفكر السياسي بالحديث عن الأخلاق وكيفية سياسة الإنسان نفسه وتربيتها. وهذا الأمر واضح بيّن عند أرسطو في حديثه عن الأخلاق والسياسة، وعند ابن المقفع وهو يتحدث عن الأدب الصغير والأدب الكبير وكليلة ودمنة، والماوردي الذي كتب عن أدب الدنيا والدين وهو يمهد للحديث عن الفكر السياسي في الأحكام السلطانية والولايات الدينية وغيرهم كثير.

وفي إطار هذا المعنى السياسي ايضا وضع الشيخ الندوي كتابه "إزالة أسباب الخذلان أهم وأقدم من إزالة آثار العدوان" و كتب عن " كارثة العالم العربي وأسبابها الحقيقية" وكتاب "الطريق الوحيد إلى النصر". وهي كتب كتبها على اثر النكبة في فلسطين، ردا منه على المناهج والمذاهب والفلسفات الوضعية التي قادت المسلمين على طريق الهزيمة المنكرة في فلسطين. ففي هذا الكتاب أشار الشيخ الندوي إلى أن أسباب السعادة والشقاء والبؤس والرخاء والهزيمة والنصر، والقوة والضعف سنن أزلية لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولا تلغى لمصلحة امة أو إنسان ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ

(i) نظامان الهيان للغلبة والانتصار، ص25.

(ii) سورة الرعد، الآية، 11.

وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾[i] ، ثم انه يشير إلى أن القران لم يقص علينا قصص الأمم الخالية والقرون الأولى في تفصيل وتكرار إلا ليؤمن المسلمون بنتائج الأعمال والأخلاق ومناهج الحياة في أسباب النصر والسعادة[ii].

ثم انه يشير في لغة صريحة واضحة إلى انه لا أمل لأصحاب الفكر الإسلامي إلا في الرجوع إلى الإسلام بالمعنى الصحيح الذي لا يشوبه شيء من النفاق والتسلح بالإخلاص الذي لا يشوبه نفاق، والإنابة إلى الله الإنابة الصادقة، وصوغ المجتمع والحياة صياغة دينية[iii].

ويؤكد على أن التعويل على الأخذ بالأسباب المادية فقط لإحراز النصر والتفوق لا يجدي نفعا، ثم انه يشير إلى انه في معركة بدر درس لنا معشر المسلمين، حيث كانت الدلائل تشير إلى تفوق معسكر المشركين على معسكر المسلمين بحكم جميع التجارب والمقاييس التي سجلها التاريخ فيما يتعلق بالعدد والعدد، والميرة والمدد[iv].

ثالثا: التجربة التاريخية مع صلاح الدين الأيوبي

وفي إطار حديثه عن اثر الإعداد الروحي والنفسي الداخلي يتحدث الشيخ الندوي عن التحول الكبير الذي حدث في حياة صلاح الدين وكيف أن الله قدر له عملا كبيرا جليلا لا يلاءم الترف والرفاهية ونعومة الحياة[v]، ويستشهد لذلك بقول ابن شداد عن صلاح الدين الأيوبي بأنه "ملك الرجال وهانت عنده الدنيا فملكها وشكر نعمة الله عليه فتاب عما مضى واعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جدا إلى ان توفاه الله إلى رحمته"

(i) سورة الاحزاب، الآية، 38.

(ii) ازالة اسباب الخذلان اهم واقدم من ازالة آثار العدوان، ملتز النشر والتوزيع دار عرفان للدراسة والترجمة والنشر، دائرة الشيخ علم الله الحسنى، رائي الهند، ص6.

(iii) ازالة اسباب الخذلان اهم واقدم من ازالة آثار العدوان، ص19.

(iv) ازالة اسباب الخذلان اهم واقدم من ازالة آثار العدوان، ص21.

(v) صلاح الدين البطل الناصر لدين الله، الطبعة الثالثة، 1400هـ/1980م، دار القلم بيروت، ص25.

ولكي يدلل الشيخ الندوي على صحة ما ذهب إليه من أن الإعداد يجب أن يبدأ بالتربية النفسية والتغيير الداخلي، مع التسلح بالجانب الروحي،فانه يتحدث عن غيرة السلطان صلاح الدين الأيوبي الدينية، روائع خلقه[i] وزهد السلطان[ii]، ومكارم أخلاقه، مع ما كان يتحلى به من العدل والعفو والحلم والجود والمروءة والكرم والصبر والصرامة والثبات والاستقامة، وغيرها من مكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف[iii]. التي كان لها أثرها المباشر في الأخذ بيد هذا القائد على طريق تحقيق النصر على الصليبيين.

كما يتحدث الشيخ الندوي عن شغف صلاح الدين الأيوبي بالجهاد[iv]. وهو هنا يلّمح إلى عقب الوسائل التي تتبعها بعض الحكومات في سبيل إعادة الحقوق المسلوبة في فلسطين، من غير أن يكون الجهاد ضمن وسائلها.

ثم انه يشير إلى أن هذه المزايا والسجايا وسياسة الجهاد التي اتبعها في صراعه مع الصليبيين قد أنقذت العالم الإسلامي من الرق السياسي والفوضى الخلقية والثقافية، وانجته من براثن الزاحفين من الغرب، وان تركيزه على تامين الجبهة الداخلية بالقضاء على الدولة الفاطمية العبيدية سد أبواب الفساد الذي قد اخذ يستشري ويشيعه الباطنية والإسماعيلية لا في مصر وحدها بل في العالم الإسلامي كله، وتمخض عنه الفوضى الفكرية والتدهور العقائدي والتفسخ الخلقي الذي ظلت الأمة الإسلامية المنكوبة فريستها طيلة ثلاثة قرون، إن التاريخ الإسلامي لن ينسى هذا العمل الذي قام به صلاح الدين[v]

رابعا: أن الوحدة العقدية أساس الوحدة السياسية والمجتمعية

تفصح كتابات الشيخ الندوي عن اعتقاده بان تحقيق الوحدة السياسية واستكمال عناصر النصرة والتمكين في الأرض لا تتحقق من غير أن تتحقق الوحدة العقدية في المجتمع،

(i) صلاح الدين الايوبي، ص33.

(ii) صلاح الدين الايوبي، ص46.

(iii) صلاح الدين الايوبي، ص52.

(iv) صلاح الدين الايوبي، ص26.

(v) صلاح الدين الاييوبي، ص70.

وفي هذا الصدد يستدعي شاهدا من التاريخ الإسلامي متمثلا بمنهج شيخ الإسلام احمد بن تيمية، ففي كتاب الشيخ الندوي "النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة"، يعود ليستأنس بالتجربة التاريخية الإسلامية، مع شيخ الإسلام ابن تيمية حيث يستشهد بدعوته وجهوده الإصلاحية في مواجهة المخاطر التي واجهت المسلمين في عصر المماليك بعد الغزو المغولي والصليبي، فهو ابتداء يشير إلى أن هذا العصر ــ عصر الشيخ الندوي ــ هو عصر ابن تيمية، من حيث الظروف والمخاطر التي يتعرض لها العالم الإسلامي داخليا وخارجيا، فقد كان لشخصية الشيخ ابن تيمية، ودعوته ودوره الإصلاحي ولكتاباته وأفكاره واتجاهاته انتفاضة على واقع عصره لم تكن لمصلح إسلامي أو مؤلف من المؤلفين القدماء(i).

وقد ذكر الشيخ عن ابن تيمية انه كان من أفذاذ المحققين والباحثين والمصلحين المجددين في تاريخ الإسلام ومن عمالقة الفكر الإسلامي ومن اجمعهم لشعب الإصلاح المطلوب والدور الإصلاحي والتجديدي الشامل منها تجديد عقيدة التوحيد وإبطال العقائد والتقاليد المشركة، منها نقد الفلسفة والمنطق وعلم الكلام وترجيح أسلوب الكتاب والسنة(ii).

لقد كانت إحدى أهم أسس ومعالم الإصلاح عند الشيخ ابن تيمية هو إصلاح عقائد المجتمع والتأكيد على مركزية الكتاب والسنة في بناء العقائد والتصورات، فواجه كل المذاهب والفلسفات التي تقلل من أهمية الكتاب والسنة في بناء العقائد، وأكد على أن الهداية الحق لا يمكن أن تتحقق بعيدا عن طريق النبوة والهدي الإلهي، فألف كثيرا في نقد المناطقة والعقليين وأتباع الهوى من الفلاسفة وغيرهم.

وبعد هذه الاشارة الى جهاد الشيخ ابن تيمية، يعود الشيخ الندوي ليذكر بأنه قد كان خليقا بالهند ان تعقد فيها الندوات عن ابن تيمية لوجود صلاة عميقة الجذور بين دعوته وجهاده، وبين أوضاع هذه البلاد الدينية ولوجود بعض المدافعين عن دعوته

(i) وفي كتابه النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحية والهداية الكاملة (المجمع الإسلامي العلمي، لكهنو الهند) رقم: 214، 1408هـ/ 19888م، 6

(ii) وفي كتابه النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحية والهداية الكاملة، ص8.

ومدرسته وتحقيقاته، كحكيم الإسلام الشيخ احمد بن عبدالرحيم الدهلوي من رجال القرن الثاني عشر الهجري وخلفائه وتلاميذه وتلاميذ تلاميذه، ولما نالته دعوته العلمية والإصلاحية في شبه القارة الهندية من ترحيب وقبول حسن ونشاط وحماس في القرن الثالث عشر وبعده، وقامت على أساسها مدارس تربوية ثقافية، وحركات إصلاحية دعوية[i]. هذه الدعوة التي تجمع بين الدعوة إلى التوحيد الخالص وإتباع السنة، مع ما كانت تحتاج إليه هذه البلاد ويقتضيه الزمان من الدعوة إلى تزكية النفوس وتربيتها، والقيام بحركة الجهاد في سبيل الله، وتحرير البلاد والسعي في إنشاء حكومة إسلامية على منهاج الخلافة الراشدة[ii].

وختاما لا بد من الإشارة إلى أن الشيخ الندوي أحب أن ينبه المسلمين وخصوصا العرب منهم إلى أهمية دورهم في قيادة الإنسانية، ففي كتابه "أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين" يشير إلى أن بعثة الرسول، بخلاف الكثير من البعثات، مقرونة ببعثة امة، فهي بعثة ثنائية، وهذا ما لا يتفطن له الكثير من المتأملين في القران، إن الله يصف هذه الأمة بصفات لا تنطبق إلا على مبعوث موكل من الله (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [iii]. فكانت بعثة النبي بعثة مقرونة مشفوعة مرتبطة ببعثة امة، هذا هو الشيء الذي اثر في مصير الإنسانية وكانت تجربة جديدة في تاريخ الديانات، وفي تاريخ مصائر الأمم وفي تاريخ الاتجاهات، يدل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم "إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين"، فكان هذا الشعور يملأ جوانح الصحابة ، فكان الواحد منهم ولو لم يبلغ مبلغا من الثقافة يشعر بأنه مبتعث ومسؤول أمام الله، عن مصير البشرية[iv] . ويستشهد الشيخ الندوي لذلك بقصة ربعي ابن عامر الفدكي في معركة القدسية انه لما دخل على رستم رسولا سئله رستم (ما جاء بكم؟ فقال: الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضِيق الدنيا إلى سعَتَها، ومن

(i) وفي كتابه النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحية والهداية الكاملة، ص 6

(ii) وفي كتابه النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحية والهداية الكاملة، ص7.

(iii) سورة آل عمران، الآية، 110.

(iv) احاديث صريحة مع اخواننا العرب والمسلمين، الطبعة الاولى، دار الصحوة، 1045هـ/1985م، ص 21ـ22.

جَوْر الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه؛ فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضيَ إلى موعود الله، قالوا: وما موعودُ الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقي. فقال رستم: لقد سمعت مقالتكم فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟ قال: نعم، كم أحبُّ إليكم؟ يوماً أو يومين، قال: لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. فقال: ما سنَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نؤخِّر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث، فانظر في أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل. فقال:أسيِّدهم أنت؟ قال: لا، ولكن المسلمون كالجسد الواحد يُجير أدناهم على أعلاهم. فاجتمع رستم برؤساء قومه فقال: هل رأيتم قط أعزَّ وأرجح من كلام هذا الرجل؟ فقالوا: معاذ الله أن تميل إلى شيء من هذا وتدع دينك إلى هذا الكلب أما ترى إلى ثيابه؟ فقال: ويلكم لا تنظروا إلى الثياب، وانظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إن العرب يستخفُّون بالثياب والمأكل ويصونون الأحساب).

موقف الشيخ الندوى من قيادة العالم الاسلامي.

د. عبدالله طه عبدالله ناصر السلماني
قسم علوم القرآن، جامعة الموصل
كلية التربية، العراق

([i])أشار ابو الحسن الندوي الى هذه القضية مفصلاً رأيه وموقفه منها فقال : ولكن برغم ما أصيب المسلمون من علة وضعف فأنهم الأمة الوحيدة على وجه الأرض التي تعد خصيم للأمم الغربيةوغريمتها ومنافستها في قيادة الأمم ، ومزاحمتها في وضع العالم ، والتي يعتزم دينها أن تراقب سير العالم وتحاسب الأمم على أخلاقها وأعمالها ونزعاتها ، وأن تقودها الى الفضيلة والتقوى والى السعادة في الدنيا والآخرة ، وتحول بينها وبين جهنم ما استطاعت من قوة والتي يحرم دينها ويأبى وضعها وفطرتها أن تتحول الى أمة جاهلية([ii]).

هذه هي الأمة التي يمكن أن تعود في حين من الأحيان على النظام الجاهلي الذي بسطته في الشرق والغرب وان تحبط مساعيها([iii]).

وقال : لا ينهض العالم الاسلامي الّا برسالته الاسلامية التي وكلها اليه مؤسسها محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والإيمان بها والإستماتة في سبيلها([iv]).وهي رسالة قوية واضحة مشرقة لم يعرف العالم رسالة أعدل ولا أفضل ولا أيمن ولا أحسن للبشرية منها([v]).

([i]) ذكر الكاتب قبل هذا بنذة عن حياة الشيخ الندوي ورغم أن ماذكر يحمل قيمة علمية إلا أننا حذفناه لتوفر هذه المعلومات في كتب ألفت في سيرة الشيخ الندوي

([ii])بو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص264 .

([iii])المصدر نفسه ، ص264.

([iv])بو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص267 .

([v]) المصدر نفسه ، ص267 .

فأرسل الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) يأمر القائد سعد بن أبي وقاص[i]. فقال له : لا تكذبنك ما رأيتك عنهم ، فاستعن بالله وتوكل على الله وابعث رجالاً من أهل المناظرة والرأي والجلد فإن الله جاعل دعائهم توهيناً لهم[ii].فأرسل سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) وفداً من العرب الى ملك الفرس في المدائن[iii]. وقال عامر الشعبي[iv]. (ت105 ه / 723م) فأرسل القائد سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) : وفداً من العرب من أجل التفاوض مع ملك الفرس ،وكان الوفد يتكون من بعض الصحابة (رضي الله عنهم)، منهم النعمان بن مقرن المزني[v].وحنظلة بن الربيع[vi].وفرات بن

([i])سعد بن أبي وقاص ، واسم أبي وقاص مالك بن وهيب بن عبد بن مناف بن زهرة بن كلاب ، كان من المسلمين الأوائل وروى عنه قال : ولقد أتى علي يوم واني لثلث الاسلام وفي رواية أخرى انه قال : كنت ثالثاً في الاسلام ، مات سنة 55 ه ودفن في البقيع في المدينة المنورة .

([ii]) أبن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج2 ، ص34 ، الخضري محمد عفيفي ، أتمام الوفا في سيرة الخلفاء ، ص75 – 76 ، بخيت عبدالحميد ، عصر الخلفاء الراشدون ، ص99 – 100 ، السلماني ، عبدالله طه ، تاريخ الخلفاء الراشدين ، ص98 – 99 .

([iii]) المدائن : وهي طيسفونوالطيسفونجوأنما سمتها العرب بالمدائن ، لأنها سبع مدائن بين كل مدينة الى المدينة الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة ، وهي تبعد عن بعد سبعة فراسخ من بغداد على حافتي دجلة ، وهي كانت دار مملكة الأكاسرة ، وفيها ايوان كسرى العظيم الذي ليس للفرس مثله ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان، ج5 ، ص88 ، رقم الترجمة [10980] ، الحميري ، الروض المعطار ، ص526- 527 .

([iv]) عامر بن شراحيل الهمداني الشعبي ، شعب همدان ، كان أماماً حافظاً فقيهاً ثبتاً متقناً ، مات سنة (105ه) ، انظر عنه : ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار، ص101، رقم الترجمة[750]،الذهبي ، تذكرة الحفاظ، ج1، ص63، رقم الترجمة [76].

([v]) النعمان بن مقرن المزني ، وكان قد هاجر هو ومعه سبعة من اخوته ، وقال قدمنا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في اربعمائة راكب من مزينة واسلموا ، ثم انتقل الى الكوفة وسكنها ، وقلده الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ولاه الجيش واستشهد في نهاوند، انظر ، أبن حبان ، حياة الصحابة ، ص248 ، رقم الترجمة [1366]، ابن عبدالبر، الاستيعاب، ج 4 ، ص1505، رقم الترجمة [2626] ، ابن حجر العسقلاني ، الاصابة ، ج3 ، ص2007 ، رقم الترجمة [8762] .

([vi]) حنظلة بن الربيع بن صيفى بن كاتب التميمي ، كان يكتب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم انتقل الى الكوفة ، ثم خرج الى قرقيساء ومات بها ، انظر : أبن حبان ، تاريخ الصحابة ، ص79 ، رقم الترجمة [309] ، أبن عبدالبر ،الاستيعاب ، ج1 ، ص379 ، رقم الترجمة [548] ، أبن الأثير الجزري ، أسد الغابة من معرفة الصحابة ، ج2، ص62 ،رقم الترجمة [1280] .

حيان[i].وعطارد بن حاجب[ii].والأشعث بن قيس[iii].والحارث بن حسان[iv]. وعمرو بن معد بن يكرب[v].والمغيرة بن زرارة الأسدي والمغيرة بن شعبة[vi].وارسلهم جميعاً الى ملك الفرس يزدجرد دعاة ، فخرجوا من العسكر فقدموا على يزدجردوطووا رستم، وأستاذنوا على يزدجرد فحبسوا وأحضروا وزراءه ، وكان وزيره رستم معهم واستشارهم فيما يصنع، ويقول لهم ، وكان قد اجتمع الناس ينظرون اليهم وتحتهم خيول صهاللعليهم

(i) فرات بن حيان بن عبدالعزى بن حبيب اليشكري ، سكن الكوفة ، وأقطع أرضاً بالبحرين ، أنظر : أبن حبان ، تاريخ الصحابة ، ص207 ، رقم الترجمة [1103] ، أبن عبدالبر ، الأستيعاب، ج3 ، ص1258 ، رقم الترجمة [2070] ، أبن الأثير الجزري ، أسد الغابة ، ج3 ، ص451 – 452 ، رقم الترجمة [4206] ، أبن حجر العسقلاني ، الصابة ، ج3 ، ص1576 ، رقم الترجمة [6965].

(ii) عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس بن مالك التميمي ، وفد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأستعمله على صدقات تميم ، أنظر ، ابن عبدالبر ، الأستيعاب ، ج3 ، ص1240 ، رقم الترجمة [2033]، ابن الأثير الجزري ، أسد الغابة ، ج3 ، ص253 ، رقم الترجمة [3685] ، ابن حجر العسقلاني ، الصابة ، ج2 ، ص1263 ، قم الترجمة [5568] .

(iii) ألأشعث بن قيس بن معدي بن كرب الكندي ، شهد فتح القادسية ، والمدائن ، وحلولاء ، وشهد التحكم بين الأمام علي (رضي الله عنه) ومعاوية بن أبي سفيان (رضي الله عنه) ، مات سنة 42 ه ، انظر، ابن حبان ، تاريخ الصحابة ، ص35 ، رقم الترجمة [53] ، ابن عبدالبر ، الاستيعاب ، ج1 ، ص133 ، رقم الترجمة[135] ، أبن الأثير الجزري ، أسد الغابة ، ج1 ، ص115 ، رقم الترجمة [185] .

(iv) الحارث بن حسان البكري الذهلي ، وكان قد قدم المدينة والرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يخطب ، ثم أعلن اسلامه ، أبن حبان ، تاريخ الصحابة ، ص70 ، رقم الترجمة [246] ، ابن عبدالبر ، الاستيعاب ، ج1 ، ص285 ، رقم الترجمة [399] ، أبن الأثير الجزري ، أسد الغابة، ج1 ، ص369 ، أبن حجر العسقلاني ، الصابة ، ج1، ص316 ، رقم الترجمة [1397] .

(v) عمرو بن معد بن يكرب بن عبدالله بن عمرو ، اسلم سنة 9 ه ، وشهد فتوح العراق والشام ، ومات سنة 21 ه ، أنظر : ابن عبدالبرالأستيعاب ، ج3 ، ص1201 ، رقم الترجمة [1958] ، ابن حجر العسقلاني ، الأصابة ، ج2 ، ص1360 ، رقم الترجمة [5971] .

(vi) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود الثقفي ، اسلم قبل صلح الحديبية ، وشهد بيعة الرضوان ، توفي في الكوفة سنة [50]ه، انظر : أبن عبدالبر ، الاستيعاب ، ج4 ، ص1445 ، رقم الترجمة [2483] ، أبن الأثير الجزري ، أسد الغابة ، ج4 ، ص181 ، رقم الترجمة [5072] ، أبن حجر العسقلاني ، الاصابة ، ج3 ، ص1879 ، رقم الترجمة [8182] .

البرود، بأيديهم السياط ، فأذن لهم واحضر الترجمان ، وقال له : سَلْهم ما جاء بكم ودعاكم الى غزونا ، والولوع في بلادنا امن أجل تشاغلنا عنكمواجترأتم علينا[i].

فقال النعمان بن مقرن : إن شئتم تكلمت عنكم ، ومن شاء أثرته ، فقالوا له ، بل أنت تكلم : فقال : إن الله رحمنا فأرسل الينا رسولاً يأمرنا بالخير وينهانا عن الشر ، ووعدنا على اجابته خير في الدنيا والآخرة[ii]. فلم يدع قبيلة الاّ وقاربه فرقة ، وتباعد لها فرقة ، ثم أمرنا أن نبتدئ الى من خالفه من العرب ، فبدأنا بهم ، فدخلنا على وجهين مكر عليه واغتبط ، وطائع فازداد ، فعرفنا جميعاً ، فقل ما جاء به ، على الذي كنا عليه من العداوة والضيق ، ثم أمرنا أن نبتدئ من يلينا من الامم فندعوهم الى الانصاف ، فنحن ندعوكم الى ديننا ، وهو دين حسن الحسن ، وقبح القبيح كله ، فإن أبيتم فإن أمر من الشر هو أهون ، من آخر منه : الجزية ، فإن أبيتم فالمناجزة ، فأن أحببتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمناكم على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، وإن بذلتم بالجزاء قبلنا ، ومنعناكم الاّ قاتلناكم[iii].

ثم تكلم يزدجر الملك الفارسي ، فقال : إني لا أعلم في الأرض أمة كانت اشقى ، وأقل عدداً ، ولا أسوأ ذات بين منكم .

كنا نوكل الضواحي فيكفونا أمركم لا تطمعوا أن تقولوا لفارس فأن غرراً لحقكم ، فلا يغزنكم منا ، وإن كان الجهد دعاكم ، فرضنا لكم قوتاً الى خصبكم ، ، واكرمنا وجوهكم وكسواتكم ، وملكنا عليكم ملكاً يرفق بكم، فأسكت القوم ، فقال المغيرة بن زرارة ، فقال : أيها الملك هؤلاء رؤساء القوم من العرب ووجوههم ، وهم اشراف يستحيون من الأشراف ، وإنما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف ، وليس كل ما ارسلوا به قالوا به : ولا كل ما تكلمت به : أجابوك "وقد أحسنوا ولا يُحس بمثلهم الاّ ذلك" فجاوبني لأكون الذي أبلغك وهم يشهدون ذلك لي ، أما ما ذكرت من سوء

(i) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج2 ، ص304 – 305 .

(ii) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج2 ، ص305 .

(iii) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج2 ، ص305 .

الحال فهي على ما وصفت واشد ، ثم ذكر من سوء عيش العرب ، الله تعالى ، والنبي محمد (صلى الله عليه وسلم) ، أي نحو قول النعمان بن مقرن المزني قال : وقتال من خالفهم أو الجزية عن يد وأنت صاغر ، وإن شئت أو تسلم فتنجي نفسك ولا أسوأ ذات بين منكم ولا أسوأ ذات بين منكم فقال له الملك الفارسي : أتستقبلني بمثل هذا الكلام : ، فقال : ما استقبلنا إلا من كلمني، لو كلمني غيرك ، لم أستقبلك به ، ثم قال لولا الرسل : لأقتلكم، لا شيء عندي لكم ، ثم استدعي يوقر((الحمل الثقيل من التراب)) فقال ، أحملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج باب المدائن ، ارجعوا الى صاحبكم فاعلموه أني مرسل اليه (رستم) حتى يدفنه ويدفنكم، معه في خندق القادسية[i]. وينكل به وبكم ، ثم أوردوه الى بلادكم ، حتى اشغلكم بانفسكمباشد مما كان لكم من سابور[ii].

فقام عاصم بن عمرو التميمي[iii]. ليأخذ التراب ، وقال : أنا اشرفهم ، أنا سيد هؤلاء فجعله على عنقه وخرج به من باب الايوان والدار الى راحلته فركبها وأخذ التراب معه . ثم قدم على القائد سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) فقال له : أبشر فوالله لقد أعطانا الله اقاليد مليكهم[iv].

([i]) القادسية : تبعد عن الكوفة خمسة عشر فرسخاً ، وبينهما وبين الغريب أربعة اميال ، وهي أول مرحلة لمن خرج من الكوفة الى المدينة ومكة المكرمة ، وهي قرية كبيرة فيها حدائق نخل ، وكان فتح القادسية العظيم على يد جيوش المسلمين ايام الفاروق (رضي الله عنه سنة 16 ه.

ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج4 ، ص331 ، رقم الترجمة[9350] ، الحميري ، الروض المعطار ، ص447 – 448 .

([ii]) سابور ذوي الاكتاف هرمز بن ترسي بن بهرام بن بهرام بن هرمز بن سابور اردشير ، وأن سابور هو الذي أمر بقتل العرب ونزع اكتاف الأسرى وقام بتعذيبهم بشكل وحشي ، وهو نزع أكتاف هؤلاء الأسرى ، وذلك لقبته العرب ((سابور ذو الكتاف)) ، انظر الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج1 ، ص399 – 401 ، علي ، ابراهيم محمد ، المناذرة، ص31 .

([iii]) عاصم بن عمرو التميمي ، أخو القعقاع بن عمرو أدرك الني (صلى الله عليه وسلم) ، وأسلم وكان له ولأخيه مشاهد كريمة في القادسية .

أنظر : ابن عبدالبر ، الأستيعاب ، ج2 ، ص784 ، رقم الترجمة [1312] ، أبن حجر العسقلاني ، الأصابة ، ج2 ، ص971 ، رقم الترجمة [4358] .

([iv]) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج2 ، ص306 ، بخيت عبدالحميد ، عصر الخلفاء الراشدون ، ص99 – 100 ، السلماني ، عبدالله طه ، تاريخ الخلفاء الراشدين ، ص98 – 99 .

وهي نفس الرسالة التي حملها المسلمون في فتوحاتهم الأولى التي لخصها أحد منهم في مجلس يزدجرد ملك ايران ، بقوله : ان الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام[i]. ويعلق الشيخ ابو الحسن الندوي على هذه الرسالة : بقوله : رسالة لا تحتاج الى تغيير كلمة وزيادة حرف واحد فهي منطبقة تمام الانطباق على القرن العشرين، انطباقها على القرن السادس الميلادي ((المسيحي)) ، كأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خرج المسلمون من جزيرتهم لانقاذ العالم من براثن الوثنية والجاهلية[ii].

ومما يؤيد هذا القول ما ذكره الاستاذ محمد اقبال بقوله : إن روح التوحيد في الاسلام بوصفه فكرة قابلة للتنفيذ هو المساواة ، والاتحاد في نظر الاسلام، وهي محلولة تبذل بقصد تحويل هذه المباديء المثالية الى قوى مكانية زمانية ليست ثيوقراطية أي دينية الاّ بهذا المعنى وحده[iii].

فالحقيقة القصوى في نظر القرآن روحية وجودها يتحقق في نشاطها الدنيوي ، فالروح تجد فرصتها في الطبيعي والمادي والدنيوي شكل ما هو دنيوي أذن هو طاهر وديني في جذوره ووجوده[iv].

وأعظم خدمة أداها التفكير العصري اى الاسلام ، بل في حقيقة الأمر الى كل دين وهي تمحيص ما نسميه مادياً أو طبيعياً تمحيصاً ، ظهر أن المادي فحسب لا يكون له حقيقة الى ان تنكشف عن اصلها متأصلاً فيما هو روحاني ، فليس ثمة دنيا دنسه ، وكل هذه الكثرة من الكائنات المادية هي تحقق الروح ووجودها[v].

(i) راجع هذه الرواية : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص356 ، الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج2 ، ص389 - 390 ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج2، ص304 – 305 .

(ii) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص267 .

(iii) اقبال ، محمد ، تجديد الفكر الديني ، ص178 .

(iv) اقبال ، محمد ، تجديد الفكر الديني ، ص178 – 179 .

(v) اقبال ، محمد ، تجديد الفكر الديني ، ص178 – 179 .

ومما يؤكد هذا الكلام ما ذكره ابو الحسن الندوي بقوله : : ويكون متبعي هذا الدين ، وممثلوا هذه المدينة ، حاملي لواء الحق ، والعدل في الدنيا ، وهم جنود الله في الأرض لا ينحرفون عن جادة الحق والعدل قيد شعرة ، لا في الصداقة ولا في العداوة ولا **يفر**قون بين الأقارب والأباعد[i].

ويقول الله سبحانه وتعال في محكم كتابه العزيز :يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى إن الله خبير بما تعملونچ[ii].

ولا يكون اشتراكم في العمل وتعاونهم فيه غير مشروط غير محدد فلا يتعاونوا الاّ في البر والعدل[iii]. ويقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز :وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان[iv].

وروى الامام مسلم بن الحجاج القشيري (ت 261 ه / 874 م) في صحيحه بقوله: حدثنا ابو بكر بن أبي شيبة[v]. قال حدثنا ابو معاوية[vi]. ووكيع[i]. عن الأعمش[ii]. عن أبي صالح[iii].عن أبي هريرة[iv]. قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : لا

([i]) ابو الحسن الندوي ، بين الدين والمدينة ، ص115 .

([ii]) سورة المائدة ، الآية : 8 .

([iii]) ابو الحسن الندوي ، بين الدين والمدينة ، ص115 .

([iv]) سورة المائدة ، الآية : 2

([v]) أبو بكر بن أبي شيبة ، أسمه عبدالله بن محمد بن أبي شيبة ابراهيم بن عثمان العبسي ، الحافظ عديم النظر الثبت التحرير ، قال عنه العجلي (ت261 هـ / 874 م) ثقة : وقال الخطيب البغدادي (ت 463 هـ / 1070 م) عنه : كان أبو بكر متقناً حافظاً مات سنة 235ه ، انظر عنه : ابن منجويه ، رجال صحيح مسلم ، ص306 ، رقم الترجمة [852] ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج2 ، ص17 ، رقم الترجمة [439] ، أبن حجر العسقلاني ، تقريب التهذيب ، ج1 ، ص354 ، رقم الترجمة [3960] .

([vi]) ابو معاوية : أسمه محمد بن خازم الكوفي الضرير ، الحافظ محدث الكوفة ، ثقة احفظ الناس لحديث الأعمش ، مات سنة 195 هـ ، انظر عنه : ابن منجويه ، رجال صحيح مسلم ، ص500 ، رقم الترجمة [1433] ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج1 ، ص215 ، رقم الترجمة [274] ، أبن حجر العسقلاني ، تقريب التهذيب ، ج2 ، ص47 ، رقم الترجمة [6551] .

تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أو لأدلكم على شيء اذا فعلتموه تحابيتم، أفشوا السلام بينكم[v]. ومن خلال كلام النبي (صلى الله عليه وسلم) ، يحث المسلمون على المحبة والسلام بينهم وأن يبتعدوا عن التفرقة والعداوة بينهم وأن يتعاونوا فيما بينهم من أجل اعلاء كلمة الله وهي الكمة العليا ويستمر التعاون والمحبة بين المسلمين .ويقول الاستاذ محمد اقبال : فالدولة في نظر الاسلام ليست الا محاولة لتحقيق الروحانية في بناء المجتمع الاسلامي والانساني ، وبهذا تكون كل دولة ليس بمجرد السيادة والسلطان بل تهدف الى تحقيق المباديء المثالية[vi].

ومما يؤيد موقف الاستاذ ابو الحسن الندوي في نظرته الى القيادة في العالم الاسلامي ، مما ذكره الأستاذ محمد سعيد العثماوي بقوله : أخيراً انتصر نظام الحكم في الاسلام على

---

[i] وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي، كان من الحفاظ المتقنين وأهل الفضل في الدين ، ممن رحل وكتب وصنف وحفظ وحدث وذاكر ، مات سنة 197هـ .

انظر عنه : ابن حبان ، مشاهير علماء الامصار ، ص173 ، رقم الترجمة [1374] ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج1 ، ص223 – 224 ، رقم الترجمة [284] ، ابن حجر العسقلاني ، تقريب التقريب ، ج2 ، ص188 ، رقم الترجمة [8348] .

[ii] الأعمش : سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي ، الملقب بالاعمش ، ثقة حافظ عارف بالقراءات ، ورع لكنه يدلس ، مات سنة 148هـ. ، انظر عنه : ابن منجويه ، رجال صحيح مسلم ، ص207-208 ، رقم الترجمة [578] ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج1 ، ص116 ، رقم الترجمة [149] ، أبن حجر العسقلاني ، تقريب التهذيب ، ج2 ، ص265 ، رقم الترجمة [2882] .

[iii] ابو صالح السمان ذكوان المدني ، قال أحمد بن حنبل (ت241هـ / 855 م) ثقة ثقة من أجل الناس وأوثقهم ، مات سنة (101 هـ) ، أنظر عنه : ابن منجويه ، رجال صحيح مسلم ، ص153 ، رقم الترجمة [420] ، الذهبي ، تذكرة الحفاظ ، ج1 ، ص69 ، رقم الترجمة [78] ، أبن حجر العسقلاني ، تقريب التقريب ، ج1 ، ص198 ، رقم الترجمة [2018] .

[iv] ابو هريرة الدوسي ، اختلفوا في اسمه ، صحابي جليل حافظ الصحابة ، كان اسلامه سنة خيبر سنة سبع من الهجرة ، وكان من الحفاظ المواظبين على صحبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، مات سنة 58 هـ في المدينة ، أنظر عنه : ابن حبان ، مشاهير علماء الامصار ، ص15 ، رقم الترجمة [46] ، ابن حجر العسقلاني ، تقريب التهذيب ن ج2 ، ص309 ، رقم الترجمة [10159] .

[v] مسلم ، الصحيح ، رقم الحديث ، ص 45 – 46 ، رقم الحديث [194] .

[vi] اقبال ، محمد ، تجدي الفكر الديني ، ص179 .

الحكومة المدنية ، وهي الحكومة السديدة في الفهم السليم بروح الدين وشريعة القرآن ، حكومة اسلامية تعبر عن حقيقة الانسانية ، وتحترم ارادة الشعوب وكرامة الانسان ، وهي الحكومة التي توافق العصر الحديث ، فتقوم في حدود معينة ، وتحكم شعباً بذاته ، بارادة هذا الشعب الصالح لكل ابناءه ، ويقيم نظامها على اساس عدم التفرقة بين المواطنين بسبب الدين أو الجنس أو اللون أو غيرها فيكون الدين لله والوطن للجميع[i].

الاستاذ العثماوي بقوله :

ان العالم الاسلامي هو الذي ينطبق عليه احكام الشريعة لكل فرد لا للحكومة وحدها فالشريعة تعد كل فرد في المجتمع الاسلامي لكي يكون عادلاً ، أو على نفسه يامر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدعو الى التقوى ويقضي بالفضل[ii].وذلك يقول سبحانه وتعالى يا أيهات الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على انفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهم ولا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلو أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبير[iii].

ويضيف قائلاً : غير أن تكوين الفرد على اساس ديني لا يعني أن كل تصرف يصدر عنه هو الدين ، أو حكم الدين أو حكم الشريعة ، فالفرد في الاسلام : تقي فاضل ، لكن أقواله وأفعاله وتصرفاته تبقى دائماً مدنية[iv].

ويذكر الأستاذ العثماوي بقوله : إن نظام الحكم في الاسلام هو النظام الذي يقوم على روح الدين الاسلامي ، ايماناً بالله واستقامة في التعرف على معنى الشريعة منهجاً سليماً للتقدم الى الامام والترقي نحو الأفضل ، وهو النظام الذي ينبع من ارادة الشعب وتحكم باسم الشعب لصالح الشعب[v].

([i]) العثماوي ، محمد سعيد ، جوهر الاسلام ، ص67 .

([ii]) العثماوي ، محمد سعيد ، جوهر الاسلام ، ص54 .

[iii] سورة النساء ، الاية : 135 .

([iv]) العثماوي ، محمد سعيد ، جوهر الاسلام ، ص54 .

([v]) العثماوي ، محمد سعيد ، جوهر الاسلام ، ص55 .

ومن خلال دراستنا لموقف الأمام ابو الحسن الندوي في نظرته للحكم في الاسلام تتطابق من الآراء التي جاء بها الاستاذ العثماوي .

ويختم قوله الأستاذ العثماوي بقوله : وأخيراً استقر نظام الحكم في الاسلام على الحكومة المدنية ، وهي الحكومة السديدة في الفهم السليم لروح الدين الاسلامي الحنيف والشريعة والقرآن الكريم ، حكومة تعبر عن الحقيقة الانسانية ، وتحترم ارادة الشعوب وكرامة الانسان ، وهي الحكومة التي توافق طبيعة العصر ، فتقوم علي حدود معينة وتحكم شعباً بذاته بارادة الشعب الصالح لابنائه[i].

ويقول ابو الحسن الندوي : ان الانسان المسلم ينظر الى العالم العربي بغير العين التي ينظر بها الأوربي ، وبغير العين التي ينظر فيها الوطن العربي ، أنه ينظر اليه كمهد للاسلام ومشرق نوره ،، ومعقل الإنسانية ، وموضع القيادة العالمية ، ويعتقد أن سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) العربي ، هو روح العالم العربي وأساسه وعنوان مجده[ii].

وأضاف : ان العالم العربي بما فيه من موارد الثروة والقوة ، وما فيه من خيرات حسنات، جسم بلا روح ، وحظ بلا وضوح إذا انفصل لا سامح الله بذلك، عن منهج سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وقطع صلته عن تعاليمه ودين، وان سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو الشخص الذي ابرز العالم العربي وجوده ، فقد كان هذا قبل دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) عبارة عن وحدات مفككة ، وقبائل متناحرة ، وشعوباً مستعبدة ، ومواهب ضائعة ، وبلاد ينتشر فيها الجهل والظلمات ، فكان العرب قبل الاسلام لا يحلمون بمناجزة الدولة الرومية والفارسية ، ولا يخطر لهم ذلك على بال ، ولا يصدقون بذلك ، إذا قيل لهم في حال من الاحوال[iii].

وكانت سوريا التي تكون جزءاً مهماً من العالم العربي ، مستعمرة رومية ، تعاني الملكية المطلقة، العراق يعاني الحكم الجائر المستبد ، لشهوات الدولة الفارسية ((الكيانية)) مثقلة

([i]) العثماوي ، محمد سعيد ، جوهر الاسلام ، ص55 .

([ii]) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص279 .

([iii]) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص279 .

بالضرائب المجهضة والأتاوات الفادحة ، وكانت مصر قد اتخذها الرومان ناقة حلوباً ركوباً، يجزون صوفها ويظلمونها في علفها ، ثم انها تعاني من الاضطهاد الديني مع الاستبداد السياسي ، فما بين هذا العالم المفكك المنحل المظلوم المضطهد[i]. الاّ ان هبت عليه نسمة أى نفحة من نفحات الاسلام ، الذي جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وعند ذلك أدرك الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، من هذا العالم الضائع هالك ، وأخذ بيده الكريمة وهو ساقط متهالك ، فأحياه باذن الله سبحانه وتعالى ، وجعل له نوراً يمشي به في الناس ، وعلمه الكتاب والحكمة وزكاه ، فكان هذا العالم بعد البعثة المحمدية ، سفير الاسلام ، ورسول الأمن والسلام ، ورائد الحكمة والموعظة الحسنة ، ومشعل الثقافة والحضارة ، وكان الاسلام غوثاً للأمم ، غيثاً للعالم ، هنالك كانت أهل الشام ، وكان أهل العراق ، وكان أهل مصر ،وكان كل العالم العربي الذي تتحدث عنه ، فلولا النبي محمد (صلى اله عليه وسلم) ولولا الملة والدين، لما كانت اليوم سورية ، ولا كان العراق ولا كانت مصر، ولا كان العالم العربي ، بل ، ولا كانت الدنيا كما هي الآن حضارة وعقلاً وديانة وخلقاً[ii].

ويذكر ابو الحسن الندوي بذلك فيقول : المهم والأهم بالنسبة لقادة العالم الاسلامي ، وجمعياته ، وهيئاته الدينية والدول الاسلامية : هي غرس الايمان في قلوب المسلمين واشعال العاطفة الدينية ، ونشر الدعوة الى الله ورسوله ، والايمان بالآخرة على منهج الدعوة الاسلامية الأولى ، ولا تدخر وسعاً في ذلك ، وتستعمل جميع الوسائل القديمة والحديثة وطرق النشر والتعليم ، كتجوال الدعاة في القرى والمدن ، وتنظيم الخطب ، والدروس ، ونشر المقالات ، ومدارسة كتب السيرة النبوية الشريفة ، واخبار الصحابة (رضي الله عنهم) ، وكتب المغازي والفتوح الاسلامية ، وأخبارأبطال الاسلام وشهدائه الكرام ، ومذاكرة أبواب الجهاد ، وفضائل الشهداء ، ويستعمل لذلك الراديو ، والتلفزيون والصحافة ، وكتب الأدب ، وجميع القوى والوسائل العصرية[iii].

([i]) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص279 – 280 .

([ii]) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم 271 .

([iii]) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص271 .

ويقول ابو الحسن الندوي : إن للقرآن الكريم وسيرة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ، قوتان عظيمتان تستطيعان أن تشعلا نوراً في العالم الاسلامي ، وتحدثا في كل وقت ثورة عظيمة على العصر الجاهلي ، وتجعلا أمن أمة مستسلمة متخاذلة ناعسة ، إلى أمة فتية ملتهبة حماسة ، وحنقاً على الجاهلية وسخط الأنظمة الجائرة[i].

ويضيف قائلاً : أن العالم العربي بمواهبه وخصائصه وحسن موقعه الجغرافي، واهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الاسلام ، ويستطيع أن يتقلد قيادة العالم الاسلامي , ويزاحم أوربا ، بعد الاستعداد الكامل وينتصر عليها بأيمانه وقوة رسالته ، ونصر من الله ، ويحول العالم من الشر الى الخير ، ومن النار والدمار الى الهدوء والسلام[ii].

وقال : لقد قام العالم الكبير على أساس العقيدة الواحدة ، والايمان العميق والصلة الروحية القوية ، وكان العالم الاسلامي أوسع عالم عرفه التاريخ ، وكانت الشعوب التي تكون هذا العالم أقوى اسرة عرفها التاريخ ، وتنصهر فيها الثقافات المختلفة والعبقريات المختلفة ، فتكون منها ثقافة واحدة ، هي الثقافة الاسلامية ، التي لم تزل تظهر توابع من المسلمين الذين لا يحصى عددهم ،وكلهم من المآثر الاسلامية بين علمية وعملية لا يستقصيها التاريخ[iii].

ويذكر أبو الحسن الندوي: لقد كانت ولا تزال قيادة هذا العالم بجدارة واستحقاق اشرف قيادة وأعظمها واقواها في تاريخ الزعامة والقيادة ، وقد اكرم الله سبحانه عز وجل بها العرب ، لما خلصوا لهذه الدوعة الاسلامية ، وتفانوا في سبيلها ، فأحبهم الناس في العالم لم يعرف له نظير ، وقلدوهم في كل شيء تقليداً لم يعرف له نظير، وخضعت للغتهم اللغات ، ولثقافتهم الثقافات ، ولحضارتهم الحضارات ، فكانت اللغة العربي هي لغة العلم والتأليف في العالم المتمدن من اقصاه الى اقصاه .

(i) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص271.

(ii) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص294.

(iii) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص296.

وهي اللغة المقدسة الحبيبة التي يؤثرها الناس على لغاتهم التي نشأوا عليها ، ويؤلفون فيها أعظم مؤلفاتهم ويتقنونها كابنائها وأحسن ، وينبغ فيها ادباء ومؤلفون يخضع لهم المثقفون في العالم العربي ، ويقر بفضلهم ادباء العرب ونقادهم[i].

وكانت حضارتهم هي الحضارة المثلى التي تمجد الناس ، ويتطرقون في تقليدها ، ويحث علماء الدين بتفضيلها على الحضارات الأخرى ويطلقون على كل من خالفها من الحضارات الأخرى : اسم (الجاهلية) و (العجمية) وينهون عن اتخاذ شعائرها ومظاهرها[ii].

ويعلل الأستاذ أبو الحسن الندوي بذلك قوله : وبقيت هذه القيادة الشاملة الكاملة مدة طويلة لا يفكرون في الثورة عليها ومن التخلص منها ، كما هي عادة المفتوحين من الامم المغلوبة على أمرها في كل عهد ، والسبب في ذلك : هو أن صلتهم بهذه القيادة ليست صلة المفتوح والفاتح أو المحكوم والحاكم ، والرقيق بالسيد القاهر ، وعلى الأكثر انما هي صلة التابع بالمتبوع الذي سبقه بمعرفة الحق والايمان والدعوة والتفاني في سبيلها، أن يعترفوا لهم بالفضل وتلهج ألسنتهم بالشكر والدعاء وأن يقولوا : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم[iii].

ويستطرد بالقول : وهكذا ظلت هذه الأمم المفتوحة ، تعتبر العرب المنقذ من الجاهلية والوثنية ، والداعي الى دار السلام والقائد الى الجنة ، والمعلم للحضارة ، والأستاذ في الأدب[iv].

ويضيف قائلاً : هذه هي القيادة التي هيأتها البعثة المحمدية ، واعلنتها سورة الاسراء من القرآن الكريم ، وهي القيادة التي يحرص عليها العرب أشد الحرص ، ويعضوا عليها بالنواجذ، ويسعوا اليها بكل ما اوتوا من قوة ومواهب ، ويتواصى بها الآباء والابناء ، ولا يجوز لهم من شريعة العقل والدين والغيرة ان يتخلوا عنها في زمن من الأزمان ، ففيها عوض عنها كل قيادة

(i) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص296 .

(ii) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص296.

(iii) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص297 - 298.

(iv) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص297.

مع زيادة ، وليس في غيرها عوض عنها كفاية وهي القيادة التي تشمل جميع انواع القيادة والسيادة ، وهي تسيطر على القلوب والارواح أكثر من سيطرتها على الأجسام [i].

ويسترسل ابو الحسن الندوي ذلك ايضاً فيقول : وأن الطريق الى هذه القيادة ميسورة للعرب ، وهي الطريق التي جربوها في عهدها الأول ، والخلاص للدعوة الاسلامية واحتضانها وتبنيها والتفاني في سبيلها ، ويفضل منهج الحياة الاسلامي على جميع مناهج الحياة[ii].

ويؤكد أبو الحسن الندوي بقوله : من غير قصد وارادة لنيل هذه القيادة وثبوتها ، تخضع لهم الأمم الاسلامية في كل انحاء العالم ، وتتهالك على حبهم واجلالهم وتقديرهم .

وبذلك تفتح لهم أبواب جديدة وميادين جديدة في مشارق الأرض ومغاربها والميادين التي استعصت على غزاة الغرب ومستعمرية وثارت عليه ، وتدخل أمم جديدة في الاسلام، وهي امم فتية في مواهبها وقواها وذخائرها ، أمم تستطيع أن تعارض اوربا في مدنيتها وعلومها ، إذا وجدت ايماناً جديداً وديناً جديداً ، وروحاً جديدة ، ورسالة جديدة[iii].

ويسأل الاستاذ أبو الحسن الندوي (رحمه الله) فيقول : الى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التي فتحتم العالم القديم في ميادين ضيقة محدودة ؟ والى متى ينحصر هذا السبيل العرم الذي جرف بالمدنيات والحكومات في حدود الوادي الضيق ، تصطرع أمواجه وتلتهم بعضها بعضاً ؟ اليكم هذا العالم الفسيح الذي اختاركم لقيادته واجتباكم لهدايته ، وكانت البعثة المحمدية فاتحة العهد الجديد في تاريخ امتكم وفي تاريخ العالم جميعاً وفي مصيركم ومصير العالم جميعاً فاحتضنوا هذه الدعوة الاسلامية من جديد وتفانوا في سبيلها وجاهدوا فيها[iv]. وقال سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم

([i]) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص296.

([ii]) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص298.

([iii]) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص298.

([iv]) ابو الحسن الندوي ، ماذا خسر العالم ، ص298.

المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير[1].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

خاتمة البحث

من دراستنا لحياة الشيخ أبو الحسن الندوي وموقفه من قيادة العالم الاسلامي توصلنا الى النتائج الآتية :

1. هو العالم المؤمن الداعية المحتسب ابو الحسن علي بن عبدالحي بن فخرالدين الحسني ، وينتهي نسبه الى عبدالله الأشتر بن محمد بن ذي النفس الزكية بن عبدالله المحض بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) .
2. ولد أبو الحسن الندوي بقرية تكية بمديرية راي بريلي في الولاية الشمالية بالهند من 6 محرم سنة 1333 ه / 1914 م .
3. اثبتت الدراسة أن اسرة ابو الحسن الندوي من اسر العلماء والمؤلفين ، وكان والده من كبار المؤلفين في عصره.
4. كانت والدته من النساء المحدوداتومن السيدات الفاضلات والمربيات النادرات ، والمؤلفات المعدودات تحفظ القرآن الكريم ، وتكتب وتؤلف وتقول الشعر ، وكأن لها تأثيرها الواضح على أبو الحسن الندوي ، أذن نقول أنه كان من اسرة عليمية.
5. يرجع نسب أسرة أبي الحسن الندوي الى أصل عربي ، ولا تزال تحافظ على أنسابها الى هذا اليوم ، وهي تحافظ على صلاتها ، وأن كانت تتكلم اللغة الهندية وتعيش في الهندمنذ قرون طويلة ، وكذلك كانت هذه العائلة الكريمة محافظة على السنة والتوحيد والبعد عن الأهواء، والدعوة الى الله والجهاد في سبيله .
6. بدأ أبو الحسن الندوي يتعلم اللغة العربية من اواخر سنة 1343 ه / 1924 م،

(106) سورة الحج ، الآية : 78 .

وتعلم ودرس وافاد من شيوخه المعاصرين له واساتذة اللغة العربية ، مادة النحو والصرف.

7. بعد اتمام دراسته كلفته الجامعة الاسلامية في عليكرةيوضع منهاج لطلبة البكالوريا في التعليم الديني ، وألف كتاباً سماه ((اسلاميات)) .

8. أما بالنسبة لرحلاته العلمية فكانت كثيرة جدا زار معظم دول العالم الاسلامي واوربا ومدن العالم ، حيث قرأ وشاهد وكتب وحاضر وخطب في كل الأماكن التي زراها.

9. أما مؤلفاته وتأليفه فكثيرة جداً ، فقد ذكرت المصادر التي ترجمت له أنه له (207) كتاباً ، منها (177) كتاباً باللغة العربية ، والباقي باللغة الأردية .

10. حصل على جوائز تقديرية من كثير من الجامعات والمؤسسات العلمية الرصينة في العالم .

11. يقول ابو الحسن الندوي أن الانسان المسلم ينظر الى العالم العربي ، بغير العين التي ينظر اليها الأوربي ، وبغير العين التي ينظر بها في الوطن العربي ، ينظر اليه كمهد للإسلام مهد نوره ، ومعقل الانسانية ، وموضع القيادة العالمية ويعتقد ان سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) العربي هو روح العالم العربي واساس مجده .

12. ويؤكد ابو الحسن الندوي بقوله : المهم والأهم بالنسبة لقادة العالم الاسلامي وجمعياته وهيئاته الدينية والدول الاسلامية ، هي غرس الأيمان في قلوب المسلمين واشعال العاطفة الدينية ، ونشر الدعوة الى الله ، والأيمان بالآخرة على منهج الدعوة الاسلامية الأولى .

13. ويذكر ابو الحسن الندوي أن العالم العربي بمواهبه وحسن موقعه الجغرافي وأهميته السياسية يحسن الاضطلاع برسالة الاسلام ، ويستطيع أن يتقلد قيادة العالم الاسلامي.

وفي الختام نقول : أن أخطانا أو نسينا فمن أنفسنا وأنا أصبنا من الله والله ولي التوفيق

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أ / المصادر الأولية :

- ابن الأثير الجزري ، أبو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد (ت 630 ه / 1232 م) .

1. أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت (1430ه / 2009م).
2. الكامل في التاريخ ، راجعه محمد يوسف الدقاق ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2010 .

- البلاذري ، احمد بن يحيى بن جابر (ت 279 ه / 892 م) .

3. فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1978 .

- ابن حبان ، محمد بن حبان البستي (ت 354 ه / 965 م) .

4. حياة الصحابة الذين روى عنهم الأخبار ، تحقيق بوران الضناوي ، دار الكتب العلمية ، بيروت (1408 ه / 1988) .
5. مشاهير علماء المصار ، عني بتصحيحه ، م ، فلايشهمر ، القاهرة (1379ه / 1959م).

- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين ابي الفصل أحمد بن علي الكناني (ت 852 ه / 1448 م) .

6. الأصابة في تمييز الصحابة ، حقق أصوله خليل مامون شيحا ، دار المعرفة ، بيروت ، (1431 ه / 2010 م) .
7. تقريب التهذيب ، تحقيق أيمن عرفة ، المكتبة التوفيقية ، مصر (1424 ه / 2003 م) .

- الحميري ، محمد بن عبد الملك (ت 900 ه / 1494 م) .

8. الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة (ت 1401 ه / 1980 م) .

- الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت 748 ه / 1347م)

9. تذكرة الحفاظ ، وضع حواشيه زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية ، بيروت (1428 ه / 2007 م) .

- ابن سعد ، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت 230 ه / 844 م).

10. الطبقات الكبير، تحقيق علي محمد عمر ، مكتبة الخانجي، القاهرة، (1421ه / 2001م).

- الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت 310ه / 922 م) .

11. تاريخ الامم والملوك ، دار الكتب العلمية ، بيروت (1429 ه / 2008 م) .

- ابن عبدالبر ، أبو يوسف بن عبدالله بن محمد (463 ه / 1070) .

12. الاستيعاب في معرفة الاصحاب ، تحقيق محمد علي بجاوي ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة ، بلا تاريخ .

- مسلم ، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت 261 ه / 874 م)

13 . الصحيح ، اعتنى به وراجعه هيثم خليفة الطعيمي صيدا بيروت (1428 ه / 2006م).

- ابن منجويه ، ابي بكر أحمد بن علي الأصفهاني (ت 428 ه / 1036) .

14 . رجال صحيح ومسلم ، تحقيق محمد حسن محمد ، أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية ، بيروت (1427 / 2006) .

- ياقوت الحموي ، ياقوت بن عبدالله الحموي البغدادي (626 م / 1228) .

15. معجم البلدان ، تحقيق فريد عبدالعزيز الجندي .دار الكتب العلمية، بيروت (2011 م) .

ب –المراجع الحديثة

- اقبال ، محمد

16. تجديد الفكر الديني في الاسلام ، ترجمة عباس محمود ؟، راجع المقدمة والفصل الاول المرحوم عبد العزيز المراغي ، راجع بقية الكتاب مهدي عارم ، مطبعة لجنة التاليف والنشر (القاهرة ، سنة (1388 ه / 1968 م)

- بخيت ، عبد الحميد

17. عصر الخلفاء الراشدون ، دار المعارف ، القاهرة ،(1387 / 1967 م).

- الحسني ، عبد الحي

18. الثقافة الاسلامية في الهند ، مطبوعات المجمع العلمي دمشق ، (1377 ه / 1958 م) .

- الخضري ، محمد بن عقيض

19. اتمام الوفى في سيرة الخلفاء،دار ابن حزم، بيروت(1431 ه/ 2002م) .

- السلماني ، عبدالله طه

20. تاريخ الخلفاء الراشدين ، دار الفكر ، عمان ، الاردن ، (1431 ه / 2010 م) .

- العثماوي ، محمد سعيد

21. جوهر الاسلام ، دار الوطن العربي ، بيروت ، (1405 ه / 1984 م).

- علي ، ابراهيم محمد

22. المناذرة دراسة سياسية حضارية من (سنة 268 –602م) ، رسالة ماجستير ، غير مطبوعة ، جامعة الموصل (1402 ه / 1982 م) .

- الندوي ، ابو الحسن علي الحسين ، (1420 ه / 1999) .

23. السيرة النبوية ، دار القلم دمشق (1431 ه / 2010 م) .

24. بين الدين والمدنية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت (1398 ه / 1978 م).

25. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الكتاب اللبناني، بيروت (1385 ه / 1965 م).

26. في مسيرة الحياة ، دار القلم ، دمشق (1434 ه / 2013 م) .ج – مقالات

- الشرباصي، احمد

27. صورة وصفية عن ابي الحسن الندوي في سنة 1951 م ، مقال نشر في مقدمة كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) دار الكتاب اللبناني ، بيروت (1385 ه / 1965 م) .

- الندوي ، عبد الهادي الاعظمي

28. كتب مقالا عن ابي الحسن الندوي ، وعن مؤلفات الندوي على الرابط
Htt: \\ abulhasanalinadwi:or97arabiindexi.html

- الندوي ، عمر بن الحسن

29. الندوي العالم النحرير والبدر المنير وعلى الرابط :
www.abulhasanalinadwi.orq

- الندوي ، محمد طارق زبير

30. سيرة سماحة الشيخ ابي الحسن الندوي على الرابط :
www.abulhasanalinadwi.orq

- الكتب المترجمة

- فريد جرنفيل .

31 التقويمان الهجري والميلادي ، ترجمة حسام الدين الالوسي ، دار الشؤون الثقافية ، مطبعة الجمهورية بغداد (1389 ه / 1970 م) .

قيادة العرب للعالم الإسلامي في طروحات أبو الحسن علي الحسني الندوي

أ. د. عوني عبدالرحمن السبعاوي
رئيس قسم الدراسات التاريخية والسياسية
جامعة لاهاي الدولية فرع نينوى/ العراق

احتل الوطن العربي مكانة خاصة متميزة، ومساحة واسعة في طروحات العلاّمة الكبير أبو الحسن علي الحسني الندوي، وفي فكره واهتماماته وكتاباته ومحاضراته.. إذ أكدّ على أهمية موقعه في تشكيلة خارطة العالم السياسية، واحتضانه لمنابع الثروات الاستراتيجية المهمة، فضلاً عن تبوئه قلب العالم الإسلامي، روحياً ودينياً، مركّزاً على ما صنعه الرسول الكريم محمد "صلى الله عليه وسلم" في الانتقالة التاريخية للعرب، من حالة الجمود والانحطاط، والتخلف الشامل، في شتى مناحي الحياة، إلى حالة الوجود الحي الفاعل، الذي صار مناراً للعلم والحكمة، ومشعل الثقافة والحضارة. فالندوي مبهور بفعل الأمة العربية التي صنعها الإسلام، وبتضحياتها الجسيمة، في سبيل نشر مبادئ الإسلام السمحاء، في شتى بقاع الأرض. وفي ذلك يقول الندوي: "ولو كانت أمة تستحق مني أكبر تقدير، وأعظم إعجاب، لكان العرب، من غير نزاع، ولو كانت نفسي تدفعني للمجاملة مع أمة من الأمم، لكانت أمتي العربية العظيمة، وعندي ما أمدح به هذه الأمة العربية بحق، الكثير والواسع، وعندي ما أرضي به نفوس هذه الأمة وأسماعها، وأرضي به عاطفتي، كعضو من أعضاء هذه الأمة العظيمة الكريمة، الكثير الكثير، وكل ذلك مما يصدقه العلم والواقع، ويقول العالم: صدقت، ويقول التاريخ: عدلت وبررت"[1].

---

[1] – أبو الحسن الندوي، العرب والإسلام (جدة، دار المنارة للنشر والتوزيع، ط/2، 1988) ص 73.

لقد جعل الله سبحانه وتعالى الوطن العربي مهبطاً للرسالات السماوية، التي كلف بها الرسل والأنبياء، وكلفت الأمة العربية الهيأ، وليس بشرياً، بحمل رسالات الدين، وفي مقدمتها الدين الإسلامي، إلى شعوب الأرض قاطبة، سواء كان ذلك بالتبشير والجهاد، أو عن طريق النموذج المشع والمؤثر، على ما هو له، بعد أن كانت هذه الأمة كما يؤكد الندوي: "التي ما كانت لتمثل دوراً مدهشاً، في تاريخ العالم، كانت أمة بدوية موهوبة، ولكن مواهب ضائعة، لا يرفع الناس بأفرادها، في العراق والشام ومصر رأساً، ولا يحسبون لهم حساباً، حتى تغير حال العرب بالإسلام، وانقلبت الحقائق، وبطلت التجارب السابقة، وتاه العقل، إذ خرج هؤلاء الأعراب من صحرائهم، يفتحون ويقهرون ويغلبون ويخضعون.. فغزوا الفرس والروم، في عقر دارهم، ونزلوا مساحتهم، فما لبثوا فرقوا جموعهم، شر ممزق، وثلوّ عروشهم، ووطؤ تيجان ملوكهم، وفتحوا كنوزهم، واقتسموا أموالهم، وتراث ملوكهم.. وكسروا شوكتهم.. وهلك كسرى.. وهلك قيصر.. وفي عشر سنوات من أيام حكم عمر. أخضع العرب لسلطانه ستة وثلاثين ألفاً من المدن والقلاع.. وانشؤوا أربعة عشر ألفاً من المساجد، لعبادة المسلمين، وعلى رأس قرن من هجرة محمد "صلى الله عليه وسلم" من مكة، امتد سلطان خلفائه، من الهند إلى المحيط الأطلانطيكي.[1]

وعن سر هذا الانقلاب العظيم، وعن هذه النقلة النوعية الفريدة، اللذين لا وجود لهما في التاريخ، حين فتح فيه العرب نصف الأرض، في نصف قرن، يجيب عنه الندوي بقوله: "ان العرب أصبحوا بفضل تعاليم محمد "صلى الله عليه وسلم"، أصحاب دين ورسالة، فبعثوا بعثاً جديداً، وخلقوا من جديد، وانقلبوا في داخل أنفسهم، فانقلبت لهم الدنيا، غير ما كانت، وانقلبوا غير ما كانوا.. وعلموا أن الله قد ابتعثهم، ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد، إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام، وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأرضاً لم يطؤوها، واستخلفهم في الأرض، ومكنهم فيها وعرفوا أن الله قد ضمن لهم النصر، ووعدهم بالفتح، فوثقوا بنصر الله ووعد رسوله، واستهانوا بالقلة والكثرة،

---

[1]- أبو الحسن الندوي، المد والجزر في تاريخ الإسلام (دمشق، دار القلم، بيروت، الدار الشامية، ط/1، 1419هـ/ 1998م) ص ص 14-24.

واستخفوا بالمخاوف والأخطار.."[1] بفعل قوة الإيمان التي استحوذت على قلوب العرب، وجعلتهم يندفعون هذه الاندفاعة العظيمة في عهودهم الزاهرة.

وبذلك تكونت الأمة العربية بفضل الإسلام، وظهرت إلى الوجود، وهي تحمل ثلاث ميزات أساسية، هي: الاتساع، والانفتاح، والإنسانية. وبدت وكأنها مصغّر لمعاني الإنسانية المثلى والحقيقية، وكان للعرب بفضل الإسلام دورهم القيادي، في أن يهبوا العالم الهدوء والاستقرار لفترات طويلة من الزمن، إذ حرصت رسالة الإسلام أن تهب الإنسانية حياة يتوفر فيها كل أسباب الأمن والطمأنينة، في كل أرض حلّت بها، وفي كل بقعة أشرقت عليها شمسها، وانبثق ضياؤها.

وعلى أساس هذا التصور، فهناك ركنين أساسيين يتحكمان في التاريخ العربي الإسلامي، وفي كل أحداثه: الركن الذي أراده الله سبحانه وتعالى للعرب، بإرادته المسبقة، والركن الذي خلقه فعل الإيمان، الذي دخل نفوسهم، فرفع من معناها، وقدرتها، في التأثير، فصاروا بما آلت إليهم شخصيتهم الجديدة، قادرين بميزاتهم على العطاء والإبداع، فازدادوا صلابة، حتى أصبحوا متميزين في التفكير والعقل، وفي الفعل المبدع الخلاّق.

ويرى الندوي[2] أن بعثة الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم" كانت مقرونة ببعث أمة، بخلاف غيرها من بعثيات الرسل والأنبياء، وقد أخذ هذا المعنى، معنى انبعاث الأمة كلها، عربية أولاً، ثم إسلامية، بعد ذلك من قوله تعالى "كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله".[3] وقوله تعالى: "وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا"[4]، ومن قول

---

[1]- المصدر نفسه، ص ص 43-46.

[2]- أبو الحسن الندوي، الإسلام، أثره في الحضارة وفضله على الإنسانية (دمشق، دار ابن كثير، 1999) ص ص 20-22.

[3]- سورة آل عمران، آية 110.

[4]- سورة البقرة، آية 143.

الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم" لبعض أصحابه "فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين". كما أخذه من قول ربعي بن عامر لرستم "لقد ابتعثنا الله".[1]

لقد اختار الله العرب لنشر الإيمان، بوصفهم أمة قائدة، تتمتع بمزايا وفضائل، لا تتوفر لغيرهم، من الأمم والشعوب، التي يمكن أن تتبلور على المرتكزات، وفي الاتجاهات، التي يعلمها الله سبحانه وتعالى، ولذلك فإنهم بعد الإيمان لا يكون في مستوى خاص من التفكير والتصور، للعالم الجديد، الذي يسعون إليه، والذي يتجاوز مجرد الملموس والمرئي، ليتواصل مع ما هو أرقى نوعاً منه فحسب، وإنما يكونون قادرين، ومتميزين أيضاً، في الجهاد والتضحية، التي لا بد منها، لمستوى المهمة القيادية، ويكونون بمعنى أعلى، في فهم الدور، وصولاً إلى ما يريدون، بعد التوكل على صاحب القدرة الأعظم.

ولم ينكر أحد فعل العرب المتميز في الإسلام، إلاّ الشعوبيون الذين ظهروا في الشعوب غير العربية، ولا سيما بعض الفرس الأتراك، في العصر العباسي الأول، ومن سار على دربهم.[2]

ولم يكن فضل العرب وتميزهم، ودورهم الفاعل في حمل رسالة الإسلام، وإيصالها إلى أطراف المعمورة، على أساس النسب والدم، أو العرق واللون، وإنما هو على أساس التقوى، لقوله تعالى "يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[3] وقول الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم": "ليس لعربي على أعجمي فضل إلاّ بالتقوى"[4]. وهكذا ظلّ المجتمع الإسلامي قائماً على أساس مبدأ المساواة والأخوة، ولا تفاضل إلاّ بالتقوى.[5]

---

[1]- الندوي، الإسلام، أثره في الحضارة.. ص 22.

[2]- محمود اسماعيل، الحركات السرية في الإسلام (بيروت، دار القلم، 1973) ص 205.

[3]- سورة الحجرات، آية 13.

[4]- الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبدالمجيد (الموصل، مكتبة العلوم والمعارف، 1983): 12/18.

[5]- الندوي، العرب والإسلام، ص 117.

كما يرى الندوي أن اللغة العربية هي فيصل الارتباط بالعروبة المؤمنة، فالعروبة عنده لا تقوم على الجنس، بمعناه العنصري. وإنما تقوم على رابطة الفكر واللسان، وما ينتجانه من عقيدة ومنهج حياة وغاية.

ولأن الله سبحانه وتعالى خصّ العرب بدور قيادي في هذه الرسالة، فقد اختار أن يكون القرآن عربياً، وبلسان عربي، لأن اللغة العربية وحدها قادرة على أن تتبين بوضوح، وبتفكير عربي، وبعقلية ترى العرب بهذا الدور القيادي، دوراً متميزاً بالتضحية، وفي الخدمة لعموم المسلمين، على طريق المبادئ، وبذلك تفهم وتدرك معاني القرآن الكريم ودلالاته.

فاللغة العربية التي اختارها الله لغة لرسالته الخاتمة للرسالات، كانت قد بلغت الغاية بأساليبها البيانية ومرونتها، وقابليتها العجيبة، لاستيعابها أهداف الرسالة، ومصطلحاتها الحضارية، كما أن أهل اللغة، أهل بيان وثقافة بلاغية راقية، مؤهلين للتفاعل مع بلاغة كتاب الله المعجز، وإدراك معانيه، وتبليغها، حاملين لأهدافها الإنسانية، فكان العرب قوماً ولغة، يتمتعون بالفضائل الإنسانية، التي تؤهلهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالله.[1]

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن تيمية، في سياق حديثه عن فضل العرب "وسبب هذا الفضل والله أعلم، ما اختصوا به في عقولهم وألسنتهم وأخلاقهم وأعمالهم".[2]

وهذا الفضل يكون أما بالعلم النافع، الذي له قوة العقل، في الحفظ والفهم، وفي قوة المنطق، والعرب هم أفهم من غيرهم، وأقدر على البيان، والتمييز للمعاني، وأما العمل المبني على الأخلاق، وهي الغرائز المخلوقة في النفس، والتي هي أطوع للخير من غيرهم،

1- ابراهيم زيد الكيلاني "القومية العربية بين المفهوم الإسلامي والمفهوم العلماني". في: سعدون حمادي وآخرون، قضايا إشكالية في الفكر العربي المعاصر، بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها المجمع العلمي العراقي (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية والمجمع العلمي العراقي، ط/2، 1998) ص 32.

2- ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق: محمد حامد الفقي (القاهرة، المطبعة السلفية، د.ت)، ص 160.

فهم أقرب للسخاء والحلم والشجاعة والوفاء، وغير ذلك من الأخلاق المحمودة، والتي تفجرت عطاءً مبدعاً بفضل الإسلام.[1]

وعن الرابطة المصيرية بين العرب والإسلام، يقول الندوي: "عقد الله بين العرب والإسلام للأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر، فلا عزّ للعرب إلاّ بالإسلام، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلاّ إذا قاد العرب ركبه، وحملوا مشعله".[2]

ولم يشهد التاريخ العربي الإسلامي أية حالة تضاد ما بين العروبة والإسلام، فالعلاقة بينهما واضحة المعالم، تعبر عن تناسق طبيعي، فالعروبة هي التي كانت تقود الإسلام، وتدافع عن تعاليمه.[3]

والإسلام علاقة انتماء إلى دين (عقيدة)،[4] والعروبة تعني بشكل أساس الانتساب إلى ثقافة، وإلى نضال،[5] وهي دار انتماء جنسي، وحقيقة جغرافية سياسية، ومادية ومدنية، أي بوصفها مجتمع مشخص وتاريخي،[6] أي كل ما يميز العرب ويعطيهم هويتهم، والعربي بتعبير دقيق "هو من كانت لغته العربية، وعاش في الأرض العربية، أو تطلع إلى الحياة فيها، وآمن بانتسابه إلى الأمة العربية، والبعيد عن العرقية والعنصرية، الذي ثبته قول الرسول

---

[1]- بومدين بو زيد وآخرون، قضايا التنوير والنهضة في الفكر العربي المعاصر، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط/1، 1999) ص 277.

[2]- الندوي، العرب والإسلام، ص 6.

[3]- حامد ربيع، "كيف استخدمت الصهيونية ورقة الإسلام السياسي لتخريب المجتمع العربي"، مجلة "كل العرب" العدد (37)، أيلول 1989، ص 25.

[4]- عصمت سيف الدولة، عن العروبة والإسلام (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط/1، 1986) ص 16.

[5]- الياس فرح، العروبة والإسلام (بغداد، دار الحرية للطباعة، 1982)، ص 7.

[6]- علي نوح، "العرب في صحوة إسلامية أم انتكاسة مجتمعية" في: مجدي حماد وآخرون، الحركات الإسلامية والديمقراطية، (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط/1، 1999)، ص 404.

الكريم محمد "صلى الله عليه وسلم": "يا أيها الناس ان الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا من أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي".[1]

فالعروبة إذن علاقة انتماء إلى أمة، بشطري تكوينها، الشعب والأرض، وما أثمر على مدى التاريخ من حضارة،[2] هذه الحضارة الواحدة، التي جاءت ثمرة، امتزج في تكوينها عطاء العرب أجمعين، من المذاهب والشرائع والديانات.[3]

أما الإسلام، فهو يعني ديناً سماوياً قائم على التوحيد، وحقق ثورة في حياة العرب، في الماضي، وحضارة عالمية إنسانية كبرى، وهو بالإضافة إلى كونه عقيدة دينية روحية يمتلك ميزة الشريعة، التي تنظم شؤون البشر الاجتماعية، وفق أحكام السماء،[4] أي وضع آلهي، يرشد إلى الحق، في الاعتقادات، وإلى الخير، في السلوك والمعاملات.[5] أي منظومة من العقائد الإيمانية، والشرائع، والمبادئ الخلقية، وبذلك تكون العروبة إنتماء إلى (وضع تاريخي)، فيما يكون الإسلام (وضع آلهي).[6]

والعروبة هي الحامل اللغوي والثقافي والتاريخي للإسلام، فالإسلام انتشر في البلاد العربية، أثناء حروب التحرير والفتوحات الإسلامية، لأن الثقافة العربية ليست غريبة عن روح الإسلام، والعرب حملوا رسالة الإسلام، إلى البشرية، والقرآن الكريم عربي اللغة، ودلالات كلماته التي هي أحكام الإسلام، لا يفهمها إلاّ من يتكلم العربية.

---

[1]- ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق الكبير، هذّبه ورتّبه: عبدالقادر بدران (بيروت، دار المسيرة، ط/2، 1979)، ص 200.

[2]- سيف الدولة، عن العروبة والإسلام، ص 16.

[3]- محمد عمارة، الإسلام والوحدة القومية (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط/2، 1979)، ص 163.

[4]- فرح، العروبة والإسلام، ص 7.

[5]- رشدي محمد عليان، قحطان عبدالرحمن الدوري، أصول الدين الإسلامي (بغداد، المطبعة الوطنية، د.ت)، ص 10.

[6]- سيف الدولة، عن العروبة والإسلام، ص 17.

كما أن الإسلام لم يكن في يوم من الأيام بالنسبة إلى العرب مجرد دين بحسب الاستعمال الراهن لهذه الكلمة، في المسيحية، أو البوذية، أو في الثقافة الغربية الحديثة، فقد تلازم مفهوما العروبة والإسلام، نحو من ألف وخمسمائة سنة، إذ كان تاريخ العرب السياسي والاجتماعي والفكري إلى حد كبير هو تاريخ الإسلام، وبالمقابل فقد كان تاريخ الإسلام السياسي والعقائدي والفكري هو تاريخ العرب، وتاريخ صقل اللغة العربية، والتوسع في التعريب، وبلوّر الإسلام الشخصية العربية، وحدد هيكليتها، وصاغ هوية العرب، هذا فضلاً على أنه يعد مستودع مجد العرب، وعاداتهم، وقيمهم، ومنطقهم، ونظرتهم إلى الوجود، وكذلك بأنه تماهى بمعق، مع الذاكرة الجمعية للعرب.[1]

وقد أفصح التاريخ عن حقيقة مهمة، وهي أن الإنسان العربي يمثّل إنساناً متديناً، وأن الدين هو كل شيء في حياة العرب.[2]

وبذلك ظل العرب والإسلام مترادفين – كما يبين الندوي – وأخلص كل واحد منهما للآخر.[3]

وعن فضل الإسلام على العرب، وعن بعده الإنساني، يوضح الندوي ذلك التحول، وتلك النقلة النوعية، التي انتقل فيها العرب، من العزلة الخانقة، إلى قمة الحضارة، على الرغم من أن العرب قبل الإسلام كانوا يمتلكون طاقات وصفات.. إلاّ أنها كانت معطلة ومكبوتة، وجاء الإسلام ليفجر هذه الطاقات، ويطلق هذه الصفات الكامنة، ويحولها إلى فعل حضاري متوقد، وفي ذلك يقول الندوي "لقد بقي العرب مئات من السنين منضوين، على أنفسهم، لا شأن لهم بالعالم، ولا شأن للعالم بهم، تتناساهم الشعوب والأمم حولهم، ويتجاهلهم التاريخ، وقد كانوا مسلحين بجميع الطاقات، التي تجعل منهم أمة كريمة عظيمة، تستطيع أن تمثّل دوراً في تاريخ الغزو والفتح، لقد فاقوا في الفروسية، وصناعة الحروب، وكان عندهم كثير من الأخلاق الفاضلة، وخلال المروءة، التي توجد عند الأم

---

[1]– برهان زريق "حول نظرية عامة تقدمية للدين، قرآءة في الفكر الناصري.." في: مجدي حماد وآخرون، المصدر السابق، ص 404.

[2]– عون الشريف قاسم، في معركة التراث (بيروت، دار القلم، 1986)، ص 49.

[3]– الندوي، العرب والإسلام، ص ص 7، 8.

الأصيلة، التي تكون على الفطرة، وتعيش حياة البداوة والسذاجة، وكانوا يحملون لغة ذات عبقرية لغوية، وثروة واسعة، وكانت عندهم قريحة شعرية، تتدفق كالشلال وتجري كالماء السلسال، وكانت لهم معلقات ومذهبات، أولعوا بها، والشعر الكثير، والحكمة الرائعة. لكن ذلك كان لا يكفيهم للدخول في التاريخ، واحتلال الصدارة والزعامة، في منتدى العالم.[1]

وفي هذا السياق يشدد الندوي على فضل الإسلام على العرب، لأنه بدون الإسلام كان يمكن أن يبقوا بعقلية قبلية، إذ يقول: "وأخيراً فليعرف العرب أنهم ما دخلوا التاريخ إلاّ عن طريق الرسالة الإسلامية، والدعوة الإسلامية، ولم يغرس الله حبهم في النفوس والقلوب، ولم تنتشر لغتهم هذا الانتشار الواسع، ولم يكتب لهم الخلود والبقاء، ولم تدوّن فيها هذه العلوم الكثيرة، ولم تتكون فيها هذه المكتبة الضخمة، التي كان قسط علماء العجم فيها أعظم من قسط العرب أنفسهم، إلاّ بفضل القرآن والشريعة الإسلامية..[2]

وبذلك فإن الاختيار الآلهي للعرب قولاً ولساناً، يدل على أمر عظيم، يتعلق بالعقلية العربية، والنفسية العربية، اللتين كانتا مؤهلتين، بما تتمتعان من خصائص إنسانية متفوقة، لا تملكها الشعوب الأخرى، للتجاوب مع أهداف الإسلام الإنسانية، وحملها، وإن جانباً مهماً مما جعل الله سبحانه وتعالى يختار العرب، لدور قيادي للإنسانية، هو لآن العرب منطقيون، ولأنهم قادرون على التخيّل، والتصوّر، والوصول إلى الأحكام العامة، من خلال ظواهر صغيرة، وكون الله سبحانه وتعالى لا يستدل عليه باللمس، أو الرؤية، وإنما يدرك بالعقل، ونصل إليه بالضمير المؤمن، فقد كانت هذه الخاصية في العرب محل تكريم لهم، من الله سبحانه وتعالى، وكل اعتماد عليهم، لأن يكونوا أصحاب دور قيادي أمامي في نشر الرسالات.

---

[1]– أبو الحسن الندوي، كيف دخل العرب التاريخ (لكنو، المجمع الإسلامي العلمي، 1974) ص ص 15، 16.

[2]– المصدر نفسه، ص ص 26، 27.

وهكذا نشأت الحضارة الإسلاية، وترافقت مع حروب التحرير والفتوحات الإسلامية، وظهر أثر ذلك في الفنون والعلوم والآداب، وقبض العرب خلال قرون عدة مشعل النور العقلي.[1]

وفتح الإسلام المدرسة التي أغلقت بعد أن هجرها المعلمون، وسقطت قيمة العلم، وهان المعلم، فجاء الإسلام ليذكّر بشرف العلم، وفضل العالم والمتعلم، وقرن الدين بالعلم، حتى أصبح كل مسجد، وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة.[2]

ولم تقتصر مراكز الحضارة العربية الإسلامية على بغداد ودمشق والقاهرة وحدها، بل وصلت إلى المغرب الأقصى، ومن ثم إلى الأندلس، التي صارت نقطة انطلاق للمد الإسلامي، والحضارة الإسلامية، إلى أوروبا، وإلى شتى بقاع العالم آنذاك،[3] التي لم تقتصر على العلوم البحتة، والآداب والفنون فحسب، بل شملت الرسالة الإسلامية، التي تسربت آثارها إلى العالم، الذي خضع لها، في عقيدته، وفي طريقة تفكيره، وفي سياسته واقتصاده، وأخلاقه واجتماعه، وبذلك كانت الحضارة الإسلامية وانتشارها إعلاناً، عن مولد عالم جديد.[4]

وعن تراجع العرب والمسلمين الحضاري، وأفول مجدهم، وتفوّقهم على باقي الأمم والشعوب، وانحسار قوتهم، بل وخضوعهم للتلسط الأجنبي، وتبعيتهم له،.. يرى الندوي أن السبب الحقيقي وراء ذلك، يكمن في عدم التزامهم بتعاليم الإسلام، وما أمرهم الله به، إذ يقول: "لما طال على المسلمين الأمد، وقست قلوبهم، ونسوا وتناسوا ما لأجله بعثهم الله على كثرة من الناس، وتوافر من أمم الأرض، ونسوا ما لأجله خرجوا من جزيرتهم، وصاروا يحكمون الناس، حكم الناس على الناس، وصاروا يعيشون حياة لاهية

---

[1]- الندوي، الإسلام وأثره في الحضارة.. ص 113.

[2]- أبو الحسن الندوي، من غار حراء (الكويت، مكتبة المنار، د.ت) ص 7.

[3]- أبو الحسن الندوي، نحن الآن في المغرب (لكنو، المجمع الإسلامي العلمي، 1976) ص ص 7، 8.

[4]- أبو الحسن الندوي، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن (دمشق، دار القلم، ط/7، 2000) ص ص 102-104.

حرة، حياة من لا يعرف نبياً، ولا يؤمن برسالة ووحي، ولا يرجو حساباً، ولا يخشى معاداً، واشبهّوا بالأمم الجاهلية، التي خرجوا يقاتلونها بالأمس، عادوا فقلدوها في مدنيتها، واجتماعها، وسياستها، وأخلاقها، ومناهج حياتها، في كثير مما مقتها الله لأجله وخذلها، وأصبحوا لا همّ لهم، ولا شغل، إلا الأكل والشراب والتناسل، وأصبحوا كرعايا الناس، ليس لهم فرقان، ولا نور، يمشون به بين الناس، واشبهت ملوكهم وأمراؤهم جبابرتها وفراعنتها وأغنياؤهم مترفيها، وأكابر مجرميها.. تحاسداً وبغضاً، وتكالب على حطام الدنيا.. وإعراض عن الآخرة، وسفك للدماء، وهتك للأعراض، وهضم للحقوق، وغدر بالعهود والذمم، وتعدّ في حدود الله، وإعانة للظالم.. وتبذير لأموال الله، وعموم الفواحش والمنكرات.. فهانوا إذاً على الله، مع أسمائهم الإسلامية، رغم وجود الصالحين فيهم، وظهور بعض الشعائر الدينية، والواجبات الشرعية، في بلادهم، وهانوا على الناس..، وقلّ إكرام الناس لهم، وهيبتهم إياهم، وتجاسروا عليهم..".[1]

ويركز الندوي على قضية هزيمة المسلمين، أمام الغزو المغولي التتاري، وسقوط عاصمتهم بغداد على أيديهم سنة 656هـــ/1258م، وكيف أثرت هذه الهزيمة على سير الحضارة العربية الإسلامية، بل أنها كانت سبباً مباشراً في تراجعها، تراجع مركز العرب الحضاري.[2] ثم ينتقل الندوي إلى تحليل الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فيرى أن القلق والاضطراب، والتناحر السياسي، واقتتال العرب والمسلمين فيما بينهم، وتآمر بعضهم مع الأعداء الصليبيين، ضد أخوانهم، طمعاً في الملك..، وما إلى ذلك من عوامل، تشبه كثيراً أوضاع الوطن العربي والعالم الإسلامي اليوم، وكل ذلك بسبب ضعف رابطة العرب بالإسلام.[3]

---

[1]- الندوي، المد والجزر في تاريخ الإسلام، ص ص 64، 65.

[2]- تركي مجيد السلماني، الفكر والسلوك السياسي عند أبي الحسن الندوي (دمشق، دار القلم، ط/1، 2004) ص 250.

[3]- أبو الحسن الندوي، غارة التتار على العالم الإسلامي وظهور معجزة الإسلام (القاهرة، دار المختار الإسلامي، د.م، د.ت) ص ص 3-5.

ويسترسل الندوي في تبيان الانحدار التدريجي، والانحطاط الحضاري للعرب، بقوله: "ولم يزد المسلمون في القرون اللاحقة إلاّ ضعفاً، ولم تزداد أخلاقهم إلاّ انحطاطاً وتدهوراً، ولا أحوالهم وشؤونهم إلاّ فساداً، حتى أصبحوا في فجر القرن الرابع عشر الهجري أمة جوفاء، لا روح فيها، وأصبحت دولهم فريسة لكل مفترس، وطعمة لكل آكل، واستمر المسلمون بهذا الحال وزيادة، حتى غارت عليهم في القرن الثامن عشر الميلادي الأمم الأوروبية، النصرانية الجاهلة، المتحضرة الوحشية، الكاسية العارية، فسلموها مفاتيح ملكهم، واعتزلوا في مصلحتها عن قيادة العالم.. وكان هذا الهجوم الغربي أشد تأثيراً، وأعمق أثراً، وأبعد مدى، من الهجوم الشرقي المغولي والتتري، فكان يخمد كل جمرة في قلوبهم، لم تخمدها العواصف، طيلة هذه القرون، وبقيت كامنة في الرماد، تخبو مرة، وتلتهب أخرى.[1]

إن خصوصية صراع الأمة العربية ضد أعدائها على مر العصور، إنما تقوم على أساس من ارتباط الصراع بالهوية العربية الإسلامية (الدين والحضارة)، والاستعمار الحديث اليوم، ما هو إلاّ مرحلة أشد تكثيفاً للعنف والتوسع والهيمنة، من المراحل السابقة، كما أنه أشد تكثيفاً في الصراع ضد الإسلام، ومقوماته الحضارية الأصيلة. وبذلك تشكّلت قناعة الندوي، بأن ضعف رابطة العرب بالإسلام، تعني تراجعاً حضارياً للعرب والمسلمين، لأن العرب هم حملة الإسلام الأوائل، وسيظلون كذلك، وبأن ذلّهم يعني ذلّ المسلمين، وبأن نهوضهم الجديد تعني خير الإسلام، وخير الإنسانية كلها.[2]

وحذّر الندوي من أن الغرب قد وجد أن منابع القوة والحياة، في نفوس المسلمين وقلوبهم، هو الإيمان، وما فعله الإيمان قديماً، وما أظهر من معجزات وخوارق، وما خليق بأن يفعل، فعادوه، وسلطوا على المسلمين عدوين، هما أفتك بهم، وأضرّ لهم، الأول، هو زرع الشك، وضعف اليقين، الذي لا شيء أدعى للضعف والجبن منه، والثاني، ما يعبر عنه بالذلّ النفسي، في جعل المسلمين يشعرون بالذل والهوان، في داخل أنفسهم، وفي أعماق قلوبهم، ويزدرؤون بكل ما يتصل بهم من دين وتهذيب وأخلاق، ويؤمنون بفضل الغرب، في كل شيء، وبذلك ابتليت الأمة، بتأثير الحضارة الغربية، وفلسفتها، بعبادة المادة، وحب

---

[1]- الندوي، المد والجر في تاريخ الإسلام، ص ص 71-73.

[2]- الندوي، غارة التتار على العالم الإسلامي، ص ص 3-5.

الدنيا، والجري وراء النفع العاجل، وتقديم المصالح الشخصية، والمنافع المادية، على المبادئ والأخلاق، شأن الأمم الأوروبية الجاهلة، فكانت هذه الأخلاق، وهذه النفسية والتربية، مانعاً من الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمته، ومن تحمّل المشاق، وتجرع المرائر، ومكابدة الأهوال والخسائر، في سبيل المبدأ الصحيح، والعقيدة السامية..[1]

ويرى أبو الحسن الندوي أن العالم الإسلامي يرجو ويأمل من الوطن العربي أن يضطلع برسالة العالم، ويقود العالم الإسلامي من جديد، بما يتمتع به من مواهب وخصائص، وحسن موقع جغرافي، وأهمية سياسية، بعد أن يهيئ مستلزمات نهوضه وانطلاقته الصحيحة،[2] لإنقاذ العالم من حالة الانحطاط، الذي يتردى فيه منذ قرون،[3] ويجعل العرب يصلون إلى الذروة، ويضطلعوا بدور عالمي مؤثر، في محيط العلاقات الدولية، كما شغلوه في عهدهم الأول، عهد الرسالة.[4]

إن الإسلام هو جوهر الأسس، التي لا بد من قيام نهوض الأمة العربية عليها، والإسلام يمثّل هوية الأمة، والعروة الوثقى، لا تنفصم بين الإسلام والعروبة، التي ازدهرت في نفوس أهلها. فعلاقة الأمة العربية بالإسلام علاقة خاصة، حيوية ومصيرية، لها وللإسلام، فلا يمكن أن يفهم الإسلام شعب مثلما يفهم الشعب العربي، ولا يمكن أن يشعر أحد نحو الإسلام، بمثل الرابطة والمسؤولية، اللتين يشعر بهما العرب وحدهم..[5]

---

[1]- الندوي، المد والجزر في تاريخ الإسلام، ص ص 73-75.

[2]- أبو الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (حلب، دار السلام، ط/11، 1974) ص 313.

[3]- السلماني، الفكر والسلوك السياسي عند أبي الحسن الندوي، ص 252.

[4]- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ص 315-316.

[5]- محمد عابد الجابري، مسألة الهوية، العروبة والإسلام والغرب (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط/2، 1997) ص 53.

وهنا يذكّر أبو الحسن الندوي العرب بمسؤولية التمسك بالإسلام، الذي كرمهم الله بمهمة حراسته، والقيام به، والدعوة عليه،[1] أي بالعودة إلى روح الإسلام الحقيقية، والتمسك بقيمه، ومبادئه القويمة.

إن العالم الإسلامي، بل والإنسانية جمعاء أحوج ما تكون اليوم إلى فعل جديد، يقوم به العرب، في أن يقدموا إلى العالم رسالة، في تجديد القيم، في تجديد الأخلاق، لكن العرب لا يستطيعون أداء هذا الدور، بعد أن ضعفوا، نتيجة فرقتهم وتجزئتهم وتخلّفهم.. إلاّ إذا أعادوا وحدتهم القومية، أي إذا كانوا أمة قوية ناهضة، فأول واجب تفرضه إنسانية الإسلام، هو أن يكون العرب أقوياء، سادة في بلادهم، وبناء الإنسانية الصحيحة يبدأ ببناء الأمة العربية، أي أن وحدة العرب أساس بناء صرح إسلامي وإنساني، لأن العرب هم مادة الإسلام، وهم أقدر من غيرهم، على أن يؤدوا دورهم الرسالي، في كل الأزمان والأحوال، فالإسلام، كان حركة عربية، والدين يمثّل وثبة العروبة إلى الوحدة والقوة والرقي.

لقد نظر أبو الحسن الندوي إلى الوطن العربي، بوصفه مهداً للإسلام، ومعقلاً للإنسانية، وموضعاً للقيادة العالمية، وأعتقد أن الرسول الكريم محمد "صلى الله عليه وسلم" هو روح الأمة وأساسها، وعنوان مجدها،[2] فحياة الرسول محمد "صلى الله عليه وسلم" هي "خلاصة لحياة العرب، وجاءت سيرته وأحاديثه، لتشكّل التجربة العملية لتطبيقات المبادئ، سواء في الحكم، أو الاقتصاد، أو المعرفة..، فعلى كل عربي ومسلم، أن يحيّا حياة الرسول الكريم محمد "صلى الله عليه وسلم"، ولو بنسبة الحصاة إلى الجبل، والقطرة إلى البحر..، فحركة الإسلام المتمثلة في حياة الرسول الكريم، ليست بالنسبة إلى العرب حدثاً تاريخياً فحسب، تفسر بالزمان والمكان، وبالأسباب والنتائج، بل أنها لعمقها، وعنفوانها، واتساعها، ترتبط ارتباطاً مباشراً بحياة العرب المطلقة، أي أنها صورة صادقة، ورمز كامل خالد، لطبيعة النفس العربية، وممكناتها الغنية، واتجاهها الأصيل، فيصح لذلك اعتبارها ممكنة التجدد دوماً، في روحها، لا في شكلها وحروفها، فالإسلام هو الهزّة الحيوية، التي تحرك كامل القوى في

---

[1]- أبو الحسن الندوي، غارة التتار على العالم الإسلامي وظهور معجزة الإسلام ص ص 3-5.

[2]- الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 298.

الأمة، فتجيش بالحياة الحارة، جارفة سدود التقليد، وقيود الإصلاح، مرجعة اتصالها مرة جديدة، بمعاني الكون العميقة".[1]

إن الإسلام هو الحامل الروحي والعقائدي للعروبة، وهو الحامي للغتها القومية عبر التاريخ، وبالتالي هو التربة والمناخ اللذان تنبت فيهما كرامة هذه الأمة وشأنها وعزّها، فالوحدة العربية ببعدها الجغرافي، لم تتحقق إلاّ في ظل الدولة الإسلامية، وبالتالي فالعروبة من منظار الإسلام ليست امتيازاً، فهي تكليف ومسؤولية، سيسأل عنها العرب، إن هم تخلّفوا في حمل راية الإسلام إلى البشرية جمعاء،[2] "وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسئلون"[3] فقوله تعالى "وانه" يعني القرآن الكريم، وبالتالي الإسلام، وقوله تعالى "ولقومك" يعني العمق القومي العربي.. فالإسلام شرف العروبة وعزّها ورافع شأنها، وهو المكوّن الثقافي الأول لها.. وقوله تعالى "وسوف تسئلون" يبين مسؤولية العروبة في حمل لواء الإسلام.[4]

ولا يمكن تحقيق ذلك إلاّ من خلال خوض معارك عنيفة ومتواصلة، ضد قوى الأعداء الكثر، المسلحين بالعلم والدهاء، التي ستكون بمنتهى القسوة والضراوة، فهذه الأمة التي ظهرت فيها رسالة الإسلام، وحملتها إلى العالم، عليها رفض الخنوع، والتعبية الفكرية والحضارية، وخلق الدور الإنساني القيادي للأمة العربية، على طريق صاعد، يعيش قوانين عصر الإبداع، بإرادة الصعود العظيم، ويكون نواة الإشعاع، والنموذج الصالح، لكل المؤمنين، حيثما كانوا، فتأتي تجليّات الفهم المبدع لمعنى الإيمان الحقيقي بالله وبالإسلام، وبالدور القيادي للعرب المؤمنين.

وأثبتت الشواهد التاريخية للأمة العربية، التي تعرضت للاستعمار والغزو الأجنبي، والعمل المنظم، لمحو الثقافة العربية الإسلامية، بل واستئصال الدين الإسلامي بالقوة، إن

---

[1]- أحمد ميشيل عفلق، في سبيل البعث (بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، 1972) ص 79.

[2]- عدنان الرفاعي، الإسلام والعروبة (مركز الذكر للدراسات الإسلامية، د.ت) ص 1.

[3]- سورة الزخرف: آية 44.

[4]- الرفاعي، الإسلام والعروبة، ص 2.

الإسلام لم يحم بالخوف من القتل عند الارتداد، وإنما هي بقوة إيمان المسلمين، وعظمة مبادئ دينهم.[1]

لذلك فإن ما يحتاجه العرب اليوم هو في اختيار وممارسة دورهم، على ذات وروحية الدور القومي الحضاري والإنساني بأن يؤمنوا بالقدر، لكي يتصوروا عظمة قدرهم، فيما أوكلهم الله لهم من دور، وعلى العرب أن لا يحتجزوا أرواحهم في السماء، فيحرمون الحياة منها، ولا أن يرهنوا أنفسهم للحياة على الأرض، فيحرمون حياتهم من روح وبركة السماء.

ويعتقد الندوي بإمكان الانبعاث الديني للعرب والمسلمين، بعد خمول طويل، واضطهاد كبير، وبأن الشعوب الإسلامية ستفيق، بعد نومتها الطويلة.[2]

ولذلك وجدناه يذكّر سوريا بمجدها في العهد الأموي، وكيف أصبحت اليوم قانعة بهذا القطر الذي يسمى (سوريا)، وتخلّت عن تلك القيادة العالمية.[3]

كما خاطب مصر بالقول: "أريد أن أقول في أذنك يا مصر، أن الله لا يعطي نعمة دينه إلاّ من يعظمها ويجلّها، ويقدرها حق قدرها، فإذا رأى فيك استغناء عن الدين، وما ينبيء عن احتقار شأنه، واستصغار أمره، وزهداً في الإسلام، وانصرافاً عن خدمته، واعتزازاً بمبدأ غير الإسلام، استغنى عنك، على مآثرك السابقة.. وجاء لخدمة الإسلام، وقيادة الأمم الإسلامية بأمة لم تخطر منك على بال[4].. وأن الله تعالى حذّر العرب والمسلمين قائلاً: "وأن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثلكم".[5]

ثم خاطب العراق الذي كان مركز الدولة العباسية بالطريقة نفسها، وذكّره بأن سر هذه العظمة والسيادة يكمن في هذه الرسالة، التي بعثت الأمة بعثاً جديداً، وكلّفتها

---

[1]- محمد عبدالله المتوكل "الإسلام وحقوق الإنسان" في: برهان غليون وآخرون، حقوق الإنسان العربي (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط/1، 1999) ص ص 105، 106.

[2]- أبو الحسن الندوي، تأملات في القرآن الكريم (دمشق، دار القلم، 1991) ص ص 31، 32.

[3]- السلماني، الفكر والسلوك السياسي عند أبي الحسن الندوي، ص 253.

[4]- أبو الحسن الندوي، اسمعي يا مصر (لكنو، مكتبة الرائد، 1951)، ص ص 11، 12.

[5]- سورة محمد: آية 38.

تبليغ الرسالة الإنسانية العالمية.[1] ويرى أبو الحسن الندوي أن المكان الذي تشغله بغداد في تاريخ الإسلام وحضارته مكان مهم، فقد ارتبط بها جزء في تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والحضاري، وظلّت الخلافة الإسلامية العباسية خمسة قرون كوامل، وحكمت معظم العالم، في العصر القديم.[2]

ومثلما كانت مكانة بغداد مهمة في تاريخ الإسلام، فهي كذلك في حاضره ومستقبله، وهنا يخاطب أبو الحسن الندوي العراقيين، وكأنه تصور ما يجري من أحداث حالية، صار العراق فيها طرفاً رئيسياً، في معركة الحضارة بين الإسلام من جهة، وبين الصهيونية والصليبية من جهة أخرى، إذ قال: "يا أصحاب القلوب المؤمنة، أنتم المجتمع في قسمات وجوهكم وضمائركم وعقولكم، يرقد المستقبل الزاهر، الذي نأمله، فهيئوا أنفسكم تهيئة روحية خلقية علمية إيمانية، هذا هو نداء الوقت، وواجب الساعة، وجهاد اليوم.. أنتم العراق، وإذا كنتم العراق فأنتم جزء من العالم الإسلامي، وآمنوا بأنكم أنتم العالم الإسلامي كما قال الشاعر "وفيك أنطوى العالم الأكبر" فهيئوا نفسوكم للجهاد والدعوة، وإذا قلّدتم أمانة فأحسنوا القيام عليها، هذه وصيتي لكم، وربما لا تقيمون وزناً لها، ولكنكم ستذكرون ذلك في المستقبل،[3] "فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد".[4]

فقوة الإسلام إذن في طروحات أبو الحسن الندوي تنبع من قوة حجته، وعظمة مبادئه، وروعة سنته، وتماسك المسلمين نابع من إيمانهم الراسخ، الذي صمد أمام كل المصاعب والمحن، ومن هذه المؤشرات مجتمعة ينكشف لنا دور العرب في الإسلام، وتتضح محورية لما هو عام على صعيد العالم، إذ جاء جواباً قومياً وعالمياً، وتلبية لنداء العروبة

---

[1]- الندوي، العرب والإسلام، ص 56.

[2]- أبو الحسن الندوي، من نهر كابل إلى نهر اليرموك (بيروت، دار الإيمان، ط/2، 1976) ص 168.

[3]- أبو الحسن الندوي، إلى الإسلام من جديد (بيروت، دار الارشاد، ط/2، 1967) ص ص 156-158.

[4]- سورة غافر: آية 44.

والإسلام معاً، ونقطة انعطاف تاريخية في حياة العرب والمسلمين والعالم ككل. وبمقدار ما أعطى الإسلام للعروبة أفقها الإنساني، بقدر ما جعل من كل مسلم قدراً من العروبة، وأن كل عربي مسلم، وأن هذا التطابق في البعدين القومي والعالمي للعروبة قد منح فكرها واستراتيجيتها طاقة كبرى على الانتشار، وعلى تجديد مسيرة الحوار الحضاري عبر التاريخ.

وإزاء ذلك فلا نهوض للمسلمين، واستعادة مجدهم الغابر كما يؤكد أبو الحسن الندوي إلاّ بنهوض العرب وتوحدهم، بإيمانهم القومي الجديد، حق العروبة الجديد، ودور فعلها القيادي في الإسلام، على نحو مبدع، وعندما يختارون له طريقه الجديد، وأهدافه الجديدة، وفعله بمستواها، ليصبحوا قوة قادرة على قيادة العالم الإسلامي، وتحرير بلاد المسلمين من براثن أعدائهم التاريخيين، ولا يتجسّد ذلك عملياً دون إيجاد وعي عميق في الأمة، وحتى يدرك العرب فعل الإيمان وأهمية ترسخه في نفوسهم وقلوبهم، لكي يبدوا الانطلاقة الحقيقية، من خلال فعل رموزهم وطلائعهم المؤمنة المجاهدة، وابتعادهم عن ملاذ الدنيا وشهواتها.

ويقع على علماء الأمة وولاة أمورها كما يرى أبو الحسن الندوي مسؤولية محاربة ما يضعف روح الرجولة وميوعة النساء، وتقليص فجوة الافتراق ما بين غني الأمة وفقيرها، لتعاد اللحمة العضوية في مجتمع الأمة، والتخلص من كل أنواع الأثرة لفرد أو فئة اجتماعية معينة، في ديمومة إدارة السلطة، وضرورة استقلالية القرار العربي في اقتصاد بلدان العرب، وصناعتها وزراعتها وتجارتها، وتوحيد مناهج علومها.

وعليه يمكن للعرب قيادة العالم الإسلامي من جديد، حين يخلصون للدعوة الإسلامية، ويعود العالم الإسلامي لقيادة العالم، الذي لا مستقبل له، ولا وجود للإنسانية، بغياب هذه القيادة، التي تقود الإسلام، السمح، العادل، الوسط.

العلامة أبو الحسن الندوي ورؤيته للهوية الاسلامية

الأستاذ علاء عبدالرزاق
جامعة بغداد، العراق

من الاسماء البارزة واللامعة في عالم الفكر والدعوة الاسلامية شخصية العلامة ابي الحسن الندوي والذي سيكون موضوع البحث الاساسي والذي سنتناوله هنا ولعل اهمية الموضوع تكمن في تناوله لواحدة من اهم الطروحات الفكرية التي قدمها العلامة الندوي على صعيد تجذير الفكر الاسلامي وتعميق رؤاه وسوف يقسم البحث لثلاث مباحث اساسية هي مفهوم الهوية لغويا وفلسفيا واجتماعيا ويتناول المبحث الثاني النشأة الفكرية والعقائدية للعلامة الندوي في الوقت الذي يتناول المبحث الثالث رؤية الندوي للهوية الاسلامية في ظل جملة من المتغيرات والمعوقات التي تعيق بروز هذه الهوية او تمنع تشكلها وتحاول الحد من تأثيرها على حياة المسلمين.

ان طبيعة البحث تقتضي ان يتم تناول االدور الذي يمكن ان يلعبه ولعبه اصلا الاسلام في شبه القارة الهندية والتأثير الذي تركه على الاديان الاخرى الموجودة في الهند وما تركته التجربة الاسلامية في صياغة هوية اسلامية استطاعت ان تحافظ على وجودها وكيانها في ظل مجتمع هندوسي كبير وما طرحه ومنذ حقبة مبكرة العلامة الدكتور محمد اقبال في ضرورة فصل المسلمين عن الهندوس وان يعيشون في ظل دولة خاصة بهم.

يقوم البحث على فرضية اساسية وهي كيفية فهم العلامة الندوي للهوية الاسلامية من خلال طرح تصور تاريخي سبق ظهور الاسلام للعصبيات والهويات التي كانت موجودة في المنطقة ثم مع بداية ظهور التصور الاسلامي للهوية ولحركة التاريخ.

ولقد استند البحث على إشكالية اساسية وهي كيفية تنمية الاعتزاز بالهوية الاسلامية وما ينتج عنها من ايمان كامل بالفكر والعقيدة الاسلاميتين لمواجهة اي غزو فكري او تحديات فكرية ترمي إلى التشكيك بالاسلام كعقيدة قادرة على قيادة العالم الانساني نحو بر العدل والحرية والمساواة الكاملة في الحقوق والواجبات، والايمان بان الاسلام هو المبدأ والعقيدة القادرة على استجلاء كوامن النفس الانسانية وبالتالي جعلها قادرة على اعطاء افضل ما لديها واغناء الاوطان الاسلامية وحمل الرسالة الاسلامية لافاق عالمية.

المبحث الاول: مفهوم الهوية

المبحث الاول : مفهوم الهوية

تعني (الهوية) باللغة اللاتينية الشيء نفسه او الشيء الذي هو ما هو عليه، اي ان الشيء الذي له الطبيعة نفسها التي للشيء الاخر كما يعني مصطلح الهوية في اللغة الفرنسية :مجموع المواصفات التي تجعل من شخصٍ ما هو عينه شخص معروف او متعين.[i]

واما الهوية في اللغة العربية فهي مصدر صناعي مركب من (هو) ضمير المفرد الغائب المعرف باداة التعريف ((ال)، ومن اللاحقة المتمثلة في ال(ي)) المُشددة وعلامة التأنيث ((ة)) وفي التراث الفكري العربي تعريفات كثيرة للهوية فقد عرفها الجرجاني بانها الامر المتعقل من حيث امتيازه عن الاغيار والهوية عند ابن رشد تُقال بالترادف على المعنى الذي يطلق عليه إسم الموجود اما الفارابي فيعرفها (هوية الشيء):" عينيته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد الذي لا يقع فيه اشراك"[ii]،

ويقوم مبدأ الهوية على ان الموجود هو ذاته اي هو ما هو عليه كما ان الهوية ايضا هي عبارة عن التشخص وقد تطلق على (الوجود الخارجي) وقد تطلق على الماهية مع التشخص وهي الحقيقة الجزئية، وقد تطلق على الذات الالهية فهوية الحق هي عينه. وتطلق الهوية ايضا على الشيء من جهة ما هو واحد، وفلسفة الهوية هي مصطلح يدل على كل نظرية لا تفرق بين المادة والروح ولابين الذات والموضوع، وينظر إليهما على انهما وحدة لاتنفصل.[iii]

ولابد لكل جماعة صغيرة كانت أم كبيرة من هوية بشرط تماثل افرادها وانصهارهم او على الاقل تقبلهم للوجود المجتمعي الجماعي واي فرد لا يستطيع ان يستقل عن الجماعة في هذا الاطار اي انه بحاجة الى هوية تجمعه مع الاخرين لانه ليس بامكانه ان تكون له هوية لوحده كما انه ليس بامكان اي قوة ان تفرض هوية ما على مجموعة ما من الناس دون اختيار حر من طرفهم.[iv]

---

[i] . علاء عبد الرزاق، ازمة الهوية في الفكر العربي المعاصر، بين الاصالة والمعاصرة، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لكاية العلوم السياسية،جامعة بغداد،2000، ص:5

[ii] .نفس المصدر السابق، ص:6

[iii] .عفيف البوني، في الهوية القومية العربية،المستقبل العربي،ع(57)،س(11)،1983،ص:6

[iv] .نديم البيطار،حدود الهوية القومية،نقد عام،بيروت،دار الوحده،1982،ص:22

وهنالك في واقع الامر ثلاثة مستويات للهوية ينبغي التمييز بين الهوية على المستوى الفردي، اي شعور الشخص بالانتماء الى جماعة او اطار إنساني اكبر يشاركه في منظومة من القيم والمشاعر والاتجاهات و(الهوية) بهذا المعنى هي حقيقة فردية نفسية ترتبط بالثقافة السائدة وبعملية التنشئة الاجتماعية، وهنالك التعبير السياسي الجمعي عن هذه الهوية في شكل تنظيمات واحزاب وهيئات شعبية ذات طابع تطوعي واختياري. وهنالك ثالثاً حالة تجسد وتبلور هذه الهوية في مؤسسات وبنى قانونية على يد الحكومات والانظمة.[i]

وتبرز الهوية باشكال وصيغ عديدة تبعاً للاوضاع المؤثرة إبتداءاً من تعبير الشخص الفرد عنها، وانتهاءا بالاشكال التنظيمية الارقى عن طريق نسق نظامي وعقلاني وقانوني، وأشكال التعبير عن هذه الهوية لا تفترض بالضرورة تكاملاً وتلاحقاً وتفاعلاً اذ نرى قدراً من التضاد فكلما زادت درجة المأسسة للهوية اي خضوعها لمؤسسة معينة ضعفت اصالتها على الرغم من ان هدف المأسسة يبدو في الظاهر في اطار تأصيل الهوية والتعبير الافضل عنها، لان كل مأسسة للهوية تخدم واحداً من جوانب الهوية على حساب جانب اخر، والهوية على المستوى الجمعي قد تكون كامنة تنتظر الاطار التاريخي الذي يسمح لها بالتعبير عن ذاتها، وهنا يأتي دور النضال الفكري والسياسي لتحقيق هذا الاطار.[ii]

وتعد الهوية بمثابة الرمز والعامل المشترك الذي يجمع عليه افراد الامة من حيث الانتساب والتعلق، والولاء، والاعتزاز، وهذا الانتساب والتعلق والولاء والاعتزاز يكتسب قداسته، لانه لا يمكن ان يكون موضع شك من لدن اي طرف خاصة ممن يتكون منهم قاعدة الهرم وهي هوية القاسم المشترك بين الجميع استنادا الى الخلفية الثقافية والتاريخية الواحدة ومما يجعل هذا الاعتزاز بالهوية امرا مشروعا ايضا وحدة المصالح والمستقبل الواحد وبهذا المعنى الهوية هي الذات الجماعية لافراد الامة كلهم والمساس بها يعني المساس بكيان الامة ويمس نفسية كل فرد منها لانه شك في الماضي وطعن في الحاضر ،ويأس من المستقبل.ولعل العامل الاساس في تحديد هوية امة من الامم او بلد من البلدان هو : الخلفية الثقافية والتاريخية والصراعات الراهنة والتحديات، التي تفرض عليه، والتجارب المختلفة والاوضاع التي يمر بها البلد وهي التي تصقل وتصهر هوية الافراد وبالتالي يشترك كل الافراد في صنع تلك الهوية الجماعية ويتعودون عليها

---

[i] .عفيف البوني؛مصدر سبق ذكره،ص:7

[ii] .علاء عبد الرزاق، ازمة الهوية في الفكر العربي المعاصر،مصدر سبق ذكره،ص:12

بمرور الزمن فتصبح في نظرهم اصيلة كلما تقادمت وكانها جزءٌ من النظام الطبيعي نفسه بالرغم من ثبوت الطبيعة وتغير المعطيات الثقافية، ان الهوية في واقع الامر واقع دائم يبحث عن صيغة افضل لحياة اي بلد في الحاضر والمستقبل ممايجعل الهوية دائمة الحضور في الوجود التاريخي لاي بلد دون انقطاع وان تلون شكل هذا الحضور في كل عصر من تاريخها.[i]

وقد تُعرف (الهوية) بكونها البعد المحلي او الصبغة السائدة وهي طريقة الاداء المتوارث التي تحدد الخصوصية التي يتميز بها بلد ما وهو ما يمكن ان نوجزه في المنحى الخاص بطرح المشكلات والاستجابة لها وحلها مما يؤلف اخر الامر طابعاً مستمراً للفكر والسلوك والذي يميز شعباً ما عن شعب آخر، وبطبيعة الحال فان الصبغة الخاصة باي شعب قد صيغت بمقتضى مشروعات وانجازات متتابعة وذلك عن طريق البحث الدءوب عن حلولٍ للمشكلات ومواجهة التحديات واختيار مواقف ساد بعضها دون البعض الاخر، وليس من خلال هوية مفطورة معطاة من امدٍ بعيد ولد بها الانسان منذ البداية.[ii]

لابد من القول ان مفهوم (ازمة الهوية) قد استقى استخدامه في الاصل من (علم النفس) فهو يعنى بالابعاد النفسية والفكرية ذات الصلة بشعور الفرد تجاه عضوية الدولة التي يعيش بظلها، وتحدث في حقبة معينة بخصوص التعريفات الخاصة ببناء الدولة –الامة باركانها المادية والمعنوية قد اضحى غير ملائمٍ له في ظل ظروف تاريخية جديدة فلكي يستطيع نظام سياسي معين بلوغ مستوى جديد من الفاعلية ولا سيما على صعيد القدرة على احداث التغيير، فمن الضروري لاعضاء ذلك المجتمع سواء كانوا جزءا من المجتمع السياسي او الثقافي ان يعيدوا النظر إلى تعريفهم لانفسهم وعما اذا كانوا فعلا جزءا من ذلك المجتمع ومن هم وكيف يختلفون عن الجماعات السياسية والثقافية الاخرى، وحينما تشعر احدى الجماعات الموجودة في المجتمع بان هنالك شروخاً قد حصلت على صعيد تقبلها للقيم الجمعية التي تجمعها بالكل المجتمعي او ان هذا الكل المجتمعي لم يعد متشكلاً من هوية واحدة ،فذلك يعني ان المجتمع يعيش فعلاً في ظل ازمة هوية حقيقية.[iii]

---

[i] .صلاح قنصوة:الغزو الثقافي وحوار الحضارات، المنار،س(3)،ع(31)،تموز 1987،ص:131

[ii] .نفس المصدر السابق،ص:9

[iii] . رعد عبد الجليل مصطفى الخليل وحسام الدين علي مجيد، نموذج الدولة–الامة التقليدي،في مواجهة ازمتي الاندماج والهوية، المجلة العربية للعلوم السياسية، ع(33)2012،ص:131

واما بالنسبة للهوية الاسلامية فقد علت كهوية دينية على جملة من الانتماءات الاخرى للمسلم سيما وان الدولة الاسلامية الاولى والتي أرسى قواعدها الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وسلم قد استندت إلى جملة من القواعد والمُثل والتي بقيت راسخة في الذاكرة الاسلامية واستند اليها الاسلاميون في الدعوة لهوية اسلامية مانعة جامعة تنأى بالمسلم عن الهويات الفرعية الاخرى.

ولعل من المناسب هنا تناول الدور الذي لعبته الوثيقة النبوية والتي صاغها الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وسلم في تحديد ورسم ملامح الهوية الاسلامية.

يشهد الواقع التاريخي وما تناقلته كتب السيرة ان الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وسلم حينما هاجر للمدينة بدأ بوضع الاسس الخاصة بالمجتمع الايماني الجديد والذي غدا يضم اكثر من جماعة قبلية وعرقية واجتماعية، وبدخول المهاجرين اليها اضحى المجتمع المديني مكوناً من المهاجرين وهم من المسلمين الاوائل من قريش ومن غيرهم من سكان مكة ومن الانصار وهم ابناء قبيلتي الاوس والخزرج وهنالك اليهود وسكان المدينة الذين بقوا على شركهم، وبالتالي كانت مثل هذه التركيبة غريبة الى حد كبير على طابع المجتمع العربي في تلك المرحلة اذ كانت اغلب الوحدات السياسية تتكون من مجموعة من القبائل ذات الانتماء الصلبي، في حين غدت المدينة تضم اناساً من قوميات واديان واماكن جغرافية مختلفة وهو ما يُفضي إلى ضرورة ماسة لبلورة هوية جديدة تجمع هذه العناصر المتنافرة. ولم يكن من المستغرب ان تكون المادة الثانية من مواد الوثيقة قد كشفت الهوية الجديدة لسكان المدينة الدولة إذ نصت:" على وجود جماعة سياسية قائمة على أساس الدين وهي امة من دون الناس.

وبطبيعة الحال كانت الوثيقة والتي تعد اول دستور مدني في التاريخ حصيلة لتشاور الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وسلم مع ممثلي الجماعات المختلفة والذين أقروا لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه و اله الزعامة والرجوع اليه في حالة حصول اي تنافر او تنازع بين ابناء الجماعات التي تتكون منها المدينة، ومن المعروف ان الوضع الفوضوي والتنافسي والذي كان موجوداً في يثرب قبل هجرة الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وسلم قد سلب قدرا من الثقة بين الاوس والخزرج واليهود وبالتالي سعى ممثلوا هذه الاطراف الى التأكيد على ان ثقتهم قد مُنحت لصاحب العصمة الكبرى صلوات الله وسلامه عليه واله في حالة حصول أي تنازع او تشاحن بين الاطراف المختلفة الموجودة في المدينة.

واذ انطلقت الشريعة الاسلامية السمحاء من الايمان بمبدأ الاخوة الانسانية ايماناً بروح ونص الاية القرأنية الكريمة:" يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها"(النساء الاية 1) وهذا يعني توكيد للاخوة الانسانية فيضحي بذلك الانسان اخو للانسان من جهتين مرة وهي الانسان لان الرب واحد ومرة ثانية لان الاب واحد. ولقد استتبع الايمان هذا انقلابا على المفاهيم الجاهلية التي تجعل من القبيلة الوحدة السياسية الرئيسة في المجتمع الجاهلي ونرى مصداق ذها الايمان في الاجراءات التي اتخذت في المدينة وما نصت عليه الوثيقة النبوية، فعلى الرغم من محلية واقعها كانت عالمية التوجه وكانت تتجه لتجاوز واقعها الزمني الذي تعيش فيه لانها اهل المدينة وسكانها الجدد باتوا يدركون ويوقنون انهم حلقة في سلسلة امة الاسلام التي تعاقب بها المرسلون السابقون وكانت دولة المدينة تتجه لتجاوز واقعها الاقليمي شعوراً من اهلها بانهم كانوا منفعلين بالصراعات العالمية بين الفرس والروم ، ناهيك عن صراعاتهم السياسية والدينية والاقتصادية مع قريش وحلفائها وعلاقاتهم مع المسلمين الذين لم يهاجروا وبالقبائل المائلة لان تدخل في سلطان دولة المدينة وبالتالي يلتزمون بما ورد في الوثيقة النبوية من بنود ومواثيق،فضلا عن ان دولة المدينة كانت تمثل ارتكازة الانطلاق عند العرب والناس كافة لانها كانت دولة رسالةٍ مندفعة برساليتها ولقد بذر صاحب العصمة الكبرى صلوات الله وسلامه عليه واله في واقع العرب من خلال الوثيقة والنصوص التي وردت فيها بذرة القوميه والحضارة بمفهومها الانساني غير العرقي وذلك عندما وضع للعروبة مفهوماً ومضموناً حضاريا بقوله صلوات الله وسلامه عليه واله:" ايها الناس، ان الرب واحد والاب واحد" وليست العربية بأحدكم باب وام، وانما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي".واذا كانت صفة الانتماء لامة الاسلام هي التي غلبت في الوثيقة على صفة العربية ليصبح بذلك المفهوم الديني هو وحده الحقيقة الحاضرة، وبذلك فقد اعطى الاسلام صفة حضارية للعرب اذ ان اعتناقهم للاسلام يعني عودتهم الى اصلهم الى جدهم ابراهيم الخليل عليه السلام والذي سماهم مسلمين.[i]

واذ بذرت الوثيقة بذور المجتمع الاسلامي الاصيل بشكله الاولي كانت تستند على وجود مجتمع اسلامي يضم الفارسي والحبشي والرومي والذين عدهم الاسلام امة واحدة

---

[i].علاء عبد الرزاق،ازمة الهوية في الفكر العربي المعاصر،مصدر سبق ذكره،ص:88

وان الاختلاف عارض ومنشؤه اختلاف الاهواء وان الله سبحانه وتعالى ارسل بالهداية ليحكموا بامر الله تعالى في هذا الاختلاف وليبينوا للناس طريق الهداية.

كما كشفت الوثيقة النبوية عن ابعاد الهوية الجديدة بالنسبة للفرد المسلم اذ جعلت الانتماء الاول والاكبر هو للاسلام وامته وإلى دار الاسلام وحضارته، وغدا تخيير المسلم بين الانتماء للاسلام والدوائر الاخرى للانتماء لا يكون الا في حالات قيام تعارض او تناقض بين الانتماء للاسلام كانتماء جامع واول وبين الانتماءات الفرعية الاخرى اما اذا اتسقت دوائر الانتماء في فكرية الانسان وتكاملت في ممارساته الحياتية فلن يكون هنالك تناقض في الفكر والعمل الاسلاميين بين كل دوائر الانتماء الفطري للانسان. ولقد أرست الوثيقة النبوية مفهوم الامة والتي لم تنصرف إلى العرب وحدهم وانما إلى المؤمنين بدين الاسلام في اصقاع العالم المختلفة، وهو ما يترادف مع المفهوم القرأني للامة والتي هي امة اسلامية (امة من دون الناس كما وردت في الوثيقة):"كنتم خير امة اخرجت للناس" و"لتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" وهذه الجماعة او الامة قد تكون هيئة او حزباً او مجلساً نيابياً. ولقد اختلط لفظ الامة بلفظ الله اي النحلة التي ينتحلها الانسان من الدين، ولقد نقضت الوثيقة النبوية ابعاد الهوية التي كان عليها العرب قبل الاسلام والتي كانت تقوم على العصبية القبلية والانتماء للقبيلة فجعلت الهوية الجديدة ايمانية تقوم على الايمان بالله وبالاسلام كشرط لدخول الجماعة الاسلامية.

ومن المعروف أصلاًان الاسلام قد قام لتلبية حاجتين اصيليتين في حياة المجتمع العربي في الجزيرة الا وهما التوحيد في الدين والنظام في الدولة وكانت الوثيقة النبوية قد مثلت الاستجابة لهاتين الحاجتين فالحركة الاسلامية اتخذت شكلاً جديداً وكونت جماعة منظمة على قواعد سياسية محددة وبقيادة زعيم واحد.ولقد اعادت الوثيقة النبوية تنظيم الحياة الاجتماعية والسياسية بما يتوافق مع روح ونصوص الشريعة الاسلامية ((فالمسلمون امة واحدة من دون الناس)) والعقيدة هي الرابطة بين المسلمين والنظم السياسي قائم على أساس فكري وعقائدي بصرف النظر عن العرق او الدم او الثروة، واستندت الهوية الجديدة بحسب الوثيقة على مبادىء روحية واخلاقية كما ان رابطة الامة الاسلامية تسود على الروابط كافة.

وإذا كان الاسلام قد شكل قطيعةً مع تراث العصر الجاهلي بقيمه السلبية الا انه ابقى على بعض هذه القيم والاعراف وطورها من منظور جديد اي حافظ على الهوية العربية ببعدها الحضاري ولعل ما يدل على ذلك اعترافه بالوثيقة بالنظام القبلي والعشاري لا كأساس للهوية

بل كأساس للاستيطان فالمسلمون جماعة واحدة في ظل الحماية الالهية وتسديد واشراف صاحب العصمة الكبرى صلى الله عليه واله وسلم يتكافلون فيما بينهم بدفع الديات والتعاون على اربعهم يتعاملون معاملهم ويفدون عانيهم بالمعروف، كما اقرت الصحيفة بقاء رابطة الولاء ومنع مخالفة الموالي دون موافقة اسيادهم وهذا المبدأ كان لا بد من زواله بتشرب الناس عقيدة الاسلام كما ابقى الاسلام عبء دفع الديات وفداء الاسرى على ما كان عليه، كما الغت الوثيقة نظام الثأر القبلي وحولته لمبدأ القصاص والاخذ بالعقاب وبذلك تم تحويل الثأر وتفويضه للجماعة بدلا من الفرد، وبعد ان كانت غاية الفرد في الجاهلية نصرة قبيلته والدفاع عن اهله وعشيرته مهما كانت الدوافع والاسباب أصبحت الغاية في الاسلام نصرة الحق على الباطل ولو حارب المرء في هذا السبيل اهله وبنيه وتبرأ من امه وابيه، وبذلك أصبحت الحمية الجاهلية عزة اسلامية واخوة دينية.[i]

ولقد بدأ الاسلام مع اقرار الوثيقة النبوية بالتحول لمجتمع سياسي منظم في المدينة ولقد كشف صاحب العصمة الكبرى صلى الله عليه واله وسلم من خلال تنظيمه للحياة الاجتماعية والسياسية والدينيية في المدينة عن عبقرية سياسية نادرة فقدعمل على تكييف كل الخصائص العربية المتمثلة بالشرف الشخصي والاخوة والتضامن القبلي وضمها جميعا من اجل تقوية المجتمع الايماني الجديد.[ii]

واذا كانت هذه المنطلقات الفكرية اتي يمكن للرؤية الاسلامية ان تقدمها بشأن الهوية الاسلامية فقد كانت هي المنطلق الذي سعى لاثباته العلامة الندوي وسوف نتناول بداية النشأة الفكرية والعقائدية للعلامة الندوي والظروف السياسية التي كانت محفزة لافكاره ومن ثم تقديمه لرؤية حول الهوية الاسلامية.

المبحث الثاني: النشأة الفكرية والعقائدية للشيخ الندوي

هو الشيخ ابي الحسن علي بن عبد الحي الحسني الندوي، ولد بقرية (تكيّة كلان) من مديرية (رائي بريلي) قرب لكهنؤ، ونشأ في أسرة متديّنة متعلّمة، نبغ منها عدد من العلماء والدعاة، كان من أبرزهم أبوه الشيخ عبد الحي الذي يعدّ بحق (خلّكان الهند)

---

[i] نفس المصدر السابق،ص:89.

[ii] Peter Mansfield:The Arab World a comprehensive history,Thomas Crowell Co,New York,1976,p:25.

وهو صاحب (نزهة الخواطر وبهجة السامع والناظر)، أستاذ التفسير والأدب في دار العلوم، وكانت أمّه (خير النساء) شريفة النسب، شاعرة عابدة حافظة للقرآن ومؤلّفة للكتب، وتولّى أخوه عبد العلي تربيته بعد وفاة والده عندما بلوغ التاسعة من العمر .حفظ القرآن في البيت وجوّده، تعاونه أمه.

درس العربيّة على خليل محمد اليماني، والأدب العربي على محمد تقيّ الدين الهلالي، بجامعة لكهنؤ، وأتقن الإنكليزيّة والفارسيّة، إلى جانب لغته الأورديّة، وقرأ التفسير على الشيخ أحمد بن علي في لاهور، أكمل تعليمه في دار العلوم بندوة العلماء، ودار العلوم في ديوبند، وجامعة لكهنؤ، وتلقى تربيته الروحيّة على الشيخ عبد القادر الرائي فورى. تأثّر بفكر الإمام أحمد بن حنبل، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وأحمد بن عبد الأحد السرهندي، وشاه ولي الله الدهلوي، وكان الشيخ محمد الياس من أعظم أساتذته .

عمل مدرّساً بدار العلوم في لكنهؤ مدّة عشر سنوات، واشتغل بالصحافة، وساهم في تحرير مجلّة (الضياء) التي تصدر بالعربيّة، والتي ترأّس تحريرها مسعود الندوي، ثم ترأس تحرير مجلّة (الندوة العلميّة) التي كانت تصدر عن ندوة العلماء بالأورديّة، ثم أصدر (مجلّة التعمير) النصف شهريّة بالأورديّة، ويعتبر أحد رؤساء التحرير لمجلّة (معارف) الأكاديميّة التي تمثّل المسلمين في شبه القارّة الهنديّة .

وأسّس جمعيّة لنشر الإسلام بين الهنود، وتولّى رئاسة (جامعة دار العلوم — ندوة العلماء) وأنشأ المجمع الإسلامي (أكاديمية البحوث الإسلاميّة) سنة 1959 زار الأمصار والحواضر، وعاش صدر حياته في قصر صدّيق حسن خان العالم السلفي، الأمير الكبير، أسكنوه فيه بعد موت أبيه، فذاق حياة الترف والنعيم، ولكنه زهد فيها .

اشتغل بالدعوة مع جماعة (التبليغ الإسلامي) بعد لقائه بالشيخ محمد الياس.

بنى للإسلام في نفوس تلاميذه حصوناً أمتن من حصون الحجر، بنى أمّة من العلماء الصالحين، والدعاة المخلصين، وكان لمحمد إقبال أثر كبير في توجيهه الأدبي والفكري .

تميّزت مؤلّفاته بالدقّة فكتب عن روائعه وأفكاره، وتأمّلاته الفلسفيّة .

رأى أن الأحداث التي عاصرها وعلى رأسها سقوط الخلافة، دعمت إيمانه بأن الإسلام لابدّ أن يتولّى الزمام لإنقاذ العرب والعالم، لأن الحل الوحيد لمأساة الإنسان يكمن في تحوّل قيادة العالم إلى أيد مؤمنة بقيم الإنسانيّة، وكان محور إصلاحه: مكافحة الغزو الفكري، وبثّ روح الاعتزاز بالإسلام في المسلمين، ومقاومة الردّة وآثارها، وخاطب العرب وركّز

عليهم اهتمامه، لأنّهم يحملون استعداداً روحيّاً ومعنويّاً وماديّاً لقيادة العالم الإسلامي، وبالتالي لقيادة العالم أجمع، وكان حريصاً على نهضة العرب بمواهبهم وكفاءاتهم .وبطبيعة الحال فان مثل هذه المؤشرات تدل على سعيه لاحياء الهوية الاسلامية والحفاظ عليها.

وحدّد واجب العلماء والطبقة المثقفة في مقال منشور بمجلّة (البعث الإسلامي) قائلاً: إن مسؤوليّة العلماء والمفكّرين المسلمين في العصر الحديث ـــ بعد مواجهتهم للتحدّيات المعاصرة وإثباتهم أن الإسلام قادر على قيادتها وترشيدها والسموّ بها — هي أن يفضّلوا الإسلام على كل جماعة، ومؤسّسة، ومدرسة، وطائفة، وحزب، وإذا رأوا أن بقاء الإسلام يتطلب أن نحمي جميع الأسماء واللافتات والشعارات والشارات والأحزاب والجماعات فليكن ذلك موضع عنايتهم ولا يقعن تلكؤ منهم أو إحجام للحظة واحدة، وليكن مصلحة الدين والعقيدة مفضّلة على عمل كل مصلحة حزبيّة، أو جماعيّة، وليكن واضحاً أن الدين والإيمان وازدهارهما هو الهدف، سواء رجع الفضل إلينا أو لغيرنا من الإخوان في العقيدة والدين .

قام برحلات إلى السعوديّة ومصر وسوريّة، وغيرها من البلدان الإسلاميّة، ولم يكتف بتأليف الكتب، أو إلقاء المحاضرات، بل راسل الحكّام والملوك، وأشار إلى مواطن الضعف والخطر، الذي يحدق بالأمّة الإسلاميّة، وانتصر لقضايا المسلمين السياسيّة والثقافيّة، وأنشأ مدرسة فكريّة وأدبيّة، ظهر طابعه في كتابات المتخرّجين منها، تلك المدرسة التي جمع روّادها العناصر والشروط الفنيّة الموافقة للإسلام .

ومن أبرز تأمّلاته: قضيّة الإصلاح والتغيير، حيث رأى أنّ المنهج الاصلاحي الذي نريده ينبع أساساً من تكوين الفرد تكويناً نوعيّاً، ويحمل على بعض المصلحين الذين خلطوا الواقع الاصلاحي بالتجربة والروح الغربيّة، وكان يندهش من المسلمين الذين اطمأنّوا لتدريس أبناءهم في المؤسسات العلميّة الغربيّة، وغفلوا عن هدف الغرب في القضاء على الهويّة الإسلاميّة لهم، وتنبّه إلى ضرورة إحداث تغيير شامل في الجامعات الإسلاميّة من خلال ربط العلم بالتربية ؛ وأولى اهتماماً كبيراً بالمنهل العلمي الذي يتلقّاه الشباب، فلا بدّ من تصفية هذا المنهل من خلال توحيد التعليم ليكون وحدة شاملة تجمع بين الوسائل والغايات ؛ وتحفّظ واحترز في التعامل مع حريّة المرأة في بداية نضوجه العلمي عام 1951 وأبدى اعتراضه على دخول المرأة المؤسّسات التعليميّة، لكنّه أشار عام 1983 إلى ضرورة أن تتكامل المرأة مع الرجل في المجتمع الذي يحياه كلاهما، إذ أنّ للمرأة قدرةً للبلوغ إلى الكمال .

وصفه الشيخ علي الطنطاوي لما زاره سنة 1954/1373 في لكهنؤ فقال: وجدته في الأحوال كلّها، مستقيماً على الحق، عاملاً لله، زاهداً حقيقيّاً زهد العالم العارف بالدنيا وأهلها.

ولقد وصف الإمام الندوي بأنّه رمز بارز من رموز الدعوة الإسلاميّة، ومعلم ظاهر في الحقبة التاريخيّة التي عاشها، وطاقة فعّالة وجذوة لم تنطفئ، قضاها كاتباً ومحاضراً ومشاركاً في الندوات والمؤتمرات، ؛ وتحدّث العديد من المؤرخين والباحثين عن جهوده في خدمة السيرة النبويّة فأشار إلى أنّ جهود الندوي في السيرة لا تفهم إلاّ من خلال خلفيّة تاريخيّة ميّزت كتاباته وتزامنت مع طبيعة التحوّلات الفكريّة السياسيّة التي مرّت بها الأمّة الإسلاميّة خلال القرن العشرين الذي علت فيه الفكرة الغربيّة في صراعها للفكرة الإسلاميّة، و شخّص العلّة وبيّن ما خسره العالم بتراجع المسلمين عن القيادة إلى التبعيّة ثقافيّاً وفكريّاً وسياسيّاً، وانطلق إلى طرح قضايا الأمّة معالجاً لها من خلال توظيف السيرة توظيفاً فعّالاً، وكان منطلقه من (الطريق إلى السنّة) وثمرته كتاب (السيرة النبويّة) الذي ضمّنه منهجاً خاصّاً في كتابة السيرة ؛ أمّا منهجه في كتابة السيرة فينطلق من خلال البعد التاريخي، والبعد الحضاري، والبعد الإنساني، والبعد الدعوي والتربوي، والبعد العقائدي، والتكامليّة بين العلوم .

لقد أكّد على عالميّة الرسالة وإنسانيّتها، وفي ذلك ما يبعث على الغيرة، وما يبعث على أن يتنافس العرب، وأن يسبقوا لأنّهم أهل الفضل وأهل الرسالة، وأهل الدعوة، وأشاد بدور العرب لأنهم الذين أشركوا غيرهم من المسلمين في هذه الثروة السماويّة السامية لأخيرة، وأنّ هذه الدعوة قد لبيّت تلبية حسنة، وكانت مستجابة استجابة كريمة تليق بإخواننا العرب وبشرفهم وبمكانتهم وبزعامتهم وقيادتهم .[i]

أسس رابطة الأدب الإسلامي وترأّسها، وفي حفل افتتاح مؤتمر الهيئة العامّة لرابطة الأدب الإسلامي الذي عقد في إستانبول سنة 1989/1410 لفت الأنظار أنّ الأدب قد أصبح عاملاً من أقوى العوامل للإفساد والإصلاح، وأنّه أصبح يلعب دوراً ناقضاً للقيم، وناقضاً للكليّات وناقضاً للمسلّمات .

---

[i] . محمد علي شاهين، ابو الحسن علي بن عبد الحي الحسني الندوي، رأى انه لا بد ان يتولى الاسلام الزمام لانقاذ العرب والعالم، الشبكة العالمية للمعلومات، الانترنيت.وللتفصيل اكثر عن حياة العلامة ابي الحسن الندوي، انظر:موسوعة اعلام الفكر الاسلامي،المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية،وزارة الاوقاف، 1428-2007.

رأى أنّ النقد للأدب بمثابة الميزان للعمل الأدبي، ويندرج نقده المعياري عند خمس قضايا جوهريّة هي: حدود الأدب الإسلامي ومفهومه، وأهميّة الشكل والمضمون في النص، والطبع والصنعة، والأجناس الأدبيّة وخصائصها، ووظيفة الأدب وغايته .

ولعل من المزايا التي حظي بها العلامة الندوي اجادته لعدة من اللغات منها العربية والانكليزية والفارسية والتركية والاوردو كتابة وتكلماً وسعة اطّلاعه على مصادر الحضارات غير الإسلاميّة، فضلاً عن تعمقه في التاريخ الإسلامي، بلغت مؤلّفاته مائة وستّة وسبعين ما بين رسالة وكتاب وبحث، تميّزت كلّها بالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة، والتحليل العميق لمشاكل العالم الإسلامي منها: (العرب والإسلام) و(الصراع بين الفكرة الإسلاميّة والفكرة الغربيّة) و(النبوّة والأنبياء) و(ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين) و(مذكّرات سائح في الشرق العربي) و(الإسلام والحياة) و(المسلمون وقضية فلسطين) و(المسلمون في الهند) و(روائع إقبال) و(رجال الفكر والدعوة في الإسلام) أربعة أجزاء و(القادياني والقاديانيّة) و(الصراع بين الإيمان والماديّة) و(إلى الإسلام من جديد) و(الطريق إلى المدينة) و(العاقبة للعرب والمسلمين) و(العرب يكتشفون أنفسهم) و(روائع من أدب الدعوة) و(التفسير السياسي للإسلام) و(قصص النبيّين للأطفال) خمسة أجزاء و(إذا هبت ريح الإيمان) و(بين الصورة والحقيقة) و(الإسلام والعلم) و(حديث من الغرب) و(القراءة الراشدة) ثلاثة اجزاء، و(الدين والمدنيّة).[i]

الهوية الاسلامية عند العلامة الندوي

ينطلق الندوي في طروحاته الخاصة بالهوية الاسلامية من منطلقات عقائدية منها ما يتعلق بالطابع الروحي للاسلام اذ عده امتداداً للرسالات السماوية السابقة وختاما للمسيرة الروحية المتكاملة والتي وصلت اليها البشرية اي ان الاسلام مثل تتويجا للقيم الروحية التي مرت بها البشرية

ويؤكد في اكثر من موضع على ضرورة ان تكون الهوية الاسلامية هي الهوية الاساسية لدى الفرد المسلم وذلك لن يتأتى الا بجملة من الوسائل والاليات ولعل اهما تربية النشئ المسلم، وينبع تركيز العلامة الندوي على التربية الاسلامية من فكرة اساسية وهي إن مسألة التعليم مسألة قائمة بذاتها ولان الامة الاسلامة امة خاصة في طبيعتها ونشأتها، وهي امة

---

[i] . نفس المصدر السابق

ذات مبدأ وعقيدة ورسالة ودعوة وبالتالي فيجب ان يكون هذا التعليم في البلدان الاسلامية خاضعاً لهذه العقيدة ولمبادىء الدعوة.[i]

وعد العلامة الندوي مهمة التعليم مهمة شاقة وصعبة في معظم البلدان الاسلامية وذلك لان معظم النظم التربوية في البلدان العربية والاسلامية اقتبست من نماذج تربوية غربية فيكون الحل لهذه المعضلة والتي افضت لتخريج اجيال لا تفقه من هويتها شيئاً، لا باستقدام الخبراء من الدول الاجنبية ، او بارسال بعثات للدول الاوربية بل بايجاد نمط فكري يقوم على غزارة في التأليف والانتاج الفكري، ومثل هذا النمط لايوجد في اي بلد اسلامي.ولقد استنتج العلامة الندوي ان السبب الاساسي الذي يقف وراء الفوضى الفكرية التي يعيشها المسلمون وضياع هويتهم الحقيقية او تهميشها واعطائها مترلة ثانوية وذلك لان أسس التعليم التي بنيت طبقاً للمناهج الغربية والتي استنفذت ثروات المسلمين وادت الى فوضى فكرية عارمة ودفعت بنسة كبيرة من الشبيبة إلى تبني اراء ومناهج غريية عن الاسلام بل ومعادية له فهنالك شك وارتياب بالدين واستخفاف بفرائضه وواجباته، وتقليد للاجانب في القشور والظواهر.[ii]

وتنبع الاهمية التي اولاها العلامة الندوي للتعليم في صياغة الهوية الاسلامية في حقيقة كون العلوم والاداب تحمل دائما وابدا روح الامة التي صاغتها والتي انتجتها وطورتها عبر العصور فالعلوم والمعارف التي نمت في ظل الاسلام تحمل روح الاسلام والتي تحمل الايمان بالله والتقوى والخشية لله، والفضيلة والايمان بالاخرة، في حين ان العلوم التي ترد للمسلمين من اوربا تحمل قدرا كبيرا من الالحاد والجمود والايمان بالماديات والمحسوسات فقط،وبالتالي لا يكون من الحكمة نقل هذه العلوم بروحها، بل يتم نقلها وتبوبيها تبوبياً اسلاميا، وعلى هذا الاساس فقد نظم العلامة الندوي الكيفية التي يتم من خلالها دراسة علم التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية وان تكون المنهجية الخاصة بدراسة هذه العلوم نابعة من التفسير القرأني الروحي لها وترك التفسيرات والمعالجات الغربية ذات الطابع المادي،وبطبيعة الحال إن من شأن تلقين النشئ تعليما اسلاميا روحانيا يعني صقلا لهوياتهم وبلورة لشخصياتهم والتي

---

[i] . ابو الحسن علي بن عبد الحي الحسني الندوي، التربية الاسلامية الحرية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1977، ص:7-9

[ii] . نفس المصدر السابق، ص: 13

سوف تكون اسلامية الطابع بدون تناقض بين ما يتعبدون ويؤمنون به وبين ما يمارسونه من نواحٍ عملية أتت نتيجة اكتسابهم نواحي المعرفة الحديثة.[i]

وبطبيعة الحال فان اعطاء الجانب الروحي والاعتقادي اهمية كبيرة في التعليم وفي تنشئة جيل اسلامي جديد يعطي عند العلامة الندوي اهمية كبيرة لدراسة مصادر المعرفة الاسلامية الا وهي القرأن الكريم والسيرة النبوية الشريفة، فالقرأن الكريم أقوى شيء في تكوين الاخلاق ولانفوس والعقول، وهو الكتاب المعجز الذي أحدث اكبر انقلاب في تاريخ البشر، وهو الكتاب الدافق بالحياة والجدة وهنا تكمن قدرته على احداث انقلاب جديد في الحياة والمجتمع ان وجد له طريق في القلوب وبالقدر الذي يقوم فيه القران بدور الملهم الاول والاساس للمسلمين في شؤون دينهم ودنياهم تأتي السيرة النبوية العطرة والتي تشق طريقها للقلوب بدون شفيع او وسيط فيتعلق الانسان المسلم بحياة الرسول الاعظم صلى الله عليه واله وسلم لان في السيرة النبوية الشريفة من العدل والعقل والفضل والجمال ما يغني المسلم عن التعلق بسير رموز الامم الاخرى، ونبه العلامة الندوي إلى ضرورة تركيز معلمي النشئ على جوانب السيرة التي تملأ القلب مهابةً وجلالاً وايماناً، ثم يلي تاريخ السيرة النبوية تاريخ الاسلام في مراحله الاولى فقد برزت فيه شخصيات عادية صقلها الاسلام ونفخ فيها جوانب مضيئة من الايثار والتضحية والحب ولقد امن الندوي ان للقصة والحكاية تأثير اكبر في صقل الهوية مما لدى النظريات العلمية والادلة البرهانية.[ii]

ولقد عالج العلامة الندوي الكيفية التي يتم من خلالها معالجة مركب النقص في نفوس المسلمين وهو ما استلب هويتهم سيما مع عملية المثاقفة مع الحضارة الغربية الحديثة فاولى اهمية خاصة لان يكون الهدف الاساسي للتعليم الدعوة وحسن العمل لله وليس اكتساب الوظائف فقط، فلا يضع النشئ نفسه إلا في موضع يقدرون عليه من غير تكبرٍ ولا انانية، ولا يستعملون مواهبهم إلا في الوجه الذي يليق بها، ويعتزوا بدينهم،ولايخجلوا من الظهور به والانتساب اليه والقيام بواجباته.ولعل مما يعزز الهوية الاسلامية التشبع بروح الدعوة والاختلاط بالشعب وهو ما يعني ان العلامة الندوي قد عاب على المثقفين المسلمين في معظم البلدان العربية والاسلامية وقوفهم موقف المدافع عن الحضارة العربية الاسلامية بل يقتضي

---

[i]. نفس المصدر السابق، ص: 14

[ii].نفس المصدر السابق،ص:15-16

الامر لزوم موقف الدعاة لا المدافعين، لقد عاب العلامة الندوي على المتخرجين من المدارس الحديثة انعزالهم عن باقي شعوبهم اي ان ازمة الهوية تكون واضحة لديهم اكثر من سواهم فهم يعدون شعوبهم او النسبة الغالبة منها امية وجاهلة في الوقت الذي يعيشون فيه كغرباء وغير متفاعلين في مشاكل مجتمعاتهم، وتنشأ هوة فاصلة بينهم وبين المجموع وبالتالي لا يمكن لاي امة ان تنهض وهي تعيش هذه الحالة من الفرقة والانفصال بين الفئة المتعلمة وغير المتعلمة ولا يمكن للفئة المتعلمة ان تنمي هويتها الاسلامية الا بالخبرة والتجربة والتعايش مع المجموع.[i]

ومن اجل ان تتكامل ابعاد الهوية الاسلامية بَين العلامة الندوي وبدون مواربة وبقدر واف مزايا المدرسة الروحانية التي نهل منها الاسلام وادى الى كمالها وميزها عن المدرسة المادية الحسية والتي لا ترى إلا المادة والحس نفعا وفائدة والمدرسة الاشراقية والتي يستقيل فيها العقل ويهيم في عوالم لا تمت بصلة للعالم الواقعي، فربط بدقة بين الالوهية والاعتراف برب قدير وبين الرسالة التي حملها الانبياء المرسلون، فمن يعترف بربوبية الله وقدرته ورحمته لابد له ان يعترف بأهم شعبة من شعب الايمان بالوحدانية وهي الرسالة السماوية،((وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما انزل الله على بشر من شيء))[ii]ولقد بين بالتفصيل دور النبوة والتبليغ الالهي في ترفية العقول وتهذيب النفوس ومقام النبوة يختلف عن مقام الفلاسفة والاشراقيين والذين تضطرب لديهم اصول المعرفة وبالتالي قد تتناقض افكارهم وطروحاتهم في الوقت الذي تكون فيه مصادر النبوة من منبع واحد ومصدر واحد فلا تناقض ولا انقطاع في التواصل، وبين العلامة الندوي ان ما حصل في انقطاع او تعثر في المسيرة الاسلامية كان لسبب اساسي وهو تلاقح الفكر الاسلامي مع افكار وفلسفات نابعة من مصادر غير الهية، وبالتالي فان عملية التلاقح الفكري قد أضرت بالمنابع الاصلية والسليمة للحضارة العربية الاسلامية في السابق كما اضرتها في الحاضر، وهذا يعني ان هنالك ضرورة لان يعتمد المسلمون وبشكل كلي على منابعهم الفكرية الاصيلة بدون اضافة او تعديل.[iii]

ويؤمن العلامة الندوي باستحالة المزج او محاولة التوفيق بين الحضارة الغربية والحضارة العربية الاسلامية وذلك لسبب اساسي يتجسد بالطبيعة الخاصة بكل حضارة والمناهج التي

---

[i] . ابو الحسن الندوي، التربية الاسلامية، مصدر سبق ذكره؛ ص:16

[ii] . ابو الحسن علي الحسني الندوي، بين الدين والمدنية،بيروت، مؤسسة الرسالة، ص:101

[iii]. نفس المصدر السابق، ص: 104

اتخذت في الحضارتين، وإذا كان بالاصل يرفض المظاهر التي استحدثت في الحضارة العربية الاسلامية ويعدها دخيلة على الاصل الاسلامي فانه يرفض أي شكل من أشكال التلاقح المعرفي بين الحضارتين الاسلامية والغربية لسبب اساسي وهو ان الحضارتين بمثابة شجرتين مختلفتين فلا يمكن لهما ان يتحدا او تتوافق الواحدة مع الاخرى، فلا يجمع بينهما سوى كونهما يشتركان في اداء وظائف الحياة ومظاهر الفطرة البشرية وخواصها الانسانية، ولكنهما يختلفان في ابسط القواعد الخاصة بنمو وتطور كل حضارة فما يعد عوامل الرقي في الحضارة الاسلامية يعد عوامل انحلال واضمحلال في الحضارة الغربية والعكس يكون صحيحاً فما يعد عوامل ازدهار ونمو في الحضارة الغربية يعد عامل انهيار وتحلل في الحضارة الاسلامية.[i]

وبطبيعة الحال فان نظرة العلامة الندوي للعلاقة بين الحضارتين الاسلامية والغربية وصعوبة التمازج او حدوث عملية تثاقف بينهما تختلف بدرجة كبيرة عن نظرة كثير من رجال الفكر المسلمين والذين رأوا ان هنالك امكانية لاحداث توافق بين الموروث الاسلامي وبين احدث ما انتجته الحضارة الغرية شرط ان لا يمس القيم الاسلامية، كما انه يخالف ما ذهب اليه كثير من علماء الانثربولوجيا والمؤرخين الذين يرون ان اصول الحضارة واحدة اي ان هنالك قوانين مشتركة يمكن من خلالها ان تبنى الحضارة وتشيد ومن ثم يكون الاختلاف في القيم الدينية والثقافية فحسب.

وبطبيعة الحال كان للمنهج والاسلوب الذي اتبعه العلامة الندوي في نقد جذور الحضارة الغربية مقارنة مع الجذور الخاصة بالحضارة الاسلامية قد نبع من ايمانه بضرورة تقويض نظرية المركزية الاوربية وعدم الرغبة في ايجاد انموذج حضاري يعتمد بشكل كامل على الغرب وحضارته، لقد مضى الأوربيون يؤرخون للعالم كله من زاوية النظر الغربية ، متأثرين بثقافاتهم المادية ، وفلسفتهم المادية ، ومتأثرين كذلك بالعصبية الغربية والعصبية الدينية — شعروا بذلك أم لم يشعروا ومن ثمّ وقعت في تاريخهم أخطاء وانحرافات ، نتيجة إغفالهم لقيم كثيرة في هذه الحياة لا يستقيم تاريخ الحياة ولا يصح تفسير الحوادث والنتائج بدونها ، ونتيجة عصبيتهم التي تجعل أوروبا في نظرهم هي محور العالم ومركزه دائماً ، ولإغفالهم العوامل الأخرى التي أثرت في تاريخ البشرية ، أو التهوين من شأنها إذا لم يكن مصدرها هو أوروبا.[ii]

---

[i] . نفس المصدر السابق، ص:105

[ii] . ابي الحسن الندوي، بين الدين والمدنية: مصدر سبق ذكره، ص: 105

لقد امن العلامة الندوي كما امن قبله الدكتور محمد اقبال(1879-1936) بان المسلم لم يخلق لكي يساير التطور العالمي او ان يقلد ويتبع غيره بل ان مقامه هو مقام الامر الناهي، وليس على المسلم ان ينصاع لتصاريف الدهر بل يثور ويغير الواقع الفاسد الذي يعيش في كنفه، فالمؤمن القوي هو في واقع الحال قضاء الله الغالب وقدره الذي لايرد.[i]

لقد نبعت الرؤية التي تبناها العلامة الندوي للهوية الاسلامية وضرورة ان تكون هي الهوية الجامعة المانعة للانسان المسلم المعاصر من جملة من الثوابت والمواقف التاريخية والتي عزاها الندوي للطبيعة الخاصة بالاسلام وطبيعة تطوره وظهوره في المسار التاريخي للاديان والرؤى العقائدية التي سبقته فبين ما وصلت اليه المسيحية قبل ظهور الاسلام من نزاع وشقاق بين المذاهب المختلفة وتدخل الامبراطورية الرومانية الشرقية في مثل هذه النزاعات وبالتالي كانت الارضية مهيئة وبشكل تام لان يكون هنالك دين جديد يستوعب الرؤى الروحانية التي سبقته ويؤخذ البشرية لقدر من الوسطية والاعتدال فلا افراط في الدين ولا تفريط فيه (النمرقة الوسطى).

وبين العلامة الندوي ان الميزة التي تركها الاسلام وجعلته قادراً على قيادة زمام التاريخ الانساني في حقبة معينة وبالامكان عودته لقيادة البشرية في المرحلة الراهنة انه صقل وهذب النفوس التي دفعت به نحو الافاق العالمية فبعد ان كان العرب لايقرون بنظام ولا ينخرطون في سلك يسيرون على الاهواء ويركبون العمياء أضحوا بظل الاسلام في حظيرة الايمان و العبودية لايخرجون منها، واعترفوا لله بالملك والسلطان والامر والنهي، ولانفسهم بالرعوية والعبودية والطاعة المطلقة وأعطوا من أنفسهم المقادة واستسلموا للحكم الإلهي استسلاماً كاملاً ووضعوا أوزارهم ، وتنازلوا عن أهوائهم وأنانيتهم ، وأصبحوا عبيداً لا يملكون مالاً ولا نفساً ولا تصرفاً في الحياة إلا ما يرضاه الله ويسمح به ، لا يحاربون ولا يصالحون إلا بإذن الله ولا يرضون ولا يسخطون ولا يعطون ولا يمنعون ولا يصلون ولا يقطعون إلا بإذنه ووفق أمره.[ii]

وكان دخول العرب للاسلام مبنياً على فهم اللغة التي نزل بها القرأن الكريم وتكلم بها الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وسلم وعرفوا الجاهلية التي نشأوا عليها وعرفوا معنى الاسلام معرفة صحيحة،وعرفوا ان الاسلام يمثل انتقالا من حياة لحياة ومن عهد لعهد ومن

---

[i] .ابي الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ط4 ، القاهرة، لجنة التاليف والترجمة والنشر،1959، ص:11

[ii] . ابي الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مصدر سبق ذكره، ص:80

مملكة لمملكة،ومن فوضوية لسلطة، ومن نزاعات قبلية لا تنتهي إلى نظام دولة زرعت في ذات كل فرد من افرادها روح البطل المقتحم وبالتالي مكنت المسلمين من بناء دولة في فترة قياسية والانتظام في ظل حضارة امتدت لمساحات شاسعة في قارات ثلاث.

إن هذا الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر والإسلام لله ولدينه أقام عوج الحياة ، ورد كل فرد في المجتمع البشري إلى موضعه ، لا يقصر عنه ولا يتعداه وأصبحت الهيئة البشرية طاقة زهر لا شوك فيها ، أصبح الناس أسرة واحدة أبوهم آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى ، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((كلكم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب ، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم ، أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان)، ويسمعه الناس يقول : ((يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل بّر تقيٌ كريّم على الله تعالى ، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى .[i] ويقول : ((إن أنسابكم هذه ليست على لمنسبة على أحد ، كلكم بنو آدم ، طف الصاع لم يمنعوه ، ليس لأحد على أحد فضل إلا بدين وتقوى.[ii]

واقتلع الرسول الاكرم صلى الله عليه واله وسلم العصبية القبيلة كما رأينا في ثنايا البحث في الحديث عن دور الوثيقة في رسم معا لم الهوية الاسلامية فشدد في اقواله صلوات الله وسلامه عليه على محاربة العصبية وضرورة استئصالها ((ليس منا من دعا لعصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية).

وكان هذا التأكيد من لدن العلامة الندوي على عالمية الرسالة الاسلامية وتاكيده ان هوية الانسان المسلم يجب ان تعلو على غيرها من الهويات الفرعية غير متناقضة البتة مع إيمانه بان العراب يشكلون مادة الاسلام وبعزهم اعز الاسلام وبضعفهم وانهيار دولهم تراجع الدور الذي يمكن ان يلعبه الاسلام و لم يعطي للعرب هذه المكانة من زاوية العرق او النسب

لقد اراد العلامة الندوي من التأكيد على اولوية الحضارة العربية الاسلامية وسموها وضرورة ان يُعلي الانسان المسلم المعاصر من شأن انتمائه الحضاري الاسلامي في مقابل اي غزو فكري وثقافي او محاولة استلاب لهويته وسعيٍ لاحياء هويات فرعية او ثانوية اخرى باسم الحداثة والمعاصرة.

---

[i] .نفس المصدر السابق، ص:83

[ii] .نفس المصدر السابق، ص:83

ولم يكن رأيه هذا بدعا في مسيرة عدد من المفكرين الاسلاميين الذن نبغوا في شبه القارة الهندية وكانوا اصلاً متأثرين بجملةٍ من الظروف السياسية والاجتماعية التي وجد فيها الهنود المسلمين انفسهم سيما بعد نهاية الحكم الاسلامي في القرن التاسع عشر وأضحوا خاضعين للحكم البريطاني ثم لحكم الهندوس ولقد استشعر العلامة محمد اقبال كما تابعه على ذلك العلامة الندوي بأن المسلمين في الهند لا يمكن ان يكونوا تابعين او خاضعين لحكم اخر بعيد كل البعد عن الاسلام حتى وان كان علمانيا او يسعى للوقوف على مسافة واحدة من جميع الاديان والمذاهب في الهند، لقد أدرك العلامة الندوي ان بامكان الاسلام ان يكون الدين الاول في الهند سيما إذا تحلى معتنقوه وابنائه بروح الدعوة ونزعوا عنهم مركب النقص الذي ورثوه من جراء الاحتكاك مع الحضارة الغربية، لقد أكد العلامة الندوي على ضرورة استلهام التاريخ الاسلامي بدون اضافات او تزويقات من لدن المؤرخين والمستشرقين وفهم روح القرأن الكريم والدروس المستنبطة من السيرة النبوية الشريفة وسلوك السلف من الصحابة والتابعين.

ولقد بين العلامة الندوي التأثير الذي تركه الدين الاسلامي على الحضارة الهندية وعلى الشعب الهندي وحتى المعتقدات التي تخالف الدين الاسلامي ونقل في كتابه المهم(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) اقوال عدد من كتاب ومفكري وساسة الهند حول التأثير الذي تركته الحضارة الاسلامية على الديانة الهندوسية سيما مع إيمانها بالوحدانية وان سمت الهتها باسماء شتى. كما نقل قول جواهر لال نهرو(1889-1964) في وصفه للدين الاسلامي والحضارة الاسلامية:" إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ ، وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ويعيشون فيها ، أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية".[i]

---

[i].انظر للتفصيل جواهر لال نهرو، لمحات من تاريخ العالم، ترجمة مجموعة من الاساتذة الجامعيين،بيروت، دار العلم للملايين، 1972.

كما بين التأثير الذي تركه الاسلام على المجتمع الهندي فقال:"لقد جاء الاسلام بالتوحيد الخالص، والذي لا يرى الوساطة بين العبد وربه في الدعاء والعبادة،ولا يعترف بالالهة والمظاهر وحلول الله في بعض البشر، وظهوره فيهم، ويؤمن بالاله الواحد الفرد الصمد والذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد، له الخلق والامر، وله الكبرياء في السموات والارض.[i]

ان مثل هذا الايمان بالحضارة والفكر الاسلاميين والتي اراد العلامة الندوي ان يحث المسلمين على العودة لينابيعها الفكرية واستلهامها وهو غير مستصعب اذا ما امتلكوا الارادة والصبر والدأب على تحقيق المثل العليا التي دعى اليها الاسلام واصطبغت هوياتهم بالهوية الاسلامية بشكل كامل بحيث يمسون هو والاسلام بمثابة ذات واحدة لا انفصال بين سلوكهم ومعتقداتهم فلا تكون لديهم ازمة فكرية كالتي يعانوها في ظل ازمة الهوية التي تعيشها معظم الشعوب الاسلامية بعد انهيار وتراجع الحضارة الاسلامية ووقوف المسلمين موقف المتفرجين في عالم كان يقودون فيه مساراته الاساسية.

الخاتمة والاستنتاجات

رسم العلامة الراحل ابي الحسن الندوي علامة بارزة في عالم الفكر والدعوة الاسلاميين و لم يكن موقفه وفكره الا نتيجة اساسية لاخلاصه لمعتقده وإيمانه الذي قرنه بعمل دؤوب واخلاص وتفان في سبيل الاسلام ورفعة شأنه، ولقد تبين من خلال البحث ان الفكرة التي استند عليها العلامة الندوي في طرحه للهوية الاسلامية هو الانقلاب الجذري الذي قاده الاسلام في نفسية وعقل العرب وبالتالي مكنهم خلال حقبة وجيزة من قيادة افضل تجربة حضارية انسانية امتزج فيه الدين بالعقل وبالبناء الحضاري اي موازنة بين العقل والمادة والروح في اطار متناسب، وبطبيعة الحال كان مثل هذا البناء الحضاري مقرونا بوجود قائد أضحى السبب بين السماء والارض، واتباع مخلصين جسدوا الرسالة الاسلامية ونقلوا النصوص لعالم الواقع.

استلزم التعرف على الهوية الاسلامية دراسة الابعاد الخاصة بهذه الهوية ولقد وجد الباحث ان افضل وسيلة لدراسة ابعاد الهوية الاسلامية التطرق للوثيقة النبوية والتي صاغها الرسول الاعظم صلوات الله وسلامه عليه والتي ارست معالم الاخوة الاسلامية في ظل مجتمع قبلي مضطرب واضحت بموجب الوثيقة الاولوية للرابطة العقائدية الدينية على حساب الرابطة القبلية وهو ما استلهمه العلامة الندوي في طرحه وفهمه للهوية الاسلامية

---

[i] ابي الحسن الندوي، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مصدر سبق ذكره،ص:105وللتفصيل اكثر عن دور الاسلام في الهند انظر ،العلامة ابي الحسن الندوي،المسلمون في الهند، الشبكة العالمية للمعلومات، الانترنيت، http/abuhasanalinadwai.org-alMuslimoona fil hind.pdf

في عالم اليوم، وسعى ايضا الى نقد المرجعيات التربوية في بلدان العالم الاسلامي وكشف ابتعادها عن روح ونمط الحضارة العربية الاسلامية وبالتالي ايجاد نمط من النظم التربوية البعيد عن روح الامة وهو ما يؤدي بالفرد المسلم إلى استنساخ تجربة حضارية بعيدة عن الدين الاسلامي وهو ما يجعل الشخص المكتسب للثقافة الغربية يعيش حالة من الاغتراب عن مجتمعه ولا يقدم ادنى مشاركة او مساهمة في حل اي معضلة من المعضلات التي تواجه المجتمعات الاسلامية وهي عديدة وشائكة إلا في حدود ما يقدمه العقل الغربي وهو ما يوقعها اي هذه المجتمعات في ذات الازمة التي تحاول الخروج منها.

لم يؤمن العلامة الندوي بان هنالك عصر انحطاط عانته الحضارة الاسلامية بل كان هنالك مد وجزر مرت به المسيرة الحضارية الاسلامية، وبالتالي لا يصح تعميم قوانين التقدم والانحطاط التي يستخدمها الباحثين المتأثرين بالمناهج الغربية، وأشار العلامة الندوي إلى ان المد والجزر في الحضارة الاسلامية كان بسبب اساسي الا وهو الاقتراب والابتعاد عن الكتاب والسنة فحينما يحصل تقارب مع الكتاب والسنة هنالك تقدم في المسيرة الاسلامية وحينما يحصل ابتعاد عن هذين المصدرين يكون هنالك نكوص وتراجع في الدور الذي يلعبه الاسلام في المسيرة الانسانية.وامن وبدون مواربة ان اي نهضة صناعية وتكنولوجية لا يمكن ان تؤتي ثمارها بدون نهضة روحية واستلهام للاسس التي قامت عليها نهضة المسلمين في بداية الدعوة الاسلامية.

ولقد بين العلامة الندوي وعلى نحو واضح وصريح ان مستقبل الجنس البشري يعتمد على الجهود التي سوف يبذلها المسلمون من اجل ايصال صوت الدعوة الاسلامية لابعد نقطة على سطح هذا الكوكب سيما وان المادية و النزعة الانانية تسيطر بشكل كامل على حياة المجتمعات الغربية والاوروبية.

فكر العلامة ابو الحسن الندوي من خلال كتابه
(ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

د. ياسر عبدالجواد المشهداني
العراق. جامعة الموصل
كلية التربية. قسم التاريخ

(يلتقي المسلمون على اختلاف قومياتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم على قواسم مشتركة اساسية ولذا فهم ينضوون من حيث المصير تحت لواء الفكر والمبدأ والعقيدة ، مكونين مع بعضهم وحدة مجتمعاً وجغرافيا اساسها تماثل القيم وتشابه العادات والتقاليد .)

من هذه الرؤى عقدنا العزم على المشاركة في المؤتمر الذي تنظمه مؤسسة العلامة ابي الحسن التعليمية والخيرية حول موقف الشيخ الندوي من الافكار المعاصرة (دراسة مقارنة) والتي تحتفي هذا العام بالعالم الراحل الشيخ العلامة ابو الحسن علي الحسني الندوي ببحثنا الموسوم " فكر العلامة ابو الحسن الندوي من خلال كتابه (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) " والذي نتناول فيه عدة مداخل منها الاطلاع على سيرة هذا العلامة الجليل واثاره القيمة ثم التطرق الى اهمية كتابه – موضوع الدراسة -- من حيث الوصف والعرض والمحتوى، فضلا عن استجماع عدد من النقاط التي تبين المستوى الفكري للعلامة ومناقشة ابرز المداخل والكتابات الواردة في الكتاب التي تعكس بالتالي مدى التزامه -- رحمه الله -- بامر الدين الاسلامي الحنيف وحث المسلمين في العالم على تبوء مركز الصدارة في الحضارة العالمية .

في الواقع يحدوني الامل والثقة بان اطلع على فحوى الابحاث التي كتبت باقلام المؤرخين والمهتمين والمتأثرين بفكر العلامة الندوي الذي نجتمع في هذا المؤتمر من اجل تكريمه ، واعتبره جزء يسير من رد الجميل لمسيرة الميمونة في خدمة الاسلام والمسلمين ونصرة هذا الدين . وان عقد هذا المؤتمر التفاتة ذكية من السادة المنظمين له ونرجو ان

تتوالى اللقاءات للاحتفاء بعدد من الشخصيات الفكرية في العالم الاسلامي في مختلف الاماكن من العالم .

اخيرا .. فأني كلي سعادة بدعوتي لهذا المؤتمر ولقائي اخواني الباحثين من مختلف الدول والسعادة الاكبر هي تحقيق حلمي بزيارة البلد الذي كتبت عنه في تخصصي الدقيق عن دراستي للماجستير والدكتوراه ، ولهذا فاني اشكر جميع القائمين على هذا المؤتمر وبالاخص الاخ الدكتور محمد طارق الايوبي الندوي الذي تواصل معنا وحفنا بكل ما نريد ان نعرفه عن المؤتمر ومختصاته ، واسأل الله ان يسدد خطاهم ، كما ابتهل الى الله تعالى ان يرحم فقيدنا الشيخ ابو الحسن الندوي ويسكنه فسيح جناته ، انه على ذلك قدير .

التعريف بالكتاب وطبعاته ([أ])

بالنظر للأهمية الحضارية الدائمة والملحة لكتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) فقد تم طبعه عدة مرات في ازمان مختلفة ومن اكثر من مؤسسه اعلامية على الاقل في الوطن العربي ، ولكنني اعتمدت هنا على طبعة المركز العالمي للكتاب الاسلامي في الكويت وهي الطبعة الرابعة والمتوافرة عدي . والح هنا على موضوعة ان الكتاب حضاري ومهم لانني وجدته شاملا عاما مشخصا وليس توصيفيا - لما يمر به العالم الاسلامي اليوم من مشاكل اقتصادية واجتماعية وسياسية فحسب ، بل انه محاولة لايجاد الحلول الملائمة لاجل اعادة النهوض بعد الكبوات .

يقع الكتاب في 303 صفحة من القطع الوسط وفيه عدة تقدمات فضلا عن مقدمة المؤلف نفسه ، ويضم خمسة ابواب مقسمة حسب التدرج التاريخي وفي كل باب عدة فصول . ففي الباب الأول تحدث عن العصر الجاهلي وناقش كيفية مسير الإنسانية نحو الاحتضار مارا بالحضارات السابقة للاسلام وبيان ادوارها الانحلالية ومفاسدها ومنها (الدولة الرومانية والدولة الساسانية) ثم تطرق في الباب الثاني الى كيفية الانتقال من

([أ]) ذكر الكاتب قبل هذا نبذة عن حياة الشيخ الندوي، ورغم أن ما ذكره يحمل قيمة علمية إلا أننا حذفناه لتوفر هذه المعلومات فى كتب ألفت فى سيرة الشيخ الندوى

الجاهلية إلى الإسلام وبيان منهج الأنبياء في الإصلاح والتغيير للعالم الذي واجهه محمد (ﷺ)، وتحدث في الباب الثالث عن العصر الإسلامي الذي اعتبره عهد القيادة الإسلامية اي (العصر الراشدي والعصر الاموي والعصر العباسي) وذكر ابرز الأئمة المسلمون وخصائصهم وطريقتهم في حكم العالم انذاك . اما الباب الرابع فقد خصصه للحديث عن العصر الأوربي وطبيعة الحضارة الغربية وتاريخها ، في حين اختتم الكتاب بالباب الخامس والذي قدم فيه مقترحات وحلول جذرية كي ترجع قيادة الإسلام للعالم .

ملاحظات على الكتاب ومؤلفه

في البداية ومن عنوان الكتاب يظهر ان مؤلفه كان من اشد الغيورين على الاسلام ومن المتابعين لنهضته ، فقد ظهر ذلك واضحا من تحمسه في الكتابة ومن اسلوبه واستشهاداته الجمة بل ان ذلك طغى على اغلب مؤلفاته الاخرى التي تدعو الى الالفة الاسلامية والوحدة والترابط بين الشعوب الاسلامية وقد جسد بذلك حديث الرسول محمد (ﷺ) "من لم يهتم بامور المسلمين فليس منهم". وهكذا فهو يعكس التربية الاسلامية والتعليم الديني والثقافي الذي تلقاه في مؤسسة ندوة العلماء ، والتي أعلنت عن أهدافها بعبارات محددة ، هي إحداث فكر جديد يجمع بين محاسن القديم والجديد ، بين القديم الصالح والجديد النافع ، بين التصلب في الأصول والغايات والمرونة في الفروع والآلات [1] .

لعلي هنا وانا معجب اشد الاعجاب بما قرأته من افكار العلامة الندوي اراه كتابا يمس حياة جميع المسلمين والمهتمين بأمرهم خاصة وانه قد وضع يده على الجروح التي كنا ومازلنا نعاني منها حتى الان ، اذا فهو كتاب يوافق كل العصور والازمان ، بل هو اقرب ما يعبر عن الواقع المرير الان ، فلو طلبت من مؤرخ غيور على دينه اليوم ان يكتب في نفس الموضوع لما خرج عما كتبه الامام الندوي منذ عدة عقود ولما زاد عليه . ومن هنا فقد ادرك الشيخ الندوي ان الوحدة بين ابناء الامة الاسلامية امر مهم لتحقيق التنمية لتأخذ

---

[1] الشيخ الدكتور أحمد حسن : " الثقافة الإسلامية " ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، العدد الاول (الرياض – لات) ، ص 49

مكانتها بين الامم وهي امر مهم من اجل التعاون لنشر العدل والتسامح والمحبة بين ابناء البشر جميعا . ان الاسلام قد ارسي دعائم الوحدة باعتماده على دعائم من القران والسنة النبوية. كما ان الوسطية والاعتدال من العوامل المهمة في وحدة الامة الاسلامية. كما ان الوحدة الاسلامية هي سلاح لمواجهة لاعداء الامة0ومن شروطها كذلك الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله اجمعين والقضاء والقدر والايمان بنبوة الرسول(ﷺ) .

وان ما يدل على اهمية الكتاب ومكانته بين الاوساط الدعوية والتاريخية هي تلك التقديمات الرائعة والمتعددة التي تبناها خيرة رجال الفكر والدعوة في ذلك العصر [1] والتي اتحفت الكتاب وزادته زينة بكلمات من ذهب لتبرهن ان افكار العلامة الندوي وليدة العصر وظهرت في وقت مناسب لاجل شحذ الهمم لشباب الاسلام كي يبدأوا النهوض مجددا لرفع رايات الاسلام عاليا .

فقد ذكر الشيخ الاستاذ سيد قطب في مقدمته للكتاب وقال فيها : " إنه يبدأ فيرسم صورة صغيرة سريعة– ولكنها واضحة– لهذا العالم قبل أن تشرق عليه أنوار الإسلام الأولى. رسم الصورة لهذا العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، من الهند و الصين إلى فارس والروم، صورة المجتمع وصورة الضمير في هذه الدنيا العريضة، في الجماعات التي تظلها الديانات السماوية، كاليهودية والمسيحية، والتي تظلها الديانات الوثنية، كالهندوكية والبوذية والزرادشتية .. وما إليها .. إنها صورة جامعة تعرض رقعة العالم وتصفها وصفاً بيناً، لا يعتسف المؤلف فيه، ولا يستبد به، إنما يشرك معه الباحثين والمؤرخين من القدامى والمحدثين، ممن يدينون بغير الإسلام ، فلا شبهة في أن يكونوا مغرضين له ، وللدور الذي أداه في ذلك العالم القديم . إنه يصف العالم تسيطر عليه روح الجاهلية ، ويتعفن ضميره ، وتأسن روحه ، وتختل فيه القيم والمقاييس ، ويسوده الظلم والعبودية ، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس ، وتغشاه غاشية من الكفر والضلال والظلام ، على الرغم

---

[1] اول من كتب مقدمة للكتاب هو الباحث الإسلامي الأستاذ سيد قطب كما قدم له الشيخ احمد الشرباصي وتصدير لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى .

من الديانات السماوية ، التي كانت فد أدركها التحريف ، وسرى فيها الضعف ، وفقدت سيطرتها على النفوس ، واستحالت جامدة ، لا حياة فها ولا روح ، وبخاصة المسيحية[i].

كما يروق لي ان اخذكم الى نص اخر من مقدمة الاستاذ الكبير محمد يوسف موسى حيث قال :" ان الكتاب في غير حاجة حقاً لتقدمة مقدم ، فقد تقبله القراء بقبول حسن ، وخصوه بحفاوة لم يظفر بها كتاب ظهر عن الإسلام في هذه الأيام ، وإنما هو تواضع وفضل من المؤلف المؤمن الصادق الإيمان جعلاه يطلب مني هذه الكلمة ، وأشهد أني قرأت الكتاب حين ظهرت طبعته الأولى في أقل من يوم ، وأغرمت به غراماً شديداً ، حتى لقد كتبت في آخر نسختي وقد فرغت منه ((إن قراءة هذا الكتاب فرض على كل مسلم يعمل لإعادة مجد الإسلام)) ، وكل هذا قبل أن أعرف المؤلف الفاضل ، فلما سعدت بمعرفته والحديث معه مرات عديدة ، فهمت كيف ولماذا فتنت بالكتاب ، وعرفت أن مرد هذا كله– فوق ما فيه من ثمرات التوفر على البحث ونشدان الحق– إلى معرفة الكاتب بالإسلام معرفة حقه وأخ نفسه في حياته به ، والإخلاص في الدعوة الصحيحة له [ii] .

ومن جانب اخر وجدت ان توظيفه للامثلة كان باهرا حتى انه وظف واستشهد بنصوص رائعة ونادرة لم نكد نسمع بها ونحن مؤرخون ، بل اختارها من بطون مصادر التراث الاسلامي فضلا عن الاحاديث الشريفة ووظفها التوظيف السليم والدقيق والمناسب، وكلما ذكر نصا او عرض رأيا ساق حادثة من زمن الرسول (ﷺ) والصحابة . كما استشهد باحسن الاقوال وابهاها وانسبها من افواه خيرة المؤرخين والمثقفين وشهود العيان .

كذلك ومن خلال قراءة متفحصة للكتاب بدا لي ان العلامة الندوي كان قد هظم بشكل جيد المادة التاريخية وعاينها بدقة بدليل ان اشاراته المرجعية قليلة نسبيا خلال عرضه لعدد كبير من الأحداث التاريخية والروايات والنصوص ، ولا شك من انه كان قد اعتمد على عدد من المصادر والمراجع ومصادر التاريخ والفكر والفقه الإسلامي وغيرها لكنه

---

[i] مقدمة كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص 2 .

[ii] مقدمة كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص 7 .

فهمها بصورة جيدة وبعقلية واسعة وادراك وفهم عميقين لما يعنيه التاريخ فبدأ يتفلسف ان صح التعبير بنظرة الخائف على دينه والحريص على مستقبل المسلمين فاخذ يعمل ويكتب باسلوب رائع يشد القارئ مهما كان مستواه الثقافي .

وكان عرضه للأحداث التاريخية يدل على براعة ادبية كبيرة وثقافة واسعة تبرهن حبه الكبير للحضارة والثقافة الاسلامية وولعة باللغة العربية وتبحره بها اذ قام بصياغة النصوص الاصلية الواردة في كتب التراث الاسلامي والبسها اسلوبه الخاص والواضح ليصل بذلك الى مفهوم القارئ مهما كان مستواه الفكري .

هذا وقد شكلت المادة التاريخية التي عرضها وقدمها في الكتاب محتوى مختصرا لجميع فترات التاريخ الإسلامي اذ بدأ بمنهجية واضحة عن عصر ما قبل الإسلام الذي اعتبره من احط الأدوار التاريخية ، ثم مر بفترة السيرة النبوية الشريفة واستعرض اعمال الرسول في المدينة ومر بالعصر الراشدي ثم العصر الاموي والعصر العباسي وانتهى بالدولة العثمانية وصولا الى التاريخ الحديث والمعاصر . فاصبحت مادة الكتاب اكثر شمولية وكافية.

من هنا يمكن عد المادة التي قدمها العلامة في الكتاب بالمادة التاريخية اذ ان مساحة التاريخ واسعة فيه وبالنظر لدقة المادة واسلوب العرض والتحليلات التي ساقها المؤلف يمكن اعتباره مؤرخا بل ومؤرخا محنكا تتوافر فيه صفات الباحث الناجح من دقة وامانة ومصداقية وتحرٍ ، ولعله في هذه الخصلة قد تأثر بوالده العلامة الكبير عبد الحي الحسني الندوي صاحب كتاب (الأعلام ...) الذي دل على براعة مؤلفه في علوم الرجال والادب والتاريخ . كما ان هذه الأسرة خصها الله تعالى بعقول الهداية النيرة التي هي اجل صفات الإنسانية وهي الأسرة التي تعود بجذورها الى سيدنا الحسن رضي الله عنه والتي زادت من شرفها ونسبها انها درست في دار ندوة العلماء وبرز منها الكثير من رجال الفكر الإسلامي.

افكار منتقاة للعلامة الندوي وتحليلها

1- : اعتبر الشيخ الندوي ان العصر الجاهلي " من أحط أدوار التاريخ بلاخلاف"[i] وهو محق بذلك ، مما يثبت ان العرب فعلا نصروا واعزوا بالاسلام بعد ان كانت حياتهم قبله بلا معنى . ومن المعلوم ان القبيلة كانت تشكل اساس النظام السياسي والاجتماعي عند العرب قبل الاسلام وهي وحدة سياسية تظم مجموعة من الناس ينتمون او يزعمون انهم ينتمون لجد واحد . اما العلاقة بين القبائل المختلفة فقد كانت مقطعة الاوصال وكانت قواهم متفانية في الحروب الا ان الرهبة والوجل من بعض العادات والتقاليد المشتركة بين الدين والخرافة ربما كانت تخفف من حدتها وصرامتها . قال اطهر المبارك بوري : " أما فكرة الشرك وعبادة الأصنام فقد نشأت فيهم على أساس أنهم لما رأوا الملائكة والرسل والنبيين وعباد الله الصالحين من الأولياء والأتقياء والقائمين بأعمال الخير ـــ لما رأوهم أنهم أقرب خلق الله إليه، وأكرمهم درجة وأعظمهم مترلة عنده، وأنهم قد ظهرت على أيديهم بعض الخوارق والكرامات، ظنوا أن الله أعطاهم شيئًا من القدرة والتصرف في بعض الأمور التي تختص بالله سبحانه وتعالى، وأنهم لأجل تصرفهم هذا ولأجل جاههم ومترلتهم عند الله يستحقون أن يكونوا وسطاء بين الله سبحانه وتعالى وبين عامة عباده، فلا ينبغي لأحد أن يعرض حاجته على الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم يشفعون له عند الله، وأن الله لا يرد شفاعتهم لأجل جاههم، كذلك لا ينبغي القيام بعبادة الله إلا بواسطة هؤلاء؛ لأنهم بفضل مرتبتهم سوف يقربونه إلى الله زلفي .

ولما تمكن منهم هذا الظن ورسخ فيهم هذا الاعتقاد اتخذوهم أولياء، وجعلوهم وسيلة فيما بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، وحاولوا التقرب إليهم بكل ما رأوه من أسباب التقرب؛ فنحتوا لمعظمهم صورًا وتماثيل، إما حقيقية تطابق صورهم التي كانوا عليها، وإما خيالية تطابق ما تخيلوا لهم من الصور في أذهانهم ـــ وهذه الصور والتماثيل هي التي تسمى بالأصنام " [ii].

---

[i] ابو الحسن علي الحسني الندوي : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، طبعة المركز العالمي للكتاب الاسلامي ، ط4 (الكويت – لات) ص 24 .

[ii] صفي الدين ابو اطهر المباركبوري : الرحيق المختوم ، ص 21 .

2- في معرض حديثة عن اليهود قال الشيخ الندوي :" وكانت في أوربا وآسيا وإفريقيا أمة هي أغنى أمم الأرض مادة في الدين ، وأقربها فهماً لمصطلحاته ومعانيه ، أولئك هم اليهود ، ولكن لم يكونوا عاملاً من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر في غيرهم، بل قُضي عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم ، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد ، والنفي والجلاء ، والعذاب والبلاء ، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية ، والإدلال بالنسب ، والجشع وشهوة المال وتعاطي الربا ، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الإعصار والأجيال ، منها الخنوع عند الضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة " [1] .

ان ما ذهب اليه العلامة هو عين الصواب ، فاليهود هم سبب اغلب المفاسد في التاريخ ودائما يحاولون زعزعة امن الدول واستقرارها من اجل تنفيذ مآربهم الخبيثة فيعيقون الاخر ويتقدمون هم وما يفعلون اليوم بالشعب العربي الفلسطيني الصابر خير شاهد ودليل على مخططاتهم الشيطانية . فاليهود الان يحاولون بناء دولتهم التي تمتد حسب زعمهم — من النيل الى الفرات ، وهم يعتقدون ان ابرز اسباب وصولهم السريع هذا هو عقليتهم الجبارة وتخطيطهم المدروس وامتلاكهم اسباب القوة والاقتصاد متجاهلين بذلك مساندة الدول الاستعمارية لهم لا سيما امريكا وبريطانيا ، ومتجاهلين تاريخهم الاسود ومفاسدهم الكبيرة اينما حلوا ، مما جعل السكان والشعوب التي لها تجارب مع اليهود تفرض عليهم العزلة ، تلك العزلة الضارة النافعة التي جعلتهم يعيدون النظر في اسباب وجودهم وتواجدهم ، فنراهم الان يطورون خططا استعمارية في غاية الدهاء والمكر كي تؤمن لهم البقاء والقوة اطول مدة ممكنة . وقد لانتفاجأ كثيرا اذا ما سمعنا بان القران الكريم ونظرياته وتفسيره تدرس باهتمام عال في جامعات اسرائيل ومدارسها ، فهم يعلمون انه الحق من الله تعالى

---

[1] الندوي : ماذا خسر العالم ، ص 33 .

وان الدين عند الله هو الاسلام ، ويعلمون كذلك ان من اسباب بقاء الحضارت هو الاهتمام بالعلم والتاريخ معا .

وهكذا فقد تعلم اليهود من تاريخهم درسا فاولوا عاداهم التي فرضت عليهم العزلة بما ساموه العداء للسامية مع انهم هم الذين خلقوا هذا العداء وزرعوا بذوره وظلوا يتعهدون بالسقي والري حتى اصبحت شجرة تنبت فيها الاشواك وتنضج فيها السموم وما كان اليهود يتعرضوا لكره ولا لقمع ولا اضطهاد لو انهم ساووا انفسهم في الحقوق والواجبات مع اهل البلد الاصليين ، فالكذب والزنا عندهم جائز اذا كان بقصد الإصلاح . ويامرهم التلمود باخذ الربا من غير اليهودي كما تجوز لهم السرقة ولا يعترفون بانسان غير اليهودي. لقد امن اليهود بهذه التعاليم ايمانا كاملا وان كانوا في قرارة انفسهم يرون انها تخالف العرف والاخلاق واصل ديانتهم ، لذلك كانوا يشعرون انهم يخالفون الاوساط التي يحيون بينها فكانوا يمارسون عاداهم السيئة في اماكن عالية بعيدة عن العيون تسمى بـــ(الجيتو) فانعزلوا عن العالم . يقول حاييم وايزمان : " ان الصراع بيننا وبين العرب ليس صراعا بين الصواب والخطأ بين بين حقين وحقنا اليهودي هو الاعلى لسببين : الاول ديني غيبي اذ لا يمكن التفكير في التاريخ اليهودي بدون ارض اسرائيل (فلسطين) وسبب اخر هو ان فلسطين لا تؤدي دورا هاما في حياة العرب الذين يمتلكون مساحات واسعة " .

اما ما يتعلق بالمفاسد التي احدثوها فهي تكاد تشمل اغلب بقاع الارض والشعوب. ففي الاسلام كانت اول خيانة لهم عندما نقض بنو قينقاع عهدهم للرسول محمد (ﷺ) بعدما اعطوه العهود والمواثيق بان لا يحاربوه او يقفوا ضده فحاصرهم حتى استسلموا واجلاهم عن المدينة ، وبنو النظير بعث اليهم خمسة عشر مسلما فقتلوهم الا مسلما واحدا وحاولوا اغتيال الرسول ، ثم بنو قريضة الذين وقفوا مع قريش وحشدوا عشرة الاف مقاتل ضد المسلمين فانتصر عليهم في معركة الخندق . كما كان لهم دور في انقسام وحدة الصف المسلم الى فريقين (السنة والشيعة) فادوا دورا في انتقال الخلافة الى الامويين عن طريق عبد الله بن سبأ اليهودي الذي دخل الاسلام نفاقا برجل واحدة لتحقيق انكى المفاسد وتكوين الشيعة . كما ساهموا في اسقاط الخلافة الاسلامية في الاندلس ذلك الفردوس المفقود . وفي العصر الحديث

وعندما فشلوا في انشاء دولتهم عن طريق اغراء السلطان العثماني عبد الحميد الثاني ودغع الرشا له– عملوا عن طريق حزب الاتحاد والترقي على اسقاط خلافة بني عثمان وتاسيس تركيا الحديثة بزعامة اتاتورك وسيطرت الدول الاستعمارية على ممتلكاتها وبضمنها فلسطين فحصلوا منها على وعد بلفور بانشاء دولتهم . كما ساهموا في اشعال فتيل الحرب العالمية الثانية وعملوا على حث وتحشيد الرئيس الامريكي على ضرب اليابان بالقنبلة الذرية . ومازالت خططهم الشريرة في اضعاف المسلمين والدول الاسلامية تتوالى الى الان ، ولكن وعد الله حق في التنكيل بهم وهو قريب باذنه تعالى.

3– عند حديثة عن نظام الطبقات الهندوسي الذي يتكون من اربع تقسيمات هي : الشاكبيرية Shakberea أو البراهمة Brahman وتعني (السلطة المقدسة) وهم الاشراف ورجال الدين من اصحاب البشرة البيضاء (الاريون) والكشترية Kshatrea : وهم طبقة رجال الحرب والبيشية Vaishya أو الويشية وهم الصنّاع والزرّاع واصحاب المهن (ذوي البشرة السمراء) والشودرية Shudriya : وهم من طبقة الخدم والعبيد [i] – فقد وصفها وصفا دقيقا وانتقدها كما ننتقدها كلنا معه اذ انها لا تحقق العدالة للفرد . ومن الملاحظ ان هذا النظام ظلّ يؤدي دورا مهما في مجمل الحياة اليومية لعامة سكان الهند وجزرها الشرقية [ii] ويبدو أن ابناء هذه الطبقات يختلفون في كافة تفاصيل حياتهم اليومية وحتى في المنزلة الاجتماعية وما يترتّب عليها من فروق فردية بينهم وعلى سبيل المثال كان الزواج من طبقة الى أخرى صعوداً محرّما ويحقّ للبرهمن ان يتزوج اربع مرات وللكشتري ان يتزوج ثلاث مرات وهكذا [iii] .

(i) الندوي : ماذا خسر العالم ، ص 49 .

(ii) ابو القاسم عبيد الله بن عبدالله ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، مطبعة بريل، (ليدن – 1889) ، ص 71؛ عبد الرحمن حمدي : الهند ، عقائدها وأساطيرها ، دار المعارف ، (القاهرة–1978) ص 22.

(6) أبو الريحان محمد بن احمد البيروني : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، دار المطبعة العثمانية ، (حيدر آباد الدكن – 1958) ، ص 32 ؛ حمدي : المرجع السابق ،ص 31.

4- في معرض حديثة عن الحضارة الغربية والاوربية قال الشيخ الندوي :" والذي يعنينا الآن هو أن نعرف طبيعة الحضارة التي أنشأوها ، فإذا نظرنا فيها نظرة تحليل وانتقاد وصرفنا النظر عما تشترك فيه مع الحضارات من مظاهر وظواهر وبحثنا عن طبيعتها وخصائصها وجدنا من المزايا التي تمتاز بها عن المدنيات الأخرى – خصوصاً المدنيات الشرقية – ما يلي : الإيمان بالمحسوس وقلة التقدير لما لا يقع تحت الحس . قلة الدين والخشوع . شدة الاعتداد بالحياة والاهتمام الزائد بمنافعها ولذائذها . الترعة الوطنية . ويمكن أن نحصر هذه المظاهر المتشتتة في كلمة مفردة هي ((المادية)) فكانت الحضارة اليونانية شعارها ((المادية)) وهي التي ينم بها كل ما يتصل باليونان من ثقافة وعلم وفلسفة وشعر ودين ، فلم يستطيعوا أن يتصوروا صفات الله وقدرته إلا في شكل آلهة نحتوا لها تماثيل وبنوا لها معابد وهياكل ، فللرزق إله وللرحمة إله ، وللقهر إله ، ثم نسبوا إليها كل ما يختص بالجسم المادية ونسجوا حولها من أساطير وخرافات" [1] وبهذا فقد اثبت مجددا انها حضارة ماديات في حين ان الحضارة العربية الاسلامية هي حضارة الاخلاقيات في التعاملات وجعلت الانسان مادتها وهدفها وهي ملائمة لفطرة الانسان وقد امتازت الحضارة الاسلامية بحرية الضمير واصبحت ذات صلة بالثقافات الاخرى تاخذ منها وتعطيها فكانت حضارة متميزة بدراساتها الانسانية واكتسبت بذلك هذا المقام الرفيع من التاريخ الانساني . فالإسلام دين شامل ، وقد ظهرت هذه الشمولية واضحة جليَّة في عطاء الإسلام الحضاري ، فهو يشمل كل جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والفكرية، كما أن الإسلام يشمل كل متطلبات الإنسان الروحية والعقلية والبدنية، فالحضارة الإسلامية تشمل الأرض ومن عليها إلى يوم القيامة ، لأنها حضارة القرآن الكريم الذي تعهَّد الله بحفظه إلى يوم القيامة ، وليست جامدة متحجرة ، وترعى كل فكرة أو وسيلة تساعد على النهوض بالبشر، وتيسر لهم أمور حياتهم، ما دامت تلك الوسيلة لا

---

[1] الندوي : ماذا خسر العالم ، ص 153-154 .

تخالف قواعد الإسلام وأسسه التي قام عليها، فهي حضارة ذات أسس ثابتة، مع مرونة توافق طبيعة كل عصر، من حيث تنفيذ هذه الأسس بما يحقق النفع للناس .

وصحيح ان الحضارة الغربية في القرون المتاخرة الحديثة ساهمت في تقدم البشرية ورقيها عبر الاختراعات والاكتشافات العلمية والتكنولوجية بحث اصبحت كلها وسائل تقنية تغزو حياتنا شأنا ام ابينا ، ولكن الصحيح ايضا ان منابع تلك العلوم كانت عربية اسلامية خالصة كما ان الصحيح هو النظرة الدونية التي نظر بها الغرب الى الشرق والتي ادت الى التمايز والعداء بين الطرفين .

5- ان مدحه الدائم للرسول محمد (ﷺ) على طول صفحات الكتاب وفي مختلف فصوله يدل على عمق ايمان الرجل وتعلقه بالنبي الامين وهو قدوة له ولنا ان شاء الله . ونسوق هنا نصوصا جميلة دقيقة التعبير والبلاغة من رجل مسلم هندي هو العلامة الندوي اذ قال : " ولكنّ محمداً صلى الله عليه وسلم لم يبعث لينسخ باطلاً بباطل ويبدل عدواناً بعدوان ، ويحرم شيئاً في مكان ويحله في مكان آخر ، ويبدل أثرة أمة بأثرة أمة أخرى ، لم يبعث زعيماً وطنياً أو قائداً سياسياً ، يجر النار إلى قرصه ويصغي الإناء إلى شقه ، ويخرج الناس من حكم الفرس والرومان إلى حكم عدنان وقحطان . وإنما أرسل إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، إنما أرسل ليخرج عباد الله جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ويخرج الناس جميعاً من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم ." [1]. لهذا فهو يؤمن بان الاصلاح يجب ان يكون وفق الاسس التي وضعها النبي الكريم عند هجرة الى المدينة وان يعمل المصلحون على الاقتداء بسيرته وشمائله (ﷺ)

6- ينقلنا بعد ذلك الى العصر الايماني الكبير عصر النبوة ويصور لنا تصويرا رائعا من مجتمع الصحابة ، وكيف استطاع الرسول الكريم توحيد المسلمين وتشكيل الامة الاسلامية

---

[1] الندوي : ماذا خسر العالم ، ص 82 .

بعد ان كان العرب متفرقين متناحرين ، فكانت مساهمته تلك نقلة نوعية وثورة حضارية احدثها الاسلام في حياة كل الشعوب التي تبودقت وانصهرت فيه ، فظهر – والتعبير للأستاذ الدكتور عماد الدين خليل " التوحيد في مواجهة الشرك والوحدة في مواجهة التجزؤ والامة في مواجهة القبيلة والتشريع في مواجهة العرف والاصلاح والاعمار في مواجهة التخريب والفساد والمنهج في مواجهة الفوضى والخرافة والاهواء وتاكيد السببية التاريخية في مواجهة الصدفة والحركة العمياء للوقائع التاريخية وأخيرا فقد حرر الاسلام البشر من عبادة القوى الطبيعية ونقلهم الى عبادة الاله الواحد "[i] . وفي ذلك قام الشيخ الندوي بالاستشهاد باحاديث الوحدة والتقدم ومنها : " ليس منا من دعا إلى عصبية ، كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته ، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ... "[ii]. ونحن الان اذ نقرأ تلك السطور تتهادى الى أذهاننا تلك الصور الجميلة التي رسمها خاتم الأنبياء للمجتمع الاسلامى في دولة المدينة حيث الانسجام التام بين أبنائه والترابط والتراص كالبنيان المرصوص وعظيم البركات والخيرات التي أحاطت بالمجتمع من كل صوب وحدب فضلا عن الرعاية الكريمة لأهل الذمة وحفظ حقوقهم واعتبرهم جزءا من الدولة .واليوم ونحن نتذكر تلك المنجزات العظيمة لا تغنّياً بأمجاد الماضين وإنما أملا وطموحا لأن نعيد شيئا من ذلك العهد في ضل وحدة إسلامية يتعاون فيها المسلمون ويتكاتفوا في قضاياهم المصيرية.

7- احدى النقاط التي طرحها وميزت الكتاب هي وضع يده على سبل اعادة هيبة الاسلام اذ ذكر مميزات اصحاب النبي محمد (ﷺ) في انهم كانوا جامعين بين الديانة والأخلاق والقوة والسياسة ، وكانت تتمثل فيهم الإنسانية بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة في قادة العالم ، وكان يمكن لهم – بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية واعتدالهم الغريب الذي قلما اتفق للإنسان ، وجمعهم بين مصالح الروح والبدن واستعدادهم المادي الكامل وعقلهم الواسع – أن يسيروا بالأمم الإنسانية إلى غايتها المثلى الروحية

(i) ياسر عبد الجواد المشهداني ، ردود على منتقدي الاسلام ، مجلة مناهل جامعية ، ع6 (العراق ، جامعة الموصل – 2006) ، 39 .

(ii) الندوي : ماذا خسر العالم ، ص 93 ، 94 .

والخلقية والمادية[1] . وهذه حقيقة ندركها نحن اليوم فليت لدينا انصاف ما كان موجود من رجالات ساندوا النبي وعاصروه واطاعوه .

8- كان العلامة الندوي من اوائل الذين رصدوا تاثير الاسلام وحضارته على الديانات الهندية الاخرى ، فرغم قدم الديانة الهندوسية وترسخها في نفوس معتنقيها من شعوب شرق اسيا فضلا عن الهند ، الا ان الاسلام ومبادئه السامية كان مثار اعجاب اتباع تلك الديانة واثر فيها تاثيرا ايجابيا فغير الكثير من المعتقدات والممارسات . وفي ذلك استشهد الندوي في كتابه بادلة واقوال لخيرة اعلام الفكر في عصره ومنهم : الباحث الهندي المعروف بانيكار (k.M.panikkar) سفير الهند في مصر سابقاً ، اذ قال وهو يتحدث عن تأثير عقيدة التوحيد الإسلامية في عقلية الشعب الهندي ودياناته : (من الواضح المقرر أن تأثير الإسلام في الديانة الهندكية كان عميقاً في هذا العهد (الإسلامي)، إن فكرة عبادة الله في الهنادك مدينة للإسلام ، إن قادة الفكر والدين في هذا العصر وإن سموا آلهتهم بأسماء شتى قد دعوا إلى عبادة الله ، وصرحوا بإن الإله واحد ، وهو يستحق العبادة ، ومنه تطلب النجاة والسعادة . وقد ظهر هذا التأثير في الديانات والدعوات التي ظهرت في الهند في العهد الإسلامي كديانة "Bhagti" ودعوة (كبير) . ويقول رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو في كتابه (Discovery of India) : " إن دخول الغزاة الذين جاءوا من شمال غرب الهند ودخول الإسلام له أهمية كبيرة في تاريخ الهند إنه قد فضح الفساد الذي كان قد انتشر في المجتمع الهندوكي ، إنه قد أظهر انقسام الطبقات واللمس المنبوذ ، وحب الاعتزال عن العالم الذي كانت تعيش فيه الهند ، إن نظرية الأخوة الإسلامية والمساواة التي كان المسلمون يؤمنون بها ، ويعيشون فيها ، أثرت في أذهان الهندوس تأثيراً عميقاً ، وكان أكثر خضوعاً لهذا التأثير البؤساء الذين حرم عليهم المجتمع الهندي المساواة والتمتع بالحقوق الإنسانية " . ويقول كاتب عصري فاضل وهو (N. C. Mehta) في كتابه " الحضارة الهندية والإسلام " (Indian Civilization and Islam) ((إن الإسلام قد حمل

---

[1] الندوي : ماذا خسر العالم ، ص 111 .

إلى الهند مشعلاً من نور قد انجلت به الظلمات التي كانت تغشى الحياة الإنسانية في عصر مالت فيه المدنيات القديمة إلى الانحطاط والتدلي ، وأصبحت الغايات الفاضلة معتقدات فكرية ، لقد كانت فتوح الإسلام في عالم الأفكار أوسع وأعظم منها في حقل السياسة ، شأنه في الأقطار الأخرى ، لقد كان من سوء الحظ أن ظل تاريخ الإسلام في هذا القطر (الهندي) مرتبطاً بالحكومة ، فبقيت حقيقة الإسلام في حجاب ، وبقيت هباته وأياديه الجميلة مختفية عن الأنظار) .

ولا يستطيع دين من الأديان ومدنية من المدنيات تعيش في العالم المتمدن المعمور أن تدعي أنها لم تتأثر بالإسلام والمسلمين في قليل ولا كثير .[1]. هكذا يظهر ان تاثير الاسلام في الديانة الهندوسية كان عميقا وواضحا في مختلف نواحي الحياة .

9 – كان الندوي محقا في اعتبار القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي هو قرن الانبعاث الحضاري والعودة الميمونة للمسلمين حيث توحدوا في مواجهة التحديات المتمثلة بالحروب الصليبية عندما ظهر القائد صلاح الدين الايوبي المعروف بعدله وسماحته وفروسيته وقد احسن العلامة الندوي عندما اختاره مثالا في الكتاب على اعتباره رائدا لنهضة المسلمين في القرن 6هـ/12م ، فقد نبّهَ المستشرق الانكليزي هاملتن كَـب H.R. Gibb قبل مدة من الزمن الى ضرورة تفهم الطبيعة الحقيقية للمثل العليا التي تحلى بها القائد صلاح الدين الايوبي فان المتتبع لسيرته سيتلمس ثقافة الاعتدال والتسامح مرافقةَ له في كل خطوة ، أي ان مثاليته كانت تخضع لنزعة عملية قوية ، حتى كان مبدأه الاول في سياسته نحو الاطراء سواء مع أصدقاءه او اعداءه هو صدقه فيما يقول وتمسكه المطلق به حتى مع اعداءه من الصليبيين ، فقد كانت عنده الهدنة هدنة ، وليس في سجله مثل على انه نقض اتفاقا معهم . وهذا تاكيدا ودلالة على قول الله تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ...) { الاحزاب ، اية 23 }.

الخاتمة

---

[1] الندوي : ماذا خسر العالم ، ص 133 وما بعدها .

حذر القرآن الكريم الامة من الفرقة (فلا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين). وهناك العديد من الايات تدل على أن التفرّق لايحدث دائما بسبب غموض المفاهيم والجهل بها ، بل قد تكون التفرقة مقرونة بالبيّنة: (ولا تكونوا كالذين تفرّقوا واختلفوا من بعْدما جاءهم البينات). (وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعدما جاءتهم البينة).ثم وضح القرآن سبب التفرقة بين من جاءهم العلم فيقول: (وما تفرّقوا إلا من بعدما جاءهم العلم بغيا بينهم). فالبغي إذن هو السبب وليس الجهل، والبغي: هو الظلم والفساد، وأصله مجاوزة الحدّ ودافعه دون شك الذاتية الطاغية التي تتحول الى مثل أعلى يعبده الفرد من دون أي مثل أعلى آخر.

ويرى بعض المفكرين أن سيطرة الوثنية في المجتمعات الاسلامية هو السبب الاساس لحالة التفرقة وتخلي المسلمين عن مركزهم في العالم ، وليس المقصود بالوثنية هنا التوجه بالعبادة الى صنم حجري او خشبي، بل هو العكوف على طريقة في الحياة محدودة بإطار ضيق لايتجاوز متطلبات الذات الفردية الحزبية والفئوية. و يقول:"ومن سنن الله في خلقه أنه عندما تغرب الفكرة يبزغ الصنم، والعكس صحيح أيضا" .

إن أعداء الامة يحذرون كل الحذر من أي مشروع وحدوي في الامة فهم يضعون العراقيل والعصي في عجلة كل خطوة تعاون بين أبناء الأمة. وأعداء الأمة ليسوا فقط أولئك المتترسون في الغرب ليحيكوا المؤامرات وإنما أيضا بعض مدعي الاسلام والانتماء إليه الذين يسعون جهدهم لتفريق الامة وبث الخلافات والصراعات ليهيؤوا الأرضية لأعداء الأمة من الخارج.

بعض الخطوات المهمة التي تقربنا إلى الوحدة :

1 ـــ تطوير العلاقات بين الدول الاسلامية على الصعيد الرسمي ذلك يساعد في التقارب بين أبناء الامة .

2 ـــ تحسين العلاقات التجارية والثقافية بين الدول الإسلامية يفتح أمامها طريقا ممهدا لمشاريع الوحدة، والواقع الاسلامي لا زال يعاني الكثير من التشرذم والتباعد رغم المصالح المشتركة والعوائد الاقتصادية الكبيرة والمهمة التي يمكن ان تجنيها بلادنا من التعاون في ما بيننا.

3 ــ التركيز على المساحات المشتركة بين المسلمين، وهي كثيرة وعديدة، فهناك القضايا الإسلامية المركزية كقضية العراق وقضية القدس الشريف والتي لا بد أن تصبح راية يلتف حولها المسلمون كافة .

لقد كانت هجمات المشركين في عهد الرسول تزيد الامة توحدا في المواجهة ولكن الغريب الان في عالمنا ان العدوان يؤدي الى مزيد من التفرقة والاختلاف كما هو واضح اليوم في ساحة الموقف من العدوّ الصهيوني.

واتمثل هنا بابيات من قصيدة حول استنهاض الهمم للأستاذ الفاضل الأديب أحمد الجيتكير قال فيها :

وبعد يـــا معشـــر الإســـلامْ مـــالكم	ولا تشعرون وإن الخطـــب قـــد عظمـــا
عفّى ديـــارَ علـــوم الـــدين قاطبـــة	نسج الـــدبور وأريـــاح جـــرت نقمـــا
يا للمدارس أضحت وهـــي دارســـة	يـــا للمكاتـــب تبكـــي العلـــم والعلمـــا
أما سمعتم بكاهـــا وهـــي صـــارخة	صراخ ثكلـــى علـــى مولودهـــا اختُرِمـــا
هذي المشاعر ضيم الـــدهر عطّلـــها	ورُدَّ واردهـــا غيظًـــا فمـــا كظمـــا
هذي الشعائر لم تبقِ الصـــروف لهـــا	مقدار عشـــر العشـــير الـــوزن والقيمـــا
وارحمتـــاه لأرض الـــدين ينقصـــها	ريـــب المنـــون ممـــدًا ســـيلها العرمـــا
وارحمتـــاه لـــدين فـــلّ عصـــبته	من كـــل حـــام حمـــاه راســـخ قـــدما
وارحمتـــاه لـــدين لات عدتـــه	فمد بالنـــهب أيـــدي غصـــبها الخُصـــما
وارحمتـــاه لـــدين قـــال نادبـــه	واللرجـــال وواســـيفاه واقَلَمـــا
يا للبقيـــة صـــونوا الـــدين تنتصـــروا	يصـــونكم ويـــرد المجـــد والحشـــما
إني محـــذركم مـــن وقـــع واقعـــة	يُمســـي الوليـــد لـــديها هيبـــة هرمـــا

رؤية الشيخ الندوي لأسباب تدهور أوضاع العالم الإسلامي

ا.د. محمد عمر احمد الشاهين
جامعة الموصل – جمهورية العراق

المقدمة :

تعد النهضة أساس مهم في بناء الأمة وضرورة أساسية في كل زمان ومكان , وعندما نبحث في سبل تقدم الأمة فلا بد لنا من الوقوف أولا أمام أسباب التدهور التي تعاني منها الأمة والتي أوصلتها إلى هذا الوضع المتردي الذي تعيشه الآن , وقد أوضح الشيخ الندوي رأيه في أسباب تدهور العالم الإسلامي والحلول الموجبة للنهوض بالأمة الإسلامية .

ان هذا التدهور الحضاري الذي تعيشه الأمة الإسلامية ليس وليد الصدفة ولا هو مفاجأة حلت دون سابق إنذار أو حتى قضاء وقدر , بل انه نتيجة طبيعة لأسباب عديدة عاشتها الأمة العربية والإسلامية وتفاعلت معها ثغرات وأخطاء ، ونتج عن كل ذلك هذا التخلف والضياع الذي وصلت إليه الأمة في العصور الأخيرة .

ان النهضة هي العلاج الأسمى للأمة ، لأنها تحقق مشروعاً حضارياً ينبثق من فكر الأمة وعقيدتها ، وكما أكد ذلك شيخنا الجليل أبو الحسن الندوي عندما قال (اسمعوها من صريحة أيها العرب : بالإسلام أعزكم الله ولو جُمع لي العربُ في صعيد واحد واستطعت أن أوجه إليهم خطاباً تسمعه آذانهم , وتعيه قلوبهم لقلتُ لهم : أيها السادة ان الإسلام الذي جاء به محمد العربي صلى الله عليه وسلم هو منبع حياتكم , ومن أُفقه طلع صبحكم الصادق , وان النبي ﷺ هو مصدر شرفكم وسبب ذكركم , وكل خير جاءكم – بل وكل خير جاء العالم , فإنما هو عن طريقه وعلى يديه , أبى الله أن تتشرفوا إلا بانتسابكم إليه وتمسككم بأذياله والاضطلاع برسالته , والاستماتة في سبيل دينه , ولا رادَّ لقضاء الله ولا تبديل لكلمات الله).

ويقصد بالنهضة نقل الأمة من حالة الانحطاط والتخلف إلى الوحدة والارتقاء , وفي اللغة تأتي النهضة من نهض ينهض نهضاً ونهوضاً وانتهض أي قام ، والنهضة الطاقة والقوة[i] كما تشير النهضة للارتفاع والارتقاء والصعود ، فنهض عن الأرض أي ارتقى وارتفع ونهضت الأمة أي ارتقت وارتفعت وعلت وصعدت . والنهضة تحقق انتقال أمة أو شعب أو فرد من حال إلى حال أفضل .

ويرتكز تقدم الأمة الإسلامية على مدى التزامها بالإسلام بوصفه فكراً ومنهج حياة ، وتوحيد كلمتها ، وتجاوز الاختلاف ، والتمسك بالحضارة الإسلامية ، وإحياء التراث ، واستذكار قيم الرسالة الإلهية ومبادئها بوصفها الرسالة القادرة على النهوض بالفرد والمجتمع الإنساني على وفق معايير الإسلام .

ويستعرض البحث الموسوم (رؤية الشيخ الندوي لأسباب تدهور أوضاع العالم الإسلامي) بالاعتماد على كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للشيخ الجليل العالم أبو الحسن الندوي رحمه الله ومصادر أخرى , من خلال مبحثين يتناول الأول أسباب تخلف الأمة العربية المتمثلة بالقنوط واليأس وفقدان الثقة بالنفس وكذلك فساد الأخلاق وانتشار الجهل فضلاً عن نسيان الماضي المجيد للأمة العربية والغزو الفكري والثقافي وأخيراً غياب العدالة وانتشار الظلم ، اما المبحث الثاني فيتناول سبل التقدم والنهوض بالأمة من خلال تطوير وعي الأمة والجهاد والمثابرة والعمل على تحقيق الوحدة والتعاون وإصلاح ذات البين وتقرير قاعدة الشورى ودعم العلم والعلماء فضلاً عن الأخوة والمحبة والدعوة للخير ، وختم البحث بالنتائج والتوصيات من اجل النهوض بالأمة الإسلامية .

المبحث الأول : أسباب التدهور

1. القنوط واليأس وفقدان الثقة بالنفس :

ان من أعظم أسباب انحطاط الحضارة الإسلامية وتخلفها في العصر الأخير هو فقدانها الثقة بنفسها او ما يسمى في علم النفس مركب النقص وعقدة النقص ، وهو من أشد الأمراض

(i) ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب (بيروت/1997) ج7 ص 245 .

الاجتماعية وأخبث الآفات الروحية ، لا يتسلط هذا الداء على أمـــة الا أودى بهـــا إلى الفنـــاء[i] ، لاسيما وان الشعوب الإسلامية والبلاد العربية ضعيفة الوعي الاجتماعي والسياسي وضعيفة الذاكرة سريعة النسيان [ii] , وما أصاب الأمة العربيـــة والإسلامية من اليأس والقنوط او اللامبالاة والتلبد وعدم الإحساس بمشكلات الأمة كان من بيـــن الأسباب الرئيسة لتخلف الأمة العربية . وكيف تصلح الأمـــة ومعظم أبناءها يعتقدون انهم لا يصلحون لشيء ولا يمكن ان يصلح على أيديهم شيء , ولأن فتور الهمم وضعفهـــا منافٍ للأيمـــان والغاية التي خلق الإنسان من اجلها فان الإسلام حـــرم اليأس والقنوط ، قـــال تعالـــى ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [iii] . وقـــال تعالـــى ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾ [iv] , وقـــال تعالـــى ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوسًا﴾ [v].

ان علة العالم العربي والإسلامي اليوم هو الرضا بالحياة والاطمئنان بها والارتياح إلى الأوضاع الفاسدة ، فلا يقلقه فساد ولا يزعجه انحراف ولا يهيجه منكر ولا يلهمه غير مسائل الطعام واللباس [vi] , ولقد انضم الجبن والهلع الذي أصاب المسلمين إلى اليأس والقنوط من رحمة الله ، وانه لا سبيل لمغالبة الأعداء بأي وجه من الوجوه وان كل مقاومة عبث وان كل مناهضة خرق في الرأي [vii] .

([i]) ارسلان : الأمير شكيب ، لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم (بيروت/2004) ص 142.

([ii]) الندوي : أبو الحسن علي الحسني ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (مصر/2005) ص263 .

([iii]) سورة يوسف , الآية : 87.

([iv]) سورة الحج , الآية : 56.

([v]) سورة الإسراء , الآية : 83.

([vi]) الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين , ص 245.

([vii]) ارسلان ، المرجع السابق ص 144.

ان القنوط واليأس وفقدان الثقة بالنفس آفة خطيرة ، فعلى المسلمين الابتعاد عنها فرحمة الله كبيرة ونصر الله قريب قال تعالى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (i) , وان المستقبل للإسلام وأهله .

2. فساد الأخلاق وانتشار الجهل :

يعد فساد الأخلاق وانتشار الجهل في الأمة عامل خطير يدفع بالأمة إلى التخلف والضياع ، لان فساد الأخلاق يفسد الحياة كلها ويدمر الأمة ويأتي على بنيانها من القواعد , ولقد تعرضت الأمة الإسلامية إلى فساد كبير بالأخلاق والقيم تمثل بانتشار الغش واكل الأموال بالباطل وترك الزكاة والاعتداء على الحقوق وتدني مكانة المرأة وما إلى ذلك من عوامل ساعدت على تخلف الأمة وضياعها , ورافق هذا الفساد انتشار الأمية بين أبناء الأمة العربية وضعف التفكير العلمي وساد الجهل حتى أصبح تخلفنا حقيقي لا ينكره ... الا مكابر.

3. الغزو الفكري والثقافي :

ان اشد أنواع الصراع وأطولها وأعمقها هو ما خاضته الأمة ضد الغزو الفكري والثقافي ، لأنه أخطر أنواع الغزو وأفسدها , وهما أشد تأثيراً من الغزو العسكري فأصاب الأمة تشويه في الفكر الذي تحمله ولاسيما الموروث الضخم من العلوم الشرعية ، حتى غدا المجتمع العربي والإسلامي المعاصر فاقداً لحيويته ونشاطه وساده الركود والاستسلام في جوانب الحياة جميعها بعد ان كان تاريخيه الحضاري قد حقق تقدماً كبيراً وازدهاراً لم يسبق له نظير بين الأمم .

ان أخوف ما يخاف على امة , ويعرضها لكل خطر , ويجعلها فريسة للمنافقين ولعبة للعابثين هو فقدان الوعي في هذه الأمة , وافتتانها بكل دعوة واندفاعها إلى كل موجه وخضوعها لكل متسلط , وسكوتها على كل فظيعة , وتحملها لكل ضيم (ii) .

لقد تعرضت الأمة لألوان وأشكال من الغزو الفكري على امتداد تاريخها الطويل كان ذلك كافياً لهيمنة التسيب والإهمال الاجتماعي ومن ثم ضعف الإحساس بالانتماء للأمة مما

(i) سورة القمر , الآية : 10.

(ii) الندوي , ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين , ص262 .

أدى إلى تقبل الغزو الفكري من غير معارضة أو حتى التفكير في مقاومته ومن ثم أوصل الأمة إلى التفكك والتخلف اللذين نراهما الآن .

4. غياب العدالة وانتشار الظلم :

تعد العدالة أساسا مهمة لنهضة الأمة وضرورة اجتماعية مهمة في كل زمن ، والبحث في العدالة يعني البحث في اعقد معضلة يجابهها الإنسان في الوقت الحاضر ، فقيام الثورات والانتفاضات والحروب يرجع في أسبابه الحقيقية إلى فقدان التوازن في مستويات المعيشة بين الناس واستبداد بعضهم على بعض وانتشار الظلم فيما بينهم , ويقصد بالعدالة الاستقامة وفي الشريعة الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب عما هو محظور، ويقصد بالعدالة أيضاً الميل إلى الحق [i], وقد أمر الله تعالى بالعدل بين الناس [ii] قال تعالى ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ﴾ [iii] وقال تعالى ﴿وَأُمِرْتُ لأعدلَ بَيْنَكُمُ﴾ [iv].

وقد عني الإسلام عناية فائقة بتقرير قاعدة العدالة من قواعد الحكم في الإسلام بوصفها الدعامة الرئيسة في قيام الدولة العربية الإسلامية والحكم الإسلامي فلا وجود للإسلام فعلاً في مجتمع يسوده الظلم ولا يعرف العدل [v] , وأمر الرسول (ﷺ) بإقامة العدل بين الناس ، قال ﷺ " عدل يوم كعبادة أربعين سنة " [vi] , وقد اعد الله للذين يحكمون بالعدل بين

([i]) الجرجاني : أبو الحسن علي بن محمد بن علي ، التعريفات (تونس / 1971) ص 78-79.

([ii]) ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء ، تفسير ابن كثير (القاهرة/2004) ج2 ص 206 ؛ الرازي : محمد فخر الدين ، تفسير (بيروت/د.ت) ج4 ص 145.

([iii]) سورة النساء , الآية : 58.

([iv]) سورة الشورى , الآية : 15.

([v]) أبو فارس : محمد عبد القادر ، النظام السياسي في الإسلام (الكويت/1984) ، ص 56-57 .

([vi]) النووي : أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري ، شرح النووي على صحيح مسلم (بيروت/1382 هـ) ج6 ص 184 ، ابن كثير : المصدر السابق ج2 ص 206 .

الناس مترلة رفيعة يوم القيامة حيث يظلهم الله في ظله يوم لا ظل الا ظله , قال رسول الله (ﷺ) "سبعة يظلهم الله يوم لا ظل الا ظله" [i] , وذكر أول هؤلاء السبعة الإمام العادل .

ويعد ترك العدل ظلماً في نظر الإسلام والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذم أهله وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك في الدنيا . قال تعالى ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [ii], وقال تعالى ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [iii], وقال ﷺ " يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً" [iv] .

ان الظلم ما زال حقيقة واقعة في بلاد المسلمين وان الشعور بالظلم يجعل الفرد لا يتحمس في الدفاع عن أمته التي لم تطعمه من جوع ولم تؤمنه من خوف ، والإسلام يقدم الحل الأمثل في تحقيق العدالة من خلال إقامة العدالة الاجتماعية وإزالة الفوارق بين الأفراد والطبقات من اجل النهوض.بالأمة العربية ، واذا شعر الناس بإقامة العدل في مجتمعهم وسيادته في حياقم تستقر نفوسهم وتطمئن قلوبهم وتهدأ أحوالهم ويزدهر مجتمعهم ويعمهم الخير والأمن والأمان والسلامة والسلام [v] .

5. نسيان الماضي المجيد :

ان من ابرز وأهم عوامل تدهور الأمة العربية والإسلامية هو نسيان المسلمين لماضيهم المجيد والابتعاد عن قيمهم الخالدة ، فنهضة الأمة لا تتحقق للأجيال الحاضرة الا باعتماد على انجازات الماضي العريق ، ولان الأمة العربية الإسلامية ابتعدت عن دينها وأهملت شريعتها فقد تشتت شملها وضعف كيانها وحل الفقر والجهل والمرض فيها .. فلا بد من

([i]) النووي ، شرح النووي على صحيح مسلم ، ج7 ص 120 ؛ ابن حجر : احمد بن علي العسقلاني : فتح الباري في شرح صحيح البخاري (بيروت/1379هـ) ج2 ص 143-144.

([ii]) سورة الصافات , الآية : 22 .

([iii]) سورة إبراهيم , الآية : 42 .

([iv]) مسلم : أبو الحسن بن الحجاج القشري النيسابوري ، صحيح مسلم (بيروت/1955) ج4 ص 1994 ؛ ابن حبان : محمد بن حبان بن احمد ، صحيح بن حبان (بيروت/1993) ج3 ص 38 ؛ القرطبي : أبو عبدا لله بن احمد الأنصاري ، الجامع لاحكام القرآن (بيروت/1988) ج2 ص285 .

([v]) أبو فارس ، النظام السياسي في الإسلام ، ص 54.

العودة إلى الإسلام الحقيقي الصحيح والتمسك بالماضي وإحياء التراث واستذكار قيم الرسالة الإلهية ومبادئها بوصفها الرسالة القادرة على تربية الفرد والمجتمع الإنساني على قيم ومعايير الإسلام ولا سيما ان التراث والماضي المجيد ضروريان ولا غنى عنهما في نهضة الأمة ، فهما يحفظان للأمة كيانها الديني والتاريخي من النسيان ويحمي شخصيتها الحضارية من التحلل والاندماج ويدفع بالأمة نحو النهوض من جديد .

المبحث الثاني: سبل التقدم

1. تطوير وعي الأمة :

من اجل النهوض بالأمة العربية لابد من تطوير وعي أبنائها من خلال أحداث ثورة فكرية تعيد أمجاد العرب والإسلام ، لان الأمم لا تنهض إلا بالأفكار المبنية على روح الأمة وعظمتها ، فبنهوض الأفكار وتطوير الوعي تنهض كل مظاهر حياة الأمة الاقتصادية والعلمية والثقافية والأخلاقية والتشريعية . والعمل على تعزيز قوة الإرادة في عقول المسلمين وزيادة الثقة في نفوسهم من خلال وضع القدوات الصالحة أمام أعين المسلمين وعلى رأس القدوات الرسول ﷺ , ولأن اشد ما تتعرض له الأمة من خطر ويجعلها فريسة للعابثين هو فقدان الوعي فلابد من التركيز على تطوير وعي الأمة من اجل تحقيق نهضتها[i] .

وعلى علماء الأمة ومفكريها وقادتها إشاعة روح الأمل والعمل لتحقيق نهضة الأمة ونبذ كل ما من شأنه ان يؤدي إلى التفرقة والنزاع بين أفرادها والحث على زيادة الوعي لدى أبناء الأمة .

ويعد زيادة وعي أفراد الأمة أساسا مهماً تستطيع الأمة من خلاله تحقيق نهضتها المرجوة ولا سيما وان عز الأمة العربية والإسلامية ودورها الحضاري في العالم يرتبط بمدى تمسكها بالإسلام عقيدة وشريعة .

2. الجهاد والمثابرة :

(i) الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين , ص 262 .

الجهاد هو بذل أقصى ما في الوسع والطاقة في سبيل الله فكراً ونفساً ومالاً وأية وسيلة أخرى والجهاد في اللغة مشتق من الفعل الثلاثي جهد يجهد جهاداً [i] , وهكذا يعني الجهاد الحركة والتغيير والبناء والتعاون على البر والتقوى والأعمال الصالحة في مجالات الحياة الفردية والاجتماعية كافة ، ومن هنا نجد انه من الخطأ الاعتقاد ان الجهاد في سبيل الإسلام يعني القتال فحسب ، وبهذا المنطلق فأن كل جهد إنساني يبذل بأسم الله، في أي جانب من جوانب بناء الحياة بموجب شريعة الإسلام يكون جهاداً شرعاً في سبيل الله فبناء النفس وتربية الأطفال تربية صالحة جهاد وبذل المال في سبيل إحداث تنمية اجتماعية وحضارية جهاد والدفاع عن مقدسات الأمة وثوابتها جهاد [ii] , اما المثابرة فتعني المواظبة على الأمر والحرص على الفعل والقول وثابر على الشيء و واظبه[iii].

ومن مقتضيات الجهاد أن يكون الإنسان عارفاً بالإسلام الذي يجاهد لأجله , وبالكفر والجاهلية التي يجاهد ضدها , يعرف الإسلام معرفة صحيحة , ويعرف الكفر والجاهلية معرفة دقيقة , فلا تخدعه المظاهر ولا تغره الألوان , ولا بد سن يتزعم الإسلام ويتولى قيادة الجيش الإسلامي ضد الكفر والجاهلية أن تكون معرفته بالكفر والجاهلية فوق معرفة عامة المسلمين وأوساطهم [iv] .

ومن اجل تحقيق نهضة الأمة فلابد من المثابرة في ميادين الحياة كلها لتحقيق الجهاد الذي هو تشريع حكيم وبليغ يعمل على نهضة الأمة بوصفه ركناً مهماً من أركان وحدة الأمة العربية والإسلامية منذ تكوينها مروراً بالعصور المتتابعة وإنشاء الحضارة العربية والإسلامية الزاهرة التي أضاءت للبشرية جميعها دروب الحياة والمستقبل .

([i]) ابن منظور ، لسان العرب ، ج1 ، ص 534 ؛ الفيروزآبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط (بيروت/1983) ج3 ص 288 ؛ الزبيدي : محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس من جواهر القاموس (بيروت/د.ت) ج7 ص 542.

([ii]) أبو البندورة : إسماعيل ، الجهاد والوعي بمستقبل الأمة (بغداد/2002) ص 235.

([iii]) ابن منظور : لسان العرب ، ج4 ص 99.

([iv]) الندوي , ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين , ص127 .

3. العمل على تحقيق وحدة الأمة :

تعد الوحـــدة من القواعد الأساسية التي ارتكزت عليها الأمة منذ البدء ، ذلك ان القرآن ما فتـــئ يحث علـــى الوحدة ونبذ الفرقة في العديد من آياته الكريمة ، قال تعالـــى ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (i) ، وقال تعالـــــى ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (ii) , وقال تعالى أيضا ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا﴾ (iii) .

وقد أكد الرسول ﷺ على الوحدة والتعاون بين المسلمين قال ﷺ " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً " (iv) وقال ﷺ " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر " (v) , وقد أكد الرسول ﷺ على وحدة الجماعة قال ﷺ " من رأى من أميره شيئاً فكرهه فليصبر فانه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت الا مات ميتة جاهلية " (vi) , لقد عمل الرسول ﷺ منذ دخوله المدينة المنورة على تثبيت أركان الوحدة الإسلامية على أسس راسخة ، إذ تعد الوحدة أساس نهضة الأمة وسبيلها للارتقاء .

ان الأمة العربية والإسلامية تعرضت وما تزال لكثير من المحاولات التي تعمل على تفتيت وحدتها بكل السبل وأدى ذلك إلى ان تفرقت الأمة وتصارعت ودب الضعف فيها مما جعلها لقمة سائغة لعدوها .

(i) سورة آل عمران ، آية 103 , ابن كثير ، تفسير ج2 ص53.

(ii) سورة الأنفال ، آية 46 , ابن كثير ، تفسير ج4 ص 45.

(iii) سورة الشورى ، آية 13 ، ابن كثير ، تفسير ج7 ، ص 134 .

(iv) البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ، صحيح البخاري (بغداد/1986) ، ج2 ، ص104 ، ابن كثير ، تفسير ج4 ص 103 .

(v) الترمذي : محمد بن عيسى ، سنن الترمذي (بيروت/د.ت) ج4 ص 323 .

(vi) البخاري ، صحيح البخاري ، ج4 ص 331.

ان العمل لتحقيق النهضة يجب ان يرتكز على وحدة الانتماء إلى العقيدة الإسلامية التي هي رسالة الأمة وشرط تكوينها (i) , ولاسيما وان حاجة الأمة العربية إلى الوحدة والتقريب بين المسلمين في هذا الزمان أكثر واشد من أي وقت مضى .

4. التعاون وإصلاح ذات البين :

ان الأمم لا تنهض إلا بتعاون أبنائها وان التعاون يبعد الإنسان عن الانفرادية والأنانية، ويعد التعاون من ظواهر الروح الجماعية التي غذّاها ونمّاها وأصلّها الإسلام في قلوب المسلمين ، فقد أمر الله تعالى في كتابه بالتعاون بين المسلمين الا ان الله عز وجل قيده بأن يكون تعاوناً على البر والتقوى ، لا تعاوناً على الإثم والعدوان ، قال تعالى ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (ii) , وللتعاون مظاهر كثيرة جداً ، منها التعاون في الفكر والتعاون في الأعمال والتعاون النفسي والوجداني في الأفراح والأحزان والى غير ذلك من أمور كثيرة (iii).

كما أمر الله تعالى المؤمنين بأن يصلحوا ذات بينهم ويطيعوا الله ورسوله ان كانوا مؤمنين حقاً ، قال تعالى ﴿فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (iv) , فمن صفات المؤمنين المتقين إنهم يصلحون ذات بينهم فإذا نشأ بينهم وبين إخوانهم خصام على أمر من أمور الدنيا أسرعوا في إصلاحه بأنفسهم (v) , وقد أوجب الله على المؤمنين ان يصلحوا بين الذين يختصمون منهم فقال تعالى مخاطباً إياهم ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (vi) , ومن خلال التعاون وإصلاح ذات البين يرأب الصدع ويزال الخلاف وتتراضى القلوب فتقوى الأمة وتنهض من جديد .

(i) الحديثي : نزار عبد اللطيف ، الأمة والدولة في سياسة النبي (بغداد/1987) ص41.

(ii) سورة المائدة ، الآية : 2 .

(iii) الميداني : عبد الرحمن حسن ، الأخلاق الإسلامية (دمشق/2002) ص203.

(iv) سورة الأنفال ، الآية : 1 .

(v) الميداني ، الأخلاق ، ص230.

(vi) سورة الحجرات ، آية 10.

ان العالم لا يمكن أن يصل إلى السعادة إلا على قنطرة من جهاد ومتاعب يقدمها الشباب المسلم [i] .

5. تقرير قاعدة الشورى :

ان إقرار قاعدة الشورى هو ركن أساس لنهضة الأمة العربية والإسلامية فمن خلال الشورى يحس كل فرد بحق الجماعة عليه وحق الإسلام عليه , فالشورى تطييب القلوب[ii]، وتنشط العقول وتحقق الغايات[iii] , وتمنع الاستبداد والانفراد في الرأي[iv] ، والشورى هي استطلاع للرأي من ذوي العلم والخبرة والأمانة للتوصل إلى اقرب الأمور للحق[v] , اما في اللغة فالشورى من الفعل شور والفعل شور ومشتقاته له معان منها شاوره واستشاره وشار العسل أي استخرجه [vi] , والشورى هي ركن من أركان النظام الإسلامي سواء ما يتعلق منه بتطبيق الشريعة أو ما يتعلق منه بشؤون وحدة الإدارة وسياسة الحكم[vii] , والشورى ضرورية لتحقيق نهضة الأمة وضرورية لنجاح الحاكم في تدبير شؤون الأمة ، وهي أساس الحكم المطلق والسبيل الذي يبين الحق ومعرفة الآراء الناضجة [viii] , ويرى البعض ان الأمة التي تريد البقاء والاستمرار والحاكم الذي يريد لها ذلك لابد

([i]) الندوي , ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين , ص257 .

([ii]) ابن كثير ، تفسير ج7 ص 140 ؛ النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب ، نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة / 1975) ج5 ص 69 ؛ الزمخشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل (بيروت / 1988) ج1 ص 431 .

([iii]) القرطبي ، تفسير ج16 ص 36.

([iv]) الخياط : عبد العزيز عزت ، وأمرهم شورى (الأردن/1993) ص10.

([v]) الخياط : عبد العزيز عزت ، النظام السياسي في الإسلام (القاهرة/2004) ص92.

([vi]) ابن الأثير: عز الدين علي بن محمد الجزري ، النهاية في غريب الحديث والأثر (مصر/1311هـ) ج2 ، ص240

([vii]) البوطي : محمد سعيد رمضان ، قضايا فقهية معاصرة (دمشق/1994) ص167.

([viii])شلتوت : محمد ، الإسلام عقيدة وشريعة (بيروت/د.ت) ص440.

لهما من تقرير قاعدة الشورى والمشاركة في ممارسة الرأي والحكم معاً [i] , والبعض الآخر يرى ان الشورى تحقق أربعة أشياء الأولى : إشراك الأمة ممثلة بأهل الحل والعقد في مزاولة السلطة والتفكير بقضايا الأمة , والثاني : الحيلولة دون استبداد الحاكم أو طغيانه , والثالث : تطييب نفوس المحكومين وتأليف قلوبهم بما يجمعها مع الحاكم برباط المودة والتعاون , والرابع : تجنب الخطأ في اتخاذ القرارات [ii].

ولقد وردت الشورى في القرآن الكريم بصيغ مختلفة فأما بصيغة الأمر كما في قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [iii] , واما بصيغة الخبر كما في قوله تعالى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [iv] , أو بصيغة دالة على الحكم كما في قوله تعالى ﴿وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [v] , والذي يؤكد الأهمية البالغة للشورى انها قرنت بفرض الصلاة والصدقة واجتناب الفواحش، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الأَثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [vi] وقد أكد الرسول ﷺ في أحاديث كثيرة عن الشورى ومنها قوله " المستشار مؤتمن " [vii] وقال ﷺ " ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من

(i) الخياط ، وامرهم شورى , ص12

(ii) البياتي : منير حميد ، الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي (بغداد /1979) ص 264-265.

(iii) سورة آل عمران ، الآية : 159 ؛ ابن تيمية : احمد بن عبد الحليم ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية (بيروت/1383هـ) ص 128-129 ؛ ابن يعلي : محمد بن الحسين الفراء الحنبلي ، الأحكام السلطانية (مصر/1966) ص 45 ؛ ابن كثير ، تفسير ج2 ص 64.

(iv) سورة الشورى ، الآية : 38 ؛ ابن كثير ، تفسير ج7 ص 140.

(v) سورة البقرة ، الآية : 233 ؛ ابن كثير ، تفسير ج1 ص 84

(vi) سورة الشورى ، الآيتان 37-38 ؛ ابن كثير ، تفسير ج7 ص .

(vii) الترمذي ، سنن الترمذي ، ج4 ص 583 ؛ الدارمي : عبدا لله بن عبد الرحمن ، سنن الدارمي (بيروت / 1407هـ) ج2 ص 288 ؛ احمد : بن حنبل أبو عبدا لله الشيباني ، مسند احمد (مصر/د.ت) ج5 ص 274.

اقتصد " [i] وقال ﷺ " ان الله لا يجمع أمتي على ضلالة ويد الله مع الجماعة من شذ شذ إلى النار " [ii] , وكان الرسول ﷺ أكثر الناس مشورة لأصحابه فيما لم يترل عليه فيه وحي [iii].

ومن خلال ذلك يبين لنا مكانة الشورى في الأمة العربية والإسلامية بوصفها ركناً أساسياً تركز عليه حياة الناس أفراداً وجماعات حكاماً ومحكومين وأنها الطريق السليم التي يتوصل بها إلى أجود الآراء والحلول لتحقيق نهضة الأمة.

6. دعم العلم والعلماء :

ان العلم هو أساس كل الحضارات وهو ركن مهم لنهضة الأمة فلا نهضة بدون حركة علمية ، فقد أحتل العلم في الإسلام مكانة كبرى فطلبه فريضة والتفرغ له عبادة والبحث عنه جهاد وتعلميه قربة وهو مفتاح الإيمان ودليل العمل ونور الطريق وسبيل الجنة[iv] , وحسبنا ان اول سورة نزلت في القرآن تضمنت القراءة التي هي مفتاح العلم قال تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [v] , وثاني سورة في ترتيب نزول السور نوهت بالقلم أداة تسجيل العلم ونقله من جيل إلى جيل ومن أمة إلى أمة قال تعالى ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [vi] , فأقسم الله بالقلم وفي ذلك تشريف أي تشريف . ولم يكن التعليم في الإسلام مختصراً على علوم محددة بل شمل كل ما يحتاجه المسلم في تقويم دينه ودنياه ونهضة أمته ، ان التعليم هو العنصر الأشد حيوية والعامل الأقوى في تقدم الأمم

(i) الشهاب : محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي : مسند الشهاب (بيروت/1986) ج2 ص 7 ؛ الهمداني: أبو شجاع شيرويه الديلمي ، الفردوس بمأثور الخطاب (بيروت/1986) , ج4 ص 74 .

(ii) الترمذي ، سنن , ج2 ص 466.

(iii) ابن سلام : أبو عبيد القاسم ، الأموال (بيروت/1986) ص 125 ، ابن القيم الجوزية ، زاد الميعاد في هدى خير العباد (القاهرة/1969) ج1 ص96.

(iv) القرضاوي يوسف ، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي (بيروت/1997) ص116.

(v) سورة العلق ، الآية : 1 .

(vi) سورة القلم ، الآية : 1.

ونهضتها وتطور الشعوب وارتقاء الدول وامتلاكها لأسباب القوة ، ان قوة الحضارة الغربية جاءت من التركيز على التعليم والابتعاد به عن الصراع السياسي .

وإذا ما أراد العالم الإسلامي أن يقوم على قدميه ويفكر بعقله فلابد ان يقاوم الخضوع إلى الحضارة الغربية , ويكون فيه علماء عماليق وكتاب جهابذة , يتناولون الحضارة الغربية بالنقد والتشريح , وكتابات المستشرقين وآراءهم بالجرح والتعديل , ويتبحرون في العلوم الإسلامية ويتعمقون فيها حتى يفيد منهم كبار المستشرقين وآراءهم في أوروبا وأمريكا , ويصححون بهم آراءهم وأخطاءهم , ويتوجه رواد العلم والتحقيق والدراسات العليا إلى عواصم العالم العربي وحواضر العالم الإسلامي , كما اعتادوا أن يتوجهوا إلى عواصم أوروبا وأمريكا , فهذه المدن الإسلامية أولى بأن تكون مركزا للثقافة الإسلامية والعلوم الدينية وآداب اللغة العربية من العواصم الأوروبية وجامعات أوروبا [i] .

ان التعليم القوي والبناء الهادف هو شرط لازم من شروط المواجهة الحضارية مع تحديات الحاضر والمستقبل وازدهار الحضارة العربية والإسلامية في الحاضر والمستقبل [ii] ، ان الاهتمام بالتعليم يقتضي دعم البحث العلمي بصورة كبيرة ومن خلال تخصيص نسب أعلى في موازنات الحكومات للإنفاق على البحوث والدراسات العلمية وتوفير الأجواء الملائمة للباحثين والدارسين في الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث حتى تتاح لهم الفرص للانقطاع الكامل للحياة العلمية ، في مناخ ثقافي يشجع على حرية البحث والتأمل والدرس ويزدهر فيه الإبداع والابتكار ، وعليه فان نهضة الأمة تبدأ من دعمها للعلم والعلماء بوصفهم شموع تنير درب الآخرين لأن العلم هو أساس كل نهضة وتقدم .

7. الأخوة والمحبة والدعوة للخير :

من أجل النهوض بالأمة فلابد من إشاعة روح الأخوة وتعميق المحبة بين المسلمين , هذه المحبة المرتبطة بالإيمان كما قال رسول الله ﷺ " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما

(i) الندوي , ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين , ص247 .

(ii) التويجري : عبد العزيز بن عثمان ، العالم الإسلامي في عصر العولمة (القاهرة/2004) ص33 .

يحب لنفسه " (i) , وقال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (ii) , فعلى المؤمنين ان يكونوا يداً واحدة وقلباً واحداً وان يزيلوا أسباب الفرقة والاختلاف فيما بينهم من خلال حب الخير للآخرين قال (ﷺ) " من دل على خير فله مثل أجر فاعله " (iii) , فتبادل المحبة بين المسلمين قاعدة من قواعد الأيمان أو أثر من آثاره القلبية ، كما أنها أساس عام من أسس مكارم الأخلاق الاجتماعية ، وان شعور الإنسان بمحبته للناس اتجاه كريم نحو الارتباط بالجماعة والاندماج فيها ومشاركتها في السراء والضراء وانطلاق من مواقع الأنانية الضيقة فالمحبة هي الوجه السمح الجميل المشرق للقلوب والنفوس .

النتائج والتوصيات

بالرغم من كل ما أصاب الأمة العربية والإسلامية من ضعف فأنها تبقى الأمة القادرة على النهوض من جديد بما تمتلكه من قوة ذاتية كامنة فيها وكما قال الرسول ﷺ " الخير في أمتي إلى يوم القيامة " , وقد أكد الشيخ الندوي رحمه الله ذلك عندما قال : بالإسلام أعزنا الله وهو منبع حياتنا , وان النبي ﷺ هو مصدر شرف لنا , وكل خير جاء به — بل وكل خير جاء العالم , فإنما هو عن طريقه وعلى يديه , أبى الله أن نتشرف إلا بانتسابنا إليه والاضطلاع برسالته .... وان العالم العربي بحرٌ بلا ماء كبحر العروض حتى يتخذ محمد ﷺ إماماً وقائداً لحياته وجهاده وينهض برسالة الإسلام كما نهض في العهد الأول , ويخلص العالم المظلوم من براثين أوروبا الذين يأبون إلا ان يقبروا المدنية وقضوا على الإنسانية القضاء الأخير بأنانيتهم واستكبارهم وجهلهم , ويوجّه العالم من الانهيار إلى الازدهار , ومن الخراب والدمار والفوضى والاضطراب , إلى التقدم والانتظام , والأمن والسلام , ومن الكفر والطغيان إلى الطاعة والإيمان.

لقد خرج البحث بجملة توصيات من اجل النهوض بالأمة وهي :

1. من اجل تحقيق النهوض المنشود للأمة العربية فلابد من البدء بالإنسان من خلال

(i) البخاري ، صحيح البخاري ، ج3 ص 194 .

(ii) سورة الحجرات ، الآية : 10.

(iii) الترمذي ، سنن الترمذي ، ج2 ص 217.

تغيير أفكاره البالية ونفسيته المحطمة .

2. العمل بمقول الشيخ الندوي رحمه الله في ان تتخذ الأمة محمد ﷺ إماماً وقائداً لحياتها وجهادها وتنهض برسالة الإسلام كما نهضت في العهد الأول .
3. دعوة وسائل الأعلام لإبراز أهمية العقيدة الإسلامية وربطها بتقدم الأمة , ودعوة وزارات التعليم العالي في البلاد العربية إلى ضرورة توجيه المناهج التعليمية والتربوية بما يخدم النهضة المرجوة للأمة .
4. نبذ الخلافات وتجميع الصفوف والتعاون بين أبناء الأمة لتحقيق التقدم .
5. دعم العلم والعلماء من خلال تخصيص نسبة أعلى في موازنات الحكومات للأنفاق على البحوث والدراسات العلمية وتوفير كل المتطلبات للباحثين والدارسين في الجامعات والمعاهد ومراكز البحث .
6. توضيح تحريم اليأس والقنوط في الشريعة الإسلامية .
7. تقرير قاعدة الشورى بوصفها ركناً أساسيا ترتكز عليه حياة الناس أفراداً وجماعات حكاماً ومحكومين وإنها الطريق السليم للتوصل إلى أجود الآراء لتحقيق نهضة الأمة.
8. زيادة الثقة بالنفس عند كافة المسلمين لتحقيق النهضة ودعوة المسلمين إلى تفعيل العمل بالكتاب والسنة على مستوى الفرد والشعب والأمة العربية والإسلامية .
9. تركيز الجهود للعمل المستقبلي لتغيير حالة العرب والنهوض بالأمة نهضة كبيرة .
10. إشاعة روح الأخوة وتعميق أواصر المحبة بين أبناء الأمة وتطوير الأمة بما يخدم تحقيق النهضة .
11. تحقيق مقولة الشيخ الندوي رحمه الله في ان الإسلام الذي جاء به محمد العربي صلى الله عليه وسلم هو منبع حيات الامة , ومن أُفقه طلع صبحها الصادق , وان النبي ﷺ هو مصدر شرفكم وسبب ذكركم , وكل خير جاءكم , بل وكل خير جاء العالم , فإنما هو عن طريقه وعلى يديه , أبى الله أن تتشرفوا إلا بانتسابكم إليه وتمسككم بأذياله والاضطلاع برسالته .
12. مواصلة عقد المؤتمرات والندوات التي تبحث في عوامل تدهور العرب و المسلمين

من اجل الخروج من واقع الضعف والانحطاط وصولاً للنهضة الشاملة والتقدم .

قائمة المصادر والمراجع

المصادر الأولية :

– ابن الأثير : عز الدين علي بن محمد الجزري

1 – النهاية في غريب الحديث والأثر (مصر/1311هـ)

– احمد : ابن حنبل أبو عبد الله الشيباني

2 – مسند احمد (مصر/د.ت)

– البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل

3– صحيح البخاري (بغداد/ 1986)

– الترمذي : محمد بن عيسى

4 – سنن الترمذي (بيروت/د . ت)

– ابن تيمية : احمد بن عبد الحليم

5 – السياسة الشرعية في أصلاح الراعي والرعية (بيروت/1383هـ)

– ابن حجر : احمد بن علي العسقلاني

6 – فتح الباري في شرح صحيح البخاري (بيروت/1379هـ)

– ابن حبان : محمد بن حبان بن احمد

7 - صحيح ابن حبان (بيروت/1993)

– الدارمي : عبد الله بن عبد الرحمن

8 – سنن الدارمي (بيروت/ 1407هـ)

– الرازي : محمد فخر الدين

9 – تفسير الرازي (بيروت/ د.ت)

– الزبيدي : مرتضى الحسيني

10 – تاج العروس من جواهر القاموس (بيروت/ د.ت)

– الزمخشري : ابو القاسم جار الله محمود بن عمر

11 – الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل ووجوه التأويل (بيروت/ 1988)

– ابن سلام : أبو عبيد القاسم

12 – الأموال (بيروت/1986)

– الشهاب : محمد بن سلامة بن جعفر القضاعي

13 – مسند الشهاب (بيروت / 1986)

– الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب

14– القاموس المحيط (بيروت / 1983)

– القرطبي : أبو عبد الله بن احمد الانصاري

15 – الجامع لأحكام القران (بيروت / 1988) .

– ابن القيم الجوزية

16 – زاد المعاد في هدى خير العباد (القاهرة / 1969) .

– ابن كثير : عماد الدين ابو الفداء

17 – تفسير ابن كثير (القاهرة /2004) .

– مسلم : أبو الحسن بن الحجاج القشيري النيسابوري

18 – صحيح مسلم (بيروت / 1955) .

– ابن منظور : ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم

19 – لسان العرب (بيروت / 1997) .

– النويري : شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب

20 – نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة/1975) .

– النووي : ابو زكريا يحيى بن شرف بن مري

21 – شرح النووي على صحيح مسلم (بيروت/1382هـ) .

– الهمداني : أبو شجاع شيرويه الديلمي

22 – الفردوس بمأثور الخطاب (بيروت/1986) .

– ابن يعلي : محمد بن الحسين الفراء الحنبلي

23 – الأحكام السلطانية (مصر/1996) .

المراجع الثانوية :

– ارسلان : الأمير شكيب

24 – لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم (بيروت / 2004) .

– أبو البندورة : إسماعيل

25 – الجهاد والوعي بمستقبل الأمة (بيروت/2002) .

– البوطي : محمد سعيد رمضان

26 – قضايا فقهية معاصرة (دمشق/ 1994) .

- البياتي : منير حميد

27 – الدولة القانونية والنظام السياسي الإسلامي (بغداد/ 1979) .

- التويجري : عبد العزيز بن عثمان

28 – العالم الإسلامي في عصر العولمة (القاهرة / 2004) .

- الجرجاني : أبو الحسن علي بن محمد بن علي

29- التعريفات (تونس/1971) .

- الحديثي : نرار عبد اللطيف

30– الأمة والدولة في سياسة النبي (بغداد / 1987) .

- الخياط : عبد العزيز عزت

31 – النظام السياسي في الإسلام (القاهرة / 2004) .

32– وأمرهم شورى (الأردن / 1993) .

- شلتوت، : محمد

33 - الإسلام عقيدة وشريعة (بيروت / د . ت) .

- ابو فارس : محمد عبد القادر

34 – النظام السياسي في الإسلام (الكويت / 1984) .

- القرضاوي : يوسف

35 – الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي (بيروت/1997)

- الميداني : عبد الرحمن حسن حبنكه

36 – الأخلاق الإسلامية (دمشق / 2002) .

- الندوي : أبو الحسن علي الحسني

37 – ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين (مصر/2005) .

38- رجال الفكر والدعوة في الإسلام .

39- الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية (1965).

قراءة الامام الندوي للحياة الدينية في الهند

د.سفيان ياسين ابراهيم
قسم التاريخ، كلية التربية جامعة الموصل

المقدمة

اكتسبت الاديان في الهند ومن بينها الاسلام اهمية كبيرة ألقت بظلالها على مختلف مجالات الحياة الهندية ولقد أتت قراءة الامام الندوي موافقة لتلك الاهمية لاسيما في كتابة ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين فضلا عن موقفه من الحركة العلمية وتشجيعة للطلبة وحثهم على طلب العلم وتعديل المناهج الدراسية الاسلامية بما يلائم المبادئ الاسلامية السمحة , ومن هنا تتبين اهمية موضوع (قراءة الامام الندوي للحياة الدينية في الهند) ووفق منهج العرض التاريخي المقارن بين المصادر التاريخية الاسلامية وقراءة الامام الندوي للحياة الدينية في الهند وقد اعتمدنا كتابه ماذا خسر العالم الاسلامي بانحطاط المسلمين انموذجا .

اشتمل البحث على اربعة مباحث فضلا عن المقدمة والخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع اذ اشرنا في المبحث الاول الى الحياة الاجتماعية في الهند واثرها على الحياة الدينية اذ تطرقنا الى موقف الامام الندوي من العادات والتقاليد الهندية المنافية للاسلام ومن ثم نقده للطبقات الجتماعية عند عدد من سكان الهند واثرها في تفكيك الترابط الاجتماعي ودعوة الامام الندوي الى الاقتداء بالاسلام ومبدئة في نبذ الفوارق الاجتماعية والتأكيد على المساواة والعدالة الاجتماعية ومن بعد ذلك مقارنتها بالمصادر التاريخية الاسلامية .

اشار المبحث الثاني الى الاديان الوضعية في الهند ومن اهمها الهندوسية والبوذية اذ نعرض رؤية الامام الندوي لاديان الهند الوضعية بشكل عام والهندوسية والبوذية على وجه الخصوص وعلاقتهما بالدين الاسلامي وموقف الامام الندوي من اتباع الديانتين ودعوته الى احترام الأخر وفق روح التسامح الاسلامي ونحو بناء مجتمع مترابط وقوي قائم على التعايش السلمي , فضلا عن الدعوة الى التعرف على الدين الاسلامي وادراك مبادئة العظيمة مما ادى الى فهم الاسلام الفهم الحقيقي واتساع رقعة انتشاره .

وقد جاء المبحث الثالث بعنوان الاديان السماوية في الهند وقد تناولنا الحديث عن الديانة اليهودية ومن ثم المسيحية فالاسلام وقراءة الامام الندوي للأديان السماوية ليس على الارض الهندية فحسب انما كان للامام الندوي نظرة عالمية جديرة بالاهتمام والدراسة حول التأكيد على الحوار بين الاديان السماوية والدعوة الى التخلي عن التعصب والتشدد الديني واكد على اهمية الحوار الحضاري والتواصل المعرفي والانساني .

في حين تطرق المبحث الرابع الى الاديان الاخرى ومن بينها عبادة الاحجار والاشجار والانهار وكيف عرض الامام الندوي فلسفته الدينية الاسلامية المتعلقة برفضه تلك العبادات والممارسات الدينية الخاطئة والدعوة والارشاد الى عبادة الله عز وجل وترك عبادة سواه وقد اشار الامام الندوي الى رؤيته تلك في كتابه ماذا خسر العالم الاسلامي بانحطاط المسلمين ومقارنتها بالمصادر الاسلامية الاولية ومصادر التشريع الاسلامي الثابتة .

اولاً : الحياة الاجتماعية وأثرها على الحياة الدينية

لقد وجه الامام الندوي نقده العلمي والديني لعدد من العادات والتقاليد التي سادت العديد من المجتمعات الهندية أذ قال : ((أما الهند فقد اتفقت كلمة المؤلفين في تاريخها على أن أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي ، قد ساهمت الهند جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي ، الذي شمل الكرة الأرضية في هذه الحقبة من الزمن وأخذت نصيباً غير منقوص من هذا الظلام الذي مد رواقه على المعمورة ، وامتازت عنها في ظواهر وخلال يمكن أن نلخصها في ثلاث :

1- كثرة المعبودات والآلهة كثرة فاحشة.
2- الشهوة الجنسية الجامحة .
3- التفاوت الطبقي المجحف والامتياز الاجتماعي الجائر[1].

---

(1) ابو الحسن علي الحسني الندوي , ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين , تقديم سيد قطب , دار الجيل , (بيروت: د. ت) , ص 68.

وقد عدَ الامام الندوي [i] نظام الطبقات الهندي من اخطر الانظمة التي نالت مكانة الانسان في الهند ووصفه بالقاسي المستهين بشرف الانسان بقوله : ((أما نظام الطبقات فلم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً ، وخضعت له آلافاً من السنين ولا تزال ، وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الويدي بتأثير الحرف والصنائع وثوراتها ، وبحكم المحافظة على خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها ، وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية ، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي ، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفق عليه البلاد وأصبح قانوناً رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعروف الآنبـــ"منوشاستر" يقسم هذا القانون أهل البلاد إلى أربع طبقات ممتازة وهي (1) البراهمة ، طبقة الكهنة ورجال الدين . (2) شتري.رجال الحرب . (3) ويش رجال الزراعة والتجارة . (4) شودر رجال الخدمة) .

وقد اقتبس الامام الندوي عن مانو تفاصيل ذلك النظام الطبقي بذكره ((إن القادر المطلق قد خلق لمصلحة العالم البراهمة من فمه ، وشتري من سواعده ، وويش من أفخاذه ، والشودر من أرجله ، ووزع لهم فرائض وواجبات لصلاح العالم . فعلى البراهمة تعليم ويد أو تقديم النذور للآلهة وتعاطي الصدقات ، وعلى الشتري حماية الناس والتصدق وتقديم النذور ودراسة " ويد " والعزوف عن الشهوات ، وعلى ويش رعي السائمة والقيام بخدمتها وتلاوة ويد والتجارة والزراعة ، وليس لشودر إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث)) [ii]

منذ وصول الغزوات الآرية بدأت ملامح النظام الطبقي على المجتمع الهندي ، اذ كان من تعاليم الفيدا (Veda) كتاب الهندوس المقدس الاعتقاد بأن براهمة (Brahma) هو خالق الكون وأن جميع البشر جاؤا من مانو مهاريشا (Mannu Mharisha) (الولي

([i]) المرجع نفسه , ص 72-73 .

([ii])المرجع نفسة , ص 73.

العظيم) على عدة مستويات حسب النظام الطبقي المسمى فارنا (Varna) [i] وبموجبه احتفظت كل طبقة بخصائصها وعرقها ومهنتها ومن ابرز تلك الطبقات :-

1. طبقة الشاكبيرية (shakberea) ، الذين يعدون أشرف السكان ، وفيهم الملك وتسجد لهم باقي طوائف الطبقات الاخرى ولا يسجد افرادها لاحد . ولهم ولطبقة البراهمة قدسية كبيرة جاءت من خلال الاعتقاد انهم خُلقوا من رأس مانو[ii] .

2. طبقة البراهمة (Brahman) ، وهي طبقة رجال الدين وهم الوسطاء بين الالهة والسكان ، يعظمهم الهنود ، ويعدونهم من بين الطوائف الشريفة وهم لا يشربون الخمور[iii] ويرتدي عدد منهم الثياب المصنوعة من جلود النمور ، ويطوقون رقابهم بخيوط صفر[iv]

3. طبقة الكشترية (Kshatrea) وهي طبقة المحاربين وهولاء لا تزوجهم البراهمة ، ويمكن للبرهمي الزواج من نسائهم ويسمح لهم بتناول قليل من الخمور ، وقد زعمت الديانة الهندوسية ان افراد هذه الطبقة خلقوا من مناكب وذراعي مانو ولهذا السبب يعدون القوة والحماية في المجتمع الهندوسي [v]

([i]) ابو الريحان محمد بن احمدالبيروني ، في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة ، دار المعارف العثمانية ، (حيدر آباد – الهند : 1958 م) ، ص76-77 ؛ حسين علي الطحطوح ، الهند في التراث الهند في التراث البلداني العربي (خلال القرنين 3 ، 4 هـ / 9 ، 10 م) ، مجلة اداب الرافدين ، (بغداد : 1995م) ، ع 27 ، ص 275-276.

([ii]) ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن خرداذبة ، المسالك والممالك ، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه محمد مخزوم ، دار احياء التراث العربي ، (بيروت : 1988 م) ، ص 69 ؛ الطبيب شرف الزمان طاهر المروزي ، طبائع الحيوان ، نشر مينورسكي ، (لندن : 1942 م) ، ص 26 .

([iii]) احمد بن ابي يعقوب اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي ، تاريخ تاريخ اليعقوبي ، ط 2 ، عَلق عليه ووضع حواشيه خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : 2002 م) ، ج1 ، ص 84 ؛ ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، 69 ؛ المروزي ، المصدر السابق ، ص 26 ؛ الطحطوح ، المرجع السابق ، ص 276.

([iv]) محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، ط 2 ، تحقيق احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، (القاهرة : 1980 م) ، ص 597 ؛ الطحطوح ، المرجع السابق ، ص 276.

([v]) ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، ص69 ؛ المروزي ، المصدر السابق ، ص 26 ؛ الطحطوح ، المرجع السابق ، ص276 ؛ محمود السيد ، المسلمون في الهند دخول الاسلام الى القارة الهندية ، مجلة الهندوسية اليوم ، نوفمبر 1992م ،

4. طبقة البيشية (Vaishya) وهم المتهنين للزراعة والتجارة والصناعات والحرف ، وقد جاؤا من سيقان مانو وواجبهم تأمين مستلزمات العيش للبراهمة والكشترية ، ويحق لهم أخذ الربا ، وعليهم تقديم الضرائب للطبقات السابقة .[i]

5. طبقة الشودرية (shudriya) هي طبقة الخدم والعبيد اذ كان عملهم مقتصراً على خدمة بقية الطبقات في أخس حاجاتها مثل اعمال النظافة بالاعتقاد انهم جاؤا من قدم مانو.[ii]

6. طبقتا السندالية (Sindaliya) والذنبية (Tinbiya) ، وهم اصحاب اللهو واللحون .[iii] وهناك المنبوذين (out castes) غير المنتمين الى أي من هذه الطبقات.[iv]

ثانياً : الامام الندوي والاديان الوضعية في الهند

1. **الهندوسية**[v]

وهي ديانة الآريين نشأت من خلال احتكاكهم بالاقوام الهندية الخاضعة لهم ، والهندوسية اسلوب في الحياة شملت جوانب عديدة الى جانب مجموعة من العقائد والفرائض والسنن ، اذ انها ضمت من العقائد عبادة الاحجار والاشجار والمياه وقوى الطبيعية وغيرها

ع 15 ، ص1 ؛ احمد شلبي ، اديان الهند الكبرى ، ط9 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة : 1987م) ، ص63.

(i) ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، ص69 ؛ البيروني ، في تحقيق ... ، ص77 ؛ المروزي ، المصدر السابق ، ص 27 ؛ السيد ، المرجع السابق ، ص1.

(ii) ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، ص69 ؛ السيد ، المرجع السابق ، ص1-2.

(iii) ابن خرداذبه ، المصدر السابق ، ص69 -70 ؛ المروزي ، المصدر السابق ، ص 27 ؛ الطحطوح ، المرجع السابق ، ص 276 .

(iv) محمد بن احمد ابراهيم اللواتي الطنجي المعروف بأبن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار المسماة رحلة ابن بطوطة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، (الرباط : 1997م) ، ج 3 ، ص248 ؛ شلبي ، موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة : 1983 م) ، ج8 ، ص254 .

(v) سنتطرق في هذا المبحث الى ابرز اديان الهند الوضعية (الهندوسية والبوذية).

.[i]ومن الجدير بالذكر ان الهندوسية لها كتاب مقدس سمي الفيدا وهي كلمة سنسكريتية تعني (العلم او المعرفة) وتضم مجموعة من الاناشيد والحكم المتعلقة بحياتهم اليومية وعباداتهم ويرجع تاريخ ظهورها الى ما يقرب من سنة (2500ق.م) . والتي تألفت من أربعة اقسام هي رج فيدا (Rg veda) ، والسام فيدا (sam veda) وهما النشيدان اللذان يؤديان عند تقديم القرابين للألهة ثم اليكرفيدا (Yakar veda) وهي الصلوات والادعية واخيراً الأثهر فيدا (Artharval veda) وهي التعاويذ والرُقّي .[ii]

مجدت اشعار الفيدا عدداً من الالهة الهندية مثل فارونا (Varona) اله السماء ، وسوريا (Sourya) اله الشمس ، اجني (Agni) اله النار فضلاً عن اندرا اله الرعد والمطر[iii] كما انهم يميلون الى اخضاع الطبيعة والناس والالهة الى اله واحد اقوى وهو الاله اندرا . وقد تبلورت تلك الفكرة فيما بعد الى ثلاثة الهة وهم براهمة وهو في اعتقادهم البارئ الخالق [iv] ، وشيفا (Siva) اله الخراب والدمار والمعروف لدى الآريين بملك الغابات والوحوش ، وفشنو (Fishno) اله الحب والجمال الذي يوجد صنمه في مدينة دينور (Denur) وقد صنع من الذهب .[v]

([i]) محمد ضياء الرحمن الاعظمي , فصول في اديان الهند الهندوسية والبوذية والجينية والسيخية وعلاقة التصوف بها ، دار البخاري للنشر والتوزيع ، (المدينة المنورة : 1997م) , ص14 ؛ W.H. Moreland, A Short History Of India, Fourth Edition, Printed In Great Britain, (London: 1966),p.,15 .

([ii]) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج3 ، ص90 ؛ A.L.Basham , The wonder that was India , (London : 1962) , p., 247 ; Romila Thapar, A History Of India, Hazell Watson And Viney Ltd., (Britain: 1966),vol.,1,p.,31 .

([iii]) غوستاف لوبون ، حضارات الهند ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي وأولاده ، (القاهرة : 1969م) ، ص281 .

([iv])المرجع نفسة، ص 283 .

([v]) شمس الدين الكيلاني ، ديانة الهند البراهمية في مرآة التراث العربي الاسلامي ، ص 2, الموقع الالكتروني ,

اتخذ الهندوس بيوتاً للعبادة اطلقوا عليها اسم البُد (Budd) [i] وفي داخلها اصنام صنعت من الرخام وعلى رؤوسها تيجان الذهب مكللة بالجواهر والياقوت [ii] ، وفي كل (بُدّ) مجموعة من الجواري يعشن داخل المعبد ، وتكون نفقتهن من الاموال الواردة اليه ، اذ تهب عدد من الامهات بناتهن لخدمة البُد [iii] كما عبد الهندوس الكثير من الحيوانات وقدسوها ومنها الابقار . [iv] ولعل عبادة الحيوانات في الهند كانت قد نشأت من الاعتقاد بالتناسخ باعتقادهم تجلي الالهة في العديد من الاحياء بحلولها في هذا الحيوان او ذاك . [v]

اما من الطقوس الدينية المعروفة لدى الهندوس البراهمة الحج الذي كان يقام على مدار السنة دون موسم معين الى المكان المقدس الذي يحجون اليه وهو نهر الكنج ، وصنم الملتان . فضلاً عن زيارة جبل الراهون في جزيرة سرنديب والذي تعظمه مختلف الاديان الوضعية والسماوية لاعتقادهم بان ادم ابو البشر نزل عليه من الجنة ، وهو جبل شاهق الارتفاع اذ يبلغ ارتفاعه (7420 متر) ويعده الهندوس مقدساً لاحتوائه على جثمان (سوجز موبار)

---

www.grenc.com

([i])ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب اسحاق المعروف بأبن النديم , الفهرست ، ط 2 ، ضبط وشرح وتعليق وتقديم يوسف علي طويل ، وضع فهارسة احمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : 2002 م) ، ص 535 ؛الحميري ، المصدر السابق ، ص155 ؛ سعاد هادي حسن الطائي ، المعتقدات الدينية في الهند والصين في كتاب الفهرست لابن النديم المتوفي سنة (385هـ/995م) دراسة مقارنة ، مجلة الدراسات التاريخية ، (بغداد – الجامعة المستنصرية : 2007 م) ، ع 1 ، ص 157-158.

([ii])ابو عبد الله محمد بن ابي بكر الزهري , الجعرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، منشورات المعهد الفرنسي ، (دمشق : 1970 م) ، ص 29.

([iii]) ابو زيد الحسن السيرافي , رحلة السيرافي الى الهند والصين واليابان واندونيسيا ، طبع دار منشورات البصري ، (بغداد : 1961 م) .ص 99 .

([iv])ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس المعروف بالادريسي , نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، (القاهرة : 1994 م) ، مج 1 ، ص 189 .

([v]) شلبي ، موسوعة ... ، ج8 ، ص258 .

(sujes mubar) احد كبار مؤسسي نظامهم الديني ، وكانوا يضعون الذهب والياقوت على الضريح للتبرك فيأتي الفقراء لاخذها .[i]

2. البوذية

أُطلقت البوذية على الهنود الذين اتبعوا اراء احد الحكماء القدماء وهو جوتاما بوذا (Gotama Buddha) (557-480 ق.م) أي (العارف المستنير)[ii] وقد جاء بتعاليم ناقدة ومناقضة لنظام الطبقات والفوارق الاجتماعية التي ارست دعائمها الديانة الهندوسية وعانى منها المجتمع اشد المعاناة ، ومثل ظهوره بمثابة الثورة ضد ذلك النظام الطبقي ، وقد انتشرت تعاليمه في الهند والبلدان المجاورة لها في عهد الملك اشوكا (294-227ق.م) .[iii]

اشارت التعاليم البوذية الى وجود اربعة حقائق مقدسة لديهم الاولى وجود الحزن في الولادة و الكهولة والمرض والموت وفي عدم الوصول الى المحبوب ، والحقيقة الثانية في اسباب وجود الحزن ، اما الحقيقة الثالثة في القضاء على الألأم والاحزان في اماتة الشهوات والرغبات عن الحاجات الزائدة والسعي في قطع العلاقات الدنيوية واختيار العزلة التامة . والحقيقة الرابعة شملت الاعمال التي تساعد في القضاء على الألأم والاحزان . والغاية من اخماد الرغبة في الحياة وكبت المشاعر والاحاسيس هو ان يصل الانسان الى حالة الهروب من الالم وتحقيق الصفاء او ما يسمى بحالة النيرفانا (Nervana)[iv] .

(i) الحميري ، المصدر السابق ، ص313 ؛ الكيلاني ، المرجع السابق ، ص3.

(ii) البيروني ، الاثار الباقية عن القرون الخالية ، اعادت طبعة بالاوفست مكتبة المثنى عن طبعة لايبزك-المانيا 1923م ، (بغداد:د.ت) ، ص 204؛عبد المنعم النمر ، تاريخ الاسلام في الهند ، الموسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 1981م ، ص79 ؛ الاعظمي ، المرجع السابق ، ص129 .

(iii) النمر ، المرجع السابق ، ص81 ؛
Moreland,op.,cit.,pp.,40-43

(iv) الاعظمي ، المرجع السابق ، ص 134-138 .

جاءت التعاليم البوذية من المواعظ والخطب التي كان يلقيها بوذا على تلامذته اذ انتقلت عن طريقهم شفوياً الى ان تم تدوينها في عهد الملك اشوكا . [i] ومن الجدير بالذكر ان المذهب البوذي كان من اعدل المذاهب الوضعية التي سادت الهند على مدى طويل فقد قلصت الفوارق بين الطبقات واتاحت بعض الحريات الاجتماعية بين تابعيها . [ii]

اما الامام الندوي فقد قدم رؤية واضحة حول الديانتين الهندوسية والبوذية توافقت الى حد بعيد مع النصوص التاريخية حولهما بقولة : ((أما البوذية فقد فقدت بساطتها وحماستها ، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت. وتبني الهياكل. وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت. وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية)) [iii] .

ومن ثم اشار الامام الندوي الى انحطاط كلتا الديانتين واصيب تطورهما وانتشارهما بالتراجع ويُلحظ ذلك عندما ذكر ((لقد أصيبت البرهمية والبوذية بالانحطاط ، ودخلت فيها العادات الساقطة ، وأصبح من العسير التمييز بينهما ، لقد اندمجت البوذية في البرهمية وذابت فيها.

ولم يزل وجود الإله الإيمان به في البوذية موضع خلاف وشك عند مؤرخي هذه الديانة ومترجمي مؤسسها ، حتى يحار بعضهم ويتساءل : كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رقيق من الآداب التي ليس فيها الإيمان بالله . فلم تكن البوذية إلا طرقاً لرياضة النفس وقمع الشهوات ، والتحلي بالفضائل ، والنجاة من الألم ، والحصول على العلم)) [iv].

([i]) أ.س . بوكيت أميركين ، مقارنة الاديان ، ترجمة رنا سامي الخش ، دار الرضوان ، (حلب : د.ت) ، ص102.

([ii]) عقيل عبد الله ياسين الربيعي , العلاقات العربية الهندية (1-416هـ / 622-1205م) دراسة تاريخية في المجالين التجاري والثقافي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، (جامعة بغداد – كلية التربية (ابن رشد) ، 2005م) ، ص 23-24.

([iii]) الندوي , المرجع السابق , ص 65.

([iv])المرجع نفسه, ص67.

ثالثاً : الاديان السماوية في الهند

اليهودية والنصرانية :

لقد كان وجود هاتين الديانتين في الهند قليلا نسبيا بالمقارنة مع بقية الاديان والمذاهب .فقد كان في مدينة صيمور خليط سكاني من مسلمين ونصارى ويهود ومجوس وقال القزويني:[i]((وفي المدينة مساجد وبيع وكنائس وبيت النار)) واشار ابو الفداء[ii] في اثناء حديثه عن الهنود قوله :((ومنهم اليهودية))اذ وجدت اعداد قليلة منهم في المنيبار[iii] كذلك سكن اليهود في احدى ارباض مدينة كابل[iv] .

اما بصدد النصرانية فعندما ظهر القديس بولس (ت بين سنتي 64-67م) واقتبس اتجاهات التثليث وان المسيح صلب تكفيرا عن خطيئة البشر ، اضطر عدد من النصرانيين ممن قالوا بالتوحيد وبنبوة عيسى (عليه السلام) الى الهجرة من الامبراطورية الرومانية فاتخذ عدد منهم طريقه الى الهند ومن خلالهم بدا انتشار النصرانية عند قلة من الهنود[v] كما لاتتوافر لدينا معلومات كافية حول اعداد اولئك المهاجرين او تاريخ دقيق لهجرتهم ومناطق تواجدهم وكذلك مدى صلتهم بتوماس الرسول احد الناشرين للنصرانية في الهند[vi] ولقد

([i])زكريا محمد بن محمود القزويني , اثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، (بيروت : 1960 م) ، ص 97.

([ii])عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبو الفداء , المختصر في اخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، (بيروت:د.ت) ، ج 1 ، ص93.

([iii]) ابو الفداء ,تقويم البلدان ، اعتنى بتصحيحه وطبعه رينود وماك كوكين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية (باريس : 1840 م) ، ص355.

([iv]) الحميري ، المصدر السابق ، ص489.

([v]) وفاء فرحات ، موسوعة العلم والمعرفة الحديثة الاديان الديانة الهندية ، دار اليوسف ، (بيروت :2005م) ، مج1 ، ص 132.

([vi]) بيروخان دياز طافور ، رحلة طافور ، ترجمة وتقديم حسن حبشي ، دار المعارف ، (مصر:1968م) ص91.

اشار الزهري [i] الى إتباع عدد من الهنود في اقليم السند للنصرانية دون الاشارة الى المدن التي وجدوا فيها.

2–الاسلام

لقد كان من الصعوبة اعداد احصائيات دقيقة لاتباع الدين الاسلامي في الهند انذاك قياسا الى مجموع الهنود،فضلا عن ان المسلمين كانو الاكثرية من اتباع الديانات السماوية ،اذ قال الاصطخري[ii] عند حديثه عن المنصورة ((واهلها مسلمون)) وقد اورد ابن حوقل[iii] النص نفسه .واعقبهما المقدسي[iv] في قوله عن المنصورة ((للاسلام عندهم طراوة)) ومن ثم اشار الى ((الغالب عليهم الكفار)) كما تطرق للديبل اذ قال عنها ((وديبل بحرية قد احاط بها نحو مائةقرية اكثرهم كفار)) بينما تمت الاشارة الى مدن اخرى فيها اعداد قليلة من المسلمين ((وتنبلي(Tnble)عليها حصن بحرية ايضا [في اقليم السند] قليلة المسلمين))

استقر المسلمون في اقليم السند[v] ومملكة القنوج[vi] ومملكة بلهرا[vii] فضلاً عن عدد من المدن الهندية الاخرى[viii] منها سواحل كجرات(Gujarat) وسواحل كنباية

([i]) المصدر السابق ، ص33.

([ii])ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسيالاصطخري , المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال ، دار القلم، (القاهرة : 1961 م) ، ص103 .

([iii])ابو القاسم محمد بن علي النصيبي ابن حوقل , صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت : 1979 م) .، ص277

([iv])، ابو بكر شمس الدين محمد بن احمد المقدسي , احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط 2 ، مطبعة بريل ، (لايدن : 1906 م) , ص479 .

([v]) ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص171 ؛ ابو الفداء ، تقويم... ، ص347 ، 349 ، 351

Azez Ahmad , Studies Islamic Culture In The Indian Environment, Oxford University Press, (Oxford: 1964) ,p.,4

([vi]) المقدسي ، المصدر السابق ، ص485

([vii]) الاصطخري ، المصدر السابق ، ص102؛ ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص277؛ الحميري ، المصدر السابق ، ص270

([viii]) الاصطخري ، المصدر السابق ، ص106؛ ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص281؛ ابو الفداء ، تقويم ... ، ص361 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، ص489.

(knbayaha) الواقعة غرب المنيبار.[i] وتمتعوا بالحرية الدينية الكاملة في اداء فرائض الاسلام وسننه وكانت مساجدهم عامره.[ii] وكانو يرفضون ان يتولى عليهم من غيرهم في ادارة مدنهم وقضائهم وغير ذلك.[iii] ومن الجدير بالذكر ان الاسلام قد اتسعت رقعة انتشاره في العديد من مدن شمال وشمال غرب الهند في الفترة التي اعقبت حملات الفتح الغزنوية ومن بعدها الغورية وازدادت في ظل سلطنة دهلي (Delhi) الاسلامية .[iv]

اما المذاهب الاسلامية في الهند فقد وردت اشارة حول انتشار عدد منها في الملتان جاء فيها((وأهل الملتان شيعة ... ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب ابي حنيفة ... وليس بها مالكية ولا معتزلة ولا عمل للحنابلة انهم على طريقة مستقيمة ومذاهب محمودة وصلاح وعفة قد اراحهم الله من الغلو والعصبية والهرج والفتنة)) [v].

بعد هذا العرض التاريخي نجد ان الامام الندوي وصف الاديان السماوية مشدداً على انحراف عدد من اتباعها لاحقا في حين ابتعدت بعضها عن منظومة الحضارة الاسلامية فقد تطرق لليهودية قائلاً : ((وكانت في الهند وغيرها من المناطق أمة هي أغنى أمم الأرض مادة في الدين ، وأقربها فهماً لمصطلحاته ومعانيه ، أولئك هم اليهود ، ولكن لم يكونوا عاملاً من عوامل الحضارة والسياسة أو الدين يؤثر في غيرهم ، بل قُضي عليهم من قرون طويلة أن يتحكم فيهم غيرهم ، وأن يكونوا عرضة للاضطهاد والاستبداد ، والنفي والجلاء ، والعذاب والبلاء ، وقد أورثهم تاريخهم الخاص وما تفردوا به بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية ، والإدلال بالنسب ، والجشع وشهوة المال

([i]) ابو الفداء ، تقويم ... ، ص357 ، 359.

([ii]) الاصطخري ، المصدر السابق ، ص102 ، 105 ؛ ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص280؛ الحميري ، المصدر السابق ، ص370 .

([iii]) الاصطخري ، المصدر السابق ، ص102؛ ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص277 .

([iv]) محيي الدين الالوائي ، الدعوة الاسلامية في الهند ، الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت) الموقع الالكتروني منتديات عرب اونلاين . ص 1 .

([v]) المقدسي ، المصدر السابق ، ص481.

وتعاطي الربا ، أورثهم كل ذلك نفسية غريبة لم توجد في أمة وانفردوا بخصائص خلقية كانت لهم شعاراً على تعاقب الإعصار والأجيال ، منها الخنوع عندالضعف ، والبطش وسوء السيرة عند الغلبة ، والختل والنفاق في عامة الأحوال ، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل ، والصد عن سبيل الله . وقد وصفهم القرآن الكريم وصفاً دقيقاً عميقاً يصور ما كانوا عليه في القرنين السادس والسابع من تدهور خلقي ، وانحطاط نفسي ، وفساد اجتماعي، عزلوا بذلك عن إمامة الأمم وقيادة العالم))[i] .

وتحدث الندوي كذلك عن المسيحية مقدماً لمحة تاريخية حولها وكيف اهمل العديد من اتباعها تعاليم المسيحية الاؤلى واهتموا بالقساوسة والرهبان اذ ذكر ((لم تكن المسيحية في يوم من الأيام من التفصيل والوضوح ومعالجة مسائل الإنسان ، بحيث تقوم عليه حضارة ، أو تسير في ضوئه دولة ، ولكن كان فيها أثارة من تعليم المسيح ، وعليها مسحة من دين التوحيد البسيط ، فجاء بولس فطمس نورها ، وطعّمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها ، والوثنية التي نشأ عليها ، وقضى قسطنطين على البقية الباقية ، حتى أصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية والرهبانية ، اضمحلت في جنبها تعليم المسيح البسيطة كما تتلاشى القطرة من اليم ، وعادت نسيجاً خشبياً من معتقدات وتقاليد لا تغذي الروح ، ولا تمد العقل ولا تشعل العاطفة ، ولا تحل معضلات الحياة ، ولا تنير السبيل ، بل أصبحت بزيادات المحرفين ، وتأويل الجاهلين ، تحول بين الإنسان والعلم والفكر ، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية ، يقول (Sale) مترجم القرآن إلى الانكليزية عن نصارى القرن السادس الميلادي وأسرف المسيحيون في عبادة القديسينوالصور المسيحية حتى فاقوا في ذلك الكاثوليك في هذا العصر))[ii] .

ومن ناحية اخرى اشاد الامام الندوي بالاسلام ودوره في رفد الفكر الانساني بمبادىء التسامح وحب الاخر واحترامه ونشر العدالة والمساواة وتعزيز الحضارة العالمية وتطويرها نحو

([i]) الندوي , المرجع السابق , ص 52-53 .

([ii]) المرجع نفسه , ص 42.

الافضل وان المسلمين على علاتهم فهم موئل الانسانية وامة المستقبل وانهم اذ ما تغلبوا على اشكاليات الانحطاط فأن لهم الزعامة في العلم والتحقيق والتنظيم العلمي الجديد . [i]

رابعاً : اديان اخرى

من الجدير بالذكر هنا الاشارة الى اديان ومذاهب اخرى عُبدت فيها عدد من الحيوانات وقوى الطبيعية وغير ذلك ، فمن الهنود من عبد النار (الاكنهوطرية) (Al-knhotreha) وحرق نفسه [ii] ، ومنهم من عبد الشمس وسجد لها واعتقد انها الخالقة المدبرة لهذا العالم[iii] ومنهم من عبد القمر[iv] ، ومنهم من عبد الاشجار وقدسها منها شجرة الشمس[v]، ومنهم من عبد الثعابين واهتم بتربيتها واطعامها والتوسل بها ، ومنهم من لايتعب نفسه بعبادة شئ وينكر كل المعبودات . [vi]

واعتقد عدد من الهنود ان الكواكب اجسامٌ حيةٌ ناطقة تجري بامر الله في كل مايحدث في العالم فقربوا اليها القرابين لتنفعهم فلما اختفت في النهار عملوا لها تماثيل وبنوا لها البيوت والهياكل ظناً منهم انهم اذ عظموا تلك التماثيل الموضوعة لها تحركت الاجسام العلوية بمرادهم ، ومن البيوت المخصصة لعبادة الكواكب بيت مندرسان(Mandrsan) للتقرب من المريخ . [vii]

([i]) للمزيد من المعلومات ينظر الندوي , المرجع السابق, ص390,387,373,372 .

([ii]) المروزي ، المصدر السباق ، ص32 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، ص 597 ؛ الطائي ، المرجع السابق ، ص171.

([iii]) الحميري ، المصدر السابق ، ص597.

([iv]) القزويني ، المصدر السابق ، ص127.

([v]) شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، الموسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مطابع كوستا تسوماس وشركائه ، (القاهرة : د.ت) ، ج11 ، ص9 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، ص 597.

([vi]) الحميري ، المصدر نفسة والصفحة .

([vii]) ابن فضل الله احمد بن يحيى العمري ، مسالك الابصار في ممالك الامصار ، تحقيق احمد زكي باشا ، دار الكتب المصرية ، (القاهرة : 1924 م) ، ج 1 ، ص222.

وعَبَدت طائفة (الجلبهكتية) (Al-jlbhkteha) الماء وعدته من اهم عناصر الطبيعة واصل ولادة وحياة كل شيء[i] ، ومن ذلك جاءت عبادة الانهار وتقديسها على انها مطهرة ومُقرّبة الى الله وانها تنبع من الجنة مثل نهر الكنج والذي خاطبوه بقولهم : ((ياعظيم البركة ، وسيل الجنة انت الذي خرجت من عين الجنة ، ودللت الناس عليها)) وهناك من قتل نفسه من اجل تلك الانهار المقدسة سعياً للدخول في الجنة .[ii] واعتقد عدد منهم بالاغتسال بنهر الكنج وغيره من الانهار للتكفير عن الذنوب والحصول على المغفرة[iii].

اما عبادة الاصنام فقد انتشرت في مدن هندية عديدة [iv] ، منها مدينة مهوره (Mhorh) والتي كان فيها اصنام كثيرة اذ اعتقدوا ان الجن وضعت قواعد بنيانها وبنت بيوت اصنامها واوردوا في اخبارهم ان الحكمة انقسمت ثلاثة اقسام فكان لاهل مهورة واصنامها ثلثيها .[V] وفي مدينة كرسب(Krsb) في كل بيت صنم قد صنع من الطين [vi] ، وكذلك صنم مدينة بلور في قشمير وهو على صورة امرأة [vii] كما اشرنا سابقاً . ولعل من اشهر الاصنام صنم الملتان الذي تحج اليه اعداد كبيرة من الهنود من مختلف مناطقهم للتبرك به وربما أستأذنه احدهم بقتل نفسه طلباً لرضاه وقد اعتقدوا انه نزل من السماء[viii]((ان هذا الصنم نزل من السماء وامرنا بعبادته)). [ix]

(i) المروزي ، المصدر السابق ، ص 32 ؛ ابو الفداء ، المختصر ... ، ج1 ، ص94 .

(ii) ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي , اخبار الزمان من ابادة الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران ، مطبعة عبد الحميد احمد حنفي ، (القاهرة : 1938 م) ، ص27.

(iii) المروزي ، المصدر السابق ، ص30.

(iv) المسعودي , اخبار ... ، ص196 ؛ البيروني ، الأثار ... ، ص 206.

(v) البيروني ، في تحقيق ... ، ص158 ، 466 ؛ الحميري ، المصدر السابق ، ص 561.

(vi) الحميري ، المصدر نفسه ، ص493.

(vii) القزويني ، المصدر السابق ، ص336.

(viii) الاصطخري ، المصدر السابق ، ص103-104 ؛ ابن حوقل ، المصدر السابق ، ص277-278 .

(ix) ابو علي احمد بن عمر المعروف بأبن رسته , الإعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، (لايدن : 1892 م) ، ص136.

لقد حمل الامام الندوي فلسفة نقدية واسلامية للعديد من الاديان التي انتشرت في بلاد الهند وغيرها من البلدان لا سيما البلاد العربية وقد جاءت تلك الرؤية من درايته واطلاعه العلمي على ابرز تلك العبادات والتي تعود اصول بعضها لتواريخ بعيدة كما عرضنا مسبقا عند تطرق المصادر العربية الاسلامية الاولية لتلك الاديان ومدى تمسك اعداد من الهنود بها وهذا الامر يلحظ في العصور الحديثة عندما اشار الامام الندوي لعدد من الاديان الهندية في كتابة ماذا خسر العالم بأنحطاط المسلمين .[i]

الخاتمة

تبين لنا من خلال دراسة موضوع (قراءة الامام الندوي للحياة الدينية في الهند) ما يأتي: -

1- قدم الامام الندوي رؤية ناقدة للعديد من العادات والتقاليد الاجتماعية الهندية والتي تعود بعضها لعصور تاريخية بعيدة اذ انتقد النظام الطبقي وعده سببا في تأخر المجتمع وانعدام المساواة الاجتماعية والتكافل المجتمعي ودعى الى عالم قائم على العدالة الاجتماعية ومراعاة حقوق الانسان .

2- عرض الامام الندوي الاديان الوضعية في الهند (البوذية والهندوسية) وعلاقة العديد من العادات والنظم الاجتماعية بتلك الاديان لاسيما العادات والنظم التي سببت اشكالية دينية وفكرية داخل المجتمع الهندي وكانت احدى تلك الديانتين رافدا لها او كلتا الديانتين .

3- حملت المنظومة الفكرية والدينية للامام الندوي رؤى واضحة وعلمية عن الاديان السماوية في الهند وتاريخ تلك الاديان وابرز مراحل انتشارها وعلاقتها مع بعضها وكيف ان الاسلام هو شعلة التنوير المعرفي والديني وبالاخص اذ ما تغلب على عوامل ومسببات انحطاط العالم المسلمين .

4- انتشرت في عدد من مناطق الهند العديد من الاديان الاخرى وهي جزء من الجهل الديني والانغلاق الثقافي والاجتماعي وجاءت رؤية الامام الندوي موافقة للنقد

---

[i] للمزيد من المعلومات حول العديد من اديان الهند وغيرها من البلدان ينظر الندوي , المرجع السابق , ص 80 .

التاريخي الذي تضمنته المصادر التاريخية الاولية حول تلك الاديان كعبادة الاحجار والاشجار والانهار وغير ذلك .

5- يعد كتاب العلامة الندوي ماذا خسر العالم الاسلامي بانحطاط المسلمين مرجعا تاريخياً مكملاً للمصادر التاريخية العربية الاسلامية اذ اشتمل على العديد من النصوص والمشاهدات العينية الهامة ولم يقتصر على بلاد اسلامية معينة انما تطرق للكثيرمن مناطق العالم الاسلامي كما نقل عن عدد من المصادر والمراجع التاريخية الكثير من النصوص والمعلومات التي توثق العديد من الاحداث .

قائمة المصادر والمراجع

اولاً : المصادر الاولية

- الادريسي ، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت 560 هـ 1164) .

نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، مكتبة الثقافة الدينية ، (القاهرة : 1994 م) .

- الاصطخري ، ابو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي (346 هـ / 958 م) .

المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحيني ومحمد شفيق غربال ، دار القلم، (القاهرة : 1961 م) .

- ابن بطوطة ، محمد بن احمد بن ابراهيم اللواتي الطنجي (ت 779 هـ / 1377 م).

3- تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار المسماة رحلة ابن بطوطة ، تحقيق عبد الهادي التازي ، (الرباط : 1997 م) .

- البيروني ، ابو الريحان محمد بن احمد (ت 440 هـ / 1048 م) .

4- الاثار الباقية عن القرون الخالية ، اعادت طبعة بالاوفست مكتبة المثنى عن طبعة لايبزك – المانيا 1923م ، (بغداد : د . ت) .

5- في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة ، دار المعارف العثمانية ، (حيدر آباد – الهند : 1958 م) .

- الحميري ، محمد بن عبد المنعم (ت 910 هـ / 1213) .

6- الروض المعطار في خبر الاقطار ، ط 2 ، تحقيق احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، (القاهرة : 1980 م) .

- ابن حوقل ، ابو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت 367 هـ / 979 م) .

7- صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (بيروت : 1979 م).

- ابن خرداذبة ، ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت 300 هـ / 912 م) .

8- المسالك والممالك ، وضع مقدمته وهوامشه وفهارسه محمد مخزوم ، دار احياء التراث العربي ، (بيروت : 1988 م).

- ابن رسته ، ابو علي احمد بن عمر (ت 290 هـ / 902 م) .

9- الاعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، (لايدن : 1892 م) .

- الزهري ، ابو عبد الله محمد بن ابي بكر (ت 550 هـ / 1155 م) .

10- الجعرافية ، تحقيق محمد حاج صادق ، منشورات المعهد الفرنسي ، (دمشق : 1970 م) .

- السيرافي ، ابو زيد الحسن (ت في القرن الثالث للهجرة / التاسع للبلاد) .

11- رحلة السيرافي الى الهند والصين واليابان واندونيسيا ، طبع دار منشورات البصري، (بغداد : 1961 م) .

- طافور ، بيروخان دياز (ت في القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد) .

12- رحلة طافور ، ترجمة وتقديم حسن حبشي ، دار المعارف ، (مصر : 1968 م) .

- العمري ابن فضل الله احمد بن يحيى (ت 749 هـ / 1348 م) .

13- مسالك الابصار في ممالك الامصار ، تحقيق احمد زكي باشا ، دار الكتب المصرية ، (القاهرة : 1924 م) .

- ابو الفداء ، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت 732 هـ / 1331 م) .

14- تقويم البلدان ، اعتنى بتصحيحه وطبعه رينود وماك كوكين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية (باريس : 1840 م)

15- المختصر في اخبار البشر ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، (بيروت : د . ت) .

- القزويني ، زكريا محمد بن محمود (ت 682 هـ / 1283 م) .

16- اثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، (بيروت : 1960 م)

- المروزي ، الطبيب شرف الزمان طاهر (ت في القرن السادس للهجرة / الثاني عشر للميلاد) .

17- طبائع الحيوان ، نشر مينورسكي ، (لندن : 1942 م) .

- المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346 هـ / 957 م) .

18- اخبار الزمان من ابادة الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران ، مطبعة عبد الحميد احمد حنفي ، (القاهرة : 1938 م) .
- المقدسي ، ابو بكر شمس الدين محمد بن احمد (ت 380 هـ / 990 م) .
19- احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ط 2 ، مطبعة بريل ، (لايدن : 1906 م) .
- ابن النديم ، ابو الفرج محمد بن ابي يعقوب اسحاق (380 هـ / 990 م) .
20- الفهرست ، ط 2 ، ضبط وشرح وتعليق وتقديم يوسف علي طويل ، وضع فهارسة احمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : 2002 م) .
- النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب (ت 733 هـ / 1333 م) .
21- نهاية الأرب في فنون الادب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر مطابع كوستاتسوماس وشركائه ، (القاهرة : د . ت) .
- اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح (ت 284 هـ / 897 م) .
22- تاريخ اليعقوبي ، ط 2 ، عَلَق عليه ووضع حواشيه خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، (بيروت : 2002 م) .

ثانياً : المراجع العربية والمعربة

- الاعظمي ، محمد ضياء الرحمن
1- فصول في اديان الهند الهندوسية والبوذية والجينية والسيخية وعلاقة التصوف بها ، دار البخاري للنشر والتوزيع ، (المدينة المنورة : 1997م) .
- اميركين ، أ. س. بوكيت
2- مقارنة الاديان ، ترجمة رنا سامي الخش ، دار الرضوان ، (حلب : د.ت) .
- شلبي ، احمد
3- اديان الهند الكبرى ، ط9 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، (القاهرة : 1987م).
4- موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، (القاهرة : 1983 م) .
- فرحات ، وفاء .
5- موسوعة العلم والمعرفة الحديثة الاديان الديانة الهندية ، دار اليوسف ، (بيروت : 2005 م) .

- لوبون ، غوستاف
6- حضارات الهند ، ترجمة عادل زعيتر ، مطبعة عيسى الحلبي وأولاده ، (القاهرة : 1969م) :
- الندوي ، ابو الحسن علي الحسني
7- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين , تقديم سيد قطب , دار الجيل , (بيروت: د. ت) .
- النمر ، عبد المنعم
8- تاريخ الاسلام في الهند ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 1981م .

ثالثاً : الدوريات

- السيد ، محمود
1- المسلمون في الهند دخول الاسلام الى القارة الهندي ، مجلة الهندوسية اليوم ، نوفمبر 1992م ، ع 15 .
- الطائي ، سعاد هادي حسن
2- المعتقدات الدينية في الهند والصين في كتاب الفهرست لابن النديم المتوفى سنة (385هـ / 995م) دراسة مقارنة ، مجلة الدراسات التاريخية ، (بغداد — الجامعة المستنصرية : 2007م) ، ع 1.
- الطحطوح ، حسين علي
3- الهند في التراث البلداني العربي (خلال القرنين 3 ، 4 هـ / 9 ، 10 م) ، مجلة اداب الرافدين ، (بغداد : 1995م) ، ع 27 .

رابعاً : الرسائل والاطاريح الجامعية

- الربيعي ، عقيل عبد الله ياسين
1- العلاقات العربية الهندية (1-416هـ / 622-1205م) دراسة تاريخية في المجالين التجاري والثقافي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، (جامعة بغداد — كلية التربية (ابن رشد) ، 2005م).

خامساً : الشبكة الدولية للمعلومات (الانترنت)

- الالوائي ، محيي الدين
1- الدعوة الاسلامية في الهند ، الموقع الالكتروني
منتديات عرب اونلاينwww.google .com
- الكيلاني ، شمس الدين
2- ديانة الهند البراهمية في مرآة التراث العربي الاسلامي ، الموقع الالكتروني

www.grenc.com

سادساً : المراجع الانكليزية

- Ahmad, Aziz

1- Studies Islamic Culture In The Indian Environment, Oxford University Press, (Oxford: 1964).

- Basham, a. L.

2- The Wonder That Was India, (London: 1962).

- Moreland, W.H.

3- A Short History Of India, Fourth Edition, Printed In Great Britain, (London: 1966).

- Thapar, Romila

4- A History Of India, Hazell Watson And Viney Ltd., (Britain: 1966).

حقيقة التصوف الإسلامي عند أبي الحسن الندوي
(من تحرير النفس إلى بناء المجتمع)

د. صالح نعمان
جامعة الامير عبد القادر، الجزائر

المقدمة:

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد بن عبد الله ، وعلى آله الأطهار وأصحابه الأبرار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

قال الله عز و جل: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) أل عمران 164

إنّ موضوع التصوف من المواضيع الحساسة و الشائكة في الفكر الإسلامي ذلك انه جنى عليه و على اصحابه أدعياؤه و ظلمه اعداؤه بالتهجم عليه دون تمحيص و تمييز و بيّنة او المبالغة في اطرائه، حتى التبس الأمر على كثير من طلبة العلم و الباحثين.

و الحمد لله الذي قيد لهذا العلم، ككل العلوم الإسلامية علماء " عُدُولٌ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ. أو كما قال قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في كتابه (الرد على الجهمية)[i]: (الحمد لله الذي جعل في كل زمانٍ فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصِّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيوه، وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم. ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين؛ الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله وفي الله وفي كتاب الله بغير علمٍ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهّال الناس بما يشبِّهونَ عليهم، فنعوذ بالله من فِتَن المضلّين).

---

[i]- أحمد بن حنبل: الرد على الجهمية،

ذلك أن مهمة العلماء في الأرض كمهمة النجوم في السماء، هي هداية للسائرين، وشهب تنقض على الشياطين، وخصوصا العلماء الربانيين المتميزين منهم الذين يعلمون ويعملون ويُعَلِّمُون، فهم ورثة الأنبياء حقا، يدعون إلى الله على بصيرة، ويقودون الناس إلى الحق عن بينة، "من أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال: إنني من المسلمين" (فصلت:33).

ولقد كان الشيخ الندوي واحدا من هؤلاء الأفذاذ، الذين بعثهم الله لهذه الأمة ليجددوا لها دينها، ويعيدوا إليها يقينها، وينهضوا بها لتؤدي رسالتها، مجسدا لقول الحبيب المصطفى- محمد صلى الله عليه و سلم- "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"[i]، ومن حق الشيخ أبي الحسن-كما يقول الشيخ القرضاوي[ii]- على من يعرفه من علماء الأمة ودعاتها وأدبائها، أن يكتبوا عن الشيخ، ويجلوا مآثره وفضائله، لتعرفه أجيال الأمة الصاعدة، وتتخذ منه أسوة وإماما. وبهذا يتواصل الأبناء والآباء، والأحفاد والأجداد، والخلف والسلف.

فكان ذلك العالم الرباني الذي انصف التصوف و رجاله بالحكمة و الموعضة الحسنة و المجادلة بالتي هي أحسن و الممارسة السلوكية، فحقق المصطلح و عرف بالمجاهدين الربانيين، و بين الطريق السليم الآمن الى رب العالمين.

فالتصوف في نظر أبي الحسن الندوي هو "العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس و تهذيبها و تحليتها بالفضائل الشرعية و تخليتها عن الرذائل النفسية و الخلقية، و يدعو الى كمال الإيمان و الحصول على درجة الإحسان، و التخلق بالأخلاق النبوية و اتباع الرسول-صلى الله عليه و سلم- في صفاته الباطنية و كيفياته الإيمانية"[iii]، هو تخلق بأخلاق الله تعالى، هو علم السلوك و التزكية، و من ثم يصلح المجتمع و يزكو بصلاح الأفراد و تزكية نفوسهم.

---

[i]- اخرجه أبو داود من طريق أبي هريرة في أول كتاب الملاحم، و قال محمد آبادي في عون المعبود و "حديث أبي هريرة سكت عنه المنذري، و قال السيوطي في مرقاة الصعود، اتفق الحفاظ على تصحيحه منهم الحاكم في المستدرك و البيهقي في المدخل، و ممن نص على صحته من المتأخرين ابن حجر، انظر: محمد شمس الحق آبادي، **عون المعبود في شرح سنن أبي داوود**، تح: عبد الرحمان محمد عثمان، المدينة المنورة: المطبعة السلفية 1969م، ج11، ص 396.

[ii]-يوسف القرضاوي:.....

[iii] - ابو الحسن الندوي: ربانية لا رهبانية، ص 14

و من ثم كان الصوفية رجال ربانيون رهبانا بالليل فرسان مجاهدين بالنهار، يبايعون الناس-كما يقول[i]- على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله، ويحذّرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة ويرغّبــونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعــة والإيثــار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه إنهم كانوا يعِظون الناس دائماً، ويحاولون أن يُلْهِبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغيير الحال.

فتجلي بذلك البعد الاجتماعي للتصوف الذي بينه شيخنا في كتبه من خلال نماذج واقعيــة غيرت وجه التاريخ في العالم الإسلامي، إذ بين مدى تأثير أولائك الدعاة المربــون الربــانيون بأخلاقهم وإخلاصهم وتعليمهم وتربيتهم، ومجالسهم و جهادهم، في المجتمع و الحياة، امثــال المشايخ رحمهم الله تعالى: الحسن البصري، و الجنيد و عبد القادر الجــيلاني، ابــن تيميــة، السنوسي، و الامير عبد القادر الجزائري، و علماء الهند امثال، الشيخ أحمد الشهيد، و شــيخ الإسلام علاء الدين رحمه الله تعالى الذي قال عنه: إن السنوات الأخيرة من عهده، تمتاز بــأن كسدَتْ فيها سوقُ المنكرات من الخمر والغرام، والفسق والفجور، والميسر والفحشاء بجميــع أنواعها، و لم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلاً، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعــين الناس، وظلّ الناس يستحيون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علناً، وندرتْ في الســوق حوادثُ الكذب والتطفيف والغش.. ثم قال: إن تربية هؤلاء الصوفية والمشــايخ ومجالســهم كانت تنشيء في الإنسان رغبة في إفادة الناس وحرصاً على خدمتهم ومساعدتهم.

كما كان لهم الأثر الكبير في نشر الإسلام في العالم خاصة آسيا و إفريقيا حيــث ذهبــوا ينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله، ويربون النفوس، ويحــاربون الشــرك والبــدع والجاهلية والنفاق، فتنتشر الدعوة الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارس الإحسان ومــرابط الجهاد ومجامع الأخوة في أنحاء العالم.[ii]

---

[i] -ابو الحسن الندوي: المسلمون في الهند ص140ــ146

[ii] - أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام ص248 -250.

-فما حقيقة التصوف عند شيخنا ابي الحسن الندوي و ما موقفه منه؟
-الأبعاد الاجتماعية للتصوف عنده و مظاهرها؟
-و كيف نستفيد من موقفه و نظريته الصوفية في حل أزماتنا المعاصرة؟
-و إلى أي مدى جسد المتصوفة اليوم تلك الحقيقة و ما مدى اسهام التصوف في حل تلك الازمات؟

أولا: شخصيته:
ثانيا: ماهية التصوف عنده
ثالثا: البعد الاجتماعي للتصوف أو بناء المجتمع
رابعا: البعد الإصلاحي للتصوف تحرير الأمة

أولا: شخصيته (الربانية)

على الرغم من كون أستاذنا الندوي أشهر من نار على علم إلا أننا ارتاينا ان نذكر بحقيقة شخصيته الإسلامية الفذة لندفع عنه اهامات و اباطيل خصومه الذي طعنوا في عقيدته و إخلاصه لدينه.

الشيخ أبو الحسن عليّ الحَسَني النَدْوي رحمه الله أحد أعلام الدعاة إلى الإسلام و من كبار العلماء والمفكرين الإسلاميين الربانيين في العصر الحديث، بلا ريب ولا جدال، الذين أسهموا بجهد مشكور في تجديد الفكر الإسلامي وإحيائه، وتحريره من الجمود الذي شلّ حركته،وذهب بروائه ونضارته.

شهدت على ذلك كتبه وبحوثه،ورسائله ومحاضراته التي سارت بذكرها الركبان وبلغت ما بلغ إليه الليل والنهار، وانتفع بها العرب والعجم، والكبير والصغير، والعام والخاص.
و يمكننا ان نتعرف على ذلك من خلال سبر عقيدته و خلقه، سيرته.

العقيدة السليمة:

لقد آتاه الله عز وجل العقيدة السليمة: عقيدة أهل السنة والجماعة، سليمة من الشركيات والقبوريات والأباطيل، التي انتشرت في الهند، وكان لها سوق نَافِقَة، وجماعات مروجة تغدو بها وتروح، تأثروا بالهندوس في معتقداهم وأباطيلهم، كما هو الحال عند جماعة (البريلويين) الذين انتسبوا إلى التصوف اسما ورسما، والتصوف الحق براء منهم، وقد حفلت عقائدهم بالخرافات، وعباداتهم بالمبتدعات، وأفكارهم بالترهات، وأخلاقهم بالسلبيات.

ولكن الشيخ تربى على عقائد مدرسة (ديوبند) التي قام عليها منذ نشأتها علماء ربـــانيون، طاردوا الشرك بالتوحيد، والأباطيل بالحقائق، والبدع بالسنن، والسلبيات بالإيجابيات.
وأكدت ذلك مدرسة الندوة ـــ ندوة العلماء ـــ وأضافت إليها روحا جديدة، وسلفية حية حقيقية، لا سلفية شكلية جدلية.
إن العقيدة السلفية عند الشيخ هي: توحيد خالص لله تعالى لا يشوبه شرك، ويقين عميـــق بالآخرة لا يعتريه شك، وإيمان جازم بالنبوة لا يداخله تردد ولا وهم، وثقة مطلقة بالقرآن والسنة، مصدرين للعقائد والشرائع والأخلاق والسلوك.

3-الخلق الكريم:

كما آتاه الله الخلق الكريم والسلوك القويم، قد قيل : إن حسن الخلق بذل النـــدى ، وكف الأذى ، واحتمال الأذى . وقيل : حسن الخلق : بذل الجميل ، وكـــف القبـيح .وقيل : التخلي من الرذائل ، والتحلي بالفضائل .
وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان لا يتصور قيام ساقه إلا عليها : الصـــبر ، والعفـــة ، والشجاعة ، والعدل .
فالصبر : يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ ، وكف الأذى ، والحلم والأنـــاة والرفـــق ، وعدم الطيش والعجلة .
والعفة : تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول والفعل ، وتحمله علـــى الحياء . وهو رأس كل خير . وتمنعه من الفحشاء ، والبخل والكذب ، والغيبة والنميمة .
والشجاعة : تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشيم ، وعلى البذل والندى.
والعدل: يحمله على اعتدال أخلاقه ، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط . [i]
وقد قال الكتاني: التصوف هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلـــق، فقـــد زاد عليـــك في التصوف! وعلق على ذلك الإمام ابن القيم في (مدارجه) فقال: بل الدين كله هو الخلـــق، فمن زاد عليك في الخلق، فقد زاد عليك في الدين[ii].

---

[i]– ابن قيم الجوزية(أبو عبد الله محمد بن أبي بكر): مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ج2، دار الكتاب العربي، 1416 / 1996م ، ص 294

[ii]–نفس المرجع، ص 294

و صاحب الخلق الحسن اقرب الناس إلى النبي صلى الله عليه و سلم القائل: (عن جابر – رضي الله عنه – مرفوعا، إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسنكم أخلاقا وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون المتشدقون المتفيهقون) حسنه الترمذي.

ولا غرو أن أثنى الله على رسوله بقوله (وإنك لعلي خلق علظيم) (سورة القلم-4) وأن أعلن الرسول الكريم عن غاية رسالته، فقال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وقد شهد للشيخ بهذا الخلق الرفيع الصديق و العدو، كما لمس فيه من عاشره — ولو قليلا — هذا الخلق الرضي، ووجده مثالا مجسدا لما يدعو إليه، فسلوكه مرآة لدعوته، وهو رجل باطنه كظاهره، وسريرته كعلانيته، نحسبه كذلك، والله حسيبه، ولا نزكيه على الله عز وجل. ومن هذه الأخلاق الندوية: الرِّقّة، والسماحة، والسخاء والشجاعة، والرفق، والحلم، والصبر، والاعتدال، والتواضع، والزهد، والجِدُّ، والصدق مع الله ومع الناس، والإخلاص، والبعد عن الغرور والعُجْب، والأمل والثقة والتوكل واليقين والخشية والمراقبة، وغيرها من الفضائل والأخلاق الربانية والإنسانية

وهذا من بركات النشأة الصالحة في بيئة صالحة في أسرة هاشمية حسنية، "ذرية بعضها من بعض" (آل عمران:34).i .

3- الحرقة على الاسلام أو القلب الحي:

إن النفوس إذا كانت كباراً تَعِبَتْ في مرادها الأجسامُ، فكان من مظاهر سلامة عقيدته و سمو اخلاقه رحمه الله، أن اتاه الله حُرقة الداعية، التي تجلت في القلب الحي، والعاطفة الجياشة بالحب لله العظيم، ولرسوله الكريم، ولدينه القويم، فهو يحمل بين جنبيه نبعا لا يغيض، وشعلة لا تخبو، وجمرة لا تتحول إلى رماد، فكان يملك تذوُّق المجرِّب الخبير ويُجيد فنّ الدعوة بتفوّق، وسيرةُ حياته وكُتُبه الدعوية تؤكد ذلك.

---

i- يوسف القرضاوي:"الشيخ أبوالحسن الندوي كما عرفته"،
http://qaradawi.net/component/content/article/6452.html

ولا بد للداعية إلى الله أن يحمل مثل هذا القلب الحي، ومثل هذه العاطفة الدافقة بالحب والحنان والدفء والحرارة، يفيض منها على من حوله، فيحركهم من سُكُون، ويوقظهم من سُبَات، ويحييهم من مَوَات.

وكلام أصحاب القلوب الحية له تأثير عظيم في سامعيه وقرائه، فإن الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتجاوز الآذان، ولهذا كان تأثير الحسن البصري في كل من يشهد درسه وحلقته، على خلاف حلقات الآخرين، ولهذا قيل: ليست النائحة كالثّكْلَى.

هذا القلب الحي، يعيش مع الله في حب وشوق، راجيا خائفا، راغبا راهبا، يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، كما يعيش في هموم الأمة على اتساعها، ويحيا في آلامها وآمالها، لا يشغله هَمٌّ عن هَمٍّ، ولا بلد عن آخر، ولا فئة من المسلمين عن الفئات الأخرى.

وهذه العاطفة هي التي جعلته يتغنى كثيرا بشعر إقبال، ويحس كأنه شعره هو، كأنه منشئه وليس راوِيَه. وكذلك شعر جلال الدين الرومي، وخصوصا شعر الحب الإلهي، كما جعلته يولي عناية خاصة لأصحاب القلوب الحية، مثل الحسن البصري، والغزالي والجيلاني وابن تيمية والسرهندي وغيرهم.[i]

4-الزهد أو الربانية:

و ما جسد تلك القيم العالية في حياته: **(الربانية)** إذ اتفق على وصفه بذلك كلٌّ من عرفه أو كتب عنه، وصدق من قال: ((أَلْسِنَةُ الخَلْق أقلام الحق))، وفي هذا فألٌ حَسَنْ بحقّ هذا الداعية الرباني لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول: " أنتم شهداء الله في الأرض" متفق عليه.

وهو لم يقتصر على مجرّد الاهتمام بجانب (الرّبانية) في الإسلام وتركيزه عليه وإبرازه في سِيَر المصلحين والمجدّدين؛ بل اتصف به وتوجهت عنايته إليه فظهر في سَمْته ودلّه، ومَنْطقه وهدْيِه، وحاله ومقاله، وسلوكه وأخلاقه، مع الانصراف التام عن مباهج الحياة، وفيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومتاع وجاه،

---

[i]-أنظر كتاب: ربانية لا رهبانية، و كتاب: رجال الفكر والدعوة في الإسلام. لابي الحسن الندوي.

كان من أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، وأحرصهم على ما عند الله تبارك وتعالى، فما عند الناس ينفد، وما عند الله باق، فلا المال يغريه، ولا الجاه يفتنه، ولا الشهوات تأسره، فقد كان -بإيمانه ويقينه- أكبر منها جميعًا.

ولكنه كان يريد لنفسه حياة أرباب القلوب من الربانيين الذي يعيشون في الدنيا ولا تعيش فيهم، ويملكون الدنيا ولا تملكهم، كأنما جاء من العصر الأول إلى هذا العصر، ليمثل إبراهيم بن أدهم، أو الفضيل بن عياض، أو الجُنَيد بن محمد، الذين يحيون في الدنيا بقلوب أهل الآخرة، ويمشون فوق الأرض وبصائرهم ترنو إلى السماء، ولهذا أبى الشيخ -رحمة الله عليه- إلا أن يعيش عيشة هؤلاء السلف الزاهدين، والأئمة الصالحين، يصدق عنه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [i].

قال الفخر الرازي في تعريف الربانيين : " أن يكون الداعي له إلى جميع الأفعال طلب مرضاة الله ، والصارف له عن كل الأفعال الهرب عن عقاب الله" [ii] وقال ابن عاشور : " كونوا منسوبين للرب، وهو الله تعالى، لأن النسب إلى الشيء إنما يكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه.و المعنى أن يكونوا مخلصين لله دون غيره[iii].

و لاشك أن هذا من بركات التنشئة السليمة والتربية القويمة في البيئة الصالحة، والبيت الطاهر قال تعالى: ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾.[iv]

5- من مظاهر ربانيته

و من المواقف التي تشهد له على ربانيته:

1 -**اعتكافه:** يروي الشيخ يوسف القرضاوي فيقول: أذكر أنه حينما زارنا منذ أكثر من ثلاثين عامًا في قطر، وكان يشكو من قلة موارد (دار العلوم) بندوة العلماء، اقترح عليه بعض الإخوة أن نزور بعض الشيوخ وكبار التجار، نشرح لهم ظروف الدار ونطلب منهم بعض العون لها فقال: لا أستطيع أن أفعل ذلك! وسألناه: لماذا؟ قال: إن هؤلاء القوم

---

i- آل عمران، الآية: 79

ii- فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، 274/4 .

iii-الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير 140/3.

iv- الأعراف: الآية: 58

مرضى، ومرضهم حب الدنيا، ونحن أطباؤهم، فكيف يستطيع الطبيب أن يداوي مريضه إذا مد يده إليه يطلب عونه؟ أي يطلب منه شيئًا من الدنيا التي يداويه منها؟!

قلنا له: أنت لا تطلب لنفسك، أنت تطلب للدار ومعلميها وتلاميذها حتى تستمر وتبقى. قال: هؤلاء لا يفرقون بين ما تطلبه لنفسك وما تطلبه لغيرك ما دمت أنت الطالب، وأنت الآخذ!! وكنا في رمضان، وقلنا له حينذاك: ابق معنا إلى العشر الأواخر، ونحن نقوم عنك بمهمة الطلب. فقال: إن لي برنامجًا في العشر الأواخر لا أحب أن أنقضه أو أتخلى عنه لأي سبب، إنها فرصة لأخلو بنفسي وربي. وعرفنا أن للرجل حالًا مع الله، لا تشغله عنه الشواغل، فتركناه لما أراد، محاولين أن نقلده فلم نستطع، وكلٌّ مُيسرٌ لما خُلقَ له.

2-وقف أموال الجوائز و المكافئات لله تعالى

(قد كان الشيخ يرفض المكافآت التي تُعطى لأمثاله في مقابلة جهود يقوم بها، وهي مشروعة، ويقبلها غيره من العلماء، ولكنه آلى على نفسه أن يقدم ما عنده من علم وجهد لله تعالى، لا لعَرَضٍ من الدنيا.

يُحكى أنه عندما دُعي إلى سوريا أستاذًا زائرًا لجامعة دمشق، ولكلية الشريعة فيها خاصة، في عهد عميدها الداعية الفقيه الدكتور مصطفى السباعي، ألقى عددًا من المحاضرات المهكمة العميقة، تعب عليها وبذل جهدًا لا ينكر في إعدادها، وكان لها تأثير عميق ووقع مشهود بين الأساتذة والطلاب، وكان موضوعها: «التجديد والمجددون في تاريخ الإسلام»، وهي التي ظهرت بعد ذلك تحت عنوان: «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، وعلى عادة الجامعة صُرفت له مكافأة، كما تُصرف لكل الأساتذة الزائرين، وهنا كانت المفاجأة، فقد رفض الشيخ أن يأخذ مكافأة على محاضراته!! و لم يجد الإداريون والماليون في الجامعة حلًا إلا أن يتبرع به للطلاب الفقراء.

وذكر الأستاذ محمد المجذوب -رحمه الله- في ترجمة الشيخ في كتابه: «علماء ومفكرون عرفتهم» أنه لا يذيع سرًّا إذا قال: إن الشيخ رفض أن يأخذ من (رابطة العالم الإسلامي) ما تدفعه من مكافآت لأعضاء المجلس التأسيسي، عن حضورهم جلساته كل عام.

ومن المعروف أن الشيخ حين أُعطي «جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام» -وكان مقدارها ثلاثمائة ألف ريال سعودي في ذلك الوقت -تبرع بها الشيخ كلها، بعضها لفقراء الحرمين، وبعضها لفقراء الهند ومدارسها الدينية.

وكذلك فعل بكل مبالغ الجوائز التي حصل عليها؛ مثل جائزة سلطان بروناي في التـــاريخ الإسلامي، وجائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، حيث اختير ليكون «الشخصية الإسلامية» لعام 1419هــ وقيمة الجائزة مليون درهم ... لم يدخل جيبه شيء من قيمة هذه الجوائز، بل أنفقها كلها في سبيل الله.)[i]

ثانيا: ماهية التصوف عند عالمنا أبي الحسن الندوي

لقد ضمن مفهومه للتصوف تزكية و سلوكا ببعديه الفردي و الاجتمــاعي في كتابــه الشهير "ربانية لا رهبانية" وقد سماه بهذا الاسم لسببين: أولهما: أن يتجنب اسم التصوف لما علق به من شوائب، وما ألصق به من زوائد، على مــر العصــور، وهــذا مــن جنايــة المصطلحات على الحقائق والمضامين الصحيحة، وما التصوف في حقيقته إلا جانب التزكية التي هي إحدى شعب الرسالة المحمدية، أو جانب الإحسان الذي فســره الرســولﷺ في حديث جبريل الشهير. والسبب الثاني: إبراز العنصر الإيجابي في هــذه الحيــاة الروحيــة المنشودة، فهي روحية اجتماعية، كما سماها أستاذنا البهي الخولي رحمه الله، وهي ربانيــة إيجابية تعمل للحياة ولا تعتزلها، ولا تعبدها، وتجعل منها مزرعة للحياة الأخــرى: حيــاة الخلود والبقاء. كما وضح الشيخ الندوي الجانب التعبدي الشعائري في حيــاة المســلم في كتابه المعروف "الأركان الأربعة" وهو يمثل نظرة جديدة في عبادات الإســلام الكــبرى: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وآثارها في النفس والحياة .

فالتصوف في نظر شيخنا أبي الحسن الندوي هو "العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس و تهذيبها و تحليتها بالفضائل الشرعية و تخليتها عن الرذائل النفسية و الخلقية، و يــدعو الى كمال الإيمان و الحصول على درجة الإحسان، و التخلق بــالأخلاق النبويــة و اتبــاع الرسول-صلى الله عليه و سلم- في صفاته الباطنية و كيفياته الإيمانية"[ii]، هو تخلق بأخلاق الله تعالى، هو علم السلوك و التزكية، و من ثم يصلح المجتمع و يزكو بصــلاح الأفــراد و تزكية نفوسهم.

---

[i]-أنظر موقع الصوفي: http://www.alsufi.net/page/details/id/262

[ii] - ابو الحسن الندوي: ربانية لا رهبانية، ص 14

و من ثم كان الصوفية رجال ربانيون رهبانا بالليل فرسان مجاهدين بالنهار، يبايعون الناس-كما يقول[i]- على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله، ويحذّرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة ويرغّبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه إنهم كانوا يعظون الناس دائماً، ويحاولون أن يُلْهِبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغيير الحال.

و هو ما حققه كبار علماء الأمة عبر التاريخ، من أمثال ابن تيمية من المتقدمين، و محمد الغزالي من المتأخرين، يقول الشيخ محمد الغزالي في بعض كتبه منها (الجانب العاطفي من الإسلام) ما نصه هناك تصوف نبت في أكناف الإيمان والإسلام والإحسان ونما على أغذية جيدة من العلم والعمل واستطاع أن يكون المشاعر الإنسانية بصدق العبودية ودفعها إلى التفاني في مرضاة الله. ..

وإذا كان سعد زغلول قد وصف أدب الرافعي بأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم فإني مع إكباري للرافعي وأدبه أرى كلمة سعد أصدق ما تكون في حكم الصوفي ابن عطاء الله السكندري رحمه الله)[ii]

و هذا مضاد لما تؤمن به بعض المدارس الصوفية من ضرورة العزلة عن المجتمع و الهروب من مشاكله و تحديات الأمة، وترى الحياة الحقة في العيش في الزوايا و التكايا، فقد كان الندوي رحمه الله يدعو إلى العبادة و العمل المنتج معا، و لقد تجلى هذا المنحى عند شيخنا في كتابه القيم "ربانية لا رهبانية" حيث أكد فيه أن الربانية دعوة و جهاد ،و حب و عاطفة، ودين و دولة، ومصحف وسيف، الربانية كما يراها الندوي لا تدعو إلى التواكل و التكاسل والجمود، بل إنها تحول التراب تبرا والحصى جوهرا، والجماد حيا ناميا، وهي السر وراء نجاح الجهود الاصلاحية التي عرفتها الأمة عبر تاريخها الطويل، و كأن الندوي يحذو حذو أبي الحسن الشاذلي الذي كان يقول: " إن هذا الطريق ليس بالرهبانية ولا بأكل

---

[i] -ابو الحسن الندوي: المسلمون في الهند ص140ـــ146

[ii] - محمد الغزالي: الجانب العاطفي من الإسلام.

الشعير والنخالة ، وإنما هي بالصبر على الأوامر، واليقين في الهداية"[i] ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.[ii]

لذا أنصف التصوف السني الصحيح و الصوفية الحقيقيين بالتأريخ لهم و الدفاع عنهم إذ يقول الأستاذ أبو الحسن في كتابه: «المسلمون في الهند»: (إن التصوف علم شريف، ومستمد من الشرع، وقائم على الشرع ولا يخرج عن الشرع، فكيف يأتي سفيه، ويقول: إن التصوف علم مبتدع، وليس له أصل في الشريعة، وهو زندقة ورجاله زنادقة، أعتقد أن هذا الكلام لا يخرج إلا من جاهل؛ فإن أقوال أئمة التصوف وأعلام الصوفية نجدها كلها تدور حول اتباع الكتاب والسنة و الابتعاد عما يخالفهما، وكلها تدعو إلى مكارم الأخلاق, وإلى الخوف من الله تعالى، وإلى تقواه وابتغاء رضاه, وتدعو إلى السخاء، والحاصل أنها تدعو إلى جماع الخير وتنهي عن جماع الشر، وفي هذا تبين لنا حقيقة التصوف، وهي أنه علم يقصد به صلاح المسلم والوصول إلى رضا الله والالتزام بالشريعة وترك ما خالفها بالكلية، وهذه هي غاية خلق الإنسان على هذه الأرض، وفي هذا بيان واضح لمن أراد أن يتعرف على حقيقة التصوف. فهل فيما ذكر شيء لا يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم؟! هل في هذا ما لا يرضي العقل والدين؟! أعتقد لا، فهذا هو التصوف وهؤلاء هم الصوفية، وما خالف هذا نضرب به عرض الجدار، بل ونضربه بنعالنا، ونطأ عليه تحت الثرى.

وأختم بقول سيدي الشيخ العارف بالله عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه: طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة فمن خالفهما فليس منا. وفي هذا القدر كفاية لمن أراد أن يعرف حقيقة التصوف والصوفية . فإن كان هذا هو التصوف، فأي علم أشرف من هذا العلم، والله أعلم).[iii]

ثالثا: البعد الاجتماعي للتصوف أو ربانية لا رهبانية

بناء على هذه الأصول المعرفية العقدية جسد عالمنا الجليل البعد الحقيقي للتصوف الإسلامي ألا و هو البعد الاجتماعي، مبينا أسباب غيابها في واقعنا و انتشار الصور المشوهة له،

---

[i]– ابن عياد ،**المفاخر العلية في المآثر الشاذلية**، ط القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي و شركاوه 1961م، ص 88

[ii]– السجدة، الآية: 24.

[iii]– أبو الحسن الندوي:المسلمون في الهند،

فيقول: (فلا شك أنه لولا هؤلاء (الصوفية)- أصحاب النفوس المزكّاة، الذين وصلوا إلى درجة الإحسان وفقه الباطن- لانهار المجتمع الإسلامي إيمانا روحانية وابتلعت موجة المادية الطاغية العاتية البقية من إيمان الأمة وتماسكها، وضعفت صلة القلوب بالله، والحياة بالروح، والمجتمع بالأخلاق، وفقد الإخلاص والاحتساب وانتشرت الأمراض الباطنة واعتلت القلوب والنفوس وفقد الطبيب وتكالب الناس على حطام الدنيا وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب وغلب عليهم الطمع والطموح وتعطلت شعبة من أهلم شعب النبوة ونيابتها وهي (تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن)[i].

فكان من سبل تحقيق ذلك البناء التكاملي لشخصية المسلم بتزكية النفس، و اصلاح المجتمع بتوبة الأمة و عودته إلى الله تعالى.

1-تكامل الشخصية

"إنّ الإنسان جسم وروح، وهو قلب وعقل وعواطف وجوارح، لا يسعد ولا يفلح ولا يرقى رقياً مُتّزناً عادلاً حتى تنمو فيه هذه القُوى كلها نمواً متناسباً لائقاً بها، ويتغذى غذاء صالحاً، ولا يمكن أن توجد المدنية الصالحة البتة إلا إذاساد وسط ديني خلقي عقلي جسدي يمكن فيه للإنسان بسهولة أن يبلغ كماله الإنساني، وقد أثبتت التجربة أنه لا يكون ذلك إلا إذا كانت قيادة الحياة وإدارة دفة المدنية بيد الذين يؤمنون بالروح والمادة، ويكونون أمثلة كاملة في الحياة الدينية والخلقية، وأصحاب عقول سليمة راجحة، وعلوم صحيحة نافعة؛ فإذا كان فيهم نقص في عقيدتهم أو في تربيتهم عاد ذلك النقص في مدنيتهم، وتضخم وظهر في مظاهر كثيرة، وفي أشكال متنوعة.)[ii]

و ذلك مصداقا لقوله تعالى:(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)(سورة القصص:77).

إن من أعظم مزايا هذا الدين ومحاسنه، أنه دين يدعو إلى التوازن في كل شيء، بغير إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء، في أمر الدين أو الدنيا.

---

[i]- أبو الحسن الندوي: ربانية لا رهبانية، ص 17 – 18

[ii]-أبو الحسن الندوي: , ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين،

فإذا تغلبت جماعة لا تعبد إلا المادة وما إليها من لذة ومنفعة محسوسة، ولا تؤمن إلا بهذه الحياة، ولا تؤمن بما وراء الحس أثّرت طبيعتها ومبادئها وميولها في وضع المدنية وشكلها، وطبعتها بطابعها، وصاغتها في قالبها، فكملت نواحٍ للإنسانية واختلت نواحٍ أُخرى أهم منها. عاشت هذه المدنية وازدهرت في الجصِّ والآجر، وفي الورق والقماش، وفي الحديد والرصاص، وأخصبت في ميادين الحروب وساحات القتال، وأوساط المحاكم ومجالس اللهو ومجامع الفجور، وماتت وأجدبت في القلوب والأرواح وفي علاقة المراة بزوجها، والولد بوالده والوالد بولده، والأخ بأخيه والرجل بصديقه، وأصبحت المدنية كجسم ضخم متورّم يملأ العين مهابةً ورواءً، ويشكو في قلبه آلاماً وأوجاعاً، وفي صحته انحرافاً واضطراباً. وإذا تغلبت جماعة تجحد المادة أو تهمل ناحيتها ولا تهتم إلا بالروح وما وراء الحس والطبيعة، وتعادي هذه الحياة وتعاندها، ذبلت زهرة المدنية، وهزلت القوى الإنسانية، وبدأ الناس -بتأثير هذه القيادة- يُؤْثِرُوْن الفرار إلى الصحاري والخلوات على المدن، والعزوبة على الحياة الزوجية، ويعذبون الأجسام حتى يضعف سلطانها فتتطهر الروح ويؤثرون الموت على الحياة، لينتقلوا من مملكة المادة إلى إقليم الروح ويستوفوا كَمَالَهُم هنالك؛ لأن الكمال في عقيدتهم لا يحصل في العالم المادي، ونتيجة ذلك أن تحتضر الحضارة وتخرب المدن ويختل نظام الحياة.

ولما كان هذا مضاداً للفطرة لا تلبث أن تثور عليه، وتنتقم منه بمادية حيوانية ليس فيها تسامح لروحانية وأخلاق، وهكذا تنتكس الإنسانية وتخلفها البهيمية والسبعية الإنسانية الممسوخة، أو تهجم على هذه الجماعة الراهبة جماعة مادية قوية فتعجز عن المقاومة لضعفها الطبيعي، وتستسلم وتخضع لها، أو تسبق هي -بما يعتريها من الصعوبات في معالجة أمور الدنيا -فتمد يد الاستعانة إلى المادية ورجالها وتسند إليهم أمور السياسة وتكتفي هي بالعبادات والتقاليد الدينية، ويحدث فصل بين الدين والسياسة فتضمحل الروحانية والأخلاق ويتقلص ظلها وتفقد سلطانها على المجتمع البشري والحياة العملية حتى تصير شبحاً وخيالاً أو نظرية علمية لا تأثير لها في الحياة، وتؤول الحياة مادية محضة. وقلما خلت جماعة من الجماعات التي تولت قيادة بني جنسها من هذا النقص؛ لذلك لم تزل المدنية متأرجحة بين مادية بهيميّة وروحانية ورهبانية، ولم تزل في اضطراب.)i

---

i– أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين،مرجع سابق، مكتبة الإيمان ، المنصورة – مصر، ص92

ولكن عندما تكون قيادة ركب الحياة بأيد الذين يؤمنون بالله ربًّا خالقًا له الأمر والخلق، وأنَّ محمَّدًا -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- نبيًا ورسولًا، وأنه لا عقيدة أحسن من عقيدة الإسلام، ولا شريعة قادرة على احتواء الدنيا إلا شريعة الإسلام ولا شعائر أفضل من شعائر الدين القويم، وعندما يكون هؤلاء الرجال قادرين على تحمل المشاق والمتاعب من أجل راحة الإنسانية، وإسعاد الحزين ونصرة المظلوم وردع الظالم وإغناء الفقير، عند ذلك -فحسب- يحل السلام أرجاء المعمورة، وتترل الخيرات من السموات وتعم الأرض البركات ويسعد المسلمون، ويَسْلم المخالفون.

2- إصلاح المجتمع

وبناء الفرد لا يستقيم وحده دون تحقيق تكامل امراد المجتمع و انسجامهم تحت راية التوحيد، و هو ما بينه من خلال النماذج الواقعية من تاريخ رجال الاصلاح في العالم الإسلامي، فيقول:

(إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي وطاعة الله ورسوله، ويحذّرون من الفحشاء والمنكر والأخلاق السيئة والظلم والقسوة ويرغّبوهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل مثل الكبر والحسد والبغضاء والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلموهم ذكر الله والنصح لعباده والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه إنهم كانوا يعظون الناس دائماً، ويحاولون أن يُلْهبوا فيهم عاطفة الحب لله سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغيير الحال..

ثم تحدث عن مدى تأثير أخلاقهم وإخلاصهم وتعليمهم وتربيتهم، ومجالسهم في المجتمع والحياة، وضرب بعض الأمثلة التي تُلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي.

1-علماء الهند:

يقول الأستاذ الندوي إن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ ومجالسهم كانت تنشيء في الإنسان رغبة في إفادة الناس وحرصاً على خدمتهم ومساعدتهم و اصلاح حياتهم. من بينهم على سبيل المثال:

-الشيخ أحمد الشهيد رحمه الله تعالى:لقد أقبل عليه الناس إقبالاً منقطع النظير، وإنه لم يمر ببلدة إلا وتاب عليه، وبايعه عدد كبير من الناس، وإنه أقام في كَلْكُتّا شهرين، ويقدر أن الذين كانوا يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً، وتستمر البيعة إلى

نصف الليل، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً فكان يمد سبعة أو ثمانية من العمائم، والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون الله، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشرة أو ثماني عشرة مرة..

-أما شيخ الإسلام علاء الدين رحمه الله تعالى: فقد امتازت السنوات الأخيرة من عهده، بأن كسدَتْ فيها سوقُ المنكرات من الخمر والغرام، والفسق والفجور، والميسر والفحشاء بجميع أنواعها، ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلاً، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس، وظلَّ الناس يستحيون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علناً، ونـدرتْ في السوق حوادثُ الكذب والتطفيف والغش..

فكان من ثمار جهودهم: أنَّ تأثير هذه المواعظ، ودخول الناس في الدين، وانقيادهم للشرع أدى إلى أن تعطلت تجارة الخمر في كَلْكُتَّا وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز، وكسدت سوقُها، وأقْفرت الحانات، واعتذر الخمارون عن دفع الضرائب للحكومة، متعلّلين بكساد السوق، وتعطلِ تجارة الخمر.. ثم قال: إن هذه الحالة كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة والصوفية والمشايخ وروحانيتهم، أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس، وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع الهوى. لم يكن بوسع حكومة أو مؤسسة أو قانون أن يؤثر في هذه المجموعة البشرية الضخمة ويحيطها بسياج من الأخلاق والمبادىء الشريفة لزمنٍ طويل..

لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند، استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المُتْعَبون، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة)[1].

2-علماء الأسلام: لقد تحدث الأستاذ أبو الحسن الندوي عن النماذج الصوفية الدعوية في العالم الإسلامي

وأثرها في نشر الإسلام منهم:

-عبد القادر الجيلاني:

هو سلطان الأولياء والعارفين سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله القائل عن حقيقة التصوف: :كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة هي زندقة , طر إلى الحق عزّوجلّ بجناحي

---

[1]-(المسلمون فى الهند، ص ص140ـ146

الكتاب والسنة ادخل عليه ويدك في يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، و ترك العبادات المفروضة زندقة وارتكاب المحظورات معصية ، و كل باطن خالف ظاهراً فهو باطل[i]. قال عنه الشيخ الندوي:(....وكان يحضر مجلسه نحو من سبعين ألفاً، وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يديه من العيارين والمسالحة [المسالح: الجماعة أو القوم ذووا السلاح] أكثر من مائة ألف، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، فدخل فيه خلق لا يحصيهم إلا الله، وصلحت أحوالهم، وحسن إسلامهم، وظلّ الشيخ يربيهم ويحاسبهم، ويشرف عليهم وعلى تقدمهم. وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان، ثم يجيز الشيخ كثيراً منهم ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى الله، ويربون النفوس، ويحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق، فتنتشر الدعوة الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارس الإحسان، ومرابط الجهاد ومجامع الأخوة في أنحاء العالم الإسلامي. وقد كان لخلفائه وتلاميذه، ولِمَنْ سار سيرهم في الدعوة وتهذيب النفوس من أعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون التي تلَتْه فضل كبير في المحافظة على روح الإسلام وشعلة الإيمان، وحماسة الدعوة والجهاد وقوة التمرد على الشهوات والسلطات. ولولاهم لابتلعت الماديةُ التي كانت تسير في رحاب الحكومات والمدنيات هذه الأمة، وانطفأتْ شرارة الحياة والحب في صدور أفرادها. وقد كان لهؤلاء فضل كبير لنشر الإسلام في الأمصار البعيدة التي لم تغزها جيوش المسلمين، أو لم تستطع إخضاعها للحكم الإسلامي وانتشر بهم الإسلام في أفريقيا السوداء وفي أندونيسيا وجزر المحيط الهندي وفي الصين وفي الهند)[ii] [وتحدث الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه روائع إقبال عن زيارته للشاعر بعد أن ذكر إقبالٌ التصوفَ ورجاله والتجديد الإسلامي في الهند بواسطتهم، وبعد أن أثنى على الشيخ أحمد السرهندي والشيخ ولي الله الدهلوي والسلطان محي الدين أورنك زيب رحمهم الله تعالى، قال: إنني أقول دائماً: لولا وجودُهم-أي الصوفية- وجهادهم لابتلعت الهندُ وحضارتُها وفلسفتُها الإسلامَ) [iii]

---

[i] – عبد القادر الجيلاني: الفتح الرباني، ص 179 .

[ii] – رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن الندوي ص248 -250

[iii] –روائع إقبال صـ7

رابعا: البعد الإصلاحي للتصوف أو تحرير الأمة

يعد هذا البعد الإصلاحي أحد مظاهر البعد الأجتماعي للتصوف لكننا أردنا افراده لنبرز الجانب الإصلاحي الثوري للتصوف و نبين صلة التزكية الروحية بالبطولة و الكفاح[i] و ننفي غنه قمة العزلة عن المجتمع او العمالة للاعداء الإسلام كما تحقق عند بعض ادعياء التصوف.

و سيقتصر حديثنا عن شخصيتين بارزتين تحدث عنهما أستاذنا الشيخ الندوي، و هما شيخ الإسلام ابن تيمية، و الشيخ الرباني محمد علي السنوسي.

1–شيخ الإسلام عبد الحليم أحمد بن تيمية بطل الإصلاح الديني (661هـ)

عرف كعالم متكلم و فقيه جدلي، محدث كبير و الكثير يعرف عنه أنه محدث جاف و علم متبحر في العلوم الظاهرة.

أما ما ذكره الحافظ ابن القيم الجوزية في مدارج السالكين من أحواله و أقواله بمناسبات شتى وكذلك ما ذكره العلامة الذهبي و أمثاله في ترجمته من أخلاقه و أذواقه، و عاداته و شمائله، فيدل دلالة واضحة على أن شيخ الإسلام ابن تيمية يستحق بكل جدارة أن يعد من العارفين و رجال الله في هذه الأمة، و قد شهد على ذلك مواقفه و كتبه و حياته كلها.

و الأحوال التي عاش فيها شيخ الإسلام تشهد بأنه كان متحليا باليقين و المشاهدة التي بعثت فيه صفة من الافتقار و الاضطرار و العبودية و الإنابة و قد روى أنه إذا أشكلت عليه مسألة أو صعب لهم آية التجأ إلى جامع أو مكان موحش و وضع جبهته على التراب و ردد قوله: "يا معلم ابراهيم فهمني"[ii] و يقول عنه: "لم أر مثله و استغاثته و كثرة توجهه"[iii] و يقول: "له أوراد و أذكار يدمنها بكيفية و جمعية"[iv].

فقد كان يتذوق العبادة و ينهمك فيها و زاهدا في الدنيا يزدريها، كما اتصف بالسخاء و الإيثار و هي مما يتصف به رجال الله و أولياؤه و العاملون بالسنة النبوية بصفة عامة، و أسمى ما ترتقي إليه هذه السمات التواضع وإنكار الذات التي تحلى بها الشيخ حيث كثيرا ما كان يقول: "مالي شيء و لا مني شيء و لا في شيء"[v] إلى جانب ذلك كان الفارس

---

[i]–الندوي، ربانية لا رهبانية، ص103.

[ii]– العقود الدرية، ص6.

[iii]– الكواكب الدرية، ص145.

[iv]– الذر الفاخر، ص18.

[v]– مدارج السالكين

المجاهد ضد أصحاب البدع من الصوفية و الغالين من أصحاب الفرق الكلامية، من جهة و من جهة أخرى المجاهد الجريء الشجاع الذي قابل القائد التتاري قازان يوم أقبل بمجموعه ليغزو البلاد، فأنذره وتوعده حتى أقنعه بالانسحاب فانسحب، و حارب في جبهات القتال عندما عاود التتار الكرة على بلاد الشام.[i]

و قد قال فيه و في تلميذه ابن القيم الجوزية العلامة علي بن سلطان محمد القاري الهروي (1014هـ) "من طالع روح السائرين تبين له أنهما كانا من أكابر أهل السنة و الجماعة، و من أولياء هذه الأمة"[ii].

1.1-موقفه من التصوف:

نورد موقفه كما جاء على لسانه حين سُئِلَ رحمه الله عن (الصوفية) في كتاب التصوف، الذي اتسم بالعلم و الخبرة و الإنصاف مما يدل على أنه لم يكن ضِدّ التصوف بإطلاق، كما يَتصوّر أو يُصوّر بعض من يزعُم الانتساب إلى مدرستِه، بل كان من أهل المعرفة بالله، والحبّ له، ومن رجال التربية الإيمانيّة والسلوك الرّبّاني، كما بدا ذلك في مجلدين من مجموع الفتاوى، وفي عدد من كتب ابن القيم، أعظمها: مدارج السالكين و شرح منازل السائرين إلى مقامات "إيّاكَ نعبُد وإيّاك نستعين".[iii]

فقد استهدف شيخ الإسلام إبراز كنه التصوف كمدرسة تربوية هدفها الأساسي تهذيب النفس وتطهيرها من أخلاقها الذميمة، ولذلك عارض كل انحراف طرأ على التصوف. وانطلاقا من هذه القاعدة أظهر احتراما كبيرا لرواد الزهد والتصوف الملتزمين أمثال: الجنيد، الفضيل بن عياض،إبراهيم بن أدهم... وعموما اتخذ ابن تيمية موقفا يتميز بأمرين: يرى أن شيوخ التصوف الأوائل قيدوا علومهم وتربيتهم بالكتاب والسنة، أما المتأخرون فقد ضل كثير منهم، وهذا ما تجده في قوله: (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فهم لا يسوغون

---

[i]- أحمد النجار: ابن تيمية و التصوف، دار غار حراء، دمشق، ط1، 1426هـ/2006م. ص9-20.

[ii]- المرقاة شرح المشكاة، المجلة 4، ص 427.

[iii]- د. يوسف القرضاوي: موقع إسلام أون لاين على صفحة الفتاوى.

للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت. وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم).i

كما أنه لم يرفض التصوف جملة، بل انتقد ما طرأ عليه من خروج عن الأهداف الأولى ومناهج التربية والسلوك الأولى وفي ذلك قوله : (الصوفية بنوا أمرهم على الإرادة ولابد منها لكن يشترط أن تكون إرادة الله وحده).ii ، وفي آخر يقول (الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، واستوى عنده الذهب والحجر. والتصوف كتمان المعاني وترك الدعاوى وأشباه ذلك، وهم يسيرون بالتصوف إلى معنى الصديق.) وتجلى موقفه المنصف في قوله :(والصواب انهم مجتهدون في طاعة الله) iii و لم يعب عليهم الانتساب لشيخ بل يرى أن ذلك ضرورة علمية : (وأما انتساب الطائفة إلى شيخ معين فلا ريب أن الناس يحتاجون من يتلقون عنه الإيمان و القرآن كما تلقى الصحابة ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وتلقاه عنهم التابعون وبذلك يحصل اتباع السابقين الأولين بإحسان، فكما أن المرء له من يعلمه القرآن والنحو فكذلك له من يعلمه الدين الباطن والظاهر).iv

ففي المجلد الحادي عشر من مجموع فتاويه يقول : { (التصوف) عندهم له حقائق وأحوال معروفة قد تكلموا في حدوده وسيرته وأخلاقه، كقول بعضهم: (الصوفي) من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، و استوى عنده الذهب والحجر. التصوف كتمان المعاني، وترك الدعاوي. وأشباه ذلك: وهم يسيرون بالصوفي إلى معنى الصديق، وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون. كما قال اللّه تعالى: {فَأُوْلَـئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـئِكَ رَفِيقًا} [النساء: 69] ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفي؛ لكن هو في الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذي اختص بالزهد والعبادة على الوجه الذي اجتهدوا فيه، فكان الصديق من أهل هذه الطريق، كما يقال: صديقوا العلماء، وصديقوا الأمراء، فهو أخص من الصديق المطلق، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم.

---

i- عبد الحليم أحمد بن تيمية: كتابه الفتاوى –علم السلوك- ج 10 ص 485 –516.

ii- نفس المصدر ج19 ص172

iii- نفس المصدر ج11 ص18

iv- نفس المصدر ج**11** ص**510**

فإذا قيل عن أولئك الزهاد والعباد من البصريين: إنهم صديقون فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة أنهم صديقون أيضًا، كل بحسب الطريق الذي سلكه من طاعة اللّه ورسوله بحسب اجتهاده وقد يكونون من أجلّ الصديقين بحسب زمانهم، فهم من أكمل صديقي زمانهم، والصديق في العصر الأول أكمل منهم، والصديقون درجات وأنواع؛ ولهذا يوجد لك منهم صنف من الأحوال والعبادات، حققه وأحكمه وغلب عليه، وإن كان غيره في غير ذلك الصنف أكمل منه وأفضل منه.

ولأجل ما وقع في كثير منهم من الاجتهاد والتنزع فيه تنازع الناس في طريقهم؛ فطائفة ذمت (الصوفية والتصوف). وقالوا: إنهم مبتدعون، خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام.

وطائفة غلت فيهم، وادعوا أنهم أفضل الخلق، وأكملهم بعد الأنبياء وكلا طرفي هذه الأمور ذميم.

و(الصواب) أنهم مجتهدون في طاعة اللّه، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة اللّه، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده، وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين، وفي كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب.

ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه، عاص لربه.

...وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة؛ ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم: كالحلاج مثلا؛ فإن أكثر مشائخ الطريق أنكروه، وأخرجوه عن الطريق. مثل: الجنيد بن محمد سيد الطائفة وغيره. كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي؛ في (طبقات الصوفية) وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخ بغداد. فهذا أصل التصوف. ثم أنه بعد ذلك تشعب وتنوع، وصارت الصوفية (ثلاثة أصناف): صوفية الحقائق وصوفية الأرزاق وصوفية الرسم.

فأما (صوفية الحقائق): فهم الذين وصفناهم.

وأما (صوفية الأرزاق) فهم الذين وقفت عليهم الوقوف. كالخوانك فلا يشترط في هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق.فإن هذا عزيز وأكثر أهل الحقائق لا يتصفون بلزوم الخوانك؛ ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط:

(أحدها): العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم.

و(الثاني): التأدب بآداب أهل الطريق،وهي الآداب الشرعية في غالب الأوقات، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها.

(الثالث): أن لا يكون أحدهم متمسكًا بفضول الدنيا، فأما من كان جماعا للمال، أو كان غير متخلق بالأخلاق المحمودة، ولا يتأدب بالآداب الشرعية، أو كان فاسقا فإنه لا يستحق ذلك.

وأما صوفية الرسم: فهم المقتصرون على النسبة،فهمهم في اللباس والآداب الوضعية، ونحو ذلك فهؤلاء في الصوفية بمنزلة الذي يقتصر على زي أهل العلم وأهل الجهاد ونوع مًّا من أقوالهم وأعمالهم بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره أنه منهم وليس منهم.

وأولياء اللّه هم المؤمنون المتقون، سواء سمي أحدهم فقيرًا أو صوفيًا أو فقيهًا أو عالمًا أو تاجرًا أو جنديًا أو صانعًا أو أميرًا أو حاكمًا أو غير ذلك.

قال اللّه تعالى: {أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} [يونس: 62، 63].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يقول اللّه تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولابد له منه). وهذا الحديث قد بين فيه أولياء اللّه المقتصدين، أصحاب اليمين والمقربين السابقين.

فالصنف الأول: الذين تقربوا إلى اللّه بالفرائض. والصنف الثاني: الذي تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم، كما قال تعالى.

وهذان الصنفان قد ذكرهم اللّه في غير موضع من كتابه كما قال: {ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ} [فاطر: 32] وكما قال اللّه تعالى: {إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ} [المطففين: 22-28] قال ابن عباس: يشرب بها المقربون صرفا وتمزج لأصحاب اليمين مزجًا.

وقال تعالى: {وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا} [الإنسان: 17، 18] وقال تعالى: {فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ

الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ} [الواقعة: 8-11] وقال تعالى: {فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ} [الواقعة: 88-91].}[i]

2.1- العارف الصوفي العابد:

كما تجدر الإشارة إلى أن ابن تيمية في كلامه عن المصطلحات الصوفية كان أدق تعبيرا وأكثر تفصيلا من الصوفية الذين كتبوا في هذه الموضوعات. ففي حديثه عن المقامات والأحوال على سبيل المثال يقول: (أما بعد: فهذه كلمات مختصرات في أعمال القلوب ــ التي قد تسمى [المقامات والأحوال]ــ وهي من أصول الإيمان، وقواعد الدين، مثل / محبة اللّه ورسوله، والتوكل على اللّه، وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له، وما يتبع ذلك.)[ii] ثم يبين مراتب القلوب فيما يعرض لها من أحوال تختلف باختلاف منازلها.[iii]

أما عبادته يقول عنها تلميذه ابن القيم مبينا تذوقه للعبادة و الإنهماك فيها: (...ومن تجريبات السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة : أن من أدمن يا حي ياقيوم لا إله إلا أنت أورثه ذلك حياة القلب والعقل وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه شديد اللهج بها جدا وقال لي يوما : لهذين الاسمين وهما الحي القيوم تأثير عظيم في حياة القلب وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم وسمعته يقول : من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر ياحي ياقيوم لاإله إلا أنت برحمتك أستغيث حصلت له حياة القلب ولم يمت قلبه ومن علم عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها وسر ارتباطها بالخلق والأمر وبمطالب العبد وحاجاته عرف ذلك وتحققه فإن كل مطلوب يسأل بالمناسب له فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك.)[iv]

-وبلغ المراتب العليا من العبودية بانكاره لذاته و تواضعه الشديد اذ هما من خصائص رجال الله الخاصة وهو المنصب الأعلى في الدين, يحدث عنه ابن القيم

---

[i]- عبد الحليم أحمد بن تيمية: مجموعة الفتاوى، م11.
ii- نفس المصدر، م10 ص5.
iii- أحمد النجار: ابن تيمية و التصوف، دار غار حراء، دمشق، ط1، 1426هـ/2006م. ص69.
iv- ابن القيم: كتاب مدارج السالكين، الجزء 1، ص 448.

يصف تواضع العارفين (أنه يخفي أحواله عن الخلق جهده كخشوعه وذله وانكساره لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها ورؤيتهم لها فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله وكم قد اقتطع في هذه المفازة من سالك والمعصوم من عصمه الله فلا شيء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل وأنه لا شيء وأنه ممن لم يصح له بعد الإسلام حتى يدعي الشرف فيه ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرا لم أشاهده من غيره وكان يقول كثيرا : ما لي شيء ولا مني شيء ولا في شيء وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت : أنا المكدى وابن المكدى وهكذا كان أبي وجدي وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول : والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وما أسلمت بعد إسلاما جيدا وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه)i

-و قال(وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : العارف لا يرى له على أحد حقا ولا يشهد له على غيره فضلا ولذلك لا يعاتب ولا يطالب ولا يضارب وأما تنسم نسيم الفناء : فلما كان الفناء عنده غاية جعل هذه الدرجة كالنسيم)ii، ويعلم المطلعون على احواله أنه في ذلك إنما يتحدث عن نفسه و يحكي حاله.

و مما تقدم يتبين أن شيخ الإسلام ابن تيمية سليم من الغلو الذي وقعت فيه الوهابية الذين فسروا ابن تيمية بتفسيرهم الخاص.

-كما نجده - في مجلده العاشر من الفتاوى والمسمى كتاب علم السلوك- يسير على نهج الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابه <فتوح الغيب> إن لم نقل أنه يشرح هذا الكتاب كما شرح تلميذه ابن القيم كتاب الصوفي الهروي، إذ كان يكن للشيخ عبد القادر الجيلاني احتراما كبيرا و يقول في حقه: قطب العارفين، شيخنا قدس الله سره، أعظم شيوخ زمانه... هذا إضافة إلى كثرة استشهاده بكلامه.

2- السنوسي و أثر الطرق السنوسية:

---

i- نفس المرجع ، الجزء 1، ص524، أبو الحسن الندوي: ربانية لا رهبانية، دار الشروق، القاهرة,1980، ص81.

ii- ابن القيم: كتاب مدارج السالكين، الجزء 1، ص524.

هو محمد علي السنوسي (1787-1859م) تربى في بيت علم و دين و لديـــه منـــذ حداثته ترعة العزلة و التأمل، كما عرف عن سلوكه التقوى و عمد في أثناء رحلاتـــه إلى زيارة الزوايا و الاجتماع بالإخوان و معرفة مختلف الطرق[i].

هذه التربية الروحية التي نعم بها السنوسي الكبير جعلته يخطط لدعوته في الإصلاح بما يكفل نجاحها إذ أدرك:

- قيمة الزوايا في الدعوات السابقة.
- قيمة البساطة و اليسر في تقديم المعلومات الدينية للمريدين.
- رأى أن خير هذه الأمة في وقته يكمن في توحيد صفوفها مما جعله يتحالف مع الطـــرق الصوفية الموجودة في عصره و يدعوها إلى إصلاح نفسها و دعوتها على بث روح الجهـــاد بين أتباعها (السنوسية دين و دولة).

فسعى على إنشاء دولة إسلامية ذات منطلقات سلفية صوفية.

2. 1 انتشارها

امتدت الزوايا السنوسية في شمال إفريقيا حتى غدت على مدى ثمانين عاماً عاملاً كبيراً في تيـــار الحركة الإسلامية ، وبات لها أتباع في كل قطر إســـلامي ، حتى كان لهـــا (12) زاوية في الحجاز ، ووصل عدد الزوايا في ليبيا والســـودان وحولهما إلى (130) زاوية[ii]. وتغلغلت في إفريقيا مبشرة بالإسلام بين الوثنيين حيث بلغ مجموع زواياها (300) زاوية.

وكانت الزاوية وحدة متكاملة مهمتها الأولى التربيـــة وإعداد الدعـــاة ، ثم إرسالهم للعالم الإسلامي ينشرون الدعوة الإسلامية، كما أن الزاوية معـــدة ومدربـــة للدفاع عن نفسها ضد العدو فكانت ومركزاً للحياة الروحية و مركزا للجهاد.

2.2 جهاد الاحتلال

كانت الزاوية كما أسلفنا مركزاً للجهاد لها تنظيم عسكري ، إذ غالباً ما يختـــار مكانها في موقع حصين ، عند ملتقى طرق ، لتأمين الغايتين الحربية والتجاريـــة ، وكـــان أفرادها مسلحين ، منظمين تنظيماً عسكرياً ، فلما انسحبت الدولة العثمانية من ليبيا ، دعا

---

i- أكرم الخضري: الآثار الاجتماعية للحركة السنوسية، ص67. و انظر؟؟ حاضر العالم الاسلامي ص ج/1-108، حمد الشلبي: الموسوعة:217/6

ii- شكيب ارسلان ، حاضر العالم الاسلامي ، دار الفكر ، ط4 ، 1973م ، ج2، ص 140

السنوسيون إلى تأليف حكومة وطنية،i قادت المسلمين في ليبيا مدة عشرين سنة ضد الطليان الذين احتلوا ليبيا.

– ومن ألمع قادة السنوسيين البطل (عمر المختار) يرحمه الله, الذي كان شيخاً على زاوية القصور في الجبل الأخضر ، و تولى قيادة المجاهدين السنوسيين في الجبل الأخضر ، وصار القائد العام للمجاهدين السنوسيين في ليبيا.ii

– وقف عمر المختار في وجه الفاشست بقيادة موسوليني الذي عمل جاهداً على انقراض الإسلام من ليبيا ، وقرروا أن ليبيا أرض إيطالية ، وقتلوا مئات الألوف من المسلمين ، كما أجلوا ثمانين ألفاً من القبائل العربية عن الجبل الأخضر إلى صحراء (سرت) الجدباء فمات منهم خلق كثير جوعاً وعطشاً ، ثم جندت الرجال من سن البلوغ إلى الخامسة والأربعين وساقتهم إلى الجيش ، وجمعت الأحداث (4 ــ 12) وأرسلتهم قهراً إلى إيطاليا لتنصيرهم.iii

– وقد جاوز عمر المختار الخمسين من عمره ، وبقي حتى جاوز السبعين يرحمه الله تعالى ، يقود المعارك على صهوة جواده ، من عام (1329هـ) حتى (1350 هـ/ عام 1931م) حيث وأسر ، ثم أعدم يرحمه الله.iv

الخاتمة:

فيما قدمناه إشارات دالة على أثر التزكية الروحية أوالتصوف في الحركات الإسلامية، و هو أثر اجتماعي و لا شك حيث أن أثار هذه الدعوات و الحركات إنما تتطلب على المجتمع إيجابا و سلبا.

– ثم أن ما أقدمته لا يمثل فخرا تجتره الطرق الصوفية اليوم، و هي أبعد ما تكون عن تمثله بقدر ما يمثل ردا على سلبية الكثيرين منهم، و فهمهم أن العبادة شيء و الجهاد و الحركة شيء آخر إذ ما قدمناه نموذج و مثال واقعي كلما يجب أن يكون عليه العابد الزاهد المتعالي عن مغريات الحياة و فتن الدنيا، من حيث الإسهام و الفاعلية في أحداث الحياة و تغيير

---

iــ شكيب ارسلان ، ص 297

3ــ شكيب ارسلان ، ج2 ص 148 ، و انظر خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار الملايين ، المجلد الخامس، ص66.

iiiــ شكيب ارسلان، ص67

ivــ شوقي أبو خليل ، الاسلام وحركات التحرر العربية ، دار الفكر ، ط4 ، 1985 م ، دمشق ، ص 125.

المنكر فيها طلبا للإصلاح و العودة إلى الحياة الإسلامية كما رسمها الكتـــاب و الســـنة، و جاهد من أجلها شيخنا أبو الحسن الندوي رحمه الله.

– و لابد أن نعرف أن مؤسسات التصوف واقع لا يمكن الاستهانة بوجـــوده ولا يجـــدي التفرغ لمواجهته وإنما يتعين إصلاحه من الداخل وذلك بتصحيح أخطائه وتقويم مقولاتـــه وآرائه المخالفة لمنطق الشريعة، وبوضعه أخيرا في صف القوى الحامية للإسلام مســـتفيدين من تلك التجارب السابقة.

– و إن الأمة الاسلامية في أمس الحاجة إلى هذا النموذج الذي يجمع بين الدين والـــدنيا، وبين النظر و العمل، نموذج الصوفي الذي يعمل ونموذج العامل الذي يتصوف.

ذلك لأن الانشغال بالدنيا وحدها أغرق الغرب في حمأة الجحود و القنـــوط، ودفعـــه إلى استعمار الشعوب، و إذا تكشفت النفس الغربية عن شيء لاشك فيه، فإنما تتكشف عـــن قلق لا يعرف للحياة معنى ولا غاية.

– كما أن الانصراف إلى الآخرة و حدها، والإعراض عن الدنيا بالكلية قد هبط بالشـــرق إلى المستنقع الآسن و الدرك الهابط الذي جر عليـــه نكبـــات الاســـتعمار والاســـتغلال.

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن ينفعنا بمـــا علمنـــا، وأن يعلمنـــا مـــا ينفعنـــا.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

منهج الشيخ أبي الحسن الندوي في السيرة الذاتية

أ . د . حلمي محمد القاعود
جامعة طنطا- جمهورية مصر العربية

- 1-

في عام 1993م ؛ زرت بنجالاديش لحضور مؤتمر علمي بالجامعة الإسلامية في شيتاجونج . كانت الرحلة بالنسبة لي فريدة في نوعها ، فلم يكن هناك من يولي وجهه شطر هذه الدولة الإسلامية من أبناء الوطن العربي إلا نادرا ، ولم أسمع على المستوى الشخصي أو العام أن أحدا من الأدباء أو الأكاديميين العرب قد اتجه إلى هناك ، ولكني غامرت وذهبت وشجعني على ذلك بعض من عرفت من أهل بنجالاديش في أثناء عملي بالسعودية .

ظننت أنني وحدى الذي تحمل عبء السفر الشاق إلى هذه الدولة البعيدة بالنسبة لمصر ، ولكنني فوجئت عند وصولي بشيخ كبير مهيب ضعيف البنيان فيما يبدو لي يحضر المؤتمر وقيل لي إنه قضي ساعات طوال في قطار عادي جاء من قلب الهند حتى وصل إلى إحدى المدن في شمالها ثم استقل الطائرة ومعه نفر من أقاربه ومساعديه إلى دكا ومنها استقل طائرة أخرى داخلية إلى شيتاجونج مكان انعاد المؤتمر . كان هذ الرجل هو الشيخ أبو الحسن الندوي — الأديب والداعية المعروف .

منيت نفسي بصحبة طيبة في الفندق ، لأحاوره في قضايا عديدة وأقترب منه أكثر . والمفاجأة أن الرجل رفض أن يترل في الفندق وآثر الإقامة مع طلاب الجامعة التي سينعقد بها المؤتمر في سكنهم المتواضع الذي لا يوجد به سرر ولا سجاد ولا خوانات ولا كراسي على الطراز الغربي .

سألت بحثا عن تفسير لذلك قالوا : إن الرجل تعود على حياة التواضع وعيشة الزهاد ، ولذا فهو لا يستريح إلى الفنادق الفخمة والمساكن الفاخرة ، والأمر لا يتوقف عند السكن ولكن يتعداه إلى اللباس والطعام ومظاهر الحياة الأخرى حيث يعيش عيشة بسيطة وحياة متقشفة .

وفي سيرته الذاتية تفصيل لهذه الحياة التي بدأت منذ مولده إلى ما قبل رحيله إلى العالم الآخر ولقاء ربه . إنه يقدم حياة رجل ينظر إلى الحياة نظرة عاقلة ؛ تركز على جوهر الحياة وليس على زخرفها وشكلها الخارجي ، ليس انطلاقا من موقف شخصي ، ولكن من منطلق إيماني مشبع بروح العقيدة التي ترى الحياة الدنيا متاع الغرور!

وقد أتيح لي أن أرى الرجل بعيدا عن بنجالاديش مرتين الأولي في الرياض مع رهط من أبناء دار العلوم في لكنهؤ ، والأخرى في استانبول حيث كان هناك مؤتمر للأدب الإسلامي. وفي كل الأحوال سعدت بالرجل وأفكاره وآرائه .

وقبل تناول منهج أبي الحسن الندوي في كتابة سيرته الذاتية ، نتوقف قليلا حول مفهوم السيرة الذاتية وخصائصها لنرى إلى أي مدى كان توفيقه في تقديم ترجمة حياته وعرض تفاصيلها .

- 2 -

ينصرف مصطلح السيرة الذاتية لدى العامة في زماننا إلى البيانات التي يقدمها طالب العمل في إحدى الوزرارات أو المؤسسات أو الشركات ويكتبها في صفحة أو صفحتين يوضح فيهما البيانات الأولية من حيث الاسم كاملا وجهة الميلاد وتاريخه وعنوانه ورقم هاتفه ونحو ذلك ، ويضيف إليها شهاداته العلمية وخبراته وتخصصه العام وتخصصه الدقيق والشهادات التي حصل عليها والدورات التي حصل عليها وجهات العمل السابقة بالإضافة إلى ما يعزز ارتباطة بالوظيفة التي يبغي الحصول عليها .

ولكن مفهوم السيرة الذاتية في الأدب يختلف عن ذلك وإن كانت تتضمن بالضرورة البيانات التي يقدمها طالب الوظيفة في سياقها الأدبي والسردي . ولعل مصطلح الترجمة الذاتية في الأدب أقرب إلى الدقة وإن كان غير شائع ، وقد جعله " يحيى عبد الدايم " عنوانا لرسالته العلمية حول فن السيرة الذاتية في الأدب ، وهي فيما أعلم أول رسالة علمية باللغة العربية في الموضوع وكانت بعنوان " الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ". وقد عالجت هذا الفن معالجة شاملة حتى وقت كتابتها ، وفسرت بصورة ما هامشية هذا الفن في الأدب العربي وعدم الاهتمام به بصورة تجعله في مركز الاهتمام الأدبي مع أنه سابق على وجوده في الآداب الأوربية .

وقدم "يحيى عبد الدايم" تعريفا للسيرة الذاتية يرى فيه أن تقوم على بناء فني كما يرى أن الترجمة الذاتية الفنية هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والروح وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيا كاملا عن تاريخه الشخصي , على نحو موجز حافل بالتجارب والخبرات المنوعة الخصبة . وهذا الأسلوب يقوم على جمال العرض وحسن التقسيم وعذوبة النص الادبي وحلاوته وبث الحياة والحركة في الواقع والشخصيات ، وفيما يتمثله من حوار مستعينا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة ، على ألايسترسل مع التخيل والتصور حتى لاينأى عن الترجمة الذاتية ؛ خاصة إذا كان يكتب الترجمة في قالب روائي (1) .

الخيال في سيرة الندوي لا محل له ، لأنه لم يحتشد للقالب الروائي ، ولكنه احتشد للسرد من خلال وقائع حياتية موثوقة تمضي على تسلسل زمني متتابع . ولذا فكلام عبد الدايم عن الخيال القليل يقصد به من يصوغ سيرته على هيئة رواية فنية كما نرى عند بعض الأدباء الذين آثروا أن يقدموا أحداث حياقم من خلال شخصيات روائية متخيلة وأسماء مستعارة أو مجهلة ليتفادوا الحرج في سرد بعض الوقائع والأحداث . والندوي ليس لديه ما يتحرج منه في سرد حياته الواقعية المباشرة.

ويلاحظ أن اهتمام العرب بالسيرة النبوية كان من وراء عدم الاهتمام بفن السيرة الذاتية في مرحلة صدر الإسلام , إلى أن تم تدوينها فلم يجد الكتاب بعد ذلك حرجا في كتابتها .

ولعل رحلة الإمام الشافعي أول سيرة ذاتية عربية . وقد اهتمت طوائف الفلاسفة والعلماء العرب القدامى بالحديث عن حياقم الفلسفية أوالعلمية وما ألفوا وما خلفوا من مصنفات ، وقلما وقف شخص منهم عند طفولته أو نشأته أو المؤثرات الخارجية التي وقعت عليه أو أثرت في حياته – لذا فهذه التراجم فقيرة من حيث المادة النفسية والاجتماعية . كما اهتم المتصوفة بتجاربهم الروحية وكأنهم يريدون جذب الناس إلى طريقهم وما فيه من مواجد ومشاعر ومقامات ومشاهدات ؛ وقلما اعترفوا بأخطائهم أو تحدثوا عن خصائصهم.(2) .

ويوجد في كتاب " عيون الأنباء في طبقات الأطباء " لابن أبي أصيبعة ترجمات ذاتية لعدد من الأعلام القدامى منهم حنين ابن إسحق ومحمد بن زكريا الرازي وابن الهيثم وابن سينا وابن رضوان وعبد اللطيف البغدادي (3) .

وهناك في تراثنا القديم تراجم لأبي حيان التوحيدي وابن حزم وعلى بن زيد البيهقي والعماد الأصبهاني وابن الجوزي وأبوشامة المقدسي ..

وفي هذا التراث أيضا ترجمات شهيرة للغزالي وابن الفارض وابن عربي والشعراني ، وقد كثرت التراجم بعد القرن السابع الهجري كما نرى في ترجمات الجزري والسخاوي والسيوطي الذين ترجموا لأنفسهم في كتب ترجموا فيها لغيرهم .

بيد أن أهم الترجمات التى تدخل في النشاط السياسي والاجتماعي ما كتبه أسامة بن منقذ (488-584هـ) في كتابه الاعتبار ، وابن خلدون (732- 808 هـ) في كتابه التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا (4) .

في العصر الحديث ظهرت السيرة الذاتية في الأدب العربي متأثرة بصور متباينة بكتابة السيرة الذاتية في الغرب (وبعضها يدخل في مجال الاعترافات مثل اعترافات جان جاك روسو ، ومن قبله القديس أوغسطين، أو المذكرات مثل مذكرات مدام موتفيل ومذكرات الكاردينال ريتزوكلاهما في القرن السابع عشر الميلادي) ، فرأينا سيرا ذاتية للعديد من الأدباء والمفكرين والمشاهير منهم : على مبارك ومحمد كرد على والعقاد وطه حسين والمازني وتوفيق الحكيم وإلياس فرحات وأحمد أمين وميخائيل نعيمة ومصطفى الديواني وشوقي ضيف ومحمد عبد المنعم خفاجي ...

- 3 -

ويعد فن السيرة من الفنون القصصية التي تجمع بين التأريخ والأدب عرفه العرب منذ القدم وهو أحد أهم المصادر التي أمدت القصص الفني بتقنيات السرد , ويقوم الأديب أو كاتب السيرة الذاتية بسرد ما يتعلق بسيرة حياته أو جانب منها ملتزما بواقعه. فالأديب يدون مآثره الأدبية والعالم يكتب عن علمه ونظرياته والمفكر يعرض لآرائه وأفكاره ، وفي كل الأحوال فكاتب السيرة وخاصة إذا كان أديبا أو داعية أو مجاهدا يقدم لنا كثيرا من

جوانب حياته الشخصية مما يضفي نوعا من التشويق والحيوية والدفء على كتابته ويجعلها أقرب إلى الرواية وعالمها الشائق المثير .

ويشير بعض الكتاب إلى أن السيرة الذاتية تبلغ أوج الحميمية والصدق إن هي أتت على ذكر التفاصيل الشخصية والخاصة والتجارب اليومية لكاتبها وما مر به في طفولته وشبابه وهي تستمد قوتها من كونها شهادة ورصد لحياة هذا الإنسان بغض النظر عن أهميته ومركزه ومكانته فكل حياة صالحة لتروى إن كانت صادقة ومعبرا عنها بطريقة فنية ممتعة وشائقة (5).

وتتضح هذه العناصر في السيرة الذاتية لأبي الحسن الندوي ، فقد تناول تفاصيل حياته الخاصة وما مر به من تجارب إنسانية وحيوية ، وصاغها بصورة شائقة محببة ، تحض على متابعتها مع طولها وضخامتها حتى في جزئها الثالث والأخير الذي يبدو تقريرا عن مؤتمرات ومحاضرات ولقاءات .

وبصفة عامة فالسيرة الذاتية تستمد جمالها من روح كاتبها وقدرته على بنائها في صورة سردية تقرب بها من الأداء الروائي الشائق .

ولأن السيرة فن أدبي يجمع بين القصة والتاريخ , ويتناول – عادة - شخصية من الشخصيات البارزة والكشف عن عناصر العظمة فيها ، فهي عملية تحليلية لعناصر الشخصية المترجم لها ، ومن خلال هذا التحليل ، تبرز القيم الإنسانية التي تنطوي عليها الشخصية ، وتشترك السيرة الذاتية مع السيرة العامة في عدد من الخصائص التالية :

1 – أنها سرد نثري .

2- تحرص على التسلسل الزمني .

3 – تعتمد على انتقاء مواقف حياة فيها دلالة وعبرة ويصرح الكاتب بشكل مباشر أو غير مباشر أنها سيرة ذاتية .

4- تعرض بطريقة مؤثرة .

5- في السيرة الروائية روح من الخيال لا يخل بالتاريخ ، ويضفي على الأسلوب حيوية وإثارة وتشويقا (6) .

وقد كتب أبو الحسن على الحسني الندوي سيرته الذاتية في كتاب من ثلاثة أجزاء تحت عنوان " في مسيرة الحياة " باللغة الأوردية وترجمها السيد سليمان الحسيني الندوي إلى العربية ، وراجعها الندوي بنفسه ، مع بعض التعديلات التي أدخلها على النص العربي بالحذف والإضافة والتهذيب والتنقيح . وقد نشرت الأجزاء الثلاثة بمعرفة دار القلم بدمشق . نشر الجزء الأول عام 1407 هـ = 1987م ،والجزء الثاني عام 1410هـ = 1990م ، والجزء الثالث عام 1418 هـ = 1998 م .

- 4 -

كان الندوي قبل أن يكتب سيرته الذاتية على وعي بما كتبه السابقون ، فهو يشير إلى سير ذاتية سابقة كتبها علماء دين من مشايخه وأساتذته منهم :

1 – شيخ الإسلام السيد أحمد حسن المدني – ألف كتابه " نقش حياة " بدأه بقصة حياته وأنهاها عند صفحة 130 ، ثم بدأ يكتب قصة جهاد التحرير الذي شارك فيه بجهد كبير شيخه ومرشده شيخ الهند محمود حسن الدينوي .

2 – شيخ الحديث محمد زكريا الكاندهلوي – صاحب أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك – ألف حياته في سبعة مجلدات لم تقتصر على حياته فقط ، بل تناولت عهده وبيئته والنظام التعليمي الديني في عصره ، وخصائصه ومزاياه وقصصا من حياة خريجي هذا النظام والقائمين عليه وطبيعتهم ودورهم ومنهجهم .

3 – الأديب الكبير الشيخ عبد الماجد الدربا بادي – صاحب تفسير القرآن بالأردية والإنكليزية – الذي ألف في حياته كتابا في أسلوبه الفريد الخاص ، فهو يثير العظة والاعتبار، ويعلم الأدب والسلوك، وهو تسجيل ناطق مؤثر لعهد طفولته وشبابه وكهولته .

هذه السير الثلاث كانت حافزة للندوي على كتابة سيرته ومدعمة له ، وجعلت عمله " بدعة حسنة " وليس " بدعة محدثة " (7) .

وكأن الندوي كان يستشعر حرج بعض الجهات من كتابة السيرة الذاتية ، فأشار إلى ماكتبه السابقون ليكون حجة على هذه الجهات التي يمنعها الورع من كتابة السيرة الذاتية بما يمكن أن يكون فيها من تناول لأشخاص وأحداث يفضل عدم الإشارة إليها.

ولعل هذا أيضا ما جعل الشيخ على الطنطاوي يشيرفي تقديمة لسيرة الندوي إلى ما كتبه أحمد أمين وطه حسين ومحمد كرد على من سير ذاتية ، ومميزات كل سيرة وتركيز كل منها على جانب معين موضوعي أو فني ، بينما تحدث الندوي عن أصله وبلده ودراسته وأصحابه وتلامذته (8) .

ويضعنا أبو الحسن الندوي في الأجواء التي كتب فيها سيرته فيشير إلى أنه لم يواجه في بدء أي تأليف على كثرة ما ألف – هذا الصراع العقلي والتردد النفسي الذي واجهه في بدء هذا المؤلف عن حياته ، وقصة ماضيه ، ومضت أعوام وسنون ، وهو يتهيب الخوض في هذا الموضوع ولا يجرؤ على الكتابة فيه (9) .

ويضع أسبابا لذلك : منها تواضعه واستصغار نفسه في مجال التنويه عنها ، انطلاقا من الكلمة المأثورة " ما هلك امرؤ عرف قدره " فلم يكن يوما سياسيا بارزا ، ولا قائدا محنكا، ولا صاحب شهرة وجاه عريض ..

ثم إنه يخشى من الزلات والهفوات في الغرور وسرد قصص رفقته وزملائه ومعاصريه ، كما يخشى الإساءة إلى الأصدقاء والزملاء وتجريح شعورهم بعدم توفية حقوقهم ، أو المغالاة في مدحهم (10) .

هذا التواضع الكريم من جانب الشيخ أبي الحسن يؤكده الشيخ على الطنطاوي في تقديمه للسيرة ويحسبه لصالحه ، ويضعه ضمن أعلام العصر وكبار دعاته من أمثال : حسن البنا ، سيد قطب ، البشير الإبراهيمي ، أبو الأعلى المودودي ، محب الدين الخطيب ، الخضر حسين ، محمد محمود الصواف، سعيد النورسي، علال الفاسي .. ويصف الندوي بأنه عالم من نسل علماء ، ويشير إلى أسرة أبي الحسن الندوي : أبوه عالم طبيب ، مؤلف، وأخوه لأبيه عالم طبيب ، وأخته مؤلفه ولها ترجمة " رياض الصالحين إلى الأردو بعنوان زاد سفر ، وأخته الأخرى عالمة ، وهي أم لعلماء ، كلهم اسمه محمد : منهم محمد الرابع ، ومحمد الخامس . ووالد أبي الحسن مؤرخ الهند حية ، وأمه سيدة فاضلة ، كاتبة وشاعرة ، صاحبة مؤلفات .ويشير إلى أن تاريخنا العربي الإسلامي عرف أسرا توارث أبناؤها العلم كأسرة آل قدامة ، ومنهم مؤلف كتاب " المغني " أعظم كتب الفقه الإسلامي ، وابن أخيه صاحب " الشرح

الكبير "، والحافظ صاحب " المختارة " أصح كتب الزوائد على الصحيحين ، وهناك أسرة المهلب وأسرة جرير في الشعر ، وأسرة الوزراء " وهب " وأولاده ، وأسرة المهلب الذي تسلسلت البطولة في نسله أربعة بطون ، وأسرة قتيبة بن مسلم ، . وفي التاريخ الحديث أسرة محمد بن عبد الوهاب ، وولي الله الدهلوي في العلم .. (11) .

ويبدو أن الندوي وجد ما يشجعه على كتابة السيرة ، في ظل فترة نقاهة وإجازة قضاها بعيدا عن مكتبته ومصادره ومراجعه ، ورأى أن هذه المناسبة ملائمة لكتابة سيرته الذاتية وملء الفراغ الذي يعانيه دون قراءة وكتابة أو حسب تعبيره :

" ليس أشد وأشق وأجهد على من بقائي عاطلا ، لا شغل لي من كتابة أو مطالعة ، فهو نوع عذاب وعقاب " (12) .

-5-

ويمكن القول إن منهج أبي الحسن في كتابة السيرة الذاتية ، يتطابق إلى حد كبير مع ما استنتجه نقاد السيرة الذاتية ودارسوها فهي سرد نثري طعّمه الندوي باستشهادات شعرية في مواضعها المناسبة ، وحرص أن تمضي مع التسلسل الزمني الذي يبدأ منذ مولده حتى الانتهاء من كتابة السيرة (عام 1993م) قبيل رحيله . ورصد عبر صفحاتها معظم مواقف حياته وخاصة تلك التي تحمل دلالة وعبرة كما أنه صرح بشكل مباشر أنه يكتب سيرته الذاتية ، وقد عرضها بصورة مؤثرة من خلال لحظات إنسانية مفعمة بالحياة والأمل والصبر .

ولعل العنصر الوحيد الذي لم يلجأ إليه الندوي في سيرته هو الخيال لأنه لم يكتبها من خلال القالب الروائي وآثر السرد الواقعي المباشر وحقق مع ذلك الإثارة والتشويق حتى الجزء الثالث الذي خصصه للقاءات والمؤتمرات والأحداث العامة ؛ كان حافلا بالقضايا التي تثير الاهتمام والمتابعة .

ويمكن حصر الخطوات التي انتهجها الندوي في كتابة سيرته فيما يلي :

أولا : يرى أنه لا يتوقع من إنسان حيّ واع ، يملك ضميرا حيا ، وشعورا يقظا أن يغمض عينه حين الحديث عن قصة حياته عن أحداث البيئة وظروفها وأوضاعها ، والحركات والجماعات التي عاشها ، والحوادث والوقائع التي احتك بها ، لا سيما إذا كان المؤلف له صلة

بالدين الحي الخالد والأمة الحية .. هذا المؤلف لا يستطيع أن يجرد القلم عن القلب والعواطف والحوادث ، وأحداث العالم عن قصة الحياة الشخصية وأحداثها ، ويحكي قصته في تجرد تام وحياء كامل. (في السكوت سلامة ، وفي الكلام ندامة) (13).

وبالفعل فقد تناول كثيرا من الأحداث والوقائع والشخصيات والحركات التي ارتبطت بحياته أو شاهدها أو كان طرفا فيها ، وواجهها بمنظور إسلامي ؛ فكتب عن أسرته ووطنه وبيئته وعهد الطفولة وعالم الكتب وحركة الخلافة في الهند ووفاة والده وأساتذته وتحصيله للغات العربية والفارسية والإنجليزية بجانب الأردية ، كما أشار إلى رحلاته داخل الهند وخارجها وعمله بالتدريس وانشغاله بالتأليف ، وتحدث عن الاضطرابات الطائفية في المنطقة الصناعية ، والمؤتمرات ، ومحنة المسلمين في الهند بسبب قوانين الأحوال الشخصية والاضطراب الطائفي الرهيب في ميرت ، وموقفه من معتقدات الفرقة الاثنى عشرية ، وحادثة استشهاد الرئيس محمد ضياء الحق ، وتصاعد نشاط الحركات الطائفية ، ومأساة الوطن العربي ، وقضية المسجد البابري ، واستقبال إمام المسجد الأقصى في دار العلوم بلكنهؤ ، والاضطرابات الدموية في بومباي والخسائر الهائلة في الأرواح والممتلكات (14).

ثانيا : يعتقد الندوي أنه يقوم بنوع من العبادة حين يكتب سيرته وذلك من خلال " التأمل في صنع الله تعالي بعبده الضعيف " .ويتذكر قول الله تعالى:

" سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ " (السجدة : 53) . ، فيرى تفسيره في حياته.

وفي هذا الإطار العبادي فإن حياته التي يسجلها في سيرته تبدو وقفا إسلاميا لخدمة الدين والعقيدة ، كل فعل فيها مسخر لإرضاء ربه ونبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد شارك الندوي في عديد من المشروعات التي تخدم الدين والعقيدة ، فإضافة إلى مؤلفاته الكثيرة التي تدافع عن الإسلام وتحض المسلمين على اليقظة والوحدة والأخذ بأسباب القوة والعلم والتضامن والتقدم .

لقد عرّف بكبار الدعاة الى الله من أمثال السيد أحمد الشهيد والشيخ الداعية محمد إلياس الكاندهلوي وحركته الدعوية ومشاركته فيها والنشاطات " الدعوية " و التبليغية ، وكتب

عن مجالس الشيخ الجليل التهانوي ، وقدم شعر إقبال ، ووضع المقررات الدراسية في دار العلوم ندوة العلماء ، ووضع كتبا جديدة في اللغة العربية والأدب العربي وقواعد العربية . ثم إنه أعد سلسلة الكتابات الدعوية في اللغة العربية ، وألقى محاضرات في جامعة دمشق وكشمير وأكسفورد، وأسس حركة رسالة الإنسانية ، وشارك في تأسيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، ورابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، ورابطة الأدب الإسلامي العالمية ، وأصدر جريدة " ندائي ملت " ، ومشروعات أخرى تصب كلها في خدمة الإسلام والمسلمين وتدافع عن العقيدة والشريعة تقربا لرب العالمين ، وفي الوقت نفسه تنهض نموذجا لمن يعبد ربه ويتقرب إليه بالأعمال الصالحة ويشكر نعمه التي لا تعد ولا تحصى (15).

ثالثا : يؤمن الندوي أن السيرة الذاتية تقدم أحيانا ما لا تقدمه كتب التاريخ المتخصصة من معلومات وبيانات ومفاهيم تغيب في غمرة البحث التاريخي الأكاديمي وخاصة ما يرتبط بالمشاعر والأحاسيس والقيم ، ويفسر الندوي ذلك قائلا :

" هناك كثير من المواضيع والأحداث والوقائع والمؤسسات والحركات والشخصيات والجماعات ، وتصوير البيئة والأعراف ، ونظام التربية السائد في البيوتات ، ولا يتيسر الحديث عنها إلا في تضاعيف قصة حياتي ومذكرات رحلة عمري ، فإننا لو ألقينا الضوء على كل واحد منها بصورة منفردة مستلة لاحتاج ذلك إلى مجلدات مفردة ، زد إلى ذلك المسئوليات والالتزامات التأليفية ، التي قد تحول دون تناول كثير من الحقائق ولباب الحديث الذي يسهل إيراده في قصة الحياة الشخصية في غير ما تكلف واهتمام .

وقد يعثر المؤرخ والمؤلف في السيرة الذاتية على تلك المواد المفيدة الضرورية ، التي لا يجدها في كتب التاريخ العرفي التقليدي ، وحياة العباقرة الجليلة المليئة بالبطولات (16).

ولعله أراد من خلال بيان رأيه هذا أن يرد على من تصور أنه يضيع وقته سدى في كتابة السيرة الذاتية ، فيكشف عن أهمية ما يعرض له من أحداث ليبعث الهمة والعزيمة في نفوس أمته ووطنه " كان من الممكن أن يكبح عنان المؤلف الشعور بأنه يقدم على ارتكاب " بدعة تأليفية " وأن الوقت الذي كان ينفقه في التأليف عن حياة المصلحين والمجددين وعباد الله الصالحين ، وإبراز مآثرهم وجلائل أعمالهم ، بدأ ينفقه في إطراء نفسه والتنويه

بشخصه ، ويضيع بذلك ساعات العمر ، ويهيئ أسباب فضيحته ومعايبه ، وإن كانت قد صدرت كتب ذات قيمة أدبية وتاريخية في هذا الموضوع بأقلام الكتاب والأدباء العرب المعروفين ، يحتل فيها كتاب مؤلف سلسلة " فجر الإسلام " و"ضحى الإسلام " و" ظهر الإسلام " الدكتور أحمد أمين بعنوان " حياتي "، مكان الصدارة والرجحان ، الذي لا يتناول أحداث حياته وقصتها فحسب ، بل يصور مجتمع عصره ومدنيته ، ونظام التعليم والتربية فيه وحياة مصر كلها في عهده ، ولكنه لم يكن يقنع المؤلف — الذي عاش في البيئة الدينية الهندية — ويبعث فيه الهمة والعزيمة ، وجود هذه الأمثلة " (17) .

لا ريب أن الندوي يدرك ما وراء فن السيرة الذاتية وكتابتها من عرض النموذج القدوة الذي يجذب القراء ويؤثر فيهم ويحركهم نحو المثل الأعلى - ولله المثل الأعلى — فهناك دروس وتجارب ووقائع قد يكون لها نظير في المجتمع والبيئة ، وقد يتوقع حدوثها وهو ما يغني التجربة الإنسانية ويثريها ويهيئها للتفاعل الإيجابي وإفادة المجتمع الإسلامي ومن يعيشون فيه .

ولعل هذا ما جعل الشيخ على الطنطاوي يرى في سيرة الندوي كتاب تاريخ ، وكتاب أدب ، وكتاب علم ، وسجلا اجتماعيا . فيه وصف عادات الناس وأوضاعهم في الهند " وكان مما قرأت عن المكان الذي نشأ فيه أنه بني على طراز الكعبة لطولها وعرضها ، إلا إنه نقص من ارتفاعها عدة أنامل تأدبا معها واحتراما لها ، وسقيت قواعده بماء زمزم " (18).

ثم إن القارئ يعلم عن الكاتب من سيرته ما قد يغيب عمن يترجم له من المؤلفين والباحثين ، وخاصة ما يتعلق بالأمور الدقيقة والمفارقات التي تحدث في حياة الكاتب ولا تجد طريقها للنشر ، ومنها على سبيل المثال قصة مهمة ذات دلالة في طفولته عن حبه للكتب ، حيث كان في السادسة من عمره وتوفر معه قرشان فغدا إلى سوق أمين أباد ودخل إحدى الصيدليات ودفع النقود للصيدلي وطلب كتابا . وتفطن الرجل أن الطفل ساذج بريء من أسرة كريمة ، فأعطاه فهرس الأدوية بالأردية وردّ معه النقود ، فعاد فرحا مسرورا ، وزين مكتبته الصغيرة بهذا الكتاب مع كتب ورسائل كان والده يستغني عنها ويتركها (19) ، ومنها أيضا أنه كان يحب الورود أيضا مثلما يحب الكتب . ومنها كذلك ما يتعلق بحركة الخلافة وتأثيرها على الهند ومثقفيها ، وكانت لكنهؤ تستقبل الزعماء :

الشيخ عبد الباري الفرنجي محلي ، وغاندي ، ومحمد على وشوكت علي ، وأناشيد الخلافة يُغنّي بها في كل مناسبة ، وأن الإنجليز قد انتهى حكمهم بعد إعلان المقاطعة لبضائع الإنجليز، ويلي ذلك حديث مستفيض عن إلغاء الخلافة على يد اللورد كرزن ، وإعلان استقلال تركيا العلمانية (20) .

رابعا . موضوعية التناول خطوة أساسية في منهج كتابة السيرة عند الندوي ، والموضوعية تعني الصدق والالتزام بالحقائق وذكر ما يعرفه دون زيادة أو نقصان ، فالرجل ينتسب إلى أسرة عريقة ذات أرومة عربية ، ويضع الشيخ على الطنطاوي أسرة أبي الحسن ضمن العرب الأقحاح الذين عرفوا بألقاب فارسية وأعجمية مثل : التبريزي ، الشيرازي ، القزويني ، الجرجاني ، الهمداني ، الرازي ، الطبري ، الشهرستاني ، النيّسابوري ، الإسفراييني ، الأصفهاني ...(21) ، ومع ذلك فإن الندوي يشير إلى أنه نبغ في الأسرة أعلام في مختلف العلوم والآداب ، ولكنه لا يجعل ذلك سبيلا إلى إضفاء نوع من الحصانة على أسرته فيذكر أنه لا تستثني أسرة من الأسر البشرية من قانون الازدهار والسقوط ، ويستشهد على ذلك بآيات القرآن الكريم "وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى " (النجم : 39-40)، " ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به " (النساء : 123) ويقول تعالى : " انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض .." (الاسراء : 21) . وفي السياق الموضوعي يؤكد أنه تبقى دائما خصائص وميزات متوارثة للأسرة الحسنية في مقدمتها التمسك بعقيدة التوحيد الخالص ، والبعد عن الشركيات ، والبدع والمحدثات ؛ مصونة من تأثير العقائد الشيعية ، فقد تشيع عدد كبير من الأسر الأرستقراطية – كما يذكر الندوي – لرغبتها في الإقطاعات التي تقطعها الأسرة الشيعية الحاكمة في الولاية الشمالية ، أو بتأثير المصاهرة — وقد حفظ الله الأسرة الحسنية الطيبة من هذه المساومة .

ويستشهد في موضوعية بقول الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدي المساويا(22) .

ثم إنه يفسر بعض المواقف التي لا تتعارض مع الوطنية مثل موقفه في عام 1929 حين تسلم شهادة التخرج من حاكم إنجليزي للولاية السير مالكولم هيلي وكانت صدمة له .

ولكن – كما يقول الندوي – ينبغي أن يحكم على كل شيء باعتبار المكان والزمان ، ويوزن بميزان عصره وبيئته . فلم يكن ذلك معيبا في تلك البيئة وذلك العصر (23) .

ومن معالم موضوعيته أنه يتحدث عن والده وزواجه الثاني من والدته السيدة خير النساء بنت السيد ضياء النبي ، معلم الوالد وأستاذه ، وذلك بعد وفاة زوجه الأولى عام 1901م ، ويذكر أن السيد ضياء النبي قد تهلل عندما عرف برغبته في خطبتها مع أنه من بيت فقير. وفضله على أحد أقاربه الأغنياء الذي كان تقدم لخطبتها (24) ، وكانت هناك رؤى وبشارات حتى تم الزواج عام 1904. وولدت أخته الكبرى السيدة أمة العزيز عام 1906 وأخوته الأعزة الفضلاء ,كما يشير إلى سيرة جده السيد فخر الدين بن عبد العلي الحسني . ثم كانت ولادته عام 1914 بعد ولادة أخته الثانية أمة الله عائشة عام 1907م ، كما يرصد عهد الطفولة في" تكية "وبعض الأحداث والشخصيات ومنها الفيضان الهائل عام 1915. ويعتز بشخصية خاله الشفوق السيد عبد الله . واتساقا مع منهجه في الموضوعية والتزام الصدق الإشارة إلى بعض الخصومات في الأسرة وهو في مرحلة الصبا والقضاء عليها بجهود والده(25) .

خامسا : مراعاة الإيجاز والإطناب ، كل في موضعه ، وهذا ما طبقه الندوي في كتابة السيرة من خلال صياغة ناعمة دقيقة تتحرى المعاني المقصودة دون غموض أو إبهام ودون ثرثرة غير مفيدة أو إيجاز يخل بالمعنى . ويفسر الندوي ما يراه القراء من إطالة وإطناب أحيانا بالفرق الطبيعي بين كتب التاريخ والتراجم ، وكتب الحياة الشخصية . فالمؤلف في كتب التاريخ والتراجم يكون ممثلا عن تلك الشخصيات التي يكتب عنها ومحاميا لها ومدافعا عنها ومتقيدا بكثير من الالتزامات فيها ، ويكون هو حرا طليقا في الكتابة عن نفسه ، وممثلا لذاته ، ومتحدثا عنها ، فلا يصح – إذن – أن تقاس محتويات كتب الحياة الشخصية بمقياس الاتزان والتناسب الدقيق الذي تقاس به محتويات كتب التاريخ والتراجم ، فالواجب أن يسمح للمؤلف عن نفسه أن يستخدم الإيجاز أوالاطناب والإجمال أو التفصيل ، حسب وجهة نظره ، وحسب انطباعاته في حياته واعتباره للأهمية والخطورة لشيء دون آخر ، وإلا فسوف ينعدم الفارق المطلوب بين الكتاب عن النفس والكتاب عن الغير (26) .

ويضرب مثلا حول الإيجاز والإطناب بوفرة المادة التاريخية عن الأسرة الحسنية القطبية الكريمة التي ينتسب إليها وتعرف بشرف أصلها وتنجب نوابغ في العلم والفضل والشخصيات المرموقة ، ويرى أن ذلك يكفيه مئونة الإطالة والإفاضة .. ويكتفي بنبذة ويحيل على الكتب الموسعة التي تتناول تراجم أعيانها من الكبار والعظام (27) .

وقد ضمن الندوي سيرته الذاتية عددا من الرسائل والوثائق التي تبادلها مع الرؤساء والملوك وغيرهم وردود بعضهم عليها ، وهي تحوي تناولا لقضايا مهمة على مستوى الهند والعالم العربي والمسلمين بصفة عامة (28) .

سادسا : يتكئ منهج الندوي على أن كتابة السيرة الذاتية مسألة مهمة للغاية إذ تبين للقارئ ملامح الصورة العقلية للكاتب وطريقة تفكيره ومراحل التطور التي مرت بها هذه الطريقة وتلك العقلية ، فضلا عن معرفة تاريخ الإنشاء والكتابة والتأليف في حياة الكاتب ، وأهم الأحداث والوقائع والحركات والدعوات في عهده ، وتتبع آرائه وأفكاره ومشاهداته وانطباعاته ، ودعوته ومنهجه بصورة مختصرة ، وعرض النقاط الأساسية الرئيسية من كتاباته ومؤلفاته وتقديم مقتطفات مهمة منها ، وهي منشورة مبعثرة في كثير من مقالاته ومحاضراته ومؤلفاته ، التي بلغت أكثر من مائة مؤلف ، ليس من اليسير أن يقف عليها من يريد الاطلاع على آرائه فيها في وقت واحد (29). وقد سجل الندوي في الجزء الثالث رسالة من أحد محبيه وهو الأستاذ سهيل أحمد – نزيل أميركا - يعرض فيها خلاصة جيدة لتجربة حياة الندوي وعصارة فكره ودراساته ، وذكر فيها ما جرى في أحد مجالس شيكاغو التي تحدث فيها الندوي وأعرب فيها عن آرائه وأفكاره ، وتشتمل على عرض سليم لأفكاره وتصوراته ودراساته ، وقد ختم الندوي بهذه الرسالة رحلاته الطويلة في القارات الثلاث . الرسالة مهمة وتتضمن وعيا بالواقع الخطير الذي يعيشه المسلمون في أتون المؤامرات الخارجية التي لا تتوقف، وهي رسالة مسهبة وفيها كثير من أفكار الندوي المهمة (30) .

ما سبق يوضح منهج الندوي في كتابة السيرة الذاتية في خطوطه العريضة ، ويجعل منها وثيقة حية وقوية تسجل حياة رجل نشأ في أسرة عريقة تتصل في نسبها إلى الإمام على بن أبي طالب — رضي الله عنه — وجاء أول أجدادها إلى الهند في القرن السابع الهجري .

وكانت كتابة هذه السيرة نموذجا تحتذيه الأجيال الجديدة من الباحثين والمحبين لأمتهم الإسلامية والمدافعين عن عقيدة الإسلام . لقد كتبها الندوي وهو في ظروف علاجات طبية أونقاهة صحية فرضت عليه كتابتها لتكون تذكيرا لنفسه أولا بنعم الله التي تستوجب الحمد والشكر ، والاعتبار بالحوادث والانتفاع بالدروس وتجارب الحياة ، وإشراك القراء ثانيا في استخراج النتائج الصحيحة من الحوادث الماضية والانتفاع بها ، والاعتبار من الأخطاء والعثرات فيبتعدون عنها . ومشاهدة آيات الله في الأنفس والآفاق ونعمه على عباده وخلقه فيتعرضون لها ويجربونها ويستجلبونها بالرجاء والدعاء ، والسعيد من وعظ بغيره ...(31) .

يقول الشيخ على الطنطاوي إننا — يقصد المسلمين - حكمنا الهند ألف عام ، وتاريخ الإسلام في الهند يعدل ربع التاريخ العام ، وخلفنا في الهند أضعاف ما خلفناه في الأندلس ، وفي كل شبر من الهند دم زكي أرقناه وحضارة خيرة وشيت بالعلم والعدل والمكرمات والبطولات والمعاهد والمدارس ،وهناك آثار تفوق بجمالها الحمراء ، وحسبكم " تاج محل " (32) .

وما قاله الطنطاوي كان ينبغي أن يضيف إليه أن الندوي وندوة العلماء في لكنهؤ بالهند جزء من هذه الحضارة الخيرة ، وأثر من آثارها ، رحم الله الندوي وألحقنا به مع الصالحين

***

الهوامش :

1- يحيى عبد الدايم ، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، د. ت ، ص10 .

2 - راجع : شوقي ضيف ،الترجمة الشخصية ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت ، ص5 وما بعدها .

3- انظر : السابق ، ص 12 — 32 .

4 - راجع : عبد العزيز شرف ، أدب السيرة الذاتية ، مكتبة لبنان ، بيروت — والشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان) ، الجيزة — مصر / 1993 ، ص 66- 68 .

5 - عبد الرحمن منيف . رحلة ضوء ، ط 2 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء ، 2003، ص .

6 - راجع : شهاني عبد الفتاح شاكر، السيرة الذاتية في الأدب العربي ، ص 15 ، 16 ، 33 ، عبد العزيز شرف ، أدب السيرة الذاتية ، ص6) .

7 - مسيرة حياة ، ج1 / 23 – 24 .

8 - السابق ،ج 1/ 6 .

9 - السابق ، ج 19/1 .

10 – نفسه ، ج 1/ 19 .

11 -- السابق ، ج 1/ 6 - 9 وما بعدها .

12 - مسيرة حياة ،ج 1/ 21 .

13 - مسيرة حياة ، 1/ 19 وما بعدها .

14 - تضم مسيرة حياة، بأجزائها الثلاثة هذه الأحداث وكثيرا غيرها .

15 - يمكن على سبيل المثال مراجعة مسيرة حياة – الجزء الأول ، فصول 6، 7 ، 9 ، 10 ، 14 ، 16 ، 22، 31.. .

16 - مسيرة حياة ، ج 1/ 22 – 23 .

17 - مسيرة حياة ، ج 1/ 24 .

18 - مسيرة حياة ، ج1/ 9 .

19 - مسيرة حياة ، ج1/ 57 .

20 - السابق ، ج 1/ 64 وما بعدها .

21 - السابق ، ج1/ 10 .

22 - راجع : مسيرة حياة ، ج34/1 وهامشها .

23 - السابق ، ج1/ 88 .

24 – السابق ، ج1 / 42.

25 - السابق ، ج1/ 33- 41.

26 - مسيرة حياة ، ج1/ 25 .

27 - السابق ، ج1/ 27 .

28 - انظر على سبيل المثال : رسالته إلى الملك فهد بن عبد العزيز ورد الأخير عليها ، مسيرة حياة، ج3/ 98 .

29 - راجع : مسيرة حياة ، ج 1 /25.

30 - مسيرة حياة ، ج277/3 وما بعدها .

31 - مسيرة حياة ، ج1/ 25 – 26 .

32 - انظر : السابق ، ج1/ 8 وما بعدها .

قواعد التزكية
من خلال فكر الاستاذ الندوي
قراءة في (ربانية لا رهبانية)

د. رمضان حمدون علي رمو
العراق / جامعة الموصل

فإن التزكية في الاسلام لها مساحة كبيرة ، وهي عنوان كبير فيه، أشاد بنيانها القران الكريم، ورسم معالمها النبي الامين عليه أفضل الصلاة والتسليم .

جاء في القران الكريم في سورة الشمس رمز اهمية التزكية اذا قرنت النفس بزكاتها او بدسائسها بما في الكون من مجرات وشموس واقمار فقال تعالى :(وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (1) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (2) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (4) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (5) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (6) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

فإذا زكت النفس كانت ذا شأن عظيم بعظم المجرات والكواكب ولها أثرها . واذا نكصت النفس كانت ذا خطر كبير لا يقل خطرها عن ثقل السموات والارض . ومن هنا كان العلماء يحرصون على بناء النفس البشرية على الكتاب والسنة . ومما برع في ذلك فضيلة الاستاذ ابي الحسن الندوي (رحمه الله) اذ كان له الباع الاكبر وحاز قصبات السبق في هذا المضمار في كتابه (ربانية لا رهبانية) اذ ترجم رحمه الله مفاهيم التزكية الاسلامية واثرها الايجابي على الفرد والامة . ولما تشرفت بالاشتراك في المؤتمر المؤتمر العالمى حول"موقف الشيخ الندوى من الأفكار المعاصرة (دارسة مقارنة)"عزمت على دراسة فكر الندوي بالتزكية من خلال رسائل الامام الندويلا سيما كتابه المشهور (ربانية لا رهبانية) وذلك باستخراج قواعد التزكية من فكره ثم قمت بشرح تلك القواعد من كلامهوكلام السادة العلماء مؤيدا بنصوص الكتاب والسنة. وكانت القواعد اثنتي عشرة قاعدة تيمنا بقوله تعالى :{فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا } [الأعراف: 160]، ليعم نفعها، والله من وراء القصد.

القاعدة الاولى

لن تقوم قائمة الامة حتى تكون الاجيال اللاحقة واعية للأجيال السابقة.[i]

والأصل لهذه القاعدة قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنبَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْلَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَاتَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ }[ii]

قال الرازي: (قيل: التابعون بإحسان وهم الذين يجيئ ونبعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة، وذكر تعالى أنهم يدعون لأنفسهم ولمنسبقهمبالإيمان،وهوقوله:

يقولون ربنا اغفرلنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولاتجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا).[iii]

وليس المراد من سياق الآية الكريمة مجردَ الدعاء لمن سبق ؛ وإن كان ذلك من متممات الاسلام بل عُد ذلك ركنا من اركان الصلاة (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)[iv]

وكذلك عُد ذكرا من ادعية صلاة الميت(ولمن سبقنا بالإيمان)[v] كل ذلك مطلوب ومقرر شرعا بل تلمح الآية الكريمة بما اشار الى ذلك الاستاذ الندوي (رحمه الله) انها تقتضي من الاجيال اللاحقة ان تكون :

1. منشرحة الصدر ومقدرة للأجيال السابقة.
2. لا تحمل لهم غلا ولا حقدا و لا يضيق لها صدرعن الاعتراف بالجميل والالحاح بالدعاء لهم في ما شرع من امكنة الدعاء لهم او خارج ذلك.

(i)ينظر : ربانية لا رهبانية، الامام ابو الحسن، علي الحسني الندوي ، (دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الاولى 2002م، ص: 5).

(ii)سورة الحشر، الاية: 10.

(iii)مفاتيح الغيب،التفسيرالكبير، أبوعبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب ، بفخرالدين الرازي ،خطيب الري (دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1420 هـ،29/ 509)

(iv) هذا الدعاء جزء من التشهد في الصلاة ينظر:صحيح البخاري،الامام أبوعبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بن بردزبه البخاري الجعفي (طبعة دارالطباعة العامرة باستانبول،1401 هـ - 1981 م، 1 /203) وينظر: صحيح مسلم، الجامع الصحيح، الإمام ابوالحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري (دارالفكر، بيروت، لبنان ، 2 / 13).

(v)عون المعبود شرح سنن أبي داود ، ابو الطيب محمدشمس الحق العظيم آبادي مع شرح الحافظ شمس الدين ابن قيم الجوزية(دارالكتب العلمية بيروت،لبنان، الطبعة الثانية 1415 هـ، 1995 م،20 / 153)

3. غض البصر عن زلاتهم والتي لا يخلو عنها بشر و لا يبرأ عنها مجتهد بل لنا ميزان شرعي لا يخرجهم عن مرتبة الاجرين او مرتبة الاجر الكامل.

4. أن تكون الاجيال اللاحقة ورعة في الحكم على سلف الامة .

ويلاحظ ان هذه المناحي هي شروط قومة الامة بعد حصول تزكية افرادها ومن سلبها لا قيمة لتزكيته كائنة ما كانت،وما نلمحه اليوم من تأخر الامة دينيا واقتصاديا و سياسيا واعلاميا..... .، كل ذلك لأنها سعت سذاجة وراء العقول المسمومة والافكار الخاطئة، او جرت وراء الاجراء التي يتقاضون وراء تشوهيهم تاريخ امتنا اجورا عظيما لكن هباء منثوراً امام كل مكن سولت له نفسه بالطعن في صالحي الامة وسفلها حملة الرسالة وحماة العقيدة.

فكل امة نسفت ماضيها لا حاضر لها،وكل أمة مجدت ماضيها(وان كان ضلالا) بسق حاضرها على جذور الماضي.

اقول هذا وانا اشاهد الان من حولنا انما قاموا على ماض لا قيمة له قياسا على مبعث الحضارات واسسها.

فهذا اليابان حضارتها مستمدة من بوذا، كيف حالها اليوم من اعراف اجتماعية وراحة بال في العلاقات التي يتمنى الواحد منا ان يكون واحدا منهم لولا العقيدة.

فلنقارن بين أعراف البوذيين وبين ما سطره الآف المصلحين في تاريخنا من امثال الفاروق عمر والحسين والحسن البصري والجيلاني والجنيد وابن تيمية وسعيد النورسي والبنا وغيرهم كثير .وما اصدق ماقاله الندوي مؤيدا لابن تيمية (كل خير يوجد لدى المسلمين انما بفضل الصحابة الكرام)قال الراشد تحت عنوان(اسلافنا المتحضرون اصحاب المنهجية والعقل المنفتح لست حين تفعل ذلك بالمبتدع لكنك تفخر بحضارة الاسلام من دون ان ترى ما حركها وتضرب سيطرة المسلمين الاوائل على حركة الحياة من دون ان تفطن الى انجازاتهم ومنهجيتهم الصحيحة التامة التي اذنت لهم ان يبسطوا سلطانهم)[i]

القاعدة الثانية

لا تؤتي الحقائق الشرعية مقاصدها حتى تحاط بمصطلحات توافقها شرعا[ii]

(i) منهجية التربية الدعوية ، محمد احمد الراشد ، (دار النشر للجامعات ، الطبعة الاولى سنة 2011م،1432هـ ، ص123)

(ii)ينظر : ربانية لا رهبانية، (ص: 7).

أمتنا اليوم داخلة في اتون حرب المصطلحات المؤدية الى تقسيمها فرقا وشيعا واشتاتا وتلكالمقولة: اذا اردت ان تغير فكر امة فغير لغتها هذه احدى مفاهيم الحرب الفكرية على المسلمين، وما يعيشه المسلمون اليوم من حياة الخطوط المتقاطعة انما سد ثغرة هذا بالرجوع الى المعين الاول والمنهج الذي كان عليه سلف الامة.

ثم لا شك ان القران الكريم ومثله السنة المطهرة خاطبا امة لها لغتها ولها فكرها ودرات الامة في فلك المصطلحات الشرعية التي رسمها القران والسنة ونسوا كل المعاني غير ما اقامها شرعهم، فلم يخطر ببالهم غير معنى الولاء والتمجيد والتعظيم والدفاع عنه لما سمعوا قوله تعالى (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)[i] متباين عنا فيما خضنا نحن نقاشا له اول وليس له اخر[ii]،وصدق المولى تعالى حين قال: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)[iii].

وجعل العلماء اول لبنة في اسس الاجتهاد معرفة اللغة العربية وضوابطها وسننها وجهوها تحت باب(صفات المجتهد)[iv].

واليوم لما اختلطت مفاهيمنا الشرعية بغيرها والفاظنا بالداخل من غيرنا ثم جئنا الى القران او السنة محاولين الاستنباط او العمل وجدنا حرجا عظيما ولد ذلك تمزقا كبيرا وخرقا عظيما بين ابناء الامة فتولدت معركة عظيمة فكانت الجناية على الحقائق الشرعية مصدرها اعتمادنا على الاسماء الشائعة بين الناس والثقافة الممزوجة بالغث والسمين والدخل، وما ذكرناه له الوان متعددة من النزاع بين اتباع المذاهب الفقهية والمدارس التربوية ومما عبر عنه الاستاذ الندوي (رحمه الله) تحت عنوان فراغ يجب ان يملأ مانصه:

(ومن هذه المصطلحات والاسماء العرفية " التصوف" ومن هنا ثارت اسئلة وبحوث وتساءل الناس ما مدلول الكلمة وما مأخذها هل من الصوف؟ او من الصفاء؟ او من الصفو؟ أو هي مأخوذة من الكلمة اليونانية صوفيا معناها الحكمة ومتى حدثت هذه الكلمة

(i) سورة الفتح الاية:9

(ii) ينظر: مختصرالمعاني،سعد الدين التفتازاني (دارالفكر، الطبعة الاولى 1411هـ ، 1 / 8)، وغيره كثير من الآف الحواشي التي ناقشت الملفوظ وتركت المعنى والمقصود .

(iii) سورة يوسف الاية:2

(iv) ينظر:حاشية العطارعلى شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، حسن بن محمد بن محمود العطار الشافعي(دارالكتب العلمية، 1/ 48)

و لم نعرف لها اثرا في الكتاب والسنة وما جاءت في كلام الصحابة (رضي الله عنهم) والتابعين لهم بإحسان وما عرفت في خير القرون وكل ما كان هذا شانه فإنه من البدعة المحدثة وقد حميت المعركة بين اصدقائه وخصومه والموافقين والمعارضين حتى تكونت بذلك مكتبة كبيرة يصعب استعراضها) [i].

وقال القرضاوي ((ومن المصطلحات الربانية هي الكلمة التي اختارها الشيخ ابو الحسن ليعبر بها عن التزكية التي عني بها القران الكريم وجعلها شعبة اساسية من مهمة الرسول (ﷺ) وعن مقام الاحسان الذي بينه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام بقوله:((أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك)) [ii] وذلك في كتابه القيم المعبر (ربانية لا ربانية) يريد به السلوك الخالص لوجه الله السالم من البدع ومن المبالغات المذمومة في الاعتقاد أو السلوك) [iii]

والكل يتفق على اهمية تطهير الباطن من درن الذنوب والمعاصي وباطن الاثم لكننا لا نستعمل هذا العلاج والغرض القرآني لكثرة التشويش عليه بحرب المصطلحات.

وهنا يأتي الاستاذ الندوي بالحل الامثل يقول ((كان الاجدر بنا أن نسمي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية ويدعو الى كمال الايمان والحصول على درجة الاحسان والتخلق بالأخلاق النبوية واتباع الرسول (ﷺ) في صفاته الباطنية وكيفياته الايمانية كان الاجدر بنا وبالمسلمين ان يسموه التزكية او الاحسان او فقه الباطن ولو فعلوا ذلك لانحسم الخلاف وزال الشقاق وتصالح الفريقان اللذان فرق بينهما المصطلح وباعد بينهما الاستعمال الشائع فالتزكية والاحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية ومفاهيم دينية ثابتة من الكتب والسنة يقر بها المسلمون جميعا ولو ترك المتصوفون الالحاح على منهاج عملي خاص للوصول الى هذه الغاية التي نعبر عنها بالتزكية او الاحسان او فقه الباطن فالمناهج تتغير وتتطور بحسب الزمان والمكان وطبائع الاجيال والظرف المحيطة بها والحوا على الغاية دون الوسائل لم يختلف في هذه القضية اثنان و لم ينتطح فيها عتزان وخضع الجميع وأقروا بوجود شعبة من الدين وركن

([i])ينظر : ربانية لا رهبانية، (ص: 7).

([ii])صحيح البخاري ، عن ابي هريرة (1/ 19).

([iii]) الشيخ ابو الحسن الندوي كما عرفته ، الدكتور يوسف القرضاوي (دار القلم – دمشق ، الطبعة الاولى1422ه- 2001 م ، 10)

من اركان الاسلام يحسن ان نعبر عنه بالتزكية او الاحسان او فقه الباطن وأقروا بانه روح الشريعة ولب لباب الدين وحاجة الحياة فلا كمال للدين ولا صلاح للحياة الاجتماعية ولا لذة بالمعنى الحقيقي في الحياة الفردية الا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة)[i]

وفي موضع ثان اشار الاستاذ الندوي (رحمه الله) نقلا عن النورسي تحت عنوان (معظم الحدودالمنطقية ضعيفة لا ثبات لها،انه لا يعترف بان الحدود تعاريف المنطقية كلها كاملة شاملة لا تحتمل ايما اعتراض او نقض)[ii]ونقل في الموضع اعلاه نص كلام النورسي في الرد على المنطقيين:(وصاروا يعظمون امر الحدود ويدعون انهم هم المحققون لذلك وانما مايذكره غيرهم من الحدود انما هي لفضية لا تفيد تعريف الماهية والحقيقة بخلاف حدودهم ويسلكون الطرق الصعبة الطويلة والعبارات المتكلفة الهائلة وليس لذلك فائدة الا تضيع الزمان واتعاب الاذان وكثرة الهذيان ودعوى التحقيق بالكذب والبهتان وشغل النفوس بما لا ينفعها بل قد يضلها عما لا بد لها منه واثبات الجهل الذي هو اصل النفاق في القلوب وان ادعوا انه اصل المعرفة والتحقيق)[iii]

القاعدة الثالثة

الازمة الروحية نتيجة انعدام التزكيةولا زوال للازمة الروحية الا بالتزكية النبوية[iv]

وبضدها تتمايز الاشياء ومعرفة احد الضدين معرفة بالضرورة بضده والقيام بالضد عملا وواقعا نفي للآخر سلوكا ومشاهدة؛ فاذا لم توجد الدعوة الى الله وجدت الدعوة الى غيره مهما كانت. واذا لم توجد الربانية وجد ضدها من اخلاق الشيطانية واذا لم توجد تزكية النفس من دخنها وجدت النفس قيامها على دخنها واذا لم يوجد صلة الظاهر سلوكا شرعيا قائما على الباطن الخاشع وجد آنذاك الظاهر المنفصل ((نفاقا)) عن الباطن المخفي الكفر((نفاقا)).

ويعبر الندوي(رحمه الله) بما مضى من محاور بـــ (انها مشكلة من ادق مشكلات المجتمع لا حل لها)[i]

(i) ربانية لا رهبانية ، ص10.

(ii) ربانية لا رهبانية ، ص10.

(iii) رجال الفكر والدعوة في الاسلام ، العلامة السيد ابو الحسن علي الحسني الندوي(دار ابن كثير ، الطبعة الرابعة 1430هـ-2009م ،628/2)

(iv) ينظر : ربانية لا رهبانية ، ص14، ورجال الفكر والدعوة في الاسلام ،628/2

فالهوس في اقتناء الموديلات من هوامش الكماليات (غير الشرعية) ادى الى الطمع والانانية، وحب المناصب ادى الى التكالب عليها والكذب والافتراء على الغير حتى تصفو له، وحب التعالي على الغير ادى الى غمط حقوق الاخرين... والتسامي عن كل ذلك، والمسلك الوحيد والعلاج الناجع هو (التزكية النبوية)[ii] والتي صدح بها القران الكريم مبينا فيه اجل وظيفة لنبينا وسيدنا محمد (ﷺ) بقوله تعالى: (ويزكيهم)[iii]ثم طالبنا بسلوكها بقوله ((وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ)) [iv]

وبمنظار الشيخ عبد السلام ياسين (رحمه الله) نجد اهمية التزكية في روابط العاملين في حقل الدعوة رجاء "إحياء الربانية" فقال:

(معاني السلوك والوصول والمعرفة. والرجل صادق في دعوته لالتزام وظيفة البناء، والمحافظة على الذكر رجاء "إحياء الربانية". ويقترح ترتيبا "لجمعية الربانيين" حتى تخرج الربانية من "عفويتها" ويستفيد منها الجيل الإسلامي الحاضِر الذي يصفه، وليست الربانية اجتهادا وتحصيلا وشهادات وإجازات، بل هي وهب إلهي وعطاء ومنة. وكيف تعرف العارفين بالله إن لم تكن واحدا منهم؟)[v]

القاعدة الرابعة

لا تزكية الا بطرقها الشرعية[vi]

لصحبة النبي (ﷺ) أثر كبير في حصول التزكية وتلك نعمة عظيمة لكن قدر الله، ونعم ما قدر ان تكون حظا مخصوصا به افراد وهم الصحابة رضي الله عنهم لكن (لما حرمت امة الاسلام هذه النعمة قام خلفاء النبوة واطباء هذه الامة في عصورهم بوصف عوض عنها واخيرا ركزوا جل عنايتهم لأسباب مختلفة على الصحبة وكثرة الذكر ولها طريقة مدونة منقحة تعرف بنظام التصوف والسلوك غير انه لا مساغ لإنكار أن الحصول على هذه

(i)ربانية لا رهبانية ، ص 14

(ii)ربانية لا رهبانية ، ص 15

(iii)سورة البقرة من الآية :129.

(iv)سورة ال عمران: 79 .

(v)كتاب الاحسان، عبد السلام ياسين ص 91.

(vi) ينظر: ربانية لا رهبانية ، ص 28 وما بعدها .

الغايات والمقاصد لا يتوقف على هذه الوسائل فان الايمان والاحتساب ومحاسبة النفس وتتبع السنة والاشتغال بكتب السنة والشمائل درسا وتدريسا وخدمة ونشرا مع الحب والاجلال وكثرة الصلاة على النبي وخدمة الخلق والجهاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة والتبليغ بصدق النية والاحتساب) [i]

ومجمل الطرق الشرعية للتزكية بعد حصول القاسم المشترك من اركان وعبادات الاسلام ترجع:

1- الصحبة المباركة الطيبة.

2- صحبة خلفاء النبوة من علماء ربانيين وصادقين الذين وصفوا بان حالهم يدل على الله تعالى ومقالهم يقود الى الله وحبهم ترياق مجرب.

3- من لم يتيسر له الاولى والثانية فله التأسي بما جاء في القران والسنة المطهرة من علاجات ناجعة لرعونات النفس وخبايا الروح او بالتلقي والتلمذة على منهج خلفاء النبوة بما ورثوا من مؤلفات وهذا مما ظهر جليا في حياة سعيد النورسي رحمه الله لما قرأ الفتح الرباني للشيخ الرباني عبد القادر(رحمه الله).

ويخطأ الحق ويبعد عن الصواب القول ان التزكية طرقها محصورة بالعبادات ، نعم بداية التزكية العبادات الصحيحة لكن قد توجد ولكن لا تزكية ما لم تنعكس على قلب المتعبد وسلوكه ومن هنا جاء التصحيح بمن ظن ان العبادة وحدها طريق التزكية ففي الحديث(جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبرواكأنهم تقالوها فقالوا أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبدا وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر أنا أعتزل النساء فلاأتزوج أبدا فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:(أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله أني لأخشاكم لله واتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) [ii]

(i)ينظر: ربانية لا رهبانية ، ص 28 وما بعدها .

(ii)صحيح البخاري(5/ 1949) وصحيح مسلم(4/ 129).

فلاحظ يرحمك الله تعالى: كيف أن تصور انحصار التزكية في التوغل في العبادة خطا بل وكبير للغاية، وادركِ الصحابة رضي الله عنهم ذلك فصدر منهم تصرفات فعلية او قولية جعلتهم يتبوؤون عرش التزكية وذرة سنام العزة .

القاعدة الخامسة

لا أثر للدعاة الا أن يكونوا بين تلاوة مصادر التعليم وحكمة التزكية[i]

بعد ذهاب الصدر الاول آلت السلطة الى الامراء وابناءهم وآل استنباط الاحكام الشرعية الى الفقهاء والعلماء وآل الزهد في الدنيا والتجافي عنهاالى الربط وحجرات العارفين، فحصرت تلك الامور فيما ذكر،وليت شعري لووقف الامر على ما هو عليه لكن ادى ذلك الانحسار الى تولي الضعفاء من ابناء السلاطين مناصب الامارة، وانصاف المتعلمين مناصب الاجتهاد والافتاء، والمتزينين بلباس الزهد _دون حقيقته_دفة ارشاد الناس![ii]، ففقدت الامة عزها في سلطتها، وحكمها الصحيح في نوازلها، واصبح طريق الحق من اكبر المشكلات.

فامس ما تحتاجه الامة اليوم الى ما اشار اليه الاستاذ الندوي (رحمه الله) :(وكان المسلمون في حاجة الى دعاة وشخصيات قوية جامعة تجمع بين تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة وتزكية النفوس وهكذا تخلف الرسول (ﷺ) في امته بعد انقطاع النبوة وتجدد صلتها بالله والرسول وتجدد الميثاق الذي دخلت فيه هذه الامة والمسلمون جميعا عن طريق الايمان والنطق بالشهادتين وما عاهدت به وبايعت الرسول (ﷺ) مع بعد الزمان والمكان من السمع والطاعة ومخالفة النفس والهوى والشيطان والتحاكم الى الله والرسول والكفر بالطاغوت والمجاهدة في سبيل الله فقد تغافل عن ذلك الخلفاء واقتصروا على الجباية والفتوح واخذ البيعة لأنفسهم واولادهم وعجز عن ذلك العلماء فاشتغلوا بالفتوى والوعظ والتدريس والعلم والتأليف واذا ارادوا ذلك لم يخضع لهم

(i)ربانية لا رهبانية ، ص 17.

(ii)اشارة الى الحديث الشريف المروي عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ:(سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِعِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا). صحيح البخاري (1/ 105)، صحيح مسلم (60/8).

العامة لانهم لا يرون فيهم الا النادر القليل الاخلاص والزهد واثر الخلافة النبوية وهكذا ضعف الشعور في العامة والسوقة والفلاحين والعملة حتى في كثير من الخاصة والمتعلمين بان الاسلام عهد وميثاق وبيع وشراء بين العبد وربه) [i]

ويضرب لنا الاستاذ الندوي مثالا عن فكر الغزالي تحت عنوان: (من الخلوة الى الجلوة)(وكان ممكنابل كات من المتوقع ان يبقى الغزالي في خلوته يتمتع بما هو فيه بما هو فيه من نعيم وذلة روحية وصفاء نفس ويقتصر على ما التزمه من عبادات واوراد واشغال بخاصة النفس و لم يلهم دراسة هذه العلومالكثيرة و لم يرق الاقتدار عليها ليكون متعبدا منطويا على نفسة معتزلا في بيته وكان الاسلام في حاجة الىمن ينتصر له من الفلسفة التي تجاسرت عليه وتسلطت على عقول الناس). [ii]

فنخلص من هذا أنه لا تزكية الا بمنهج علمي رصين ولا منهج علمي رصين الا بالتزكية ولا يؤتيان ثمرهما الا بتلاوة مصادر التعليم وبحكمة التزكية. وقد جاء في الأثر التعوذ بالله من علم لا ينفع.

القاعدة السادسة

لا أثر للمصلحين الا بتجردهم من الانانية والكبرياء[iii].

من القواطع بين المصلح الدعيةوغيره الانانية والكبرياء، ولا يمكن ابدا ان تتم عملية الاصلاح حتى يترع الداعية المسلم ثوبي الانانية والكبرياء

ومن هنا جاءت نصوص الشريعة متظافرة على ذلك،ففي سورة الفاتحة التي تمثل الخطوط العريضة في ابجديات الدين نلاحظ الضمائر المسندة الى الجماعة (نعبد ، نستعين ، اهدنا) واذا نظر الداعي الى مصلحة نفسه ناسيا هم الدعوة وأد دعوته في مهدها ومن هنا كان النبي (ﷺ) يغرس في امته ان الداعية الحامل لها لا بد ان يكون هو المضحي الاول :

فعن أنس رضي الله عنه قال: (كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس ولقد فزع أهل المدينة ليلة فخرجوا نحوالصوت فاستقبلهم النبي صلى الله

(i)ربانية لا رهبانية ، ص 17.

(ii) رجال الفكر والدعوة، الندوي، (241/1).

(iii)ربانية لا رهبانية ، ص 25.

عليه وسلم وقد استبرأ الخبر وهو على فرس لأبي طلحة عري وفي عنقه السيف وهويقول لم تراعوا لم تراعوا ثم قال وجدناه بحرا أوقال إنه لبحر)[i].

ورمز الندوي الى ذلك في كتابه رجال الفكر والدعوة في الاسلام فقال (حاجة الاديان الى الرجال الاحياء:والسر في ذلك أن الاديان لا تعيش ولا تزدهر ولا تعود الى نشاطها وشبابها بعد اضمحلالها وضعفها ولا تنسجم مع المجتمع المعاصر ولا تتلاءم مع روح العصر الا عن طريق الرجال النوابغ الذين يظهرون فيها حينا بعد حين) [ii].

وقال فيه في موضع آخر: (التواضع وهضم النفس : إن التواضع وهضم النفس من خصائص رجال الله الخاصة، وهو المنصب الاعلى في الدين، أفضل من الف فضيلة والف كرامة) [iii].

ويسوق امثلة عن شيخ الاسلام ابن تيميه رحمه الله منها:(يقول ابن القيم :(ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرا لم أشاهده من غيره وكان يقول كثيرا: مالي شيء ولامني شيء ولا في شيء وكان كثيرا مايتمثل بهذا البيت: أناالمكدى وابن المكدى وهكذا كان أبي وجدي وكان إذا أثني علَيه فيوجهه يقول : والله إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت وماأسلمت بعد إسلاما جيدا) [iv].

القاعدة السابعة

ليس الذوق كالتذوق[v]

ليس التكحل كالكحل

ليست الطهارة كالتطهر

(i) صحيح البخاري (7/ 393).

(ii) رجال الفكر والدعوة، الندوي، (1/51 وما بعدها).

(iii) المصدر السابق (1/572 وما بعدها).

(iv) المصدر السابق (1/572 وما بعدها)؛مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبوعبدالله، (دار الكتاب العربي،بيروت، الطبعة الثانية، 1393هـ ، 1973م تحقيق : محمدحامدالفقي، 1/ 524)

(v) ربانية ، الندوي ، /30.

فمن وقف عند الاسلام و لم يتجاوزه الى الاستسلام فليس يوصف بالمسلم ومن علم ابواب الطهارة وفنونها لا يعد متوضأ اذا لم يباشر آلية التطهير ولا يعد من حفظ انواع المياه واقسامه مزيلا للحدث

وليس من يوصف ذوق العسل وحلاوته كالذي تذوقه وشربه وارضية هذه القاعدة ما اشار اليه الغزالي رحمه الله في كتابه احياء علوم الدين وهجومه على العلماء الذين فهموا اقامة الدين بحفظ المتون ورسم الاحكام للأفتراض من النوازل[i]، وما جعل الشيخ الكيلاني مرتبة هؤلاء مرتبة قطاع الطريق غاية الامر انهم قطعوا طريق الوصول الى مولاهم الحق والاخرون قطعوا طريق الوصول الى الخلق فضرر الاول اشد فتكا' ولهذه المعاني السامية المح استاذنا الندوي رحمه الله متكا على قول المتنبي وليس التكحل في العينين كالكحل' فقال(والاحوال التي عاش فيها شيخ الاسلام ابن تيمية تشهد بانه كان متحليا باليقين والمشاهدة التي بعثت فيه صفة من الافتقار والاضطرار والعبودية والانابة وقد روي انه اذا اشكلة عليه مسألة او صعب فهم اية التجأ الى جامع في مكان موحش ووضع جبهته على التراب وردد قوله (يا معلم ابراهيم فهمني) [ii]

واذا لم يستلحق الصالحون فوات الامر فالعطل يصيبهم لا محالة فان تعطل الحاكمين ممهد لسيادة الفساق والظالمين بل انه يقرر ان تعطل الصالحين وقعودهم عن الجهاد وتوكلهم العجمي الذي لا يتفق وتعاليم الاسلام افضى الى سيادة الفساق والظالمين وحكومة السفهاء والجاهلين الذين سفكوا دماء الابرياء وقتلوا العلماء والصلحاء وجاروا في الحكم وخانوا في اموال الناس وتسلط في عهدهم الحمقى وتوارى الحكماء والعقلاء ووسد الامر الى غير اهله[iii]

القاعدة الثامنة

قوة اصحاب الذوق بالذكر والعبادة [iv]

التذوق عملية مركبة من اربعة اشياء

(i) احياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد(دار المنهاج 66/1)

(ii)ربانية لارهبانية ،/30.

(iii)رجال الفكر والدعوة ، الندوي،404/1.

(iv)ربانية ، الندوي ص 32.

1- متذوق منه

2- متذوق

3- شرط حصول الذوق

4- انتفاع المانع

فلا يمكن للتذوق ان يتم ما لم يحصل ويباشر المتذوق بالتذوق منه مع حصول شرط الذوق وانتفاء مانع الذوق ، فلا يقوى من عدم حاسة الذوق من تذوق العسل ، وكذلك من اصابه مرض عضال لا ينفعه وجود الشيء المذاق مع حصول الية التذوق بل ربما يمج العسل الحلو لخلل فيه، قال البوصيري:

(قد تنكرُ العينُ ضوء الشمسِ من رمدٍ ** ويُنْكِرُ الفَم طَعْمَ الماء منْ سَقَم) [i]

ولا يمكن للامة ان ينصلح حالها الا ببعث المصلحين المتذوقين لمعاني العبودية وهو اصحاب الذوق، وهؤلاء يحتاجون الى قوة تبعث همتهم وطاقة تزيد نشاطهم وهو الذكر والعبادة ، وهكذا داب السلف الصالح والمربون على العناية بالذكر والعبادة وهنا يسوق استاذنا الندوي رحمه الله امثلة من سيرة الامام ابن تيمية وكان اذا صلى الفجر يجلس في مكانه حتى يتعالى النهار جدا يقول هذه غدوتي لو لم اتغد هذه الغدوة سقطت قواي[ii].

القاعدة التاسعة

لا ينبعث الدافع الصحيح الخالص للزهد الا بانكشاف حقيقة الدنيا[iii]

الدافع للإنسان الى عمل من غير فكرة وهي جزء من الفطرة'وهو ما يسمى بالغرض (الباعث) وهو الامر الباعث للفاعل على الفعل[iv]

([i]) قصيدة الهمزية في مدح خير البرية ﷺ (البردة) الامام الشيخ شرف الدين ابو عبد الله محمد البوصيري (دار الكتب العلمية2009م ص : 180)

([ii])ربانية ، الندوي ،/30 ،الرد الوافر،محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي(المكتب الإسلامي،بيروت، الطبعةالأولى، 1393،تحقيق، زهير الشاويش، ص: 69)

([iii])ربانية ، الندوي ،/33.

([iv])معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي (ص: 330).

الاندفاع والانبعاث للزهد لا يتم الا بمعرفة حقيقة الدنيا ولا تتم الحقيقة تلك الا بقواعد (الشرع الكريم).

واذا انكشفت حقيقة الدنيا ومع طرؤ حال ((وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)) [i]وقوله تعالى: (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُون) [ii] صار المرء آنذاك من طراز اخر واذا قارن ذلك يقينه بالله تعالى مع الاتصال بذكره والشوق الى لقائه كان المرء آنذاك نفسه وقيامه وقعوده لله وفي الله ومن الله والى الله ((الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار)) [iii]آنذاك يتجلى الله تعالى عليه فيتعلم حقيقة الدنيا وزخرفتها وحقيقة ((لو كانت الدنيا تعدل ..)) [iv] قال الاستاذ الندوي رحمه الله-:ومن انصبغ بهذه الصبغة ورزقه الله نعمة غنى القلب الخالدة وتلاشت في عينيه مملكة كسرى وقصير ورأى النظر اليها كفرانا بنعمة الله تعالى وجحودا لنعمته وهو ينشد في نشوة الحب والمعرفة:

انني لا ارضى بإعطاء مسوحي [v] عوضا عن المملوك ولا ارضى ببيع فقري بملك سليمان، ان الثروة التي نلتها في الالم الفقر لن ارتضى باستبدالها بتنعم الملوك. [vi]

القاعدة العاشرة

من اسباب انشراح الصدر الاحسان الى الخلق[vii]

([i]) سورة العنكبوت:64.

([ii])سورة القصص:60.

([iii])ال عمران:91.

([iv])المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله أبوعبد الله الحاكم النيسابوري (دارالكتب العلمية،بيروت، الطبعةالأولى، 1411 ،1990،تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا،4/ 341)هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه ، تعليق الذهبي في التلخيص : زكريا بن منظورضعفوه.

([v])(الْمِسْحُ) بِوَزْنِ الْمِلْحِ وَالْجَمْعُ (أَمْسَاحٌ) وَ (مُسُوحٌ) مختارالصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي، تحقيق،يوسف الشيخ محمد(المكتبةالعصرية،الدارالنموذجية،بيروت،صيدا، الطبعة الخامسة، 1420هـ، 1999م، ص: 294).

([vi])ربانية ، الندوي، ص34.

([vii])ربانية ، الندوي، ص 34.

من اهم خصائص المتصدي للدعوة والارشاد واصلاح الناس انشراح صدره، ولعل في طلب نبي الله موسى عليه السلام من ربه تعالى لما امره ان يتصدى لفرعون وظلمه فقال القران على لسانه (قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) [i]

وما تفضل به المولى تعالى لحضرة نبينا (ﷺ) قال له ((أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ)) [ii] وما ورد في سيرته المطهرة من انشقاق صدره الكريم،

والاحسان الى الخلق يلزم منه ان يكون رجال الله والعاملون بالسنة متصفين بالسخاء والايثار[iii]

وقد أسهب العلامة ابن القيم في ذكر ما للإحسان للخلق من فوائد(ما للإحسان الى الخلق ونفعهم بالمال والجاه والبدن من التأثير العميق في انشراح الصدر وطيب النفس ونعيم القلوب) [iv]

القاعدة الحادي عشر

التواضع من خصائص رجال الله، ولا ينال الا بموت الانانية[v]

الانبياء وخلفاءهم هم حملة الرسالة وقد جاء وصف خلفاء نبينا محمد(ﷺ) ليعلم الحاملين للواء التوحيد ونشر معالم السنة قوله تعالى {يأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَايَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} [vi] تنبئ هذه القاعدة أن المعول على اصلاح الامة هو وجود رجال الله الصالحين الذين ليس لهم اي اثر في الدعوة ما لم تكن صفة التواضع مرتسمة على محياهم والا فدعوتهم نفخة في رماد او صيحة في واد، ومن هنا اشارالقران الكريم الى علة اجتماع المسلمين الاوائل حول شخص النبي (ﷺ) مع ما يمثل القرب منه (ﷺ) ويعني التخلي عن ضروب زينة الحياة الدنيا فقال:

(i) سورة طه:25.

(ii) سورة الشرح، الاية:1.

(iii)ينظر الربانية ،/34.

(iv)زاد المعاد في هدي خير العباد، (موسسة الرسالة،مكتبة المنار الإسلامية، بيروت،الكويت، الطبعة الرابعةعشر، 1407 ، 1986،تحقيق : شعيب الأرناؤوط،عبدالقادر الأرناؤوط، 2 / 22)

(v)ينظر الربانية ،/37.

(vi)سورة المائدة، الآية: 54

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ}[i]

فعلة الجمعية وقوتها هو تواضع المجمع لهم

وليعلم الدعاة ان التواضع ليس ادعاء بل هو فرع عن تخلي النفس عن الانانية[ii] فمن رأى نفسه لم ير غيره ومن لم ير غيره لم يراه غيره.

وكتب السير تزخربآثار العلماء وشدة حرصهم على التواضع لانهم علموا يقينا انه باب نشر امانة العلم .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية،في حالات هدوئه غاية في التواضع. قال ابن القيم رحمه الله: "ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك (أي من الخشوع والانكسار) أمرا لم أشاهده من غيره. وكان يقول:

مالي شيء! ومامنّي شيء! ولا فِيَّ شيء! وكان كثيرا ما يتمثل بهذا البيت:

أنا المكَدِّى وابن المُكدي وهكذاكان أبي وجَــدّي

قال: وكان إذاأ ثُني عليه فيوجهه يقول: والله إنّي إلى الآن أجدّد إسلامي كل وقت. وما أسلمت بعد إسلاما جيدا![iii].

القاعدة الثانية عشر

في اشياء مقترنة

الدعاء بالدعوة مقترنان

والجهد بالجهاد مقترنان

والشهادة للحق بالشهادة في الحق مقترنان[iv]

فالدعوة والجهاد والحق رموز عظيمة في الاسلام فالأولى هي وظيفة المرسلين والثانية ذروة سنام الاسلام وثالثها تشكل مساحة كبيرة من الاسلام، كيف لا والحق

(i) سورة آل عمران: 159

(ii) ربانية ،37.

(iii) مدارج السالكين 520/1، ربانية ،31. كتاب الاحسان، عبد السلام ياسين ص 490.

(iv) ينظر الربانية ،الندوي/54.

اسم من اسمائه تعالى وهذه الثلاثة لا تؤتي ثمارها بل تكون ليست في متناول الايدي ما لم تسبق ببواعثها وشرطها المؤثر بها

فالدعوة يسبقها الدعاء وها هو سيدنا ابراهيم لما القى اسماعيل عليه السلام في وادي مكة ابتهل داعيا الى المولى عز وجل{رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوعَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (i) وانظر كيف حال النبي (ﷺ) في توديع السرايا لفتح الاراضي بنور الاسلام وكيف كان حاله في غزوة بدر حتى اشفق عليه الصديق لما رأى الحاحه في الدعاء فقال:(

اللهمأنجز لي ماوعدتني اللهم آت ماوعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لاتعبد في الأرض ».

فمازال يهتف بربه ماداي ديه مستقبل القبلة حتى سقطر داؤه عن منكبيه فأتاه أبوبكرفأخذرداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه. فأنزل الله عزوجل (إذتستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فأمده الله بالملائكة. والجهاد لا يقوم الا ببدل الجهد والجهد مبذول لا اثر له ان لم يكن في سبيل الجهاد وذا الجهاد لا قيام له الا ببذل الجهد فالأول لا قيمة له الا بالثاني والثاني لا قيام له الا بالأول من هنا المح القران الكريم الى بذل الجهد قبل الجهاد وكذلكم الشهادة للحق دليلها ان تكون للحق{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (ii)

وهذه الامور بلزومها دليل الصدق اذ اشار الاستاذ الندوي رحمه الله في معرض كلامه عن الشيخ اسماعيل الشهيد رحمه الله واصفا حاله واسره في بلده فقال (وقد قرن رحمه الله الدعاء بالدعوة والجهد والشهادة للحق بالشهادة في الحق وذلك لباب التوحيد وغاية الاخلاص وكمال الصدق وتمام الوفاء وصدق الله العظيم القائل: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} (iii)،(iv)

(i) سورة البقرة: 129

(ii) سورة الحجرات، الآية : 15.

(iii)سورة الأحزاب، الآية : 23.

(iv)ربانية ص:54.

الخاتمة

بعد هذه الجولة المباركة والتلمذة على كلمات الشيخ الندوي(رحمه الله) خرجت بهذه المقاصد والنتائج:

1. شروط قومة الامة بعد حصول تزكية افرادها ومن سلبها لا قيمة لتزكيته كائنة ما كانت.
2. الكل يتفق على اهمية تطهير الباطن من درن الذنوب والمعاصي وباطن الاثم لكننا لا نستعمل هذا العلاج والغرض القرآني لكثرة التشويش عليه بحرب المصطلحات.
3. بداية التزكية العبادات الصحيحة لكن قد توجد ولكن لا تزكية ما لم تنعكس على قلب المتعبد وسلوكه.
4. لا أثر للمصلحين الا بتجردهم من الانانية والكبرياء.

المصادر والمراجع:

1. احياء علوم الدين، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد(دار المنهاج)
2. البرهان المؤيد، الشيخ احمد الرفاعي..
3. حاشية العطارعلى شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع، حسن بن محمد بن محمود العطار الشافعي(دارالكتب العلمية)
4. ربانية لا رهبانية، الامام ابو الحسن، علي الحسني الندوي ، (دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الاولى).
5. رجال الفكر والدعوة في الاسلام ، العلامة السيد ابو الحسن علي الحسني الندوي (دار ابن كثير ، الطبعة الرابعة 1430ه-2009م ،628/2)
6. الرد الوافر،محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي(المكتب الإسلامي،بيروت، الطبعة الأولى، 1393،تحقيق،زهيرالشاويش)
7. زاد المعاد في هدي خيرالعباد، (مؤسسة الرسالة،مكتبة المنارالإسلامية،بيروت،الكويت، الطبعة الرابعةعشر، 1407 ، 1986،تحقيق : شعيب الأرناؤوط،عبدالقادرالأرناؤوط،)
8. الشيخ ابو الحسن الندوي كما عرفته ، الدكتور يوسف القرضاوي (دار القلم — دمشق ، الطبعة الاولى1422ه-2001)
9. صحيح البخاري،الامام أبوعبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ابن المغيرة بن بردز به البخاري الجعفي(دار الطباعة العامرة باستانبول،1401 ه - 1981 م)
10. صحيح مسلم،الجامع الصحيح،الإمام ابوالحسين مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري (دارالفكر،بيروت،لبنان).
11. عون المعبود شرح سنن أب يداود ، ابوالطيب محمدشمس الحق العظيم آبادي مع شرح الحافظ

شمس الدين ابن قيم الجوزية(دارالكتب العلمية بيروت،لبنان، الطبعة الثانية 1415 هـ، 1995 م)

12. فتح الباري شرح صحيح البخاري، الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني(دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت،لبنان،الطبعةالثانية)
13. قصيدة الهمزية في مدح خير البرية ﷺ (البردة) الامام الشيخ شرف الدين ابو عبد الله محمد البوصيري (دار الكتب العلمية2009م).
14. كتاب الاحسان، عبد السلام ياسين ص 91.
15. مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القاد رالحنفي الرازي، تحقيق،يوسف الشيخ محمد(المكتبةالعصرية،الدارالنموذجية،بيروت،صيدا، الطبعةالخامسة، 1420هـ، 1999م،)
16. مختصرالمعاني،سعد الدين التفتازاني (دارالفكر، الطبعةالاولى 1411هـ)
17. مختصرتاريخ دمشق، ابنمنظور
18. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين،محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبوعبد الله، (دارالكتاب العربي،بيروت، الطبعةالثانية، 1393هـ ، 1973م تحقيق : محمدحامد الفقي)
19. المستدرك على الصحيحين،محمد بن عبدالله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري(دار الكتب العلمية،بيروت، الطبعةالأولى، 1411 ،1990،تحقيق : مصطفى عبدالقادرعطا)
20. مسندأحمدحمد بن حنبل(شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1420هـ، 1999م، 36)
21. معجم لغة الفقهاء، محمد قلعجي
22. مفاتيح الغيب،التفسير الكبير، أبوعبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب ، بفخرالدين الرازي ،خطيب الري(دارإحياء التراث العربي، بيروت، الطبعةالثالثة، 1420 هـ)
23. منهجية التربية الدعوية ، محمد احمد الراشد ، (دار النشر للجامعات ، الطبعة الاولى سنة 2011،ه1432م)

أهمية المكان في إثراء التوهج الروحي في ترجمة الشيخ أبي الحسن الندوي "لروائع إقبال"

د / سعد أبو الرضا
جمهورية مصر العربية

هذه الترجمة هي الطبعة الثالثة لهذا العمل ، فقد كانت الأولى سنة 1960م ، أما الثانية فقد كانت سنة 1968م ، أما هذه الأخيرة فقد كانت في سنة 1999م ، ولقد كان هناك مزيد من الزيادات والتنقيحات والمراجعات في كل طبعة عن سابقتها ، يقوم بها الشيخ أبو الحسن الندوي، وقد علل هو طول المدة البينية بين الطبعتين الأخيرتين ببسب بعده عن مركز الطباعة ، وإنشغاله بعدة أعمال تأليفية ودعوية [1] .

وقد كانت صلة الشيخ أبي الحسن بمحمد إقبال قوية على مستوى الاتصال الروحي والشخصي والعلمي والإنساني ، فقد أعجب به صغيرًا ، واعتنى به كبيرا ، كما أنه نشأ في عصر وبيئة بلغ فيها شعر " إقبال " قمة مجده وشهرته ، وفي جيل فتن به أكثر مما فتن بشعر شاعر وأدب كاتب[2].

فقد زار شيخنا أبو الحسن " إقبال " في لاهور عدة مرات وطالت جلساتهما بين جلة من العلماء ، ممن يرتبطون بالشيخ أبي الحسن بصلات رحم وعلم .

وقد استأذن الشيخ أبو الحسن محمد إقبال في ترجمة شعره إلى العربية في أحد هذه اللقاءات ، وقد أذن له [3] ، ومما شجعه على ذلك ، حث الشيخ علي الطنطاوي الشيخ أبا الحسن على ذلك في إحدى مقالاته بجريدة المسلمين [4] .

ولقد كان ما أحسه الشيخ أبو الحسن من " الطموح والحب والإيمان " [5] ، التي يفيض بها فكر " إقبال " وشعره ، من أهم القيم والطوابع التي وثقت الاتصال بينهما ، وضاعف من أثر ذلك ما بينهما من يحاول ، فهو طموح إلى المجد الذي يحقق للإسلام والمسلمين العزة والكرامة والمنعة ، والحب لله ولرسوله ﷺ ، الإيمان القوي بالدين الإسلامي ومبادئه

التيحققت الخير للأمة ، في ماضيها ، ويمكن أن تحققه في حاضرها ومستقبلها ، هذا ما لمسه الشيخ في فكر " إقبال " وشعره وسلوكه ، وهو ما تجاوب معه وتمسك به كل منهما .

وقد أشار الشيخ أبو الحسن في مقدمات كتابه " روائع إقبال " إلى هذه الصلة الوثيقة "بإقبال " وفكره إنسانيا ومعرفيا وأدبيا ، وروحيا ، وذوقيا ، ويتوج كل ما سبق حبهما للإسلام والإيمان فهما من الربانيين ، ذوي العلاقة الإيجابية بالواقع والحياة والناس والمتغيرات، كما أشار إلى حياة " إقبال " وثقافته وشاعريته ، وقد أرجع ذلك إلى عدة عوامل منها اتخاذه القرآن الكريم أستاذاً عظيمًا له (6) ، واتصاله بالثقافة العصرية والدراسات الغربية (7) ، والإيمان بالإسلام ورسالته ، والإجلال لرسول الله ﷺ (8) ، ومعرفة النفس والغوص في أعماقها (9) ، وأنه لم يكن يقتصر على دراسة الكتب ومطالعتها ، بل كان يتصل بالطبيعة ، ويكثر من التأمل فيها ، كما يتعوض للنفحات السحرية (10) ، التي تغمر المخلصين لله ، واتصاله بكتاب جلال الدين الرومي في كتابه " المثنوي " بالفارسية ، كما بين أنه قد حصل على عدة شهادات تعادل الماجستير والدكتوراه في العلوم المختلفة كالاقتصاد والسياسة وغيرها من الهند ، وألمانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، كما درس ودَرَّس في بعضها (*) .

الترجمة :

وبرغم أن هناك من النقاد والمتخصصين في الأدب المقارن من يرون أن ترجمة الشعر إلى لغة غير لغته الأصلية قد يتعذر ، وقد لا تحقق هذه الترجمة ما يتمتع به الشعر من تكثيف ، وجمال في الصور (11) ، حتى إنهم يرون أن مقاومة الشعر للترجمة جزء من خاصيته الجوهرية، من هؤلاء دانتي ودرايدن وفولتير ، وأيضًا على اختلاف أسس هذا التصور فيما بينهم، لكن أسلوب ترجمة الشيخ أبي الحسن الندوي " لروائع إقبال " (12) ، قد يثبت عكس ذلك، لتمكن الشيخ أبي الحسن من اللغتين ، وما يتمتع به من ذوق لغوي يجيد الصياغة كما يجيد اختيار ما يترجم ، هذا بالإضافة إلى أثر الترجمة في نقل الأفكار والأساليب ، وما يصيبها من تغير في اللغة المستقبلة ، وغير ذلك مما يثري هذه اللغة

الأخيرة، كما أن حب وإعجاب الشيخ أبي الحسن "بإقبال " من العوامل المهمة في إقباله على ترجمة شعر " إقبال " .

وبرغم أن الدكتور عبد الوهاب عزام قد قام بترجمة شعر " إقبال " شعرًا ، فقد أعجب الشيخ أبو الحسن بما قام به الدكتور عزام ، وقد رآه مؤهلا لذلك لقوة اتصاله بالعربية والفارسية ، كما أشار الشيخ أبو الحسن إلى أن الحرص على ترجمة الشعر شعرًا ، قد أصاب ترجمة الدكتور عزام بشيء من الغموض في استساغة شعر " إقبال " ، وهذا موقف معتدل من الشيخ ، فهو لم يغمط الدكتور عبد الوهاب عزام حقه ، وما قام به ، لكنه في الوقت نفسه أشار إلى إحدى سلبيات المحاولة ، وهي ملاحظة تتفق مع ما رآه بعض المفكرين ممن يهتمون بالأدب المقارن كما سبق ، وما يرونه بالنسبة لترجمة الشعر بصفة عامة ، ولذلك تمنى الشيخ أبو الحسن لو أن الدكتور عزام استوعب شعر " إقبال " وفكره وصاغه صياغة ليست شعرًا وإنما يصب أفكاره في صياغة نثرية ، تكشف عن جوانب فكر " إقبال " ومبادئه ، مما قد ييسر فهم شعر " إقبال " وفكره ، واستساغته لدى المتلقي العربي.

وهذا هو ما فعله الشيخ نفسه بالنسبة لشعر " إقبال" في " روائع إقبال " ، فقد حاول عرض آراء " إقبال " وأفكاره التي وردت في شعره ، كاشفًا مزاياها وأثرها في حياة المسلمين، مبينًا ضرورتها وأهميتها في تقدم الشعوب الإسلامية ، وخلال ما سبق يستشهد الشيخ أبو الحسن بشعر " إقبال " ، وبذلك فهو يجمع بين عرضه لفكر " إقبال " ومناقشته له ، وترجمته لنصوص شعره في الوقت نفسه .

ونزاهة الشيخ أبي الحسن تجعله معتدلاً في الحكم على غيره ، فكما رأيناه يذكر مزايا ترجمة الدكتور عبد الوهاب عزام لشعر " إقبال " إلى العربية شعرًا ، وبعض ملاحظاته عليها، فهو أيضًا برغم حبه الشديد وتقديره العظيم " لإقبال " ، لكن في الوقت نفسه يقرر أنه لا يقدسه، من ثم يشير إلى بعض جوانب كان " إقبال " نفسه يتمنى إتمامها في حياته لتكتمل رسالته وفاعليته في الدعوة إلى الله ونهضة المسلمين .

وهكذا أخذ الشيخ أبو الحسن يناقش بعض آراء " إقبال " وفكره في نظام التعليم العصري ومراكزه [13] ، ويؤكد حاجة الشباب إلى الغاية بما يرقى بالروح ويهذب النفس ، كما أشار

إلى نظرة " إقبال " إلى العلوم والآداب والفنون [14] ، ورأى أنها يجب أن تكرس لخدمة الإنسان والنهوض به ، وتلك رسالتها ، بل هو يرى أنه لا فائدة من علم وأدب لم يكن تأثيرهما في المجتمع كتأثير عصا موسى في الحجر والبحر [15] ، وكذلك الفلسفة ، وعلوم الحكمة ، بل هو يرى أن نظام التعليم الغربي مؤامرة على الدين والخلق والمروءة [16].

وهو مهتم بالشباب ورعايته أيما اهتمام ، ويقدم له نماذجه التي يجب أن يحتذى بها مستمدًا لها من أعلام الصحابة ، فيبين أن هؤلاء الشباب يجب أن يجمعوا بين جلال وإيمان الصِدِّيق ، وقوة عليّ ، وفقر أبي ذَر ، وصدق سلمان (رضي الله عنهم) ، ويكون يقينه بين أوهام العصر كمصباح الراهب في ظلمات الصحراء ، ويعرف في محيطه بحكمته وفراسته ، وبأذان السَحَر.

كما انتقد الحضارة الغربية في استغراقها المادي ، وهنا بين أن الشباب الإسلامي الذين توسعوا في الدراسات الغربية ، سواء في الهند أو في البعثات إلى أوروبا ، وأقاموا هناك مدة طويلة ، لمسوا ما في الغرب من تقدم مادي لكنهم في الوقت نفسه أدركوا ما فيه من بعد عن الدين والروحانيات ، وهم بوعيهم قد يئسوا من مستقبل هذه الحضارة الغربية التي يعوزها من يجمع بين الجانبين المادي والروحي ، وقد رأى الشيخ أبو الحسن الندوي أن " إقبال " كان أحد هؤلاء الشباب ، وأن هذا العامل كان مما هيأه لبناء شخصيته السوية التي يغمرها العفو والحنان والحب لله ولرسوله ﷺ ، والحرص على الإسلام والمسلمين وتقدمهم، والتنبيه إلى ما يهدد حضارة الغرب من بُعْدٍ عن هذه القيم ، ولذلك فقد اعتبر الرأسمالية والشيوعية فرعين من دوحة المادية [18] .

وذلك يمكن أن يتصل بتصور جارودي وهو يصف المسيحية والماركسية بالقصور الذاتي، " وينتقد في الغرب في نزعته المركزية التي تجعله يحدد مواقع الآخرين ويحكم عليها وفقا لتاريخه، وغاياته ، وقيمه ، وهذا يتضمن اعتقادًا بالتفوق والنظرة المثالية للذات ، وكأنه لا تاريخ إلا تاريخ الغرب ، ولا عقل إلا عقله ، ولا تقدم إلا تقدمه ، وكأنه حدث مطلق ، وحقيقة إنسانية كونية نموذجية ، وبذلك فعقدة التفوق الجنسي والثقافي هي المهيمنة على الخطاب"[19]، ولذلك فعندما درس بعضهم الإسلام درسه دون نظر إلى الآخر ، مع أن

الموقف المعتدل هنا يتطلب الانفتاح العقلي والمشاركة النفسية حتى يمكن فهم الآخر ، ومعرفته عن قرب ، وهذا يفسر في الوقت نفسه موقف " إقبال " من الغرب وسببه في التحذير منه .

كما بين الشيخ أبو الحسن أن " إقبال " يسيء الظن بدعاة التجديد في الأقطار الإسلامية إن كان اتصالهم بالغرب لمجرد التقليد لهم ، فهذا تدمير للحياة .

ويخلص " إقبال " من كل ما سبق في نظر الشيخ أبي الحسن إلى تصوره للإنسان الكامل في نظره ، وهو المسلم المثالي الذي يمتاز بإيمانه القوي ، والشجاعة ، والقوة الروحية والتوحيد الخالص، وهو صاحب رسالة خاصة هي : " رسالة الأنبياء والمرسلين " ، وهو سر من أسرار الحق ، ولذلك فهو حي خالد لأنه يحمل رسالة خالدة ، وهي رسالة الله الأخيرة التي لا يعتريها النسخ أو التبديل [20] ، ومن ثم فمقامه مقام الإمامة والتوجيه ، وقد خلق العالم له ، وهو خــُلق لله ، من ثم فقوته مستمدة من رسالته ، وهو متخلق بأخلاق الله ، كما أنه لا ينحصر في الأوطان والشعوب [21] .

ولقد أشار الشيخ أبو الحسن في ترجمته إلى فكرة " إقبال " : أن المسلم كالشمس لا تغرب مطلقا ، وقد دلل على ذلك من التاريخ ، ففي الوقت الذي سقطت فيه الأندلس ، فقد قامت دولة آل عثمان في تركيا ، كما كان سقوط غرناطة في أوج الدولة العثمانية بقيادة سليمان القانوني ، وفي الوقت الذي اجتاح التتار بغداد ، قامت الدولة المسلمة في الهند ، كما اقترن بانهيار دولة آل عثمان اليقظة الإسلامية الهائلة ، وفي الوقت الذي ضاعت فيه فلسطين ، كانت الحركات الإسلامية التي يجيش بها العالم الإسلامي والشرق الأوسط ، وكان ظهور باكستان وإندونسيا[22]، ومن ثم فقد تمسك " إقبال " بصورة المسلم ، القوى الباني للحياة ، والإيجابي فيما يفعل وفيما يقول ، محققًا الخير للأمة وللدنيا كلها ، وهو ما جسده شعره الذي ترجمه له الشيخ أبو الحسن في كتابه " روائع إقبال " .

أهمية المكان في " روائع إقبال " :

ثمة عناوين أربعة لأماكن تضمنتها ترجمة الشيخ أبي الحسن الندوي لشعر " إقبال " هي: في "جامع قرطبة " ، وفي " أرض فلسطين " ، وفي " غزنين " ، وفي " مدينة الرسول ﷺ "، وهي أربعة أماكن وطئتها قدم محمد إقبال حقيقة وفعلاً ، كما في الثلاثة الأولى ، وخيالا

كما في الرابع ، ويجمعها كونها أماكن للمسلمين ، وكانت مثارًا لفيض حديثه عن الإسلام والمسلمين ، وتنبيههم إلى ما يجب عليهم ليكونوا خير أمة أخرجت للناس ، مقارنا بين ماضيهم الزاهر وحاضرهم الذي لا يليق بهم ، الغارق في ماديات الحياة ، البعيد عن الروح والمحبة ، والوفاء والقيم الأخلاقية .

حقًا تتباين هذه الأماكن في درجة نقائها وارتباط المسلمين بها ، لكنها في الوقت نفسه عزيزة عليهم ، وهي مصدر استثارة مشاعر ووجدانات محمد إقبال ، كما يكشف اتصاله بهذه الأماكن فيض حبه للإسلام والمسلمين ورسولهم الكريم ﷺ ، من ثم فذكر هذه الأماكن قرينة بتدفق مشاعره وارتباطاته الروحية بها ، من ثم تستثير لديه آماله في استرداد المسلمين لعزتهم وقوتهم .

في فلسطين :

وعندما زار فلسطين للمشاركة في المؤتمر الإسلامي الأول الذي انعقد في القدس سنة 1931م أعجب بجمال الطبيعة وبهائها ، من ثم فقد أسلمه هذا الجمال الرباني في هذا المكان المقدس إلى مناجاة الله ، فصاغ شعرًا يأسى فيه على ضعف المسلمين ، ويتألم للصراع بين العقل والعاطفة ، ويتمنى أن يسود الحب والإيمان الكون والحياة والناس ، حتى تسود الاستقامة ، وهنا تتجلى عاطفة الشاعر متوهجة في شعره ، استثارها استشعاره لصلته القوية بالله ، ورغبته القوية في أن يأخذ العالم العربي طريق الإسلام والحب ، كما أخذه السلف الصالح من قبل فسادوا وسعدوا .

في أسبانيا :

وعندما زار محمد إقبال أسبانيا سنة 1932م وكتب قصيدته " في قرطبة "[23] ، ووقف في جامع قرطبة العظيم ، تدفقت ذكرياته عندما استثارها هذا المكان ، فأسبانيا هي الفردوس المفقود ، وذلك المسجد الذي بناه عبد الرحمن الداخل ، عندما أخضع هذه الأماكن لعقيدته وعزمه ، وقد بهرت " إقبال " عبقرية المكان المعمارية ، وعظمة الفن الإسلامي العربي ، وأخذ يصوغ مشاعره المتدفقة في شعره ، مجلية عظمة المسلمين وسمو عقيدتهم ، ورسالتهم المقدسة التي كان يجسدها في هذا المسجد " الأذان " الذي انفردت به هذه الأمة ، والذي كان يخشع

له الكون ، وتتزلزل به أركان الفساد ، وقد حرم هذا المسجد ذلك الأذان منذ قرون ، كما لم تعرف ساحاته السجود ، ولم يعرف منبره الخطبة ، منذ أخذت أسبانيا من يد المسلمين ، وهكذا تحركت في " إقبال " عاطفة الحب القوية للمكان ، ولكل من كان فيه يوم أنشئ ، وما خُلّـــد هذا المكان إلا بهذا الحب الذي ملأ من أنشأه ، حبه لعقيدة الإسلام ، ومن مارسوا العبادة فيه ، وارتبطوا بمبادئه السمحة ، كما أخذ يحدِّث هذا المسجد بعقيدة المؤمن ، ودلال الشاعر المحب مؤكدًا ما بينه وبينه من نسب في الحب والحنان ، وقد يوازن بين سجود الملائكة الدائم ولذة ولوعة سجود الإنسان المسلم [24] .

وهكذا يذكّره هذا المسجد بعظمة الإنسان المسلم وعظمة الأمة المسلمة التي لا تحدها حدود جغرافية ضيقة لأن المسلمين وسعت عاطفتهم الشرق والغرب ، " فليست دجلة في العراق، والدانوب في أوروبا ، والنيل في مصر ، إلا موجة صغيرة في بحره الواسع " [25].

وهكذا يخاطب أسبانيا – الأندلس المفقود المغتصب – ويتألم لما أصابها ، ثم يذكر ما مرَّ على العالم المتمدين من ثورات وتقلبات ، ويتطلع إلى ثورة جديدة يكون مقرها الشرق الإسلامي، بعد أن شهد العالم ثورات في أماكن عدة ، فهناك ثورة الإصلاح الديني في ألمانيا، وقد رفضت أوروبا المسيحية عصمة رجال الدين ، وشهدت فرنسا ثورة كبيرة ، كما تحددت بالثورة حياة إيطاليا ، وهكذا تنتظر الروح الإسلامية انتفاضة جديدة ، علمها عند الله ، ويضاعف من إحساسه بما سبق وقوفه على نهر قرطبة (الوادي الكبير) متطلعا إلى مستقبل جديد ، وعصر يُرتقب لا يزال في طيات الغيب [26] .

ويسلمه هذا الموقف في غمرة مشاعره وتدفقها إلى توقع التجديد في حياة الأمم والشعوب ثورة على الأوضاع الفاسدة في العالم ، مؤكدًا على أن الخلود والبقاء للأفكار والآداب؛ لإنتاج قوة الإخلاص وعظمة الحب ، واتساع القلب للعالم وطموحاته إخلاصًا وتقديرًا ووفاءً وحياة ، وهو بذلك يستحث الأدباء والشعراء على السير في هذا الطريق المنير المخلص .

في غزنين :

وعندما سافر إلى غزنين بدعوة الملك " نادر شاه " ، ملك الأفغان سنة 1933م ، زار قبر الشاعر الحكيم " السنائي الغزنوي " ، الذي يعتبره أستاذًا له بعد " جلال الدين الرومي

" وقد طاب له الوقت ، وفاضت شاعريته ، وتجلت نظراته في هذا العالم الغارق في ماديته ، من ثم يصف نفسه وقد تحررت من العالم المادي ، وتجلى له الجمال الإلهي في مرآة هذا الكون ، فيقرر أنه لا صراع بين العلم والمعرفة والحب ، كما ينتقد الشرق والغرب اللذين عاش فيهما مدة ، وخبرهما ، فالشرق لديه الاستعداد ولكن يعوزه الموجِّه والقيادة الرشيدة، أما الغرب فقد أتخمته المادة والقوة لكنه حرم لذة الإيمان وبرد اليقين [27] .

ولا يفوته تذكره الدائم للعالم الإسلامي ، وافتقاده الرجال الذين كانوا يتحدون الملوك والأباطرة بعزتهم وأنفتهم وزهدهم ، كما يتذكر العالم العربي وقد فسدت أوضاعه ، واستغرقت المادة أمراءه وزعماءه ، وسيطر عليهم الأجانب ، كما سيطر التتار من قبل ، وهددوا الحرمين الشريفين ، من ثم يخلص إلى تقرير المعادلة الإنسانية الخالدة التي تؤكد قمة توهجه الروحي عندما يرى أن الحياة الإنسانية لا تستقيم إلا بالنفي والإثبات ، والجحود بالزائف الباطل ، وتجلي الإيمان بالحق الثابت [28].

وينعى " إقبال " على الاستعمار وما فعله بالشرق الإسلامي ، من ثم يؤكد أن ميزان العالم هي الحرية التي يتمتع بها الأحرار بتفكيرهم الصائب ، وفراستهم الصادقة ، وبصيرتهم النافذة وأن المسلم يجب أن يشق بهمته الطريق إلى المستقبل ولا يقتنع بالحاضر ، كما يحذر الشباب الإسلامي من تأثير الثقافة الغربية المثبطة لهم ، برغم ما حققه الغربيون من تقدم مادي ، لكنهم تعوزهم الروح والحب والإيمان .

وهنا يؤكد على أهمية الحب الذي يبعث في الرجل الاعتداد بالنفس ، والتمسك بالكرامة ، فلا يقف على أبواب الملوك ، ولا يخضع للمادة ، وقد كان " إقبال " في حياته خير مثال لذلك .

وينتهي " إقبال " في قصيدته التي أبدعها وهو في غزنين إلى تأكيد ما يؤكده باستمرار وهو حبه للرسول ﷺ ورسالته الخالدة التي ملكت عليه كل مشاعره ، خاصة وهو في حضرة أستاذه الحكيم السنائي الغزنوي الذي يخجل من الاسترسال في الحديث وفيض المشاعر في رحاب قبره هناك [29] .

في مدينة الرسول ﷺ :

تمثل هذه الزيارة أهم مكان تاقت نفس " إقبال " لزيارته ، وذلك لحبه الشديد لرسول الله ﷺ ، ولارتباطه به ، نبيا ورسولا ، حمل الخير والحب للبشرية كلها في نظره ، وليس للمسلمين فحسب ، من ثم تمثل مجموعة أرمغان حجاز (هدية الحجاز) ، وهي هدية حملها معه من الحجاز للمسلمين في كل مكان ، وهي الأشعار التي تحمل شوق محمد إقبال الشديد إلى الحج وزيارة مدينة رسول الله ﷺ ، وبرغم أنه زارها بخياله وشاعريته ، وكان قد تجاوز الستين ، وتمكنت العلل والأسقام منه ، ونصحه الأطباء بالراحة لكنها استثارته أيما استثارة ضاعفت من توهجه الروحي في شعره ، وكان قد تخيل حاديا يحدو بالعيس التي تحمله ، ويدعوه إلى طول الطريق[30] ، حتى يسعد بهذا الشوق للحبيب المرتقب ، من ثم ينشد أبياتًا لبعض شعراء الفرس المشهورين كالعراقي والجامي وهما ممن لهما قصائد في مديح النبي ﷺ .

إنه ما إن يصل إلى المدينة حتى يدعو صديقه للبكاء فرحًا وسرورا لحسن حظهما بوصولهما إلى الحبيب ﷺ ، وهنا يتذكر أمته وما بها من ضعف ، كما يسرد لرسول الله مظاهر هذا الضعف الذي نزل بالأمة لافتقادها الحب ، واستغراقها في المادة ، ثم يقارن بين ماضيها الزاهر وهذا الحاضر القاسي المتخلف ، وبذلك فقد تخلوا عن الرسالة المحمدية ، وهم ليسوا جديرين بها [31] ، فقد رزقوا القلب وحرموا الحب ، كما يستشعر ضعفه وصراعه الدائم في استنهاض أمته اليوم ، ويذكر تمرده على الغرب وعلومه وفلسفاته واحتفاظه بعقيدته وإيمانه اللذين يفخر بهما ، وكما يشير في كثير من إشعاره إلى أنه عاش في الغرب ودرس علومه وفلسفته لكنه نجا بما هو أهم : الحب والإيمان واليقين بالله ورسوله ودين الإسلام ، كما يفخر بنزاهته وأنه لم يبع نفسه لأحد ، كما أخلص لأمته وصدقها القول ، وهكذا يشكو عصره ومجتمعه لأنهم لم يعملوا بما دعاهم إليه ، وهو يقدم كل ذلك في صورٍ شعرية أخّاذة يفيض بها خياله ويفعمها توهج روحه الذي تجاوب معه الشيخ أبي الحسن وضاعف من توهجه هو نفسه .

وقد ختم " إقبال " هذه المجموعة : بنصيحة للمرحوم الملك عبد العزيز بن سعود ملك الحجاز في ذلك الوقت ، وهي نصيحة لكل زعماء المسلمين وملوكهم ، محذرًا إياهم من الخضوع للغرب أو الاستعانة بهم ، داعيًا لهم إلى الاعتماد على الله [32] .

خاتـــمة

وهكذا يتضح خلال شعر " إقبال " كما ترجمه الشيخ أبو الحسن الندوي شخصية "إقبال" الشاعر المبدع المتصوف الزاهد المتطلع إلى نهضة المسلمين في كل مكان ، المؤمن بأهمية الإسلام والمسلمين في هذه النهضة على مستوى العالم كله ، وهي رؤية قائمة على المعرفة القلبية والإدراك القلبي الذي يعتبر قرينًا للإدراك الحسي والإدراك العقلي ،ويكملهما في الوقت نفسه بل إن القلب هو الوسيلة المعرفية الثالثة التي قد تفوق الحس والعقل في عالم الرياضة الباطنية ، التي هي رياضة روحية خالصة [33]، وهي في الوقت نفسه رياضة دينية ، تمثلها الحالة الصوفية عند المريد ، وهي لحظة من الاتصال الوثيق بذات أخرى فريدة سامية محيطة ، تضيء فيها شخصية المريد موقتًا [34].

وفي كل ما سبق تجاوبت شخصية الشيخ أبي الحسن الندوي مع شخصية " إقبال " حسًا، وقلبًا ، وعقلاً ، وروحًا ، وكان ذلك من أهم العوامل التي جعلت الشيخ أبا الحسن يقبل على ترجمة شعر " إقبال " ، بل ويتحمس لهذه المهمة في توهج روحي جمع بينهما في الزمان والمكان .

نتائج :

ويمكن أن تخلص من قراءة ترجمة " روائع إقبال " ببعض ملامح شخصية الشيخ أبي الحسن الندوي منها :

1- قوة إيمانه وشدة توهجه الروحي وحبه العميق لله ولرسوله ﷺ وللمسلمين .
2- رغبته القوية في دعم الإسلام وكل ما ينهض بالمسلمين .
3- تمكنه من اللغة العربية لفظًا وتركيبًا وصياغة ولغة .
4- اتصاله بالتراث العربي ، اتصالاً وثيقًا .

5- تأثر أسلوبه بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، واتضاح أثرهما القوي فيما يكتب وفيما يختار .

6- قوة تمثيله للدولة الإسلامية في الهند تاريخًا وحضارة وفكرًا .

الهوامش

(1) انظر أبو الحسن الندوي " روائع إقبال " ، ط 1 دار العلم ، دمشق 1420هـ - 1989م .

(2) السابق نفسه صـ 9 .

(3) السابق نفسه صـ 40 .

(4) السابق نفسه صـ 17 .

(5) السابق نفسه صـ 9 ، 19 .

(6) انظر السابق نفسه صـ 38 .

(7) انظر السابق نفسه صـ 29 .

(8) انظر السابق نفسه صـ 32 .

(9) انظر السابق نفسه صـ 40 .

(10) انظر السابق نفسه صـ 45 .

(*) وقد قال عنه الدكتور / عبد الوهاب عزام ، في مجلة الرسالة ، القاهرية ، العدد لأول 15 يناير 1933م : " شاعر الهند العظيم ، وأكبر شعراء الإسلام في عصرنا ، درس الفلسفة في إنجلترا وألمانيا ، وتزود من الفلسفة القديمة والحديثة ما شاء له الذكاء والاجتهاد ، وهو اليوم قائد من قادة الأفكار في الهند ، وله من الشعر دواوين عدة بلغ فيها الغاية نظم واحدًا منها باللغة الأردية ، وسماه " بانك درا " أي صلصلة الجرس ، ونظم خمسة بالفارسية ... (وبيام مشرق) رسالة المشرق ، وقد جعله جوابًا للقصائد المشرقية التي نظمها الشاعر الألماني جوته " .

عن دكتور القطب محمد طبلية : رواد الفكر الإسلامي في العصر الحديث ، طبعة دارالكر العربي ، مدينة نصر – القاهرة .

(11) Georg Watson, the study of literature Charles scribner S'sons New yourk. 1969 P.110 .

(12) انظر " روائع إقبال " .

(13) انظر السابق نفسه ، صـ 45 .

(14) انظر السابق نفسه ، صـ 57 .

(15) السابق نفسه ، والصفحة نفسها .

(16) انظر السابق نفسه ، صـ 71 .

(17) السابق نفسه ، صـ 61.

(18) انظر السابق نفسه ، صـ 63 ، 69 .

(19) محسن الميلي : روجيه جارودي والمشكلة الدينية ، دار قتيبة للطباعة والنشر – بيروت دمشق 1993م ، صـ 200 ، 201 .

(20) انظر " روائع إقبال " صـ 77 .

(21) انظر السابق نفسه ، صـ 82 .

(22) انظر اسلابق نفسه ، صـ 84 ، وما بعدها .

(23) انظر السابق نفسه صـ، 111 .

(24) انظر السابق نفسه ، صـ 114 .

(25) انظر السابق نفسه ، صـ 115 .

(26) انظر السابق نفسه ، صـ 117 .

(27) انظر السابق نفسه صـ 126 .

(28) انظر السابق نفسه ، صـ 128 .

(29) انظر السابق نفسه ، صـ 130 .

(30) السابق نفسه ، صـ 162 .

(31) السابق نفسه ، صـ 165 .

(32) انظر السابق نفسه ، صـ 169 .

(33) انظر محمد العربي بو عزيزي : " محمد إقبال فكره الديني والفلسفي " نسر دار الفكر المعاصر – بيروت – لبنان ، ودار الفكر : دمشق – سوريا ، سنة 1999م ، صـ 345 ، 346 .

(34) تجديد الفكر الديني في الإسلام : ترجمه إلى العربية عباس محمود العقاد ، وراجع مقدمته والفصل الأول منه عبد العزيز مراغي بك ، وراجع بقية الكتاب د / مهدي علام ، لجنة التأليف والنشر سنة 1968 ، صـ 348 .

أساليب اللغة العربية وطرائق تعليمها عند الشيخ الندوي

د. بن عيسى بطاهر
جامعة الشارقة
الامارات العربية المتحدة

مقدمة:

كانت مجالات الفكر والدعوة الإسلامية محلَ عناية الشيخ أبي الحسن الندوي واهتمامه الأول؛ فقد صرف جلّ اهتمامه إلى البحث عن الأسباب الموصلة إلى التغيير الحضاري للأمة الإسلامية، وذلك بعودة المنهج الإسلامي إلى التطبيق في الحياة، ومثّل كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" المنطلق الأساسي لأبرز أفكاره، وقد كان له تأثيرٌ واضحٌ، وقبول طيّب لدى العلماء والمثقفين في القرن العشرين، ومع هذا الاهتمام الكبير بقضايا الفكر الإسلامي، فقد ظلّ الشيخ بفطرته المحبّة للغة العربية والأدب الجميل، وبحسّه وذوقه النّقدي متابعًا للحركة الأدبية والنقدية، ومساهمًا فيها بإضافاته ونظراته المتأنّية، كما كان له إسهامات واضحة في مجال تعليم اللغة العربية في شبه القارة الهندية وفي العالم العربي والإسلامي.

لقد شعر الشيخ الندوي بحماسة كبيرة تجاه اللغة العربية منذ سنٍّ مبكرة، وآمن أنّ خدمتها والمحافظة عليها من أهمّ الواجبات التي ينبغي أن يعتني بها الدارسون والمهتمون والمتخصّصون في العالم العربي والإسلامي؛ لأنّ من شأن ذلك الإسهام أن يقوّي الشعور بالانتماء الثقافي والحضاري لهذه اللغة الكريمة، وسيمكّن العرب من أداء رسالتهم المتعلقة بدينهم ولغتهم، وقد كان الشيخ مؤمنًا بأنّ الفراغ الروحي والخلقي المشين في العالم اليوم لا يمكن أن يملأه إلاّ العرب؛ "فالأمة العربية الإسلامية هي رائدة الإنسانية في القرن السابع وما

بعده من قرون، وماتزال رائدة للرسالة الإسلامية الإنسانية في هذا القرن، لو عرفت قيمتها، ولو عرفت منابع قوتها" (i).

وهدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن تجربة الشيخ الندوي وآرائه بشأن تعليم اللغة العربية واكتساب مهاراتها ومعرفة أساليبها، وذلك من خلال تمهيد تحدثنا فيه عن عناية الندوي باللغة العربية وأسلوبه في الكتابة، وتناولنا في المبحث الأول دعوة الندوي إلى تعليم العربية، وفي المبحث الثاني: منهج الندوي في تعليم أساليب اللغة العربية، وشمل قراءة تحليلية وتقويمية لآرائه ومواقفه من خلال أعماله وكتاباته، ولاسيّما كتبه المشهورة "مختارات من أدب العرب"، و"القراءة الراشدة"، و"قصص النبيين" و"قصص من التاريخ الإسلامي".

تمهيد: عناية الشيخ الندوي باللغة العربية وأسلوبه في الكتابة.

عُني الشيخ الندوي باللغة العربية في سنٍّ مبكرة من حياته، فقد قال في كتابه "في مسيرة الحياة": "بدأ تعلمي للغة العربية في أواخر عام 1924م، وكان ذلك على قدم وساق، وقد كان للشيخ خليل بن محمد اليماني – وهو أحد أساتذته المشهورين – مقرر دراسي خاص اختاره باجتهاده، اشتمل على بعض الكتب المصرية المقررة في مدارسها، وألزمنا بعد أيام على الكلام بالعربية، وإذا تكلمنا بالأردية غرّمنا أربعة فلوس أو فلسين !!" (ii)، وقد ساعدته أصوله العربية المتجذّرة في القدم على حبّ العربية وتعلّمها في أزمان قياسية.

وكان يقدّم العربية دائمًا على اللغات الأخرى التي أتقنها فيما بعد، مثل الأردية والإنجليزية والفارسية، وكان يعد تعلّمه للعربية توفيقًا من الله وحده؛ فقد ساعده ذلك على فهم الإسلام ومطالعة مصادره، وتذوّق الأدب وفنونه، كلّ ذلك من أجل القيام برسالة الدعوة إلى الله، التي آمن أنّه جدير بالقيام بها، ولاسيما أنّه تربى في أسرة معروفة بتقديريها للعلم، و في بيئة كانت في أمسّ الحاجة إلى دور العلماء، وقد ذكر أنّ الله قد وفقه إلى ذلك بعد أن أسندت إليه مهمّة تدريس مادة الأدب العربي لسنوات في دار العلوم بندوة العلماء

(i) الإسلام والحضارة الإنسانية، أبو الحسن الندوي، دار القلم الكويت، ص27.

(ii) في مسيرة الحياة، ط 1 دار القلم دمشق 1987م، ج1 ص 77.

بلكهنؤ، وقد كانت له جهود جبارة في تدريس العربية بأساليب جديدة تقوم أساسا على الممارسة التطبيقية على الطلاقة في التكلّم والتعبير، والتمرين على الخطابة والإفهام، وكان يختار لذلك طرائق حديثة، ويخترع لها ما تسعفه عقليته، وما تمده معلوماته، مستفيدًا من المعطيات الحديثة في التعليم، وقد ظهرت جهوده وإبداعاته في وضع المقرّرات الجامعية التي تخص اللغة العربية وآدابها، وكان كتابه "مختارات من أدب العرب" أحد إنجازاته الكبيرة، حيث لقي قبولاً واستحسانًا بين المثقفين والمهتمين في الهند والعالم العربي والإسلامي، وتقرّر تدريسه في جامعات هندية وعربية، وفاز بالجائزة العربية من رئيس الجمهورية الهندية [i].

وأمّا عن أسلوبه في الكتابة فكأنه قطعة منه؛ ذلك أنّ الأسلوب هو الرجل كما قرر نقاد الأدب والفن، فلا تناقض البتة بين آرائه التي دعا إليها، وطريقته في التعبير عن أفكاره، إن أسلوبه الجميل نابع من اقتناعه بصدق الكاتب وإخلاصه في التعبير عما يعتقده، وفي العفوية والاسترسال والبعد عن التكلّف والصنعة، وعن كلّ ما ينفّر الأذواق عن تقبّل الأدب، و"اللغة التي يكتب بها الشيخ الندوي أو يخطب بها: لغة أدبية راقية، سواء قرأت له مؤلفًا، أو استمعت إليه محاضرًا، وأعني اللغة العربية، فأنت لا تحسّ بأنّ صاحب هذا الكتاب أو الرسالة أعجمي المولد والنشأة، وإن كان عربي النسب والأصل" [ii]. ويقول محمد المجذوب:"ومتتبع ما يكتب الشيخ الندوي يشعر بأنّ لعبارته الأدبية سحرًا لا يتوافر في العادة إلاّ في العلية من أصحاب المواهب، الذين تعمّقوا سرَّ الكلمة، وتفاعلوا به، وكان لقلوبهم أكبر الأثر فيما يصوغونه" [iii].

ولإشراك القارئ في الحكم على أسلوب الشيخ سأختار نماذج مختصرة عن اللغة العربية والأدب العربي اللذين حظيا بعنايته طيلة حياته، قال - رحمه الله - عن الأدب:"إن الأدب الطبيعي الجميل القوي كثير وقديم في المكتبة العربية، بل هو أكبر سنًا وأسبق زمنًا من الأدب الصناعي؛ فقد دُوّن هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يُدوّن الأدب

(i) نفسه، ج1 ص143.

(ii) أبو الحسن الندوي كما عرفته، يوسف القرضاوي، دار القلم، دمشق 1422ه، ص158.

(iii) علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، دار الشواف، الرياض 1992م، (ج1 ص146).

الصناعي في كتب الرسائل والمقامات، ولكنّه لم يحظ من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به الأدب الصناعي، مع أنّه هو الأدب الذي تجلّت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها، وبراعة أهل اللغة ولباقتهم، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى" [i].

المبحث الأول: دعوة الندوي إلى تعليم اللغة العربية

إنّ الشيخ الندوي بثقافته العميقة، واطلاعه الواسع، ومنهجه المتوازن، وأسلوبه الجميل، نموذج نادر من العلماء العاملين الذين قدّموا خدمات جليلة للغة العربية من خلال كتاباته، ومن خلال نشره للوعي اللغوي عن طريق الدعوة الإسلامية، ومخاطبة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، والكلمة الطيبة، وسيكون من المفيد في هذا المقام الإشارة إلى جملة من أفكاره الخاصة بمستقبل اللغة العربية، وسنوجزها في النقاط الآتية:

أولا: وجوب الاهتمام باللغة العربية تعلّما وتعليمًا، ولاسيما تعليمها للمسلمين الأعاجم، والسعي لجعل العربية لغة للعلم والتصنيف، ويختار لها من المناهج ما يدعم وجودها، ويقوي حضورها في الحياة العملية والعلمية، وإشاعة كتابتها بالأسلوب الشائق الذي يناسب العصر، وذلك باختيار ما يجمع بين قوة الاستدلال، وجمال العرض، وعذوبة الكلمات.

ثانيا: ومن أجل خدمة العربية لا بدّ من التوجه بصدق وإخلاص نحو إعادة كتابة تاريخ الأدب العربي، والنظر إلى المكتبة الأدبية القديمة نظرة جديدة، تتشكل منها رؤيتنا إلى الأدب الطبيعي الجميل، وإعادة الاعتبار له بعد سيطرة الأدب المصنوع على التاريخ الإسلامي لفترات طويلة، فالحاجة ماسّة اليوم إلى تأليف جديد يحتوي على مادة جديدة، وزيادات تستخرج من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث أصالة تراثية تعيد للأدب العربي مكانته الحقيقية، وللغة العربية رونقها وجمالها بعد التراجع الواضح في اللغة العربية في السنوات الأخيرة من القرن العشرين.

ثالثا: الربط بين اللغة العربية وقضايا الدعوة الإسلامية، فاللغة وسيلة مهمة من وسائل الدعوة، وتوصيل الأفكار، وتصحيح العقائد، وبث الروح الحضارية النابعة من القيم

(i) نظرات في الأدب، دار البشير عمان الأردن 1990م، ص 22.

والمبادئ الإسلامية، وخاصة عن طريق الأدب الذي يحمل رسالته في الحياة، فقد كان كثيرا ما يردّد هذا القول:"حاجتنا وحاجة هذا العهد، وحاجة العالم العربي بصفة خاصّة، هي الأدب الهادف السليم، الدافق بالحيوية، المتدفق بالقوة، الذي يحمل رسالة إنسانية إسلامية سماوية" [i].

وقد كان الندوي معنيا أشدّ العناية بتحفيز العرب للقيام بواجبهم تجاه اللغة العربية، والتقى بعدّة زعماء عرب [ii]، وهو يرى أنّ هذا الواجب لا يقوم به غيرهم، يقول في سيرته "في مسيرة الحياة":" لما بدأت هذا العمل الكتابي الدعوي، ووفقت بعد ذلك عام (1951م) للسفر إلى الشرق الأوسط قدرت فراسة أخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي؛ إذ إنه اختار لي هذا الطريق، وأتاح لي بمعزل عن مناهج التعليم السائدة فرصة الحصول على سعادة الخطاب للعالم العربي، وإثارة شعورهم ووجدانهم، وإيقاظ عواطفهم الخامدة، ومخاطبتهم بأنها بضاعتكم ردت إليكم عن طريق هذه اللغة والأدب، والكتابة والتحرير، والإنشاء والخطابة... لقد صرحت بأهمية اللغة العربية وضرورة تعلّمها على هذا النطاق، وهذا المستوى الذي لا يستطيع أي عجمي أن يقوم بدوره ومسؤوليته بين العرب بدون ذلك" [iii].

لقد كان من نتيجة اهتمامه باللغة العربية، والتمكّن من أساليبها، أنّ مؤلفاته ورسائله نالت قبولا منقطع النظير، من دون أن يلمس فيها أحد شيئًا من العجمة، بل إنّ الكتاب العرب الأقحاح اعترفوا بفضل أسلوبه ولغته الأدبية [iv].

ويرى الشيخ أنّ جميع اللغات تتغيّر إلى الازدهار بأربعة عناصر هي: الضرورة، والعاطفة، والاندفاع، والنفع والفائدة [v].

(i) نظرات في الأدب، ص113.

(ii) أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، محمد أكرم الندوي، دار القلم، دمشق 2006م، ص377.

(iii) في مسيرة الحياة: ج1 ص 173.

(iv) أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، محمد أكرم الندوي، ص319.

(v) في مسيرة الحياة، أبو الحسن الندوي: (ج2 ص222).

أمّا الضرورة فتتمثّل في أن يتخذ جماعة من النّاس اللغة العربية وسيلة لهم في حركتهم ودعوتهم وثورتهم، حتّى لا يجدون سواها وسيلة، ولا يعدون غيرها أداة لإيصال أفكارهم إلى العامة، ويرى الشيخ أنّ هناك علاقة وقوية بين الحركة واللغة، فهي أكبر سلاحها، وأسهل وسيلة إلى خطاب العامّة والتوصّل إلى عقولهم وقلوبهم، ولَلغةُ إذا رافقت حركةً قويةً وسارت في ركبها، فإنّها تقطع أحيانًا مسافة قرون — لسعتها ورحابة صدرها، ورقيها وازدهارها، وتأثيرها وقوتها — في أعوام وشهور، وتستفيد منها ما لا تستفيد من رعاية الحكومات وإشراف المؤسسات التعليمية وعنايتها بها [i]. وخير دليل على ذلك ازدهار اللغة العربية بعد خمولها في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، حينما بدأ الشعب العربي الإسلامي طرد الاستعمار، وبدأت الحركة الدعوية والثورة العسكرية الدينية في مختلف البلدان الإسلامية.

وأمّا العاطفة فتتمثّل في شحن اللغة بالتعبير عن التجارب الصادقة والمشاعر القوية، ويرى الندوي أنّ خير معين على تجلية العاطفة هو الصدق، فاللغة العربية التي تؤثّر في النفوس هي التي تعبّر عن الإيمان وحرارته، والعاطفة وتدفقها، وهذا هو سرّ بقاء الأدب الإسلامي الحيّ، العامر بالعقيدة والعاطفة والإخلاص والصدق [ii].

وأمّا العنصر الثالث (الاندفاع) فلم يقدّم الشيخ تفسيرًا له، ويرى محمد آزادي أنّ المقصود به هو "أن تخرج الكلمات والعبارات استجابة لما يدفعه قلبه للكلام، فهو استجابة العاطفة والمسايرة مع استجاشة النفس، فلا يتكلّم إلاّ عندما تحرضه عاطفته" [iii]. وقد لا نسلّم بهذا الرأي لأنّه لا يختلف عن العنصر السابق (العاطفة)، وأقرب مدلول للاندفاع هو الفاعلية والحماسة والحزم؛ فخدمة اللغة العربية يحتاج إلى أن يكون لدى الأديب أو غيره من المعبّرين بأساليب اللغة العربية الدوافع النفسية القوية والفاعلية والحزم في أداء هذه الرسالة

(i) نفسه: (ج2 ص222).

(ii) نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي، ص32.

(iii) آراء الشيخ أبو الحسن اللغوية، محمد عبد السلام آزادي، مجلة الأدب الإسلامي، العدد 26 و27 سنة 1421ه الرياض، ص74.

العظيمة، وألاّ تكون تلك الدوافع نابعة من إخلاص وتوجه صادق، ولذلك انتقد الشيخ تلك الكتابات الأدبية التي تكون بدوافع سطحية، فتكون في غالبها باقتراح من ملك أو وزير أو صديق، أو لإرضاء شهوة الأدب، أو تحقيق رغبة المجتمع، أو حبًا للظهور والتفوّق، وهذه لا الدوافع لا تمنح الكتابة القوّة والروح ، ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود، ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب [i].

وأمّا العنصر الرابع (النفع والفائدة) فالمقصود به وظيفة اللغة الطبيعية؛ فهي أداة للتواصل وتبادل الخبرات والمعلومات، وقد كانت اللغة العربية نافعة لأهل البلاد المفتوحة، حيث وجدوا فيها لغة تحمل الدين والحضارة الجديدة بجميع مستوياتها، فازدهار اللغة يكون بتحقيق وظيفة اللغة العربية من خلال التواصل والكتابة بها، وتوفير سبل تعليمها لأهلها وللآخرين، وتيسير أساليبها بالوسائل الحديثة حتى تتمكن من المنافسة في إيجاد مكان لها بين اللغات العالمية في عصر اشتدت فيه المنافسة بين اللغات بسبب تيار العولمة الجارف، وما يحمله من أخطار وتحديات على ثقافة الشعوب العربية والإسلامية.

المبحث الثاني: منهج الندوي في تعليم أساليب اللغة العربية

إنّ تعليم اللغة العربية في منظور الشيخ الندوي لا يعتمد على المبادئ النظرية فقط، بل لا بدّ من مناهج عملية تطبيقية تكون في متناول المدرّسين، لكي تأخذ بأيدي المتعلّمين وتساعدهم على اكتساب مهارات اللغة وممارسة وسائل الاتصال مع الآخرين؛ ولذلك عمد الشيخ إلى وضع بعض الكتب – التي هي بمثابة مناهج ميسّرة للغة العربية – لتكون بين أيدي المدرّسين والمتعلّمين، فألّف كتابه مختارات في أدب العرب عام 1940م، وسلسلة قصص النبيين للأطفال، وسلسلةً أخرى للأطفال باسم: القراءة الراشدة في الفترة ما بين 1942-1944م. وعند النظر في هذه المؤلفات نلحظ أنّه مهتم بمرحلة الطفولة، وهي مرحلة مهمّة في تعلّم العربية، والتعوّد على التحدّث بها، واكتشاف أساليبها، وإتقان مخارج حروفها، ومن خلال تجربته الشخصية الناجحة قدّم تلك النصوص بأسلوب ميسّر، وكأنّه

(i) نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي، ص32.

يقول لنا: إنّ النصّ الجيّد وما يرتبط به من قراءة وتدبّر وتحليل وحفظ، هو المنطلق الأساسي في تعلّم أساليب العربية، وألاّ تطغى دراسة القواعد النحوية والصرفية بطرائقها الجافة على طريقة التعليم، فتكون سببًا في نفور الطالب عن العربية، بل تدرّس القواعد من خلال النصوص وبصورة وظيفية ميسّرة. وسنقوم بعرض تحليلي لهذه المؤلفات ليتبيّن لنا المنهج الذي يراه الشيخ مناسبًا لتعليم العربية وإتقان مهاراتها وأساليبها.

(1) كتاب القراءة الراشدة

كتاب "القراءة الراشدة" هو مجموعة من النصوص المختارة الموجهة لتحقيق أهداف تربوية وتعليمية ودينية، واحتوت أجزاؤه الثلاثة على مواد في اللغة والأدب، وموضوعات في الأخلاق والعقائد تناسب مراحل الطفولة، ويبدو أنّها وضعت "بأسلوب تدريجي ملائم لذوق الناشئة المسلمة الهندية، واجتهد الشيخ في أن تكون اللغة أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسنّة، واستعمال الكلمات المستحدثة التي لها أصل عربي، واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية، وتكرار المفردات حتّى يتمرّن عليها الطالب، وتنوع الموضوعات والمواد لينشط الطالب، وينتقل فيها من فائدة علمية إلى حديث ممتع وحوار لذيذ، ومن درس علمي إلى حكاية تاريخية، ومن نثر إلى شعر أو نشيد، ونقل الموضوعات الواردة في الحديث إلى لغة سهلة على أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال، ودروس خلقية تهذيبية تعلّم الآداب الإسلامية في مختلف نواحي الحياة، وتضمين الدروس الأدعية المأثورة والآداب الدينية بحيث لا يشعر الطالب بأنّها تلقى عليه إلقاءً، بل يحفظها في ثنايا الدروس والحكايات، والروح الديني الساري في الكتاب بحيث لا يمكن تجريد الكتاب منه، ويعمّ ذلك الدروس الدينية ودروس المعلومات الكونية والطبيعية والحيوانية والنباتية وعن الاختراعات الحديثة" [i].

وجاء تأليف هذا الكتاب ليسدّ فراغًا كبيرًا في مناهج تعليم العربية في الهند، فقد كانت (مقامات الحريري) هي الكتاب الأساسي المقرّر في المدارس، ولمّا جاء الشيخ أحمد الشرواني

(i) أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، محمد أكرم الندوي، ص566.

من اليمن ألف كتابًا صغيرًا سمّاه (نفحة اليمن) يحتوي على قصص وحكايات فكاهية، فنال إعجاب علماء الهند، وجعلوه منهجًا يدرسه الطالب قبل المقامات، و لم تكن الكتب الموجودة في البلاد العربية في تلك الفترة مناسبة لأذواق المسلمين في الهند وما جاورها، فعلى الرغم من لغتها الجميلة الراقية تشتمل على موضوعات ومعلومات عن بلاد العرب، كما أنّها فارغة من الروح الدينية. فاهتمّ الشيخ بوضع هذا الكتاب ليكون منهجًا تعليميًا مناسبًا للهند وثقافتها، ومحققًا لأهداف تربوية وتعليمية ودينية، مع مراعاة المستجدات الحديثة.

وبالنظر في محتويات هذا الكتاب تتضح معالم منهج الشيخ في تعليم العربية من خلال النقاط الآتية:

1. التركيز على تعليم مهارات اللغة العربية منذ سنّ الطفولة؛ حتّى يتمكّن الطالب من إتقان مخارج الحروف، ويتعوّد لسانه على تذوّق أساليب اللغة.

2. الانطلاق من القراءة لترسيخ مهارات العربية، فمن خلال القراءة ينمي الطالب مهارة التحدّث والفهم والكتابة، واشترط للقراءة أن تكون راشدة؛ أي قراءة واعية وفق منهاج تعليمي يجمع بين المعرفة والتربية وتهذيب النفس.

3. اختيار النصوص التي تتحقّق فيها جماليات الأدب، وسهولة الأساليب، وقوّة المضامين، وأن تكون نابعة من الأدب الإسلامي الحيّ، الذي يغرس الروح الدينية الصحيحة في النفوس.

4. الجمع بين الموضوعات التراثية والموضوعات الحديثة، حتّى يتعرّف الطالب على موروثه الثقافي، ويكتشف ما فيه من معارف وآداب، ويتعرّف على المعطيات والمعارف الحديثة.

5. ضرورة تنويع النصوص لتشمل الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية، ونماذج من النثر الأدبي والقصص التاريخية، ونماذج من الأشعار والأناشيد، وأن تكون مناسبة لمراحل الطفولة، وبأساليب سهلة وميسرة، يجد فيها الأطفال الفائدة والمتعة من خلال ذلك التنوّع في الأساليب.

(2) كتاب "قصص النبيين للأطفال"

اهتم الشيخ بالقصص القرآني، ورأى فيه ميدانًا فسيحًا لتربية الأطفال وتعليمهم العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة، كما رأى فيه وسيلة مهمّة لتعليم اللغة العربية، فقام بتأليف سلسلة من خمسة أجزاء أسماها (قصص النبيين للأطفال)، وهي تشمل على قصص أبرز الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم، وكان هدفه التعليمي والتربوي واضحًا، قال في مقدمة الجزء الأول من سلسلة القراءة الراشدة:"رأى المؤلف كتبًا صغيرة لبعض أدباء مصر في حكايات الأسد والذئاب، والقردة والذباب، حتى الخنازير والكلاب، فصيحة العبارة، قليلة المغزى، عربية الوضع، أفرنجية الروح، إسلامية اللغة، جاهلية السبك، فيها صور الحيوانات في اللباس الغربي، فساءه أن لا يقرأ أبناء المسلمين في العربية أيضًا إلاّ قصص الحيوانات والأساطير والخرافات، فكتب لهم قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، بأسلوب يحاكي أسلوب الأطفال وطبيعتهم من تكرار الكلمات والجمل، وسهولة الألفاظ وبسط القصة، وزيّن الكتاب بصور مناظر الطبيعة والأبنية المقدّسة".

وقد نال هذا الكتاب رضا بعض العلماء الذين أعجبوا بفكرته، وبأسلوبه الجميل الموجّه إلى الأطفال، وقد عدّه بعضهم من مؤلفات الشيخ التجديدية في أدب الأطفال [i]. ويكمن القول أنّه من كتبه المتميّزة في تعليم اللغة العربية واكتساب مهاراتها، وتذوّق أساليبها، فالشيخ يعلم أنّ القصة هي إحدى أهم الوسائل المهمّة في التعليم، فهي محبّبة إلى نفوس الأطفال، فأراد تقديم مادة ميسرة لتنمية مهارات القراءة لدى الأطفال، فضلاً عن الأهداف الدينية الأساسية مثل غرس العقائد، وتثبيت الأخلاق والقيم الإسلامية في نفوس النشء، وقصص الأنبياء هي أفضل القصص في التاريخ البشري، وهي التي ينبغي أن يُعتنى بها بدل تلك العناية التي لاحظها الشيخ بقصص الحيوانات والأساطير والخرافات.

(3) كتاب "قصص من التاريخ الإسلامي".

اهتم الشيخ الندوي بأدب الأطفال ولاسيما فنّ القصة، وبعد أن انتهى من كتابة (قصص النبيين للأطفال)، سعى إلى التوسّع في هذا المجال، فكتب (قصص من التاريخ

(i) أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، محمد أكرم الندوي، ص564.

الإسلامي)، وهي تشمل مجموعة من القصص والأخبار الشائقة اختارها من التراث الإسلامي، ولاسيما جيل الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم من العلماء والأدباء الناجحين، و"قد قام الشيخ بانتقاء حكايات خفيفة شائقة، مثيرة مفيدة من كتب السيرة وتاريخ الإسلام، والسير والتراجم، وصاغها في لغة سهلة وأسلوب مبسط لائق بالأطفال، والذين حصل لهم إلمام بالعربية" (i).

لقد راعى الشيخ في هذه المجموعة عقلية الأطفال ومستواهم العلمي، بحيث يستسيغونها بدون سآمة وملل، والمجموعة كلّها بالإجمال تتمثل في تهيئة أجواء ملائمة للتذوّق والتشويق، والتقريب والتعوّد على القراءة والتعلّم، بجانب رفع الروح المعنوية والخلق النبيل والعقيدة القويمة (ii).

لقد لقيت هذه المجموعات القصصية التي ألفها الشيخ للأطفال قبولا لدى المهتمين بأدب الأطفال، وقد قرّرت في المناهج الدراسية في معاهد ومدارس الهند وبعض البلاد العربية، منها المملكة العربية السعودية.

(4) كتاب "مختارات من أدب العرب"

يشتمل هذا الكتاب (في جزأيه) على ثلاثة وسبعين نصًا أدبيًا، تمثّل الأدب العربي في جميع معالمه ومناحيه الأدبية والتاريخية من العصر الإسلامي إلى القرن العشرين، وهي متميّزة بتنوعها من قرآن كريم، وحديث شريف، وخطب ورسائل نثرية، وقصص وروايات أدبية، ونصوص من كتب التاريخ والحضارة والفكر، كما اشتملت على أربعة عشر نصًا لكتّاب معاصرين، وهي جامعة لألوان من الأدب الجميل الذي يعبّر عن الفنّ والإبداع في اللغة العربية، ويحفزّ غريزة التذوّق لدى القارئ والدارس.

وفكرة الكتاب كما حدّدها رؤية الشيخ هي في اختيار قطع من "النثر الأدبي" على وجه الخصوص، تحتوي على نماذج أدبية عالية من اللغة العربية، بشرط أن تكون متحرّرة من السّجع والتكلف، وتعبّر عن العواطف والمشاعر الجيّاشة، وتعرض للتصورات السليمة، والمقاصد

(i) المرجع نفسه، ص567.

(ii) الشيخ أبو الحسن الندوي وتطوّر اللغة العربية، محمد اجتباء الندوي، مجلة الأدب الإسلامي، العدد26 و27 سنة 1421ه، ص67.

السامية، ولا تعرض اللغة العربية في نغم واحد، وصبغة واحدة كما هو الحال في النماذج **الأدبية المتداولة مثل** "مقامات الحريري"، وغيرها من نماذج الأدب المصنوع التي كانت **سيطرت على** الأوساط العلمية والأدبية في الهند، وفي غيرها من البلاد العربية والإسلامية. و"**من الطريف** أنّ الكاتب قد حمل على الكتّاب المتكلّفين من أمثال الحريري والقاضي الفاضل **وقبلهما** بديع الزمان وابن العميد، ولكنّه عند التطبيق اضطر إلى إيراد نصوص أدبية لهم، وقد **علّل ذلك** بالقيمة الفنية لتلك النصوص، ولأنّها تمثّل دورًا من تاريخ الأدب الإسلامي... ويبدو أنّ المؤلف أراد أن يعطي تصورًا واضحا عن الأدب العربي في أطواره، أمّا من المنظور الفنّي الخالص فإنّ إيراد الكاتب لتلك النصوص يمثّل تراجعًا نسبيًا عن موقفه، وإشعارًا بأنّ الجانب التطبيقي لن يكون محقّقًا تمامًا لتطلعات المؤلف وغاياته السامية"[i].

وهذا المنهج الذي وضعه الشيخ من خلال هذه المختارات مناسبٌ – فيما يبدو – لمراحل ما بعد الطفولة، وله أهمية كبيرة في تعليم اللغة العربية اليوم؛ لأنّه قائم على فكرة إحياء الأدب الحيّ من تراثنا الأدبي والفكري الواسع، والتخلّص من سيطرة الأدب المصنوع الذي كان الشيخ يسمّيه (الأدب المزخرف)، والمعروف بتكلفه وتصنّعه، وخلوه من العاطفة والعقيدة الصادقة.

وأمّا الشروط التي ينبغي مراعاتها في اختيار النصوص من خلال رؤية الشيخ فتتمثّل في الآتي:

أولا: أن يكون النصّ من النثر الفني لأنه أنفع في تعلّم اللغة، وأجدى في اكتساب مهارات الكتابة والقراءة.

ثانيا: أن يكون بلغة فصيحة مسترسلة، لا تكلّف فيها ولا سجع.

ثالثا: أن يكون عامرًا بالعاطفة والصدق والإخلاص، وحاملاً للأفكار والقيم السليمة، ومثل هذه الشروط – كما يرى الندوي – متوفرة في كتب الحديث الشريف، والسيرة النبوية، والتراجم، وكتب الطبقات والرحلات، وفي الكتب التي أُلفت في الإصلاح والدين

(i) مختارات أبي الحسن الندوي الريادة في المنهج والتطبيق، عبد الله بن صالح العريني، مجلة الأدب الإسلامي، العدد26 و27 سنة 1421ه الرياض، ص53.

والأخلاق والاجتماع، وفي كتب الوعظ والتصوف، وفي الكتب التي سجل فيها المؤلفون خواطرهم وتجارب حياتهم [i].

لقد أصبحنا ندرك اليوم قيمة هذه الآراء ونحن نمارس تعليم العربية لهذا الجيل، الذي لم يعد يتذوّق العربية في تلك النماذج الأدبية التقليدية المكرّرة، كما أن ميول الطلاب واتجاهاتهم العلمية والعقلية نحو كلّ جديد سيحتم إعادة النظر في المناهج بما يتناسب مع مستجدات هذا العصر.

وتبدو قيمة هذه المختارات في أنّها "تمثّل تطبيقًا عمليًا، وشاهدًا عدلاً لدعوة أبي الحسن الندوي إلى إعادة اكتشاف تراثنا والتأكيد على دوره وجواهره، التي لم تقدّم للناس على الرغم من وفرتها، ونفاستها في بحر التراث المتلاطم الأمواج، ومن جوانب القوة في هذه المختارات العنصر الزمني لظهورها (1359ه) الذي يسجّل أُسبقية مهمّة؛ فهي تعدّ في الأدب الحديث من المختارات الرائدة الجيّدة، التي استطاعت أن تقدّم نفسها أنموذجًا للاختيار الصحيح، وهذه الأسبقية للدعوة إلى منهج إسلامي في الأدب، ...وتتجاوز هذه المختارات المؤلفات التقليدية إلى مؤلفات ومراجع جديدة؛ وهذه الميزة تمثّل واحدة من الميزات الكبرى لهذا الكتاب، الذي يفتح عيوننا على منابع أخرى للأدب العربي الجميل الأصيل، ومن أبرزها كتب الحديث والتاريخ، وحينئذ نظفر منها بالرائع الجميل الذي اعتقدنا أنّنا لا نجده إلاّ في مصادر محدّدة، بدت لنا هي مصادر الأدب فحسب" [ii].

ومع أن الشيخ الندوي بذكائه وبعد نظره قد صرّح بهذه الآراء في الثلاثينيات من القرن العشرين، إلا أن العالم العربي لم يعرف الندوي وفكره إلاّ في النصف الثاني من القرن نفسه، وبالتحديد في سنة (1951م)، حين صدر له كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، الذي لقي قبولاً لدى القراء، وترك صدى طيبًا في نفوس المثقفين والمتعلّمين منذ ذلك التاريخ، ومازال الكتاب أحد المراجع الأساسية في التعريف بالإسلام، وبيان خصائصه

(i) نظرات في الأدب، ص 34.

(ii) مختارات أبي الحسن الندوي، عبد الله صالح العريني، ص54.

العالمية، فضلا عن قيمته في الكشف عن العلل التي أصابت العالم الإسلامي، وتقديم الأدوية المناسبة عن طريق نهضة إسلامية حقيقية، وأخذ الكتاب قيمته الأدبية أيضًا من خلال أسلوبه الجميل، ولغته السهلة المتماسكة، وكأن الذي كتبه يملك العربية فطرة وسليقة، وهذا ما جعل سيد قطب – رحمه – يقدم له قائلا:"هذا الكتاب الذي بين يدي "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" لمؤلفه "السيد أبي الحسن الندوي" من خير ما قرأت في هذا الاتجاه في القديم والحديث على السواء" (i). وقال الأستاذ أحمد الشرباصي عن الندوي وأسلوبه:" له غرام أصيل عميق باقتناء الكتب وقراءتها، وقد أفادته هذه المطالعات والمسامرات قدرة على الارتجال بالعربية، فهو يتدفّق كالسيل بلغة بليغة فيها الصور البيانية، والتعبير الجميل، وأسلوبه يغلب عليه العنصر العاطفي الملتهب، ومع ذلك إذا طرق باب البحث أجاد وأفاد وأمتع أيضا" (ii).

ومن روائع ما كُتب عن الشيخ الندوي تلك المقدّمة التي كتبها الشيخ "علي الطنطاوي" عند اطلاعه على هذا الكتاب، حيث قال:" لقد كانت أول معرفتي بأبي الحسن من كتابه "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" لما رأيت هذا الكتاب لم أكن أعرف مؤلفه، فقلت من هذا الباحث الهندي الذي يكتب بمثل هذا الأسلوب العربي النقي، ويحيط بأحوال المسلمين هذه الإحاطة؟ ثم علمت أنه هندي المولد، ولكنّه عربي الأرومة" (iii).

خاتمة:

خلص البحث إلى النتائج الآتية:

1. اهتم الشيخ الندوي باللغة العربية، وآمن بضرورة خدمتها والمحافظة عليها، وأنّ ذلك من أهمّ الواجبات التي ينبغي أن يعتني بها الدارسون والمهتمون والمتخصّصون في العالم العربي والإسلامي.

(i) انظر مقدمة ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، دار الجيل 1991م، ص5.

(ii) نفسه ص 31، 32.

(iii) في مسيرة الحياة، ج1 ص 10.

2. الأسلوب الجميل في العربية نابع من اقتناع الكاتب وصدقه وإخلاصه في التعبير عما يعتقده، وفي العفوية والاسترسال والبعد عن التكلّف والصنعة، وعن كلّ ما ينفّر الأذواق عن الأدب الطبيعي الجميل.

3. ضرورة الاهتمام باللغة العربية تعلّما وتعليمًا، والسعي لجعلها لغة العلم والتصنيف، ويختار لها من المناهج ما يدعم وجودها، ويقوي حضورها في الحياة العملية والعلمية، وإشاعة كتابتها بالأسلوب الشائق الذي يناسب العصر.

4. التوجه بصدق وإخلاص نحو إعادة كتابة تاريخ الأدب العربي، والنظر إلى المكتبة الأدبية القديمة نظرة جديدة، تتشكل منها رؤيتنا إلى الأدب الطبيعي الجميل.

5. الربط بين اللغة العربية وقضايا الدعوة الإسلامية، فاللغة وسيلة مهمة من وسائل الدعوة، وتوصيل الأفكار، وتصحيح العقائد، وبث الروح الحضارية النابعة من القيم والمبادئ الإسلامية، وجميع اللغات تتغيّر إلى الازدهار بأربعة عناصر هي: الضرورة، والعاطفة، والاندفاع، والنفع والفائدة.

6. تعليم اللغة العربية في منظور الشيخ الندوي لا يعتمد على المبادئ النظرية فقط، بل لا بدّ من مناهج عملية تطبيقية تكون في متناول المتعلّمين والمدرّسين.

7. إنّ النصّ الجيّد وما يرتبط به من قراءة وتدبّر وتحليل وحفظ، هو المنطلق الأساسي في تعلّم أساليب العربية، وقد ألّف الشيخ مؤلفات تطبيقة هي: مختارات في أدب العرب عام 1940م، وسلسة قصص النبيين للأطفال، وسلسلةً أخرى للأطفال باسم: القراءة الراشدة في الفترة ما بين 1942-1944م.

8. التركيز على تعليم مهارات اللغة العربية منذ سنّ الطفولة؛ حتّى يتمكّن الطالب من إتقان مخارج الحروف، ويتعوّد لسانه على تذوّق أساليب اللغة. اختيار النصوص التي تتحقّق فيها جماليات الأدب، وسهولة الأساليب، وقوّة المضامين، وأن تكون نابعة من الأدب الإسلامي الحيّ.

9. مختارات الندوي الأدبية لها قيمة كبيرة لأسبقيتها التاريخية؛ فهي تعدّ في الأدب الحديث من المختارات الرائدة الجيّدة، التي استطاعت أن تقدّم نفسها أنموذجًا للاختيار النابع

من فكرة الأدب الإسلامي، ولأنّها تمثّل التطبيق العملي، والبرهان الكاشف لدعوة أبي الحسن الندوي إلى إعادة اكتشاف تراثنا الأدبي، وتصنيفه تصنيفًا جديدًا اعتمادًا على المضمون بالدرجة الأولى، مع مراعاة الجوانب الفنية.

المصادر والمراجع:

1. الإسلام والحضارة الإنسانية، أبو الحسن الندوي، دار القلم الكويت (د.ت).
2. جهود أبي الحسن الندوي في خدمة الأدب الإسلامي، عبد الباسط بدر، مجلة الأدب الإسلامي، العدد26، 27 1421ه الرياض.
3. أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، محمد أكرم الندوي، دار القلم، دمشق 2006م.
4. أبو الحسن الندوي كما عرفته، يوسف القرضاوي، دار القلم، دمشق 1422ه.
5. علماء ومفكرون عرفتهم، محمد المجذوب، دار الشواف، الرياض 1992م.
6. في مسيرة الحياة، أبو الحسن الندوي، ط 1 دار القلم دمشق 1987م.
7. القراءة الراشدة، أبو الحسن الندوي، مطبعة ندوة العلماء، الهند 1988م.
8. قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، أبو الحسن الندوي، منشورات رابطة الأدب الإسلامي ودار البشير، عمّان الأردن 1997م.
9. قصص النبيين للأطفال، أبو الحسن الندوي، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان.
10. ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، دار الجيل، بيروت 1991م.
11. مختارات أبي الحسن الندوي الريادة في المنهج والتطبيق، عبد الله صالح العريني، مجلة الأدب الإسلامي، العدد 26، 27، لسنة 1421ه الرياض.
12. نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي، دار البشير، عمان الأردن 1990م.

نظرية الأدب الإسلامي في فكر أبي الحسن الندوي

د. محمد سالم سعد الله
كلية الآداب / جامعة الموصل

المقدمة

يكتسب مسار الحديث عن نظرية الأدب الإسلامي المعاصر مجموعة من الإشكاليات الفكرية والعملية ، انطلاقا من تحديد بنيته المعرفية في الاشتغال ، مرورا بتصوراته الفنية والإجرائية ، وغير انتهاء بحقوله التطبيقية ومحدداتها .

وتتمتع حقول اشتغال نظرية الأدب الإسلامي المعاصر بفواعل وتصورات وممكنات : أما الفواعل فتتمثل بمجموعة من العناصر التي تحفظ توجهه الفني ، وأما التصورات فترتبط بالأس الفكري النابع منه ، وأما الممكنات فتتحدد بفضاءات من الإبداع التطبيقي والمعالجات التحليلية .

ويخضع مسار التفكير النقدي ذي التصور الإسلامي لمتوالية من الأسئلة المنهجية المتعلقة بمدى صلاحية هذا النقد لاختبار النص وكشف المعنى والوصول إلى طبقات الدلالة المتنوعة بتنوع القراءة وتعددها ، فضلا عن نجاعته في إمكانية التحرر أو عدمه من سلطة التمركز حول نفسه المثقلة بالتفرد ، والمزدانة بإقامة الحواجز بين عندياته ومعطيات الآخر .

كما يخضع هذا النقد — في الآن نفسه — إلى صيغ معرفية تستدعي الخوف من أن يتحول إلى سجن كبير للمعاني في ظل الايديولوجيا المحركة له ، والبانية لتصوراته !.

وانطلاقا مما ذكر اشتغل الشيخ أبي الحسن الندوي في ميدان (النظرية) المتعلقة بتأصيل الأدب الإسلامي عبر متابعة طروحاته ، وإعادة ترتيب تصوراته ، وفقا لفهم دقيق لانجازات

الواقع النقدي ، بعيدا عن صور المثالية التي قد تحملها بعض الدعوات المحسوبة على مباحثه ومعطياته ، ونفيا لمقولات التكامل في المنجز منه .

يسعى هذا البحث لبيان الاشتغال الفكري والنقدي في إطار نظرية الأدب الإسلامي للندوي تأصيلاً وتحليلاً مشيرين إلى جوانب هذا التأصيل وأدواته الفكرية ، وتصوراته في كشف العلاقات ، وإمكانياته في الصياغة والصناعة والإجراء والإنجاز عبر مبحثين اثنين :

ـــــ المبحث الأول : نظرية الأدب الإسلامي : المفهوم والاشتغال .

ـــــ المبحث الثاني : الفكر النقدي للندوي : التأصيل والإنجاز .

المبحث الأول

نظرية الأدب الإسلامي : المفهوم والاشتغال

تقدم نظرية الأدب الإسلامي تصورات مفاهيمية اشتغالية لمسارات الأدب ، بدءاً من ساحته النقدية المعاصرة وما يكتنفها من إشكاليات وأزمات ، ونتاجات ومعطيات ، فضلا عن رسم الشخصية النقدية ذي الصبغة العالمية ، التي تحتضن لفيفاً من التوجهات والإبداعات المتنوعة والمختلفة ، ومعرفة السلوكيات التي تقدم اشتغالات معاصرة لبنية الإبداع وكشفٍ لجماليته .

ولا شك إن المفكرين والنقاد الإسلاميين المعاصرين أفردوا دراسات وكتباً عدة تناولت نظرية الأدب الإسلامي من حيث مجالاتها وأقسامها ومحاورها ومعطياتها وطرائق اشتغالها وخصائصها ونحو ذلك ، وقد تنوعت مسارات تناول نظرية الأدب الإسلامي بين تقديم لمنظورها النقدي ، وبيان لأسسها الجمالية ، وتوضيح لعناصرها الأساسية ، وشرح لمعطياتها الإسلامية وتحديد الفوارق بينها وبين المذاهب الأدبية[i] ، وبين حديث عن أهمية تناول محاضن العمل الأدبي ، وتحديد دور الأدب الإسلامي والحاجة الملحة إليه[ii] ، وبين تحديد للمفاهيم ، والتعريف بالمصطلحات ، وتوضيح الصلات بين الادب الاسلامي وبين غيره

(i) ينظر : مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ، عماد الدين خليل . ونحو نظرية للأدب الإسلامي ، محمد أحمد حمدون .

(ii) ينظر : مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ، عبد الباسط بدر . ومقدمة في دراسة الأدب الإسلامي ، مصطفى غلفان . والأدب الإسلامي وصلته بالحياة ، محمد الرابع الحسن الندوي .

من العلوم والفنون المتنوعة[i] ، وبين تحديد أسس اشتغال ميدان الأدب الإسلامي وبيان أبعاده الإنسانية والعالمية[ii] ، وبين إدراك لجمالياته وطرائق إبداعه وتصوراته[iii] ، وبين معالجة الجوانب النقدية وتحديد عناصرها وآلياتها[iv] ، وبين السعي نحو بناء أسسٍ للتنظير لمذهب إسلامي للأدب والنقد[V] .

وتكتسب مسارات الأدب الإسلامي مجموعة من الإشكاليات الفكرية والعملية ، انطلاقا من تحديد بنيته المعرفية في الاشتغال ، مرورا بتصوراته الفنية والإجرائية ، وغير انتهاء بحقوله التطبيقية ومحدداتها . ويمكننا الحديث عن تصورات نظرية الأدب الإسلامي عبر محورين اثنين : (النقديّ ، والقيميّ) .

ــــ المحور الأول : النقديّ

تتمتع حقول اشتغال النقد الإسلامي المعاصر بفواعل وتصورات وممكنات : أما الفواعل فتتمثل بمجموعة من العناصر التي تحفظ توجهه الفني ، وأما التصورات فترتبط بالأس الفكري النابع منه ، وأما الممكنات فتتحدد بفضاءات من الإبداع التطبيقي والمعالجات التحليلية .

ويخضع مسار التفكير النقدي ذي التصور الإسلامي لمتوالية من الأسئلة المنهجية المتعلقة بمدى صلاحية هذا النقد لاختبار النص وكشف المعنى والوصول إلى طبقات الدلالة المتنوعة بتنوع القراءة وتعددها، فضلا عن نجاعته في إمكانية التحرر أو عدمه من سلطة التمركز حول نفسه المثقلة بالتفرد ، والمزدانة بإقامة الحواجز بين عندياته ومعطيات الآخر .

(i) ينظر : الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، شلتاغ عبود . والملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، الطاهر مكي.

(ii) ينظر : الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ، عدنان النحوي . والأدب الإسلامي قضية وبناء ، سعد أبو الرضا .

(iii) ينظر : جمالية الادب الإسلامي ، محمد عروي . وفي جماليات الأدب الإسلامي النموذج والنظرية ، سعد أبو الرضا

(iv) ينظر : في النقد الإسلامي المعاصر ، عماد الدين خليل . وأطياف النص دراسات في النقد الإسلامي المعاصر ، محمد سالم سعد الله .

(V) ينظر : نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ، عبد الرحمن باشا . ومدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي ، علي الغزيوي .

كما يخضع هذا النقد ـــ في الآن نفسه ـــ إلى صيغ معرفية تستدعي الخوف من أن يتحول إلى سجن كبير للمعاني في ظل الايديولوجيا المحركة له ، والبانية لتصوراته ! ، وانطلاقا مما ذكر حاول المشتغلون في هذا الإطار متابعة طروحاته ، وإعادة ترتيب تصوراته، وفقا لفهم دقيق لانجازات الواقع النقدي ، بعيدا عن صور المثالية التي قد تحملها بعض الدعوات عن معطياته ، ونفيا لمقولات التكامل في المنجز منه[أ].

ويشتغل المرتكز النقدي للأدب الإسلامي المعاصر على مجموعة (مهيمنات) معرفية تشير إلى قوة هذا النقد في أدواته الفكرية ، وتصوراته في كشف العلاقات ، وإمكانياته في الصياغة والصناعة والإجراء والإنجاز.

وتكتنز هذه المهيمنات مجموعة الأهداف التي يسعى النقد الإسلامي لتحقيقها ، كما تحمل امتيازات الخصوصية في الطرح والتناول ، ومن أهم هذه المهيمنات : (المقاصدي ، والتنموي ، والتنظيمي ، والشمولي ، والبنائي) .

تؤكد هذه المهيمنات بمجموعها حيوية المرتكز النقدي الإسلامي بوصفه نظاماً واعياً لتحولات النصوص، وعلاقتها مع الآخر ، وإدراكها أهمية التواصل مع الأصوات المتعددة ، المانحة لرسائل تعين في بيان مترلة الآخر ، وترسم موقعاً ذا خصوصية للأنا .

(أ) من المهم ذكره أن الاشتغال في ميدان الأدب الإسلامي أصبح اشتغالا علميا مؤسساتيا ، وجهدا إبداعيا جماعيا ، خُصِصت له ميادين علمية ، وأروقة أكاديمية عديدة ، ومؤسسات معرفية داعمة ، نظراً لما يحمله هذا التوجه في الأدب من رسالة حضارية عقدية قصدية ، ومن تلك المؤسسات التي رفدت توجه الأدب الإسلامي ، وحملت مشروعه ، ورسمت مسيرته : رابطة الأدب الإسلامي العالمية التي أسسها الشيخ أبو الحسن الندوي (رحمه الله) في (لكنو) بالهند 1981م، ثم في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في 1982م، ثم في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1985م . وخلال هذه الفترة من التحضير والعمل الدؤوب واللقاءات المستمرة انبثقت الهيئة التأسيسيـــة للرابطة وأعلنت عن قيام (رابطة الأدب الإسلامي العالمية) التي أقامت مكاتب لها في دول عدة عربية منها وإسلامية وعالمية ، وبعد وفاة الشيخ أبي الحسن الندوي ترأس الرابطة الدكتور عبد القدوس أبو صالح ، وأصبح مقرها الدائم في الرياض ـــ المملكة العربية السعودية . للاستزادة ينظر موقع الرابطة : http://www.adabislami.org

وتفتقر هذه المهيمنات إلى مسارات التطبيق والتبني ، ولذلك ما زالت مسيرة النقد الإسلامي المعاصر في إطار المزالق والمعوقات، ، وليس في إطار المكاسب والإنجـازات ، ويمكن تقديم أهم الأسباب بالآتي :

1. بروز نقاط الضعف المنهجيّ والفنيّ في تقديم ممارسات النقد الإسلاميّ المعاصـر على حساب الجانب الدعوي والإرشادي .

2. عدم الاهتمام بالتغيرات الحاصلة في البيئة النقدية العالمية على صعيد التحولات المنهجيّة والتغيرات الأدبية ، وذلك نظراً للتبعية المسيطرة على نتاجات النقاد العرب .

3. انشغال نقاد الأدب الإسلاميّ المعاصر بالنصح والإرشاد في تقديم نتاجاتهم ، أكثر من اهتمامهم بتقديم النتاجات الأدبية والنقدية بصورة جمالية فنية .

4. عدم استطاعة النقد الإسلاميّ المعاصر مجاراة النقود المنهجيّة العالميّة على صعيد البنيوية وما بعدها، نظراً للبون الشاسع بين النقدين : (الإسلاميّ ، والغربيّ) ، ومن الجدير بالذكر أنّ النقد الإسلامي قد حقق شوطاً مهماً في رسم حدوده وتحديد خصائصه ، لكنها خطوة ما زالت تحتاج إلى الكثير من الجهود والنتاجات .

5. انحسار الأدب الإسلاميّ بين أروقة ميادين العبادة ، وألسنة الدعاة.

6. يتصف رجال الأدب الإسلاميّ المعاصر ونقده ـــ في الغالب، ـــ ببعدهم عن التخصص الدقيق في الأدب والنقد ، ويقود هذا إلى وصف نتاجاتهم بكونها ممارسات متموضعة من خارج النقد ، وليس من داخله، وقد خلق هذا فجوة كبيرة بين ما يطرحه هؤلاء النقاد ، وطروحات النقد المنهجيّ المعاصر

7. عدم الإتفاق على صيغة منهجية إسلامية واضحة في مقاربة النصوص الإبداعية .

إنّ المرتكز النقدي الإسلامي المعاصر مطالبٌ اليوم ببناء إنسانية الإنسان ، ومحاولة ترميم الفكر ، وإعادة إنشاء منظومة التوجه كما أرادها الإسلام ، عليه أن يتصف بالمحافظة على الأصالة والحداثة معاً ، بمعنى امتلاك الماضي ، واحتضان الحاضر ، والتطلع إلى المستقبل من دون الجنوح نحو أحد هذه العناصر على حساب الآخر ، فضلاً عن دور هذا المرتكز في المحافظة على بقاء مشروعية الإنسان في الإبداع ، في مقابل فلسفة المناهج النقدية الحديثة التي

ترمي إلى تغييب الإنسان عبر هيمنة البنية عليه ، منطلقة من عزل النص عن ناصه ، وإضفاء صفة التركيز على المنتوج لا على المنتِج ، ثم الإيمان بضرورة الانتماء إلى مقاربات الناقد ، وتقديسها ، بوصفها نتاجاً جديداً ، أو بوصفها تأليفاً ثانياً يضاف إلى التأليف الأول .

على الأدب الإسلامي أن يعي أنّ به حاجة إلى أن يتحول إلى برامج توجيهية عالمية متحيزة ، وليس برنامجاً إقليمياً متواضعاً ، يدعو إلى عبادة الله (عزّ وجلّ) ، والحث على كسب رضوانه وحسب، ويجب الإيمان بذلك إذا علمنا أنّ نظريات الأدب، عبر مراحل تطورها في التاريخ الغربيّ ، لم تمثل سوى برامج توجيهية ، وسيناريوهات معدّة أساساً لإمتلاك الإنسان ، والسيطرة على مقاليد السياسة والإجتماع ، ويمكن التمثيل على ذلك من خلال القول : إنّ الناقد كان يعيش على ما يكتبه الأديب ، أما الآن فالعملية معكوسة ، إذ أصبح الأديب يعيش على ما يقوله الناقد ، بسبب توجه هذا الأخير إلى امتلاك النص ، والتلاعب به ، ومحاولة تأليفه بشكل مغاير عن شكله الإبداعيّ الأول ، بمعنى أنّ الناقد اليوم قد امتلك زمام المبادرة في توجيه النص بما يخدم توجهاته وأهدافه .

لقد وُلِدَ مرتكز النقد الإسلامي المعاصر في ظلّ تأزم العلاقة بين الفرد ومجتمعه أولاً ، ثم انفصال العلاقة بين الفرد وربه ثانياً ، وانقطاع التواصل بين العالم الواقعي (الفيزيقي)، عن العالم الغيبيّ (الميتافيزيقي) ، وقد تأتى هذا بسبب التوجه العالمي إلى إنكار الحقيقة الفلسفية المطلقة ـــ الغيب ـــ ، وتطبع الدعوات المنهجية المختلفة بالطابع العلماني المادي ، الذي يُحول علاقات الإنسان إلى علاقات بين الأشياء ، وتتحول هذه الأخيرة ـــ من ثمّ ـــ إلى سلسلة من الرموز والإشارات والأشكال ، وقد قاد هذا إلى تصعيد الوعي الغربي تجاه دونية الآخر ، وتحديد الطبيعة الفوقية التي تحكم الآخر من خلال قطبية الأنا .

إنّ مسؤولية المرتكز النقدي الإسلامي المعاصر تتجلى في تحديد نقطتين مهمتين هما : (تحديد بنية العلاقة مع الخالق ، تحديد البنية التحتية للفرد) ، تتحدد النقطة الأولى من خلال بيان أنّ العلاقة مع الخالق هي علاقة عمودية تتصف بالترابط الدائم بالفعل وبالقوة ، بالعمل وبالفطرة ، أما العلاقة مع الآخر فهي علاقة أفقية تتسم بالانقطاع والتواصل ، حسب مقتضيات العلاقة وشدة ترابطها ، وإذا ما اضطربت العلاقة الأولى اضطربت الثانية ، وتتضح

النقطة الثانية من خلال عقلانيتها في المجتمع الغربي ، وتراجعها في المجتمع العربي ، لأنّ البنية التحتية للفرد الغربي تتجلى بكون الاعتقاد والتدين شيء ، والسلوك الفردي والخُلق شيء آخر ، فلا علاقة رابطة بينهما ، ولذلك فالأخلاق والتنظير والتطبيق وجميع الممارسات ، لا تخضع لأي معيار خلقي أو عرفي أو حتى ديني — في البيئة الغربية — ، في حين أنّ البنية التحتية للفرد العربي تتجلى بكون الاعتقاد والتدين يمارسان رقيباً مهماً في تحديد أبجديات السلوك والتصرف الذاتي بعيداً عن الفوضى والتنصل من معايير الخُلق العام أو الخاص ، وبهذا يمكن القول إنّ البنية التحتية للفرد الغربي يتضح فيها الانقطاع التام بين توجهات الفرد من جهة ، وتوجهات الدين من جهة أخرى ، والعلاقة هذه معكوسة تماماً في البنية التحتية للفرد المسلم .

إنّ المحور النقدي الإسلامي المنشود هو وليد شرعي للفلسفة الإسلامية الشاملـــة ، التي تعطي للروح كما تعطي للعقل ، وتهتم بالإنسان كما تهتم بنتاجاته ، وتفسر إبداعاته ، كما تحلل مقولاته للوصول إلى ما ورائيات الدلالة ، ولهذا فإنّ هذا المنهج يتسم بالحيوية القائمة على روح العصر ، وعلى محاولات المنهج والثقافات المختلفة ، إنّه ثورة على العزلة والتقليد والعرف والتوارث ، إنّه ارتباطات مفاهيمية مع القومية والوطنية والأممية والعالمية ، إنّه اصطدام بالقواعد الساذجة التي تصور الأدب على أنه دعوة إصلاحية ، أو مرآة عاكسة للمجتمع ، أو خطبة وعظية للأفراد ، إنّه صِدامٌ مع أولئك الذين ادعوا امتلاك ناصية طروحاته ، وأسس بقائه ، إنّه نتاجات لمختص ، واستلهامات لباحث ، ومعطيات لمنظِر ، إنّه ثورة على الشكل كما هو ثورة في المضمون.

إنّ الغاية المعرفية التي يجب أن يضطلع بها المحور النقدي الإسلامي المعاصر هي : إعادة الناقد (المختص) إلى حقل المسؤولية المعرفية والثقافية ، التي من المفترض أن يقوم بها ، في استكشاف الأسس الفكرية التي نهض عليها هذا النص أو ذاك ، فضلاً عن إعادته إلى حقل الكفر بكلّ الأفكار الجاهزة ، والدعوة إلى التحرر من تقديس الأسلاف ، وسطوة التنظير الغربـــي المعاصر ، وفي هذا الإطار قدمت محاولاتٌ عدة **النقدَ الإسلاميَّ** بوصفه المنهج

المتزن منها كتب[i] ، ومنها بحوث رصينة[ii] استطاعت مقاربة النصوص الإبداعية ، قدمت تصوراتها عن النقد الإسلامي ، وإمكان تكيفه مع المتغيرات النقدية الآنية والاستقبالية .

ــــ المحور الثاني : القيميّ

شغل الحديث عن القيم من حيث خصائصها وأنواعها وإشكالياتها وأقسامها مساحات واسعة في المنجز الفلسفي والفكري العالمي ، وقد تنوعت مقاصد تناول القيم وبيان منظومتها تبعا لتنوع التوجهات الدينية أو الفكرية أو السياسية أو الاجتماعية ــــــ على صعيد العائلة منها بشكل خاص ، وسلوك الأفراد بشكل عام ــــــ التي عُنيت بهذا الجانب الحيوي[iii].

وقد كرست الفلسفة الإنسانية منذ بذور نشأتها جهداً للحديث عن القيم وتوجهاتها ، حتى بات مبحث القيم والأخلاق قسماً مهما من أقسام الفلسفة ، إذ قدمت مفهوماً للقيم (**Values**) بوصفها مجموعة من الأخلاق والسلوكيات والمبادئ والمرتكزات الاجتماعية في بيئة معينة[iv] .

(i) ينظر في ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر : الإسلامية والمذاهب الأدبية ، نجيب الكيلاني. ومدخل إلى الأدب الإسلامي ، نجيب الكيلاني. وفي النقد الإسلامي المعاصر ، عماد الدين خليل. ومحاولات جديدة في النقد الإسلامي المعاصر ، عماد الدين خليل. ونظرية الأدب الإسلامي ، عماد الدين خليل. وجماليات الأدب الإسلامي ، محمد إقبال عروي. ونحو آفاق شعر إسلامي معاصر ، حكمت صالح.

(ii) ينظر في ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر : الأدب الإسلامي بين المفهوم والتعريف والمصطلح ، سعد أبو الرضا ، مجلة الأدب الإسلامي ، العدد 7 لسنة 1995 . الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق ، محمد ين سعيد بن الحسين ، مجلة الأدب الإسلامي ، العدد 1 لسنة 1993 . الأدب الإسلامي في خدمة الإنسانية ، عبد القدوس أبو صالح ، مجلة الأدب الإسلامي ، العدد 1 لسنة 1993 . الأدب الإسلامي المعاصر : المعضلات وسائــل الدعــم ، عماد الدين خليل ، مجلة المشكاة ، العدد 2 لسنة 1983. حول أدب الغموض المقطوع الجسور ، عماد الدين خليل ، مجلة الوعي الإسلامي ، العدد 277 لسنة 1987 . الخيال في منظور الأدب الإسلامي ، محمد أديب ، مجلة النور ، العدد 6 لسنة 1984 . مصطلح الأدب الإسلامي بين أيدي الدارسين ، أحمد محمد علي ، مجلة الأدب الإسلامي ، العدد 5 لسنة 1985).

(iii) ينظر: نظرية القيمة في الفكر المعاصر ، صلاح قنصوه : 51 ، 195 .

(iv) ينظر: المصدر نفسه :.195 وما بعدها .

وتصطبغ القيم بمعطيات التسليم بالتمثلات التي يتبناها المجموع في أمر معين ، وقد اصطلحت الثقافات المتنوعة على ذلك بـــالالتزام (**Commitment**) ، ويُحدد الالتزام بمجموعة من السلوكيات المنضبطة والمتزنة تجاه قضية معينة تأخذ حكم التبني والتطبيق فكراً وواقعاً ، إذ يعد الأدب هنا وسيلة لخدمة فكرة معينة ، ويعد الأديب ذا مسؤولية نقدية وأخلاقية إزاء تمثل قضايا الفرد والمجتمع ، محاولاً تصحيح مسار الواقع ، والتطلع لمستقبل معرفي أفضل[i] .

وتبعاً لذلك أصبح للقيم منظومة مخصوصة تُعنى بتحديد مواقف منضبطة من المسائل التي يتعامل بها المجموع ، أو التي تشغل نمطاً من بنيته الفكرية أو الاجتماعية ، وقد تنوعت تلك التوجهات بين تحديد مواقف من الدين ، ومن الطبيعة ، ومن المثاليات ، ومن التوجهات البراجماتية ، ومن الأفكار الوجودية ، ثم تحديد الموقف من الدين والعلم والعقل والعلاقة مع الآخر في جانبيها التواصلي أو الانقطاعي ، ورسم معايير أخلاقية لوصف الأعمال أو السلوكيات بالإيجابية أو السلبية[ii] .

ونظراً لتشعب محاور منظومة القيم وتنوعها ، فقد تعددت النظريات التي تحدثت عن القيم انطلاقاً من الميدان المعرفي الذي انبثقت منه ما بين نظريات تُعنى بالجانب الأخلاقي المرتبط بالتوجهات الدينية المثالية ، وبين نظريات متعلقة بالجوانب الاقتصادية ، وبين نظريات متعلقة بالإنسان نفسه وسلوكياته المنطلقة من الحرية والاختيار بعيدا عن السلطة ، وبين نظريات تفرغ القيم من محتواها وتنكر أي وجود لها في إطار من العدمية والعبثية[iii] .

ومن المهم ذكره أن فلسفة القيم في التوجه المعرفي الغربي محصورة في قضية الحديث عن ثنائيات تتوزع عند الفرد بين ثنائية (الأيروس) و(الثيوس) أي بين دوافع الغريزة (الشهوة) ودوافع العنف ، أو بين ثنائية الإرادة والفهم ، أو بين ثنائية الرغبة والتحقق[iv] ، لذلك فإن

(i) ينظر: معجم مصطلحات الأدب ، مجدي وهبة : 79 .

(ii) ينظر: نظرية القيمة في الفكر المعاصر : 51 .

(iii) ينظر: فلسفة القيم ، جان بول رزفبر ، ترجمة : عادل العوا : 75 - 90 .

(iv) المصدر نفسه : 109 .

إشكالية تحقق القيم أو عدم تحققها مرده في الأساس ـــــ حسب التوجه الغربي ـــــ إلى إشكالية الفواعل لها وليست إشكالية الاقتناع بها أو الشعور بأهميتها[i] .

وتتشكل الرؤية الإسلامية لمنظومة القيم من منطلق الوظيفة التي تضطلع بها السلوكيات المرتبطة بصيغ إنسانية ذات الخصوصية الحضارية ، إذ رسمت مبادئ فكرية وطرائق عملية في سبيل تحقيق أولويات الفكر الإسلامي المتجه نحو الإنسان الذي يتأثر سلوكه تبعاً للسمات الحضارية التي يعيشها أو يتبناها[ii] ، والمتمثل بالعبودية والخلافة والتمكين والتكريم .

وتقدم الرؤية الإسلامية في هذا الإطار نموذجا حضاريا معرفيا اتبع سُبُل الإقناع ، ومارس المنهجية المعرفية التي قدمت الدليل ونبذت الأهواء وشجعت الابتكار والاستنباط ، وحاربت الابتداع والدجل .

وتتسم الرؤية الإسلامية لمنظومة القيم بكونها رؤية منفتحة ومتفتحة على التوجهات العالمية ، دون أي إحساس بالدونية ، هي توجه يحاور الآخر ، وينهل من حكمته ، ويقدم الأنا ، ويعلي من تصوراتها ، إنها رؤية خالية من (العُقَد) ، شمولية ، وعالمية ، وخُلقية ، لا تقيد نفسها إلا بحدود الشريعة ، ولا تداهن في تقديم نتاجاتها ، غرضها الإسهام في البناء العالمي الحضاري الجديد ـــ بعد غياب لعدة قرون ـــ ، وهدفها تقديم المعطيات الإسلامية التي تحمل خزيناً معرفيا ، وتجربة حضارية وإبداعا متواصلا ، إنه التصور للحياة وللكون وللإنسان ، من خلال رؤية إسلامية كونية ، تبدأ مع الوحي ، وتعمل بالنص ، وتبدع بالعقل .

لقد أسهمت الرؤية الإسلامية في منظومتها القيميّة ، وأثرت بشكل حيوي في التفكير الحديث وفي سلوكيات العقلانية المعاصرة ، وما تدريس معطيات الفلاسفة المسلمين وحديثهم عن القيم الإسلامية ـــ كابن رشد وابن خلدون وغيرهما ـــ في الجامعات الأوربية إلى الآن . إلا دليل على أهمية معرفة منظومة القيم التذي اضطلعت بها الرؤية

(i) ينظر: المصدر نفسه : 61 .

(ii) للاستزادة حول كيفية تأثر السلوك الإنساني بالحضارة ينظر: ارتقاء القيم ، عبد اللطيف محمد خليفة : 219 .

الإسلامية في البناء العقلاني للإنسان ، ومحاولة لتقديم معطيات مهمة في سبيل تحقيق مترلة للعقل ، واحترام إنسانية الإنسان[i] .

قدمت الرؤية الإسلامية مسارات قيدها فيما يتعلق بالجوانب الإبداعية في الفنون والآداب ، واستخدمت أدوات الفعل التواصلي في الكلمة أو الصورة ، أو التعبير أو الرمز لأغراض التعايش مع الآخر ، وبناء جسور من الودّ والألفة ، وتحقيق فرص من الحوار ، ومنح المجموع فرص الحديث المنبني على أسس طرح الرأي وسماع الرأي الآخر ، دون إقصاء أو تهميش أو إلغاء ، بل الاحترام المتبادل القائم على الوعي بخصوصية الآخر واعتزازه بها ، وقد منحت هذه السلوكيات أصحابها تأسيس فضاء قيميّ من الود والتفاهم والتعايش ، دون احتقان جماعي بين الأفراد في البيئة الواحدة أو المتعددة ضمن التعايش المنسجم في ظل قيم الحق والخير والجمال[ii] .

ولم تكن تلك السلوكيات القائمة على تفهم الآخر واحترام خصوصيته الدينية أو الفكرية أو السلوكية أو غير ذلك ، لم تكن تشكل وهما مشتركا يعيش بظله المجموع ، إنما مثّل علاقات اجتماعية ، وظواهر شعبية ، ووجود عقدي سلميّ ، صوّره الأدب ، ونقله في نصوصه المتنوعة ، وحاول بلورة معطياته انطلاقا من ثنائية الإقناع والإمتاع التي تسهم في رفعة العمل الأدبي ، وتكسبه صفة الإبداع ، وترسم له أفقا في الانتشار والشيوع ، وفي هذا السياق تشكلت الحضارات ، وتطورت المعارف ، وتنوعت الثقافات ، وتعدد الآداب ، وارتسمت خصوصية معينة لكل بيئة أو لكل أمة من الأمم في نصوصها وإبداع أبنائها .

ويكتسب الحديث عن هذا الموضوع أهمية معرفية انطلاقا من أن الرؤية الإسلامية تستدعي صيغا إنسانية ذات خصوصية حضارية ترسم مبادئ فكرية وطرائق عملية إبداعية في سبيل تحقيق أولويات الفكر الإسلامي المتجه نحو الإنسان والمتمثل بالعبودية والخلافة والتمكين والتكريـــم ، والساعية لتوظيف ذلك في نصوصها وفنونها وآدابها ، متعاملة مع

(i) للاستزادة ينظر: القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ، عبد المجيد بن مسعود : 69 وما بعدها .

(ii) ينظر : القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية ، صلاح الدين بسيوني رسلان : 129 – 130 .

متوالية قيمية مخصوصة ، ومعالجة قضايا عديدة تبدأ من النقل إلى العقل ، ومن العقل إلى الفعل ، ومن الفعل إلى الممارسة والسلوك والإنجاز والإبداع .

وتسعى الرؤية الإسلامية إلى تقديم منظومتها القيمية في إطار من الشمول المعرفي الذي يكتسي نظما حيوية في تحليل النص وبيان دلالاته ، ويشتغل هذا التحديد أساسا في فضاء معرفي غايته إعلان العبودية لله ، ووسيلته تكريم الإنسان وحفظ دوره في الحياة ، وأداته احترم العقل ومنحه منزلة وخصوصية في الإبداع والابتكار والتحليل .

وتعد الرؤية الإسلامية مكونا معرفيا وفكريا لمعطيات الإسلام ورسالة الوحي إلى الإنسانية ، وقد قدمت تصوراتها القيمية لبناء السبل الصحيحة للتفكير الإنساني السويّ ، وصاغت تدرجاتها المعرفية وفق ثلاثية حضارية : (الوحي ، والنص ، والعقل) ، وتمتلك منظومةً معرفيةً قيميةً ، مهمتها تحصين الذات من الخلل ، ومن الوقوع في الزلل ، وتعين في تطبيق مفاهيم الإسلام ، وتسعى لتمثيل أركان الفعل الإيماني الذي أتى به الوحي ، وحُفِظ في النص ، وصدّق به العقل .

وانطلاقا مما سبق تقدم الرؤية الإسلامية في تعاملها مع منظومة القيم معالجات معرفية للفنون والآداب ، إذ تنهض من خلال ذلك بوظيفة حماية السلوكيات الإنسانية من الانحراف عن الاتزان ، وترغب ببناء مجتمع قيمي مثالي تسود فيه قيم الخير والحق والصدق وشيوع الأخلاق ، ونبذ كل ما يجافي تلك المعاني والسلوكيات ولا سيما بما يتعلق بإبداع النص وبيان دلالاته .

ولمنظومة القيمة في الإسلام علاقة وثيقة بالنوايا المتجه صوب تحقيق الخُلُق المنشود[i] ، وهذه خصيصة من خصائص منظومة القيم في الإسلام تتمثل بالتدرج في الأحكام ، ومنزلة التكليف ، وصفة الوسطية ، ووجود التشريع ، واقتران الإيمان بالعمل والسلوك ، وتحديد الصلات القيمية التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان[ii].

(i) القيم الضرورية ومقاصد التشريع ، فهمي محمد علوان : 115 .

(ii) للاستزادة عن خصائص القيم الإسلامية ينظر : المدخل إلى القيم الإسلامية ، جابر قميحة : 39 وما بعدها .

إن الأدب الإسلامي هـــو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي ، وهو ريادة للأمة ، ومسؤولية أمام الله عز وجل ، وهو أدب ملتزم ، والتزام الأديب فيه التزام عفوي نابع من التزامه بالعقيدة الإسلامية ، ورسالته جزء من رسالة الإسلام العظيم ، وجدير بالذكر أن الأدب طـريق مهـم من طرائق بناء الإنسان الصالح والمجتمع الصالح ، وأداة من أدوات الدعوة إلى الله عزّ وجلّ والدفاع عن الشخصية الإسلامية ، وهو مســؤول عن الإسهــام في إنقاذ الأمة الإسلامية من محنتها المعاصرة ، والأدباء الإسلاميون أصحاب ريادة في ذلك .

إن الأدب الإسلامي حقيقة منذ انبلج فجر الإسلام ، وهو يستمد عطاءه من مشكاة الوحي وهَدْي النبوة ، ويمتد عبر العصور إلى عصرنا الحاضر ليسهم في الدعوة إلى الله عز وجل ، ومحاربة أعداء الإسلام والمنحرفين عنه ، إنه أدب الشعوب الإسلامية على اختــلاف أجناسها ولغاتها ، وخصائصه هي الخصائص الفنية المشتركة بين آداب الشعوب الإسلامية كلها ، ويقـــدم التصــور الإسلامي للإنسان والحياة والكون أصولا لنظرية متكاملة في الأدب والنقد ، وملامح هذه النظرية موجودة في النتاج الأدبي الإسلامي الممتد عبر القرون المتوالية ، ويـرفض الأدب الإســـلامي أية محاولة لقطع الصلة بين الأدب القديم والأدب الحديث بدعوى التطور أو الحداثة أو المعاصَرة ، ويرى أن الحديث مرتبط بجذوره القديمة ، كما يرفــض النظريات والمذاهب الأدبية المنحرفة ، والأدب العربي الــمزوّر، والنقد الأدبي المبني على المجاملة المشبوهة، أو الحقد الشخصي ، كما يرفض لغــــة النقد التي يشوّهها الغموض وتفشو فيها المصطلحات الدخيلة والرموز المشبوهة ، ويدعو إلى نقد واضح بنّاء ، يعمل على ترشيد مسيرة الأدب ، وترسيخ أصوله .

فالأدب الإسلامي أدب قيميّ ، تتحقق وظيفته بتآزر مضمونه مع شكله ، وفي الوقت نفسه يفتح صدره للفنون الأدبية الحديثة ، ويحرص على أن يقدمهـــا للناس وقد برئت من كل ما يخالف دين الله عز وجل ، وغَنِيَتْ بما في الإسلام من قيم سامية وتوجيهات سديدة ، وتشكل اللغة العربية الفصحى اللغة الأولى له الذي يرفض العامية ، ويحارب الدعوة إليها

، والأديب الإسلامي مؤتمن على فكر الأمة ومشاعرها ، ولا يستطيع أن ينهض بهذه الأمانة إلا إذا كان تصوره العقدي صحيحاً ، ومعارفه الإسلامية كافية ، ويتقيد الأدباء الإسلاميون بالإسلام وقيمه ، وهم ملتزمون في أدبهم بقيمه ومبادئه ومُثله .

ويمثل الأدب الإسلامي تمثلاً شاخصاً وميداناً تطبيقياً لمنظومة القيم التي حملها الإسلام، وهي مجموعة من المبادئ والأهداف التي سعت جاهدة لتحقيقها ، وفي هذا الإطار سعى الأدب الإسلامي الملتزم إلى تحقيق القيم من خلال : إبراز سمات الأدب الإسلامي في القديم والحديث ، وإرساء قواعد النقد الأدبي الإسلامي ، وصياغة نظرية متكاملة للأدب الإسلامي ، ووضع مناهج إسلامية للفنون الأدبية الحديثة ، وإعادة كتابة تاريخ الأدب الإسلامي في آداب الشعوب الإسلامية ، وجمع الأعمال الأدبية الإسلامية المتميزة ونقلها إلى لغات الشعوب الإسلامية وغيرها من اللغات العالمية ، والعناية بأدب الأطفال ، ووضع منهج لأدب الطفل المسلم ، ونقـد المذاهب الأدبية العالمية ومناهج النقد الحديث وإيضاح ما فيها من إيجابيات وسلبيات ، وتعزيز عالمية الأدب الإسلامي ، وتوثيق الصلات بين الأدباء الإسلاميين ، وجمع كلمتهم على الحق وفق منهجية قيمية متمثلة بالوسطية والاعتدال والبعد عن الغلو والتطرف ، وإسهـام الأدب الإسلامي في تنشئـة الأجيال المؤمنة ، وصياغة الشخصية الإسلامية المعتزة بدينها القويم وتراثها العظيم .

إنّ العلاقة الجدلية بين الأدب ومنظومة القيم ، وإن تمثل الأدب للقيم يشكل نوعاً من العولمة المضادة التي تتحدد ببروز نص ملتزم يسهم في نشر الوعي بضرورة إتباع أو عدم إتباع الفكر الوافد والدخيل، وهنا يبرز دور (الأديب) بوصفه صوتاً يمتلك تأثيراً في شرائح المجتمع المختلفة ، كيف لا وهو المتحدث باسم اللغة والفكر الآخذين بألباب الناس ، والمؤثرين على سير عواطفهـم ، والمنظِمين لسلوكهم وتصرفاقم بل وحتى نفقاقم ، وأحلامهم . وعلى الأديب في هذا السياق إدراك خطورة كونه الصوت المؤثر في الناس ، والقائم على أمانة أمام الله ﷻ أولاً ، ثم أمام الطبقات الاجتماعية على اختلاف مشاربها ثانياً ، وعليه أن يعي وقوفه على أرضية هداية الناس ونصحهم على صعيد نصه الأدبيّ .

المبحث الثاني

الفكر النقدي للندوي : التأصيل والإنجاز

شغلت كتابات الندوي عن الأدب الإسلامي والعربي بشكل خاص ، وعن هموم الإسلام وما يتعلق به بشكل عام عناية الدارسين والمفكرين والنقاد[i] ، وقد قدّمت كتب الشيخ الندوي معطيات نقدية وتحليلية مهمة تتعلق بمسار الإسلام وتعاليمه بشكل عام ، ومسار الأدب الإسلامي بشكل خاص ، محددة أسس هذا الأدب وتكوينه ، وطرائق تطوره ، وممكنات تنميته.

ويجد الناظر في كتب الشيخ الندوي[ii] انشغاله الفكري بمسألة ربط الدين وتعاليمه وأحكامه بمسار الأدب ونصوصه وإبداعه ، والحديث عن الصلة الوثيقة التي تربط الدين بالأدب من حيث وصف الدين بالغاية التي يسعى الإنسان لتمثلها في أمور حياته كلها ، ومن حيث وصف الأدب بالوسيلة التي تحقق تمثل الدين وتقديمه نصياً والدعوة إليه بالمفردات والدلالات .

وقد شغلت كتابات الندوي في الإطار الأدبي الحديث عن تقديم نظرة معاصرة لفهم مسار الأدب العربي ومحاولة قراءة تراثه والوصول إلى الجوانب المضيئة فيه ، واستلهام النصوص المثالية فيه المتمثلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة[iii] ، فضلاً عن تقديم مختارات شعرية ونثرية مثّلت الذائقة النقدية للشيخ الندوي[iv] .

(i) ينظر على سبيل التمثيل لا الحصر : أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر والداعية الأديب ، سيد عبد الماجد الغوري . وأبو الحسن علي الحسني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل ، محمد إجتباء الندوي ، جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي ، عبد الله الوشمي . والعلامة أبو الحسن الندوي رائد الأدب الإسلامي ، سيد عبد الماجد الغوري . والتأصيل الإسلامي للغة العربية وآدابها في جهود الشيخ أبي الحسن الندوي رئيس رابطة الادب الاسلامي العالمية ، محمد عبد السلام آزادي ، تقديم : منجد مصطفى بهجت. وجهود الشيخ أبي الحسن الندوي في الدعوة الإسلامية ، رياض السيد عاشور . والشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ، يوسف القرضاوي . والإمام أبو الحسن الندوي ومنهجه في الفكر والدعوة والإصلاح، عبد السلام سعيد الأزهري. وأبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، محمد أكرم الندوي.

(ii) ينظر كتاب الشيخ: (نظرات في الأدب).

(iii) ينظر كتابيّ الشيخ : (روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة ، نظرات في الأدب النبوي) .

(iv) ينظر على سبيل التمثيل لا الحصر : (روائع إقبال ، ومختارات من أدب العرب بجزأين) .

حاول الشيخ أن يرسم خطوات منهجية ونقدية لمعطيات الأدب الإسلامي المعاصر ، مؤكداً التفريق بين مصطلح الأدب الإسلامي المعاصر بوصفه التصور الفني الهادف الجميل للخالق والكون والحياة والإنسان ، وبين المرحلة الزمنية التي أطلق عليها الأدب الإسلامي الذي يشمل عصر صدر الإسلام والعصر الأموي .

ويكتنز كتاب (نظرات في الأدب) للشيخ الندوي مسارات منهجية مهمة ، ورؤى نقدية في إطار الحديث عن الأدب الإسلامي المعاصر ، وحوت مفردات الكتاب محطات ثقافية ، وبرقيات معرفية شاملة تعكس أهمية الأدب الإسلامي وأهمية الاشتغال به تنظيراً وتطبيقاً ، فهو الحقل الإبداعيّ الذي يتصل فكرياً بدين الله ﷻ القويم ، ويرتبط موضوعياً بالرسالة الإسلامية السامية ، ويرتبط معرفياً بالتعاليم والوصايا والحدود والقيم التي بشّر بها الإسلام ودعا إليها ، وحثّ على العمل بها ، والتزام نهجها .

إن التأمل في موضوعات كتاب (نظرات في الأدب) تعكس الجهد الفكري لأبي الحسن الندوي في بيان كثير من الصلات والثنائيات التي ترسم أفق الأدب الإسلامي المعاصر ، من ذلك الحديث عن ثنائية الشكل والمضمون التي طالما أرقت رواد الأدب الإسلامي المعاصر ، وأخذت جانباً كبيراً من تنظيراتهم ، ويأتي ذلك في سياق حديثه عن أدب الحب والعاطفة وقيم الإنسانية[i] ، فضلا عن حديث الشيخ عن ثنائية الإمتاع والإقناع في سياق حديثه عن دور الشاعر محمد إقبال في توجيه الأدب والشعر[ii] ، إمتاع في سياق الإبداع ، وإقناع في سياق توجيه القيم الفكرية والدعوة إليها .

وفي إطار الحديث عن تأصيل الأدب الإسلامي المعاصر ، يقدم الشيخ رؤية نقدية للتراث الأدبي العربي[iii] ، محاولاً تأشير المزالق التي اعترت مسيرة هذا الأدب ، ويركز على قضية التصنع والتكلف ، المرتبطة أساساً بنوازع شخصية لتصوير البراعة والتفوق ، وقد جاء تأكيد الشيخ بيان هذه القضية إيماناً منه أن الأدب الرفيع هو الأدب الذي يحمل على عاتقه

(i) ينظر : نظرات في الأدب : 92 وما بعدها .

(ii) ينظر : المصدر نفسه : 104 وما بعدها .

(iii) ينظر : المصدر نفسه : 21 وما بعدها .

قضايا المجموع لا الفرد ، عاكساً هموم الأمة وتوجهاتها ، متبنياً الأس العقدي والفكري الذي ينتمي إليه .

إن الأدب القيميّ الحامل لخصائص التصور الإسلامي وفكره هو أدب يكتنز قيماً روحية وجمالية تخرجه من ضيق الرؤية إلى اتساع الأفق ، وتمنح صاحبها صفاء النفس ، ولطافة الوجد ، وعذوبة الروح ، ودقة المعاني ، والقدرة على التصوير ، وتقديم التعبير البليغ[i] .

انطلق الشيخ الندوي من مجموعة دوافع منهجية لتأصيل الأدب السلامي المعاصر متعلقة بنشأته الأدبية العلمية ، واعتزازه بالإسلام ، وتمتعه بنظرة منهجية ، وإدراكه أهمية الكلمة ودورها في التأثير ، فضلاً عن إيمانه بأهمية الأدب ورسالته في الوجود ، إلى جانب موقفه من انحراف الأدب المعاصر وضرورة إيجاد بديل أدبيّ قيميّ[ii] .

وقد نهل الشيخ الندوي مادته الفكرية والمنهجية في تأصيل الادب الإسلامي من القرآن الكريم مروراً بالسنة النبوية وانتهاء بالأدب العربي[iii] ، وقدّم في سياق ذلك مشروعه في الدعوة إلى قيام الأدب الإسلامي المعاصر : مصطلحاً ومفهوماً واشتغالاً وإنجازاً ، فمسارات الأدب الإسلامي المعاصر مسارات موغلة في القِدم فكرياً وقيمياً وإبداعياً ، ولها رصيد معرفي متعلق بإرث متوالٍ من المنجزات العربية النصية منها والفنية والجمالية .

ويمتلك الأدب الإسلامي المعاصر عند الشيخ الندوي أسساً منهجية عدة ، منها حمله الرسالة العقدية للإسلام الحنيف ، وتبنيه التصور الإسلامي وخصائصه في : (الربانية ، والثبوتية ، والعالمية ، والشمولية ، والواقعية ، والإنسانية ، والحيوية)[iv] ، وتقديمه تصوراً معرفياً واضحاً للكون وللحياة وللإنسان[v] .

(i) نظرات في الأدب : 33 .

(ii) ينظر : جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب : 80 ـــ 90 .

(iii) ينظر : المصدر نفسه : 95 ـــ 99 .

(iv) ينظر : المصدر نفسه : 131 ـــ 155 .

(v) ينظر : المصدر نفسه : 187 ، 207 ، 237 .

أما عن قضايا الأدب الإسلامي المعاصر عند الشيخ الندوي فالأمر متعلق بقضيتين أساسيتين اثنتين هما : (الإنسانية ، والنقدية) ، تتناول القضايا الإنسانية ثنائيات : (القدر والواقع ، الخير والفضيلة ، الشر والرذيلة)[i] ، أما القضايا النقدية فتعالج ثنائيات عدة منها : (الالتزام والانحلال ، المحلية والعالمية ، الشكل والمضمون)[ii] .

وشغل الأدب الإسلامي المعاصر من لدن الشيخ الندوي مستويات إنجازية عدة ، تنوعت بين تقديم أُطر تنظيرية للمعطى الفكري ، ومقدمات منهجية للاشتغال الإبداعي ، ومعطيات نقدية للأدب العربي ، وحديث جمالي عن الأدب النبوي والابتهالات الدينية والمناجاة ، فضلاً عن حديثه عن أدب الرحلات ، وأدب الأطفال ، وأدب التراجم[iii] .

ويدل هذا التنوع على رؤية موسوعية ازدان بها الشيخ الندوي انطلاقاً من رؤيته المتعلقة بالثقة الوطيدة التي تربط الأدب بالحياة ، فتظهر في الأدب ملامح الكون والحياة وأشكالها المتنوعة بصياغة جمالية مؤثرة في النفس ، فبوساطة الأدب ـــ كما يرى الشيخ الندوي ـــ يصل الإنسان إلى فهم ظواهر الحياة وتذوق كيفياتها ، ويتسع الأدب باتساع الحياة ، وتتعدد جوانبه ونواحيه بتنوع جوانبها وتعدد نواحيها[iv] .

ومن المهم ذكره أن الشيخ الندوي عُني عناية كبيرة بقضية إسلامية الأدب ، فوجّه الفنون والأجناس الأدبية إلى الوجهة الإسلامية المزدانة بالعقيدة والتصور الإسلامي ، ووضع لها أسسا وقواعد ، كما قام بتقديم النماذج العملية التطبيقية المتنوعة لها ، وقدّم مساهمات فعالة في الفنون الأدبية المختلفة كالسيرة الذاتية وأدب الرحلات والتراجم والشعر وغير ذلك[v] .

(i) ينظر : المصدر نفسه : 273 وما بعدها .

(ii) ينظر : المصدر نفسه : 355 وما بعدها .

(iii) ينظر : العلامة أبو الحسن الندوي رائد الأدب الإسلامي : 49 وما بعدها .

(iv) ينظر مقدمة الشيخ أبي الحسن الندوي لكتاب الأدب الإسلامي وصلته بالحياة : 12 ـــ 13 .

(v) السيد أبو الحسن الندوي حياته وإسهاماته العلمية ، شاكر عالم شوق ، مجلة القسم العربي ، جامعة بنجاب ، لاهور ـــ باكستان ، العدد 20 لسنة 2013 : 69 .

وفي الختام يمكن القول إن الشيخ الندوي بعث الأدب الرفيع الذي استنهض الحيوية والفاعلية في الأمة ، ودعا إلى بناء أدب إسلامي متميز ليقف في وجه الأدب المنحل ، وليعبر عن المشاعر والأفكار بصدق محققاً غايته في الإقناع والإمتاع ، فضلاً عن تأصيله للأدب الإسلامي وتقديم نظرات نقدية لكثير من القضايا والمقاييس والقواعد في الأدب الإسلامي ونقده(أ) .

المصادر والمراجع

ـــــ أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية المربي الأديب ، سيد عبد الماجد الغوري ، دار ابن كثير ، دمشق ـــــ سوريا ، وبيروت ـــــ لبنان ، ط3 ، 2005 .

ـــــ أبو الحسن علي الحسني الندوي الداعية الحكيم والمربي الجليل (914 ـــــ 1999) ، محمد إجتباء الندوي ، سلسلة علماء ومفكرون معاصرون ، لمحات من حياتهم ، وتعريف بمؤلفاتهم (1) ، دار القلم ، دمشق ـــــ سوريا ، ط1 ، 2001 .

ـــ أبو الحسن الندوي العالم المربي والداعية الحكيم، محمد أكرم الندوي ، الدار الشامية ، بيروت ـــــ لبنان ، ط1 ، 2006.

ـــــ الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ، عدنان النحوي ، دار النحوي ، الرياض ـــــ المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 1994 .

ـــــ الأدب الإسلامي بين الفهوم والتعريف والمصطلح ، سعد أبو الرضا ، مجلة الأدب الإسلامي ، تصدر عن رابطة الادب الاسلامي العالمية ، الرياض ـــ المملكة العربية السعودية ، العدد 7 لسنة 1995 .

ـــــ الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق ، محمد ين سعيد بن الحسين ، مجلة الأدب الإسلامي ، تصدر عن رابطة الادب الاسلامي العالمية ، الرياض ـــ المملكة العربية السعودية ، العدد 1 لسنة 1993 .

ـــــ الأدب الإسلامي في خدمة الإنسانية ، عبد القدوس أبو صالح ، مجلة الأدب الإسلامي ، تصدر عن رابطة الادب الاسلامي العالمية ، الرياض ـــ المملكة العربية السعودية ، العدد 1 لسنة 1993 .

ـــــ الأدب الإسلامي قضية وبناء ، سعد أبو الرضا ، مكتبة عالم المعرفة ، جدة ـــــ المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 1983 .

ـــــ الأدب الإسلامي المعاصر : المعضلات ووسائل الدعم ، عماد الدين خليل ، مجلة المشكاة ، العدد 2 لسنة 1983.

ـــــ الأدب الإسلامي وصلته بالحياة مع نماذج من صدر الإسلام ، محمد الرابع الحسن الندوي ، تقديم : أبو الحسن علي الحسني الندوي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـــــ لبنان ، ط1 ، 1985م .

(أ) الأدب الإسلامي ونقده عند الشيخ أبي الحسن الندوي ، بن عيسى بطاهر ، مجلة إسلامية المعرفة ، السنة الثالثة ، العدد 12 لسنة 1998 .

ـــــ الأدب الإسلامي ونقده عند الشيخ أبي الحسن الندوي ، بن عيسى بطاهر ، مجلة إسلامية المعرفة ، تصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، السنة الثالثة ، العدد 12 لسنة 1998 .

ـــــ ارتقاء القيم : دراسة نفسية ، عبد اللطيف محمد خليفة ، سلسلة عالم المعرفة (160) ، المجلس الوطني للآداب والثقافة والفنون ، الكويت ، 1992م .

ـــــ الإسلامية والمذاهب الأدبية ، نجيب الكيلاني ، مكتبة النور ، طرابلس ـــ ليبيا ، ط1 ، 1963

ـــــ أطياف النص دراسات في النقد الإسلامي المعاصر ، محمد سالم سعد الله ، سلسلة النقد المعرفي (2) ، دار عالم الكتب الحديث ، وجدارا للكتاب العالمي ، إربد ـــ الأردن ، ط1 ، 2007 .

ـــــ الإمام أبو الحسن الندوي ومنهجه في الفكر والدعوة والإصلاح ، عبد السلام سعيد الأزهري ، دار الفكر ، دمشق ـــــ سوريا ، ط1 ، 2007 .

ـــــ التأصيل الإسلامي للغة العربية وآدابها في جهود الشيخ أبي الحسن الندوي رئيس رابطة الادب الاسلامي العالمية ، محمد عبد السلام آزادي ، تقديم : منجد مصطفى بهجت ، دار المنارة، جدة ـــــ المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 2006 .

ـــــ جمالية الأدب الإسلامي ، محمد إقبال عروي ، الدار البيضاء ـــ المغرب ، ط1 ، 1986 .

ـــــ جهود أبي الحسن الندوي النقدية في الأدب الإسلامي : قراءة تصحيحية ، عبد الله بن صالح بن سليمان الوشمي ، مكتبة الرشد ناشرون ، الرياض ـــــ المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 2005 .

ـــــ جهود الشيخ أبي الحسن الندوي في الدعوة الإسلامية ، رياض السيد عاشور ، منشورات جامعة الأزهر ، القاهرة ـــــ مصر ، (د.ت) .

ـــــ حول أدب الغموض المقطوع الجسور ، عماد الدين خليل ، مجلة الوعي الإسلامي ، العدد 277 لسنة 1987 .

ـــــ الخيال في منظور الأدب الإسلامي ، محمد أديب ، مجلة النور ، العدد 6 لسنة 1984 .

ـــــ روائع إقبال ، أبو الحسن علي الحسني الندوي ، دار القلم ، دمشق ـــــ سوريا ، ط1 ، 1960 .

ـــــ روائع من أدب الدعوة في القرآن والسيرة ، أبو الحسن علي الحسني الندوي ، دار القلم ، دمشق ـــــ سوريا ، ط3 ، 1985 .

ـــــ السيد أبو الحسن الندوي حياته وإسهاماته العلمية ، شاكر عالم شوق ، مجلة القسم العربي ، جامعة بنجاب ، لاهور ـــــ باكستان العدد 20 لسنة 2013 .

ـــــ الشيخ أبو الحسن الندوي كما عرفته ، يوسف القرضاوي ، دار القلم ، دمشق ـــــ سوريا ، والدار الشامية ، بيروت ـــــ لبنان ، ط1 ، 2001 .

ـــــ العلامة أبو الحسن الندوي رائد الأدب الإسلامي ، سيد عبد الماجد الغوري ، دار ابن كثير ، دمشق ـــــ سوريا ، وبيروت ـــــ لبنان ، ط1 ، 2009 .

ـــــ فلسفة القيم ، جان بول رزفبر ، ترجمة : عادل العوا ، سلسلة زدني علما ، منشوات عويدات ، بيروت ـــ لبنان ، 2001 .

ـــــ في جماليات الأدب الإسلامي النموذج والنظرية ، سعد أبو الرضا ، المجموعة المتحدة للطباعة ، القاهرة ــــــ مصر ، ط1 ، 1996 .

ـــــ في النقد الإسلامي المعاصر ، عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـــ لبنان ، ط1 ، 1981 .

ـــــ القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر ، عبد المجيد بن مسعود ، كتاب الأمة (67) ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الدوحة ــــــ قطر ، السنة 18 ، 1999 .

ـــــ القيم الضرورية ومقاصد التشريع الإسلامي ، فهمي محمد علوان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ــــــ مصر، 1989 .

ــــــ القيم في الإسلام بين الذاتية والموضوعية ، صلاح الدين بسيوني رسلان ، دار الثقافة ، القاهرة ــــــ مصر ، 1990 .

ـــــ محاولات جديدة في النقد الإسلامي المعاصر ، عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـــ لبنان ، ط1، 1981.

ـــــ مختارات من أدب العرب . قسم النثر . مجموعة تمثل الأدب العربي الإسلامي في جميع مظاهره ومناحيه الأدبية والتأريخية والتهذيبية من العصر الإسلامي الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري ، الجزآن الأول والثاني ، تعليق : أبو الفضل عبد الحفيظ البلياوي ، مؤسسة الصحافة والنشر ، لكهنو ــــــ الهند ، 2011 .

ـــــ مدخل إلى الأدب الإسلامي ، نجيب الكيلاني ، كتاب الأمة ، الدوحة ـــ قطر ، ط1 ، 1987 .

ــــــ المدخل إلى القيم الإسلامية ، جابر قميحة ، دار الكتب الإسلامية ودار الكتاب المصري ، القاهرة ــــــ مصر ، ودار الكتاب اللبناني ، بيروت ــــــ لبنان ، 1984 .

ـــــ مدخل إلى المنهج الإسلامي في النقد الأدبي ، علي الغزيوي ، كتاب دعوة الحق (6) ، 2000

ـــــ مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي ، عماد الدين خليل ، دار ابن كثير ، دمشق ــــــ سوريا ، وبيروت ــــــ لبنان ، ط1 ، 2007 .

ـــــ مصطلح الأدب الإسلامي بين أيدي الدارسين ، أحمد محمد علي ، مجلة الأدب الإسلامي ، تصدر عن رابطة الادب الاسلامي العالمية ، الرياض ـــ المملكة العربية السعودية ، العدد 5 لسنة 1985 .

ــــــ معجم مصطلحات الأدب : إنكليزي ــــــ فرنسي ــــــ عربي مع مسردين للألفاظ الفرنسية والعربية ، مجدي وهبة ، مكتبة لبنان ، بيروت ــــــ لبنان ، 1974 .

ـــــ مقدمة في دراسة الأدب الإسلامي ، مصطفى غلفان ، سلسلة دراسات في الأدب الإسلامي ونقده (4) ، دار المنارة، جدة ـــــ المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 1985 .

ــــــ مقدمة لنظرية الأدب الإسلامي ، عبد الباسط بدر ، سلسلة دراسات في الأدب الإسلامي ونقده (1) ، دار المنارة ، جدة ـــــ المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 1985 .

ـــــــ الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، شلتاغ عبود ، دار المعرفة ، دمشق ـــــ سوريا ، ط1 ، 1992 .

ـــــ الملامح العامة لنظرية الأدب الإسلامي ، الطاهر مكي ، دار جامعة أم درمان الإسلامية ، الخرطوم ـــــ السودان ، 1984 .

ـــــ نحو آفاق شعر إسلامي معاصر ، حكمت صالح ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـــ لبنان ، ط3 ، 1988 .

ـــــ نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد ، عبد الرحمن رأفت باشا ، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود ، الرياض ـــــ المملكة العربية السعودية ، 1985 .

ـــــ نحو نظرية للأدب الإسلامي ، محمد أحمد حمدون ، إصدارات مجلة المنهل ، جدة ـــــ المملكة العربية السعودية ، ط1 ، 1986 .

ـــــ نظرات في الأدب ، أبو الحسن علي الحسني الندوي ، منشورات رابطة الأدب الإسلامي العالمية (1) ، دار القلم ، دمشق ـــــ سوريا ، ط1 ، 1988 .

ـــــ نظرات في الأدب النبوي ، أبو الحسن علي الحسني الندوي ، دار البشائر الإسلامية ، بيروت ـــــ لبنان ، ط1 ، 2004 .

ـــــــ نظرية القيمة في الفكر المعاصر ، صلاح قنصوه ، دار الثقافة ، القاهرة ـــــــ مصر ، 1986 .

الأدب الإسلامي بين الندوي وباكثير

د. عبدالحكيم الزبيدى
مؤسس ومدير موقع الأديب علي أحمد باكثير
الامارات العربية المتحدة

يرى الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا وهو من منظري الأدب الإسلامي أن العلامة أبا الحسن الندوي هو أول من دعا إلى إقامة مذهب إسلامي في الأدب، في بحثه الذي قدمه حين اختير عضواً في المجمع العلمي في دمشق[i].

والحق أن العلامة الندوي رحمه الله، لم يقدم في بحثه المشار إليه تعريفاً صريحاً للأدب الإسلامي، ولكنه لفت نظر الباحثين إلى أن مصادر الأدب ليست فقط هي كتب الأدب، بل إن في كتب التفسير والحديث والتاريخ أدباً رفيعاً ينبغي الالتفات إليه، وتقديمه للناشئة باعتباره أدباً بدلاً من ذلك الغثاء الذي رانت عليه الصنعة وفقد أهم ما يميز الأدب من التدفق والحيوية والاتصال بالحياة.

ويمكننا من خلال قراءة ناقدة لذلك البحث أن نخرج بمفهوم الأدب الإسلامي لدى العلامة الندوي—وإن كان لم يطلق عليه تلك الصفة. وكنت من خلال اهتمامي بأدب الأديب الراحل علي أحمد باكثير قد لاحظت أن الأفكار التي دعا إليها العلامة الندوي تكاد تنطبق على أدب باكثير، ويكاد مفهوم الأدب الإسلامي عند الندوي يتطابق مع مفهومه لدى باكثير، مع التأكيد على أن كلا من العلامة الندوي والأديب باكثير لم يطلق صفة الإسلامية على الأدب، ولهذا دلالة سنشير إليها في موضعها من هذا البحث إن شاء الله.

ملخص لبحث العلامة الندوي

---

[i]– الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، دار الأدب الإسلامي للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 5، 1425هـ/2004م، ص 112

يحسن بنا في البدء أن نقدم ملخصاً لبحث العلامة الندوي الذي كتبه سنة 1957م حين اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق، وكان البحث تحت عنوان: "(نظرة جديدة إلى التراث الأدبي العربي)[i]".

يقسم العلامة الندوي الأدب إلى قسمين: الأدب الصناعي التقليدي والأدب الطبيعي. ويرى الندوي أن الأدب العربي أصيب بمحنة لا يخلو من الإصابة بها أدب أمة من الأمم، وإن كان طولها يختلف من أمة لأخرى، هذه المحنة هي[ii]:

"تسلط أصحاب التصنع والتكلف على الأدب، الذين يتخذونه حرفة وصناعة، ويتنافسون في تنميقه وتحبيره، ليثبتوا براعتهم وتفوقهم، وليصلوا به إلى أغراض شخصية محضة".

ويرى الندوي أن استفحال هذه المحنة يكون[iii]:

"حين يصبح الأدب مقصوراً على هذه الطائفة، مختصاً بهم، ويأتي على الناس زمان لا يفهمون فيه من كلمة (الأدب) إلا ما أثر عن هذه الطبقة من كلام مصنوع وأدب تقليدي لا قوة فيه ولا روح ولا جدّة ولا متعة".

وقد يطغى هذا الأدب على النوع الثاني الذي يسميه الندوي (الأدب الطبيعي)، ويصفه بأنه[iv]:

"كلام مرسل، وتعبير بليغ يحرّك النفوس، ويثير الإعجاب، ويوسع آفاق الفكر، ويغري بالتقليد، ويبعث في النفس الثقة".

وهذا الأدب الطبيعي غير موجود في كتب الأدب ولم يكتبه أدباء ولم يأت في سياق أدبي، وإنما جاء في بحث ديني أوكتاب علمي أو موضوع فلسفي أو اجتماعي.

---

[i]- الندوي، أبو الحسن علي الحسني: نظرات في الأدب، دار القلم، دمشق، 1408هـ/1988م، ص 21، والندوي، أبو الحسن علي الحسني: مختارات من أدب العرب، قسم النثر، الجزء الأول، دار الشروق، جدة، ط 3، 1406هـ/1986م، المقدمة ص 7، والغوري، سيد عبد الماجد: العلامة أبو الحسن الندوي رائداً للأدب الإسلامي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1430هـ/2009م، ص 57

[ii]- الندوي، أبو الحسن علي الحسني: نظرات في الأدب، مرجع سابق، ص 21

[iii]- المرجع السابق، نفسها

[iv]- المرجع السابق، ص 22

وبذلك نفهم أن الأدب الطبيعي –كما يسميه الندوي– هو الأدب الذي لا تكلف فيه، ولا تصنع، ولا يكتب بهدف الإبهار الأدبي، والتزويق اللفظي، وإنما يأتي عفو الخاطر. ويصرح الندوي في موضع آخر من بحثه بخصائص هذا الأدب الطبيعي، فيقول[i]:

"إن ما كتبه هؤلاء العلماء غير معتقدين أنهم يكتبون للأدب، ولا زاعمين أنهم في مكانة عالية من الإنشاء، هو الذي يسعد العربية ويشرفها أكثر مما يسعدها ويشرفها كتابات الأدباء ورسائلهم وموضوعاتهم الأدبية، وأخاف لو أنهم قصدوا الأدب وتكلفوا الإنشاء؛ لفسدت كتاباتهم".

ويضرب بعض الأمثلة على تباين أسلوب الكاتب الواحد حين يكتب للأدب وحين يكتب في موضوع علمي، ويمثل لذلك بالزمخشري الذي بدا متكلفاً مقلداً في كتابه (أطواق الذهب) وكاتباً بليغاً في مقدمة (المفصّل) ومواضع من تفسيره (الكشاف)، وابن الجوزي الذي كان –حسب رأي الندوي– غير موفق في كتابه (المدهش) وكاتباً مترسلاً بليغاً في كتابه (صيد الخاطر)[ii].

ويرى الندوي أن سبب لجوء هؤلاء الكتاب الذين ذكرهم هو أن عصرهم كان يعد الأدب في التكلف والتصنع، فسلكوا سبيل أدباء عصرهم، ولكن تلك المؤلفات لم يكتب لها البقاء، بينما بقيت كتبهم التي ألفوها وليس في نيتهم أن يبدعوا أدباً بل تركوا أنفسهم على سجيتها وكتبوا في مواضيع علمية آمنوا بها وتحمسوا لها فبقيت كتبهم تلك مثل (صيد الخاطر) و(المفصل) و(الكشاف)، يتلقفها الناس عصراً بعد عصر.

ومن هذا نفهم أن تعريف الأدب الطبيعي عند الندوي هو أن يكون نابعاً من عاطفة صادقة، بعيداً عن التكلف والتصنع. يقول الندوي[iii]:

"ليس السرّ في فضل هذه الكتابات العلمية والدينية وتأثيرها وقوتها وجمالها هو التحرر من السجع والبديع وترّسلها فحسب؛ بل السبب الأكبر هو أن هذه الكتابات قد كتبت

---

[i]- المرجع السابق، ص 31

[ii]- المرجع السابق، نفسها

[iii]- المرجع السابق، ص 31-32

عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة واقتناع وعن حماسة وعزم. أما الكتابات الأدبية فقد كان غالبها يكتب بالاقتراح من ملك أو وزير أو صديق، أو لإرضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع، أو حباً للظهور والتفوق، وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح، ولا تسبغ عليها لباس البقاء والخلود، ولا تعطيها التـــأثيرفي النفوس والقلوب، والفرق بينها وبين الكتابات المنبعثة من القلب والعقيدة كالفرق بين الصورة والإنسان، وكالفرق بين النائحة والثكلى".

ويؤكد الندوي على أهمية العقيدة في الأدب فيقول[i]:

"وقد كان هؤلاء الكتاب المؤمنون الذين ملكتهم فكرة أو عقيدة أو يكتبون لأنفسهم يكتبون إجابة لنداء ضميرهم وعقيدتهم مندفعين منبعثين فتشتعل مواهبهم ويفيض خاطرهم ويتحرق قلبهم فتنثال عليهم المعاني وتطاوعهم الألفاظ وتؤثر كتاباتهم في نفوس قرائها لأنها خرجت منقلب فلا تستقر إلا في قلب".

ويوازن بينهم وبين الفريق الثاني فريق المتكلفين أصحاب الصناعة فيقول[ii]:

"أماهؤلاء المتصنعون فإنهم في كتاباتهم الأدبية أشبه بالممثلين، قد يمثلون الملوك، فيتصنعون أبهة الملك ومظاهره وقد يمثلون الصعلوك فيتظاهرون بالفقر، وقد يمثلون السعيد والشقي من غير أن يذوقوا لذة السعادة، أو يكتووا بنار الشقاء، وقد يعزون من غير أن يشاركوا المفجوع في أحزانه وقد يهنئون من غير أن يشاركوا السعيد في أفراحه".

ويضرب الأمثلة على الأدب الطبيعي بكتابات الإمام الغزالي في (الإحياء) و(المنقذ من الضلال)، وكتابات ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، التي يصفها بقوله: "تَرَ مثالاً رائعاً للكتابة الأدبية العالية يتدفق قوة وحياة وتأثيراً، وذلك هو الأدب الحي الخليق بالبقاء، ولا سبب لذلك إلا أنه قد كتب عن عقيدة وعاطفة"[iii].

---

i- المرجع السابق، ص 32

ii- المرجع السابق، نفسها

iii- المرجع السابق، ص 33

ويضيف الندوي سبباً آخر لروعة الإبداع الأدبي الطبيعي بالإضافة إلى صدق العاطفة وقوة العقيدة، ذلك هو[i]:

"الإيمان، وصفاء النفس، والاشتغال بالله، والعزوف عن الشهوات [الذي] يمنح صاحبه صفاء حسناً، ولطافة نفس، وعذوبة روح، ونفوذاً إلى المعاني الدقيقة واقتداراً على التعبير البليغ".

ويدلل على ذلك بقوله[ii]:

"لذلك كان من الأدب الصوفي ومن كلام الصالحين العارفين قطع أدبية خالدة لم تفقد جمالها وقوتها على مر العصور والأجيال".

إذا فإن مفهوم الأدب الطبيعي عند الندوي ليس في محتواه بل في الباعث عليه، فليس الأدب هو الإسلامي ولكن النَّفس التي يصدر عنها هي المؤمنة المتدينة فكل ما يصدر عنها يكون جميلاً ورائعاً ومؤثراً أيا كان موضوعه، وموضوعه —والأمر كذلك- لن يكون فيه ما يتعارض مع الإسلام والإيمان لأنه صادر عن نفس مؤمنة وعقيدة صادقة.

ويرى الندوي أن هذه القطع الأدبية الموجودة في ثنايا الكتب غير الأدبية[iii]:

"هي التي تخدم اللغة والأدب أكثر مما تخدمها كتب اللغة والأدب، وهي التي تفتق القريحة، وتنشط الذهن، وتقوي الذوق السليم، وتعلم الكتابة الحقيقية".

وكأنه بذلك يوصي بتدريس تلك القطع الأدبية لطلاب الأدب لتنشأ عندهم ملكة أدبية طبيعية، ينسجوا على منوالها، بدلاً من تنشئتهم على كتب الأدب المصنوع المتكلف.

ويخلص الندوي إلى تعريف الأدب الطبيعي بأنه[iv]:

"تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مُفهم مؤثر لا غير".

وإذا عددنا هذا البحث للعلامة الندوي هو الدعوة الأولى لإقامة مذهب إسلامي في الأدب —كما يرى الدكتور الباشا- فإن مفهوم هذا الأدب —الذي أطلق عليه العلامة

---

[i]- المرجع السابق، ص 33

[ii]- المرجع السابق، ص 33

[iii]- المرجع السابق، ص 34

[iv]- المرجع السابق، ص 35

الندوي الأدب الطبيعي- ليس متطابقاً تماماً مع مفهوم الأدب الإسلامي الذي يُعرَّف اليوم بأنه: "التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي"[i].فالعلامة الندوي يركز على تلقائية هذا الأدب وصدوره عن عقيدة وإيمان، وأن لا يكون تقليداً متكلفاً خالياً من الحياة، دون أن يتطرق إلى محتواه ومدى مطابقته للتصور الإسلامي، وإن كان هذا الأمر يُفهم ضمنياً من خلال الأمثلة التي أوردها. أما تعريف الأدب الإسلامي اليوم فيركز على الهدف والغاية والتوافق مع التصور الإسلامي، وإن كان قد أشار إلى الفنية، ولكنه لم يركز عليها.

باكثير والأدب الإسلامي

ولد علي أحمد باكثير في إندونيسيا عام 1910م، لأسرة عربية من حضرموت (اليمن). وحين بلغ العاشرة من عمره سافر به أبوه إلى حضرموت لينشأ هناك نشأة عربية إسلامية، فدرس اللغة والنحو والأدب على أيدي أساتذة أجلاء، و لم يبلغ العشرين من عمره إلا وقد أحاط بكل كتب الأدب القديم، وكتب التفسير والحديث والسيرة، وتمكن من علمي النحو والعروض. يظهر ذلك واضحاً من خلال ثقافته التي انعكست في أعماله الأدبية، وكتاباته النقدية المبكرة. فقد كتب استدراكاً على كتاب (الموازنة للآمدي)[ii] ناقش فيه كثيراً من تحامله على أبي تمام ورد عليه، وهو لم يبلغ العشرين من عمره بعد. كما كتب مقالاً بعنوان (ملاحظات سائح في ديوان ابن زيدون)[iii] صحح فيه كثيراً من الأخطاء التي وقع فيها محققا ديوان ابن زيدون، مما يدل على سعة اطلاعه على كتب الأدب وتضلعه منها. كما كتب قصيدة عن الإمام الغزالي تدل على أنه اطلع على مؤلفاته واستوعبها[iv].

---

[i]- موقع رابطة الأدب الإسلامي العالمية: http://www.adabislami.org

[ii]- نشره في مجلة (التهذيب) التي كان يصدرها مع نخبة من أدباء سيئون بين عامي 1349هـ و1350هـ

[iii]- كتبه أثناء إقامته في عدن، ونشرته مجلة (المعرفة) المصرية في عدد ديسمبر 1932م

[iv]- باكثير، علي أحمد: ديوان أزهار الربى في شعر الصبا، تحقيق وتقديم: محمد أبوبكر حميد، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، بيروت، 1408هـ/1987م، ص ص 229-232

وبعبارة أخرى فإن باكثير كان قد اطلع قبل أن يغادر حضرموت وهو في العشرين من عمره على كلا الأدبين: المصنوع والطبيعي، حسب تعريف العلامة الندوي.

ولأن باكثير كغيره من شُداة الأدب كان يعد الأدب المصنوع –حسب تعريف الندوي– هو الأدب الحقيقي، ولأنه كان يهيئ نفسه ليكون شاعراً وأديباً، فلا غرو أن يقلد ذلك الأدب المصنوع، فيأتي كثير من شعره ونثره في تلك المدة غارقاً في التقليد، مصنوعاً لا أثر فيه للحياة ولا للتدفق. ولنضرب مثلين للتدليل على ذلك، أحدهما من شعره والآخر من نثره.

أما شعره فاخترنا منه هذه القصيدة التي كتبها قبل أن يغادر حضرموت عام 1931م، وفيها يقف على الأطلال، ويحاكي الشعر الجاهلي، يقول فيها[i]:

لمن طللٌ تحاكيه الوشومُ   عفت منه المعالمُ والرُّسومُ
يحاكي مُصحفاً من عهد عادٍ   بخط الحميريِّ له رقومُ
ترحَّلَ عنه أحبابي جميعاً   وخلَّوني تساورني الهُمومُ
وخلَّوني هناك رهينَ سُقمٍ   تُساهرني الكواكبُ والنُّجومُ
ووادٍ مثلَ جوفِ العيرِ صَفرٍ   فريتُ وليلُه ليلٌ هيمُ
فريتُ هجولَه والليلُ مُرخٍ   دُجاه وقد تجاوبَ فيه بُومُ

إلى آخرها......

فمن يقرأ هذه القصيدة لا يصدق أن ناظمها يعيش في القرن الرابع عشر الهجري، ويحسبه شاعراً من شعراء الجاهلية، يقف على الأطلال ويفخر بنفسه وبقومه. والقصيدة كما نرى خير مثال على ما أطلق عليه العلامة الندوي (الأدب التقليدي المصنوع)، الذي يكتبه منشؤه عن غير معاناة، ولا عقيدة صادقة، وإنما ليثبت براعته وتمكنه من كتابة الشعر في الأغراض المختلفة.

على أن المثال الذي اخترناه لأسلوبه النثري، يأتي أسوأ من أسلوبه المنظوم، ذلك أنه كتبه بناء على اقتراح من صديق. فقد ألف صديق لباكثير –هو في الحقيقة أستاذ باكثير في

---

[i]– المرجع السابق، ص ص141-142

الخط- ألف كتاباً عن مناقب قبيلته (آل بافضل)، وطلب من صديقه وتلميذه النجيب باكثير أن يكتب تقريظاً له، فكتب يقول[i]:

"الحمد لله الذي أورد من شاء مناهل العلوم، وأتحف من أراد بثاقبات الفهوم. أحمده على نعمه، وأشكره على قسمه. وأصلي وأسلم على النبي المعظم، والرسول المكرم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أما بعد، فقد اطلعت على كتاب (صلة الأهل، بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل) للعالم العلّامة، الحَبرِ الفهّامة، العلمِ الشهير، والبحرِ الغزير، المحققِ المدقق، والغيثِ المغدق، فريدِ عصره، ووحيدِ دهره، سحبانَ[ii] بلاغةٍ وخطابة، وابنِ مُقلة[iii] خطاً وكتابة، جامعِ أشتات الفضل، الشيخِ محمدِ بن عوض بافضل، لا زال رافلاً في حلل السلامة والعافية. فسرّحتُ النظر في أزهار رياضه، وأجلتُ الطرف في أشجار غياضه، وتنزهتُ في حدائقه البهيّة، وتفكهتُ بفواكهه الجنيّة، فوجدته يقطر بلاغة، ويندى صياغة، يُدّخر لنفاسته، ويُشرب لسلاسته:

تزينُ معانيه ألفاظَه وألفاظُه زائناتُ المعاني

كتاب يُزري بعقد الثُّريّا، ويُخجل زهرَ الروضِ الباسمَ المُحيّا، كتاب أغلى من السَّلامة من المصائب، وأحلى من رسائل القاضي الفاضل[iv] والصاحب[v]. كتاب كسته بهجة الحسن رونقاً هو السِّحر، لا بل جلَّ قدراً عن السِّحر. كتاب يهزأ بالعقود اللؤلؤية[vi]، ويفوق على الصِّحاح الجوهرية[vii]. هو السِّحر الحلال، أو الماء الزلال. حريٌ أن يُكتب

---

[i]- بافضل، محمد بن عوض: صلة الأهل، بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل، د. ن، 1420هـ/ 1999

[ii]- خطيبمخضرمنواليضربيهالمثلفي البلاغة (ت 54 هـ)

[iii]- أبوعليمحمدبنعليبنالحسينبنمقلةالشيرازي (ت 328هـ) مناشهرخطاطيالعصرالعباسي

[iv]- عبدالرحيمبنعلىبنمحمداللخمي (ت 596هـ) أحدالأئمةالكتّاب،ووزيرالسلطانصلاحالدينالأيوبي

[v]- أبوالقاسمإسماعيلبنعباد(ت 385 هـ) أحدأعيانالعصرالبويهي كان مننوادرالوزراءالذينغلبعليهمالعلموالأدب

[vi]- العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تأليف: علي بن الحسن الخزرجي (مؤرخ، بحاثة، من أهل زبيد في اليمن،ت 812هـ)

[vii]- تاجاللغةوصحاحالعربية، تأليف: إسماعيلبنحمادالجوهري (ت 393هـ)

بدموع الحور، على صفحات ربّات الخدور. كتاب يُزري بلآلئ البحور، ودراريِّ النُّحور. فهو مُفيد علوم، ومُبيد هموم. لا عيب فيه ولا شين، إلا أنه محتاج إلى ما يقيه من العين:

شخصاالأنامُإلىصنيعكفاستعذْ   منشرِّأعينهمبعيبٍواحدِ

فجعلتُ هذا التقريظ له من العين وقاية، ومن شرِّ الحسَّاد حماية:

جعلتُ تقريظي له عُوذةً   تقيه من شرِّ أذى العينِ"

هذا هو أدب باكثير قبل أن يغادر حضرموت، حين كان مفهوم الأدب عنده هو التقليد والصناعة والسجع والتكلف. وقد كتب هذا التقريظ بناء على اقتراح من صديق، تماماً كما أشار العلامة الندوي إلى ذلك حين قال إن الأدب المصنوع ليس نابعاً من عاطفة صادقة وإنما يكتبه منشؤه إما بناء على اقتراح من صديق أو لتحقيق مصلحة من المصالح التي أسماها الندوي "المصالح السطحية". ويظهر من هذا التقريظ مدى تأثر باكثير بكتب الأدب المصنوع –كما أسماها الندوي– من أمثال: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشرللمُحبي، وحلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشرللبيطار، ومحاضرات الأدباء ومحاورات البلغاءللراغب الأصفهاني، وغيرها، ويطول بنا الحديث لو حاولنا تتبع عبارات باكثير والمصادر التي وردت فيها تلك العبارات، إذ هي كلها مصنوعة ومقلدة وليس منها شيء من تشبيهاته الخاصة وعباراته الخالصة.

ولكن مخزون باكثير من كتب الأدب الطبيعي –كما يسميه الندوي– لم يظهر إلا عندما غادر باكثير حضرموت، وقدم إلى مصر، ودرس الأدب الإنجليزي في الجامعة، واطلع على التجارب الجديدة في الأدب التي كانت تعج بها الساحة المصرية، مثل جماعة أبولو ومجلة الرسالة، فتغيرت نظرته للأدب، وتوقف برهة عن نظم الشعر، ثم عاد إليه بفهم جديد ونظرة جديدة فأبدع ما أصبح يعرف اليوم بالشعر الحر، وأسماه هو (الشعر المرسل المنطلق)، ففتح بذلك للأدب العربي نافذة على الأدب العالمي. ولنوازن قصيدته الطللية تلك، بهذه الأبيات التي كتبها أول قدومه إلى مصر[i]:

---

[i]- نشرت في مجلة أبولو، (العدد 4 المجلد 3) ديسمبر 1934م

أمس

ياحبيبـــي بـــرد العقـــدُ ولـــم يبود على الرشـــف صـــداي
وانقضـــى أو أوشـــك الليـــل ولمّا أقضِ من فيـــك مُنـــاي

***

أه مـــا أحـــلاكَ فـــي قلبـــي وعينـــي وذراعـــي ولسانـــي
ليتـــنـــي أفـــنـــى بعينـــيـــك فأحيا في نعيـــمٍ غيـــر فـــانِ

***

لـــو عبرنا الدَّهرِ ضماً واعتناقاً لا أرى يُشـــفـــى غلـــيـــلـــي
يا حياتي ساعةٌ تعـــدل منـــك الدَّهـــرَ ليـــســـت بالقلـــيـــلِ

***

أنـــتَ دنـــيـــاي وديـــنـــي ومـــعـــادي وهـــــــداي
ليت شـــعري عنك يا روحـــي أنفسي أنت أم أنـــت ســـواي؟

***

يا حياة الروح هل صاغـــكَ ربـــي مـــن فـــؤادي وهـــواه
أم براني الجسدَ الهامـــدَ مَـــن أودع لـــي فيـــكَ الحـــيـــاه؟

***

ذاك أو هـــــذا فـــإنّـــا مهـــجـــةٌ فـــي جســـديـــن
فـــإذا نـــحـــنُ اعتنـــقـــنـــا فمُصـــلٌّ ضـــمَّ لله اليـــديـــن

***

واليوم

وانطوى العهدُ وأُفردتُ لأشـــقى عائشـــاً فـــي نصـــفِ روحِ
ليـــتـــه نـــصـــفٌ ســـلـــيـــمٌ غير ممنيٍّ بأشتاتِ الجـــروحِ

***

فلأمتْ بعــدكَ كــي ألقــاكَ أو فلأحيَ بالذكــرى لحيــنْ
وعــزائــي فــــي يقـيــن أنني ألقاكَ فـــي دار اليقيـــنْ

نجد هذه القصيدة تتدفق حيوية، وتنطق بالصدق والمعانـــاة، مـــع سلاسة في الألفاظ، وجمال في الأسلوب، دون تقعر أو تكلف.

ولنوازن قطعته النثرية تلك بما فيها من سجع متكلف، وصور مصنوعة، بهذه القطعة من رواية (وا إسلاماه) التي يصف فيها زواج (قطز) و(جلنار)[i]:

"وانتصف الليل، وانفضت جموع المدعوين والمدعوات، وسكتت أصوات الغناء، وألحان المزاهر والعيدان، وخفتت الطبول، وسكنت حركات الرقص، وتناعست عيون المصابيح، وأخذ الخدم يرفعون الموائد ويطوون الأخونة، وآوت الجواري إلى مخادعهن بين الفرح والحسرة، وأرخيت الستائر على الجناح الميمون، وخلا الحبيبان السعيدان.

فطاب اللقاء وساد الصفاء، وسالت ذموع الفرح، وتحدث القلب إلى القلب ولذت الشكوى، ورقت النجوى، وتذكرت ذنوب الزمان ثم غُفرت له دفعة واحدة. ومرت اللحظات، كأنها حبات عقد من اللؤلؤ النضيد وهى سلكه فانتثر، وقرت بنعيم الوصل عيون طالما أسهدها البين الطويل، فما كانت تنطبق إلا على لوم نافذ، ومضجع قلق، فمشى إليها النعاس مترفقا يستعتبها فأعتبته وضمته في شوق بين أهدابها الساجية. فرقد اثنان الحب ثالثهما تحوطهما بسمات الله ورضوانه. وتحقق حلم في الأرض، وأجيبت دعوة في السماء انطلقت من فم رجل صالح. واطمأنت روحا امرأتين غرقتا في نهر السند، وكانتا كثيرا ما تنظران إليهما صغيرين يلعبان في حديقة القصر الملكي بغزنة فتتمنيان أن تريا مثل هذا اليوم.

حتى تنفس الصبح وبرد السوار، فهب العروسان مذعورين يخشيان أن يكون ما كانا فيه رؤيا في المنام، والتمس أحدهما الآخر في نور الغبش، فإذا هما متعانقان".

هذا هو الأدب الطبيعي الذي تعشقه النفوس وترتاح إليه الأسماع، وهو صادر عن عاطفة صادقة، ذلك أن باكثير، وإن كان يصف هنا عرس قطز وجلنار، فإنه كان في

---

[i]- باكثير، علي أحمد: وا إسلاماه، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ت، صص206-207

الحقيقة يصف عرسه هو بمحبوبته التي اغتضرتها يد المنون وهي في ميعة الصبا وريعان الشباب، قبل أن تجف رياحين عرسهما. فجاء وصفه يقطر صدقاً ويندى عاطفة.

مفهوم الأدب الإسلامي لدى الندوي وباكثير

أشرنا في مطلع هذا البحث إلى أن بعض منظري الأدب الإسلامي في العصر الحديث يعدون العلامة الندوي أول من دعا إلى إقامة مذهب إسلامي في الأدب، في بحثه الذي أعده عام 1957م حين اختير عضواً في مجمع اللغة العربية في دمشق. وحين استعرضنا البحث المشار إليه رأينا أن العلامة الندوي كان يتحدث عن الأسلوب لا المحتوى. فقد فرق –كما أشرنا– بين نوعين من الأدب، هما: الأدب المصنوع، والأدب الطبيعي. وعنى بالأول الأدب الذي يهتم بالشكل من سجع وتكلف في الصياغة، وعنى بالثاني الذي يصدر فيه الكاتب عن سجية صافية وعقيدة قوية، ونفس مؤمنة فيأتي أسلوبه مشرقاً سلساً تلذه الأسماع وترتاح له النفوس.

فالعلامة الندوي إذن يتحدث عن الأسلوب والشكل لا عن المحتوى، وإن كانت الأمثلة التي أوردها كلها محتواها إسلامي أو لا يتنافى مع الإسلام. بينما يرى منظروالأدب الإسلامي أن: "الأدب الإسلامي هو التعبير الفني الهادف عن الإنسان والحياة والكون وفق التصور الإسلامي"[i].

فهم إذاً يُعنون بالمحتوى أكثر من الشكل. وهذا في رأيي فرق جوهري بين فهم العلامة الندوي للأدب الإسلامي وبين فهم منظري الأدب الإسلامي المعاصرين. مع التأكيد هنا على أن العلامة الندوي لا يهمل المحتوى، والنماذج التي اختارها في كتابه (مختارات من أدب العرب) تؤكد ذلك، ومع التأكيد أيضاً على أن منظري الأدب الإسلامي لا يهملون الشكل، فالتعبير السابق يحتوي على مصطلح (التعبير الفني) وهو يخص الشكل، ولكني أرى أن العلامة الندوي يُعلي من شأن الشكل، بينما يُعلي منظرو الأدب الإسلامي من شأن المحتوى. وللتدليل على ذلك نشير إلى خصائص الأدب الإسلامي التي تميزه عن الآداب الأخرى من وجهة نظر الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا، فسنجده يورد ستَّ خصائص،

---

[i]– موقع رابطة الأدب الإسلامي العالمية: http://www.adabislami.org

خمس منها تتعلق بالمضمون (غائي هادف، ملتزم، أصيل، مستقل، فعال مؤثر) وواحدة فقط تتعلق بالشكل (متكامل)، ويقصد بالتكامل "تآزر المضمون مع الشكل"[i]؛ فحتى هذه امتزجت بالمضمون و لم تخلص للشكل وحده.

وإذا حاولنا أن نستخلص من مقال العلامة الندوي خصائص الأدب الإسلامي –أو الطبيعي كما أسماه– فسنجده يحدده بالصفات الآتية:

كلام مرسل، وتعبير بليغ[ii]، يعبر عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مُفهم مؤثر[iii]،كتب عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة واقتناع وعن حماسة وعزم[iv]، صادراً عن نفس صافية مؤمنة، مشتغلة بالله، عازفة عن الشهوات[v].

فمن وجهة نظر العلامة الندوي ينبغي أن يكون هذا الأدب بليغاً، مرسلاً، ومؤثراً،صادراً عن عقيدة وعاطفة صادقة، وعن فكرة واقتناع وحماسة وعزم، عن نفس صافية مؤمنة مشتغلة بالله عازفة عن الشهوات. فنجده يمزج بين الشكل والمضمون بحيث يصعب الفصل بينهما، ونراه يركز على العقيدة وصفاء النفس وعزوفها عن الشهوات ليأتي ما يصدر عنها بليغاً مؤثراً شفافاً. فكأنه بذلك يجعل المحتوى نتيجة طبيعية لصفاء النفس وإيمانها، فيأتي المحتوى إسلامياً دون تكلف أو تعمد أو وعي مسبق، أو التزام أو إلزام من الأديب أو من غيره.

وإذا وازنا هذا المفهوم للأدب الإسلامي –أو الطبيعي– لدى العلامة الندوي بمفهوم الأدب الإسلامي لدى الأديب باكثير، فسنجد كثيراً من التشابه الذي يكاد يصل إلى حد التطابق.

ومع أن باكثير لم يكتب في النقد والتنظير لمفهومه للأدب، إلا أن الكتابات القليلة التي كتبها ستلقي ضوءاً كافياً يجلي نظرته للأدب كما يريد له أن يكون. ولدينا كتاب (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية)، وهو مجموعة محاضرات كان باكثير قد ألقاها على طلبة المعهد العربي،

---

[i]– الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص ص 145-147

[ii]– الغوري، سيد عبد الماجد: العلامة أبو الحسن الندوي رائداً للأدب الإسلامي، مرجع سابق، ص 58

[iii]– المرجع السابق، ص 81

[iv]– المرجع السابق، ص 76

[v]– المرجع السابق، ص 78

ومحاضرة بعنوان (دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية) كان باكثير قد ألقاها في مؤتمر الكتاب العرب ببغداد عام 1969م ونشرها في مجلة (الآداب) البيروتية، وسنعتمد على هذين المرجعين في تجلية مفهوم الأدب الإسلامي لدى باكثير.

بداية نقرر أن باكثير لم يستخدم مصطلح (الأدب الإسلامي) ولم يدعُ إليه. و لم يكن يدعو إلى أن يكون للكتاب الإسلاميين أو الملتزمين رابطة أو منابر خاصة بهم. وإنما كان شأنه –كشأن العلامة الندوي– أن يدعو كل الكتاب العرب –وضمناً المسلمين– إلى أن ينتهجوا نهجاً معيناً من حيث الشكل والمحتوى، وسنجلي ذلك فيما يأتي.

دعا باكثير في كتابه (فن المسرحية) إلى أن يكون للكاتب فكرة معينة يتحمس لها ويدافع عنها، يقول باكثير، تحت عنوان (الكاتب الداعية)[i]:

"هل يصلح أن يكون الكاتب المسرحي داعية لفكرة خاصة، وهل يمكن لمثل هذا الكاتب الداعية الذي يستوحي موضوعاته من حماسته المتوقدة لهذه الفكرة أن ينتج مسرحيات تعتبر أعمالاً فنية؟ والجواب على هذا السؤال بالإيجاب (..)، ولكن ينبغي لمثل هذا الكاتب المسرحي ألا ينسى وهو يلتهب حماسة للدعوة التي يدعو إليها أن المسرحية عمل فني قبل كل شيء فيجب ألا يجور على فنيتها بحال من الأحوال. بل ينبغي أن يحرص الحرص كله على سلامة عمله من الوجهة الفنية، وأن يدرك أن ذلك هو السبب الوحيد لجعل الرسالة التي ينطوي عليها بليغة التأثير في الجمهور الذي يشاهده.

والخلاصة أن على هذا الكاتب أن يجعل الداعية فيه خادماً للفنان المسرحي فيه، لا سيداً له، وإلا فليتخذ أداة أخرى غير الكتابة المسرحية كالخطابة أو الصحافة".

وهذا يلتقي تماماً مع ما قرره العلامة الندوي من أن سر تفوق تلك الكتابات التي أطلق عليها (الأدب الطبيعي) هو أن أصحابها انطلقوا من عقيدة آمنوا بها وتحمسوا لها، و لم تكن مفروضة عليهم من الخارج. مع تأكيد باكثير على الشكل الفني وعدم طغيان الداعية على الفنان.

---

[i]- باكثير، علي أحمد: فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مطبعة مصر، د.ت، ص 36

كما دعا باكثير في محاضرته الأديب العربي—وضمناً الأديب المسلم إلى[i]:

"أن يلتزم شرف الكلمة ويراعي ما يجب لها من أمانة وصدق، فلا يتملق الحكام وأرباب المناصب رغبة أو رهبة ولا يداجي الخونة والعملاء والانهزاميين والانتهازيين من أي لون أو اتجاه، إيثاراً للسلامة وتنصلاً من التبعة، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس".

وهذا بالضبط ما حذر منه العلامة الندوي حين أشار إلى أن (الأدب المصنوع) صار كذلك لأنه كتب إما بناء على اقتراح من صديق أو للوصول إلى مصلحة معينة. فباكثير والندوي يدعوان الكتاب إلى أن يصدروا عن عقيدة صادقة ودعوة هم متحمسون لها، وأن لا يتكسبوا بالأدب ويتخذوه حرفة لاستدرار الأموال وجلب المصالح.

ومع اتفاق باكثير مع رأي العلامة الندوي، نجد أن فهمه لدور الأديب العربي يكاد يتطابق مع خصائص الأدب الإسلامي كما قررها الدكتور الباشا.فقد حدد باكثير في محاضرته الأمور التي ينبغي أن يلتزم بها الأديب العربي (أو المسلم)، ليؤدي دوره المنوط به في المعركة المصيرية التي تخوضها أمته. وإذا وازنا بين هذه الأمور وبين الخصائص التي تميز الأدب الإسلامي عن الآداب الأخرى كما حددها الدكتور الباشا، فسنجد الكثير من التشابه الذي قد يصل إلى حد التطابق. وسنشير إلى ذلك من خلال ذكر الخصائص التي أوردها الدكتور الباشا مع ذكر ما يقابلها في محاضرة باكثير.

فالصفة الأولى عند الباشا هي أن الأدب الإسلامي (غائي هادف) وهذا يتفق مع عنوان وموضوع محاضرة باكثير الذي يرى أن يستخدم الأديب العربي (المسلم) الأدب سلاحاً في المعركة التي تخوضها أمته اليوم، يقول باكثير[ii]:

"أن يعي دوره في المعركة فلا يبدد مواهبه فيما لا يجدي على المعركة شيئاً بله ما يعطلها أويعوقها، كاختيار الموضوعات المثبطة للهمم والموهنة للعزائم، أو انتحال البدع الأدبية

---

[i]- باكثير، علي أحمد: دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مجلة الآداب، بيروت، العدد (5)، أيار (مايو) 1969، ص 11

[ii]- باكثير، علي أحمد: دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مرجع سابق، ص 11

المنحرفة التي هي في بلادها نتاج اليأس الشائع هناك والانحلال والتمزق والضياع. فليس لنا أن نستنبتها عندنا مجاراة لتلك البلاد".

فباكثير إذن يؤمن بغائية الأدب ولا يؤمن بمقولة (الفن للفن)، وقد رأينا كيف دعا إلى أن يكون الأديب (داعية) يتحمس لفكرة ويدافع عنها.

الصفة الثانية عند الباشا هي أنه (أدب ملتزم) وشرح ذلك بقوله[i]: "هو مسؤولية وريادة في وقت معاً؛ فالمسؤولية إنما هي أمام الله (...) والريادة إنما هي إخلاص التوجيه لعامة المسلمين وخاصتهم".وهذه المسؤولية والريادة هي التي أشار إليها باكثير بقوله[ii]:

"أن يكون رائداً لأمته يبصرها بالأخطار التي تتهددها قبل وقوعها، لتتقيها أو تستعد لدفعها، حتى إذا وقع المحذور توجهت بكليتها لمقاومته ومدافعته والخلاص منه".

الصفة الثالثة عند الباشا هي (أنه أدب أصيل) و"تتجلى هذه الأصالة في انصباب أدب الأديب على الأصيل من خصائص أمته، والنقي الصافي من صفاقا، والرفيع الثمين من قيمها ومزاياها"[iii]. وهذا يلتقي مع قول باكثير[iv]:

"أن يتحلى بصفة تعلو على الصفات كلها وتفوقها في الخطر والأهمية: وأعني الأصالة العربية. والمقصود بالأصالة العربية هنا أن يكون الأديب عربياً في كل شيء وقبل كل شيء، عربياً في شعوره وتفكيره، ونظرته إلى الكون والحياة، عربياً في انتمائه واهتمامه واعتزازه بوطنه وأمته.

عربياً في إيمانه بالحضارة العربية، والحضارات التي قامت في مختلف أقطار وطننا العربي الكبير، واعتبار كل أولئك حلقات في سلسلة ذهبية واحدة.

عربياً في إيمانه بالله وبالقيم الروحية السماوية، وبالمثل العليا، وبالمبادئ الخلقية الرفيعة، إذ هذه من سمات أمتنا العربية ومميزاتها ومقوماتها منذ كانت".

---

[i]- الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص 145

[ii]- باكثير، علي أحمد: دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مرجع سابق، ص 11

[iii]- الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص 146

[iv]- باكثير، علي أحمد: دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مرجع سابق، ص 12

وإذا استبدلنا بلفظة (العربي) في نص باكثير السابق لفظة (المسلم) أو (الإسلامي) فسنجد أن الصفات التي يقصدها باكثير هي نفسها التي عناها الدكتور الباشا.فباكثيريمزج بين العروبة والإسلام مزجاً قوياً، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، فقد كان يرى أن العروبة وعاء الإسلام والإسلام روح العروبة[i].

أما الصفة الرابعة عند الباشا وهي (تآزر الشكل والمضمون)، فقد أشرنا إلى قول باكثير[ii]:

"ينبغي لمثل هذا الكاتب المسرحي ألا ينسى وهو يلتهب حماسة للدعوة التي يدعو إليها أن المسرحية عمل فني قبل كل شيء فيجب ألا يجور على فنيتها بحال من الأحوال. بل ينبغي أن يحرص الحرص كله على سلامة عمله من الوجهة الفنية،.وأن يدرك أن ذلك هو السبب الوحيد لجعل الرسالة التي ينطوي عليها بليغة التأثير في الجمهور الذي يشاهده".

والصفة الخامسة عند الباشا هي (الاستقلال)، ويقصد بها أن "يتخلص الأدباء الإسلاميون بعامة والشباب منهم بخاصة من تأثير الأدباء والنقاد المشهورين الذين يجذبون إليهم من دونهم جذباً شديداً، ويتحكمون في رؤيتهم للأشياء ونظرتهم إلى الحياة والكون ومبدعهما نظرة تجافي الإسلام"[iii].

وهذا أيضاً يلتقي مع مفهوم (الأصالة) عند باكثير التي أشرنا إليها منذ قليل؛ كما يلتقي مع مفهوم (الاستقلال) الذي يفسره باكثير بقوله[iv]:

"أن يعتز بكرامته واستقلال رأيه فلا يبيعهما بأي ثمن مهما يكن سلطانه، إلا أن يرى وجه الحق فيرجع إليه، فإن الرجوع إلى الحق فضيلة".

أما الصفة السادسة والأخيرة عند الباشا فهي أنه (أدب فعال مؤثر)، وهذه أيضاً أكد عليها باكثير حين أشار إلى أن يحرص الأديب على سلامة عمله من الوجهة

---

[i]- السومحي، أحمد عبد الله: علي أحمد باكثير، حياته، شعره الوطني والإسلامي، النادي الأدبي، جدة، 1403هـ/ 1982م، ص 92

[ii]- باكثير، علي أحمد: فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مطبعة مصر، د.ت، ص 36

[iii]- الباشا، عبد الرحمن رأفت: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، مرجع سابق، ص 146

[iv]- باكثير، علي أحمد: فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية، مطبعة مصر، د.ت، ص 36

الفنية، لأن هذا هو الذي يجعل الرسالة التي تنطوي عليها بليغة التأثير في الجمهور الذي يشاهد العمل الأدبي أو يقرأه.

الخاتمة

لم أجد فيما اطلعت عليه من أعمال العلامة الندوي رحمه الله تعريفاً للأدب الإسلامي أو دعوة مباشرة إليه، وبقراءة متأنية لبحثه الذي يعده الدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا أول دعوة لإقامة مذهب إسلامي في الأدب يتضح أن العلامة الندوي يفرق بين نوعين من الأدب أسماهما: الأدب الطبيعي والأدب المصنوع. ويكاد تعريفه للأدب الطبيعي يقترب من مفهوم الأدب الإسلامي اليوم مع تركيز العلامة الندوي على تلقائية هذا الأدب وصدوره عن عقيدة صادقة ونفس مؤمنة. ويتفق هذا الفهم مع مفهوم الأدب لدى الأديب علي أحمد باكثير الذي بدأ حياته الأدبية مقلداً للأدب المصنوع، ثم انتهى به المطاف إلى الأدب الطبيعي -حسب تسمية العلامة الندوي- حيث صدر عن عاطفة صادقة وحماسة لدعوة كان باكثير قد نذر نفسه لها ودعا غيره من الأدباء العرب والمسلمين إلى الاهتمام بها وهي أن يتخذ الأدب سلاحاً في المعركة التي تخوضها الأمة العربية والإسلامية اليوم ضد الاستعمار والصهيونية. وبقراءة متأنية لمحاضرة باكثير التي حدد فيها الصفات التي ينبغي أن يتحلى بها الأديب العربي اليوم، نجد كثيراً من التطابق بينها وبين خصائص الأدب الإسلامي كما حددها الدكتور الباشا.

ونخلص من هذا إلى أن مفهوم باكثير لرسالة الأديب العربي/المسلم يتفق مع مفهوم الأدب الطبيعي لدى العلامة الندوي ويكاد يتطابق مع مفهوم الأدب الإسلامي حسب تعريفنا له اليوم.

المراجع:

أولاً: الكتب:

- الباشا،عبدالرحمن رأفت: نحومذهبإسلاميفيالأدبوالنقد،دارالأدبالإسلاميللنشروالتوزيع، القاهرة،ط 5، 1425هـ/2004م.
- بافضل، محمد بن عوض: صلة الأهل، بتدوين ما تفرق من مناقب بني فضل، د. ن، 1420هـ/ 1999م.

- باكثير،علي أحمد:
- ديوان أزهارالربى فيشعرالصبا،تحقيقوتقديم: محمدأبوبكرحميد،الداراليمنيةللنشروالتوزيع،بيروت، 1408ه/1987م.
  - فنالمسرحيةمنخلالتجاربيالشخصية،مطبعةمصر، القاهرة،د.ت.
  - والإسلاماه،دار الكتاب اللبناني، بيروت،د.ت.
- السومحي، أحمد عبد الله: علي أحمد باكثير، حياته، شعره الوطني والإسلامي، النادي الأدبي، جدة، 1403هـ/ 1982م.
- الغوري،سيدعبدالماجد: العلامةأبوالحسنالندويرائدالأدبالإسلامي،دارابنكثير،دمشق،بيروت، 1430هـ/2009م.
- الندوي، أبو الحسن علي الحسني:
- مختارات من أدب العرب، قسم النثر، الجزء الأول، دار الشروق، جدة، ط 3، 1406هـ/1986م.
  - نظرات في الأدب، دار القلم، دمشق، 1408هـ/1988م.

ثانياً: الدوريات:

- باكثير،عليأحمد:
  - أمس، مجلةأبولو، القاهرة،العدد (4)،المجلد(3)،ديسمبر 1934م.
- دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية، مجلة الآداب، بيروت، العدد (5)، أيار (مايو) 1969م.
  - ملاحظات سائح في ديوان ابن زيدون، مجلةالمعرفة،القاهرة،عدددیسمبر 1932م.
  - الموازنة، مجلةالتهذيب، سيئون، 1349هـ.

ثالثا: المواقع الإلكترونية:

- موقع رابطةالأدبالإسلاميالعالمية: http://www.adabislami.org

منهج أبي الحسن الندوي في أدب الطفل

أ.د. عبد الملك بومنجل
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة سطيف2/الجزائر

يتميز العلامة أبو الحسن الندوي بعلمه الموسوعي، ووعيه الحاد بالمشكلات الحضارية للأمة الإسلامية، وحرصه على معالجة مختلف المشكلات الفكرية والتربوية والسياسية التي تعيشها بلدان العالم الإسلامي؛ فقد كتب مؤلفات عديدة في الفكر والدعوة والسياسة والتاريخ والتربية والأدب والسيرة وأدب الرحلات، ولم يحل اشتغاله بكل هذه المهام الثقيلة دون عنايته بعالم الطفل، فقد خصه بجزء من وقته وجهده، وكتب في أدب الطفل عددا من القصص الديني التربوي طبعه بطابعه الفكري والأدبي، وكان له رأي ومنهج في أدب الطفل صدح به في بعض مؤلفاته التربوية، وجسده في كتاباته القصصية الموجهة للأطفال.

وقد كان هدف الندوي من كتابته للأطفال تحقيق الاستقلال الفكري والثقافي للمسلم الهندي، وربط الأجيال الناشئة برباط القيم الإسلامية محمولة في قالب أدبي عربي ممتع سهل موافق لعالم الطفولة متسق مع خصائص الجغرافيا وحاجة العصر؛ لذلك كتب كتبه وقصصه للأطفال مستهدية بهذا الهدف وهذا المنهج. وأهم ما كتب في هذا الشأن: "قصص النبيين"، "قصص من التاريخ الإسلامي"، "القراءة الراشدة لتعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية".

ونريد في هذا البحث أن ننظر في منهج أبي الحسن الندوي في أدب الطفل، لمعرفة الفلسفة التربوية التي ينطلق منها في الدعوة إلى العناية بأدب الطفل بعدّه وسيلة تربوية تثقيفية تعليمية بالغة الأثر في تكوينه وتشكيل شخصيته الأصيلة المعجونة بقيم الإسلام الحاملة لرسالته السامية، والمتصلة بواقعها الراهن القادرة على تحدي صعابه ومعالجة مشكلاته. ولمعاينة الطريقة المتميزة التي سلكها المفكر الأديب في كتابته الموجهة للأطفال، من حيث اختيار الموضوع، وانتقاء الأسلوب، وتوخي الأثر الديني والسلاسة اللغوية.

1. الكتابة للطفل مسئولية تربوية

أول ما يلفت النظر في تجربة أبي الحسن الندوي في الكتابة للطفل إيمانُه العميق المبكر بأهمية خصّ الطفل بكتابة أدبية تعليمية تربوية توجَّه إليه تحديدا وتخصيصا، بحيث تناسب إدراكه العقلي ووضعه النفسي ومستواه اللغوي، وتتوخى أن تقدم له زادا تربويا متوازنا متكاملا يجمع بين الغايتين التعليمية والتربوية، فيجمع في البعد التعليمي بين اللغة والمعرفة، ويجمع في البعد التربوي بين القيم الروحية الإسلامية والقيم الحضارية الإنسانية، ويربط بين هذه جميعا برباط التفاعل والتكامل حيث تكون اللغة العربية حاملة لروح الإسلام وقيمه علاوة على حملها لمزية تربية الذوق وتنمية القدرة البيانية، وتكون المعارف العلمية والتاريخية والثقافية متصلة بالخصوصية الحضارية الإسلامية، وخادمة لإعداد شخصية مسلمة مستقلة الفكر متميزة الوجهة.

فقد أنشأ في وقت مبكر (1946) كتابَه الأول في أدب الطفل (القراءة الراشدة لتعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية). وكشف في مقدمة هذا الكتاب عن وعي فكري وتربوي عميق، وشعور بالمسئولية كبير إزاء حق الطفل المسلم في كتابة تخصه وتناسبه بعدّه طفلا من جهة، وبعدّه مسلما من جهة ثانية، وبعدّه رجل المستقبل من جهة ثالثة؛ فانتقد ما وجد عليه حال المؤلفات العربية القليلة الموجهة للطفل في ذلك العهد، من القلة ومن الافتقار إلى الاستقلال الفكري والخصوصية الحضارية، وصدع برأيه في ضرورة أن يولي العلماء والأدباء هذه المَهمة عناية كافية، وأن يُقبلوا على الكتابة للطفل المسلم إقبالَ الجندي في معركة الحرية والمكافح في ميدان الكفاح؛ ونبّه على أنه أقبل هو ذاته على هذه الرسالة، رغم انشغالاته الكثيرة، لإدراكه خطر الكتابة للأطفال، وخطورة ترك الطفل المسلم بغير كتابة تشكله على النحو الصحيح، أو عرضةً لكتابةٍ لا تزوّده بقيم الإسلام، ولا تدرّبه على التزام المبادئ والتعلق بالمثل العليا. يقول في ذلك:

"كان من أهم الواجبات في هذه الأيام أن يعنى العلماء ورجال التعليم الديني بوضع منهاج تعليمي رشيد حكيم يفوق مناهج التعليم اللادينية في السهولة وتوفير الوقت ومراعاة نفسية الصغار، ويمتاز عنها في التربية الخلقية والدينية

وتهذيب النفس، مع إفادة الطالب بكل ما تُهِمُّ معرفته من الشئون الكونية والتاريخية والمواد العامة، مبنيا على أحدث مبادئ التعليم واختياراته.

وكان من حق هذه المهمة العلمية الدينية الجليلة -ولها خطرها في حياة المسلمين وفي مستقبل التعليم الديني- أن تتألف لها لجان من العلماء والمعلمين الكبار وأصحاب المعاهد الجليلة، وأن يبذلوا في سبيلها قسطا صالحا من أوقاتهم وجهودهم، وأن يقدّموها على كثير من أشغالهم العلمية والسياسية، فإن هذه المهمة الواسعة المعقدة لا يستقل بها الأفراد، وغنها لتنوء بالعصبة أولي القوة، ولكن العلماء -مع الأسف- في شغل شاغل عن هذا العمل الجدي الذي يقتضي صبرا طويلا وعناء شديدا واختيارا واسعا وتعاضدا قويا، ثم إنه كثير الخطر بطيء الإثمار قليل الاشتهار.

إن خطر هذه المهمة وجلالتها وإن الأخطار المحدقة بنظام التعليم الديني التي تهدد حياة المسلمين الدينية، واشتغال الأكفاء عنه بما هو أهم لديهم منه، حث مؤلف هذه الكتب على أن يكون جنديا مغامرا في سبيل هذا الجهاد، وأن يكون عاملا صغيرا في مهمة التعليم الديني، وأن يؤدي حقوق هذه اللغة الكريمة، ومن حقوق المعلمين الذين حببوا إليه هذه اللغة وسهلوها له ما يستطيع، وأن يقوم بإذن الله بجزء من أجزاء هذا العمل الجليل رغم ضعف صحته وتشتت باله، وانشعاب فكره وتزاحم أشغاله وكثرة أسفاره."[i]

وإنه لجدير بالنظر والاعتبار أن نرى كاتبا هنديا أكثر غيرةً على اللغة العربية ووفاء لها وحرصا على خدمتها من الكتاب العرب أنفسهم، وأن نرى داعية ومفكرا ليس اختصاصه الأدب العربي ولا النقد الأدبي، وإنما أكثر اهتمامه الفكر والدعوة والتاريخ وما إلى ذلك، يشعر بمسئولية الكتابة للأطفال ملقاةً على عاتقه في غياب اهتمام الأكفاء المختصين بها، فيقرر أن يكون جنديا مغامرا في سبيل منهج إسلامي لأدب الطفل؛ بينما لا نشعر نحن الأدباء العرب المسلمين المختصين في الأدب والنقد بهذه المسئولية، وتظل جهودنا مشتتة في جهود أدبية ونقدية مختلفة قد لا يكون لها الأولوية!

---

[i] أبو الحسن الندوي، القراءة الراشدة لتعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط17، 1421هـ/2000م، ص25-26.

وفي مقدمة كتابه "قصص من التاريخ الإسلامي" ينبه أبو الحسن الندوي على أن علماء النفس والتربية قد اتفقوا "على أن الحكايات الخفيفة الشائقة، الموجهة الهادفة، من أقوى وسائل التربية والصياغة الخلقية والمبدئية، والدينية والإيمانية، إذا كانت متصلة بأقطاب الإيمان واليقين، والديانات والرسالات."[i] ثم ينوه بعناية أكثر اللغات والآداب، والديانات، والبيئات، والمعنيين بتربية الأطفال، بجمع الحكايات الشائقة المثيرة التي تلائم سن الأطفال وعقليتهم ومدى قدرتهم على الوعي والتذوق[ii]، ثم ينبه على أن "الناشئة الإسلامية والأطفال المسلمون أحوج من كل ناشئة وجيل في سن الحداثة، إلى قصص وحكايات تغرس فيهم حب الخير والفضيلة، والبطولة والتضحية(...) والعزوف عن سفاسف الأمور وفضول الحياة، والحب لله وللرسول، ولأصحابه وأتباعه.."[iii] وأن التاريخ الإسلامي حافل بمثل هذه الحكايات، ثم يصدع بشعور الأسف إزاء ما يلحظ من قلة اهتمام المسلمين بهذا الواجب فيقول:

"ولكن الأقلام المسلمة، والمؤسسات التربوية، ودور النشر في العالم الإسلامي – نقول هذا مع أسف واعتذار– لم تعط هذا الجانب المهم، حقه من العناية والجمع والتأليف، فلا يزال أطفال المسلمين ومن كان في سن حديثة، يعيشون في قلة وندرة، إذا لم نقل في فقر وعوز، من هذا الصنف من كتب صغيرة تجمع هذه الحكايات والملتقطات من كتب التاريخ الضخمة، وتكون مكتبة للأطفال المسلمين تسهل الاستفادة منها، وتقوي الرغبة فيها، ويدوم أثرها في نفوس الأطفال والنشء الحديث."[iv]

ومرة أخرى يتصدى الندوي بنفسه لهذه المَهمَّة الواجبة، فيؤلف للأطفال قصصا وحكايات خفيفة شائقة التقطها من كتب السيرة وتاريخ الإسلام، من بعد تأليفه "القراءة

[i] أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي، ص3.

[ii] ينظر: المصدر نفسه، ص4-5.

[iii] المصدر السابق، ص5.

[iv] المصدر السابق، ص6-7.

الراشدة" و"قصص النبيين". ثم يتواضع فيعد خطوته هذه مجرد بداية، يتمنى إتباعها بخطوات و إثراءها بمزيد مؤلفات، ويأمل أن تكون هذه المؤلفات أبلغ وأقوى، وأجمل لغة وأسلوبا[i].

2.إشكالية الموضوع والغاية في أدب الطفل

يعالج أبو الحسن الندوي موضوع الكتابة للطفل بوعي فكري بالغ ونزعة إسلامية ظاهرة، فأنت تراه في جميع مقدمات كتبه الموجهة للأطفال يستحضر هذه الإشكالية، فيدلي فيها برأيه، وينتقد ما يلحظه من غياب هذا الوعي التربوي الحضاري في المؤلفات الموجهة للأطفال في البيئة العربية؛ وتراه في جميع كتاباته للأطفال يتحرى الموضوعات التي تخدم الهدف التربوي المعلن، وهو: "وضع منهاج تعليمي رشيد حكيم يفوق مناهج التعليم اللادينية في السهولة وتوفير الوقت ومراعاة نفسية الصغار، ويمتاز عنها في التربية الخلقية والدينية وتهذيب النفس، مع إفادة الطالب بكل ما تُهِمُّ معرفته من الشئون الكونية والتاريخية والمواد العامة، مبنيا على أحدث مبادئ التعليم واختياراته."[ii] زيادة على خصّ المسلمين في بلاد العجم بـــ"منهاج درس خاص بهم، يضعونه وفقا لشؤونهم الخاصة، وتبعا لطبيعتهم الدينية."[iii]

ويمكن أن نستخلص من هذه الأهداف المعلنة جملة خصائص تتصل بالموضوع والغاية، وهي:

-المناسبة: ويقصد بها جملة الخصائص المضمونية والأسلوبية التي تناسب سن الحداثة وتراعي نفسية الصغار وقدراتهم العقلية، علاوة على مناسبة الموضوع للبيئة الجغرافية والحضارية للطفل.

-الإفادة المعرفية: ويقصد بها أن تكون المواد المشكّلة لأدب الطفل متضمنة فائدة معرفية ما في شئون الكون والتاريخ والثقافة العامة، لا أن تكون مجرد وسيلة للترفيه والتسلية.

---

[i] ينظر: المصدر السابق، ص8.

[ii] أبو الحسن الندوي، القراءة الراشدة، ص25.

[iii] المصدر السابق، ص24.

-التربية الدينية: ويقصد بها أن يُجعلَ في صميم اهتمام الكتابة للطفل تشكيل الخصوصية الدينية، وربط الطفل بالقيم الأخلاقية الإسلامية، وتربيته على الشعور بانتمائه الإسلامي والوعي باستقلاله وتميزه الحضاري.

أما المناسبة فقد توقف عندها الندوي في مناسبات عديدة، أهمها قوله، في سياق الحديث عن الكتاب القصصي الفكاهي الذي ألفه الكاتب اليمني أحمد الشرواني، "فاهتبله علماء الهند كأنما هبط من علياء لما هم فيه من فاقة إلى كتاب يدرسه الطلبة قبل المقامات"[i]:

"وشعر بعض الأوساط بما فيه من خلل وخطل، وسوء تمثيل للحضارة الإسلامية وسيرة المسلمين السلف، وعبث بعقلية الأطفال الأبرياء بما فيه من مجون وهزل، فاستعاروا كتبا مؤلفة من البلاد العربية، ولكن سرعان ما علموا أنها على نقاء لغتها وحسن وضعها واحتوائها على مادة علمية نافعة لا توافق ذوق المسلمين في الهند وباكستان وما جاورها من البلاد، ولا تقضي حاجة رجال التعليم في هذه البلاد."[ii]

ومرجع عدم مناسبة هذه الكتب للطفل المسلم الهندي أو الباكستاني، أنها "تشتمل على مادة في تاريخ البلاد التي أُلِّفت فيها، وتراجم رجالها البلديين، وجغرافية تلك البلاد." وهي مادة لا تعني الطفل الذي ينتمي إلى غير تلك البلاد؛ لذلك اعترض الندوي على استثمار ذلك النوع من الكتابة للأطفال في غير بيئته المحلية، حيث قال:

"ماذا يُهِمُّ الطالب الهندي أو الباكستاني أو الحجازي أو الأفغاني، من معرفة هذه الموضوعات المصرية، ولماذا يحفظ نشيد الفخر المصري ويتغنى:

مصر العزيزة لي وطنْ وهي الحمى وهي السكنْ

وهي الفريدة في الزمن وجميـــع ما فيـــها حسَن

ولماذا يعترف وهو في مرحلة التعليم الأولي بعظيم مصر محمد علي باشا، وهو أحق بمعرفة من هو أعظم من خديوي مصر وأهم في التاريخ الإسلامي (...)

---

[i] أبو الحسن الندوي، القراءة الراشدة، ص21.

[ii] المصدر السابق، ص21.

أفلا يحسن بنا أن نبدل منها دروسا في السيرة النبوية، وفي تاريخ الإسلام، وعن رجال الإسلام وأئمته، وإذا كان لا بد من موضوعات بلدية –وإنها لا شك منشطة لذهن الطالب الصغير– فلماذا لا نضع دروسا عن الأمكنة والآثار والأبنية الوطنية التي شادها المسلمون في البلاد، وعن أعياد ومواسم إسلامية، فإذا كان ذلك في الهند أو باكستان مثلا، نضع للطالب درسا خاصا ببلاده أو عامّا للمسلمين، كدروس عن آثار الملوك الإسلاميين في هذه البلاد أو في العالم الإسلامي."[i]

و لم يكتفِ الندوي بالاعتراض، بل رأى أن يؤدي واجبا فرّط فيه غيره، ويسدّ فراغا لم يزل يحتاج إلى سد؛ فألّف كتبه المختلفة الموجهة للطفل المسلم، ومنها كتابه "قصص النبيين"؛ وقد قال في تعليل كتابته إياه قولا يستحق أن يورَد في هذا السياق:

"ثم رأى المؤلف كتبا صغيرةً لبعض أدباء مصر في حكايات الأسد والذئاب، والقردة والدباب، حتى الخنازير والكلاب، فصيحة العبارة قليلة المغزى، عربية الوضع أفرنجية الروح، إسلامية اللغة جاهلية السبك، فيها صور الحيوانات في اللباس الغربي، فساءه أن لا يقرأ أبناء المسلمين في العربية أيضا إلا قصص الحيوانات والأساطير والخرافات، فكتب لهم قصص الأنبياء والمرسلين، بأسلوب سهل يُحاكي أسلوب الأطفال وطبيعتهم من تكرار الكلمات والجمل، وسهولة الألفاظ وبسط القصة، وزيّن الكتاب بصور مناظر الطبيعة والأبنية المقدسة، وقد وصفها المرحوم الأستاذ مسعود عالم الندوي بأنها تعلم الدين أولاً والأدب ثانيا."[ii]

ومن المناسبة التي جعلها الندوي أحد مقاصده في الكتابة للطفل اختيار الكتابة القصصية، والتعويل عليها في لفت اهتمام الطفل واستثمار رغبته فيها في تزويده بالقيم الخلقية. ها هو يخاطب ابن أخيه في مقدمة كتابه السابق ذكره بقوله:

"أراكَ حريصا على القِصص والحكايات. وكذلك كل طفل في سنِّك. تسمع لهذه القصص بكلِّ رغبة، وتقرأُها بكل رغبة (...) وقد بدأتَ تتعلم اللغة العربية لأنها لغة القرآن والرسول ولغة الدين، ولك رغبة غريبة في درسها، ولكني أخجل من أنك لا تجد ما يوافق

---

[i] المصدر السابق، ص22-23.

[ii] المصدر السابق، ص26-27.

سنك من القصص العربية إلا قصص الحيوانات، والأساطير والخرافات. فرأيتُ أن أكتب لك ولأمثالك أبناء المسلمين قصص الأنبياء والمرسلين (عليهم صلاة الله وسلامه) بأسلوب يوافق سنّك وذوقك، ففعلت.."[i]

وأما الإفادة المعرفية فقد ظهر الحديث عنها هدفا من أهداف الكتابة للطفل في قول الندوي، متحدثا عن منهجه في كتابه "القراءة الراشدة" إن من خصائص هذا الكتاب "تنوع الموضوعات والمواد لينشط الطالب وينتقل فيها من فائدة علمية إلى حديث ممتع وحوار لذيذ، ومن درس علمي إلى حكاية تاريخية، ومن نثر إلى شعر أو نشيد."[ii]

وحين ننظر في كتابات أدب الطفل لأبي الحسن الندوي نجد الغالب على مادتها المعرفية العقيدة والعبادة والخلق والتاريخ وقصص الأنبياء وأعلام التاريخ الإسلامي والشعر واللغة، وقليل من المعرفة الطبيعية. وإذا كان مفيدا أن نذكر مثالا على طبيعة المعرفة الطبيعية التي قدّمها الندوي في بعض كتاباته، فإن القصة التي أوردها في الجزء الثاني من كتابه "القراءة الراشدة"، وعنوانها "كسرةٌ من الخبز"[iii] تعدّ خير مثال على ذلك؛ وقد وفق فيها الكاتب أيما توفيق في تطويع القصة للتزويد بالمعرفة العلمية.

ولقد ذكر الندوي، في سياق الحديث عن منهجه في كتابه هذا، عن الروح الديني الساري في الدروس الدينية "ودروس المعلومات الكونية والطبيعية والحيوانية والنباتية وعن الاختراعات الحديثة."[iv] غير أن الغالب على هذا الكتاب هو الدروس الدينية الخلقية. ولا ندري أيرجع ذلك إلى طبيعة المعرفة التي يملكها الندوي، وهي معرفة دينية أساسا، أم إلى اعتقاده أن الأطفال الذين يكتب لهم هم إلى المعرفة الدينية والتاريخية والخلقية أحوج منهم إلى المعرفة الكونية والطبيعية.

---

[i] أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، ص7-8.

[ii] أبو الحسن الندوي، القراءة الراشدة، ص28.

[iii] المصدر السابق، ص120.

[iv] المصدر السابق، ص28.

وأما التربية الدينية فلها بروز طاغ في كل كتاباته للطفل. وله في اتخاذها مقصدا مركزيا أقوال كثيرةٌ وصريحة. بل إنه لا يعيب بعض ما أُلِّف من كتب عربية للأطفال إلا لخلوها منها. إن الوظيفة الأولى لأدب الطفل عند الندوي هي تنشئة الطفل المسلم على مقتضى العقيدة الإسلامية والقيم الخلقية الإسلامية، وشحنه بشعور الانتماء الإسلامي وتحفيزه على الاستقلال الفكري والخصوصية الحضارية. يقول في ذلك:

"إن عارا على المسلمين الهنديين والباكستانيين —وقد ظفروا بالاستقلال السياسي- أن لا يكون لهم استقلال في مناهج التعليم، مع أن الاستقلال العلمي والفكري مقدمان على الاستقلال السياسي، وكل استقلال سياسي لا يسبقه استقلال علمي فكري، تطرق إليه الوهن سريعا، وتسرب فيه الرق الفكري أو العلمي، ثم تبعه الرق السياسي."[i]

إن علاقة المسلم غير العربي باللغة العربية إنما هي علاقة متوسِّلٍ بوسيلة. إن العربية هي مجرد وسيلة لتعلم الدين الإسلامي والامتلاء بروحه والتعلق بقيمه وتعاليمه وحضارته وتاريخه؛ لذلك ترى الندوي يعيب على الكتب المؤلفة في البلاد العربية كونها "عارية عن الروح الديني لمصالح تعليمية وسياسية في تلك البلاد، أو لثقافة أبنائها الحديثة"، ثم يقرر ضرورة ارتباط اللغة العربية بالروح الديني فيقول: "لا يرضى المسلم في شبه قارة الهند أن يجرد اللغة العربية وأدبها من الروح الديني، ويدرس اللغة العربية كلغة بشرية عامة لها أدبها وجمالها، لأن صلة العجم باللغة العربية إنما هي عن طريق الدين والكتاب المبين، وسنة سيد المرسلين عليه الصلاة والتسليم، وإنما يعنيه أمر اللغة العربية لأنها لغة لا يتوصل بغيرها إلى منابع الدين ومشارعه الصافية، فيجب أن يستعان بها على دراسة الكتاب والسنة بغير واسطة، ويتقرب إلى تلك البيئة التي نبع منها الأدب الإسلامي بأوسع معنى الكلمة، فإذا انقطعت الصلة بين اللغة والدين والأدب الإسلامي كان للهندي ولكل عجمي قليل رغبة في هذه اللغة الكريمة."[ii]

---

[i] المصدر السابق، ص24.

[ii] المصدر السابق، ص23-24.

وقد سبق أن ذكرنا للندوي أقوالا أخرى تدل على الغاية التربوية الدينية من كتابته للطفل. ويكفي أن نذكر له قوله في ختام مقدمته لكتابه "قصص من التاريخ الإسلامي" إنه يريد بهذا الكتاب "إثراء المكتبة الإسلامية بجناح خاص للأطفال، وثروة نافعة ذات قيمة دينية، تربوية، خلقية."[i] وأن المضمون الديني في كتاباته يشمل كتابيه "قصص النبيين" و"قصص من التاريخ الإسلامي" والجزء الأكبر من كتابه "القراءة الراشدة"؛ أما الروح الديني فهو يعم كتاباته جميعا.

وقبل أن نفرغ من هذا المبحث، نذكر مثالا يقوم دليلا على اجتماع خاصيتي المناسبة والتربية الدينية؛ وهو وصفه حادثة المراودة التي تعرض لها النبي يوسف عليه السلام من قبل امرأة العزيز، حيث كان عرض الحادثة على النحو الآتي:

وَرَاوَدَتْ امْرَأَةُ العَزِيزِ يُوسُفَ عَلَى الخِيَانَةِ. وَلَكِنَّ يُوسُفَ أَبَى، وَقَالَ: كَلا!
أَنَا لا أَخُونُ سَيِّدِي، إِنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيَّ وَأَكْرَمَنِي.
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ.
وَغَضِبَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ وَشَكَتْ إِلَى زَوْجِهَا. وَعَرَفَ العَزِيزُ أَنَّ الْمَرْأَةَ كَاذِبَةٌ.
وَعَرَفَ أَنَّ يُوسُفَ أَمِينٌ.
فَقَالَ لِزَوْجِهِ: ﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾
وَعُرِفَ يُوسُفُ فِي مِصْرَ بِجَمَالِهِ، وَإِذَا رَآهُ قَالَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَراً إِنَّ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وَاشْتَدَّ غَضَبُ الْمَرْأَةِ وَقَالَتْ لِيُوسُفَ:
إِذَنْ تَذْهَبُ إِلَى السِّجْنِ!
قَالَ يُوسُفُ: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾
وَبَعْدَ أَيَّامٍ رَأَى العَزِيزُ أَنْ يُرْسِلَ يُوسُفَ إِلَى السِّجْنِ.
وَكَانَ العَزِيزُ يَعْرِفُ أَنَّ يُوسُفَ بَرِيءٌ.
وَدَخَلَ يُوسُفُ السِّجْنَ.

٩- مَوْعِظَةُ السِّجْنِ

وَدَخَلَ يُوسُفُ السِّجْنَ، وَعَرَفَ أَهْلُ السِّجْنِ جَمِيعاً أَنَّ يُوسُفَ شابٌّ كَرِيمٌ.

---

[i] أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي، ص8.

إن الطفل الذي يكتب له الندوي لم يبلغ بعد مبلغ الإدراك لمعنى أن تراود المرأة الرجلَ عن نفسه. وليس يحسن أن يُذكر للطفل ما لا يُدركه بنفسه فيُحوِجه إلى سؤالِ معلّمه أو وليِّه بما يُحرِجه ويضطره إلى استعمال الحيلة في جوابه. لذلك آثر أن يُعبّر عن معنى خاص هو فاحشة الزنا بلفظ عام هو الخيانة، فاستقام له أن يحكي القصة كما هي دون تزوير، وأن يؤدي الغرض الخلقي منها وافيا دون تقصير، وهو التحذير من الخيانة، وتقديم النبي يوسف عليه السلام أنموذجا للأمانة والوفاء والصبر.

فهذه مناسبة من جهتين: من جهة مناسبة المستوى العقلي للطفل، ومن جهة مناسبة الخصوصية الدينية للمسلم؛ فخلق العفة يحظى لدى المسلم باهتمام عظيم، ومن العفة ألا يُبتذَل الحديثُ في الأمور الجنسية، فلا يُتحدَّثُ بها إلا حيث تكون الحاجة ماسةً والهدفُ شريفا والإثارة مأمونة؛ وأما ما يروّج له دعاة الثقافة الغربية من ضرورة تعليم الأطفال المعرفة الجنسية فهو ليس من منهج التربية الإسلامية.

وعلاوة على المناسبة ذات الوجهين: العقلي والديني، تتسم هذه القصة بطابعها الديني وغايتها التربوية الخلقية، حيث إنها جزء من قصة يوسف عليه السلام، ومن كتاب انتقى فيه الندوي عددا من قصص الأنبياء، ليجعل ذلك من باب استثمار فن القصة بأسلوبه المشوّق، في التزويد بالمعرفة الدينية، وفي غرس القيم الخلقية، وفي ربط عاطفة الطفل المسلم بنماذج إنسانية عليا عصمها الله من الزلل فهي قدوة للجميع.

3.الخصائص الشكلية للكتابة الطفلة الندوية

لأبي الحسن الندوي حسٌّ أدبيٌّ عالٍ، ووعيٌ نقدي عميق لحقيقة الأدب ورسالته في الحياة. تشعر ذلك في أسلوبه السلس المتين، السهل الممتنع، وتقرأُه فيما يُدلي به من آراء في الأدب ونقده.

لقد بسط الندوي في كتابه "نظرات في الأدب" رأيا عجيبا فريدا، في تقويم الأدب العربي، لا نكاد نجد له مثيلا في آراء النقاد. لقد رأى أن أجود ما نسجته اللغة العربية وأملأَه بالحياة والجمال لا نجده فيما أجمع النقاد ومؤرخو الأدب على إيثاره والثناء عليه، من الأدب الصناعي الذي يمثله الصابي وابن العميد وابن عبّاد والهمذاني والمعري والحريري؛

وإنما نجده في ذلك الأدب، الطبيعي الذي نطق به العرب الأصلاء على سجيتهم، وبكامل صدقهم، ناقلين بهم نبض العربية الحيّ، غير متكلفينّ له من صناعة البديع ما يثقله ويذهب بروائه. الأدب الذي "صدر عن رجال لم ينقطعوا إلى الأدب والإنشاء ولم يتخذوه حرفة ومكسبا، ولم يشتهروا بالصناعة الأدبية، ولم يكن لهذا النتاج الأدبي الجميل الرائع عنوان أدبي، ولم يكن في سياق أدبي، وإنما جاء في بحث ديني، أو كتاب علمي، أو موضوع فلسفي أو اجتماعي، فبقي مغمورا مطمورا في الأدب، الديني، أو الكتب العلمية، ولم يشأ الأدب الصناعي –بكبريائه– أن يفسح له في مجلسه ولم ينتبه له مؤرخو الأدب –لضيق تفكيرهم وقصور نظرهم– فينوّهوا به ويعطوه مكانه اللائق به."[i]

هذا الأدب الطبيعي هو، عند الندوي، "الأدب الذي تجلت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها وبراعة أهل اللغة ولباقتهم، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى."[ii] الأدب المرسل الجاري على الطبع الذي حملته إلينا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وبعض أصحابه، وكتابات الجاحظ وابن قتيبة والأصبهاني والبُستي، والتوحيدي (في الإمتاع والمؤانسة) وابن الجوزي (في صيد الخاطر)، وما إلى ذلك[iii].

وسرّ تأثير هذه النماذج من الأدب الطبيعي وقوتها وجمالها، حسب الندوي، لا ينحصر في ترسلها وتحررها من السجع والبديع فحسب، وإنما هو أساسا صدورها "عن عقيدة وعاطفة، وعن فكرة واقتناع، وعن حماسة وعزم"[iv] خلافا للكتابات الصناعية التي يغلب أن يدفع إليها الاقتراح أو إرضاء شهوة الأدب أو تحقيق رغبة المجتمع أو حب الظهور والتفوق، "وهذه كلها دوافع سطحية لا تمنح الكتابة القوة والروح، ولا تسبغ عليها لباس الخلود، ولا تعطيها التأثير في النفوس والقلوب."[v]

---

[i] أبو الحسن الندوي، نظرات في الأدب، دار البشير، عمان-الأردن، ط 1، 1411هـ-1990م، ص22.

[ii] المصدر السابق، ص22.

[iii] ينظر: المصدر السابق، ص28-31.

[iv] المصدر السابق، ص32.

[v] المصدر السابق، ص32.

لا نعرض هذا الموقف الندويّ من الأدب الصناعيّ، الأشدَّ من موقف جماعة الديوان في مصر، للدلالة على الوعي النقدي العميق والحس الأدبي الرهيف لهذا الأديب المفكر وحسب، بل لنجعل ذلك مقدمة لولوج الخصائص الأسلوبية لكتاباته الموجهة للطفل؛ حيث نقف بداية على موقفه النقدي من أسلوب مخاطبة الأطفال، ثم نعرض نماذجَ لأسلوبه هو في ذلك.

إن الأسلوب الذي يدعو إليه أبو الحسن الندوي لمخاطبة الطفل هو الأسلوب الطبعي لا الصناعي، السلس المرسل لا المقيّد المتكلف، المأخوذ من اللغة العربية الأصيلة لا المتأثر بأساليب الأعاجم، المعبّر بصدق وحرارة عن عقيدة وفكرة وحماسة لا المتخذ اللغة وسيلةً للزخرفة والتأنق. لذلك عاب على منهاج الدرس اللغوي القديم اعتماده على مقامات الحريري، وهي "مثالٌ للنثر الفني والأدب الصناعي، وإذا شئت قلت مثال لفن البيان والبديع لا للنثر العربي الطبعي السلسال، ولا يمكن أن يتعلم بها الطالب مبادئ اللغة العربية، ويتدرب على الكتابة والخطابة ويقضي حاجة في نفسه."[i]

إن أولى خصائص أسلوب الكتابة للطفل، عند الندوي، هي الترسل ونبذ التصنع. هي جعل العبارة ناطقةً عن الطبيعة نابضةً بالحياة بأسلوب عربي أصيل مبين. هي مخاطبة الطفل بلغة الحياة لا لغة الصناعة. ولا شك أنه لا يقصد بنبذ الصناعة نبذَ رشاقة العبارة وحلاوة إيقاعها وأناقة تركيبها، فإن كتابته هي ذاتها متصفةٌ بذلك؛ وإنما يقصد تعمّد التصنع، وإثقال العبارة بقيود البيان أو البديع على حساب حيوية المعنى وصدق العبارة.

أما الخاصية الثانية فهي شيوع السهولة متمثلةً في سهولة الألفاظ وبساطة العبارات، ومُستعانا على توفيرها بتكرار الكلمات وترديد الجمل. وقد برز ذلك جليا في كتبه الثلاثة المذكورة آنفا، واستأثر كتاباه "القراءة الراشدة" و"قصص النبيين" بوضوحٍ آخر له أهميةٌ بالغة في تسهيل القراءة وجذب بصر الطفل، وهو وضوح الخط والشكل. ولا ندري ألصاحب الكتابين رأي في ذلك واختيار، أم كان الرأيُ رأيَ دار النشر لا غير.

---

[i] أبو الحسن الندوي، القراءة الراشدة، ص20.

وعلى كل، فقد كان الندوي حريصا على التزام خاصية السهولة؛ وقد وصف أسلوبَه في كتابة "قصص النبيين" بأنه "أسلوب سهل يحاكي أسلوب الأطفال وطبيعتهم من تكرار الكلمات والجمل، وسهولة الألفاظ وبسط القصة."[i]

وأما الخاصية الثالثة فهي القالب القصصي. فقد آمن الندوي بضرورة مراعاة نفسية الطفل الميالة إلى المرح والخيال والإثارة والتشويق، وأدرك ما للقالب القصصي من قدرة على توفير هذه المزايا، فصب جميع كتاباته للطفل في هذا القالب، سواء منها ما اختاره من قصص التاريخ الإسلامي، أو ما صاغه بنفسه من قصص الأنبياء أو قصص الحياة الواقعية المعاصرة على لسان الطفل، وسواء ما كان منها نثرا وما كان شعرا. يقول في ذلك:

"وإذا كانت هذه القصص والحكايات على مستوى عقول الأحداث والأطفال، وفي اللغة التي يفهمونها بسهولة، ويسيغونها ويتذوقونها، كانت مدرسة للأطفال يتعلمون فيها المبادئ والأخلاق الفاضلة، والدوافع النبيلة، والمشاعر الكريمة الرقيقة، من غير أن تثقل عليهم، ومن غير سآمة وملل."[ii]

ومراعاة هذه الغاية التسهيلية التحبيبية حمله على طلب خاصية رابعة هي التنويع. وقد ظهرت هذه الخاصية جلية في "القراءة الراشدة". وقد ذكر في مقدمة هذا الكتاب جملة خصائص يمكن عدُّها وصفا جامعا لمنهجه في أدب الطفل، وهي على النحو الآتي:

"1-أن تكون اللغة أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسنة.

2-استعمال الكلمات المستحدثة التي لها أصل عربي واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية حتى لا يلجأ الطالب إلى استعمال الكلمات العجمية أو الدخيلة، أو يكون له لسان أخرس في المناسبات العصرية.

3-تكرار المفردات العربية حتى يتمرن عليها الطالب.

4-تنوع الموضوعات والمواد لينشط الطالب وينتقل فيها من فائدة علمية إلى حديث ممتع وحوار لذيذ، ومن درس علمي إلى حكاية تاريخية، ومن نثر إلى شعر أو نشيد.

---

[i] المصدر السابق، ص27.

[ii] أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي، ص3-4.

5-نقل الحكايات الواردة في الحديث إلى لغة تنشأ على أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال.

6-دروس خلقية تهذيبية تعلم الآداب الإسلامية في مختلف نواحي الحياة.

7-تضمين الدروس الأدعية المأثورة والآداب الدينية بحيث لا يشعر الطالب بأنها تُلقى إليه إلقاء، بل يحفظها عفوا في ثنايا الدروس والحكايات.

8-الروح الديني الساري في الكتاب بحيث لا يمكن تجريد الكتاب منه، ويعم ذلك الدروس الدينية ودروس المعلومات الكونية والطبيعية والحيوانية والنباتية وعن الاختراعات الحديثة."[i]

ومن وسائل إشعار الطفل بالأنس، وجذبه إلى جوّ القصة بسلاسة وطواعية، مخاطبةُ الطفل ذاته في مقدمة القصة كفعله في "قصص النبيين"[ii]، وإنشاؤه القصص الواقعية التربوية المصوّرة للأحداث والمشاهد والمشاعر التي تحدث في واقع حياة الطفل المعاصرة، على لسان الطفل ذاته؛ فإن هذا تلطف في الأسلوب يزيل كل حاجز بين المؤلف والمتلقي، ويُشعر الطفلَ بأنه هو كاتب القصة وصاحبُها، فيحصل له لونٌ من التقمّص لا يُشجعه على قراءتها فحسب، بل يحثه على حب القيم التي تدعو إليها والتطلع إلى تمثّلها وتجسيدها. وهذا مثال جيد على هذا الأسلوب اللطيف[iii]:

---

[i] أبو الحسن الندوي، القراءة الراشدة، ص27-28.

[ii] أبو الحسن الندوي، قصص النبيين، ص7.

[iii] أبو الحسن الندوي، القراءة الراشدة، ص32-34.

(٢)
لَمَّا بَلَغْتُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِيْ

لَمَّا بَلَغْتُ السَّابِعَةَ مِنْ عُمُرِيْ أَمَرَنِيْ أَبِيْ بِالصَّلَاةِ ، وَكُنْتُ تَعَلَّمْتُ كَثِيراً مِنَ الأَدْعِيَةِ وَحَفِظْتُ سُوَراً مِنَ الْقُرآنِ الْكَرِيمِ مِنْ أُمِّيْ ، وَكَانَتْ أُمِّي تَتَكَلَّمُ مَعِيْ كُلَّ لَيْلَةٍ عِنْدَ الْمَنَامِ فَتَقُصُّ عَلَيَّ قِصَصَ الأَنْبِيَاءِ ، وَكُنْتُ أَسْمَعُ هٰذِهِ الْقِصَصَ بِنَشَاطٍ وَرَغْبَةٍ .

وَبَدَأْتُ أَذْهَبُ مَعَ أَبِيْ إِلَى الْمَسْجِدِ ، وَأَقُوْمُ فِيْ صَفِّ الأَطْفَالِ خَلْفَ صَفِّ الرِّجَالِ ، وَلَمَّا بَلَغْتُ الْعَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِيْ قَالَ لِيْ مَرَّةً : قَدْ أَكْمَلْتَ الآنَ مِنْ عُمُرِكَ تِسْعَ سِنِيْنَ ، وَالآنَ أَنْتَ ابْنُ عَشْرِ سِنِيْنَ فَإِذَا تَرَكْتَ صَلَاةً ضَرَبْتُكَ ، لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : مُرُوْا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِيْنَ ، وَاضْرِبُوْهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ .

وَقَصَّ عَلَيَّ أَبِيْ قِصَصَ الأَطْفَالِ الَّذِيْنَ حَافَظُوا عَلَى الصَّلَاةِ فِي الصِّغَرِ ، وَكَانَ لَهُمْ شَأْنٌ فِي الْكِبَرِ .

قُلْتُ: يَا أَبِيْ! إِنَّكَ لاَ تَحْتَاجُ إِلىٰ أَنْ تَضْرِبَنِيْ وَسَأُحَافِظُ عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ، وَكَذٰلِكَ فَعَلْتُ، فَقَدْ كُنْتُ أُصَلِّيْ أَيْنَمَا كُنْتُ، كُنْتُ إِذَا ذَهَبْتُ إِلَىٰ السُّوْقِ أَوْ كُنْتُ فِيْ شُغْلٍ وَأَدْرَكَتْنِي الصَّلاَةُ فِيْ مَكَانٍ صَلَّيْتُ، لأَنِّيْ أَرَىٰ النَّاسَ لاَ يَخْجَلُونَ مِنَ الأَكْلِ إِذَا جَاعُوْا، وَاللَّعِبِ إِذَا أَرَادُوْا، فَلِمَاذَا أَخْجَلُ مِنَ الصَّلاَةِ؟ وَإِنَّ الصَّلاَةَ لَفَرِيْضَةٌ، وَإِنَّ الصَّلاَةَ لَشَرَفٌ لِلْمُسْلِمِ.

وَخَرَجْتُ مَرَّةً إِلَىٰ مُبَارَاةٍ(١) وَكَانَ الزِّحَامُ شَدِيْداً، وَأَدْرَكَتْنِيْ(٢) صَلاَةُ الْعَصْرِ وَكُنْتُ عَلَىٰ وُضُوْءٍ، فَقُمْتُ أُصَلِّيْ وَجَعَلَ النَّاسُ يَنْظُرُوْنَ إِلَيَّ وَيَتَعَجَّبُوْنَ، وَأَكْمَلْتُ صَلاَتِيْ بِسَكِيْنَةٍ وَاعْتِدَالٍ وَرَجَعْتُ إِلَى الْمُبَارَاةِ.

وَلَمَّا انْتَهَتِ الْمُبَارَاةُ جَاءَ إِلَيَّ رَجُلٌ وَسَأَلَنِيْ عَنِ اسْمِيْ وَاسْمِ وَالِدِيْ، وَسَأَلَنِيْ عَنْ سِنِّيْ فَأَخْبَرْتُهُ، فَأَثْنَىٰ عَلَىٰ أَبِيْ خَيْراً، وَدَعَا لِيْ بِالْبَرَكَةِ، وَقَالَ: مَا رَأَيْتُ وَلَداً يُصَلِّيْ فِي الْمُبَارَاةِ وَيَتْرُكُ كَثِيْرٌ مِنَ النَّاسِ الصَّلاَةَ فِيْ هٰذَا الْوَقْتِ، فَحَمِدْتُ اللهَ وَشَكَرْتُ أَبِيْ.

---

(١) المُبَارَاة (ج) المباريات: مكان المنافسة الرياضية بين فريقين أو فردين.

(٢) أدرَكَتْني صلاة العصر: أي لحقتني.

وَلاَ أَتْرُكُ الصَّلاَةَ إِذَا كُنْتُ مُسَافِراً وَأَرَىٰ كَثِيْراً مِنَ النَّاسِ يُصَلُّوْنَ فِي الحَضَرِ وَيَتْرُكُوْنَ الصَّلاَةَ فِي السَّفَرِ ، وَيُصَلُّوْنَ فِي الصِّحَّةِ وَلاَ يُصَلُّوْنَ فِي الْمَرَضِ ؛ مَعَ أَنَّ الصَّلاَةَ لاَ تَسْقُطُ عَنْ أَحَدٍ.

وَأَرَىٰ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لاَ يُصَلُّوْنَ بِاعْتِدَالٍ وَسَكِيْنَةٍ وَيُسْرِعُوْنَ كَثِيْراً ، وَلاَ أَذْكُرُ أَنِّيْ تَرَكْتُ صَلاَةً فِيْ هٰذِهِ السَّنَوَاتِ الأَرْبَعِ ، وَإِذَا نِمْتُ عَنْهَا[١] أَوْ نَسِيْتُهَا صَلَّيْتُهَا إِذَا تَذَكَّرْتُ.

وَإِنِّيْ أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ التَّوْفِيْقَ وَالثَّبَاتَ[٢].

* * *

(١) نام عنه: غَفَلَ عنه.

(٢) الثَّبَات: الاستقرار.

أما الخصائص الأسلوبية المتصلة بالتركيب انتقاء للألفاظ، واختيارا للأصوات، وتكرارا للجمل، وتبسيطا للعبارات، فيقوم جلُّ كتاباته مثالا عليها، ولكننا ننتقي منها هذا المقطع من قصة النبي إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر، ليكون دليلا على أسلوبه الفصيح الممتع، السهل الممتنع، الجامع بين أصالة اللغة وحلاوة العرض ومناسبة المقام:

مَنْ كَسَّرَ الأَصْنَامَ؟

١ - بَائِعُ الأَصْنَامِ

قَبْلَ أَيَّامٍ كَثِيرَةٍ. كَثِيرَةٍ جِدًّا.
كَانَ فِي قَرْيَةٍ رَجُلٌ مَشْهُورٌ جِدًّا.
وَكَانَ اسْمُ هَذَا الرَّجُلِ آزَرَ.
وَكَانَ آزَرُ يَبِيعُ الأَصْنَامَ.
وَكَانَ فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ بَيْتٌ كَبِيرٌ جِدًّا.
وَكَانَ فِي هَذَا الْبَيْتِ أَصْنَامٌ، أَصْنَامٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا.
وَكَانَ النَّاسُ يَسْجُدُونَ لِهَذِهِ الأَصْنَامِ.
وَكَانَ آزَرُ يَسْجُدُ لِهَذِهِ الأَصْنَامِ.
وَكَانَ آزَرُ يَعْبُدُ هَذِهِ الأَصْنَامَ.

٢ ـ وَلَدُ آزَرَ

وَكَانَ آزَرُ لَهُ وَلَدٌ رَشِيدٌ، رَشِيدٌ جِدًّا.

وَكَانَ اسْمُ هَذَا الْوَلَدِ إِبْرَاهِيمَ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَرَى النَّاسَ يَسْجُدُونَ لِلأَصْنَامِ.

وَيَرَى النَّاسَ يَعْبُدُونَ الأَصْنَامَ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَعْرِفُ أَنَّ الأَصْنَامَ حِجَارَةٌ.

وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الأَصْنَامَ لا تَتَكَلَّمُ وَلَا تَسْمَعُ.

وَكَانَ يَعْرِفُ أَنَّ الأَصْنَامَ لا تَضُرُّ وَلا تَنْفَعُ.

وَكَانَ يَرَى أَنَّ الذُّبابَ يَجْلِسُ عَلَى الأَصْنَامِ فَلا تَدْفَعُ.

وَكَانَ يَرَى الْفَأْرَ يَأْكُلُ طَعَامَ الأَصْنَامِ فَلا تَمْنَعُ.

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَقُولُ فِي نَفْسِهِ: لِمَاذَا يَسْجُدُ النَّاسُ لِلأَصْنَامِ؟!!

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ يَسْأَلُ نَفْسَهُ: لِمَاذَا يَسْأَلُ النَّاسُ الأَصْنَامَ؟!!

إن ما عرضناه من أقوال وآراء ونماذج مجرّد تقريب لصورة المنهج الذي اعتمده أبو الحسن الندوي في كتابته للطفل. وإن الصورة الكاملة لهذا المنهج لا تتجلى إلا بالاطلاع الوافر على جملة أفكاره التربوية وكتاباته الموجهة للطفل. وإن أعظم عبرة يمكن أن تستفاد من منهج الندوي في أدب الطفل هي ضرورة الشعور بالمسئولية الدينية والتربوية والحضارية إزاء أجيالنا المسلمة في بلادنا العربية خاصة وفي البلاد الإسلامية جميعا: إن هذه الأجيال تنتظر من أهل الكفاءة من الأدباء والعلماء أن يُعنوا بتربيتها وتثقيفها على النحو الذي يُنتج منها دعائم لنهضة الأمة ورقيها واستقلالها الفكري وتميزها الحضاري. وإن السبيل إلى ذلك هو سلوك طريق الاجتهاد بالسعي إلى سد هذه الثغرة في حياتنا التربوية، وطريق الحكمة والمعرفة بكتابة تخاطب الطفل بما يناسبه طفلا مسلما يُرجى له أن يكون رجلَ المروءة والبطولة والفضيلة، وطريقَ التميز بأن يُكتَب له ما يغرس فيه روح دينه الإسلامي وبذور وثبته الحضارية، وطريقَ الوفاء للقيم الذوقية الجمالية للغة العربية بكتابةٍ ليس فيها إسفاف أهل الركاكة، ولا تكلف أهل الصناعة، ولا رطانة أهل الشذوذ عن الأصالة العربية. تلك مَهمةٌ يجدر أن ينهض بها الأدباء قبل العلماء، وأن يُبادر إليها أبناء العربية أصالةً قبل أبنائها تديّنا ومحبة.

مصادر البحث

1- أبو الحسن الندوي، القراءة الراشدة لتعليم اللغة العربية في المدارس الابتدائية، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط17، 1421هـ/2000م.

2- أبو الحسن الندوي، قصص من التاريخ الإسلامي (للأطفال)، نشر رابطة الأدب الإسلامي العالمية، المطبعة المدنية، لكهنؤ-الهند، ط1، 1411هـ -1991م.

3- أبو الحسن الندوي، قصص النبيين (للأطفال)، مؤسسة الرسالة، ط1، 1422هـ-2001م.

2- أبو الحسن الندوي، نظرات في الأدب، دار البشير، عمان-الأردن، ط1، 1411هـ-1990م.

منهج الشيخ الندوي في كتابه (أدب السيرة النبوية للأطفال)

دراسة مقارنة بالأسس الحديثة في التأليف في هذا المجال

الدكتور الصادق محمد آدم سليمان
جامعة النيل الأزرق
كلية التربية- قسم اللغة العربية.السودان

القصة لها أثر كبير في الطفل وأثبتت دراسات كثيرة أنّ القصة الهادفة تنمي القدرات العقلية لديه , ولكن في عالم مكتبة الطفل غلب عليه الكتب المترجمة من الغرب والشرق وبعضها أو الكثير منها لا يتماشى مع بيئتنا الإسلامية , ومن المحزن أن هناك شح كبير من الإنتاج العربي.

ولكن ولله الحمد في هذا العصر نبغ الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله تعالى وكتب وهذب قصص كثيرة . وبما أن أدب الأطفال يلعب دوراً بارزاً وخطيراً فقد اهتم به عالمنا الكبير الشيخ أبو الحسن الندوي اهتماما بالغا نسبة لإدراكه أن هذا النوع من الفن جزء من فطرة الطفل ، فقدم له ما يرفه عنه ويثري خبرته، ويتواءم مع طبيعته. وأفرد له مؤلفات جديرة بالدرس والتحليل . من بينها كتابه (أدب السيرة النبوية للأطفال) وذلك بغرض التشبع بروح السيرة النبوية وتذوق جمالها.فالفن والدين يلتقيان عند نقطة واحدة.

وتحاول هذه الدراسة تناول هذا الكتاب من زاوية منهجية ومقارنته بالمنهجية الحديثة التي سار عليها كُتّاب قصص الأطفال في العصر الحديث ، ومحاولة التعرف والتحقق من التزام الشيخ الندوي بهذه الأسس المعتمدة على العلوم النفسية والتربوية.

والله نسأل التوفيق والسداد ، فهو نعم المولى ونعم المعين.

مقدمة :

يكاد يجمع المؤرخون أن أدب الأطفال يوجد حيث توجد الطفولة، وهو جزء لا يتجزأ عن باقي احتياجاتها المادية والنفسية والروحية، فكما يحتاج الطفل إلى الطعام والشراب، وإلى الرعاية والحنان، فإنه في حاجة ماسة إلى ما يثري فكره، ويسعد روحه ووجدانه، وإذا لم يستوف الطفل تلك الاحتياجات المادية والمعنوية، فسوف يكون عرضة للمعاناة والاضطراب.

وقد جاء الإسلام بمنهج شامل متكامل لحل مشكلات الحياة، ومن ضمنها مشاكل الطفولة ، وحل مشاكل الطفولة تعتبر الخطوة الأولى لإصلاح مسار الحياة، والتغلب على تعقيداتها وسلبياتها وهمومها..

والاعتقاد السائد في العالم اليوم هو أن قضية الطفولة تحتل أولوية مطلقة، بحسب ما نراه في الإعلام والتربية والتعليم والصحة والفنون بشتى ألوانها.

كما يعتبر أدب الأطفال جزءا من الأدب بعمومه ويحمل خصائصه وصفاته ولكنه يعنى فقط بطبقة محدودة من القراء هم الأطفال ،وأدب الأطفال هو شكل من أشكال التعبير الفني بالكلمة ، له قواعده ومناهجه ، سواء منها ما يتصل بلغته وتوافقها مع قاموس الطفل ومع الحصيلة الأسلوبية للسن التي يؤلف لها ، أو ما يتصل بمضمونها ومناسبته لكل مرحلة من مراحل الطفولة ، أو ما يتصل بقضايا الذوق وطرائق التكتيك في صوغ القصة ، أوفي فن الحكاية للقصة المسموعة .

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن أدب الأطفال يعتبر وسيطاً تربوياً، حيث إنه في الأساس مادة خصبة لبناء قوى الإبداع والابتكار والموهبة لدى الطفل ويتم هذا عن طريق القصص ، والحكايات ، وسير العظماء، والتأمل الواعي الذي تتضمنه الأشعار والغنائيات بأسلوب المقالة أو القصة أو غيرهما، وهو وإن استفاد من الفنون الحديثة والرسوم والصور والأشكال التوضيحية فإنه يحمل –في النهاية– مضمونا معينا سواء صيغ بأسلوب القصة أو الأنشودة أو الحكاية.

ويعتبر أدب الأطفال بما يحويه من قصص وأشعار وحكايات في صيغة كتاب أو مجلة أو شريط مسموع أو مشاهد ميدانا هاما لتنمية قدرة الطفل على الإبداع ،وتنمية القدرات الابتكارية عندهم.

كما يعتبر وسيطا مناسبا في الجانب التربوي للتعليم وتنمية القدرات الذهنية ،واستقرار الجوانب النفسية لدى الطفل، ويمكن القول إنه يتيح للطفل الشعور بالرضا، والثقة بالنفس ،وحب الحياة ،والطموح للمستقبل ويؤهله لكي يكون إنسانا إيجابيا في المجتمع.

لذا حاولت هذه الدراسة تحليل كتاب "السيرة النبوية للأطفال" من تأليف الشيخ الندوي ، ومقارنة هذا السِفر القيم بما استجد من مناهج تحاول أن تسوق المؤلفين في هذا المجال على طريقة معينة، ونود هنا أن نرى مدى التزام شيخنا بهذه الأسس الحديثة ، وقد قامت الدراسة على المحاور الآتية.

المحور الأول : أهمية الكتابة للأطفال ومساهمة الشيخ الندوي في ذلك

المحور الثاني: أسس كتابة القصة الحديثة ومدى موافقة أبي الشيخ أبي الحسن الندوي لها.

دراسة في كتابه أدب السيرة النبوية

المحور الثالث: القيمة الموضوعية للكتاب

وقد افتتحت هذه الدراسة بتمهيد وختمت بخاتمة بينت أهم النتائج التي تم التوصل إليها.

والمنهج الذي سارت عليه الدراسة هو المنهج الوصفي التحليلي.

تمهيد:

أدب الطفل من منظور تاريخي :

أدب الأطفال حديث جدا بمقياس تاريخ الأدب عموما و لم ينشأ -في صيغته المقروءة المعاصرة- إلا من قرنين من الزمن تقريبا ولا يعني ذلك أنه كان منعدما لكن الكتابة الأدبية المتخصصة بالأطفال حديثة جدا وبدلا منها وجدت الحكايات المنقولة شفاهة عبر الأجيال وعلى لسان الأجداد والجدات.

ونستطيع أن نجزم بأن "أدب الطفل" قد اشتق معجمه وتشكيلاته اللغوية وإيقاعاته من العلاقة الفطرية بين الأمومة.والطفولة ، وأنّ ينبوع الفطرة كان مدداً ثرياً بالعطاء اللغوي والمعنوي والموسيقي الذي يشكل في النهاية أغنيات المهد ، التي لو احتفظت البشرية عبر دوراقما بأشكال منها لوجدنا تمام الشبه بينها في الماضي السحيق وما هي عليه الآن ، ويمكن اعتبار أغنية المهد أول شكل أدبي في التراث الأدبي الإنساني يخاطب الطفولة ، ويقصد إلى إحداث تناغم وإمتاع لدى طفل المهد ، فمن الكلمات المنغمة ، وهز المهد ، واحتضان الطفل ، وهدهدته ، وترقيصه نشأت أشكال لغوية منغمة يمكن اعتبارها الكلمة الأولى في تراث أدب الطفل .

وإذا كانت الفطرة قد غذت الأمومة بالصياغات الفطرية لأدب الطفل ، فإن التراث الأدبي الإنساني والعربي قد شكل الروافد الأدبية التي غذت الصياغات الفنية والتراث الأدبي في مجال أدب الطفل . وعبر مراحل امتدت في الزمان والمكان ، وأخذت تتطور وتكثف تراثاً إنسانياً أدبياً نلتقي به في إبداع "المصري القديم" ، ومناطق البابليين ، والآشوريين ، والفينيقيين ، والفارسيين ، والأثينيين ، والرومانيين ، والصينيين ، واليابانيين ، والهنود ، وقبائل إفريقيا ، والعرب المنتشرة قبائلهم في الشمال والجنوب ، ويتشكل هذا التراث من الشعر الغنائي ، وشعر الملاحم ، والحكايات ، والأساطير ، والخرافات ، والحكم ، والأمثال ، والمواعظ ، والنصائح ، وأغاني المهد ، والرعاة ، والأفراح ، والأحزان ، والحروب ، والانتصارات ، ... الخ ([i]).

المحور الأول

أهمية الكتابة للأطفال ومساهمة الشيخ الندوي في ذلك

أولا: مساهمات الشيخ الندوي :

بذل الشيخ جهوداً ملحوظة في ترويج الأدب العربي للأطفال بهدف تهذيبهم الخلقي وتربيتهم تربية صالحة وقام بإعداد منهج دراسي للأطفال في أربعة أجزاء،كما ألف هذا الكتاب موضوع الدراسة وهو سيرة خاتم النبيين عليه الصلاة والتسليم , وكان قد أكمل

---

[i]- عبد الرؤف أبو السعد ، 1994 : 13-14).

سلسلة القراءة الراشدة في ثلاثة أجزاء. وقال عن هذه المجموعة في سيرته الذاتية في مسيرة الحياة إنه التزم بأربعة أمور :

1- أن تكون ثروة الأطفال فيه أقل قليل ، ولكنها تنقش في ذهن الطالب بكثرة التكرار و الإعادة.

2- أن يكون الكتاب في لغة القرآن ، و توضع الآيات الكريمة في مجالها كالفص في الخاتم.

3- أن يشتمل علي تعليم العقائد الأساسية (التوحيد والرسالة والمعاد)، وتلقينها للطالب بطريقة عفوية.

4- أن تبسط القصص وتزود الأطفال بما يكرّه إليهم الكفر والشرك والمعاصي ، ويُحبب إليهم الإيمان و العقيدة ويرسخ فيهم الاعتقاد بعظمة الأنبياء ، وجلالة مكانتهم وكل ذلك بطريق لا يشعر الطالب بثقله و بأنه يلقي عليه ، بل يتلقاه ضمنا و عفوا وينسجم معه .

نالت هذه المجموعة القصصية قبولا حسنا لدي المربين المعنيين بأدب الأطفال و في مقدمتهم الأديب الألمعي الكبير سيد قطب الشهيد رحمه الله الذي كان قد أعد بمساهمة بعض زملائه ، قصصا للأطفال ، فقد مارس العملية بنفسه فيقول في تقديمه لهذه المجموعة : "لقد قرأت الكثير من كتب الأطفال بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وشاركت في تأليف مجموعة القصص الديني للأطفال في مصر مأخوذا لذلك من القرآن الكريم ، ولكني أشهد في غير مجاملة أنّ عمل السيد أبي الحسن في هذه القصص الذي بين يدي جاء أكمل من هذا كله"([i]) .

لقد تقدم شيخنا الجليل بمجموعة أخري من حكايات الصحابة رضي الله عنهم بلغة سهلة وأسلوب شيق بعنوان: قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال ، مراعيا فيها عقلية الأطفال ومستواهم لكي تيسر لهم الاستمتاع بذلك من غير سآمة وملل والمجموعة كلها

[i]- و تقدمت معاهد ومدارس في المملكة العربية السعودية والبلدان العربية وغير العربية الأخرى فأدخلت هذه المجموعة القصصية في مقرراتها الدراسية ، وكان الجزء الأخير خاتم النبيين عليه السلام يدرس في شعبة تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

بالإجمال تتمثل في قميئة أجواء ملائمة للتذوق والتشويق، والتقريب ، والتعود علي القراءة والتعلم، بجنب رفع المعنوية، والخلق النبيل ، والعقيدة القويمة.

هذا وقد ألف شيخنا كتابا في ثلاثة أجزاء و هو القراءة الراشدة جمع فيها ثمانية أجناس من الأدب للنشء وهي القصة ، والسيرة ، والحوار، والمقالة، وأدب الرحلات، والخواطر، والوصايا والمواعظ، والشعر. وذكر السبب لهذا التنوع أنّه يقصد إلي تنشيط الطالب، والإضافة إلي معلوماته كذلك ([i]).

أما أسلوبه فإنه سهل وميسور ينسجم مع طبيعة الأطفال مع مراعاة نفسيتهم وميولهم وإلماماقم ، يهتم بالجمل القصيرة غير معقدة من غير إهمال النمو العقلي واللغوي والثقافي للأطفال وللنشء ، حيث التزم المؤلف في استخدام الكلمات والتراكيب اللغوية بمبدأ التدريج و التدرج من السهولة إلي الصعوبة. يقول الشيخ وهو يراعي المستوي اللغوي للطفل:"وقد التزمت في هذا الكتاب (قصص النبيين للأطفال) محاكاة أسلوب الأطفال ، وطبيعتهم وتكرار الكلمات والجمل ، وسهولة الألفاظ ، وبسط القصة "([ii])..

وإذا تأملنا في عمله لوجدنا أنه استخدم أمورا فنية أهمها مقدمة مشوقة تبتدئ بالاستفهام حينا وبالأسلوب الممتع حينا آخر، فمثلا يقول: هل سمعت سفينة تسير علي البر؟ وهل تصدق إذا أخبرك أحد ؟ أو مثلا : ترون أمامكم صورة مسجد ، هذا مسجد رسول الله صلي الله عليه وسلم ، هل تعرفون من خبر هذا المسجد شيئا ؟ أو الدرس الذي عنوانه المنارة تتحدث ، يريدها منارة تتحدث عن تاريخ أمجاد المسلمين في دلهي.

أما بالنسبة للتكرار والإعادة وضرب الأمثلة فإنها أكثر نفعا في مثل هذه السن المبكرة من الواجبات المترلية المرهقة وتصير كالمسك إذا كرّرته يتضوع .

ثانيا: أهمية أدب الأطفال لدي الإمام الندوي:

---

[i] – ابو الحسن علي الحسني الندوي : عميد الأدب الإسلامي بقلم : أ. د. شفيق أحمد خان الندوي نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية نيو دلهي، بحث مقدم لمؤتمر الأدب العربي وآداب الشعوب الإسلامية ، الأردن، إبريل :23-24، 2013م.

[ii] – الكتاب ، ص: 6.

إنّ الطفولة مرحلة مهمة من مراحل العمر ، كالأرض البكر المعطاءة التي يمكن أن تستنبت فيها ما نريد ، فإذا حُظيتْ بالرعاية والعناية وتعهدها الأيدي الأمينة نشأت صالحة خيرة ، وأصبحت تبني وتعطي كما تعطي الشجرة الطيبة ، وإذا لم تنـــــل الرعاية المطلوبة ، بل تُركت بين يدي المفسدين نشأت نشأة سيئة لذا اهتم المربون بالأطفال وبذلوا لهم كثيرا من الرعاية ، ليغرسوا في أذهانهم العقائد والأفكار السليمة ومن بينهم شيخنا الجليل أبي الحسن الندوي . وقد نما أدب الأطفال العربي نموا واضحاً بين السبعينات والتسعينات وهذا يدعـــو إلى التفاؤل بمستقبل أدب الأطفال في البيئة الإسلامية . وقد كـــــان أدب الطفل مهمشـــا والحقيقة إنّ الكتابة للطفل حق من حقوقه في التعليم والثقافة والفن والتربية حيث يمكن أن تكسبهم مهارات الحياة ولها دور في بناء الشخصية وتعليم التفكير الناقد والإبداعي ، وأسلوب حل المشكلات وتحقيق المتعة والسرور .

ثالثا: أصول الكتابة الدينية للأطفال لدى الندوي:

لا تنفك الكتابة الدينية للأطفال عن أنواع الكتابة الأخرى لهم سواء بفنونها أو قوالبها ،إلاّ أنّها تتميز باستحضار أصول ومفاهيم تغذي الكتابة الجانب العقدي حيث يلزم زرع عقيدة التوحيد لدى الطفل وبيان علاقة الإنسان بربه وكذلك ربط الطفل بالحياة من وقت مبكر كي تؤدي وظيفة محمودة ينشأ عليها الطفل ويلتزمها إذا كبر.ولعل من أهم عناصر هذا الأمر هو التركيز علي الآخرة وأنّ الدنيا فقط معبر وممر وأنّ الله استخلف الإنسان في هذه الحياة لغاية وحيدة وهي عبادته، وبالتالي فإن أي معتقد أو سلوك ينبغي أن يغرس في هذا السياق .

إنّ الكتابة الدينية وإن مُيزت بوصفها هذا إلا أنها لا تنفصل عن غيرها من ألوان الكتابة الأخرى بل هي أساس كل ما يكتب للكبير فضلا عن الصغير فالإيمان بالله وحده هو أساس التصور لدى الإنسان وهو بالتالي يمثل منظومة متكاملة من الأخلاق والسلوكيات في حياة الطفل.

والكتابة الدينية عبارة عن نفس مؤمن موحد في مضمونها لكنها تدخل ضمن جميع الأساليب الفنية للتعبير من قصة وأنشودة ومسابقة وحكاية وطرفة وموضوع علمي. بمعنى

أن هناك مجالا واسعا للمادة المسلية المفيدة (والتي بالطبع ليست جزءا من أمور الدين) لكنها لا تصادم مسلمات العقيدة ولا تتناقض مع أوامر الدين وتوجيهاته.

إنّ الكتابة الدينية ينبغي أن تتنوع بين أسلوب الترغيب والترهيب بين الحب والخوف كذلك لابد من التركيز على مضامين الحب والمودة والرحمة سواء أكان ذلك في علاقة الإنسان بخالقه أو علاقته بأخيه الإنسان وحتى الحيوانات والبيئة المحيطة به ، ولا شك أنّ استخدام أسلوب الإقناع العقلي مطلوب لكن لابد أن يكون ضمن إطار أوسع من المسلمات والحقائق التي لا يدركها الطفل بسبب حداثة سنه.

لابد إذن أنّ يعرف الطفل أنّ هناك خيرا ، وله أهله وأنّ هناك شرا وله أهله، ويعرف معه أنّ عاقبة الخير حسنة، وعاقبة الشر سيئة، دون أن نلتزم بتوضيح وسائل العقاب الأخروي على وجه الخصوص حتى لا نضطر إلى شرحها للطفل وهي أعلى من قدرته على التصور كما ينبغي استقاء التوجيهات الدينية من مصادرها الأصلية أي القرآن والسنة النبوية وأن يربط الطفل ما أمكن بهذين المصدرين.

رابعا: أسس بناء شخصية الطفل في منظور الندوي:

الكتابة للأطفال لها أصول وقواعد تقتضي أن يتمكن الكاتب من الاطلاع على علم نفس الطفولة وعلم الاجتماع ، والشرط المهم أن يحرص على تحقيق عنصر التشويق والمتعة ليسهل استيعاب النص ، والإحساس بالجماليات المختلفة .

ومع تفاؤلنا واستبشارنا باهتمام الأدباء بأدب الأطفال فإنّ هذا الأدب يعاني من ظاهرتي التركيز على قيم وترك أخرى ، وسببه انطلاقهم من خبراتهم الفردية وقد يطرحون قيماً لا تقود إلى بناء شخصية قوية للأطفال.

وقد أسهم كثير من أدباء الأدب الإسلامي في إعداد الطفل المسلم وتربيته على أسس قويمة. ومنهم شيخنا أبي الحسن الندوي الذي كتب في أدب الأطفال خاصة في مجال القصة ، ومن أهمها مؤلفه سيرة خاتم النبين للأطفال . وللأسف يجهل أكثر الأدباء خوضه غمار أدب الأطفال واهتمامه بهذه الشريحة من شرائح المجتمع رغم أنه بدأ الكتابة للأطفال منذ فترة ليست بالقصيرة.

المحور الثاني

أسس كتابة القصة الحديثة ومدى موافقة أبي الشيخ أبي الحسن الندوي لها.

دراسة في كتابه أدب السيرة النبوية

أولا: وصف الشيخ لكتابه (أدب السيرة النبوية للأطفال):

وصف الشيخ كتابه أدق وصف فقال: "فيه خلاصة السيرة ولبابها ، وروائع حكاياتها وأخبارها ، وتاريخ الدعوة الإسلامية الأولى وفتوحها وانتصاراتها ، وعجائب التربية النبوية ومعجزاتها ، فأصبح الكتاب مدرسة كاملة ينشأ فيها الطالب بين إيمان وحنان ويتقلب بين روح وريحان ، ويخرج منها وقد حمل معه الزاد الذي يسايره في حياته ، والنور الذي يسير في ضوئه ، والسلاح الذي يدافع به عن نفسه وإيمانه ، والرسالة التي يحملها للأمم"([i]). "

ثانيا : أسس الكتابة الحديثة وموافقة الندوي لها.

1ـــ الحدث:

هو عبارة عن مجموعة الوقائع المتتابعة المترابطة، والتي تسرد في شكل فني محبوك مؤثر، بحيث تشد إليها الطفل دون عوائق أو تلكؤ، فتصل إلى عقل الطفل في انسجام ونظام، فلا ينصرف عما يقرأ أو بسمع، أو تشتت ذهنه..وقد أبدع الشيخ في هذا إذ أنه تناول مسيرة السيرة النبوية منذ العصر الجاهلي فتناول الأحداث والأحوال قبل البعثة النبوية ، كما تناولها بعد البعثة في عنوانين بارزين يجعلان الفرد يعقد مقارنة بين الحالين ، وختم هذا الحدث بالهجرة إلى المدينة حيث استقر المقام بالرسول هناك فبدأت معالم الدين الجديد تتضح بصورة جلية . ثم بعد ذلك تناول الغزوات تناولا متسلسلا في إطار متماسك يتسم بالحركة الحية والتفاعل مع ما ينتج عن ذلك من حرارة في تتابعٍ مفهوم ومنطقي ومؤثر لا يقع في مجال العقل وحده ، ولكنه يقفز إلى الوجدان والنفس ، يجعل الطفل في حالة نفسية خاصة تثري كيانه كله بدنيا وروحيا.

---

[i] – الندوي ، أبو الحسن علي الحسني . سيرة خاتم النبيين للأطفال ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، 2013م، القاهرة– مصر. ص: 6

وقد أكد هو هذه المقولة فقال: "وقد اعتمدت في تأليف هذا الكتاب على تلخيص السيرة النبوية لابن هشام – الذي هو أقدم كتب السيرة الموجودة الآن مطبوعة ومتداولة وأكثرها تأثيرا في النفوس والقلوب"([i]).

كما التزم الشيخ بالمبدأ الخاص بعدم الإغراق في التفصيلات الكثيرة والأحداث الفرعية الطويلة ، كما تجنب الأحداث الغامضة غير المفهومة أو المبررة ، حتى لا يبعث في نفس الطفل الضيق والملل ، يقول الشيخ: " لأن الكتاب قد أُلف للصغار الناهضين لا للباحثين المحققين – مقتصرا على النصوص والروايات ، لم أمزجها بالبحوث العملية والتعليلات الفلسفية والشهادات الأجنبية ؛ لأنّ ذلك يشغل القارئ عن التشبع بروح السيرة والتشبع بجمالها ؛ ولأنّ موضع هذه المباحث الكتاب الكبير الموسع في موضوع السيرة ، الذي كتب للمتوسعين في الثقافة ، المتقدمين في مداركهم العقلية والعلمية ، المواجهين للتساؤلات العصرية والكلامية ، والدراسات المقارنة".([ii])". كما عُني الشيخ باختيار التجربة الحياتية المقنعة على أسس علمية سليمة حتى لا تضار نفسية الطفل وقيمه السلوكية، ومعتقداته الصحيحة. كما حاول وسعه الابتعاد عن سرد الأحداث الغريبة الخارجة على الواقع أو المألوف التي تتسم بالبشاعة والرعب.

٢ ـــ السرد:

ونقصد بالسرد كتابة القصة أو روايتها للطفل، وهي طريقة استخدام القاموس اللغوي في عرض الحدث أو الوقائع، وهنا أكد الباحثون على أهمية اختيار الألفاظ المناسبة لسن الطفل الذي يكتب له ، فاللغة ذات الألفاظ الصعبة أو الغريبة التي لا يفهمها الطفل تعوق عملية التلقّي والفهم والعيش في قلب الحدث، وقد ساير الشيخ هذا المبدأ فابتعد عن الكلمات الغريبة وشرح كثيرا من المفردات التي حسبها تحمل بعض الغرابة([iii])، وتعطل انسيابية التمثل والتخيل، كذلك فإنّ الألفاظ ذات الدلالات المعنوية أو التجريدية تربك

---

[i] – الندوي ، أبو الحسن علي الحسني . سيرة خاتم النبيين للأطفال ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، 2013م، القاهرة- مصر. ص: 6.

[ii] – نفس المصدر ، ص:6.

[iii] – كتابه سيرة خاتم النبيين للأطفال ، ص:7

الطفل، وتورثه الحيرة، وتوقعه في الغموض، ولهذا فإنّ الكلمات ذات الدلالات المجسّدة، والتي ترمز إلى أشياء يعرفها الطفل في بيئته الخاصة أو العامة هي التي تناسبه ولا يستطيع الطفل أن يتفهم (التجريدات) إلا في سن متأخرة، بعد أن تنمو مداركه، وتتكثف خبراته، وتربو ثقافته..ونرى ذلك في وصفه التربية الإلهية للرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال:"وشب رسول الله صلى الله عليه وسلم محفوظا من الله تعالى ، بعيدا من أقذار الجاهلية وعاداتها ، فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأشدهم حياء ،وأصدقهم حديثا ، وأبعدهم من الفحش والبذاءة ، حتى ما أسموه في قومه إلاّ (الأمين) وكان واصلا للرحم ، حاملا لما يثقل كواهل الناس، مكرما للضيف ، عونا على البر والتقوى ، وكان يأكل من نتيجة عمله ، ويقنع بالقوت([i]).

أمر آخر وهو أنّ كاتب قصص الأطفال، وخاصة لمراحل ما قبل العاشرة أو الحادية عشرة، لا يصح أن تستهويه الاستعارات والكنايات والأمور البلاغية الأخرى، فتطول العبارات، وتتزاحم الصور، فيصعب الفهم على الطفل، وتتعثر خطاه في طريق الاستيعاب والفهم والاستمتاع، يقول الشيخ في إظهار المشركين العدواة للرسول صلى الله عليه وسلم .... "ولما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعوة الإسلامية ، وصدع بالحق كما أمره الله تعالى، لم يبعد منه قومه ، ولم يردّوا عليه حتى ذكر آلهتهم ، وعابها ، فلما فعل ذلك أعظموه وأجمعوا خلافه وعدواته ([ii])." ولا شك أن جمال اللغة عملية تقديرية ولها اعتبارات خاصة عندما نكتب للأطفال، في مراحل نضوجهم العقلي المتتابعة... واللفظة في السرد لا تلقى هكذا جامدة دفعةً كقالب من طوب، ولكن لا بد أن تواكبها لفظات مساعدة، أو جمل موحية تشحن سياق اللغة أو تعبيرها بالحركة، وتُثريها بالتخيل والتجسيد، فإذا قلنا (حضر احمد) فان مجرد الحضور هكذا لا يوحي إلا بفعل بسيط لا يلفت النظر عادة، بينما إذا قلنا (حضر أحمد وهو يبكي.. أو والدم يسيل من أنفه.. أو وهو يرتجف أو يرتعش.. إلخ) فإننا بذلك قد أضفنا حركة وحيوية، وشغفاً بالمتابعة ومعرفة المزيد، وهو ما يسميه النقاد (باستخدام العنصر النفسي) في السرد، فيثريه ويخرج باللفظة عن دائرة التعبير الأجوف العاري. يقول الشيخ في هذا الصدد :" وهو يصف تنافس

---

[i] - الكتاب ، ص: 20

[ii] - كتابه، ص: 30.

الغلمان في الجهاد والشهادة : "ولما توجه المسلمون إلى بدر ، خرج غلام اسمه عمير بن أبي وقاص ، وهو في السادسة عشر من سنه ، وكان يخاف ألا يقبله النبي صلى الله عليه وسلم لأنه صغير ، فكان يجتهد ألا يراه أحد ، وكان يتوارى ، وسأله أخوه الأكبر : سعد بن أبي وقاص عن ذلك ، فقال : أخاف أن يردني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أحب الخروج ، لعل الله يرزقني الشهادة ، وكان كذلك ، فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرده ، لأنه لم يبلغ الرجال ، فبكى عمير ، ورق له قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجازه ، وقتل شهيدا في الغزوة" ([i]).

أما الجديد من الألفاظ أو المصطلحات، فإنها تضاف تدريجياً وبجرعات مستساغة مقبولة، طبقاً للقاموس المعتمد، والدراسات المتخصصة التي تراعي نمو الطفل العقلي والنفسي، وهي ضرورة لإضافة أرصدة جديدة لحصيلة الطفل من اللغة والأفكار والمعاني. يقول الشيخ وهو يضيف بعض الألفاظ الجديدة: وهو يتحدث عن المعجزات النبوية في غزوة بادر الكبرى: (وظهرت المعجزات على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا اشتدت على المسلمين في بعض الخندق كدية ، دعا بإناء من ماء ، فتفل فيه ثم دعاء بما شاء الله أن يدعو به ، ونضح ذلك الاء على تلك الكدية، فانهالت وعادت كاكثيب) ([ii]) . فلا شك أن من مثل :كدية ، تفل، نضح، ألاء ، انهالت ، كثيب ، من الألفاظ الجديدة لكنها يمكن أن تفهم من السياق.

هناك وسائل عدة للسرد الفني، كالوسيلة المباشرة أو الذاتية أو الوثائقية، إلا أن السرد المباشر هو الأليق بالنسبة لقصص الأطفال، إذ يعطي الكاتب حرية في الحركة، وانسيابية في التعبير، وشمولية في رسم الصورة؛ لأن المؤلف يبدو وكأنه راوية يسرد من الخارج. ويعالج الأمر بشيء من الموضوعية النسبية، وذلك هو الطريق الذي اتبعه غالبية كتاب القصة سواء الذين يكتبون للأطفال أو الكبار. ومن بينهم شيخنا الندوي إذ يقول وهو يرسم صورة الرسول وهو يصف شمائله صلى الله عليه وسلم في عبارات قليلة تناسب عقلية الطفل وتوصل له الهدف من الرسالة بأقصر الطرق ، حيث أختصرها في ما قاله سيدنا على رضي

---

[i]- الكتاب، ص: 64- 65.

[ii]- الكتاب، ص: 85.

الله عنه فقال " وصفه على بن أبي طالب وهو أعرف الناس به ، وأكثرهم عشرة له ، وأقدرهم على الوصف والبيان فقال: لم يكن فاحشا متفحشا ، ولا صخابا في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ما ضرب بيده شيئا قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا ضرب خادما ولا أمرأة ، ما رأيته منتصرا من مظلمة قط ، ما لم ينتهك من محارم الله تعالى ، فإذا انتهك من محارم الله تعالى شيء كان أشدهم غضبا ، وما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما . وإذا دخل بيته كان بشرا من البشر ،يفلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه . ويقول: " لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسْب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابرة حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجته لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة .

أجود الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم ([i]).

٣ ــــ البناء:

لكي نقيم بناءً ــــ منزلاً مثلاً ، لا بد من توافر عددٍ من المواد كلبنات البناء والأسمنت والرمل والحصى، ولا بد من الأخشاب والحديد وما إلى ذلك من الأمور التي تدخل في هذه العملية، بناءً على التصميم الذي وضعه المهندس المختص، ولا بد من أسلوب معين يؤدي علمياً لبلوغ الهدف، ولا بد من التنسيق والأصباغ المناسبة.

وقصص الأطفال لا يناسبه التعقيد الزائد المركب، وكاتب قصة الأطفال يتخير وقائع معينة يجمع بينها في نسق وتسلسل خاص، حتى تأتي مفهومة وجميلة ومؤثرة وجذابة، وحتى تستطيع أن تصل إلى الهدف المطلوب.

---

[i] ـ 337 – حدثنا محمد بن إسماعيل قال : حدثنا عبد الله بن صالح قال : حدثنا معاوية بن صالح ، عن يحيى بن سعيد ، عن عمرة ، قالت : قيل لعائشة : ماذا كان يعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ قالت : « كان بشرا من البشر ، يفلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه ». الشمائل المحمدية للترمذي [ص 383].

وتبدأ قصة الأطفال بما يمكن أن نسميه البداية أو المقدمة، وتكون موجزة وموضحة لما سيأتي بعدها، ثم تتابع الوقائع بطريقة منطقية: كل واقعة في مكانها المناسب، وفي حيزها المعقول، ويتحرك الأشخاص عبر هذه الوقائع حركة حية هادفة، تخدم الهدف الذي من أجله كتبت القصة، وتظل تنمو وتنمو حتى تصل إلى القمة، وهي النقطة الأشد تعقيداً وإثارة، ويتبع ذلك لحظة التنوير التي تفتح الطريق إلى النهاية السعيدة أو المأساة. يقول الشيخ في بداية هذه السيرة وهو يصف حالة العالم قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم :" طالت الفترة، وساد الظلام في العالم ، وغاب النور والعلم ، وخفتت الأصوات التي رفعها الأنبياء والمرسلون في عصورهم ، بالتوحيد النقي والدين الخالص ، في صيحات الجهل والدلالة التي صاح بها المحترفون والدجالون ، وانطفأت المصابيح التي أوقدها أنبياء الله ورسله وخلفاؤهم، من العواصف التي هبت حينا بعد حين"([i]).

ثم تتابع الوقائع ، يقول الشيخ : " وأصبحت الديانات العظمى – وفي آخرها المسيحية السمحة – فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين ، حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون وأنبياؤها المرسلون أنكروها وتجاهلوها "([ii]).

ويواصل الندوي في تصوير حالة العالم قبل البعثة المحمدية ، فيقول: " وأصبحت اليهودية مجموعة من طقوس وتقاليد لا روح فيها ولا حياة ، وهي بصرف النظر عن ذلك ، ديانة سلالية لا تحمل للعالم رسالة ولا للأمم دعوة ، ولا للإنسانية رحمة"([iii]). أما المسيحية فقد امتحنت بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، منذ عصرها الأول ، وأصبح كل ذلك ركاما دفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة ، واختفى نور التوحيد ، وإخلاص العبادة وراء هذه السحب"([iv]). أما المجوس فقد عكفوا على عبادة النار ، يعبدونها ويبنون لها هياكل([v]) ومعابد ، أما خارج المعابد فكانوا أحرارا ، يسيرون على هواهم وما تملي عليهم نفوسهم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ولا خلاق، في الأعمال والأخلاق .

---

[i]- الكتاب ، ص: 9.

[ii]- الكتاب،ص:9 .

[iii]- الكتاب ، ص: 9.

[iv]- الكتاب ، ص: 9.

[v]- الكتاب ، ص :10

أما البوذية ـــ الديانة المنتشرة في الهند وآسيا الوسطى ، فقد تحولت إلى وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل وتنصب تماثيل "بوذا" حيث حلت ونزلت.

أما البرهمية — دين الهند الأصيل — فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة حتى بلغت إلى الملايين ، وبالتفاوت الظالم بين الطبقات ، والامتياز بين الإنسان والانسان([i]).

أما العرب فقد ابتلوا في العصر الأخير بوثنية سخيفة لا يوجد لها نظير إلا في الهند البرهمية الوثنية ، وترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، وانغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام ، بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل لكل بيت صنم خصوصي ، وكان في جوف الكعبة — البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده— وفي فنائها ثلاث مئة وستون صنما.

وفي الجزيرة العربية ، ساءت أخلاق العرب فأُولعوا بالخمر والقمار، وبلغت بهم القساوة والحمية المزعومة إلى وأد البنات، وشاعت فيهم الغارة ، وقطع الطريق على القوافل ، وسقطت منزلة المرأة ، فكانت تورث كما يورث المتاع أو الدابة ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق، وخوف الفقر والإملاق.

وإرغموا بالحرب ، وهانت عليهم إراقة الدماء ، فتثيرها حادثة تافهة، وتدوم الحرب أربعين سنة ، ويُقتل فيها ألوف من الناس([ii]).

ونصل إلى القمة، وهي النقطة الأشد تعقيداً وإثارة،حيث يقول الشيخ الندوي: " وبالجملة" فقد كانت الإنسانية في عصر البعثة في طريق الانتحار ، وكان الانسان في هذا القرن قد نسي خالقه ، فنسي نفسه ومصيره ، وفقد رشده وقوة التمييز بين الخير والشر والحسن والقبيح ، وربما كان إقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه ، ويعبد ربه ، ولا يشرك به شيئا ، وصدق الله العظيم : {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ))([iii]).

---

[i]- الكتاب ، ص :10

[ii]- الكتاب ، ص: 10- 11.

[iii]- (41) } [الروم: 41]

وهنا وصل بنا الشيخ القمة في عملية بناء القصة.

وقد يعتمد الكاتب على توالي الأحداث توالياً عضوياً، بحيث تكون مرتبطة ببعضها تمام الارتباط، وقد يكون اعتماد الكاتب على الشخصية الرئيسية في مسيرتها من البداية للنهاية، مع النظر إلى الوقائع أو الأحداث كأشياء مكملة، وهذا يحدث في قصص البطولات أو المغامرات الفردية. والشخصية الرئيسة هنا هي الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد استطاع الشيخ بحنكته أن يجعل محور القصة كلها يدور حوله صلى الله عليه وسلم ، في مسيرتها من البداية إلى النهاية.

ويميل بعض النقاد إلى تبني (النهايات السعيدة) بالنسبة للأطفال، كما يؤكدون على أهمية إبراز الهدف بطريقة واضحة وحاسمة، دون إغراق في الوعظ أو الشرح، وبذلك تتغلغل القصة بعناصرها في عقلية الطفل ووجدانه ولو بطريقة تلقائية أو لا شعورية. يقول الشيخ الندوي بعد فتح مكة :"وبث رسول الله صلى الله عليه وسلم سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة فكسرت كلها ، منها اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكة: " من يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنما إلا كسره "، وبعث رجالا من أصحابه إلى القبائل ، فهدموا أصنامها"([i]) ".

وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة خطيبا ، فأعلن حرمة مكة إلى يوم القيامة : " لا يحل لأمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ، أو يعضد بها "شجرة " وقال : " لم تحل لأحد كان قبلي ولا تحل لأحد يكون بعدي "، ثم أنصرف راجعا إلى المدينة. وهنا تحقق هدف أساسي من أهداف الرسالة فتصل القصة إلى نهايتها في هدوء.
ولعله من نافلة القول أن نقرر أنّ الشيخ الندوي قد تجنب وتفادى الغلو في الرمز، أو الإغراق في التحليل النفسي، والتداعيات التي تحدث في اللاوعي، والانسياق وراء الصور الشعرية المعقدة في أسلوب القصة، والانخداع بمدارس أدبية تغلب عليها الطبيعة الفلسفية. هذه أو تلك لا تناسب مستوى الطفل أو مثله التي ننشدها.
فكما أنّ الطفل يتقبل الألوان الأصلية كالأحمر والأصفر ولا يستطيع استيعاب الألوان المختلطة وأسمائها الصعبة، فإن نفس الشيء يحدث لديه بالنسبة إلى لوعة القصة التي يقرؤها أو يسمعها.

---

[i] - الكتاب ،ص:121.

وإذا كانت عقلية الطفل لا تستسيغ التحاليل النفسية الصعبة، فقد تفهم الشيخ نفسية الطفل على أسس تجريبية وعلمية: وسعى للاستفادة منها ، كمؤلف ، في حمايته من الاضطرابات النفسية.

٤ ــ الشخصيات:

تلعب الشخصيات في قصص الأطفال دوراً هاماً، باعتبارها نموذجاً يُحتذى، أو لكونها مثلاً يثير الرفض والتقزز، فالقصة قد تحفل بشخصيات (ثابتة) أو شخصيات (نامية).. والنموذج الثابت من الشخصيات قد يتصف بأقوال وأفعال وتحركات تبعث على الرضا أو التفاؤل أو الإتباع، هذه هي الشخصيات القدوة أو المثل، وهي كثيرة في سير الصالحين والأبطال والمجاهدين في سبيل الله، والمدافعين عن العرض والشرف والأرض والعقيدة، كما تتمثل في الشخصية الشغوفة بالاكتشافات العلمية والرحلات والمغامرات الخيرة، التي تجاهد في سبيل المضطهدين والمحتاجين والضعفاء، والطفل ينظر إلى مثل هذه الشخصية نظرة تقدير واحترام وحب، ويحاول أن يقلدها. يقول الشيخ وهو يتحدث عن شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وهي الشخصية التي كانت محور هذه القصة، وهي شخصية تحققت فيها كل صفات الخير ، فالرسول نموذج للصبر والكرم والشجاعة والإيثار وغير ذلك ، يقول: "وهو يجمع شمائل الرسول صلى الله عليه وسلم في عبارات قليلة تناسب عقلية الطفل وتوصل له الهدف من الرسالة بأقصر الطرق ، حيث أختصرها في ما قاله سيدنا على رضي الله عنه فقال " وصفه على بن أبي طالب وهو أعرف الناس به ، وأكثرهم عشرة له ، وأقدرهم على الوصف والبيان فقال: لم يكمن فاحشا متفحشا ، ولا صخابا في الأسواق ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ما ضرب بيده شيئا قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا ضرب خادما ولا أمرأة ، ما رأيته منتصرا من مظلمة قط ، ما لم يُنتهك من محارم الله تعالى ، فإذا انتُهك من محارم الله تعالى شيء كان أشدهم غضبا ، وما خُيّر بين أمرين إلا اختار أيسرهما . وإذا دخل بيته كان بشرا من البشر ،يفلي ثوبه ، ويحلب شاته ، ويخدم نفسه . ويقول : " لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه بنصيبه ، لا يحسب جليسه أنّ أحدا أكرم عليه منه ، من جالسه أو فاوضه في حاجة صابر حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجته لم يرده إلا بها أو بميسور من القول. قد وسع الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا ، وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة .

أجود الناس صدرا ، وأصدق الناس لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم([i]) .

وهناك أيضاً على النقيض من ذلك الشخصية (الثابتة) أو الجاهزة، التي تلجأ إلى الدس والخديعة، أو التي تميل إلى الكسل والتراخي، وتستسلم للفشل، وتبدو مثل هذه الشخصيات أمام الطفل مقيتة سيئة، وخاصة عندما يكون مصيرها إلى الفشل والضياع وتلقى العقاب. ولذا يكرهها الطفل ويحاول تجنب السلوكيات التي أوجدت تلك المصائر السيئة ومن الضروري أن يحرص الكاتب على توضيح النتائج الطيبة السارة بالنسبة للشخصيات الخيرة، والآثار والعواقب الوخيمة بالنسبة للشخصيات الشريرة، على أن يتم ذلك بأسلوب أو بآخر دون إضرار بالقيم الفنية أو الجمالية التي اتفق عليها بالنسبة لفن القصة. يقول الشيخ مصوراً الشخصية المقيتة المناقضة لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وهي نموذج للشخصية الكافرة متمثلة في عقبة ابن أبي معيط " : "وتفننت قريش ، وقست في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يراعوا فيه قرابة ولا رحما، وتخطوا حدود الإنسانية"([ii]). فبينا النبي صلى الله عليه وسلم ساجد – ذات يوم – في المسجد، وحوله ناس من قريش ، إذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جزور ، فقذفه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه ، فجاءت أبنته فاطمة([iii]) – عليها السلام – فأخذته

---

[i]- 24998 – حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ خَالِدٍ قَالَ حَدَّثَنَا لَيْثُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ عَنِ الْقَاسِمِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ

سُئِلَتْ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ قَالَتْ كَانَ بَشَرًا مِنَ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ وَيَحْلُبُ شَاتَهُ وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ.

مسند أحمد [53 /156] وانظر : الكتاب : 156.

[ii]- الكتاب ، ص: 35.

[iii]- 3350 – حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَمُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ وَاللَّفْظُ لِابْنِ الْمُثَنَّى قَالَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا إِسْحَقَ يُحَدِّثُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ : بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ وَحَوْلَهُ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِذْ جَاءَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ بِسَلَا جَزُورٍ فَقَذَفَهُ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَخَذَتْهُ عَنْ ظَهْرِهِ وَدَعَتْ عَلَى مَنْ صَنَعَ ذَلِكَ فَقَالَ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ الْمَلَأَ مِنْ قُرَيْشٍ أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ وَعُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَعُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ وَشَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ أَوْ أُبَيَّ بْنَ خَلَفٍ شُعْبَةُ الشَّاكُّ قَالَ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ فَأُلْقُوا فِي بِئْرٍ غَيْرَ أَنَّ أُمَيَّةَ أَوْ أُبَيًّا تَقَطَّعَتْ أَوْصَالُهُ فَلَمْ يُلْقَ فِي الْبِئْرِ.

من ظهره ، ودعت على من صنع هذا ، ودعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم.وفي حادث آخر يقول الشيخ :" وبينا هو صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقا شديدا ، فأخذ أبو بكر بمنكبه ، ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله". أما بالنسبة للشخصية (النامية)، فنقصد بها الشخصية التي لا تثبت على حال واحدة، أو تكون في قالب معين لا يتغير، إن الشخصية النامية تتحول من حال إلى حال، فقد تكون شخصية سيئة، تتعرض لمآزق وأحداث وتجارب عنيفة، فتتلقى الدروس، وتأخذ العبر، وتتغير حالها، ويصبح صاحبها بعد معاناة إنساناً طيباً وقد تكون الشخصية خيّرة في البداية، ثم تتعرض للمغريات المادية والمعنوية فتسقط في ارتكاب الأخطاء، وتستّسلم للشر حيناً من الزمن، ثم تلاقي من المتاعب والندم ما يجعلها تفكر في التوبة والعودة إلى الاستغاثة، أو تقع فريسة للشر بصفة نهائية، وتصاب بما تستحقه من مصائب وكوارث، فيكون في ذلك التجسيد للسقوط مدعاة لكي يتعلم منها الطفل العظات والعبر بأسلوب غير مباشر. يقول الشيخ تحت عنوان : "ابتلاء ونجاح "واصفا كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية رضي الله عنهم:" وكانوا من بين من تخلف عن غزوة تبوك ، وكانوا من السابقين الأولين ، ولهم حسن بلاء في الإسلام ، وكان مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ممن شهدا بدراً ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من خلقهم وعادتهم ، ولم يكن ذلك إلا من حكمة إلهية، وتمحيصا لأنفسهم ، وتربية للمسلمين .

يقول الشيخ : "ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامهم ، وما كان من المسلمين إلا السمع والطاعة ، فاجتنبهم الناس ، ولبثوا في ذلك خمسين ليلة ، وكان كعب بن مالك يخرج فيشهد الصلاة مع المسلمين ويطوف في الأسواق ولا يكلمه أحد ، ولم يزده هذا العتاب إلا رسوخا في المحبة.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعدى إلى أزواج هؤلاء الثلاثة ، فأمروا أن يعتزلوهن ففعلوا.

و حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ عَوْنٍ أَخْبَرَنَا سُفْيَانُ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَهُ وَزَادَ وَكَانَ يَسْتَحِبُّ ثَلَاثًا يَقُولُ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ ثَلَاثًا وَذَكَرَ فِيهِمْ الْوَلِيدَ بْنَ عُتْبَةَ وَأُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ وَلَمْ يَشُكَّ قَالَ أَبُو إِسْحَقَ وَنَسِيتُ السَّابِعَ.
صحيح مسلم [9 /276].

وفي هذا الحال دعا ملك غسان كعب بن مالك إلى عاصمته ليكرمه وينعم عليه فجاءه رسوله ودفع إليه كتابا منه ، فما كان كعب إلا أن قصد به تنورا ورماه فيه.

ولما تمّ ما أراده الله من تمحيص هؤلاء الثلاثة المؤمنين ، وقد ضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ، أُفرج عنهم وأنزل توبتهم من فوق سبع سماوات فقال: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ]([i]).

إن رسم الشخصية، سواء أكانت ثابتة أو نامية، أمر حيوي بالنسبة للطفل، ولذلك يجب أن تعالج بيقظة وحذر، وإلا وصلنا إلى نتيجة تخالف المطلوب من أدب القصة، فقد يعجب الطفل بشخصية قاطع طريق، أو زعيم عصابة، أو لص محترف، وخاصة عندما نضفي على هؤلاء صفات القوة والذكاء والمهارة وتحقيق الانتصار ضد الكثرة من المتصدّين، أو يصل ذلك المنحرف إلى هدفه في السلطة والسيطرة والثراء الحرام.

٥ ــ الزمان والمكان:

إنّ تحديد الزمان والمكان في القصة ،كقاعدة عامة، يعتبر ضرورة فنية ونفسية، وهي نوع من استكمال الصورة العامة أو الخلفية، وبدون ذلك قد يحدث نوع من التشتت والغموض، لكن الأمر بالنسبة للطفل وقصصه قد يختلف لحد ما، فالطفل في سنينه الأولى قد لا يكون لديه تفهم كامل واضح للزمان، وإن كان إدراكه للمكان قد يكون أوضح من الزمان، ولهذا نرى رواة قصص الأطفال يقولون (كان ياما كان.. في سالف العصر والأوان.. ما يحلو الكلام إلاّ بذكر النبي عليه الصلاة والسلام) وهو تعبير يعني الماضي، دون تحديد دقيق لهوية ذلك الماضي.. لكن الطفل يستطيع أن يميز الليل والنهار، ثم يتدرج

---

[i]- التوبة : 117- 118.

ويعرف أمس وغداً، ويظل يصعد سلم التدرج حتى يلم بأيام الأسبوع، وتبقى العصور السحيقة أمر بالغ الصعوبة وخاصة إذا كانت القصة مشتملة على تميز تلك العصور بسمات خاصة، وطبائع مغايرة، وقيم مختلفة كثيراً عن قيمنا المعاصرة. يقول الشيخ في ذلك محددا للمكان الذي انبعث فيه قبس النبوة وهو مكة :" قصد سيدنا إبراهيم مكة ، وهي وادٍ محصور بين جبال جرداء ليس فيه ما يعيش عليه الناس ، من ماء وزرع وميرة"([i]). فقد حدد الشيخ موقع مكة تحديدا دقيقا يتناسب مع عقلية الطفل.

وقال في تحديد عنصر الزمان : "وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوم الاثنين ، اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، عام الفيل (570 المسيحي) ، فكان أسعد يوم طلعت فيه الشمس "([ii]). ويقول (فلما بلغ ست سنين ، توفيت آمنة ب "الأبواء"بين مكة والمدينة([iii])) ويقول (فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثماني سنين مات عبد المطلب([iv]).)ويقول (ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفجار بين قريش وبين قيس ، وشهد بعض أيامه ، وكان ينبل على أعمامه وبذلك عرف الحرب، وعرف الفروسية والفتوة([v]).) ويقول: (ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة ، تزوج خديجة بنت خويلد ، ... وهي إذ ذاك في الأربعين من سنها)([vi]).) ويقول (ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ([vii]).) ويقول : (وأتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة من عمره ، وظهرت تباشير الصبح وطلائع السعادة ، وآن أوان البعثة)([viii]).

---

[i]- الكتاب ، ص: 14.

[ii]- الكتاب ، ص: 18.

[iii]- الكتاب ، ص: 19.

[iv]- الكتاب ، ص: 19.

[v]- الكتاب ، ص:20.

[vi]- الكتاب ، ص:20.

[vii]- الكتاب ، ص: 21.

[viii]- الكتاب ، ص:25.

وهنا تبين لنا أنّ الشيخ قد حدد زمن بعض التواريخ بدقة، مما يؤدي إلى رسوخ هذا التاريخ في ذهن المتلقي.
وفي مراحل العمر المتأخرة يصبح الطفل أشد جذباً إلى (القصص الواقعي) ويقل اهتمامه بالقصص الخيالي والخرافي والأسطوري وفي هذه المرحلة الواقعية يدرك الطفل بداهة أن الأحداث التي تجري في الحياة، لا بد وأن تقع (في مكان معين، وزمان بذاته، وهي لذلك سترتبط بظروف وعادات ومبادئ خاصة بالزمان والمكان اللذين وقعت فيهما، والارتباط بكل ذلك ضرورة لحيوية القصة لأنه يمثل البطانة النفسية للقصة، ويسمى هذا العنصر (Setting)([i]). لهذا اهتم الشيخ الندوي بعنصري الزمان والمكان ([ii]) .

وهناك أماكن متميزة من الخير أن يتمثلها أو يتصورها الطفل منذ حداثة سنه، مثل مكة ، والمدينة المنورة ،والقدس . وقد استطاع الشيخ بحنكته الروائية أن يصور تلك المناطق بدقة.

وهناك أيضاً أزمنة فضّلها الله على غيرها، كشهر رمضان وما فيه من آداب معينة، وعصر النبوة وما فيه من طهارة وعظمة وجهاد، ويوم الجمعة وما يحفه من نورانية ومن بركات ونظافة واجتماعات. يقول الشيخ في ذلك: "وفي رمضان سنة اثنتين من الهجرة ، كانت غزوة بدر الكبرى([iii]).

وعموماً فإنّ الشيخ كان نابها، فقد أمكنه أن يوازن بين المتطلبات الفنية لقصص الأطفال، وبين الإمكانات العقلية والاستيعابية لدى الطفل، تبعاً للمرحلة التي يكتب لها، والموضوع الذي يعالجه في قصته.

---

[i]- الأدب وفنونه ص١٤٩ د. عز الدين إسماعيل.

[ii]- وقصص الحيوانات مثلاً، المكان فيها هو البيئة التي يمكن أن يعيش فيها ذلك الحيوان، فليس من المستساغ أن تصورّ حيواناً في منطقة استوائية، مع أنه لا يعيش إلا في القطب الشمالي أو المناطق الثلجية الباردة، وكذلك حيوان الصحراء يختلف عن حيوان البلاد الباردة، وهي حقائق طبيعية يجب أن تراعى حتى لا تختلط الأمور العلمية أو الجغرافية في ذهن الطفل، ويصل إلى نتائج ليست متفقة مع الواقع، ويحلو لبعض الكتاب أن يقدموا قصص الذئاب والأسود والغربان والخيول دونما تحديد لصفة مكانية وزمانية، هادفين من ذلك إلى إبراز المغزى أو العبرة أساساً، وهو أمر يمكن التغاضي عنه في المراحل الأولى من عمر الطفل، لكن كلما كان الالتزام بالبيئة الطبيعية أكثر، كلما كان أفضل.

[iii]- الكتاب ، ص: 63.

٦ ـــ الفكرة أو الموضوع

الشكل الفني أو الإطار وعاء، والفكرة أو الموضوع أو المضمون، هي الشيء الذي يحتويه هذا الوعاء، فأحداث القصّة تمضي وتتفاعل، والشخصيات تتحرك وتتكلم وكأنهم يمارسون حياة حقيقية، لكن الحدث لا ينطلق عشوائياً، والشخصيات لا تتصرف ارتجالاً أو اعتباطاً، إنّ وراء كل حركة وسكنة في القصة هدفاً أو تعبيراً عن معنى.. عن فكرة ، عن موضوع، والتوازن الفني بين الشكل والموضوع (الفكرة)، هو المعادلة الدقيقة الحساسة لكاتب القصّة، فالبعض نغريه الفكرة بروعتها، فيهيم بها، ويتغافل عن الشكل الفني، أو يسخر ذلك الشكل بطريقة تعسفية لخدمة الفكرة، والبعض الآخر يتعشق الشكل الفني ولا يولي الفكرة ما تحتاجه من اهتمام، وكلا الفريقين على طرفي نقيض، لكنهما لا يستطيعان بلوغ المثل الأعلى الذي ننشده في فن الأدب، وفي قصص الأطفال بالذات.. إنّ الفكرة هي الأساس الذي يقوم عليه البناء الفني للقصة، كما أنّ الفكرة تشكل مصدراً من مصادر الإعجاب ونحن نقرأ القصة: ولا تستطيع أية قصة أن تحدد ملامحها وكيانها المميز المؤثر إلا باستكمال عنصر الفكرة. إنّ مضمون أدب الأطفال يرتبط بشكل رئيس بأهدافنا التي نريد أن نوصلها للطفل ، فعندما نريد أن يكتسب الأخلاق الحميدة والسلوك القويم نعلمه الشجاعة والثقة بالنفس والصدق والأمانة ونوفر له المادة المناسبة التي تعالج هذه القضايا فتوصل له الرسالة بأسلس أسلوب وأبهى حلة وأجمل شكل سواء صيغت على شكل قصة مصورة أو على شكل حكاية سردية أو مسابقة ولا شك أن ذلك أمانة ومسؤولية على عاتق الكاتب فالطفل يتأثر كثيرا بما يقرأ وتنطلي عليه المضامين السيئة إذا سيقت في قالب فني جميل. وفي هذا الصدد يزخر الكتاب (سيرة النبيين) بالأفكار والمضامين التي حاول الشيخ ترسيخها في ذهن الأطفال خصصت لها الدراسة محورا خاصا.

٧ ـــ الصدق:

الصدق كمصطلح فني يتداخل في كل أجزاء وأنسجة العمل الأدبي، ويقصد به توافق التعبير مع المعنى، والتسلسل المنطقي المقنع للوقائع، والرباط العضوي الوثيق بين الشكل والمضمون، مما ينتج عنه القدرة على التأثير عقلياً ونفسياً ووجدانياً، ثم تبني مواقف وسلوكيات بناءة مقصودة في غالبيتها أو عمومها، وقد استطاع الشيخ الندوي في هذا

الصدد ترتيب وقائع الأحداث في هذا الكتاب بطريقة منطقية ومقنعة وفي تسلسل جميل ، حيث بدأ بوصف حالة الأمة قبل البعثة ، ثم انبعاث نور النبوة ، واحتدام الصراع بين الحق والباطل، ثم هزيمة الباطل وانتصار الحق([i]) يقول الرسول صلى الله عليه وسلم عندما فتح مكة : " جاء الحق وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا"([ii]).

كما وُفق الشيخ في ترتيب الأحداث الخاصة بالتضييق على الرسول وعلى الصحابة حتى اضطرهم المشركون من الهجرة إلى الحبشة والمدينة ، يقول الشيخ : " تآمر قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأخير، وخيبتهم فيما أرادوا: ولما رأت قريش أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صار له أصحاب وأنصار في المدينة ، ولا سلطان لهم عليها ، تخوفوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وعرفوا أنّه إذا كان ذلك فلا حيلة لهم فيه ، ولا سبيل لهم عليه فاجتمعوا في (دار الندوة) ، وهي دار قُصَيّ بن كلاب ، وكانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها ، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم واجتمع فيها أشراف قريش. واجتمع رأيهم أخيرا على أن يؤخذ من كل قبيلة فتى شابٌ صاحب جلادة ونسب فيهاجموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضربوه ضربة رجل واحد ، وبذاك يتفرق دمه بين القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، وتفرق القوم على ذلك، وهم مجمعون له). وأخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه المؤامرة ، فأمر علي بن أبي طالب أن ينام على فراشه مستجيبا متسجيا ببردته ، وقال : لن يخلص إليك شيء تكره .واجتمع القوم على بابه وهو متهيئون للوثوب ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ حفنة من تراب في يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه ، فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم ، وهو يتلو

---

[i]- راجع : فقرة البناء في هذا البحث.

[ii]- 2298 - حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ
دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ وَحَوْلَ الْكَعْبَةِ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَسِتُّونَ نُصُبًا فَجَعَلَ يَطْعُنُهَا بِعُودٍ فِي يَدِهِ وَجَعَلَ يَقُولُ { جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ }الْآيَةَ صحيح البخاري [8 /374]

آيات من سورة (يس) من أولها إلى قوله تعالى : ((وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ))[i]().

ومن عناصر ذلك الصدق الاستفادة من الحقائق الدينية والتربوية والنفسية التي استنبطها العلماء المختصون في فروع المعرفة المختلفة، تبعاً للدراسات والتجارب والمشاهدات الأمنية.

وبالنسبة لأدب الكبار، قد يعتبر البعض أن (الاستبطان) أو إخراج ما في العقل الباطن من شتات أفكار ومشاعر غير مترابطة قد يعتبره البعض لوناً من ألوان الصدق الفني. لكن هذا التصور بالنسبة لأدب الأطفال يعتبر خطأً فادحاً، وخروجاً على أصول الحقائق التربوية والنفسية بالنسب لأي طفل، ومعنى ذلك أن لأدب الأطفال خصوصياته واحتياجاته وظروفه.

حتى قصص الأطفال الخيالي أو الخرافي، يكون في مسيس الحاجة إلى الصدق الفني والموضوعي، أي يؤدى بطريقة منطقية مقنعة، بحيث يصبح الخيال وكأنه حقيقة، فالطفل سرعان ما يهرب من قراءة القصص الذي يشتم فيه شيئاً من الخداع وفرض أشياء بعينها، ولهذا فإن بعض النقاد يعتقد أنّ الطفل هو أذكى ناقد لما يقرأ، وإن كان رأيه في العمل الأدبي يتركز في الإقبال على العمل أو النفور منه، ولهذا أيضاً يرى المتخصصون في أدب الأطفال أنّ الكاتب لا بد وأن يكون فيه قدرٌ من (رؤى الطفولة وعواطفها)، وأن يعيش عالمها أو يتمثله ما أمكن.

المحور الثالث

القيمة الموضوعية للكتاب

الكاتب يجب أن يضع نصب عينيه حاجات الطفل فيقدمها له في قالب راق مقنع له من جانب، ومحقق للأهداف المقصودة من جانب آخر. وهذا ما فعله الشيخ الندوي فقد حاول ترسيخ مجموعة من القيم في أذهان الأطفال :منها : اكتساب الأخلاق الحميدة- اكتساب السلوك القويم- تعلم الشجاعة والثقة بالنفس- تعلم الصدق ومقت الكذب – تعلم الوفاء – تعلم الأمانة – تعلم التوحيد – نبذ الفرقة- ترسيخ العقيدة – التحذير من

---

[i]- يس :الآية، 9

العلو والكبرياء- التحذير من عبادة القبور واتخاذها مساجد - تعليم قيمة الحب والإيثار ، وغيرها من القيم التي حاول الشيخ غرسها في ذهن المتلقي الطفل.

وهنا نذكر بعض المواقف التي وضحت هذه القيم ، وهي:

- **تعليم الشجاعة والثقة بالنفس:** يقول الشيخ الندوي ([i]) : " في غزوة حنين عندما فر الناس ، صور الندوي شجاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وثقته بنفسه، فقال : " كان رسول الله صلي الله عليه وسلم واقفا في موقفه، على بغلته الشهباء، غير وجل ولا هيَّاب ، وقد بقي معه نفرٌ من المهاجرين والأنصار ، وأهل بيته ، والعباس بن عبد المطلب ، أخذ بحَكَمِة بغلته ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب "([ii]) .

- **الصبر وتحمل الأذى:** وتمثل ذلك في قسوة قريش في إيذاء رسول الله ومبالغتهم في ذلك ، يقول الشيخ: " وتفننت قريش ، وقست في إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يرعوا فيه قرابة ولا رحما ، وتخطوا حدود الإنسانية . فبينا النبي ساجد ذات يوم في المسجد ، وحوله ناس من قريش ، إذ جاء عقبة بن أبي معيط بسلا جذور ، فقذفه على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرفع رأسه ، فجاءت ابنته "فاطمة" — عليها السلام — فأخذته من ظهره ، ودعت على من صنع هذا، ودعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم. وفي مشهد آخر يقول الندوي: "وبينا صلى الله عليه وسلم يصلي في حجر الكعبة ، إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه ، فخنقه خنقا شديدا، فأخذ أبوبكر بمنكبه وقال أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله" ([iii]).

---

[i]- سيرة خاتم النبيين للأطفال، ص:124.

[ii]- 2652 - حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا سَهْلُ بْنُ يُوسُفَ عَنْ شُعْبَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَفِرَّ إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنَائِمِ وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَفِرَّ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ . صحيح البخاري [9 /473].

[iii]- 3402 - حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ الْكُوفِيُّ حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ عَنْ الْأَوْزَاعِيِّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ سَأَلْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو عَنْ أَشَدِّ مَا صَنَعَ الْمُشْرِكُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ رَأَيْتُ عُقْبَةَ بْنَ أَبِي مُعَيْطٍ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُصَلِّي فَوَضَعَ رِدَاءَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ بِهِ خَنْقًا شَدِيدًا فَجَاءَ أَبُو

- **ترسيخ قيمة الرقة والكرم** : وتمثل هذا الموقف في معاملته لأخته من الرضاعة وهي الشيماء بنت حليمة السعدية ، وكان المسلمون قد ساقوها فيمن ساقوا ، وعنفوا عليها وهم لا يدرون ، فقالت للمسلمين: تعلمون والله إنّي لأخت صاحبكم من الرضاعة فلم يصدقوها . ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله قالت : يا رسول الله : إنّي لأختك من الرضاعة ، قال : وما علامة ذلك ؟ قالت : عضة عضضتنيها في ظهري ، وأنا متوركتك ، وعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم العلامة ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، وخيرها ، وقال إن أحببت فعندي محببة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي قومك فعلت ، فقالت بل تمتعني وتردني إلى قومي ، ومتعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، وأعطاها ثلاثة أعبد وجارية ونعما وشاة ([i]).

تعليم المروءة والفتوة : وقد تمثل ذلك في تصوير الندوي إعجاب الرسول صلى الله عليه وسلم بحلف الفضول ، فقال " شهد الرسول صلى الله عليه وسلم حلف الفضول ، وكان أكرم حلف سمع به ، وأشرفه في العرب ، وكان سببه أنّ رجلا من زبيد قَدِم مكة ، ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل أحد أشراف قريش ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش ، فأبوا أن يعينوا علي العاص بن وائل لمكانته، وانتهروه ، واستغاث الزبيدي أهل مكة ، واستعان بكل ذوي مروءة . وهاجت الغيرة من ذوي المروءة والفتوة ، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جُدعان فصنع لهم طعاما ، وتواثقوا وتعاهدوا بالله ، ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدي إليه حقه ... ثم مشوا إلى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه . وكان رسول الله مغتبطا بهذا الحلف ، متمسكا به ، حتى بعد البعثة ، يقول : " لقدشهدت "في دار

بَكْرٍ حَتَّى دَفَعَهُ عَنْهُ فَقَالَ{ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ } صحيح البخاري [12 /10]

[i]- الكتاب ، ص: 129.

عبد الله بن جُدعان حلفا لو دُعيت به في الإسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها ، وألا يعز ظالم مظلوما"([i]).

- **تعليم حسم الأمور** : يحتاج الطفل إلى تعلم المواقف الحاسمة في حياته حتى يزول عنه التردد ، وعدم اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب ، يظهر ذلك في طلب إبي طالب منه صلى الله عليه وسلم الكف عن الدعوة فقال" يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه" ([ii]).

كما وفق الشيخ في وصف موقف أبي بكر الحاسم وهو يعرض للبلبلة التي صاحبت موت الرسول صلى الله وسلم ، حيث يقول ([iii]): " وكان أبو بكر رجل الساعة "المطلوب، والجبل الراسي الذي لا يحول ولا يزول ، فكشف عن وجهه صلى الله عليه وسلم ، فقبله ، ثم قال : بأبي أنت وأمي ، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدا ..."ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال : على رسلك يا عمر ، وأنصتوا فأقبل على الناس ثم قال : يا أيها الناس إنَّه من كان يعبد محمدا فإنَّ محمدا قد مات، ومن يعبد الله فإنَّ الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية :{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ }([iv]).

يقول من شهد هذا الموقف: والله كأن الناس لم يعلموا أنَّ هذه الآية قد نزلت حتى تلاها أبوبكر يومئذ ([v]). - ترسيخ قيمة الصبر: إذ حاول الشيخ الندوي ترسيخ قيمة الصبر على الابتلاء في نفوس الناشئة والثبات على المبدأ، وذلك في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزوة المعلومة ، وهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكانوا من السابقين الأولين ، ولهم حسن بلاء في الإسلام ، وكان مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ممن

---

[i]- الكتاب ، ص: 22. والحديث رواه .مشكل الآثار للطحاوي ، 182/13...

[ii]- الكتاب ،ص: 31.

[iii]- الكتاب ، ص: 150.

[iv]-- آل عمران : 144.

[v]- الكتاب، ص: السنن الكبرى للبيهقي : 142/8. وانظر : فتح الباري لابن حجر : 12/ 266.

شهدا بدرا ، و لم يكن التخلف من الغزوات من خلقهم وعاداتهم ، و لم يكن ذلك إلا من حكمة إلهية ، وتمحيصا لأنفسهم وتربية للمسلمين .

- **ترسيخ قيمة الثقة بالله** : يقول الشيخ وهو يصف حالة الرسول صلى الله عليه وسلم وتتبع المشركون لهم في طريقهم في الهجرة من مكة إلى وخوف أبي بكر أن يكتشفهم المشركون ، يقول : "وبينما هما في الغار ، إذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال : يا رسول الله لو أنّ أحدهم رفع قدمه، رآنا ، قال : ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما؟ وفي ذلك يقول القرآن {ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }([i]).

- **ترسيخ قيمة المسابقة في الجهاد بين أتراب**: يقول الشيخ:" وردَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من الغلمان يوم أحد لصغرهم ، وردَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج ، وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وشفع أبو رافع لأبنه ، وقال : يا رسول الله ، إنّ ابني رافعا رامٍ ، فأجازه النبي صلى الله عليه وسلم . وعُرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم سمرة بن جندب ، وهو في سن رافع وردّه رسول الله صلى الله عليه وسلم لصغره ، فقال :سمرة : لقد أجزت رافعا ورددتني ، ولو صارعته لصرعته ، ووقعت المصارعة بينهما ، فصرع سمرة رافعا ، فأجيز ،فخرج وقاتل يوم أُحد"([ii]).

- **أمّ تُحرض أبنا لها على القتال والشهادة** :تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وكانت مع نسوة مسلمات في حصن بني حارثة وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب : مرَّ سعد بن معاذ، وعليه درع قصيرة ، قد خرجت منها ذراعه كلها ، وهو يرتجز ، فقالت له أمه : ألحق يا بني . فقد والله أخرّت ، قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت لها : يا أمّ سعد والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي ، وكان ما تخوّفته عائشة رضي الله عنها فرُمي سعد بن معاذ بسهم ، فقطع منه الأكحل([iii]) ومات شهيدا في غزوة بني غريظة"([i]).

---

[i]- [التوبة: 40].

[ii]- الكتاب ، ص: 72.

[iii]- عرق في الذراع.

- **ترسيخ قيمة التواضع** : يقول الشيخ وهو يصور دخوله صلى الله عليه وسلم حينما فتح مكة وقدْ اختار له عنوانا وهو: " دخول خاشع متواضع لا دخول فاتح متعال"([ii]) "ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وهو واضع رأسه تواضعا لله ، حين ما رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى أنّ ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل ، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح"([iii]).

ورفع في – دخول مكة فاتحا – كل شعار من شعائر العدل والمساواة والتواضع والخضوع ، فأردف أسامة بن زيد ، وهو ابن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يردف أحدا من بني هاشم ، وأبناء أشراف قريش ، وهم كثير. وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين خلت من رمضان ، سنة ثمان من الهجرة"([iv]).

وكلمه رجل يوم الفتح ، فأخذته الرعدة ، فقال : " هوّن عليك ، فإني لست بملك وإنّما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد"([v]).

قيمة الوفاء :" ولما قضى طوافه ،صلى الله عليه وسلم، دعا عثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له، ودخل وكان قد طلب منه المفتاح يوما قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فأغلظ له القول ، ونال منه، فحلم عنه ، وقال : يا عثمان : لعلك ترى هذا المفتاح يوما بيدي

---

[i]- الكتاب ، ص: 87.

[ii]- الكتاب ، ص: 117.

[iii]- الكتاب ، ص: 117. سورة الفتح

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا (3) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (7) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (9)

[iv]- الكتاب ، ص: 117.

[v]- سنن ابن ماجة: 48/10. وانظر : دلائل النبوة للبيهقي : 5/100-101.

، أضعه حيث شئت ، فقال : لقد هلكت قريش حينئذٍ وذلت، فقال : بل عمرت وعزت يومئذٍ ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعا ، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال.

فلما خرج من الكعبة ، قام إليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة في يده صلى الله عليه وسلم ، قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم : أجمع لنا الحجابة مع السقاية ، ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعي له ، فقال : " هاك مفتاحك يا عثمان اليوم يوم بر ووفاء" خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم"([i]).

- **التحذير من العلو والكبرياء:** يقول الشيخ : "وفي آخر أيامه من الدنيا ، اجتمع نفر من المؤمنين في بيت عائشة ، فرحب بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياهم ودعا لهم بالهدى والنصر والتوفيق ، وقال : " أوصيكم بتقوى الله ، وأوصي الله بكم ، واستخلفه عليكم ، إني لكم منه نذير مبين ، أن لا تعلو على الله في عباده وبلاده ؛ فإنّ الله قال لي ولكم { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ }([ii]).

ترسيخ قيمة الإيثار:

-- إيثار النبي على الآباء والأبناء([iii]): "قدم أبو سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، ودخل على أبنته"أم حبيبة" زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته عنه، فقال: يابنيتي : ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش ، أم رغبت به عني ؟، قالت: بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : والله لقد أصابك يا بنيتي بعدي شر".

---

[i]- المعجم الأوسط ، للطبراني: 494/1. وانظر : مصنف عبد الرازق : 5/ 85.

[ii]- القصص: 83.

[iii]- الكتاب ، ص: 114.

*-- إيثار النساء لرسول الله صلى الله عليه وسلم([i]) :يقول الشيخ :"عاد المسلمون إل المدينة ، فمروا بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها ، وأخوها ، مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نَعَوهم لها ، قالت : فما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ، قالوا : خيرا يا أم فلان : هو بحمد الله كما تحبين ، قالت أرونيه ، حتى أنظر إليه ، قالت : فأشير لها إليه ، حتى إذا رأته ، قالت : كل مصيبة بعدك جلل.

*- إيثار الرسول وحبه على حب النفس ([ii]): "وفي سنة ثلاث للهجرة طلبت عصل والقارة نفرا من المسلمين ، ليعلموهم ، فبعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ستةً من أصحابه ، معهم عاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدسنة ، فغدروا بالجماعة وقُتل أكثرهم . وأخرجوا زيدا من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد : أتحب أنّ محمدا عندنا الآن في مكانك وأنك في أهلك ، قال : والله ما أحب أنّ محمدا في مكانه الذي هو فتصيبه شوكة تؤذيه وأنا في أهلي ، قال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا، ثم قتل.

- عدم الخوف في الله لومة لائم:يقول الشيخ " ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فشفعت لهم الأوس وكانوا مواليهم دون الخزرج ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا: بلى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذاك إلى سعد بن معاذ ، فأرسل إليه ، فلما جاء إليه ، قال له بنو قبيلته : يا أبا عمرو : أحسن في مواليك ، فإنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنّما ولاك ذلك ، لتحسن فيهم ، فلما أكثروا عليه قال : لقد أتي لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم ، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل لرجال ، وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد حكمت فيهم بحكم الله

---

[i]- الكتاب، ص: 79.

[ii]- الكتاب ، ص: 80.

وقد وافق ذلك قانون الحرب في شريعة بني إسرائيل ، ووافق ما جاء في التوراة ، ونفذ في بني قريظة حكم سعد بن معاذ، وأمن المسلمون من الطعن من الخلف ، ومن نشر الفوضى في الداخل.

- التنافس في حضانة البنت: وهذه فيمة أخرى من أجلّ القيم ، إذ تغيرت النفوس والعقول بتأثير الإسلام تغيرا عظيما ، فعادت البنت التي جرت عادة وأدها في الجاهلية حبيبة يتنافس في كفالتها وتربيتها المسلمون . وذلك لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم الخروج من مكة ، تبعته أمامة ابنة حمزة ، تنادي يا عم ، يا عم ، فتناولها علي رصي الله عنه فأخذها بيدها ، وقال لفاطمة – عليها السلام – دونك ابنة عمك ، فحملتها ، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر ، فقال علي : أنا أخذتها ، وهي ابنة عمي ، وقال جعفر : ابنة عمي وخالتها تحتي ، وقال زيد : ابنة أخي ، فقضي النبي صلى الله عليه وسلم لخالتها ، وقال : الخالة بمنزلة الأم ، وقال لعلي رضي الله عنه :"أنت مني وأنا منك" ، وقال لجعفر :" أشبهت خلقي وخُلقي" ، وقال لزيد : "أنت أخونا ومولانا".

- ترسيخ قيمة العفو عمن ظلم وعطاء من حرم :قال الندوي: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خيلا قبل نجد ، فجاءت بثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، فربط إلى سارية من سواري المسجد ، ومر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما عندك يا ثمامة؟.

قال : يا محمد إن تقتل تقتل ذا دم ،وإن تُنعم تُنعم على شاكر ،وإن كنت تريد المال ، فاسأل تعط منه ما شئت ، فتركه ثم مرّ به مر أخرى وقال له مثل ذلك، فرد عليه كما رد عليه أولا ، ثم مرّ به مرة ثالثة ،فقال: أطلقوا ثمامة ، فأطلقوه. وذهب ثمامة إلى نخل قريب ، من المسجد ، فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحب الأديان إليّ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة ،، فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر.

فلما قدم ثمامة على قريش ، قالوا صبوت يا ثمامة قال : لا والله ، ولكني أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم ووالله ، ما يأتيكم من اليمامة حنطة ، حتى يأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان اليمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة ،

حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه بارحامهم ، أن يكتب إلى ثمامة يخلي حمل الطعام ففعل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه صورة أخرى من صور العفو المشرقة : " لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم في الطريق ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فأعرض عنه ، لما كان يلقاه منه من شدة الأذى والهجو ، فشكا ذلك إلى علي ، فقال له : ائت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: { قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ } ([i]) فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولا. ففعل ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم {قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ }([ii]) وحسن إسلامه بعد ذلك ، وما رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أن أسلم حياءً منه"([iii]).

- ترسيخ روح المساواة والمواساة بين المسلمين: يقول الشيخ الندوي : "وعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفر الخندق ، ترقيبا للمسلمين في الأجر وعمل معه المسلمون فيه ، ودأبوا ، وكان البرد شديدا ، ولا يجدون من القوت إلا ما يسد الرمق ، وقد لا يجدونه.

يقول أبو طلحة : شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجوع ، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه عن حجرين . وكانوا مسرورين ، يحمدون الله ، ويرتجزون ، ولا يشكون ولا يتعبون.

يقول أنس رضى الله عنه : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة ، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم فلما رأى ما بهم من النصب والجوع ، قال : اللهم إنَّ العيش عيش الآخرة.

فارحم الأنصار والمهاجرة.

فقالوا مجيبين له :

---

[i]- سورة يوسف:91.

[ii]- سورة يوسف:92.

[iii]- الكتاب ، ص: 115.

نحن الذين بايعوا محمدا

على الجهاد ما بقينا أبدا

عرض للمسلمين في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة ، لا تأخذ فيها المعاول ، فشكوا ذلك إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلما رآها أخذ المعول ، وقال : بسم الله ، وضرب ضربة ، فكسر ثلثها ، وقال الله أكبر: أعطيت مفاتيح الشام ، والله إنّي لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله ، ثم ضرب الثانية ، فقطع ثلثا آخر، فقال : الله أكبر : أعطيت مفاتيح فارس ، والله إنّي لأبصر مدائن فارس وقصرها الأبيض ..ثم ضرب الثالثة ، فقال : بسم الله ، فقطع بقية الحجر ،فقال : الله أكبر ،أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إنّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا .

- التحذير من عبادة القبور واتخاذها مساجد:قال الشيخ ([i]) : كان آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : " قاتل الله اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد لا يبقين دينان على أرض العرب"([ii]).

وفي رواية أخرى " لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد " يحذر ما صنعوا .

- ترسيخ قيمة الحب والفداء([iii]): "نزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسقطت ثنيته ، ونزع الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين، وترس أبودجانة بنفسه دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقع النبل في ظهره ، وهو منحني عليه، حتي كثُر فيه النبل، ورمي سعد بن أبي وقاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ،ويناوله الرسول صلى الله عليه وسلم النبل ويقول: إرم فداك أبي وأمي.

---

[i]- الكتاب ، ص: 146.

[ii]- موطأ الإمام مالك : 5/ 358.

[iii]- الكتاب ، ص: 74- 77.

• وأصيبت عين قتادة بن النعمان ، حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أحسنهما وأحدّهما ، وقصده المشركون يريدون ما يأباه الله ، فحال دونه نفر نحو عشرة ، حتى قُتلوا عن آخرهم ، وجالدهم طلحة بن عبيد الله ،ترس عليه بيده ، يقي بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصيبت أنامله ، وشلت يده ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلو صخرة هنالك ، فلم يستطع ، لما به من الجراح والضعف ، فجلس طلحة تحته حتى صعدها ، وحانت الصلاة فصلى بهم جالسا.

• ولما انهزم الناس لم ينهزم أنس بن النضر – عم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقدم ، فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ، فقال أنس : واها لريح الجنة، يا سعد إني أجدها دون أحد.

وانتهى أنس بن النضر إلى رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوا بأيديهم ، فقال ما يجلسكم ؟ قالوا قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم اسقبل القوم فقاتل حتى قُتل .

• وقاتل زياد بن السكن في خمسة من الأنصار دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يُقتلون رجلا ثم رجلا ، فقاتل زياد حتى أثخنته الجراحة وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أدنوه مني ، فأدنوه ، فوسّده قدمه ، فمات وخدّه على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم([i]).

• وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب ، يغزون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما توجه إل أُحد ، أراد أن يخرج معه ، فقال له بنوه : إنّ الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت فنحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد . فأتى عمرو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنّ بني هؤلاء يمنعوني أجاهد معك ، ووالله إنّي لأرجو أن أُستشهد ، فأطأ فعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد " ، وقال لبنيه : "وما عليكم أن تدعوه لعل الله يرزقه الشهادة " ، فخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقتل يوم أحد شهيدا.

---

[i]- الكتاب ، ص: 76.

- يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد أطلب سعد بن الربيع ، فقال لي : إن رأيته فاقرأه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله صل الله عليه وسلم : كيف تجدك ؟، قال فجعلت أطوف بين القتلى ، فـــرأيته ، وهو بآخر رمق ، وفيه سبعون ضربة ، مابين ضربة بسيف أو طعنة برمح ، ورمية بسهم ، فقلت : ياسعد : إنّ رسول الله يقرأ عليك السلام ويقول لك : أخبرني كيف تجدك؟ فقال : وعلى رسول الله صل الله عليه وسلم السلام ، وقل له : أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله ، إن خلص إل رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته([i]).

- وقال عبد بن جحش في ذلك اليوم : اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غدا فيقتلوني ، ثم يبقروا بطني ، ويجدعوا أنفي وأذني ثم تسألني فيم ذاك ؟. فأقول : فيك ([ii]).

يقول أنس رضي الله عنه ،لقد وجدنا به يومئذ سبعين ضربة ، فما عرفه إلا إخته عرفته ببنانه.

وظيفة أدب الأطفال لدى الشيخ الندوي:

إنّ مضمون أدب الأطفال يرتبط بشكل رئيس بأهدافنا التي نريد أن نوصلها للطفل ، فعندما نريد أن يكتسب الأخلاق الحميدة والسلوك القويم نعلمه الشجاعة، والثقة بالنفس، والصدق، والأمانة ، ونوفر له المادة المناسبة التي تعالج هذه القضايا فتوصل له الرسالة بأسلس أسلوب وأبهى حلة وأجمل شكل ، سواء صيغت على شكل قصة مصورة، أو على شكل حكاية سردية ،أو مسابقة ولا شك أنّ ذلك أمانة ومسؤولية على عاتق الكاتب فالطفل يتأثر كثيرا بما يقرأ وتنطلي عليه المضامين السيئة إذا سيقت في قالب فني جميل.

والكاتب يجب أن يضع نصب عينيه حاجات الطفل فيقدمها له في قالب راق مقنع له من جانب، ومحقق للأهداف المقصودة من جانب آخر.

---

[i] - الكتاب ، ص: 76.

[ii] - الكتاب ، ص: 76.

وقد رأى الشيخ الندوي أنّ الهدف الأسمى للدين الإسلامي هو نفع الناس وليس القتل والتشفي ، وقد ظهر هذا عندما روى قصة فداء المشركين الذين أسروا في موقعة بدر ، إذ تم إطلاق سراح كل من علم غلمان المسلمين ، يقول: " وعفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأسرى وقبل منهم الفداء ، وكان من لا شيء له منّ عليه رسول الله عليه وسلم فأطلقه ، وبعثت قريش في فداء الأسرى ، فأطلق سراحهم .

وكان من الأسرى من لم يك لهم فداء ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة ، فيعلم كل واحد عشرة من المسلمين الكتابة ، وكان زيد بن ثابت ممن تعلم بهذا الطريق."

وهذا السرد المسهب قد بين لنا مدى التزام الشيخ بهذه الأهداف . والأدب الإسلامي عامة يحفل بالمضمون أو الفكرة دونما غمط أو تجاهل للشكل الفني، نثراً وشعراً، فالأساس لدى الأديب الإسلامي هو إيصال معانٍ وقيم معينة إلى المتلقي بالوسيلة الفنية البارعة، ويمكننا القول أنّ الشكل وسيلة، والفكرة رسالة، والغاية إيجاد الفرد المسلم . وهذا ما شرحناه هنا بشيء من التفصيل في باب (وظيفة أدب الأطفال).

فكرة أدب الطفل لدى الندوي:

الفكرة تضم في ثناياها الأسباب والنتائج والمعنى العام أو الخاص، ولكي تكون الفكرة مقنعة، فلا بد أن تختار بعمق، وتقدم بصورة قوية أخّاذة، وأن (توحي) بأهميتها وآثارها الخطيرة، من خلال سريانها في الحدث قولاً وفعلاً وعاطفة، وقد يرى البعض أنّ الكاتب ليس ملزماً بتقديم الحل لأية مشكلة، إذ يكفيه أن يصور تلك المشكلة تصويراً صادقاً ملفتاً للنظر، ومن ثم تحرك في نفس القارئ أفكاراً وخيالات وقدرات، فيفكر في ابتكار الحل الأنسب، وهذا كلام ليس خاطئاً بصورة عامة، لكننا نقول إن قدرات الطفل العقلية والوجدانية والنفسية، لا تجعله قادراً على استنباط الحلول، واتخاذ المواقف الواضحة، ولذا فإن من الضروري الحرص على (الإيحاء) إلى الطفل بسلوك ما أو بمشاعر معينة، تجاه الحلول المناسبة، مع المحافظة على القيم الجمالية أو الفنية للقصة. لأن الطفل يختلف كثيراً عن الرجل الناضج. ومعروف أن الناس لا يقرؤون العمل الفني لجماله فحسب، كما يزعم دعاة (الفن للفن) ولكنهم يستمتعون بفكرته أيضاً، باعتباره جزءاً من جمالية القصة..

ثم ما هي (الفكرة) التي تناسب الصغار، وقد لا تصلح للكبار؟؟ سؤال يجب أن يجيب عليه كاتب قصص الأطفال قبل أن يبدأ في الكتابة.. وقد أجاب الشيخ الندوي على هذا السؤال قبل أب يبدأ فعلا.

الخاتمة:

إنَّ المضمون الجيد يفقد أثره عندما يصاغ في قالب رديء ورغم أنّه ليس هناك أسلوب محدد في أدب الأطفال إلا أننا نستطيع أن نشير إلى بعض المعالم المهمة لهذا الأدب، والتي التزم بها الشيخ الجليل في كتابه موضوع الدراسة وهي:

- الوضوح وبساطة العرض وسهولة اللغة.
- قصر الجمل ووضوح المفردات .
- الاختصار والتركيز والوصول إلى المعنى بأقل عدد ممكن من المفردات.
- التكرار غير الممل والتأكيد غير المتكلف.

كذلك استخدام أسلوب المفاجأة وعنصر التشويق والإثارة والتنوع في التعبير بين المبني للمجهول والمحاورة والأسئلة ثم العودة إلى الصيغ البسيطة فإنها تساعد في نجاح وصول المادة إلى الطفل وتدعوه أيضا لمواصلة القراءة.

ولعل من أبرز خصائص أسلوب أدب الأطفال ، التي التزم بها الشيخ وهي توافق ما تقرر لدى المحدثين : الوضوح والتلقائية والقوة والجمال فحيثما وجد يلقى القبول؛ لأنَّ الغموض والتكلف والألفاظ الصعبة كلها من دواعي العزوف عن القراءة حتى لو كانت في قوالب فنية جميلة.

إنَّ أسلوب الشيخ الندوي الجميل نابع من اقتناعه بصدق الكاتب وإخلاصه في التعبير عما يعتقده، وفي العفوية والاسترسال والبعد عن التكلّف والصنعة، وعن كلّ ما ينفر الأذواق عن الأدب الطبيعي الجميل.

قصص الأطفال عند الندوي لها قيمة كبيرة لأسبقيتها التاريخية؛ فهي تعدّ في الأدب الحديث من المختارات الرائدة الجيّدة، التي استطاعت أن تقدّم نفسها أنموذجًا للاختيار النابع من فكرة الأدب الإسلامي، ولأنّها تمثّل التطبيق العملي، والبرهان الكاشف لدعوة أبي الحسن الندوي إلى إعادة اكتشاف تراثنا الأدبي، وتصنيفه تصنيفًا جديدًا اعتمادًا على المضمون بالدرجة الأولى، مع مراعاة الجوانب الفنية.

المراجع والمصادر:

- القرآن الكريم .
- البُخاري، أبو عبد الله (194 - 256هـ ، 810 - 870م).صحيح البخاري . دار المعرفة ، بيروت.
- أبو الفضل ، شهاب الدين ، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن علي، الكناني، العسقلاني،. فتح الباري .
- ابن حنبل،أحمد بن محمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني الوائلي . المسند. تحقيق : صدقي محمد جميل العطار ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، 1414 – 1994 م.
- التِّرْمذِي، أبوعيسى (209 - 279هـ، 824 - 892م). .الشمائل المحمدية .
- الندوي ، أبو الحسن علي الحسني . سيرة خاتم النبيين للأطفال ، دار الكلمة للنشر والتوزيع ، 2013م، القاهرة– مصر. ص: 6
- أ.د. شفيق أحمد خان الندوي. نائب رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية نيو دلهي . ابو الحسن علي الحسني الندوي : عميد الأدب الإسلامي. بحث مقدم لمؤتمر الأدب العربي وآداب الشعوب الإسلامية ، الأردن، إبريل :23-24، 2013م.
- عبد الرءوف أبو السعد ، 1994 : 13-14).
- د. عز الدين إسماعيل. الأدب وفنونه .
- الطحاوي، أبو جعفر (238 - 321هـ، 852 - 933م).مشكل الآثار .
- البيهقي ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي. السنن الكبرى : دار الكتب العلمية، بيروت.

- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني .سنن أبن ماجة .تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ،المكتبة العلمية ، بيروت- لبنان.

- دلائل النبوة للبيهقي :

- الطبراني، أبو القاسم (260 - 360هـ، 873 - 971م).المعجم الأوسط :

- مصنف عبد الرازق :

- مسلم بن الحجاج (204 - 261هـ، 820 - 875م).صحيح مسلم .تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت.

- مالك بن أنس (93 - 179هـ، 712 - 795م). الموطأ :

منهج أبي الحسن الندوي في أدب الأطفال

والمناهج المستقاة في ذلك "دراسة تحليلية مقارنة"

الأستاذ محمد عبدالكريم ياسين العراقى
الباحث فى قسم اللغة العربية جامعة اله آباد

المحور الأول : التعريف بأدب الأطفال ماهيته أصوله مصادره أنواعه:-

أدب الطفل هو نوع من الفن الأدبي يشمل أساليب مختلفة من النثر والشعر المؤلفة بشكل خاص للأطفال والأولاد دون عمر المراهقة. بدأ تطور هذا النوع الأدبي في القرن السابع عشر في أوروبا، وأخذ يزدهر في منتصف القرن العشرين مع تحسين أنظمة التعليم في جميع أنحاء العالم، مما زاد من طلب المؤلفات المخصصة للأطفال بلغات مختلفة، ومع ظهور أدباء يكرسون معظم وقتهم لكتابة مؤلفات للأطفال.

أدب الأطفال من المنظور العربي والإسلامي:-

ويعرف آخرون أدب الأطفال بأنه الكلام الجيد الذي يحدث في نفوس الأطفال فنه سواء أكان شعراً أم نثراً، وسواء كان تعبيراً شفهياً أم تحريريا، ويدخل في هذا المفهوم قصص الأطفال ومسرحياتهم وأناشيدهم ويقول آخرون أن أدب الأطفال هو كل خبرة لغوية ممتعة وسارة لها شكل فني يمر بها الطفل ويتفاعل معها فتساعد على إرهاف حسه الفني ويعمل على السمو بذوقه، ونموه المتكامل وتساهم في بناء شخصيته، وتحديد هويته، وتعليمه فن الحياة.

وفي ضوء النظرية الأدبية الحديثة نستطيع أن نقدم تعريفاً اقرب لطبيعة الأدب ووظيفته فنقول : إنه تشكيل لغوي فني ينتمي لنوع أدب سواء أكان قصة أم شعراً مسرحياً أم شعراً

غنائياً يقدمه كاتب تقديماً جيداً في إطار متصل بطبيعة الأدب ووظيفته اتصالاً وثيقاً ويتفق وعالم الطفولة اتفاقاً عميقاً.

والأدب بهذا المفهوم يجب أن يراعي خصائص الطفولة ويتدرج بها إلى الكمال عن طريق إشباع احتياجاتهم في إطار المثل والقيم والنماذج والانطباعات السليمة، وعليه فإن " أدب الأطفال " في مجموعه هو الآثار الفنية التي تصور أفكاراً وإحساسات وأخيلة تتفق ومدارك الأطفال، وتتخذ أشكالاً متعددة، كالقصة، والشعر المسرحي، والمقالة، والأغنية وغيرها وتكون قائمة على معايير أخلاقية، ودينية، واجتماعية، لا تنفصل عن المعايير الفنية، لأن الأدب هو التعبير عن حضارة الإنسان، والحضارة التي لا تقوم على قيم دينية وأخلاقية، حضارة عرجاء تحكم على نفسها بالانهيار مهما بلغت من الرقي المادي.

أصول أدب الأطفال :-

برز أدب الأطفال إلى الوجود، وفرض نفسه في السنوات الأخيرة.فقد زاد عدد الأولاد الذي كانوا يبحثون عن الكتاب مع انتشار التعليم، ففكر بعض الناشرين باقتباس الأساطير والحكايات الشعبية والدينية وتبسيطها اعتقاداً منهم أنها سوف تكون ملائمة للأطفال. وفي القرن التاسع عشر عرف مفهوم «أدب الأطفال». وازدهر في القرن العشرين، فبرزت مجلات الأطفال وانتشرت كتبهم، وراجت برامجهم في الإذاعة والشاشة الصغيرة. وبذلك استقل «أدب الأطفال» وبات ميداناً خاصاً يستمد أصوله من معرفة الطفل نفسه معرفة عميقة، ومن معرفة البيئة التي يعيش فيها هذا الطفل، ومن ماضي الطفل، ومن القدرة على التنبؤ، ومن الإيمان بمستقبل الأمة التي ينتمي إليها، ومن دراسة الطبيعة والإنسان والعلوم. والطفولة مرحلة من الحياة تمتد من الولادة إلى سن المراهقة. ولها خصائصها التي تنمو مع نموّ الطفل نفسه وهو النمو الذي يشمل النواحي الجسمية والنفسية والخلقية والانفعالية والاجتماعية والإبداعية. وقد ظلّت المعارف عن الطفولة ضعيفة قروناً عدة. وبقي الطفل، حتى القرن الثامن عشر تقريباً، «راشداً مصغّراً» في نظر الكبار. وقد شهد القرن الثامن عشر اللحظات التي اعتُرف فيها للأولاد بحقهم في التسلية وفي التعلم معاً. وعرفت

خصائص الطفولة الفردية وأخذت قابليات الطفل واهتماماته بالحسبان. ولقي كتاب «إميل» الذي كتبه الفرنسي جان جاك روسو عن تربية الطفل وطبيعته اهتماماً واسعاً. وجاءت بعده عدة كتب أخرى. ثم بدأ الكتّاب يؤلفون قصصاً خاصة بالأطفال والفتيان ذات أهداف محددة مثل اكتساب المعارف وتعلم شؤون الحياة والمعيشة وتبني السلوك الحسن. واعترف بحق الطفل بالمطالعة الترويحية.وبذلك أصبح الأدب تربوياً وتعليمياً خلقياً وتعليمياً مدنياً. واختلط الأدب بالمطالعة الموجّهة نحو اكتساب المعارف، والمعلومات ونحو إعداد المواطن الصالح. وقد انعكس ذلك كله على موقف الراشد من الطفل. فولّدت المواقف الجديدة، في العالم كله، ازدهاراً في المؤلفات الموجهة للصغار يكشف عن وجود النية التربوية والبنائية. وخضع الكتّاب لقواعد الكتابة للصغار فتجنبوا الألفاظ الغريبة والأساليب المجازية، وجعلوا جملهم قصيرة، واختاروا العبارات التي تثير المعاني الحسية من غير مبالغة في الزركشة والتفصيل وبذلك أصبح القارئ الصغير يقوم برحلات ممتازة سعيدة في الأساطير والروايات والآراء التي لا تهدف إلى التسلية فقط بل تستجيب كذلك لحاجات الطفولة العميقة فتلبيها، وتساعدها على النموّ السعيد.ولقد استطاع أدب الأطفال أن يضع الخيالي بمقابل التعليمي، أي أن يجمّل حياة الصغار ويجعلها سعيدة. تطور أدب الأطفال طبع أول كتاب للصغار في عام 1484 على يد وليام كاكستون وكان ذلك الكتاب «خرافات إيسوب». ثم تلته كتيبات أخرى في الأغاني أو في وصف الألعاب التي تجري في الحفلات أو في «الألواح» التي تضمّ الأبجدية والأرقام والصلوات. ولكن ذلك كله لم يكن في نطاق أدب الأطفال: لا من حيث الغرض ولا من حيث البنية. ثم جاء أشهر الكتب المخصصة للأطفال، في أوربة في القرن السابع عشر، وهو» Ortis Pictus العالم المصور» الذي وضعه جان آموس كومنيوس Jean Amos Comenius المربي التشيكوسلوفاكي الإنساني، في عام 1657. ولكن الكتاب كان تعليمياً.وظهرت في القرن السابع عشر نفسه بعض الكتب الموجّهة للصغار، إلا أنها كانت تلحّ على التربية الخلقية والدينية.أما بدء العصر الذهبي لأدب الأطفال فكان في القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر حين دخل الميدان كبار المؤلفين في فرنسة وإنكلترة وألمانية وإيطالية والولايات المتحدة الأمريكية.وما إن

حلّ القرن العشرون حتى كان في وسع الصغار أن يطوفوا العالم، ويجوبوا البحار، ويحلّقوا في الفضاء، بفضل وسائل الإعلام الحديثة وما تخصهم به. شواهد من العناية بأدب الأطفال المجتمعات التي اهتمت بأدب الأطفال كثيرة، وفيما يلي بعض الشواهد من مجتمعات اتسع فيها هذا الاهتمام.

أدب الأطفال في إنكلترة: تكثر في أدب الأطفال الإنكليزي القصص التي تتصل بأولاد يضيعون في الغابة، أو أولاد منبوذين، أو الحسناوات التعيسات، أو القصص التي تتصل بالأهازيج والألعاب والشعر المبسّط الذي يظهر الكثير من الأقوال والأمثلة المتداولة. ويتصف أدب الطفولة الإنكليزي بأنه أدب مغلق يقتصر على عالم الطفولة وحده، ويختصر كل شيء ضمن أبعاد هذا العالم وأنه أدب ساكن في علاقته مع المكان والفراغ، وقد أدار ظهره للتقاليد الواسعة عن الحركة والانتقال، وظلّ في مكانه جامداً قد يترك فيه أولاد القصص غرفهم ليبحثوا ويكشفوا، لكنهم يكتفون بالتنقيب في أماكن ترضيهم وحدهم، وفي نهاية المغامرة يعودون إلى غرفهم.ثم إنه أدب يجمع بين الواقع والوهم ويجري التفاعل فيه بين الطفل وشخصية خفية، ويجعل غير الموجود أكثر حقيقة من الموجود، مع شيء من البساطة تنساب من خلال سحر الرواية: المساكن الإنكليزية القديمة المأهولة بالأشباح، وكشف الماضي، والحوار مع مرافق خفي لا يُرى. تميل كتب الأطفال، في إنكلترا، إلى النزعة المثالية عند رديارد كيبلينج أو النزعة الإصلاحية العاطفية عند فريدريك فارار Frederick William Farrar، أو أنها تؤيد الانفجار التحرري الذي يعدّ ردّ فعل على حياة القسوة التي كان يعاني منها الأطفال الصغار في إنكلترة.

إن المؤلفين الذين يمكن أن يسمّوا «الكتاب الحقيقيين للأطفال» هم أولئك الذين يتقنون معرفة الأطفال، ويعرفون كيف يفاجئونهم في لعبهم، ويصغون إليهم، ويراقبونهم عن كثب، من غير تدخّل أو طرح أسئلة. ويأتي الكتّاب الإنكليز في المقدمة بين «الكتاب الحقيقيين». وقد زاد إقبال الصغار الإنكليز على المطالعة فاتسعت حركة الترجمة وحركة التأليف. فقد ترجمت من الفرنسية «ساندريلا، والجميلة النائمة» و«ذو اللحية الزرقاء»،

ومن العربية «ألف ليلة وليلة». ثم صدرت رواية «روبنسون كروزو» للكاتب دانييل ديفو [ر] (1719)، وتبعتها «رحلات غوليفر» للكاتب جوناثان سويفت (1726) كما ظهرت محاولات عدة لنشر مختارات من الحكايات الشعبية. ومنذ عام 1865 انفصل أدب الأطفال الإنكليزي عن الناحية التعليمية. وانتصر الخيال والإبداع والاهتمام بالموروث الشعبي وبالخرافة وبالحكايات الشرقية.

أدب الأطفال في فرنسا: كان السادة وحدهم، في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، في فرنسا يتغذون بقراءة النصوص التي تدور حول الإحسان والفروسية والتربية في قصورهم. أما الأوساط الفلاحية والشعبية فقد كانت تكتفي بالاستماع إلى الرواة الأصيلين في أكواخها، وتستمتع في سهراتها بحكاياتهم وقصصهم.

وكان لها تقاليدها في الأغاني والأهازيج والحكايات التي كانت تدور حول الترويح والتسلية. ثم ما لبثت هذه الحكايات والأغاني والأهازيج أن جمعت، فألف ما يُعرف باسم «الأدب الجوال». الأدب الفرنسي] الذي كان ينقله الباعة الجوالون من مكان إلى آخر، وهو الذي ألّف، فيما بعد، نواة المكتبة الزرقاء للأطفال. ومن أهم الأسماء التي كان لها دورٌ بارزٌ في نشر أدب الأطفال في فرنسا لافونتين. وفينيلونر وشارل بيرو والكونتيسة صوفي دي سيغور وجول وسواهم

أدب الأطفال في المفهوم الإسلامي والعربي :-

أنواع أدب الأطفال

أولاً القصة : وهي فن أدبي لغوي يصور حكاية تعبر عن فكرة محددة عبر أحداث في زمان أو أزمنة معينة وشخصيات تتحرك في مكان أو أمكنة وتمثل قيماً مختلفة وهذه الحكاية يرويها كاتب بأسلوب فني خاص وهي من أحب ألوان الأدب للأطفال ومن أقربها إلى نفوسهم وهي عمل فني له قواعد وأصول ومقومات وعناصر فنية وتعتبر من الوسائل الهامة لتدريب الأطفال على السرد والتعبير وهي على أنواع :

1-الرواية : ومنها التسجيلية التي تركز على حادثة تاريخية، والطرفية التي تقدم صورة مهذبة عن العاطفة الإنسانية والبوليسية التي تتحدث عن المغامرات.

2-القصة : وهي تلي الرواية في الحجم ومنها القصة القصيرة ثم الأقصوصة

3-هناك قصص أخرى للأطفال حسب الموضوع منها:-

قصص الإيهام والخيال، وموضوع هذه القصص يكون من نسيج الخيال مثل كتاب " طواحين الهواء لدون كيشوت .

قصص الأساطير والخرافات وهذه تختص بالآلهة وأفعالها ومنها حصان طروادة أو الأبطال خارقي القوة مثل : عنترة العبسي وسيف بن ذي يزن وأبو زيد الهلالي.

قصص الحيوان ويكون الحيوان فيها هو الشخصية الرئيسية مثل كليلة ودمنة وقصص أحمد شوقي الشعرية.

القصص الشعبية تدور حول الأبطال الذي أثروا التاريخ مثل قصص سلسلة الأبطال.
قصص البطولات الدينية والوطنية مثل سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم

قصص المغامرات وهذه تثير فضول الأطفال وتدفعهم إلى استكشاف ما هو غريب مثل قصص السندباد.

القصص الفكاهية وهذه من شأنها أن تخفف من التوتر الذي يعيشه الأطفال مثل قصص جحا ونوادره.

القصص العلمية وقصص المستقبل وتهدف إلى إثارة الاهتمام بالعلم وزيادة الثقافة وتنمي روح الإبداع لدى الأطفال .

القصص الواقعية وموضوعاتها مستمدة من الواقع اليومي للطفل.

ولابد من حقيقة نستدل بها على أهمية القصة في حياة الإنسان وارتبطت بحياة المسلم عن طريق القرآن الكريم الذي تشير آياته الكريمة إلى الكثير من الأحداث في قصص عن الأمم

القديمة وما آلت إليه من عذاب لعصيانها أوامر الله تعالى الذي أبدعها ببيانه وأسلوبه وهو الذي يعلم مدى تأثير هذه القصص في خلقه وجعلها هدفاً لإيمانهم ومعرفتهم وعلمهم وثقافتهم.

ثانياً : الأغاني والأشعار

للأغاني والأشعار والأناشيد أهمية كبيرة في حياة الصغار والكبار والشعر بما فيه من موسيقى وإيقاع وصور شاعرية تخاطب الوجدان وتثير في النفس أحاسيس الفن والجمال وهو أقرب ألوان الأدب إلى طبيعة الذوق لأثره على انفعال الوجدان وللأطفال في طبيعتهم استعداد فطري للتغني ولهذا فإن نماذج الشعر الجيد تكون ذات شأن كبير في هذا المجال ومن أهميتها:

تبعث في النفس البشرية السرور والبهجة .1-

2-تكشف عن مواهب الأطفال ومواطن الإبداع لديهم مثل الصوت المعبر الجميل وفن الإلقاء وموهبة تأليف الشعر وموهبة التلحين .

3-تعتبر وسيلة من وسائل التعليم بما تحتويه من مضامين أخلاقية ووطنية ودينية واجتماعية .

4- تخلص الطفل من الخجل والانطواء والتردد والانفعالات الضارة.

5-تلهب الروح الوطنية وتثير الحماس في النفس الإنسانية.

6-تسهم في تجويد عملية النطق وتهذيب السمع وحسن الإصغاء والأغاني على أنواع فمن حيث الأداء فهناك الفردية، والجماعية ثم الفردية الجماعية ومن حيث المضمون: فهناك الأغاني الدينية، والوطنية الشعبية، الترفيهية.

أنواع الأشعار:

1-شعر ملحمي عرف منذ العهد اليوناني مثل الإلياذة والأوديسة والشاهنامة عند الفرس وعند العرب, تغريبة بني هلال وسيرة سيف بن ذي يزن.

2-الشعر الغنائي : مثل المديح، والغزل، والهجاء، والوصف، والحماسة.

3-الشعر الدرامي: وهو المسرحي ويحدد تصوير شخصيات المسرحية.

4-الشعر التعليمي : وهو تصوير الحقائق وتحويلها إلى لوحات نابضة بالحياة

أشكال الشعر عند الأطفال:يتخذ الشعر في طريقه إلى الأطفال أشكالاً شتى فقد يكون على شكل أغنية، أو نشيد، أو أوبريت، أو مسرحية شعرية أو قصة غنائية ..

أنواع أخرى من أدب الأطفال:

أ- الكتب بمختلف أنواعها : بما في ذلك كتب المناهج الدراسية والكتب التاريخية والعلمية والثقافية.

ب- الموضوعات الأدبية : كالمقالات ، والخواطر، والموضوعات الاجتماعية والأمثال ويجب أن تلائم مستوى الطفل .

ج- المسرح : وهو على أنواع منها المسرح العام المحترف الذي يؤسس على مستوى المنطقة أو المدينة ويهدف إلى الربح وهناك مسارح عامة تشرف عليها مؤسسات ثقافية ولكن يشترط في مثل هذه المسارح أن يكون فيها ممثلون محترفون. ثم المسرح المدرسي وهو الخاص بمدرسة أو جامعة، أو كلية، أو معهد ويكون جمهورها من الأطفال وأولياء أمورهم ويأتي بعد ذلك مسرح الفصل الذي يكون فيه العرض داخل الفصل الدراسي وتتم فيه مسرحة الدروس بكل أنواعها وأبطاله وجمهوره الطلبة والطالبات وأخيراً مسرح العرائس وهو على نوعين هما الجوانتي ويكون على مسرح دائم وماريوينت وهو مسرح محلي صغير أو متنقل داخل المدرسة أو أندية الأطفال ويحقق المسرح للطفل أهداف سلوكية وتعليمية وثقافية.

د- وسائل الإعلام المختلفة : كالإذاعة والتلفاز والتسجيلات المختلفة والفيديو والكمبيوتر والانترنت.

وسائل تشجيع أدب الأطفال :

1-الأسرة : وهي التي يقع عليها العبء في بناء شخصية الطفل وتربيته التربية الإسلامية الصحيحة، حيث أنها تنفرد بهذا العبء فترة من الزمن قبل أن تشاركها في هذا

الدور رياض الأطفال أو المدارس أو وسائل الإعلام وقبل أن يتعلم الطفل القراءة والكتابة يستمع من أسرته إلى كثير من القصص والأغاني والأناشيد التي تترك أثرها الملموس في بناء شخصيته سلباً أو إيجاباً ويمكن أن يصنف دور الأسرة إلى مرحلتين .

أ-مرحلة ما قبل الدراسة: حيث يكتسب الطفل من أسرته كل الخبرات الأولية وهذا الاكتساب يعمل على بناء شخصيته وما يكتسبه الطفل من عادات واتجاهات يصعب تغييره أو تعديله ومن هنا فإن الأسرة عليها الحرص في تقديم القصص والأغاني والأناشيد ذات الدور الإيجابي والبعد عن قصص العنف والوحشية والتعصب ثم أن الأسرة نفسها يفترض أن تكون مؤهلة لتربية الطفل فلا تكون هي المصدر الأول للعنف المسلط على الطفل إذا نلاحظ هذه الأيام ضحايا من الأطفال نتيجة للعنف الأسري والإرهاب الأبوي من الأبوين اللذين هما الأداة المنفذة لصبه على الطفل.

ب-مرحلة ما بعد المدرسة :وهي المرحلة التي أصبح فيها الطفل متقناً للقراءة والكتابة وتقوم الأسرة بترويضه على التكيف الاجتماعي مع البيئة الجديدة وتعمل على غرس حب القراءة والاطلاع لدى الأطفال وأن توفر لهم الكتب التي تثير اهتمامهم وأضيف على ذلك توفير الكمبيوتر وتدريب الأطفال عليه وعلى الانترنت ودخول المواقع الخاصة بثقافة الطفل وحماية المراهقين والمراهقات من الوقوع تحت سطوة المواقع الإباحية والأفلام الخليعة والبرامج الماجنة.

2-المدرسة : علاوة على كونها صاحبة دور أساسي في تنشئة الأطفال وتربيتهم وتعليمهم وتأديبهم إلا أنها تعمل على تأصيل الأدب لدى الأطفال باكتشاف مواهبهم وتوجيهها وتحفيز دوافع الإبداع والابتكار عن طريق التشجيع على اللغة العربية ونصوصها استماعاً واطلاعاً وقراءة، وأن تكون الكتب المدرسية تحتوي على أسلوب جميل يحبه الطفل ويستفيد منه، ثم أن المسابقات الأدبية والمهرجانات والإذاعة المدرسية والصحافة الجدارية، اليومية والأسبوعية والشهرية وقيام الأطفال بتحريرها، كلها وسائل قوية لتشجيع الطفل على الأدب

3-الإذاعة والتليفزيون : عن طريق البرامج والأفلام والألغاز والقصص التي تقدمها.

4-المكتبات العامة : وتعويد الأطفال على ارتيادها وقيام المكتبات بتطوير برامجها في غير إعارة الكتب .

5-السينما والمسرح : عن طريق مشاهدة الأفلام الدينية والتاريخية وقيام المسرح بعرض المواقف الثابتة .

6-المساجد : في الدرجة الأولى من وسائل التشجيع بصفتها مدارس أولية في بناء المجتمع

7-الكمبيوتر والانترنت : والتدريب عليهما والوقاية من مخاطر الانترنت الأخلاقية وخلق الحصانة في نفوسهم من وسائل التواصل الاجتماعي كال فيسبوك وتوتير ووات ساب وغيرها من وسائل التواصل المستحدثة في أيامنا هذه.

أدب الأطفال لذوي الاحتياجات الخاصة :

أدب الأطفال لذوي الاحتياجات الخاصة، أو المعاقين، أدب له خصائص متميزة بالنظرة إلى نوع الإعاقة وبالنظر إلى تأهيل هؤلاء الأطفال المعاقين ليتلقوا تعليمهم تماماً مثل قرنائهم العاديين عن طريق برامج خاصة لتأهيلهم وتدريبهم ودمجهم بالمجتمع أما وسائل أدب أطفال ذوي الاحتياجات الخاصة فهي نفس وسائل تعليمهم التي تدربوا عليها على أيدي المعلمين والمعلمات والذين بإمكانهم نقل أدب الأطفال العاديين إليهم بوسائلهم وطرقهم الخاصة وإذا ما رجعنا إلى التأريخ العربي أو العالمي لوجدنا نماذج رائعة لهذه الفئة نذكر منهم بتهوفن الذي كان مصاباً بالصمم وخلد للإنسانية روائع موسيقية هائلة ومذهلة، ومن العرب شعراء وعلماء خلدوا ذكراهم بروائعهم الأدبية الشعرية والنثرية أمثال بشار بن برد والحصري القيرواني وأبو العلاء المعري وغيرهم كثير

كيف نختار كتب الأطفال من أي نبدأ وكيف توجه :-

ومهما يكن من أمر أدب الأطفال فإن الطفل أخذ يقرأ، في السنوات الأخيرة، قصصاً مترجمة وأخرى موضوعة، وإن كتب الأطفال بدأت تنتشر انتشاراً واسعاً في العالم. وهذه

ظاهرة تلفت النظر، ولاسيما إذا أضيفت إلى كتب أدب الأطفال: المجلات الجميلة الخاصة بالصغار، والزوايا التي تخصصها لهم صحافة الكبار، وركن الأطفال في الإذاعة والشاشة الصغيرة والأفلام السينمائية الكثيرة التي توجّه إليهم، ومسرح الأطفال، ومسرح العرائس والدمى المتحركة، والألعاب الكثيرة التي تصنع لهم، والأغاني والأناشيد التي تنظم وتلحن لهم.وتبقى المشكلة محصورة في اختيار الأفضل.

ويمكن اغتنام هذه الفرصة لذكر بعض المعايير التي تصلح في انتقاء كتب الصغار، وفي مقدمة هذه المعايير ما يلي: ـــ الكتاب السهل: وهذا يعني تقديم الكتب السهلة بشرط عدم احتقار الطفل، وإدراك أن كلمة «سهل» لا تعني التكليف المصطنع في التسهيل والتبسيط.

الكتاب المناسب: وهذا يتعلق باستجابة الطفل العفوية والمباشرة لدى لقائه الأول بالكتاب وإعجابه به أو عدم إعجابه، والالتفات إلى الخصائص الكامنة في السخرية والفكاهة والضحك والتلاعب بالكلمات.

ـــ **الكتب المستجيبة لمراكز الاهتمام وفق شرائح الأعمار:** فالطفل يمرّ في :عمر التخيل الذي يتصوّر فيه الحيوانات أناساً تتحدث والأشياء ذوات أرواح تتحرك، وعمر التذوق الصريح للحكاية المعبّر عنه بالكلمات، وعمر تذوق المغامرة وهو العمر الذي يهتم فيه القارئ الصغير بالعالم الإنساني المعاصر ويطرح فيه على نفسه أسئلة أكثر حدّة تتصل بالراشدين والمجتمع ومعنى الحياة الإنسانية.ولكن يجب أن يكون الكتاب الجيد الذي يتحدث إلى الصغار هو في الوقت ذاته، كتاباً ليس له عمر وليست له حدود.

ـــ **الكتاب الذي يواجه الموضوع مواجهة تميل إلى الشمول:** إذ قد يفتن الطفل بكتاب يناقش عدة موضوعات وفيها معضلاته ومراكز اهتمامه الشخصي ككرة القدم، والدراجة النارية، وغير ذلك. وقد يميل إلى قراءة الكتب التي تتجاوز قدراته وتكون بعيدة عن الراشدين. ـــ **الكتاب الذي ينطوي على العقدة والشخصيات الساحرة، والبطل المرموق والتغيرات اللاهثة.** ـــ **والكتابة نفسها في الكتاب هي معيار أساسي:** والمقصود هنا **الكتابة التي تخلق عند الطفل القارئ** الرغبة بقلب الصفحة والاستمرار بالقراءة والجري لاهثاً

حتى النهاية بدلاً من التثاؤب والنعاس. والكتابة يجب أن تكون كتابة هذا الزمن وبلغته، مع احترام لغة الطفل. ثم إن الكتاب الجيد هو الذي يستطيع الراشد أن يأخذ منه المتعة كالطفل تماماً. وللراشد أن يختار الكتب للأطفال على أن يستعين بآراء نقاد أدب الأطفال وأن ينتقي الكتب التي تسمو بالإنسان وترفع من خلقه، وتزيد معلوماته، وتجعله يفكر بالآخرين قبل أن يفكر بنفسه. القصة والشعر والمسرحية في أدب الأطفال.

القصة: تبدو القصة، في نظر الطفل، لوناً من ألوان اللّهو لا يملّ تكرارها. إنها تبعث في نفسه الهدوء والسكينة، وتصبح متنفساً لطاقاته المتفتحة أو تدريباً لخياله وذهنه وعواطفه وانفعالاته. وهي تدربه على تكوين بعض الصلات الاجتماعية، فتكون جسراً بينه وبين الآخرين. يضاف إلى ذلك أن القصة تلقّن الطفل كثيراً من الكلمات والعبارات تلقيناً سهلاً غير مباشر، مما قد لا يتاح له في حياته العملية.

وينبغي تذكّر أن الكبار يُدخلون للصغار، فيما يسردونه عليهم من قصص وأساطير وخرافات، بعض العظات والنصائح الأخلاقية بأسلوب مباشر وغير مباشر،لكي يُغروهم بالسلوك الذي يريدون أن يتبناه الأطفال.

والمعروف أن للقصة فكرة ومغزى وأسلوباً وخيالاً ولغة. وأن لكل هذه العوامل أثراً في تكوين الطفل. ومن هنا نشأت ضرورة الاستفادة من القصة في البيت وفي المدرسة، وضرورة انتقاء الصالح منها ومعرفة كيفية عرضه على الطفل. ولما كان الطفل، في السنوات الأولى من عمره وفي روضة الأطفال، غير قادر بعد على القراءة، فإن من واجب الأم والمربية - المعلمة سردها عليه. ففي سرد القصة جمال آخر هو جمال التعبير الذي يسمو بها ويزيد من قيمتها الفنية، ويبعث فيها حياة جديدة، ويشد إليها الطفل. كذلك يمكن طبع بعض الصور على ورق من المقوى الثخين، تمثل الحيوانات والمشاهد المألوفة المسلسلة التي يعبث بها الطفل ويقلّبها، وعن طريق اللعب والسؤال يتعلم منها المفردات والجمل المفيدة.

ويرى علماء النفس والتربية أن لكل عمر قصصاً تلائمه، وأن لكل نوع من هذه القصص سماته المميزة. وقد جعل هؤلاء حياة الطفل والمراهق في أطوار ومراحل ولاحظوا أن

كل طور يهتم بنوع من القصص: فهناك الطور الواقعي المحدود بالبيئة وفيه أشكال من النماذج المألوفة من الحيوان والنبات والأشخاص، وهو بين الثالثة والخامسة. وهناك طور الخيال الحرّ ما بين الخامسة والثامنة (أو التاسعة) حتى الثانية عشرة، وطور العاطفة والغرام، من الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة، وطور المثل العليا يأتي بعد الثامنة عشرة أو السادسة عشرة. والأطوار هذه متداخلة والأعمار المذكورة ليست إلا أعماراً تقريبية ولكنها تعبر عن التمايز. لهذا كله كان من الضروري جداً أن تتصف قصص الأطفال ببعض السمات النوعية. فيجب أن تروق للأذن وللعين (وللحواس الأخرى إن أمكن)، ويجب أن تؤثر في العاطفة، فتسحر نفوس الصغار، لكي تكون فائدتها أكيدة ويكفي أن تلاحظ الصغار وهم يلاحقون لاهثين قصة ناجحة حتى ندرك تأثيرها القوي.

إنهم يتابعون مشاهد القصة بعيونهم وبآذانهم وبأنفاسهم، ويشاركون أشخاصها وجدانياً، بل إنهم كثيراً ما يشاركون الأبطال في تمثيل الحوادث. ولا شك في أن قارئ القصة أو سامعها لا يملك أن يقف موقفاً سلبياً من شخوصها وأحداثها. بل إنه يغرق نفسه في مسرح الأحداث ويتفحص ما يجري ويتخيل إنه كان في هذا الموقف أو ذاك، ويوازن بين نفسه وبين أبطال القصة فيوافق أو يستنكر أو يعجب.

ويُستحسن أن تكون شخصيات القصة قابلة للتصديق مألوفة لدى الصغار. وهذه السمة تشمل كل أنواع القصة: التاريخية والواقعية والتمثيلية وكل قصة أخرى تعرض نموذجاً لحال بشرية يمكن أن تقع في الحياة المحيطة. لكن هذا لا يمنع من سرد قصص الجن والعفاريت التي تحتوي قيماً ومثلاً رفيعة لأنها تسهم في تنمية الخيال ومعرفة القيم النبيلة ومحاربة الشر والفساد. ويجب أن تراعي القصة الدقة، ومعنى ذلك أن يتقيد كاتب الصغار بالصدق، وألا يناقض نفسه أو يخالف قوانين العلم واللغة. كما يجب أن تنطوي على الصلة بما هو إنساني وأن تتصف بالأصالة ويعني ذلك أن تستمد القصص من التراث القومي والإنساني وأن تتقيد بالقيم الإنسانية والقومية وأن تحترم التقاليد والأعراف السائدة النافعة، وأن تنهل من الماضي لكي تبني المستقبل. وهذا لا يمنع أن تهتم هذه القصص بالبساطة واللغة

الحية الواضحة التي تختلف عن لغة الكتب المدرسية ولغة الشارع. الشعر: يبعث الشعر المتعة في نفوس الأطفال، لكن كبار الشعراء العرب لم يهتموا بالنظم للصغار. وفي الأدب الغربي قصائد كثيرة في «الترقيص» والهدهدة والتنويم ورثاء الأبناء.لكن المرء نادراً ما يرى قصائد موجّهة للأطفال.وكان عليه أن ينتظر بداية القرن العشرين حتى يرى بعض القصائد توضع في الكتب المدرسية.وكان هدف تلك القصائد تعليمياً وتربوياً وخلقياً. وعندما ظهر أحمد شوقي نظم عدداً كبيراً من القصائد القصيرة الجميلة الموجهة للأطفال. وكان في ذلك متأثراً بالشعراء الفرنسيين ولاسيما لافونتين. ومنذ ذلك الحين زاد عدد الشعراء الذين ينظمون للصغار، ولكن ليس بينهم واحد اختص بشعر الأطفال وحده. وفي صفوف الحضانة ورياض الأطفال والصفوف الأولى من المدرسة الابتدائية يحتاج الصغار إلى المعلمة تقرأ لهم وتختار النصوص، وتعرضها، وتكررها، وتنوعها حتى تساعدهم على تنمية الذوق والإبداع. ويمكن أن تستعين ببعض التسجيلات لقصائد بسيطة وقصيرة وجميلة يلقيها ممثلون محترفون. وتستطيع استخدام تسجيلات ترافقها الموسيقى أو أن تغنى هذه القصائد من قبل مغنين أو مغنيات لأن الطفل يحب الغناء كثيراً. وثمة أساليب عديدة تستطيع المعلمة اللجوء إليها لتجعل الشعر محبباً للأطفال ولإظهار موهبتهم الشعرية.

وعندما يعرف الأطفال القراءة تصبح المعضلة أكثر تعقيداً وتبرز القيمة الحقيقية للشعر، إذ يكون على المعلمين أن يجعلوا الأطفال يُصغون إلى النصوص مع حثّهم على التعبير عما يجول في نفوسهم إزاء الموضوع المطروح. ويشترط أن تكون النصوص بسيطة خفيفة ذات جرس موسيقي راقص. ومن المستحسن ربط الشعر بفعاليات فنية أخرى كالرسم والرقص والخط والتمثيل. المسرحية: للمسرح في العصر الحاضر، دور تتعاظم أهميته في تربية الصغار وتثقيفهم. فقد تساعد بعض المسرحيات الجيدة للطفل على تبني أحسن العادات في المدرسة والبيت والشارع. وإن المسرحيات العلمية نافعة في توجيه الطفل نحو اختيار المهنة في المستقبل. وللمسرح المناسب المثمر في حياة الطفل شروطه: فيشترط فيه البساطة والدقة والمرح وإمتاع العين والأذن والعاطفة، وهي الشروط اللازمة في الفنون الأدبية الأخرى، وبين هذه الشروط كذلك أن يتناسب مع عمر الطفل ونمو ذكائه. ولكن المسرحية تتطلب

انتباهاً عميقاً ومستمراً؛ مما يجعل العلاقات مع المسرح أكثر تعقيداً من العلاقات مع السينما أو الشاشة الصغيرة. ويجب لذلك أن تراعي مسرحيات الأطفال هذا الجانب مراعاة خاصة. ثم إن ارتياد المسرح يتطلب أمسية كاملة، لذا يجب أن يكون هذا الارتياد حدثاً مهماً في حياة الطفل، وعلى الآباء أن يجعلوا هذا الحدث مفيداً وأن يوظف التوظيف المجدي في تربية الطفل. ومن المناسب في هذا التوظيف أن تلي المسرحية مناقشات وتبادل في الآراء في داخل الأسرة بين الكبار والصغار.

وثمة ملاحظات لا بد من ذكرها في نهاية هذا الحديث عن أدب الأطفال. فقد كان يتجه في الماضي إلى الذكور أكثر من اتجاهه إلى الإناث، وكان يتجه إلى أبناء الطبقات الثرية أكثر من اتجاهه إلى أبناء الطبقات الفقيرة. ومع انتشار التعليم، وتطور الدراسات في علم النفس والتربية، وانتشار الديمقراطية، اتجهت الفروق بين الذكور والإناث نحو الزوال، وتقلصت الفروق الاجتماعية، وأصبح أدب الصغار يخاطب الجنسين على حد سواء من أبناء الشعب كافة، وإن كانت بعض الرواسب القديمة لا تزال تؤثر في الكتّاب وفي الآباء. ولكن هذه الحقيقة أمر يجب الانتباه إليه لدى دراسة أدب الأطفال أو التأليف فيه. ومما يجب الانتباه إليه في التأليف، على وجه الخصوص،عدد من الأمور إضافة إلى رسالة أدب الأطفال، وفي مقدمة هذه الأمور: درجة وعي المجتمع بهوية الطفل، والتقدم في ميدان الكتابة للصغار، والاستفادة من كتابات القدماء مع مراعاة ظروف العصر، وإبداع أشكال وأنواع وأساليب جديدة لكي يتقبلها الجيل الناشئ،والاعتماد على الترجمة عن الآداب العالمية الأخرى لأن أدب الأطفال إنساني.

المحور الثاني : دور الشيخ أبو الحسن الندوي في أدب الأطفال ومنهجه فيه:-

التعريف بالشيخ أبو الحسن الندوي:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، أما بعـد

فإن الشيخ أبا الحسن الندوي هو الداعية الرباني والعلامة المتميز، العربي الأرومة، الحسني النسب، الهندي الجنسية، العالمي العطاء، شيخ الأمة ولسانها الناطق بالحق الداعي إلى

الخير، وأعظم من أن يؤدى حقه بكلمات، فقد كان الرجل -فيما نحسبه- يعيش للإسلام، وله يعمل، وبه يعتصم، ومن أجله يكتب ويصنف، ويدرس ويحاضر، ويسافر ويقيم، فهو شغله في نهاره، وحلمه في ليله، وزاده في سفره، و أنيسه في إقامته.

وكان صاحب قلب حي وعاطفة جياشة بالحب لله ورسوله، وكانت عقيدته صافية على منهج أهل السنه والجماعة، وكان عاقلاً حكيماً واسع الثقافة، أديباً رقيقاً ذا بيان ناصع وأسلوب رفيع راق.

وكان الذي يشغل عقله وقلبه باستمرار هو قضايا الأمة ومحاولة إحياء رسالة الإسلام الحضارية، وتصفيته مما شابه به أهل البدع والانحراف، وكان رحمه الله يبذل الوسع في صد هجمة أعداء الإسلام ويكشف مخططاتهم ويجليها للناس.

وكان أعظم ما يهمه هو تقوية الجبهة الداخلية في مواجهة الغزوة الخارجية، فكان تكوين الفرد المسلم وتصحيح مفاهيمه وتقويم سلوكه هو اللبنة الأساسية في منهجه في تغيير واقع الأمة استناداً لقول الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الرعد: 11

وإن أهم جوانب المشروع الفكري والدعوي للعلامة الندوي بشكل عام وفي أدب الأطفال بشكل خاص تتلخص في التالي:-

تعميق الإيمان في مواجهة المادية

إعلاء الوحي على العقل

توثيق الصلة بالقرآن الكريم باعتباره كتاب الخلود، ودستور الإسلام، وعمدة الملة، وينبوع العقيدة، وأساس الشريعة

توثيق الصلة بالسنة والسيرة النبوية

إشعال الجذوة الروحية الربانية الإيجابية

البناء لا الهدم، والجمع لا التفريق

إحياء روح الجهاد في سبيل الله

استيحاء التاريخ لاستنهاض الأمة من كبوتها

نقد الفكرة الغربية والحضارة المادية أو الجاهلية الحديثة

نقد الفكرة القومية والعصبيات الجاهلية

تأكيد عقيدة ختم النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم، والرد على القاديانيين وغيرهم

مقاومة الردة الفكرية

تأكيد دور الأمة المسلمة واستمرارها في التاريخ نبراس هداية للبشرية

بيان فضل الصحابة ومنزلتهم في الدين

التنويه بقضية فلسطين وتحريرها

العناية بالتربية الإسلامية الحرة التي لا تستمد فلسفتها من الغرب ولا من الشرق

العناية بالطفولة والنشء والكتابة للأطفال والناشئين بوصفهم رجال الغد

إعداد العلماء والدعاة الربانيين

ترشيد الصحوة والحركات الإسلامية التي يشهدها العالم الإسلامي

الحرص على دعوة غير المسلمين للإسلام

فيما يخص منهجه في كتب مناهج تعليم اللغة لغير الناطقين بها

(كتاب القراءة الراشدة نموذجا)

1- إن تكون اللغة أدبية دينية عليها مسحة من جمال أدب الكتاب والسنة.

2- استعمال الكلمات المستحدثة التي لها أصل عربي واشتقاق صحيح لموضوعات عصرية قد عول المؤلف فيها في الغالب على قرارات مجمع فؤاد الأول للغة العربية حتى لا

يلجا الطالب إلى استعمال الكلمات العجمية أو الدخيلة أو يكون له لسان اخرس في المناسبات العصرية.

3- تنوع الموضوعات والمواد لينشط الطالب ويتنقل من فائدة علمية إلى حديث ممتع وحوار لذيذ ومن درس علمي إلى حكاية تاريخية ومن نثر إلى شعر أو نشيد.

4- نقل الحكاية الواردة في الحديث إلى لغة سهلة على أسلوب الحكايات الموضوعة للأطفال.

5- دروس خلقية تهذيبية تعلم الآداب الإسلامية في مختلف نواحي الحياة .

6- تضمين الدروس للأدعية المأثورة والآداب الدينية بحيث لا يشعر الطالب بأنها تلقى عليه إلقاءا بل يحفظها عفوا في ثانيا الدروس والحكايات.

7- التركيز على الروح الديني الساري في الكتاب بحيث لا يمكن تجريد الكتاب منه ويعم ذلك الدروس الدينية ودروس المعلومات الكونية والحيوانية والنباتية وعن الاختراعات الحديثة.

أما فيما يخص منهجه في قصص النبيين--نموذجا

من الأمور المهمة التي أكد عليها الندوي هي عدم استعمال الكذب والخرافات وحشوها في ذهن الأطفال ....الخ فالفرق كبير بين أسلوبه وأسلوب كليلة ودمنة مثلا او قصص ألف ليلة وليله ومن أهم ذلك عدم استعمال الرسوم التي تعطي تصور خاطئ في المعتقد عند الأطفال كذلك التأكيد على حث الأطفال على الدعوة إلى الله سبحانه في كل زمان ومكان ولكل الفئات العمرية والتحلي بالخلق الحميد

و يفضل وضع أسئلة للأطفال في نهاية كل قصة للتعرف على مدى تفاعلهم مع القصة وفهمهم لها واستيعاب للعبر المستقاة وغير ذلك ....

طريقة تبسيط الفكرة سهولة الطرح والتقريب للذهن الطفولي بدون تشبيه ولا تعطيل.

المحور الثالث: مقارنة منهج الشيخ أبو الحسن الندوي مع المناهج الأخرى التي اتبعت في أدب الأطفال وإبراز الجوانب الايجابية فيها ومناطق الضعف والية التصحيح

الواجب اتبعها في ذلك وفق متطلبات العصر الحديث وتطور تقنيات التواصل الاجتماعي والثقافي في وقتنا الحاضر..

أضحى نظام التعليم ومناهجه أحد ميادين الفكر الإنساني مجالاً خصباً لنموّ القيم والمثل العليا التي تعكس آمال المجتمعات ورغباتها في المحافظة على معتقداتها وثقافتها ونُظمها وأساليب حياتها، وكذلك صياغة مستقبلها وفق منظومة الأفكار التي تدين بها.

ولما كانت الأمّة الإسلامية أمّة لها فلسفتها، وأسلوبها الخاص في الحياة، وتاريخها المستقل الذي يُعد منارة للحاضر، لذا كان اهتمامها بالتعليم وما ينبثق عنه من مناهج وطرق تدريس وسيلة راقية لدعم فكرها التربوي الإسلامي، من خلال بلورة هذه المناهج التعليمية التي تعد حلقة الوصل بين أجيالها المختلفة.

وتأتي جهود أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله لتصبّ في مضمار بناء الصرح التعليمي الإسلامي؛ من خلال دعوته لقيام نظام تعليمي يُراعي قيم مجتمعنا الإسلامي، وإيجاد منهاج تعليمي يلبّي متطلباتنا الفكرية والعقدية والقيمية، بعيداً عن عمليات الاستيراد المتتابعة من قِبل المجتمعات الإسلامية لنُظم التعليم الغربية، التي شكّلت معول هدم للبُنى الأساسية للمجتمع الإسلامي.

وقد عمل أبو الحسن على إصلاح المناهج والمقررات الدراسية الإسلامية ، والرقيّ بها، ورفع مستواها وتطويرها حسب مقتضيات العصر، من خلال إيجاد معمل تربوي حيّ دار العلوم التابعة لندوة العلماء مارس فيه كل أفكاره، وطبّق فيه كل نظرياته التربوية والتعليمية.

نقده لنظام التعليم الغربي وفلسفته

لكل أمّة من الأمم فلسفة تدعو إليها، وتربي أبناءها عليها، تنبثق من جملة تصوراتها عن الكون والحياة، وتتحدد في ضوئها مناهجها وأهدافها، وطُرقها وأساليبها التربوية.

والأمة الإسلامية ليست بدعاً من الأمم؛ فهي نموذج متميز تدين بعقيدة نرتبط بها، وتدعو لها، وتربي أجيالها عليها.

وقد تنبّه أبو الحسن إلى خطورة هذه الأنظمة التعليمية، يقول رحمه الله:

"تلك هي قصة نظام التعليم الغربي؛ إنه يحمل روحاً مستقلة، وضميراً منفرداً، تتجلى فيه عقيدة مؤلفيه، وعقلية واضعيه، وهو نتيجة التقدم الطبيعي في آلاف من السنين، وتعبير عن أفكار أهل الغرب ومجموع أقدارهم وقيمهم".

من هنا برزت الحاجة في تصوّره إلى أن

"يُصاغ هذا النظام صوغاً جديداً، ليلائم عقائد الأمة، ومقومات حياتها، ويُخرج من مناهجه ومواده روح المادية، والتمرد على الله تعالى، والثورة على القيم الخُلقية والروحية، وعبادة الجسم والمادة، وينفخ فيه روح التقوى والإنابة إلى الله، وتقدير الآخرة، والعطف على الإنسانية كلها".

المنهاج التعليمي الإسلامي الجديد

يستند المنهاج التعليمي إلى فكر تربوي يأخذ بعين الاعتبار جميع العوامل التي تؤثر في عملية وضعه وتنفيذه، وحتى تكون هذه النظرية متكاملة يفترض فيها أن تكون ذات أبعاد مختلفة، تشمل فلسفة المجتمع الذي نعيش فيه، وطبيعة المتعلم الذي نقوم بإعداده وتربيته، ونوع المعرفة التي نرغب في تزويده بها. (3)

وقد راعى أبو الحسن بناءً على ذلك مجموعة من الأسس المركزية التي ينهض على كاهلها المنهاج التعليمي.

وهذه الأسس هي:

الأساس العقدي: يقول أبو الحسن: "فمِن أول واجبات نظام التعليم ومناهجه في جميع البلاد المتمدنة الواعية أن يغرز هذه العقائد والحقائق في قلوب الناس ويغذيها حتى يؤمن بها كحقائق علمية".

الأساس الاجتماعي والثقافي: يقول أبو الحسن: "إن كثيراً من رجال التعليم والتربية في الشرق والغرب اعتادوا قديماً وحديثاً أن يبحثوا في قضية التعليم والتربية، كقضية منفصلة

عن الحياة والمجتمع، ليست بينهما إلا الصلة المؤقتة العارضة، إنها نظرة تقليدية غير واعية يجب أن تتطور وتتغير".

الأساس النفسي: يقول أبو الحسن: "لذا عنيت أكثر اللغات، والآداب، والديانات، والبيئات، والمعنيّون بتربية النشء، وإنشاء الجيل الجديد، جمع حكايات شائقة تلائم سن الناشئة وعقليتهم، ومدى قدرتهم على الوعي والتذوق"

وقد وضع أبو الحسن مجموعة من المقررات الدراسية لمادة التربية الإسلامية واللغة العربية، راعى فيها الأساس النفسي للمتعلم، ومن ذلك:

أ) المرحلة الابتدائية: مقرر "القراءة الراشدة" و"قصص النبيين للأطفال" و"قصص من التاريخ الإسلامي."

ب المرحلة المتوسطة: مقرر "سيرة خاتم النبيين."

ج المرحلة المتقدمة: مقرر "إذا هبّت روح الإيمان."

د المرحلة العليا (بكالوريس): مقرر "مختارات من أدب العرب"، و"إسلاميات."

الأساس المعرفي: يقول الندوي: "كل من يهتم بقضية هذه البلاد (يعني بلاد العرب والمسلمين) يركز فكره على المعارف لأنها هي التي تصوغ البلاد صياغة جديدة، وهي التي ستعطي المجتمع شكله النهائي".

طرق تدريس مقررات التربية الإسلامية

أولى التعليم الإسلامي طرق التدريس عناية خاصة، باعتبارها وسائل عملية تنفذ بها أهداف التعليم وغاياته بالإضافة إلى محتواه، وقد حدد العلماء خصائص الطريقة التعليمية الجيدة، فقالوا:-

"إن طريقة التعليم يجب أن تراعي مستوى الذكاء لدى المتعلمين وقدراتهم العقلية، وتهتم بالصحة النفسية لدى المتعلمين؛ وذلك بأن لا توجد المخاوف التي تستثيرها في نفوس

المتعلمين وتزيد من توترهم وقلقهم، وبالمقابل لا تدفع الطريقة الطالب إلى الملل والسأم، فيكون متحفّزاً يقظاً طيلة فترة الدرس، وأخيراً ينبغي على طريقة التدريس أن تتوافق مع طبيعة المادة الدراسية".

وقد كان لأبي الحسن وقفة فكرية مع طرق التدريس؛ ذلك أن طبيعة صلته العلمية والتعليمية بدار العلوم التابع لندوة العلماء هيّأت له الجو المناسب لتطوير عدد من طرق التدريس التعليمية الناجحة؛

يقول رحمه الله:

"إنما هو شغف بتمرين الطلاب وتعليمهم العربية، نختار لها الطرق الحديثة ونجرّب لها التجارب الجديدة، ونخترع لها ما تسعفنا عقليتنا، وتمدنا معلوماتنا".

ومن جملة الأساليب التي اعتمدها الندوي في عملية التعليم العديد من طرق التدريس التقليدية، كالمحاضرة والمناقشة والإملاء، مع التأكيد على أسلوب الحفظ والاستظهار في بعض المواد التعليمية، كأسلوب تعليمي قديم موجّه، بالإضافة إلى الطريقة المباشرة التي تحمل في طيّاتها سمة التجديد في طرق التدريس، وهذه الطريقة تقوم على استقاء لفظ اللغة المراد تعلّمها من فم المعلم بطريقة مباشرة دون اعتماد الترجمة كواسطة للتعلم، بل معايشة اللغة الجديدة ضمن بيئتها .

لكن لايسعنا أن نغفل ونحن نسير في رحاب طيات هذا البحث العلمي أن نذكر بعض الغفلات التي وقع فيها شيخنا الجليل والتي قد تكون ربما من جانب الطباعة أو من جانب الكتابة فمثلا هناك الكثير من النسخ التي وقعت تحت أيدينا فيها نقص في بعض الأوراق كما اتسمت برداءة الخط العربي الذي يصعب على الكثير قراءته كذلك استعمال الشواهد من الواقع العربي وتحديدا مصر التي يجهلها الكثير والكثير من أبناء المسلمين في الهند وكذلك الإسهاب في بعض القصص الذي يدخل الملل في قلب القارئ كذكر قصص ملوك الهند على لسان منارة قطب منار وغيرها ونحن نعذر شيخنا في ذلك فالزمن الذي عاش فيه غير هذا الزمن الذي نعيش فيه اليوم والذي اتسم بتوفر التقنيات الحديثة في الطباعة وتوفر

وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة والتي جعلت من العالم ليس قرية صغيرة فحسب بل بيتا يسكن يلم أفراده بكل حركات وسكنات هذا العالم الفسيح .

أما فيما يخص المناهج المتبعة في أدب الأطفال في الفترة التي عاش فيها الشيخ أبو الحسن الندوي وماتلاها وماسبققها فمن الإنصاف أن نعطي فكرة سريعة عن كتاب تلك الحقبة وتوجهاتها لكي يتضح لنا الفرق بين منهج الشيخ أبو الحسن الندوي وبين منهج غيره في التعامل مع أدب الأطفال محور البحث ...

ظهر بعد الحرب العالمية الأولى دراسات عنيت بادب الاطفال والتي كانت تنصب حول الدراسات المنهجية حول "علم نفس الطفل"، كما برز الاهتمام بالطفل كإنسان مستقل، وبدأ الاهتمام بالطفولة على كافة المستويات ولدى جميع الهيئات

وبعد الحرب العالمية الثانية بدأ التطور الثالث في مسيرة أدب الأطفال العالمية، وانطلق أدب الأطفال إلى عصره الذهبي في العالم المتقدم، ففي أمريكيا مثلاً تنوعت أشكال التعبير ووسائل من كتب وصحف ومجلات ومسرحيات ومكتبات عامة...وزاد عدد الناشرين للأطفال في معظم دول العالم، وأدرج أدب الأطفال ضمن مناهج الدراسة في المعاهد العليا، وبدأت ترافقه حركات نقدية تدرسه وتحدد ملامحه وقواعده واتجاهاته.

وقد أزدهر أدب الأطفال بعد الحرب العالمية الثانية بسبب الحاجة إلى إقامة ثقافة للأطفال في بلدان المنظومة الاشتراكية وبعض دول أوروبا وأمريكيا اللاتينية. وكان الهدف الأساسي من وراء ذلك كله هو الاتجاه العام لبناء ورعاية جيل ما بعد الحرب، والتركيز على تربيته من جديد وفق منظور علمي قادر على تنمية الدافع الإنساني في سلوكه.

أما "أورئيل أوفك" فيقسم تطور أدب الأطفال إلى خمسة أطوار:

أ. الفترة القديمة: وتضم هذه الفترة النصوص التي كتبت في الحضارة القديمة، والتي تتلاءم مع أدب الأطفال في أيامنا. وقد وجدت على أوراق البردى الكثير من هذه النصوص المتبقية منذ زمن الحضارة القديمة.

ب. العصور الوسطى: في هذه الفترة قام رهبان الأديرة بجمع القصص القديمة من أماكن بعيدة وحافظوا عليها، وبواسطتهم تم نشر هذه القصص، التي ضمت أيضاً قصصاً للأطفال. وإلى جانب ما قام به الرهبان لوحظ اهتمام بالقصص الشعري في هذه الفترة.

ج. عصر الطباعة: وتبدأ هذه الفترة بعد منتصف القرن الخامس عشر، أي بعد اختراع الطباعة، حيث بدأت في أوروبا طباعة كتب تضم قصصاً شعبية. وفي سنة 1550 صدرت في إنجلترا الكتب الأولى المطبوعة المخصصة للأطفال سميت"Horn Book " ، ولم تتخذ الكتب في تلك الأيام شكل وإخراج الكتاب في أيامنا، بل كانت هذه الكتب عبارة عن صفحة مطبوعة عليها الكلمات من جهة واحدة.-وبعد ذلك بدأت كتب الأطفال تتخذ شكل الكراريس المتعارف عليها في أيامنا. وفي القرن السابع عشر ظهر كتاب أمي الأوزة لمؤلفه "شارل بيرو(1628-1703) (Charles Perot) "، وهي المجموعة الأولى التي احتوت أساطير كتبت خصيصاً للأطفال، وقد احتوى الكتاب، على ثمانية أساطير، منها: سندريلا، القط أبو جزمة، ليلى الحمراء. وفي القرن الثامن عشر برز "الأخوان جريم"، و"هانز كريستان أندرسون"، ككتاب أطفال معروفين.

د. العصر التعليمي: وتبدأ هذه الفترة مع صدور كتاب "إميل" لروسو (1762) الذي شدد فيه على أهمية التعامل مع الأطفال حسب أجيالهم. وتتميز هذه الفترة بصدور المواد العلمية والتثقيفية والموسوعات الخاصة بالأطفال، وفي منتصف القرن الثامن عشر نجد اهتماماً لدى كتاب أدب الأطفال بعنصري التشويق والمتعة، ورائد هذا الاتجاه "جون نيوبري.(1713-1767) (John Neubury) "

٥. العصر الحديث (الذهبي): بدأ هذا العصر في منتصف القرن التاسع عشر مع صدور كتاب أليس في بلاد العجائب لمؤلفه لويس كارول(Lewis Carroll) ، وقد صدر بعد هذا الكتاب الكثير من الكتب للأطفال، وبدأت اتجاهات متعددة في الكتابة للأطفال.

ومن الجدير ذكره أنه لما كان أدب الأطفال لا يزال ناشئاً وليداً في الأمم الغربية فقد استعان كثير من مؤلفي قصص الأطفال بما جاء في ألف ليلة وليلة من عناصر شيقة

للأطفال، ومن هؤلاء المؤلفين هانز أندرسون(Andersen) ، كما وأصبحت فصص ألف ليلة وليلة جزءاً من ثقافة الأطفال في أوروبا بعد ظهور تراجم ألف ليلة وليلة، فقد زودت الليالي أدب الأطفال العالمي بمصادر وحي جديدة كان تأثيرها على هذا الأدب شاسعاً، وأصبح السندباد، وعلي بابا، وعلاء الدين، والبساط السحري، والأميرات والأمراء، والحصان الطائر، والخوارق، رموزاً تسبح في فضاء أدب الأطفال العالمي، ولها مكانة خاصة في عالم الأطفال. ومن بواكير المجموعات القصصية التي تأثرت بألف ليلة وليلة واستوحت الكثير منها مجموعة "دار لاروس" المعروفة تحت اسم "مؤلفات الناشئة" التي تشمل على فئتين من الكتب: "كتب الناشئة الزرقاء" و" كتب الناشئة الوردية" واحتوت هاتان المجموعتان على حكايات من الليالي، وهي جميعها عبارة عن تهذيب واقتباس للحكايات ترجمها "جالان (Galan) "و"ماردروس (Mardross) "وتم إعدادها بصورة تلائم الأطفال، وإن هذا التأثير مستمراً حتى يومنا هذا، فسحر الليالي لم ينطفىء بعد وامتد إلى السينما والتلفزيون فنجد حكايات الليالي تعرض كأفلام وصور متحركة للأطفال في محطات البث العربية والأجنبية.

تطور أدب الأطفال العربي:

إذا عدنا إلى التراث العربي الإسلامي سنجد ألواناً كثيرة من أدب الأطفال، وتذكر المصادر التاريخية والأدبية عدداً كبيراً من الأشعار في الجاهلية والإسلام، التي تعد من الأناشيد أو الأشعار والغاني الخاصة بالأطفال، كما أن التراث غني بالنصوص النثرية شريطة أن نخضعها لظروف عصرها وطبيعته وقيمته وعاداته

وإذا كان الأدب العربي في العصور السابقة لم يعرف فناً أدبياً ناضجاً خاصاً بالأطفال فلا ينفرد بذلك وحده، فقد ميز هذا النقص آداب المم الأخرى،

ولكننا نعثر في الأدب العربي على بعض المؤشرات الإيجابية التي انفرد بها الأدب العربي عن غيره وتميز بها

1 -الاهتمام المبكر بالتربية الشاملة للأطفال روحياً وجسدياً منذ مجيء الإسلام

2-وجود أرضية تراثية خصبة تضمنها التراث الأدبي الواسع

وقد خلص البعض إلى أن أدب الأطفال العربي قديم وبعضه مشمول في أدب الكبار، وإن بعض القدماء وضعوا كتباً للأطفال ونصوا في المقدمة على ذلك، وإن عبارة "أدب الأطفال" عبارة قديمة. والأذرعي المولود سنة 750هـ-1349م كان ملماً بأدب الأطفال أي قبل أدب الأطفال الأوروبي بـ 135 سنة. ويختلف الباحثون حول هوية أول كتاب عربي فهناك من يرى أن أول كتاب أطفال عربي حديث هو النفثات لرزق الله حسون من حلب، وكان صدوره سنة 1867

.أما أحمد نجيب فقد خلص إلى أن قصة القطيطات العزاز لمحمد حمدي وجورج روب التي نشرتها دار المعارف سنة 1912 هي أول كتاب أطفال عربي، وأن ما سبقه من كتب لا تتحلى بالصفات المطلوبة في كتاب الطفل، رغم توجه أصحابها بها إلى الطفل العربي بينما يرى عبد التواب يوسف أن أقدم قصة عربية هي الأسد والغواص.

وأدب الأطفال في العالم العربي حديث، وإن كانت جذوره تمتد إلى مصر القديمة، وجذوره الحديثة أيضاً تمتد إلى مصر الحديثة، حيث حملت مصر مشاعل الريادة لهذا الفن في الأدب الحديث.

ففي منتصف القرن التاسع العشر الميلادي بين أعوام (1849-1854) أتم محمد عثمان جلال (1828-1898) ترجمة معظم الحكايات الشعرية الخرافية الغربية إلى العربية نقلاً عن الشاعر الفرنسي لافونتين .(1621-1695) (Lafontaine)

وقد اطلق محمد عثمان جلال على كتابه المترجم: العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ . ويعتبر إصدار مجلة روضة المدارس المصرية في عام 1870 ونشرها المواد الأدبية للطلاب والكتّاب مرحلة غير مسبوقة في نشر الكتابات الأدبية للناشئين

ويرى بعض الدارسين الذين تناولوا تأريخ أدب الأطفال بعام 1875، كبداية لنشأة أدب الطفل في الدب العربي الحديث، ودليلهم إصدار رفاعة الطهطاوي لكتابة المرشد الأمين في تربية البنات والبنين في تلك السنة

ومن قصصه المترجمة حكايات الأطفال، عقلة الاصبع، وقد ادخل الطهطاوي قراءة القصص في المنهج المدرسي.

وفي العصر الحديث، كان للأدب العربي دور بارز في ميدان القصة فقد أنجز بعض الشعراء الرواد، امثال "أحمد شوقي" شعراً قصصياً عظيماً للطفال معبرين عن مبول هذا السن المبكر ورغباته، فجاءت أشعارهم التي تحكي قصصاً وروايات على لسان الحيوان والطير "وكان شوقي بأغنياته وقصصه الشعرية التي كتبها على ألسنة الطير والحيوان للصغار رائداً لأدب الأطفال في اللغة العربية وأول من كتب للأحداث العرب أدباً يستمتعون به ويتذوقونه"

وعندما أصدر الشاعر أحمد شوقي ديوان الشوقيات عام 1898 دعا الشعراء في مقدمة الديوان في الكتابة للأطفال. وقد تأثر شوقي بأسلوب "لافونتين" كما جاء في مقدمة الديوان. وقد تضمنت الشوقيات عدداً من الحكايات الشعرية على ألسنة الحيوان. ويعتبر أحمد شوقي بذلك رائداً لأدب الأطفال في اللغة العربية.

ويقول شوقي عن الحكايات والأغنيات التي قدمها للأطفال في الوطن العربي كتجربة شعرية رائدة:" وجربت خاطري في نظم الحكايات على أسلوب "لافونتين"، فكنت إذا فرغت من وضع أسطورتين أو ثلاث اجتمع بأحداث المصريين وأقرأ عليهم شيئاً منها فيفهمونه لأول وهلة، ويأنسون إليه ويضحكون من أكثره. وأنا استبشر لذلك، واتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المستحدثة، منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم"...

إن " القصص التي كتبها شوقي للأطفال تهدينا إلى الحكم بأن الشاعر كان يدرك أن " أدب الأطفال" أقوى سبيل يعرف به الصغار الحياة بأبعادها المختلفة، وإنه وسيلة من وسائل التعليم والتسلية، وأسلوب يكتشف به الطفل مواطن الخطأ والصواب في المجتمع، ويوقفه على حقيقة ما في الحياة من خير وشر"

والقصة على لسان الحيوان، ليست جديدة على الشعر العربي، فالكل يعرف أن كتاب "كليلة ودمنة" ترجم إلى العربية قبل يترجم إلى اللغات الأوروبية، وأن الأديب الفرنسي "لافونتين" قد برع وبرز في قصصه التي اقتبسها عن كليلة ودمنة، والتي جعلت من "لافونتين" صاحب فضل على الشعراء العرب، أمثال أحمد شوقي عندما قلدوه في هذا الفن، ونجحوا في تقديم القصص والحكايات التي لا تقل جودة عن قصص وحكايات لافونتين

يمكن القول أن من خطا الخطوات الأولى في مجال أدب الأطفال محمد عثمان جلال ثم ابراهيم العرب، وأحمد شوقي وثلاثتهم شعراء، وتبع شوقي محمد الهراوي الذي نظم الأناشيد والأغاني للأطفال[23]. وفي مجال الكتابة النثرية ألف علي فكري عام 1903 كتابه مسامرات البنات، وكما وضع 1916 كتاباً آخر للبنين سماه النصح المبين في محفوظات البنين. والمحاولات المذكورة سابقاً كانت محفزاً للكثيرين ليتابعوا الطريق، أمثال: عمران الجمل وفايز الجمل، وحسن توفيق، ونعمه ابراهيم، وتوفيق بكر، ومحمد عبد المطلب، وقد غلب على كتبهم الطابع التعليمي. وتلا جيل الرواد جيل برز في الثلث الثاني من القرن العشرين أمثال: عمر فروج، وحبوبة حداد، وروز غريب في لبنان. وعبد الكريم الحيدري، ونصر سعيد في سوريا، وبعضهم تجاوزت شهرته حدود بلاده، مثل: كامل الكيلاني ومحمد سعيد العريان وعطية الأبراشي، وابراهيم عزوز، وأحمد نجيب. وقد تميزت كتابات هذه المرحلة بالاقتباس والنقل من اللغات الأجنبية، أو التبسيط لكتب العرب القداما، يضاف إلى ذلك عدم اهتمام أصحابها بالطفولة في مراحلها الأولى، وحاول مؤلفو هذه المرحلة إحياء التراث العربي، فلجأوا إلى ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، والحكايات الشعبية، ليزودوا الأطفال بأمتع القصص من هذا التراث. ويعتبر كامل الكيلاني من أبرز كتاب هذه المرحلة للأطفال، ويعتبر الرائد الفعلي والحقيقي لأدب الأطفال في اللغة العربية. وقد كتب الكيلاني أكثر من مائتي قصة ومسرحية للأطفال، وكانت أول قصة له هي السندباد البحري (1927). كانت الترجمة مصدراً رئيسياً من مصادر أدب الأطفال في العالم العربي بين الحربين العالميتين، بدأت تتراجع لصالح التأليف العربي إلى تأليف نوعي في السبعينات، دون أن تختفي الترجمة ودون أن تتمكن من المحافظة على مكانتها السابقة،

إضافة إلى أن تطور أدب الأطفال في الطن العربي تطور غير متكافئ. ففي حين كانت الترجمة أساساً لهذا الأدب الفريد في مصر فإنها لم تكن في سوريا والعراق. ومقابل تأخر ظهور أدب الأطفال في دول الخليج تطور هذا الأدب بسرعة في لبنان وسوريا والعراق ومصر وتونس.وترى سمر الفيصل أن العلاقة بين أدب الأطفال والتراث العربي ما زالت في بداياتها الأولى، لأن مشكلة الاستلهام من التراث ما زالت قيد الدراسة. وما يلاحظه المرء من قصص وأشعار ومسرحيات مستمدة من التراث، يجب أن يخضع لسؤال هام هم مدى ملاءمته للطفل؟ وهل هو تبسيط للتراث؟ أم استلهام منه؟

ومع انقضاء الثلث الثاني من القرن العشرين، تلته مرحلة بدأ أدب الأطفال خلالها بانتزاع اعتراف الهيئات العلمية والأدبية به، وسلك طريقه ليصبح مادة من مواد التدريس في الجامعات .

ولقد كان لحرب حزيران عام 1967 أثر كبير على الاهتمام بالأطفال وأدبهم من خلال رؤية تهدف إلى بناء مجتمع سليم قوي، والذي يشكل الأطفال اللبنة الأساسية فيه، فصارت تعقد الندوات والمؤتمرات، وتقام المراكز من أجل النمو بالطفل وأدبه، ومن ابرز من اهتموا للكتابة للأطفال بعد حرب حزيران سليمان العيسى وزكريا تامر من سوريا .

وفي الوقت الذي قطعت بعض الدول العربية شوطاً في مجال أدب الأطفال، مثل: مصر وسوريا، نجد دولة اليمن يتحدد ميلاد أدب الأطفال فيها بالعام 1973، أما في المغرب فحتى سنوات الثمانين كان أدب الأطفال يخطو خطواته الأولى وقد رافقه ترجمات من أدب الأطفال الفرنسي المترجم والذي كان منتشراً لدى لبنان .

ويتميز الثلث الأخير من هذا القرن بالتنافس بين دور النشر لإصدار مجموعات ملونة جميلة ذات طباعة جذابة للأطفال، وقد تجاوز التنافس حدود الكلمة والكتاب ليصل إلى برامج الكمبيوتر الخاصة بقصص الأطفال وقصائدهم، وكما انه يتم استغلال الكثير من البرامج الترفيهية والتعليمية للأطفال. ونلاحظ منذ السبعينات حتى الآن غزارة في الكتابة للأطفال، وقد ساعد على تنشيط حركة الكتابة وسرعتها التغيرات التي طرأت على البنية

العقلية التربوية، وعلى تغيير موقع الطفل في العلمية التربوية كذلك في عملية التطوير الاجتماعي، وتحقيق تطلعات المستقبل، ويضاف إلى ذلك كله اهتمام الهيئات الثقافية والتربوية بما يكتب للطفل وتشجيعها على نشره. ولكن، على الرغم من الانتباه الجماهيري المتزايد لأدب الأطفال كنتيجة مباشرة لنجاحه التجاري، فإن المؤسسات الأكاديمية والنقدية في الشرق لم تكرس بعد جهود كافية لبحث هذا الأدب، وإن وجد بعض الباحثين الذين بدءوا يتوجهون لبحث أدب الأطفال.

من هنا يتضح لنا كيف كان توجه أدب الأطفال في تلك الفترة التي عاش فيها شيخنا الجليل أبو الحسن الندوي وكيف انه كان منصبا على القصص والحكايات باستثناء بعض الكتاب الذين نحوا منحى الشيخ الجليل في التربية والإرشاد وعلى الجانب النفسي للطفل بعيدا عن الجانب التربوي والقيمي الذي ركز عليه شيخنا فهو أساس تكوين الأجيال والمنطلق الذي يعول عليه في تكوين لبنة المجتمع السليم فشيخنا لم يأل جهدا في كتابته للأطفال في بث روح القيم الفاضلة والنبيلة في نفوسهم وتغذيتها من النبع الإسلامي الصافي الكتاب والسنة المطهرة بعيدا عن التحريف والتزييف والغلو والتفريط .

المحور الرابع والأخير:

الخلاصة واهم النتائج والتوصيات والخاتمة مع ثبت المصادر والمراجع العامة..

الخلاصة

إن أدب الأطفال من أهم الآداب التي يعول عليها في نشر الوعي الثقافي والتعليم لدى الجيل الناشئ بل يعد من أهمها على الإطلاق فمنه المبتدى في تكوين الفكر التربوي السليم في المجتمع فكما أن لكل بيت بنيان ولكل بنيان أساس ولا يقوم أي بنيان بدون أساس قوي ومتين كذلك هو أدب الأطفال فهو الأساس في تربية وتعليم الأجيال فبدون الاهتمام به وتطويره والاعتناء بكل ما يتعلق به فسيبقى جيلنا الناشئ ضعيف الإرادة بليد العزيمة فاقد لهويته الإسلامية والعربية فوجب علينا تسخير جميع الجهود والطاقات لتفعيل هذا الدور الذي من شانه أن يقدم خدمة جليلة لأبناء مجتمعنا الإسلامي والعربي على حدٍ سواء

فمضمون أدب الأطفال يرتبط بشكل رئيس بأهدافنا التي نريد أن نوصلها للطفل وليس كل ما يريده فعندما نريد أن يكتسب الأخلاق الحميدة والسلوك القويم نعلمه الشجاعة والثقة بالنفس والصدق والأمانة ونوفر له المادة المناسبة التي تعالج هذه القضايا فتوصل له الرسالة بأسلس أسلوب وأبهى حلة وأجمل شكل سواء صيغت على شكل قصة مصورة أو على شكل حكاية سردية أو مسابقة ولا شك أن ذلك أمانة ومسؤولية على عاتق الكاتب فالطفل يتأثر كثيرا بما يقرأ وتنطلي عليه المضامين السيئة إذا سيقت في قالب فني جميل.

والكاتب يجب أن يضع نصب عينيه حاجات الطفل فيقدمها له في قالب راق مقنع له من جانب ومحقق للأهداف المقصودة من جانب آخر.

وقد أسهم شيخنا الجليل أبو الحسن الندوي في مؤلفاته (القراءة الراشدة وقصص النبيين وقصص من التاريخ الإسلامي وسيرة خاتم النبيين) في تعزيز القيم الأدبية والتربوية الأصلية في نفوس النشئ ونحن إذ نتناول في بحثنا هذا منهج أبو الحسن الندوي في أدب الأطفال فنحن نثمن له كل الجهود المبذولة في ذلك على ضعف الإمكانات وقلة الوسائل والتسهيلات في زمانه إذا قيست بوقتنا الحاضر ولكنه تسلح بسلاح الإيمان والعلم مستلهما في مشواره عزيمة المؤمن التي لا تعرف معنى الكلل والضعف أو الهزيمة والهوان فشكر الله لشيخنا ما قدم ونسال الله أن يتغمده بواسع رحماته ويسكنه في فسيح جناته مع الأنبياء والمرسلين وحسن أولئك رفيقا

ومن أهم التوصيات التربوية والنقدية والعلمية التي نوصي بها في بحثنا هذا والتي نحاول بها توجيه أدب الأطفال في العالم العربي والإسلامي من أجل النهوض به قدماً ما يلي:-

أ. الابتعاد عن القصص والحكايات التي تقدم قيماً سلبية للأطفال والاهتمام بالمواضيع المستوحاة من بيئة الطفل، والتي من شأنها أن تغرس قيماً إيجابية في نفسه.

ب.اعتماد التراث كمصدر هام يمكن استلهام الكثير منه لخصوبته في المجتمع والمفيد من نصوص ممكن أن تشكل مصدر إيحاء للكتّاب، ويستشهد أصحاب هذا التوجه، على سبيل

المثال كتب القصص الإسلامي بشكل خاص، والحكايات الشعبية بشكل عام كمصدر هام لهذا الاستلهام .

ت.الاهتمام بقصص الخيال العلمي،لإذكاء روح التطور والبناء في نفوس الأطفال وهناك الكثير من المحاولات في العالم العربي لترسيخ جذور هذا الخيال في أدب الأطفال العربي ضمن ستراتيجية عامة في تقديم مواضيع علمية في عالم يسيطر عليه إنجاز المعرفة.

ث. الاهتمام بالإخراج الفني للكتب والرسومات الداخلية للكتاب بحيث تتلاءم مع مضمون القصة والجيل المقدمة له.

ج. لا نريد من أدب الأطفال أن يسلب طفولة الأطفال حينما يصبح حقلا لتطبيق نظريات علمية غير مدروسة قد تسهم في هدم الجيل لا بنائه أو تنشئ لنا جيلا خاوي العلم ضعيف الهمة لا يستطيع مواكبة المسيرة وحمل أعباء الدعوة التي أمرنا بها مصدقا لقوله تعالى {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} آل عمران 110

د. مواكب كل التقنيات الحديثة والأخذ منها بما يرفد أدب الأطفال والآداب الأخرى وتأسيس شبكات للتواصل مع النشئ الجديد وتلبية احتياجاتهم ومستلزماتهم والإفادة من وسائل التواصل الاجتماعي كال فيسبوك و تويتر و انستكرام وياهو ميل والجي ميل وغيرها من تلك القنوات التي ظهرت حديثا وتحويلها إلى معاول بناء وتطور وتثقيف في مجتمعاتنا والتحذير من السيئ منها وإرشاد أبنائنا إلى تجنبه والابتعاد عنه .

وفي الختام نسال الله سبحانه أن قد وفقنا لتقديم أفضل ما عندنا حول منهج الشيخ أبو الحسن الندوي في أدب الأطفال فما كان من خير فمن الله وحده و ما كنا من نقص فمن أنفسنا والشيطان ولا ندعي لأنفسنا الكمال في العمل بل ننسب لها النقص والضعف والكمال لله وحده نسأل الله سبحانه الصدق في القول والعمل

قائمة المصادر والمراجع

القران الكريم

- القراءة الراشدة– طبعة ندوة العلماء لكنو–الهند
- قصص النبيين – مؤسسة الرسالة 1422-2001
- قصص من التاريخ الإسلامي طبعة رابطة الأدب الإسلامي العالمية لكنو– الهند
- قرأتنا في أدب الأطفال من خلال معايشة واقعية منذ عام 2003وحتى عام 2014
- مواقع الانترنيت والمقالات المنشورة فيها فعلى سبيل الذكر لا الحصر
- (موقع الإسلام ويب– موقع ويكبيديا– مواقع أدبية وفكرية– مواقع إسلامية تربوية)

- الباحث محمد عبدالكريم ياسين

وقفات مع ركائز أدب الأطفال لدى أبي الحسن الندوي في كتابه "قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال"

د. عبدالغنى أكوريدى عبدالحميد
استاذ فقه اللغة المساعد ورئيس قسم اللغات سابقا
كلية العلوم الإنسانية جامعة الحكمة إلورن، نيجيريا.

مقدمة

القصة جنس أدبي يحقق إثراء الفكر وإمتاع الوجدان، وهي وسيلة لتحقيق كثير من الغايات التي اختلفت باختلاف المذاهب الأدبية... وأما أدب الأطفال فهو نوع من الفن الأدبي للأطفال والأولاد دون عمر المراهقة يشتمل على أساليب مختلفة من النثر والشعر.

هناك ضوابط يجب مراعاتها في تحقيق أدب الأطفال وخصائص تلائم طبائع الأطفال وأعمارهم... يهدف هذا البحث إلى دراسة كتاب: "" قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال " للعلامة الندوي مستكشفا للأساليب اللغوية والتربوية والفنية والفكرية التي يعالجها الندوي، ومستخرجا للركائز المستجمعة في هذا التراث القيم. درسنا بعد هذه المقدمة المصادر الأساسة لدى الندوي لهذا الكتاب، ثم خضنا في الركائز السبعة التي تهم أدب الأطفال خلال دراسة الباحث المتأنية لكتاب الندوي فيها.

أنتهز هذه الفرصة لأشكر مؤسسة العلامة أبي الحسن التعليمية والخيرية عليكرة الهند على إتاحة هذه الفرصة للخوض في هذا الموضوع الشيق الذي أتمنى أن تليها دراسات في مضمار أدب الأطفال . وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه سلم.

تمهيد

إن الطفل ثمرة الغد، وشباب المستقبل، والأمل المنشود الذي بصلاحه صلاح المجتمع، وقوة للأمة ونصرلها في طريق النهضة والعزة والمجد. وبهذا يحل الطفل مكانا مرموقا.وحاجة الأطفال إلى كتب تلائم طبائعهم وأعمارهم جعلت بعض الناشرين فكروا في اقتباس الأساطير والحكايات الشعبية والدينية وتبسيطها اعتقادا منهم أنها ستسدّ الثغرات. أما في القرن التاسع عشر عرف مفهوم (أدب الأطفال)، وازدهر في القرن العشرين، فبرزت مجلات الأطفال وانتشرت كتبهم وراجت برامجهم في الإذاعة والشاشة كصغيره. أمسى "أدب الأطفال" منذئذ مستقلا وميدانا خاصا يستمد أصوله من : معرفة الطفل نفسه معرفة عميقة، ومعرفة البيئة التي يعيش فيها هذا الطفل ومن ماضي الطفل، ومن القدرة على التنبؤ، ومن الإيمان بمستقبل الأمة التي ينتمي إليها.

تعددت الأقوال والآراء حول مفهوم أدب الأطفال، ذهب بعضهم إلى أنه هو نوع من الفن الأدبي يشمل أساليب مختلفة من النثر والشعر المؤلفة بشكل خاص للأطفال والأولاد دون عمر المراهقة. فالطفولة مرحلة من الحياة تمتد من الولادة إلى سن المراهقة، ولها خصائصها التي تنمو مع نمو الطفل نفسه وهو النمو الذي يشمل النواحي الجسمية والنفسية والخلقية والانفعالية والاجتماعية والإبداعية...

والناشئة الإسلامية والأطفال المسلمون- كما يقول الندوي- أحوج من كل ناشئة وجيل في سن الحداثة إلى قصص وحكايات، فيهم حب الخير والفضلية والبطولة والتضحية والجهاد والشهادة في سبيل الله، وإيثار الآخرة على الدنيا، والعزوف عن سفاسف الأمور، وفضول الحياة والحب لله وللرسول ولأصحابه وأتباعه، والذين بذلوا أنفسهم ونفيسهم في سبيل الله. [i]

---

[i] – أبو الحسن علي الحسني الندوي: قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، الطبعة الأولى، 1425هـ/ 2004م،

المصادر الأساسية لأدب الأطفال لدى الندوي:

اعتمد الشيخ الندوي أساسا في مؤلفاته نحو أدب الأطفال على المصادر التراثية في التاريخ الإسلامي ، منها: سيرة ابن هشام، وزاد المعاد لابن القيم، وصحيح البخاري، والكامل في التاريخ لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير.. كما أن لاتصاله بشيخه محمد إلياس أثرا واضحا . وإذا كان الشيخ قد ظهرت لديه موهبة الخطابة، فقد نمت وتجلت بفضل اتصاله بشيخه محمد إلياس الذي التقى به في دلهي، وقد أعجب الشيخ أبو الحسن به: خاصة في توجهه للجماهير، وارتحاله إليهم، وحسن استقبالهم لخطبه، وتأثيره العظيم فيهم [i] . فنتيجة لعصارة هذه المناهل؛ كتب الشيخ الندوي للكبار، وللناشئة وللأطفال؛ ومن أهم ما ألفه للأطفال (قصص النبيين للأطفال) ثم (قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال) فالأخير هو الذي نحن بصدده في هذه الأوراق. لقد اقتنع الندوي أن القصص والحكايات إذا كانت على مستوى عقول الأحداث والأطفال، وفي اللغة التي يفهمونها بسهولة، ويسيغونها، ويتذوقونها، كانت مدرسة للأطفال، يتعلمون فيها المبادئ، والأخلاق الفاضلة، والدوافع النبيلة، والمشاعر الكريمة والرقيقة من غير أن تثقل عليهم، ومن غير سآمة وملل [ii].

وفيما يلي ركائز يقوم عليها أدب الأطفال لدى الندوي :

الركيزة الأولى: الجانب اللغوي والتعليمي

اهتم الندوي باللغة العربية أي الاهتمام عند أدبه مع الطفل، تراه في جمله المتينة، وترابطها يدل على متانتها، حتى تكاد أن تكون قصصه موسوعة طفل غنية بمفردات

الناشر : دار وحي القلم بيروت – لبنان، ص: 6.

[i]_ د/محمد رجب البيومي: أبو الحسن الندوي سيرة ذاتية منقولا من "ملامح قصة الأطفال الموجهة... للدكتور سعد أبو الرضا" ص: 112

[ii]_ أبو الحسن علي الحسني الندوي: قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، الطبعة الأولى، 1425هـ/ 2004م،

الناشر : دار وحي القلم بيروت – لبنان، ص: 5.

اللغة العربية. وتراه في ألفاظه السهلة بعيدة كل البعد عن الألفاظ الغريبة.فإن وجدت- مع ندرتها- شرحت في الهوامش. وتتصف المعاني لدى الندوي بالعذبة؛ فهي خصبة بالروح الإسلامية.

أ- عباراته تستلذ بقرآءتها؛ مثلا عقب قصة بعنوان : (كلمة قتيل كانت سببا لإسلام القاتل)؛ يقول: ورب كلمة مؤمنة مخلصة، صنعت العجائب وهزمت الجيوش، وفتحت البلاد[i].

وذق مثلها في قصة (من عفا وأصلح فأجره على الله)، حيث يقول: " ولكن شجرة الإسلام لم تزل تثمر، وخليته لم تزل تعسل..."[ii]

ب- يعلّم الندوي مفردات لغوية حقا في مثل قوله : " خرج بعض المسلمين يرعي إبله، وخرج بعضهم يسقي زرعه، وخرج بعضهم يحرس بستانه، وخرج بعضهم يفتح دكانه[iii]".

فجمله في هذه العبارات قصيرة، تناسب مع طبائع أدب الأطفال : يقول مثلا تحت عنوان (على الخشبة): "كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يعبدون ربهم، ويشتغلون بالتجارة والزراعة، ويشتغلون بالصناعات كالحياكة، والحياطة، والحدادة، والنجارة والدباغة، وغير ذلك. فكانوا عبادا وطلبة علم، وتجارا وفلاحين، وصناعيين، وكانوا كأوساط الناس، يأكلون ويشربون ويتكلمون، ويضحكون، ويبيعون، ويشترون ويزرعون، ويصنعون، إلا أن كل ذلك في سبيل الله لأنهم يبلغون به وجه الله"[iv]. فالمفردات في ألوانها وأشكالها مدروسة مبينة من جموع القلة والكثرة ، ومن جموع المذكر السا لم، كما لوحظ استعمال الأفعال الخمسة إزاء فهم القراء العرب وغير

---

[i]- المؤلف السابق المرجع السابق، ص: 43.

[ii]- المؤلف السابق المرجع السابق، ص: 67.

[iii]- المؤلف السابق المرجع السابق، ص: 25.

[iv]- المؤلف السابق المرجع السابق، ص: 33، 59، 71.

العرب – للأصناف المتعددة من هذه الظواهر النحوية. كما لوحظ الأسلوب التكراري الذي يثبت في ذهن القارئ المعاني التي يريدها، ويبيّن أهميتها.

جـ- يحسن استخدام الأساليب اللغوية المناسبة في أدبه مع الطفل، فتراه يستخدم صيغ الاستفهام أسلوبا عند تقرير أمر ما، وخاصة عندما تكون الأحداث بحاجة ماسة إلى هذا الأسلوب، فالاستفهام يضفي على النص روحا وحماسة ؛ تستنشط همة القارئ، وتدفعه إلى إتمام القراءة: يقول الندوي : وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ، هل تعرفون ما هي الغزوة؟ ثم ساق جملا طويلا فعاد قائلا: فالغزوة ما خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم في جند من المسلمين للجهاد في سبيل الله[i]. ومثال آخر هو ما حدث بين عمر بن أبي وقاص وبين الرسول صلى الله عليه وسلم إذ رده الرسول لئلا يشارك في غزوة بدر لحداثة سنه. فقال الندوي في هذا الموقف : ولكن عميرا لا يعصي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يعاند؛ فإنه لا يريد إلا رضا الله ، وهل ينال رضا الله إذا عصى رسول الله؟ أبدا[ii]

د- الجوانب الحيوية ذات العلاقة الحية مع البلاغة، لقد راعى الندوي هذه الجوانب حق المراعاة في مثل الطباق الذي ظهر واضحا في أدبه مع الطفل. لقد ألبس الطباق- الذي هو الجمع بين الشئ وضده في الكلام[iii]- هذه القصص جمالا وأضفاها رونقا، وقمّصها بهجة، فينشأ الطفل مستخدما لهذه الأساليب الجميلة، ويميل إليها من حيث يعلم ومن حيث لا يشعر. هذه الظاهرة الطباقية تكثر عند الندوي فهاك بعضها:

- **وفيها الجهل، وفيها الظلم.**
- ذهبوا إلى السوق يبيعون ويشترون.
- يأكل فيشكر، ويجوع فيصبر.

---

[i]- المؤلف السابق المرجع السابق، ص: 10.

[ii]- المؤلف السابق المرجع السابق، ص: 22.

[iii]- عبدالقدوس أبو صالح وأحمد توفيق كليب: علم البيان، الطبعة الخامسة، 1414هـ. ص: 246-247.

- يوما ابيضت فيه وجوه المسلمين، واسودت وجوه المشركين[i]

ليس هذا الوجه هو فقط المستخدم بل تطرق الندوي إلى غيره من أوجه البديع؛ مثل الجناس الذي جعله عنوانا لإحدى قصصه في قوله :(الغرم بدل الغنم)[ii] فهو- الجناس- أن يتشابه اللفظان في النطق ويختلفان في المعنى. فالمثال المذكور من نوع الجناس غير التام حيث اختلف فيه اللفظان في نوع الحروف وهو الراء والنون. فالاستخدام مناسب لأنه جاء عفوا وسمح به الطبع من غير تكلف[iii].

هـ- استخدام التعبير الاصطلاحي ظاهرة واضحة في الكتاب ، حيث يكرر المؤلف الفكرة التي يريد أن يبثها في أكثر من قالب لغوي رائع، فيجد الطفل في ذلك متعة وتشويقا أكثر من ناحية، فتسد ثغرة محاولة تدريب الطفل على الفائدة المرجوة ألا وهي التفنن في التعبيرات. التعبير الاصطلاحي الذي عرّفه بعضهم بأنه تجمع لفظي- أكثر من وحدة معجمية بسيطة – يقع في الاستعمال اللغوي باطراد، وله دلالة ثابتة لا تنتج من تجميع دلالات مفرداته المكونة له[iv] .

هنا نماذج لهذه التعابير الاصطلاحية:

- وهو قطب تدور حوله رحى الحياة الإسلامية.
- ودارت رحى الحرب.
- هو الذي ردّ غارة الصليبيين على أعقابها.

---

i- المؤلف السابق المرجع السابق، ص: 9، 12، 13، 26.

ii- المؤلف السابق المرجع السابق، ص: 46.

iii- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني :البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى، 1416هـ-1996م. ج/2، ص : 485 – 486 .

iv- وفاء كامل فايد: معجم التعابير الاصطلاحية المعاصرة، ط1، 2007م، ص: (ب)

غيّر مجرى النهار [i]

<u>الركيزة الثانية:</u> إشعال جذوة الصلة بالقرآن الكريم ، يظهر خلال قراءة كتاب قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال؛ أن الندوي عميق الصلة بالقرآن الكريم، مستحضرا لآياته في كل موقف، مبينا لدرر سوره في كل وقفة، محسنا الاستشهاد بها غاية الإحسان، وله ذوق متفرد في فهم الآيات. استمع إليه وهو يقول: " وبعث الله العنكبوت فنسجت ما بين الغار والشجرة التي كانت على وجه الغار، وسترت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبابكر، وأمر الله حمامتين وحشيتين، فأقبلتا تدفان حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشجرة { وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا } الفتح": 4. ومن حسن استشهاد الندوي قوله. تعالى: { ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} التوبة:40 [ii] بعد أن بيّن الله كيف حفظ الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبا بكر الصديق رضي الله عنه في موضوع عنوانه " الله خير حافظا وهو أرحم الراحمين".

لقد أحسن الندوي عرضا لموضوع " المضيف الجائع" حيث صوّر الإيثار الذي خلّده أبو طلحة وأهله أم سليم في ضيافة ضيوف رسول الله صلى الله عليه وسلم فأبهج هذا العرض بالآية الكريمة: { وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ } الحشر:9 [iii].

إن الندوي يوثق الصلة بالقرآن الكريم، ولا غرو في ذلك فهو كتاب الخلود، ودستور الإسلام وعمدة الملة، وينبوع العقيدة، وأساس الشريعة. لذا استشهد المؤلف بالآية:{فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ } السجدة:

---

[i]– أبو الحسن علي الحسني الندوي: قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، الطبعة الأولى، 1425هـ/ 2004م،

الناشر : دار وحي القلم بيروت – لبنان، ص: 19، 28.

[ii]– المؤلف السابق ، المرجع السابق، ص: 9-10.

[iii]– المؤلف السابق ، المرجع السابق، ص: 17.

17 ليبيّن أن وراء ملذات هذه الدنيا ومسراهّا، لذات ومسرات ألذ منها، وأعظم منها وأوسع منها، وهي اللذات والمسرات التي لا تنقضي، والحياة التي لا تنتهي...[i] لا ينحصر جمال الندوي على الاستشهادات بالآيات القرآنية فقط بل يتعداه إلى تضمين مقالاته بالآيات القرآنية فيلوح ذلك في مثل قوله:... وكان يوم بدر يوم الفرقان، وكان يوما على الكافرين عسيرا... يوما فرّق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان يوما ابيضت فيه وجوه المسلمين واسودت وجوه المشركين[ii].

الركيزة الثالثة: إشعال جذوة الصلة بالسنة والسيرة النبوية. كانت كتابات الندوي مليئة باهتمامه بالحديث النبوي الشريف والسيرة النبوية العاطرة باعتبار السنة مبينة القرآن وشارحته نظريا وباعتبار السيرة هي التطبيق العملي للقرآن الكريم، ومنها يتجلى القرآن مجسدا في بشر من كان خلقه القرآن، ويتجلى الأسوة الحسنة التي نصبها الله للناس عامة، وللمؤمنين خاصة. تصفحنا للندوي كتاباته في أدب الأطفال نرى لهذا الاتجاه محاورا كثيرة من مثل ما ورد من الصحيحن: (جئتكم من عند خير الناس) ذلك الحدث الذي رسمه الندوي في موضوع:" الله خير حافظا وهو أرحم الراحمين". حيث بين كيف ولد الرسول في مكة وقضى حياته فيها ثم هاجر إلى المدينة المنورة، وكيف تعامل مع الكفار بروح السماحة إلى حد أن خلّى الرسول سبيل من قبضه وتمكن منه. وأما القصص المستنبطة من السيرة النبوية فحدث ولا حرج ؛ منها عناوين: " بارك الله لكم في أموالكم... فلا حاجة لنا فيها"، "ومن دون أحد" و "المضيف الجائع" و"رسالة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم"، فالحوادث فيها تتعلق بالنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ، والوقائع تلتصق بها، والمواقف لها علاقة وطيدة به. صاغها الندوي بصبغة جميلة، وبعبارة جياشة، تثير في النفوس ما لقيه الرسول والصحابة من أنواع الأذى، وما

---

[i]– المولف السابق ، المرجع السابق، ص: 43.

[ii]– المولف السابق ، المرجع السابق، ص: 26.

تحمله هو وصحابته رغبة في نيل رضا الرب ومجانبة سخطه... صلوات ربي على محمد وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين أجمعين.

الركيزة الرابعة: العناية بصناع تاريخ الأمم.

يبدو للندوي أن القصة في نظر الطفل لون من ألوان اللهو لا يمل تكرارها، وإنما تبعث في نفسه الهدوء والسكينة. وأن القصة تلقن الطفل كثيرا من الكلمات والعبارات تلقينا سهلا غير مباشر، مما قد لا يتاح له في حياته العملية. قال الندوي في مقدمة كتابه الذي نحن بصدده:

لذلك عنيت أكثر اللغات، والآداب، والديانات والبيئات، والمعنيون بتربية الأطفال، وإنشاء الجيل الجديد على الأخلاق الفاضلة، وخلال المروءة، والفتوة، والإيثار، والتضحية، والرجولة والبطولة، بجميع حكايات شائعة مثيرة تلائم سن الأطفال، وعقليتهم، ومدى قدرتهم على الوعي والتذوق يستوي في ذلك الصغار في السن والبدائيون في دراسة لغة من اللغات[i].

لقد التفت الندوي إلى هذا الأمر الخطير- أدب الأطفال - بوصفهم رجال الغد وصناع تاريخ الأمم، وأدى ذلك خير الأداء في لغة سهلة وأسلوب عذب، وطريقة شائقة مضمنا إياها ما يحب الطفل من المعاني والقيم، ومن الدروس والعبر، ومن العقائد والمثل...

يرى علماء النفس والتربية أن لكل عمر قصصا تلائمه، وأن لكل نوع من هذه القصص سماته المميزة، وقد جعل هؤلاء حياة الطفل والمراهق في أطوار ومراحل ولاحظوا أن كل طور يهتم بنوع من القصص.

- الطور الواقعي المحدود بالبيئة وفيه أشكال من النماذج المألوفة من الحيوان والنبات والأشخاص وهو بين الثالثة والخامسة.

---

[i]- المؤلف السابق ، المرجع السابق، ص: 6.

- طور الخيال الحرّ ما بين الخامسة والثامنة (أو التاسعة) حتى طور العاطفة والغرام من الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة.
- طور العاطفة والغرام من الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة .
- طور المثل العليا يأتي بعد الثامنة عشرة أو السادسة عشرة.
- والأطوار هذه متداخلة والأعمار المذكورة ليست إلا أعمارا تقريبية ، ولكنها تعبر عن التمايز. لهذا كله كان من الضروري جدا أن تتصف قصص الأطفال ببعض السمات النوعية. فيجب أن تروق للأذن وللعين - وللحواس الأخرى إن أمكن- [i].

ولقد راعى الندوي هذه الأشياء ، فبعد كل البعد في أدب الطفل عن الخيال الوهمي، لا سيما أن التاريخ الإسلامي هو حقائق ثابتة سجلها القرآن الكريم والسنة المطهرة، ودونتها انتصارات المسلمين الرائعة على مر العصور والأيام. فالأدب الذي يكتبه الندوي للطفل هو الأدب المسلم، إذ يتسم بالحقيقة والثبات وهذه سمة بارزة في أدبه . فخوض الندوي في الموضوع كان خوضا مميزا. فكتب " قصص النبيين" و "قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال". وقال في مختتم مقدمته: إنه يرجو أن ينال بهذه الخطوة البدائية المباركة تقدير رجال التربية وأصحاب الأقلام في اللغة العربية، وأن تليها خطوات، وتؤلف مجموعات، تحتوي على مثل هذه الحكايات... وربما تكون أبلغ وأقوى، وأجمل لغة وأسلوبا من هذا الكتاب الصغير فيكون بذلك نال أجر النية والعزم، والترغيب في مواصلة هذه الرحلة، وإثراء المكتبة الإسلامية بجناح خاص بالأطفال، وثروة نافعة ذات قيمة دينية، تربوية خلقية ...[ii]

<u>الركيزة الخامسة:</u> التربية الإسلامية الصحيحة عبر استيحاء التاريخ الإسلامي وبطولاته. أظهر الندوي في أدبه للطفل أن التربية الإسلامية تستمد من الإسلام: عقيدة

---

[i]- www.ar.wikipedia.org,children_books_Tunisia.dpg pp: 1-5

[ii]- المؤلف السابق ، المرجع السابق، ص: 8.

وشريعة وقيما وأخلاقا، ووجه ألا يستمد المسلمون فلسفتهم من الغرب ولا من الشرق، وإنما يؤمن بالله ربا خالقا، وإلها معبودا، واليقين بالآخرة، دارا للجزاء، ثوابا وعقابا، في مواجهة المادية الطاغية، التي تجحد أن للكون إلها يدبره ويحكمه، وأن في الإنسان روحا هي نفحة من الله- وأن وراء هذه الدنيا آخرة...[i]

لقد أولى الندوي جانب التربية اهتماما بالغا، لأنها هي التي تصنع أجيال المستقبل والتهاون فيها تهاون في الثروة البشرية للأمة، ولاسيما تاريخنا الإسلامي- لاستنهاض الأمة من كبوتها، فالتاريخ هو ذاكرة الأمة، ومخزن عبرها، ومستودع بطولاتها. فالندوي بحسه المرهف استطاع أن يقحم كل ذلك في أدب الطفل ليبث أفكارا. وذلك باختيار العناوين المناسبة؛ تشد انتباه القارئ ، فالعنوان عامل جذب للقارئ فمتى يكتب النجاح للقصة يكون اختيار العناوين أحد أهم عناصر نجاحها. فالعنوان هو المفتاح الذي يدل على ماهية القصة. والندوي بارع في استخدام العناوين بما يناسب ذلك الحدث، فيغرس فيه مبدأ إسلاميا أو رمزا أو فكرة إسلامية أو خلقا إسلاميا. نحاول أن نستعرض ذلك لنبين حسن اختياره للعناوين؛

من مثل: "مسابقة بين شقيقين"، "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب بغير الله بديلا"، "زهد أكبر حاكم في عصره"، "لا حاجة إلى ذكر اسمي "، "جواب كان السبب في إسلام مئات ألوف من الناس"، "رجال صدقوا ما عهد الله عليه".....

لقد ساعد الندوي في هذا المسير اعتماده على المصادر التراثية في التاريخ الإسلامي، وفضل اتصاله بشيخه محمد إلياس، الذي التقى به في دلهي، وكذلك بفضل طريقته في الدعوة إلى الله، وعرضه للأدلة وبسطها وسلامة ترتيبها. فالندوي كان خطيبا داعية، أو

---

[i]- يوسف القرضاوي: ركائز الفقه الدعوي عند العلامة أبي الحسن الندوي من: "الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات أعدت بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية سنة 1417هـ/ 1996م، والمنعقد في استانبول. الطبعة الأولى 1422هـ/ 2002م، دار البشير ، ومؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت- لبنان. ص: 31.

داعية خطيبا، إذ يغلب على قصصه أسلوب الخطيب الداعية وهو مما يجلي فكرة القصة الموجهة لديه.[i]

الركيزة السادسة: ترشيد الصحوة والاتجاه الوسطي

يلوح لمن اطلع على أدب الندوي للطفل غرس الوسطية في فهمه، وترشيد الصحوة وهي صحوة عقول وقلوب وعزائم. إنه ليخشى على الصحوة من نفسها أكثر من غيرها، فتتآكل من الداخل قبل أن تضرب من الخارج. أعظم ما يخشى على الصحوة : الغلو والتشدد في غير موضعه، وسوء الظن بالمسلمين إلى حد التأثيم والتضليل، بل التكفير والتفجير! صوّر لنا الندوي في موضوع :(على الخشبة) الرفق بالأولاد بل بالناس جميعا الذي علم الرسول أصحابه، وعرضه خبيب حق وهو في مآزق الموت؛ حق وهو على عتبة الفناء والهلاك ؛ عندما حُكم على خبيب بالإعدام حتما، وحمل على فخذه غلام العدو والموسى بيده، إنها لفرصة سعيدة للعدو، يذبح الغلام، ويشفي نفسه. وعرف خبيب فزعة أم الغلام فقال: أتخشين أن أقتله ؟! ما كنت لأفعل ذلك. مع أن خبيب أسيرا عند بني الحارث ، كان أسيرا عند أعدائه، وقد قُتل أبوه بالأمس وهم قتلوه غدا. فقال خيب:

" مسكينة أما عرفتِ المؤمنَ ، وما جربتِ وفاءه، وكرمه ومروءته، ما عرفتِ أن المؤمن تأبى عليه كرامته وشريعته أن يقتل الغلمان والأطفال أو أن يسطو بالشيوخ والنساء في ساحة القتال، فكيف في البيوت؟!" [ii] . أحسن الندوي عرض هذه القصة بطريقة يفهم الطفل ويدرك أن القتال له حدود وضوابط وشروط ..

---

[i]- سعد أبو الرضا: ملامح قصة الأطفال الموجهة في مجموعة" قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال لأبي الحسن الندوي" من: "الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات أعدت بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية سنة 1417ه،/ 1996م، والمنعقد في استانبول. الطبعة الأولى 1422هـ/ 2002م، دار البشير ، ومؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت- لبنان. ص: 112-113.

[ii]- أبو الحسن علي الحسني الندوي: قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، الطبعة الأولى، 1425هـ/ 2004م،

وكذلك فعل الندوي عندما كان يعرض قصة البطل المجاهد ، والمسلم الرحيم الكريم ذلك السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ويقول الندوي وهو يصفه" وكان السلطان كثير المروءة، ندي اليد ، كثير الحياء، مبسوط الوجه لمن يردُ عليه من الضيوف، وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافرا" [i].

يبين هنا موقف المسلم مع غير المسلم في معاملاته وتصرفاته. كما عرض الندوي في ذلك الكتاب أشياء يبرهن كله على وسطية الإسلام وعلى ترشيد الصحوة. ياليت شباب اليوم اغترفوا من مناهل الندوي. فهو رجل معتدل في تفكيره، وفي سلوكه وفي حياته كلها، فهو قديم جديد، وهو تراثي وعصري، وثابت ومتطور، في لين الحرير وصلابة الحديد... وهكذا يريد لجيل الصحوة أن يكون.

الركيزة السابعة: إحياء روح الجهاد في سبيل الله .هو تعبئة قوى الأمة النفسية للدفاع عن ذاتيتها ووجودها، وإيقاد شعلة الحماسة للدين في صدور الأمة، التي حاولت القوى المعادية للإسلام إخمادها، ومقاومة روح البطالة والقعود، والوهن النفسي، الذي هو حب الدنيا وكراهية الموت. يهيب الندوي بالأطفال أن يعرفوا أهمية الجهاد في سبيل الله ومكانته. أورد في أدب الطفل نماذج كثيرة لذلك. فمثلا ساق قصة شقيقين هما قتلا أبا الجهل يوم بدر. فالشقيقان هما: معاذ بن عفراء، ومعوذ بن عفراء من الأنصار. وفي موضوع الحنين إلى الشهادة؛ ذكر الندوي قصة عمير بن أبي وقاص، وعمره ست عشرة سنة الذي حزن حزنا شديدا لمنعه الرسول للمشاركة في الجهاد لحداثة سنه. بل بكى بكاء حارا ، ثم أجازه الرسول ففرح ، وخاض الغزوة التي ابتلى منها بلاء حسنا، فقد قتل شهيدا في تلك الغزوة!. وذكر الندوي تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة؛ مثل رافع بن خديج وسمرة بن جندب بعد أن روى لنا قصة اشتياقهم إلى الخوض في الغزوات، ختم الموقف بقوله: رضي الله عن رافع وسمرة ورزقنا

الناشر : دار وحي القلم بيروت – لبنان، ص: 38.

[i]– المؤلف نفسه: المرجع نفسه، ص: 60.

اتباعهم!!![i] . وفي موضوع: " من دون أحد " "ورجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؛ قصص تشرح أهداف الجهاد في سبيل الله وأغراضه، وروايات تمجد الأبطال الأوائل والشهداء المقربين، وتنفخ في هذه الروح ويهيب بالأمة أن تنتقص للذود عن حماها" وتقوم بواجب الجهاد بكل مراتبه ومستوياته حتى تكون كلمة الله هي العليا[ii].

أما الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي فهو معجزة من معجزات الإسلام الخالدة، ذلك الشجاع الذي دخل بيت المقدس، حيث عادت هذه القبلة الأولى إلى حضانة الإسلام. وكان من تقدير العزيز العليم أن السلطان دخل بيت المقدس في نفس التاريخ – أي شهر رجب- الذي أكرم الله فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالمعراج [iii]. لقد تحققت هذه العودة المرجوة المتوقعة بفضل الجهاد في سبيل الله.

خاتمة:

اعتنى الندوي بالطفولة، والكتابة للأطفال والناشئين بوصفهم رجال الغد، وصنّاع تاريخ الأمم، بل قدّم لطفلنا المسلم تراثا تاريخيا خالدا أعادت بريقه، ولمعت جوانبه. فأولى اهتماما بالغا بجانب تربية الأطفال؛ لأنها هي التي تصنع أجيال المستقبل، والتهاون فيها تهاون في الثروة البشرية للأمة. بعد جولة عميقة مع كتاب " قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال" في هذه الدراسة توصلنا إلى النتائج التالية:

1- أن الغيرة على إنقاذ أطفال المسملين من الزلات والمآزق وما يحتاجون إليه من وعي تام من الدوافع الأساسة لتاليف هذا الكتاب. وكذلك الرغبة الطامحة في استطلاع لعقلهم على الواقع الإسلامي قديما وحديثا.

---

[i]_ المؤلف نفسه: المرجع نفسه، ص: 21 و24.

[ii]_ المؤلف نفسه: المرجع نفسه، ص: 32و71.

[iii]_ المؤلف نفسه: المرجه نفسه، ص: 59.

2- أن الكتاب قد سدّ الثغرات الفاضية التي تفسح المجال الواسع للقراءة من حكايات السنانير والكلاب والأسد وغيرها من قصص الحيوانات والأساطير والخرافات.

3- أن الندوي اعتمد أساسا في تأليفه لأدب الأطفال على المصادر التراثية في التاريخ الإسلامي بأسلوب يناسب أعمار الأطفال وأذواقهم واتجاهاتهم.

4- أنه قد وُفق الندوي في مراعاة موصفات أدب الأطفال من متانة الجمل وترابطها، وبعده عن الخيال الوهمي. كما أحسن كذلك اختيار الألفاظ والمفردات مما يساعد الطلاب على اكتساب المهارات اللغوية المختلفة والأوجه البلاغية المتنوعة حتى تضمينه للأساليب القرآنية والتعابير الاصطلاحية.

5- أنه قد اتسم الكتاب بأفكار تُوثّق الصلة بالقرآن الكريم استشهادا وتضمينا وكذلك تُوثّق الصلة بالسنة والسيرة النبوية بيانا وتطبيقا.

6- أنه ركّز الندوي على مميزات أدب الأطفال التي رآها علماء النفس والتربية، من مراعاة للأطوار الواقعية ، وأطورا الخيال ، وأطوار العاطفة والغرام، وأطوار المثل العليا التي تروق للأذن وللعين.

7- أن الندوي قدّم التربية الإسلامية الصحيحة للأطفال، وقام بترشيد الصحوة حيث نبذ وراءه الغلو والتشدد في غير محله الذي يجرّ بين المسلم وأخيه إلى حدّ التأثيم والتضليل، والتكفير والتفجير. وبيّن أهمية الجهاد، بل حبّبه في قلوب الناشئين بمثال ؛ تنافس الغلمان في الجهاد والشهادة في غزوة بدر.

8- الكتاب جليس الطفل وصديقه، يغذي عقله، وينمي مداركه، ويصقل موهبته. وأدب الأطفال لدى الندوي أدب إسلامي بعكس الكثير من الذين ألّفوا في هذا الأدب لما يحتوي هذا الكتاب من توجيهات دقيقة، وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها، ومواقفها.

يقترح على الأدباء والمؤلفين الانكباب والاهتمام بهذا الجانب للتغلب على الندرة والقلة اللتين يعاني منهما أدب الأطفال.

جزى الله أبا الحسن الندوي خير الجزاء على ما بذله من الجهود الجبارة في جميع الميادين التي تخدم الدين ؛ وبصفة خاصة تربية الأطفال والناشئين . وكثّر الله من أمثاله. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم.

المراجع والمصادر

1- أبو الحسن علي الحسني الندوي: قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال، الطبعة الأولى، 1425هـ/ 2004م، الناشر : دار وحي القلم بيروت – لبنان.

2- سعد أبو الرضا: ملامح قصة الأطفال الموجهة في مجموعة" قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال لأبي الحسن الندوي" من: "الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات أعدت بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية سنة 1417ه/ 1996م، والمنعقد في استانبول. الطبعة الأولى 1422هـ/ 2002م، دار البشير ، ومؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت– لبنان.

3- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني :البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى، 1416ه-1996م.

4- i- عبدالقدوس أبو صالح وأحمد توفيق كليب: علم البيان، الطبعة الخامسة، 1414هـ.

5- محمد رجب البيومي: أبو الحسن الندوي سيرة ذاتية منقولا من "ملامح قصة الأطفال الموجهة... للدكتور سعد أبو الرضا.54-

6- وفاء كامل فايد: معجم التعابير الاصطلاحية المعاصرة، ط1، 2007م.

7- يوسف القرضاوي: ركائز الفقه الدعوي عند العلامة أبي الحسن الندوي من: "الشيخ أبو الحسن الندوي: بحوث ودراسات أعدت بمناسبة تكريمه في المؤتمر الرابع للهيئة العامة لرابطة الأدب الإسلامي العالمية سنة 1417ه/ 1996م، والمنعقد في استانبول. الطبعة الأولى 1422هـ/ 2002م، دار البشير ، ومؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت– لبنان.

8- www.ar.wikipedia.org,children_books_Tunisia.dpg

نماذج من ثمار الندوي في عالمية الأدب والفكر

نظرات في شعر جابر قميحة وحسن الأمراني، شموخ الاعتذار

أ. د. حامد صادق قنيبي
كلية الآداب/ جامعة الإسراء الأردن

مقدمة

أبو الحسن الندوي (1333هـ -1421هـ)،1914-1999م ظاهرة متميزة في أفق حياة الأمة المسلمة في القرن العشرين الميلادي، وربما ممن كان يصدق عليهم القول المأثور{أنَ الله يبعثُ لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة مَنْ يجدد لها دينها} [أخرجه أبو داود في السنن زقم 4291] وقال ابن الاثير: (لا يلزم منه أن يكون أراد بالمبعوث : الفقهاء -خاصة كما ذهب إليه بعض العلماء — فإنَ انتفاع الأمة بغيرهم أيضاً كثير : مثل أولو الأمر، والمعلمون، وعلماء العمران وأرباب التجارة والصناعة والزراعة... وأمثالهم ... كالعزَ بن عبدالسلام(ت660هـ)- وجلال الدين السيوطي (ت 911هـ) ،و ابن كمال باشا أوغلو ([i])(ت 940 هـ) قال عنه من عايشه([ii]): {لقد كان الشيخ الندوي أمة في رجل، وكان كما قال لي عنه الفقيه الكبير الأستاذ مصطفى الزرقا: (إنه قطعة من السلف الصالح أراد الله لها أن تعيش في عصرنا الحاضر). وقال عنه العالم المحقق الشيخ عبدالفتاح أبو غدة(إنه بركة العصر)}.

ويكاد يجمع الذين عايشوا الرجل والدارسون لآثاره و مآثره ولدوره الريادي في ما تركه من اتجاهات في الفكر المعاصر والأدب حتى صَح أن يقال عنه أنه واحد

قام الباحث بإنجاز عدد من الدراسات المحكمة عن العالمين السيوطي وابن كمال باشا وآثارهما في علوم اللغة والدراسات الأدبية والقرآنية.

سماحة الاستاذ الدكتور عبدالقدوس أبوصالح الأمين العام لرابطة العالم الاسلامي.(2)

من هؤلاء الذين اجتمعت فيه قدرات كثيرة متنوعة، فكرية وأدبية ودعوية، أعطى من خلالها لأكثر من نصف قرن في ميادين الدعوة والفكر والأدب الإسلامي. وسوف أُشير باختصار في الفقرات التالية لعطائه في ميدان واحد منها هو ميدان الأدب، و الأدب الإسلامي:دراسة تطبيقية تنظيرية من خلال دراسة مريدين (من تلاميذه و مدرسته في رابطة الأدب الاسلامي)

حظي الشيخ حسن الندوي بفيض من مشاعر الولاء والاحترام على شتى المستويات الأهلية والرسمية والأكاديمية محلياً وقطرياً وعالمياً لما جمع من الصفات والشمائل والاعتدال والوسطية، وصدق من ذكر بعض مناقبه عند رثائه، إذ قال الدكتور عدنان رضا النحوي :

أبا الحسن الندوي! ذكرك روضةٌ ... يموج بها الزهر النديُ ويُورِقُ
رَحلتَ عن الدنيا وكم كنت زاهداً ... وشوقك للرحمن أوفى وأوثَقُ
وحَولك من أبنائِكَ الغرِّ ثُلة ... وممن نأى القلب يَحنُ ويُشفقُ
وودٌ مع الأيام تنمو غراسُه ... حناناً يُناجي المتقين ويَخفقُ
مصانع والأجيال منها تواثبت ... تظلُ على ساحاتها تتدفق
أبا الحَسن النَدويَ كم من مآثرٍ ... بنيتَ وعلم في الصحائف يُشرقُ
وأين مصابيح الهُدى في دُجنةٍ ... عهدناهم نوراً بها يتألقُ
فأين تُرى (الزرقاءُ) عالم أمةٍ ... وأيْن (عليٌّ) في الميادين فيْلقُ
وهذا (الأمراني) حافظ سنَة ... غنيٌ بها يَجلو الهُدى ويُحَقِقُ

وقال فيه (شريف قاسم) :

ألا فلتبك رابطةٌ رئيساً ... بهمته يقود النابغينا
أقام لنهجها أدبا مُصفى ... لوجدان الشعوب غدا كنينا
ويحمل فكرها هديا وعلماً ... لكل الخلق منهاجاً رصينا
وفي أدب العقيدة سفر هدي ... ودعوة شرعةٍ للعالمينا

وسنقتصر في بحثنا على استعراض الأثر الأدبي واللغوي في تراث الشيخ حسن الندوي وتأثير ذلك في جيل أدباء المرحلة، وسنعمد إلى الدخول إلى هذا الحقل بدراسة عَلَميْن من تلاميذه؛ أزعم أنه أثرَ فيهما، وتأثرا به. هذا من جانب، ومن جانب آخر أنني (أنا الباحث) قد عايشت أحدهما وكنتُ على مسافة قريبة من الآخر. وأنني سأحاول تقديم رؤية عن دور الشيخ حسن الندوي في نظرية الأدب الإسلامي و انعكاسها على الحركة الشعرية الملتزمة، فأقول :

سأتخذ مما ترمز إليه(سفينة مرمرة) إحدى سفن تركيا الحربية التي شكّلت مع ست سفنٍ أخرى ما أطلق عليه بأسطول الحرية إذا انطلق الأسطول من مضيق بحر مرمرة حيث مرقد أبي أيوب الأنصاري الصحابي الجليل رمزاً لاستدعاء ذكريات أمجادٍ مسلمة رغم انكسارها التالية لرفع الحصار الظالم عن أبناء غزة هاشم الذين يعانون الحصار بأبشع صوره، ويستصرخون الضمائر: حدث ذلك في فجر يوم 31 من أيار عام2010 إذ انطلق أسطول الحرية لكسر الحصار عن أرض فلسطين ولكن التعنت الإسرائيلي تصدى للمجاهدين فقتل 19 منهم 11 من أحفاد أبي أيوب الأنصاري الأتراك .فاتخذت ذلك مرتكزاً لبدْء كتابة هذا البحث استدعاءً لكل ما تتقاطع به وقائع الأحداث من مواقف وذكرياتٍ وأزمانٍ من خلال قصيدتين ل(جابر قميحة) و (حسن الأمراني) . و عنوان قصيدة الشاعر الأول {حديث عصري لأبي أيوب الأنصاري}، و قصيدة الثاني بعنوان{ إعتذار إلى أبي أيوب الأنصاري} أقول :

- مادة هذا البحث تنطلق من قراءات استقرائية في شعر جابر قميحة([أ])وحسن الأمراني([أ]) مع قراءة تحليلية نقدية بين قصيدتين متحدتين في بؤرةٍ محورية واحدة

([أ]) جابر قميحة: أستاذ جامعي مصري،وعمل في العديد من البلاد العربية والأجنبية، عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية والعديد من الاتحادات العلمية، له أكثر من عشرين كتابا مطبوعا منها : أدب الخلفاء الراشدين، صوت الإسلام في شعر حافظ إبراهيم، التراث الإنساني في شعر أمل دنقل، الأدب الحديث بين عدالة الموضوعية وجناية التطرف. وله

- وفكرة القصيدتين بعامة استدعاء لما يزمر إليه حضور أبي أيوب الأنصاري للمشهد رمزًا للاستشهاد والجهاد و التأسي. وكذلك اعتذار إلى مدينة (استنبول) عاصمة الخلافة العثمانية رمزًا لمجدها وتذكيرًا بأسباب سقوطها وزوالها.
- واستدعاء رُمُوز المكان والزمان والنَّاس، استلزم تداعيات فكريّة غير مباشرة انطلقت من النَّص ووعي صاحبه، وإدراك الملامح الرَّمزيّة والصُّوفيّة الخفيَّة لإشارات النصّ، مما اقتضى إعادة إنتاجه ووضعه في آفاقه الفكريّة والإبداعيّة.
- ليس بدعا أن تُختار قصيدة ما لتكون محورا لدراسات موضوعية سواء في الأدب العربي أو الآداب العالمية؛ من نحو قصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير، و(السيف أصدق أنباء من الكتب...) لأبي تمام و(الكوليرا) لنازك الملائكة، و(الفدائي) لإبراهيم طوقان، و(المطر) لبدر شاكر السياب، و(البكاء بين يدي زرقاء اليمامة) لأمل دنقل،و(في القدس) لتميم البرغوثي و(الأرض اليباب) للشاعر الإنجليزي إليوت...وغيرها كثير.
- تهدف هذه الدراسة لبيان موقف الشاعرين من قضية استئناف الحياة الإسلامية بعد سقوط الخلافة

العديد من الدواوين الشعرية؛ منها: الزحف المدنس، لجهاد الأفغان أغني، لله والحق وفلسطين، وافته المنية في القاهرة 2012/11/8 عن عمر ناهز 78 عاماً.

([1])ولد في مدينة وجدة (المغرب) عام 1949م. وكانت دراسته الأولية والثانوية في وجدة. درس اللغة العربية في كلية الآداب في مدينة فاس، وتخرج فيها عام 1971م. نال درجة الدكتوراه على أطروحته: المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين، وعمل في التعليم الثانوي منذ عام 1972-1979م. عمل أستاذاً مساعداً في كلية الآداب بوجدة عام 1979م. وهو عضو في عدد من الروابط والاتحادات الأدبية، وعضو مجلس أمناء رابطة الأدب الإسلامي العالمية منذ 1986م، ومؤسس مجلة (المشكاة) ورئيس تحريرها، وهي مجلة الأدب الإسلامي في المغرب. وله جملة من المؤلفات والدراسات الأدبية منها (سيمياء الأدب الإسلامي) ومن أعماله الشعرية: (مزامير) و(البريد يصل غداً) و(جسر على نهر درينا) و(ثلاثية الغيب و الشهادة) و (أشجان النيل الأزرق) و (سآتيك بالسيف و الأقحوان) و (المجد للأطفال و الحجارة) و (كاملية الإسراء) و.(يا طائر الحرمين) و (شرق القدس غرب يافا) و (الزمان الجديد) و غيرها. انظر القصيدة في ديوان الشاعر (ثلاثية الغيب و الشهادة) و جدة: منشورات المشكاة،1989،ص 69-76،و الملاحظ هنا أن القصيدة بقيت في درج الشاعر ثلاث سنوات إذ أنشأها عام 1986 دون أن يعدل موقفه،و يوجهها في ضوء المعادل التاريخي لأحداث المنطقة التاريخية،و يارالها الفكرية ، و هذه مسألة فيها نظر تكشف عنه الدراسة إن شاء الله.

العثمانية1924.

كما تهدف دراستنا إلى بيان الصِّلة بين المضمون الفكري والإبداع الأدبي للشعر، وهو ما يعرف في الدِّراسات النَّقديَّة بالموقف والتَّشكيل الشّعري.

- لن يكون عملنا مقتصرا على القصيدتين ، وإنما سيكون تناولنا عند طرح الموضوع ذا اتجاهين عمودي وأفقي، حسب ما تقتضيه متطلبات الدرس، وسنستحضر جملة من نصوص وآراء وموازنات نقدية متعارف عليها في رصيد تجربة الأدب الإسلامي ونقده، للكشف عن الصِّلة بين النصوص الشّعرية وأفكار أصحابها.
- سنعمد أحيانا إلى مضاهاة قصيدة الأَمرانِيّ بقصيدة الشَّاعر جابر قميحة) المسماة (حديث عصري لأبي أيوب الأنصاريّ)، وهي من قصائد ديوان يحمل عنوان القصيدة نفسها، نشرته (الرابطة سنة 1997 ومطلعها:

[يا أبا أيوب والإسلام قربـــــى وانتســـــاب

قد أتيناك ففي اللقيا اغتنـــام واكتســـــــاب]

وقد ألقاها الشاعر قميحة يوم 1993/8/25 في مؤتمر رابطة الأدب الإسلامي العالمية المنعقد في استانبول.

- ونطمح في دراستنا أن نساعد في تقديم رؤية تسهم في تحديد معالم نظرية الأدب الإسلامي، ودور الأديب الإسلامي في ريادته، إذ يلتقي المضمون الفكري بالإبداع الشعري (الأدبي)، ونزعم أن الدراسة من الأهمية بمكان؛ إذ نمارس من خلالها النقد الذاتي لنموذج من نماذج الأدب الإسلامي، وأوْجُهٍ من الأنشطة الفردية والمؤسسية لأدباء رابطة الأدب الإسلامي العالمية، في إطار رؤية محددة المعالم لمسألة الالتزام؛ مضمونا فكريا وشكلا إبداعيا.
- يُعد أبو الحسن الندوي عميد الأدب الاسلامي،وهو المؤسس والأمين العام الأول لرابطة الأدب الاسلامي العالمية التي تأسست عام 1405 هـ/1984 م ، يقول الدكتور عبدالقدوس أبو صالح (الأمين الحالي للرابطة 2013) في مقاله المعنوَن (الشيخ ابو الحسن الندوي كما عرفته) الذي نشر في مجلة الرابطة

[الأدب الاسلامي: عدد خاص عن الشيخ رقم 26 سنة 1421 هـ — أن ما أُثِرَ عن الشيخ قوله حين قَبِل رئاسة الرابطة"أن العالم اليوم تحكمه الكلمة و يحكمه القلم".. وعلل دواعي قبول الشيخ لرئاسة الرابطة كما عُرف عنه "من بصيرة نافذة، ووعي وحكمة بالغين، وإدراك لدور الأدب في وجدان الأمة، وترشيد مسارها، وإنارة طريقها في العود الحميد إلى الإسلام الذي هو مسوّغ وجودها، وحصنها المنيع"].

وقد نصّت المادة الأولى من النظام الأساسي لرابطة الأدب الاسلامي العالمية على ما يلي : (رابطة الأدب الإسلامي العالمية هيئة أدبية عالمية، تضم الأدباء المنتسبين إليها، وتلتزم بالابتعاد عن الصراعات السياسية والحزبية).

ولكن يظهر أن الأدباء الإسلاميين وإن لم يتفقوا بعد على تعريف جامع للأدب الإسلامي ومفهومه ، فقد تقاربت الاجتهادات فيما ظهر من تعريفاتهم حتى الآن(i)غير أن (رابطة الأدب الإسلامي العالمية) أصدرت عام 1409هـ كتابا(ii) احتوى مختارات ونماذج شعرية حقيقية حديثة ـــ كما جاء على لسان رئيس الرابطة ـــ بيّـن في مقدمته موضوع الأدب الإسلامي وأهدافه، فقال:"...موضوعه الحياة والإنسان وواقع الحياة المرير في العالم الإسلامي، إنه قصة البؤساء الذين يكافحون لشرفهم، وبيانٌ للظلم الذي

(5) يقول محمد قطب : "هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصوير الإسلامي لهذا الوجود" [منهج الفن الإسلامي، بيروت: دار الشروق، 1401هـ ، ص6]. وقال عبد الرحمن رأفت الباشا: "هو التعبير الفني الهادف عن واقع الحياة والكون والإنسان على وجدان الأديب تعبيرا ينبع من التصور الإسلامي" [نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، الرياض: مجلة كلية اللغة العربية ع11، جامعة الإمام بن سعود، ص 78]، وقال عماد الدين خليل:" هو تعبير جمالي مؤثر بالكلمة عن التصور الإسلامي للوجود"[ماهية الأدب الإسلامي، الرياض: مجلة الفيصل ع78، 1403هـ ، ص40]. وقال صالح آدم بيلو:"هو اللون الذي يحمل عاطفة أو نزعة إسلامية ويدل على مفهوم فكري أو إسلامي أو يدعو إليه" [من قضايا الأدب الإسلامي، جدة:دار المنارة ، ط 1، 1405هـ ، ص 78]. وقال عدنان النحوي:"الأدب في الإسلام مترابط أحكم الترابط مع الإيمان والتوحيد والعلم بمنهاج الله والممارسة الإيمانية في الحياة". [تجربتي الشعرية وامتدادها، الرياض:دار النحوي، الرياض:ط1، 2006، ص153].أما حسن الأمراني فيرى أن مفهوم الأدب الإسلامي مر بمراحل أربع هي : أدب فترة، وأدب طفرة، وأدب فكرة، وأدب فطرة. ومفهوم أدب الفطرة هو الأدب الإسلامي إذ هو التعبير عن القيم الإنسانية. انظر: [سيمياء الأدب الإسلامي، المصطلح والدلالة، وجدة : مؤسسة الندوي ومجلة المشكاة، ط1، 2005، ص 110 وما بعدها] .

(6) هو كتاب (من الشعر الإسلامي الحديث)، عمان: دار البشير ، 1409هـ ، ط1، ص10.

يكابدونه، والجفاء الذي يلاقونه من أصدقائهم، إنه ليس بشعر الخيال السابح والحنان إلى الوطن المحدود والتعبير عن ألم طائفة محدودة، أو بيان هواجس القلب الطامح، وهوى النفس، إنه شعر العاطفة الصادقة، والرسالة السامية، فيها الصدق والأمانة وقوة التعبير التي يوجدها الشوق والخوف والرهبة والرغبة والإيمان واليقين والاعتزاز والإباء".

ووظيفة الأدب في البناء والإصلاح، ويركز على التربية الذوقية التي يقدمها الأدب الإسلامي، وأثرها الإيجابي الكبير في بناء شخصية المسلم، وصلتها الوثيقة بالبلاغة القرآنية والبيان النبوي، وهذه القضايا محاور أساسية في الأدب الإسلامي.

وأحدث ما صدر في هذا المجال كتاب (معجم مصطلحات الأدب الإسلامي) صنعه محمد بن عبد العزيز بنعزوز سنة 1427هـ/2006م، وصدر في الرياض عن دار عدنان النحوي، جاء فيه بعد الاستقصاء والتنسيق والجمع أن الأدب الإسلامي هو:"التعبير الفني المؤثر عن الإنسان والحياة والكون من منظور إسلامي، ولا بد فيه من شروط أربعة :

1. الانطلاق من المنظور الإسلامي للإنسان والحياة والكون،
2. التعبير الفني المؤثر،
3. الأديب المسلم،
4. الهدف والغاية، "...والأدب الإسلامي يرفض لغة النقد التي يشوبها الغموض، وتفشو فيها المصطلحات الدخيلة والرموز المشبوهة، ويدعو إلى نقد واضح بناء.([i])

وفي دراستنا يتم استحضار جملة من آراء وموازنات نقدية متعارف عليها في رصيد تجربة الأدب الإسلامي والنقد.. وغيرها مما يشكل تقاطعا مع بحثنا. ومن كتابات الندوي المهمة في هذا الباب كتابه(نظرات في الأدب) وهو كتاب نقدي و دراسة تنظرية لمفهومات أدبية كبرى، يقرر مقاييس أساسية لمفهوم العمل الأدبي، ويؤصل قواعد للأدب الإسلامي، ويبين طبيعته، وعناصره المميزة له عن الآداب الأخرى، ويحدد وظائفه وأهدافه، والقيم

---

[i] 7يقع المعجم في 216 صفحة، وهو مرتب ترتيبا نطقيــًا حسب المواد المجردة، انظر ص 16و 17، في تعريف الأدب الإسلامي. وبنعزوز، محمد من أعضاء الرابطة المغاربيين.

المضمونية والشكلية فيه، وهذه هي الموضوعات الرئيسية التي يتجادل فيها دعاة الأدب الإسلامي وخصومه وهي التي تفصل في وجوده وغيبته.

لم يعرض الشيخ الندوي موضوعاته تلك في عناوين مباشرة كالتي ذكرها، لكنه قدمها ضمن نصوص واضحة صريحة، يستخرج منها القارئ تلك العناوين فمثلاً يتحدث عن الأدب فيبين له مفهوماً متميزاً نستشف منه آفاق تصوره له، يقول: ص35: "الأدب في أوسع معانيه تعبير عن الحياة وعن الشعور والوجدان في أسلوب مفهوم ومؤثر" ويرفض أن يكون النص الأدبي مقصوراً على ما يقدمه المحترفون ومن اشتهر بصنعة الأدب، ويلفت الأنظار إلى ما يسميه (الأدب الطبيعي) حيث النص الذي أبدعه صاحبه في سياق موضوعات تاريخية أو إخبارية أو في الترجمة الذاتية والغيرية..إلخ. وسكب فيه تجربته الوجدانية ومشاعره الصادقة، ويستشهد على ذلك بنصوص من الحديث الشريف والتاريخ والتراجم، كحديث السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها عن حادثة الإفك، وحديث كعب بن مالك عن تخلفه مع صاحبيه عن غزوة تبوك، ومعاناته إلى أن نزلت آيات التوبة عنهم، وبيَّن أن في هذه النصوص من القيم الأدبية الفنية والشعورية ما يفوق بكثير ما تتضمنه كثير من القصائد والكتابات الأدبية الأخرى، ولاشك أن هذه الرؤية الواسعة للعمل الأدبي تربطه بعنصريه الأساسيين: التجربة الصادقة والفنية العالية.

ويعرض في سياق تصويري وظيفة الأدب فيقول ص105: (إني أتصور كائناً الأدب حياً له قلب حنون وله ضمير واع، وله نفس مرهفة الحس، له عقيدة جازمة، وله هدف معين، يتألم بما يسبب الألم، ويفرح بما يثير السرور، فإذا لم يكن الأدب كذلك فإنه أدب خشيب جامد، أدب ميت جامد، أشبه بالحركات البهلوانية والرياضات الجمبازية.. إن الأدب من أكبر الوسائل للوصول إلى الأهداف النبيلة..) ويستشهد بأبيات للشاعر محمد إقبال ترجمها من الفارسية يقول فيها: (لا بارك الله في نسيم السحر إذا لم تستفد منه الحديقة إلا الخمول والذبول، إن غاية الإحسان في فن من الفنون لوعة الحياة الدائمة، ولا خير في نثر وشعر إذا تجرد من تأثير عصا موسى..).

وإن صح أن يقال إن الشاعر حين كان ينشئ قصيدته في التجربة الأولى، إنما كان يخضع لتأثير حالة انفعالية خاصة ملكت عليه لبابه، فإن هذه الحالة التي تلبسته حينا لن تظل ملازمة له دوما؛ فالشاعر قد يرضى اليوم ويسخط غدا، وقد يستخفه الفرح فيتغنى، ثم يتملكه الحزن فتنساب دموعه أسى ورثاء، وقد تبكي قوافيه أيام الوصل وعهد الصبا والشباب، ويشتاق للوطن فيغلبه الحنين، ويتألم لهموم الحياة وضيق العيش فتضج الشكوى في شعره، فهو يتقلب بين أحوال الحياة وشؤونها، لذلك قيل إن الشاعر بلا ذاكرة. وإننا لا نستغرب إذ يعجز شاعر أن يستعيد عن ظهر قلب شعرا له قاله في مناسبة تجاوزها الزمن. وهذا أمر قد يتساوى فيه معظم الشعراء. ولكن الأديب الإسلامي يجب أن يحذر هذه المزالق، لأنه رجل موقف، وصاحب قضية، وهو ملتزم بالقيم الإسلامية، وتنعدم في أعماله التجاوزات العقدية، ويتبنى رسالة دعوية يساهم في تحقيقها في إطار التجربة الشعورية والتعبير الموحي.

وإن هذا الالتزام يتطلب منه أن يعلم أن ما يقوله اليوم تتناوله الأجيال غدا، وله سيرورة ممتدة تحسب له أو عليه، وليس على المتلقي أن يستحضر المناسبة التي أنشِئَ فيها النص ليبرر مقولة الشاعر*، إن "الأديب الإسلامي مؤتمن على فكر الأمة ومشاعرها، ولا يستطيع أن ينهض بهذه الأمانة إلا إذا كان تصوره صحيحا ومعارفه الدينية كافية"(i)، وليس من أغراض شعره أن يحدث الطرب بإيقاع النغم الموسيقي المحفّـــــز للتصفيق(فقط)، أو المثير للانفعال (العصبي). ولكني أرى أن الشعر الإسلامي يجب أن يحدث النشوة التأملية الهادئة التي تدعو المتلقي إلى أن يكون أكثر اتصالا بالخالق والكون والحياة، وأن " ميدانه كله ـــ مشهده وغيبه ـــ، الحياة الإنسانية كلها، إنه أدب الحق واليقين، لا أدب الظن والوهم، ولا أدب الخرافة والأساطير"(ii). وأراني مسوقا إلى دراسة

* ليس مطلوبا من المتلقي أن يعتذر عن قول شاعر؛ فمثلا لا يطلب منا في كل مرة أن تعتذر عن أمير الشعراء أحمد شوقي في قوله: رمضان ولى هاتها يا ساقي = مشتاقة تسعى إلى مشتاق.

(i) رابطة الأدب الإسلامي العالمية، النظام الأساسي، الرياض: ط2، 1991، المادة السادسة، ص 21.

(ii) النحوي، تجربتي الشعرية، ص 152.

قميحة الأمراني وفق هذا التصور، وتقييمهما بما "يواكب مسيرته، ويضبط خطاه ، ويعلي شأنه"، كما يوصي النظام الأساسي للرابطة(i). وقبل أن نعرض للنصوص المنوي تحليلها ومعارضتها على النصوص الأخرى، نلفت إلى الآتي:

إن كلا الشاعرين جابر قميحة، وحسن الأمراني كانا على صلة روحية ومادية مع سماحة الشيخ حسن الندوي ؛ فلقد ضمتهم اللقاءات أكثر من مرة، وفي أكثر من مكان و مناسبة كما يبدو .

بقي أن نتساءل عن موقف الشيخ من الأدب والنقد:

أكان الشيخ ناقداً؟ و ما أبعاد ميادين نقده؟

هل قدم نظرية نقدية متكاملة؟ و هل استطاع أن يقدم تطبيقات عليها؟

ما المعايير النقدية التي اعتمدها؟ و ما خصائصها؟

و نقرر أولاً أن صورة الشيخ المبدع نستطيع التوصل إليها من خلال كتب الاختيارات فضلاً عن قصص النبيين التي ألفها للأطفال ([ii]). و من ميادين الإبداع إسهامه في فنون النثر الأخرى، مثل أدب الرحلات، و السيرة الذاتية، و أدب التراجم، و أدب التقديمات.

و لا يقع اهتمامنا في حديثنا في هذه الفقرة بجوانب الأديب المبدع عند الشيخ الندوي، و لكن لا بأس من أن نؤصل أولية شيخنا في مجال التنظير للأدب، فهو تاريخياً أول من تقدم بفكرة الأدب الإسلامي و أول من تبنّى الدعوة إليه في العصر الحديث، و كان هذا في مطلع حياته حين بلغ السادسة و العشرين حيث ألف كتاب (مختارات من أدب العرب) سنة 1940.

ثم جاء سيد قطب في مقالاته المنشورة سنة 1952، ثم جمعها في كتابه (في التاريخ..فكرة و منهاج).

و جاء شقيقه محمد قطب في كتابه (منهج الفن الإسلامي) سنة 1961.

و بعده نجيب الكيلاني في كتابه (الإسلامية و المذاهب الأدبية)، سنة 1963.

(i) النظام الأساسي لرابطة الأدب الإسلامي، مرجع سابق، المادة التاسعة ، ص 21.

([1])من كتبه التي ضمنت آراءه الأدبية :"شخصيات وكتب" و "الطريق إلى المدينة" و"من روائع إقبال".

ثم عماد الدين خليل في (النقد الإسلامي المعاصر) سنة 1963. [جهود الشيخ أبي الحسن الندوي ص46-47]

لقد واكب الشيخ حركة الأدب الإسلامي على المستويين الفردي و الجماعي؛:، الفردي من خلال مؤلفاته وكتاباته، و الجماعي من خلال إقامته أول مؤتمر للأدب الإسلامي عام 1401 هـ - 1981م و ذلك في ندوة العلماء بمدينة لكنهؤ، و قد انتخب رئيساً للرابطة مدى الحياة.

ليس بين أيدينا كتاب نقدي خالص، له، و لعلّ أبرز آرائه النقدية جاءت مبثوثة في كتابه (نظرات في الأدب) و تأتي آراؤه الأخرى في دراساته الأدبية، و مع ذلك، فإن النظرية النقدية جاءت ذات معالم واضحة نستطيع أن نسجلها.

و يرى بن عيسى باطاهر أن الندوي كانت له نظرات نقدية جديدة في الأدب، فتحت أبواباً أمام الدارسين، و لفتت أنظارهم إلى الكثير من القضايا و المقاييس و القواعد في الأدب الإسلامي و نقده.([i])، و سنتناول هذا الجانب من خلال دراستنا الموسّعة على امتداد فقرات البحث الذي نحن بصدد المساهمة فيه لهذا المؤتمر العالمي عن (موقف الشيخ حسن الندوي من الأفكار المعاصرة: (دراسة مقارنة).

و نبادر إلى تسجيل الشكر للهيئات المنظمة للمؤتمر في (الهند)، و الشكر مكررٌ و مؤكدٌ لجامعة الاسراء لرعايتها لهذا البحث، و دعمها إيّاه، وتهيئة الأجواء العلمية رفيعة المستوى لدعم البحوث الأكاديمية عامةً.

(12)الأدب الإسلامي ونقده عند الشيخ أبي الحسن الندوي،ص88، مجلة إسلامية المعرفة، العدد 12 السنة 1998

قال جابر قميحة: حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاري([1])

يــا أبــا أيــوبَ والإســلامُ قُــرْبــى وانْتســابُ
قــد أتــيــنــاك فــفــي الـلُّقيا اغتنامٌ واكتســابُ
نــتــمــلّــى أرض مــجدٍ يزدهي فيهــا الخطــابُ
يــا كــريمًا ضافَ خيرَ الرُّسْل، كم طِبْــتَ وطــابوا
نــاخــت القصواءُ في رحبــك يــا نِعْــمَ الرحــابُ
قــد قــصــدنــاك ضــيوفًا ولنــا فــيكمْ رِغــابُ
نــيِّــراتُ الــقــصْــد لا مــنها طعــامٌ أو شــرابُ
أو هــوى لــيــلــى ولــبنى، أو ســعادٌ أو رَبــابُ
إنــمــا جــئــنــاك تــحــدُونا بطولاتٌ عُجــابُ
ذكــريــاتٌ فــي فــمُ الــدنيا هي المسْــكُ المــذَابُ
حين كنــتم بلْســمًا في الســلم صَــفْوًا لا يُشــاب
ولــكــم فــي ســاحــة الــنــور بــنودٌ وقبــابُ
وقــلــوبٌ مــلْــؤهــا الــرحمةُ والحبُّ اللبابُ 13

***

فـــإذا مـــا ظُـــلـــمَ البُرْهـــانُ أو غِيـــلَ الصـــوابُ
هِـــجْـــتُـــمُ الـــهَـــولَ، فَـــلِـــلْـــهولِ زفـــيرٌ ولُهـــابُ
وإذا أنـــتـــم – حُـــمـــاةَ الـــحـــقِّ- آســـادٌ غضـــابُ

([1]) ظلّ أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه يجاهد في سبيل الله إلى أن دفن في استانبول (70 هـ) وقد أُلقيت هذه القصيدة يوم 1993/8/25 في مؤتمر رابطة الأدب الاسلامي العالمية المنعقدة في استانبول.

رفـرفــــتْ مـــن فـــوقهمْ في ســاحةِ الهـــول العُقَـــاب

وخـيـــــولُ الله تـــــمضِي، فهْـــيَ في الســـاحِ الجَـــوابُ

مـــثـــلما السـيلُ، لهـــا في الحَـــزْن والســـهْل انصـــبابُ

ولـــهـــا فـــي ســـاحـــة الـنـــصر ذهـــاب وإيـــابُ

وضُـــبـــاحٌ وصـــهـــيـــلٌ، وصـــلـــيلٌ وضِـــرابُ

وحِـــرابٌ ســـاعـــرات، فَـــلْـتَـــقُولي يـــا حِـــرابُ

وســـيـــوفٌ، وحـــتـــوفٌ، وزحـــوفٌ، لا انســـحابُ

وهـــتـــافُ الـــعـــزة الـقَـــعْساءِ يحْدُوه الســـحابُ

والـــمـــنـــايـــا- لا الـــدنايا- هـــي للصـــحب الطِّـــلابُ

خـــالـــدٌ فـــيـــهـــم، وســـعـــدٌ، والمـــثنى والحُبَـــابُ

مِـــنْ دمـــاهمْ في نواصـــي الخيـــل عطـــرٌ وخِضـــابُ

لـــم يـــكـــونـــوا كجيـــوش قطعـــوا الأرضَ وجـــابوا

مـــا هُـــمُـــو إلا شُـــمُـــوسٌ زاحفـــاتٌ أو هِضـــابُ

لـــيـــس يـــثـــنـــيهمْ عـــن الزحـــفِ جبـــالٌ أو عُبـــابُ

فـــهُـــمُـــو لـــلـــمـــوت هَـــبُّوا، ونِـــدا الله أجـــابُوا

يـــوم دكُّـــوا الـــفـــرسَ والـــرومَ ومـــا هـــانُوا وهـــابوا

فـــإذا الأعـــداءُ - مـــن رُعْـــبٍ هبـــاءٌ أو ســـراب

إنـــه الـــمـــســـلـــمُ حـــقًـــا ســـيفُ حـــقٍ أو شِـــهابُ

فـــي ســـبـــيـــل الله يـــحـــيـــا، لا نفـــاقٌ لا كِـــذابُ

مـــصـــحـــف يـــمشي , عليـــه مـــن تقـــى الله ثيـــابُ

ســـيـــفُـــهُ إن يَـــبـــغِ بـــاغٍ هـــو للبـــاغي عِتـــابُ

هـــكـــذا كـــنـــتـــم - أبـــا أيـــوبَ والغـــرُّ الصـــحابُ

دررًا زانـــتْ جـــبـــيـــنَ الـــدهْـــرَ شـــيبٌ وشـــبابُ

شـــابَ فَـــوْداكَ مـــن الـــدهر ومـــا في الشـــيبِ عـــابُ

لــم يــكــن يُــخْــسَــبُ بالسنّ مشيبٌ أو شبابُ
لــيــسَ بــالــشبانِ مــن هــانوا إذا حطّت صِعابُ
وإذا الــشــيــخُ تــجلى فهْــو في الحــرب الشــهابُ
ثــم طــال الأمــدُ الــمــنــكــودُ واهتــزَّ الجَنَــابُ
وغــدا بــيــنَ قــلــوب الــقوم والــدين حجــابُ
ثــم حــلّ الــوهْــنُ فــيهم وهــوى الــدنيا طِــلابُ
***
ثــم جــئــنــاكَ ولــلــشــعــرِ نشيجٌ وانْتحــابُ
بــقــلــوبٍ دامــيــاتٍ بــعْــدَ أن جــلّ المصــابُ
مــن ديــار قــد تــغــشــاهــا ظــلامٌ وضَبَابُ
فــالــقــوانــيــنُ انــتــهاكٌ وانتــهاشٌ وانتــهابُ
وســجــونٌ وشــجــونٌ ودمــوعٌ واغــتــصابُ
وأنــا الــمــسْــلِمَ في أرضــي لِــيَ العُقــبى اغتــرابُ
لــم يَــعُــد لــلــبــلْبُلِ الغرّيــدِ في الــدوْحِ رحــابُ
واســتــقــرتْ فــي رحــابِ الــدوح بــومٌ وغــرابُ
صَــوتُــــهُ فــيــهِ نــعــيــبٌ ونــعيقٌ مســتطابُ
وعــلــى الــبُــلْــبــلِ أن يمضــي يُغَشّيــه العــذابُ
شــاردَ الــخطو، حبــيسَ الشــجْوِ تَقْلِيــه الشــعابُ
ويــنــادي الأُفْــقَ: هــل للفجــر مــن ليْلــكَ بــابُ؟
فــإذا الأصــداءُ هــمّ وضــيــاعٌ واكــتِــئــابُ
إنــه لــيــلٌ كــثــيــفٌ مُجــرمُ الظُّلْمــات.. غــابُ
ذو عُــيــونٍ راصــداتٍ شَــرعُــها ظُفُــرٌ ونــابُ
قُــوتُــهــا الأعْــراضُ، أمّــا دمُنــا فَهْــو الشــرابُ
وبَــخــورُ الــزيــفِ دِيــنٌ والــنــفاقاتُ كتــابُ

والـمـروءاتُ خـطـايـا، والـنّذالات صـوابُ
ويْـحَ قـلـبي - يـا أبـا أيـوبَ - قـد جُـنَّ الحسـابُ
ألـفُ مـلـيـون بـلا قـدْرٍ ولا حـتى الـذبابُ
بـل غُـثـاءٌ كـغُـثـاءِ الـسـيْلِ بـالنفخ يُـذابُ
وقـلـوبٌ مـن هـواء وحـنـايـاهُـمْ خـرابُ
يـسـتـوي مـنهم حُضـورٌ في حماهـا أو غيـابُ
لا تـسَـلْـهُمْ عـن غِضـاب، لم يَعُـدْ فـيهم غضـاب
لا تَسِـلْهُم عـن عُضـاب، مـاتَ في الغِمْـادِ العُضـابُ
والـخـيـولُ الـجـردُ نامـتْ في مآقيهـا الـذبابُ
غـابـت الـصَّـهْـوَاتُ منـها وتغشـاها التُـرابُ
أنـعَـاجٌ مـا أرى في السـاحِ أمْ خيْـلٌ عِـرابُ
أيـن سُـوَّاسُـك يـا مـن كنـتِ في الهـولِ تُهـاب؟
قـال ثـأرُ الله "لا تـسـألْ، فـقـد ولَّـوا وذابـوا
يـا لَـقَـومـي عـن جهـاد القـوم قـد صـامُوا وتـابوا
وأطـاعُـوا مـن أضلُّـوهم وأَغْـروْهُمْ فخـابُوا
وأعِـدُّوا مـا اسـتـطـعـتم" قـد تولاهـا الغيـابُ
أم تـرى الأنـفـالَ واذلاه لـم يَـحْـوِ الكتـابُ؟
أوَ دينٌ غـيـرُ ديـنِ الله لُـحـمَـاهُ ارتيـابٌ؟
وانـقـهـارٌ وانـهـيارٌ وانصـهارٌ واضـطِراب؟

***

أنـا لم أَقْـنطْ ولكـنْ ضَـلّ في قـومي الصـوابُ
ويـقـيـنـي أنـي بـيني وبـين النصْـر قـابُ
إنـهـا سُـنَّـةُ ربِّـي لـيـسَ تَـفْنَى يـا ذئـابُ
قـد يـغـيـبُ الحـقُّ يومًـا ثم يأتيـه الغـلابُ

فـــإذا الـلـيـــلُ تـــمادى فـســيمْحُوهُ انْجِيــابُ
ويـشـــقُّ الأفْـــقَ ســيفُ الفجــرِ والآيُ العِـــذابُ
ويـعـــودُ الـبـلـبـــلُ الـــغرِّيدُ، يــا نِعْـــمَ الإيــابُ
ويـعـــود الـــدوح دَوْحًـــا والـــروابي والشِّـــعابُ

أستنبول، غابة بلغراد 1993

وقال حسن الأَمرانِيّ:

اعتذار إلى أبي أيوب الأنصاريّ

أُقَـــدِّمُ اعتذاري
إليكِ يا جَوهرةَ الصحراء..
يا لؤلؤةَ البحار
يا مَجْمَع البحرين
يا مَعْلَمَة الفتْحين
يا سيدةَ الأقمار

***

أقدم اعتذاري
إليك يا ناشرَةَ السّلام
يا قاهرةَ الظّلام
يا عاصِمَةَ الخِلافَةِ الخضْراء
مِنْ جَحَافِلِ اليهودِ والعُلوجِ
مِنْ مَطارِقِ الكُفّارِ

***

يا قلعَةَ الفاتِح
يا بِشارَةَ الرّسُول

يا مدينَةَ القِبَاب والمآذِنِ الصّواري
صُوفيا الشهيدُ شاهِدٌ
يَبُوحُ للعُشّاق بالأسْرارِ
رأيتُ في محْرابِهِ
صوتًا نَدِيّ الرّوحِ بالتسبيح والصّلاة
يُرَطِّبُ الشّفاه
(ألا استَمِعْ للنّايِ غَنّى وبَكى)
كان جَلالُ الدّين
ونايُه الحزين
يُنَمْنِمَانِ الحزْنَ والفَرَح
قَوْسَ قُزَح
على جبَاه الشّجر المرْميّ في شواطِئِ البسْفُور
والمتّحَف الحرْبي ـــ باسم الله
كان صَوْته الأخْضَرُ يَعْلُو
ناسِجًا مِلْحَمَةً خَضْراء
مِنْ رَحِمِ الحروفِ والأشْياء

***

أقدم اعْتِذاري
أنا الذي خلْفَ أميرِ مَكّة
قاتلتُ ضِدّ نَفْسي
أنا الذي بمُدّيَةِ الغَدْرِ حزَزْتُ رأسي
أنا الذي باسْمِ العُروبَةِ الشّقِيّة
انْسَلَخْتُ عنْ دَمي
ثُمّ رأيْتُ المجدَ ـــ كلّ المْجِد ـــ في مَرْفَأِ الانْتِحَار

***

أقَدّم اعتذاري

يا صَوْلَةَ التاريخِ.. يا مَجْدِيَ الذي وَأدْتُـــه

يومًا على رصيفِ الانْتِظارِ

فَنَحْنُ جيلُ النّكَساتِ السّوْدِ

جِيلُ الموْتِ قَبْلَ الموْتِ

نَحْنُ جيلُ الانْكِسارِ

ونَحْنُ أَرْضٌ أقْفَرَتْ في مَوْسِمِ الأمْطارِ

***

أمْسِ رأيتُ صاحبي الذي أتى

من قرْيَةِ الجوعِ والانْصِهارِ

رأيتُهُ...

فهَدّني الحزْنُ، وبَثّ في دَمي مَرارَةَ الحِصارِ:

قدْ كانَ في شبابِه يحلُمُ أن يعْلُـــوَ حبْلَ المشْـــنَقَة

فصارَ يـــمْــشي مُثْــقَـــلَ الخُطَى

وفَوْقَ صدْرِه

أوْسِمَةٌ مُعَلّقة

مِنْ بعدِ ما صارَ يقولُ

بالإخاءِ العَقَدِيّ والسّلام

(في وطنِ السّلام)

***

أهكذا يموتُ في أعْماقِنا الضّياء؟

أهكذا يَنْهَدِمُ البِناء؟

هلْ يَغْسِلُ الحزْنُ خَطايانا..
كما تَغْتَسِلِ الحقُولُ بالأنهارِ؟
وهَلْ تُذيبُ دَرَنَ الأنْفُسِ دَمْعَةٌ بجَوْفِ الليلِ أو..
أو شَهْقَة لها أزيزُ النارِ؟

***

أكُلّما نَهضْتُ..
أو خرجْتُ..
أو جَرّدْتُ من أشْعاري
سَيْفًا يَحُزّ عُنُقَ الظّلام..
أو كَفًّا تُعِيدُ الخِصْابَ للتّراب
يَفْجَعُني الأصْحَاب!

***

لأنّ هذا النّاس في زماننا
ثيابُهُم عُوَار
وجُوههم عُوَار
أقدم اعتذاري
إليكَ يا سيْفَ أبي أيوبِ الأنصاريّ.

استنبول: وجدة 1986

{نماذج من ثمار الندوي في عالمية الأدب والفكر: نظرات في شعر جابر قميحة وحسن الأمراني؛ شموخ الاعتذار}

أولاً: عناصر القصيدتين

1-1 قصيدة قميحة:

1. مَن هو (أبو أيوب الأنصاري) ... و لماذا تبوأ المنزلة العالية في ذاكرة الأمة الإسلامية؟! حتى إنّ سلاطين الدولة العالية العثمانية اتخذوا تقليد ترسيم شرعية الواحد منهم سلطاناً بعد إدائة صلاة البركة في (مسجد أبي أيوب الأنصاري) المتربع على أكمة من شواطئ بحر مرمرة، و ظل هذا المكان رمزاً يُستدعى للتذكير بعظمة (الدولة العالية..) و لأجل استحضار هذا الرمز انطلقت سفن أسطول الحرية (2010/5/29) متوّجهةً إلى (غزة هاشم) محملة بالمساعدات و الغوث يحملها مئات المؤمنين من كلّ الجنسيات لكسر الحصاد عن الفلسطينيين..

إنمــا جئنــاك تحــدونا بطــولات عجــابُ
ذكرياتٌ في فمِّ الدنيا هــي الشــهد المُــذابُ
و لكــم في ســاحةِ النــورِ بنــودٌ و قِبــابُ
يا أبا الأيوب و الإسلام قُــربى و انتســابُ...

2. أبو أيوب الأنصاري، تَستَرْجِعُ ذكرياتُه أمجاد الصحابة و المسلمين الأوائل – عليهم رضوان الله، و من تبعهم إلى يوم الدين – منذ عهد النبوة و الخلفاء الراشدين ... و ما تتابع من أمجاد طيلة عهود الإسلام حتى زوال الدولة العالية العثمانية ...

رفرفت من فوقهِم في ساحة الهول العُقاب([i])
و خيولُ الله تَمضِي، فهي في الساحِ عُرابُ
و سيوفٌ و حتوفُ، و زحوفٌ، لا انسحابُ

([i])العُقاب (بضم العين) اسم راية رسول الله صلى الله عليه و سلم. *العزةُ القعساء: ممتنعة ثابتة.

و هتافُ العزّةِ القعساء(أ) يحدوه الكتابُ
خالدٌ فيهم، و سعدٌ، و المثنى و الحُبابُ
يوم دكّوا الفرس و الرومَ و ما هانُوا و هابوا
فإذا الأعداء – من رُعبٍ – هباءٌ أو سراب
إنّه المسلم – حقاً – سيفُ حقٍّ أو شهاب
في سبيل الله يحيا ، لا نفاق لا كذابُ
مصحفاً يمشي – عليه من تقى الله ثيابُ

3. حال المسلمين و قد دبَّ الوهن و توالت الانكسارات على الأمة الاسلامية، و غدت تلعق ألم جراحاتها من أعدائها من الخارج، و كذلك من أعدائها في الداخل، فضلاً من اختلال ميزان العدل...

ثمّ طال الأمد المنكورُ واهتزّ الجَنابُ
وغدا بين قلوب القوم والدين حجابُ
فالقوانين انتهاك و انتهاشٌ وانتهابُ
وسجونٌ وشجونٌ ودموعٌ واغتصابُ
وأنا المسلم في أرضي رحيلٌ واغترابُ
واستقّرت في رحاب الروح بومٌ وغراب
ألفٌ مليونٍ بلا قَدْرٍ ولا حتّى الذُّبابُ
بل غثاءٌ كغُثاءِ السَّيلِ بالنفخ يُذابُ

(أ) العزةُ القعساء: ممتنعة ثابتة.

4. و أخيراً، فإن رغم ما عليه حال الأمة من هذا التردي، و الهوان، وانحطاط حال المسلمين، فما زال الأمل معقوداً أن تستعيد الأمة ماضيها التليد و تستأنف النهضة من جديد...

أنا لم أقنط، ولكن ضلّ في قومي الصوابُ
ويقيني أنني بيني وبين النّصرِ قابُ
قد يغيب الحقُّ يوماً ثم يأتيه الغلابُ
أنها سُنّة ربي كما نَزَلَ الكتابُ

2-1 قصيدة الأماني

1. يعتذر الشّاعر إلى مقام وعظمة ودلالات (استنبول) منذ غزوة أبي أيوب الأنصاريّ... وحتى صارت عاصمة الخلافة العثمانيَّة منذ أن فتحها الغازي محمد الثاني (الفاتح) سنة 1453م،... ثم يحزن لسقوطها وزوالها سنة 1924م على يد (جحافل اليهود والعلوج من مطارق الكفار) على حد تعبير القصيدة!!

أقدم اعتذاري

إليك يا ناشرَةَ السّلام
يا قاهرةَ الظّلام
يا عاصِمَةَ الخِلافَةِ الخضْراء
مِنْ جَحَافِلِ اليهودِ والعُلوجِ
مِنْ مَطارِقِ الكُفّارِ

2. ويستذكر الشّاعر بأسى صدى نداءات مآذن مساجدها المسماة بأسماء سلاطينها وتسابيح صلوات محاريبها – على زوال الدولة العالية العثمانيَّة – الحزينة الممتدة على شواطئ مضيق البسفور والدردنيل.. والتي لم تـُحرك سوى طقوس النمنمات والتهويمات

والتسبيحات مع ألحان الصوفية الحالمة بفرحها وحزنها وترنيماتها من ناي جلال الدين الرومي.

يا قلعَةَ الفاتِح
يا بِشارَةَ الرّسُول
يا مدينَةَ القِبَاب والمآذِنِ الصّواري
صُوفيا الشهيدُ شاهِدٌ
يَبُوحُ للعُشّاق بالأسْرارِ
رأيتُ في محْرابِهِ
صوتًا نَدِيّ الرّوحِ بالتسبيح والصّلاة

3. ويعتذر من موقف العرب الذين تخلوا عن الخلافة العثمانيَّة، بل ساهموا في إسقاطها أملًا في وعود خادعة لم تتحقق، وانتظارات محبطة.

4. كما ينعى باللوم على مواقف التطبيع مع أعداء الأمة وعلى الذين تحولوا من ثوار يحلمون بالشهادة إلى مُنادين بالإخاء العقدي والسلام (في وطن السلام).

5. وإذ يصل حال الأمة إلى هذا الحد من (موت الضياء وانهدام البنيان)؛ يتساءل الشَّاعر هل ينفع الحزن؟ وهل يُجدي بُكاء صوفيٌّ بكلّ حرارته وشهقاته (ليغسل خطايانا.. ويعيد الخصاب لترابنا)!

أقَدّم اعتذاري
يا صَوْلَةَ التاريخِ.. يا مَجْدِيَ الذي وَأدْتُــه
يومًا على رصيفِ الانْتِظارِ
فَنَحْنُ جيلُ النّكَساتِ السّوْدِ
جِيلُ الموْتِ قَبْلَ الموْتِ
نَحْنُ جيلُ الانْكِسارِ
ونَحْنُ أَرْضٌ أقْفَرَتْ في مَوْسِمِ الأمْطارِ

لأنّ هذا النّاس في زماننا

ثيابُهُم عُوَار

وجُوههم عُوَار

أقدم اعتذاري

إليكَ يا سيْفَ أبي أيوبٍ الأنصاريّ

العتبة الأولى للدخول إلى رؤى الشاعرين :

يتفق (جابر قميحة) و(حسن الأمراني) على انحطاط حال المسلمين في حاضر أيامهم رغم ماضيهم الزاهر، وأنهم مكلفون بالنهوض لحمل الراية ، فهم أمة رسالة الهداية للعالمين، قال تعالى :{وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}[الأنبياء107]. وكلاهما يستشعر وجوب الاعتذار(مطلق الاعتذار). ويتخذان من استانبول ومن الصحابي الجليل أبي أيوب الانصاري(رمزاً للآل و المآل...) محوراً للإعتذار على نحو ما سبق به البيان....

ونكنهما مختلفان في استشراف المستقبل، فبينما يرى (قميحة) أن طريق النهضة يمكن أن يتحقق بالجهاد والإعداد له على نحو ما كان عليه السلف الصالح:قال تعالى:(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(60) [سورة الأنفال]

وأن سنة الله هي الباقية ولن تجد لسنة الله تحويلاً أو تبديلاً. قال تعالى :

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا(76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا(77) [سورة الإسراء.]}

وفي سجل مراثي الشيخ حسن الندوي الذي أعدته مجلة(رابطة الأدب الإسلامي عدد 27/ 1421 هـــ يقول قميحة:

أبا الحَسَنِ الندْويِّ.. والروحُ مثقلٌ ... بكلِّ عوادِي الحزنِ والقلبُ ينْزِفُ

أأرثيكَ؟ ..لكنْ مَـــنْ أعــزّي، وإنني ... قصيرُ مدَى الأشعارِ، و الكونُ يَرجفُ؟

ثم عدد بعض مآثر الإمام الأدبية والفكرية والدعوية وخاطبه قائلاً:

وأهْدَيْت أبنـــاءَ العروبـــةِ ـــ صَـــادقًا ''روائعَ إقبالٍ'' كما اللحـــن يُعْـــزَفْ
وعشتُكَ في سُؤْلٍ عن العـــالم الـــذي هوىَ "بانحطاط المســـلمين" يُحـــرِّفُ
وفي أدبِ الـــرحْلاتِ قـــدَّمْتَ رائعًـــا رُؤى ودروسًا باليقين .. تعـــرِّف

ويُلحُ على (قميحة) التساؤل الآتي ، فيقول :

أتتركنا والقـــدسُ في أسر عُصـــبَةٍ تزعَّمَها لصٌ .. بغـــيٌّ .. مزيفُ
وهذي شعوبُ المسلمين وأرضـــها أبـــاحَ حماهـــا غادرٌ.. مُتصلِّف
وأهلُ النفاقِ النذلِ سادُوا وعربدوا وهمُّهمُو مـــالٌ، وجنسٌ، وزخرُف

ويختتم مرثيته بالتسليم لقضاء الله وقدرته، ولكنه يُشهد الفقيد أن يظلَ مجاهداً لإعلاء كلمة الحق والعدل، فيقول :

وأنـــا رصْـــدنا للإلـــه جهادَنـــا لِيُقْهَرَ عـــادٍ، كـــافرٌ، متغطرِف
وننصـــــرَ دينَ الله أنّي توجهتْ كتائبُنـــا، لا يعترينـــا تخـــوّف
وكيف نهابُ الموتَ، وهْو شهادة وفينا اشتياقٌ نحـــوهـــا وتلهفُ
وكـــل شهيدٍ فـــي الجنـــانِ مخلَّد يعيش نعيمًا غامرًا ليس يُوصف

***

أما الأمراني ؛ فإنه مع اتفاقه على عموم المقال و تشخيص الحال؛ فإنه يرى أن الخروج إلى حيث بصيص الشروق عبر منعطفات النفق، فإنه يرى أننا يجب أن لا نحرق المراحل كلّها حتى نصل إلى تحقيق النهضة و أن علينا أن نعد أنفسنا من الداخل... نعم من الجبهة الداخلية نبدأ أولاً ... و لا بأس من التريث، فإنه لإعداد النفوس لتحمل تبعات المرحلة الراهنة، و الاستعداد لمتطلبات المرحلة الآتية .. وهو يرى أن ذلك لن يتمّ حتى تُزكّى النفوس، و تُطَهّرُ من شوائب الانحطاط و ترسباته ..

قال تعالى:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾[سورة البقرة]

و قال جلّ و علا :

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾[سورة آل عمران]

ثانياً: حديث عصري في شموخ الاعتذار

[الاعتذار] "لغة": مصدر (اعتَذَرَ زِنَةُ افْتَعَلَ يعتذر بكسر عين المضارعة) يقال (اعتذر فلان عن فعله)، أي: عبّر عن أسفه لما فعل. و(اعْتذر إليه)، أي: طلب منه قبول العذر"[i].

وفي (معجم لغة الفقهاء) "طلب قبول العذر – هو التنصّل من التّصرف والاحتجاج للنفس"[ii]. وفي (باب الاعتذار من الذنب) "العُذْرُ: ما أدْليت به من حُجّةٍ لإسْقاط الملامة، والجمْعُ أعذار. وأعْذَرَه: رَفَع عنه اللّوْم، وفي المَثَل: أعْذَرَ مَنْ أنْذَر"، ومما يَرِدُ في سياق (الاعتذار من الذنب): التّنصُّل، والتّبرُّؤ، والتّملُّص»[iii].

يقدم الشّاعر([iv]) اعتذاره على أكثر من مستوى على ما هو آت:

1. قول الأمراني (يفجعني الأصحاب): إشارة إلى إجهاض كثير من محاولات الإصلاح النظرية

والتطبيقية العملية، وإنما فشلت تلك المحاولات والتجارب بسبب الفُرقة والاختلاف والتحالف مع الأعداء، قال تعالى(): {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ

مجمع اللغة العربية بالقاهرة. المعجم الوسيط (مادة ع ذ ر)(16)

قلعه جي: محمد رواس، و قنيبي، حامد صادق: «معجم لغة الفقهاء»، بيروت: ط3، 1996، مادة (ع ذ ر).(17)

([iii]) الصعيدي، حسن، «الافصاح في اللُّغة»، القاهرة: دار الفكر العربي، ط2، 1964، 255/1.

(الشاعر) من الآن فصاعداً ينسحب على كلٍّ من الأمراني و قميحة ما لم يتم التخصيص.(19)

رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ| [الأنفال:46]. وقال أيضا: {وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ| [آل عمران:105]. وقال عز وجل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ| [الممتحنة: 1]. و ربما كان من أسباب زوال الخلافة العثمانية!!

2. ولشد ما يؤسف له أن نعيش زماننا هذا؛ زمن التشتت والاختلاف في ظل العولمة والقرية الكونية الواحدة، والهيمنة الغربية على العالم بأسره، وتقديم المركزية الأوروبية ـــ الأمريكية في ثوب جديد، وتحت أقنعة جديدة؛ جعلتنا أمة مهزومة مستهـْلـِـكة لا منتجة، مقلـّـدة لا مبـْـدِعة، مُواعة بما عند الغالب في مأكله ومشربه وملبسه! وإن أدنى تأمل فيما نشهده في حياتنا المعاصرة يكشف طغيان ثقافة العولمة في حياتنا.

3. ولأجل كلّ ما سبق، فإن الشّاعر لا يكتفي بالاعتذار إلى المجاهد الجليل الصحابي أبي أيوب – رضي الله عنه ـــ فحسب، بل يعتذر أيضا إلى سيفه رمز الجهاد، لأن الناس في زماننا هدا ـــ حسب نص الأمرانيّ ـــ الذي لم يستثن أحدا عُوار لعموم بلوى تقليد الغالب في حاضرنا!!

وفي كتب الأدب يذكر ابن رشيق من أصل مجيء (الاعتذار) "...أن يكون من الحَجْر والمنْـــع كأنك جَعلتَ للمعتذِرِ بقَبولِ عذره حاجزًا بينه وبين العقوبة"[i]. وقد اعتذر بعض الشعراء إلى الرسول الكريم (صلعم) عما ارتكبوا في حقه من أخطاء قبل دخولهم الإسلام. يقول أبو هلال العسكري: "الاعتذار - أيّدك الله - ذِلّـــةٌ ولا بُدّ منه، لأن الإصرار على الذنب فيما بينك وبين خالقك هـــلـــكـــة، وفيما بينك وبين صديقك فـــُرْقة، وعند سائر الناس مَتْـــلـــبَـــة وهُجـــْـنـــة"([ii])

و أجلّ ما وقع في الاعتذار من مشهورات العرب قصائد النابغة الثلاث ... و منها:

أتاني – أبيت اللعن – أنك لمتني و تلك التي أهتمُّ منها و أنصَبُ

---

20)ابن رشيق، الحسن الأزدي. العمدة في محاسن الشعر، وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الجيل، 1963، 180/2، 176/2

العسكري، أبو هلال. كتاب الصناعتين، تحقيق البجاوي وزميله، القاهرة: دار المعارف، 1952،ص100(21)

لئن كنت قد بُلِّغتَ عني وشاية　　لَمُبلِغُك الواشي أغشُّ و أكذبُ

و قصيدة البردة لكعب بن زهير بن أبي سلمى (اعتذارية) لمقام سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم، هي توبة شاعر عاد من الضلال إلى الرشاد.. و منها:

أنبئتُ أن رسول الله أوعَـــدَني　　والعفو عند رسول الله مأمـــولُ

لا تأخُذني بأقوال الوشـــاة و لم　　أذنب ولو كثرت عني الأقاويلُ

إن الرســـول لنور يستضاء به　　مُهندٌ من سيوف الله مسلـــولُ

وفي اعتذار الشعراء قال ابن رشيق[مرجع سابق176/2] : "و ينبغي للشاعر أن لا يقول شيئا يحتاج أن يعتذر منه، فإن اضطره المقام إلى ذلك و أوقعه فيه القضاء، فليذهب مذهباً لطيفاً، و ليقصد مقصداً عجيباً، و ليعرف كيف يأخذُ بقلب المعتذر إليه [بفتح التاء و الذال]، و كيف يمسح أعطافه، و يستجلب رضاه، فإنّ إتيان المعتذر من باب الاحتجاج و إقامة الدليل خطأ، لا سيما مع الملوك و ذوي السلطان، و حقه أن يلطف برهانه مدمجا في التضرع و الدخول تحت عفو الملك .. فأما مع الإخوان فتلك طريقة أخرى .. و مما قيل فيه:

العذر يُلحقه التحريفُ والكذبُ　　وليس غيرُ الذي يرضيك لي أَرَبُ

وقد أسأت فبالنعمى التي سلفت　　إلا مننت بعفوٍ ما له سبب

***

و يمتزج العام بالخاص عند الشاعر و يتمثل في التعبيرعن هموم الأمة الإسلامية بحيث يصبح صوت الشاعر هو أنين جراحها الغائرة، و من ناحية أخرى هو التعبير عن موقفها الصامد و المقاوم للظلم و الظلام، و الساعي إلى النصر و الجهاد تحت راية الدين الحنيف .. و يَستوعب الشاعر هموم أمته حتى إنه يصرخ في قلمه الذي هو سلاحه عند الكتابة كما نجد ذلك عند جابر قميحة كما ورد في ديوانه: [لله و الحق و فلسطين، القصيدة بعنوان براءة،ص83،صدر الديوان عن الدار المصرية اللبنانية 1418 هـ] إذ يقول:

برئتُ منكَ إذا ما ما هُنْتَ يا قلمُ　　فلم يُفجِّرْك في ليل الأسى الألمُ

أو إن تهاونتَ في حقٍّ نكـــونُ بهِ　　ناساً، و مِنْ غيرهِ إنّا ولا البَهَمُ

برئتُ منكَ إذا لم تغْدُ جـــاحمةً   سعيرها المرُّ قَدْ فاضتْ به الكَلِمُ

و يثري الشاعر – في هذا الموقف الشعوري الذي يمتزج فيه الخاص بالعام – تعبيره الشعري بإحالات شعرية و تعبيرية و تضمينات لها أثرها الخالد في الوجدان العربي .. الأمر الذي أضفى على تعبيره التسعري سموقاً فنياً، و أنقذه من جفاف التقرير .. حيث يقول مخاطباً قلمه .. و مع الأخذ في الاعتبار أن الإحالات – هنا لأبيات من بردة البوصيري و نهج البردة لشوقي لا تنطوي على تطابق في المعنى، فهو منطلق فكري مغاير:

لا تنتسب لي إذا ساقتك غانيةٌ   فقلتُ أوّاهُ يا بانُ و يا عنمُ

أو كان همُّكَ جيرانا بذي سلم   إذ جادَ بالبرق في ظلمائها إضَمُ

ثم ينطلق في التعبير الشعري مازجاً بين الرمز و الكشف في آنٍ .. ليتجلّى سمت الهَمّ الذي يكرّس الشاعر له موهبته الشعرية، و يشرِّع من أجله قلمه سيفاً جسوراً، و هو همٌّ عربيٌّ إسلاميٌّ متعدد الأبعاد:

و كيف تغفلُ عن حسناءَ موثقةٍ   يعضُّ فيها حديدٌ مجرمٌ نَـــــهِمُ

جزّوا ضفائرها، هدّوا منائرهـــا   و كلُّ آذاننا عنها !! بها صَمَمُ

ولنا أن نتساءل أيضاً : إلى أي درجة كانت قناعة الشَّاعر بوجاهة اعتذاره في باب امتزاج الخاص بالعام على ما نحو ما سيق بيانه وهو الذي يقول في [ديوان سيدة الأوراس] ص13:

تقولُ لي الأرضُ لا عُذر لك

قد اغتصبوني

قد اغتسلوا بدمائي

وغاصوا إلى الركبتين

وأنتَ هنا كالجدار

تنام قريرا

وما من قرار.

ولعل مجال التأويل في اعتذارية الأمرانيّ يتسع لحملها ــ مع التسليم بتفاوت القياس

بين الحالتين ــ على معنى الاعتذار السياسي المعروف في العصر الراهن، والذي يُلزم المعتَذِر ــ أحيانا ــ إضافة إلى إقراره بالذنب، والاعتراف بالإساءة وإدانة الذات، أن يقدم تعويضا ماديا معينــًا للمعتذَر إليه أو لوريثه أو من يمثله، و أن ما تفتحه لنا الإشارات السياسية الواردة في القصيدة من أبواب للنظر والمراجعة التاريخية، تذكرنا بهذا المعنى.

والأمرانيّ كما رأينا يعتذر لمدينة استنبول (رمز الخلافة)، ويعتذر إلى سيف أبي أيوب الأنصاريّ (رمز الجهاد)، ولا يخفى ما بين الرمزين: السيف والخلافة من علاقة تكامل، وأنه لا يتحقق قوام أحدهما دون الآخر. ونحن إذْ نوجه (الاعتذارية) لهذا الفهم! نجد الأمرانيّ قد اعتلى المنبر ليعتذر إلى الخلافة والجهاد ــ أصالة عن نفسه ونيابة عن الأمة ــ اعتذارا يتناسب ومقتضى الحال وجلال الموقف. ولكن، ألا يحق لنا أن نتساءل، وقد اختلطت علينا الأمور: أكان اعتذار (الأمراني) على سبيل التنصل (التبرؤ) من الذنب والاحتجاج للنفس (للفوز بالبراءة)، وكفى المعتذرين القتال؟ أم إن اعتذار الشّاعر هو انعكاس لحال اليأس المحبط لديه؟ أم إنه يأسُ حالةٍ شعرية عابرة سرعان ما تزول؟ سنرى الإجابة فيما هو آت من الفقرات. ولكننا نسارع ونقول: يظهر لنا أن حالة اليأس والإحباط كانت هي الحالة المستقرة لديه والملازمة له في المرحلة بين 1986 وحتى 1989 ــ على أحسنِ الظن ــ وأن ما ورد في هذه القصيدة من أفكار قد أنضجتها هذه الثلاث سنون، ويظهر لنا ذلك من خلال تتبع التواريخ المدونة على القصيدة في الديوان أولًا (ص ص 75 و 76)، فنقرأ استنبول/وجدة صيف 86، ومعنى هذا أن الشّاعر عاش صيف 1986 بين استنبول (تركيا) ووجدة (المغرب) واعتمل في وجدانه وفكره ما رآه وعاشه مما يذكّــر بالدولة العالية العثمانيّة وبسلاطين آل عثمان، وعاصمة ملكهم الآستانة. وقارَنَ ما عليه حال الأمة الإسلاميّة (والجمهورية التركية من ضمنها) في هذا الزمن الرديء، فتشكّــلــَت في وجدانه نواة القصيدة في استنبول (عاصمة الخلافة) ثم اكتملت صورتها النهائية بعد عودته لموطنه في وجدة (المغرب) في صيف ذلك العام 1986.

ثم يُستضاف الشّاعر بعد ثلاث سنوات للمشاركة في مؤتمر الأدب الإسلامي في استنبول؛ فيُلقي القصيدة ذاتها [في غابة بلغراد، بضواحي استنبول، في الأمسية الشّعرية التي

نظمتها رابطة الأدب الإسلامي بتاريخ 15 محرم 1410(16 أغسطس 1989) بمناسبة مؤتمرها العام الثاني] (نقلا عن ديوان ثلاثية الغيب والشهادة، ص 76).

ومما يذكر في هذا السياق؛ أنه في إحدى أمسيات الشيخ الجليل الدكتور عدنان النحوي قرأ الشيخ قصيدته المسماة (مهرجان القصيد/الأدب الإسلامي) ومنها:

مهرجان القصيد غــنّ قصيدي   بين زهر المنى وحلو النشيد
إيه (لكنو) فكم ضممت نـَديا   من شيوخ ومن شباب نجيد

وقال إن مناسبتها حيث ألقيت في المؤتمر التأسيسي في لكهنو الهند (يناير 1986)، بينما ألقى الشاب المغربي (حسن الأمرانيّ) قصيدته المسماة (موكب الإيمان)، مفتتحا بها مؤتمر الرابطة في استنبول صيف 1986، ومطلعها:

لكِ في الفؤادِ من الودادِ   ما ليس يكتُمُه الفؤاد

وبعد؛ فإن هذه القصيدة احتفالية خاصة بمناسبة افتتاح المؤتمر، ولكن (الاعتذارية) قصيدة فكرية نضجت على اعتمال فكر ومعاناة قهر عاشها الشّاعر مرحلة استمرت من 1986إلى 1989 وأنه شخّص أسباب زوال الخلافة العثمانيَّة، وأنه يراها في (التفرق والاختلاف والتحالف مع الأعداء).

وثباتا على القيم الفكرية تجاه عاصمة الخلافة العثمانيَّة ولكن بعد أربع سنوات وبالتحديد في صيف 1993 يقفُ الأمرانيّ من جديد أمام جمهور (الرابطة) في استنبول؛ يجدد أحزانه ويستدعي ما تحمله رموز (أميرةالفتح) من لواعج الأسى والحزن لديه، يقول:

أميرة البحـــر صبي النـــور والأمـــلا   إني أتيتك بالأحـــزان مشتعلا
أميرة الفتح في عينيك مـــتّــكـــئي   طوِّقيني بجميل طابَ واكتملا
أعلامك الخُضْر يا حسناء مذ طويت   عني أُصبتُ بوار الحكم والخبلا
وقفت في «المتحف الحربي» أســـألُهُ   والدمعُ ينهلُّ من شأنيهما سَبَلا

فاستنبول التي رآها من قبل مدينة المجد وقلعة الفاتح وبشارة الرسول وعاصمة الخلافة الخضراء، ما تزال هي هي؛ أميرة الفتح، وابنة الإسلام، والحسناء صاحبة الأعلام الخضراء،

وما تزال رمزا يدل على عهد الخلافة الإسلاميّة الذي جمع الأمة وحفظ لها هيبتها بين الأمم، ومكانتها ما تزال محفوظة في نفسه، ولكن المقام يتطلب أن يكون التعبير عن هذه المكانة منسجما مع الموقف الذي يصدر عنه الشّاعر، وهو موقف الرثاء للشّاعرين الأميري وعبد النور؛ فناسب أن يناديها ب(سفينة أحزانه) (وأنها أميرة البحر التي في عينيها متكؤه).

ولا نراه اختلف في ندائها إلا بما يتناسب مع الحدث الإضافي، فوقفة الاعتذار في (الاعتذارية) هي وقفة الرثاء في (اميرة الفتح) مع احتفاظ المكان بجلاله وجماله وهيبته. يقول الأمرانيّ في تقديمه لقصيدته المسماة (أميرة الفتح) والمنشورة في ديوان (نبض الخافقين) بالمشاركة مع الشّاعر السعودي حفيظ الدوسري: "فإذا بي أستحضر علمين من أعلام الرابطة، رحلا عنا بين المؤتمر الثاني والمؤتمر الثالث، وهما عمر بهاء الدين الأميري وعبد النور الندوي رحمهما الله تعالى، وإذا بي أستحضر باستحضار ذكرهما هموم الأمة، وجراحها النازفة في كل بقعة من بقاع الأرض، فكانت القصيدة

والأمرانيّ يعتذر إلى المكان والزمان والإنسان، يعتذر للتاريخ وللأحداث ويعتذر في ختام القصيدة إلى سيف أبي أيوب الأنصاريّ- رضي الله عنه-.وهو يكرر الاعتذار، فمرة يذكر المعتذَرَ إليه ومرة لا يذكر، مما يوحي بأن الاعتذار ليس موجها إلى أبي أيوب الأنصاريّ-رضي الله عنه- فحسب، ولا إلى سيفه دون سواه، بل إن نبرة الاعتذار شائعة في مقاطع القصيدة كلها، وموجهة إلى كل من يلي أبا أيوب الأنصاريّ من زمان ومكان وإنسان وأحداث وتاريخ.

ومع أن زيارة قبر أبي أيوب الأنصاريّ ([1]) هي التي أوحت بالقصيدة، إلا أن هيمنة

([1])أبو أيوب الأنصاري؛ خالد بن يزيد اختاره الله سبحانه لتبرك بأرضه ناقة رسول الله (ص) حين دخل المدينة المنورة مهاجرا، وهو أحد السبعين من أهل العقبة الثانية، ونقول: هو رمز له سيرورته عبر الأجيال المتلاحقة في تاريخ المسلمين منذ ارتبط اسمه بمواقف له خالدة مع رسول الله (ص)، لقد عاش أبو أيوب الأنصاري طول حياته غازيا مجاهدا في سبيل الله حتى قيل إنه لم يتخلف عن غزوة... غزاها المسلمون منذ عهد الرسول (ص) إلى زمن معاوية إلا إذا كان منشغلا عنها بأخرى.. وكانت آخر غزواته حين جهز معاوية جيشا بقيادة ابنه يزيد لفتح القسطنطينية (52هـ/672م) وكان أبو أيوب آنذاك شيخا طاعنا في السن يحبو نحو الثمانين من عمره فلم يمنعه ذلك أن ينضوي تحت لواء يزيد، وأن يمخر عباب البحر غازيا في سبيل الله. ويمرض أبو أيوب أثناء الحصار؛ فجاء يزيد ليعوده وسأله:- ألك من حاجة يا أبا أيوب؟فقال: اقرأ عني السلام على جنود المسلمين، وقل لهم: يوصيكم أبو أيوب أن توغلوا في أرض العدو إلى أبعد غاية، وأن تدفنوه تحت أقدامكم عند أسوار القسطنطينية. ولفظ أنفاسه الطاهرة.. استجاب جند المسلمين لرغبة

المكان كله واضحة على القاموس اللفظي فيها، فمع أن المناسبة هي الوقوف عند قبره–رضي الله عنه–، إلا أن محاورة المكان المحيط كله بمعالمه المتنوعة، ورموزه التاريخية تطغى، وتحضر عاصمة الخلافة العثمانيَّة بعراقتها المدنية، وحضارتها العمرانية، وروحانيتها الصوفية، وجمالها البديع، وشخصيات قادتها العظام، بينما يغيب أبو أيوب عن تفاصيل المشهد، و لكنه يملأ خلفية الصورة، و كأن شخصيته تحتضن مشهد الاعتذار كله.

و يمتلئ الشَّاعر بالمكان، و يغرق في تفاصيل صورته العامة، فينظر إلى بهائه و جماله بعين الإعجاب، و تتملكه الدهشة، فتستثير كل صفات الجمال المختزنة في ذاكرته، فيخلع من أوصاف البهاء و الجلال الحاضرة في ذهنه على المدينة ما يجعلنا أمام فسيفساء تاريخية و جغرافية و حضارية مدهشة: فلعلَّ هذا يذكِّرنا بكتاب عدنان النحوي (ملحمة القسطنطينية) الذي أصدره عام 1988، وتحدث فيه عن فتحين الأول هو فتح القسطنطينية عام 1453م على يدي القائد المسلم محمد الفاتح. والفتح الثاني هو انتصار السلطان عبد الحميد على الصهيوني هرتزل ورفضه المساومة على فلسطين 1902م، إذ يقول النحوي على لسان السلطان عبد الحميد:

أما علمت بأني بعت خالصة … دنياي لله لم أنكث ولم أعب
بجنة ونعيم لا أبدله … من يصدق الله يبلغ غاية الطلب
هذي فلسطين أرض المسلمين فلن … أفرط اليوم في سهل ولا هضب

كما يستدعي قول الشاعر أحمد محرم:

يا آل عثمان من ترك ومن عرب … وأي شعب يساوي الترك والعربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده علما … لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهبا

صاحب رسول الله(ص) وكروا على جند العدو الكرة بعد الكرة حتى بلغوا أسوار القسطنطينية وهم يحملون أبا أيوب معهم. وهناك حفروا له قبرا وواروه فيه.وتدور عجلة التاريخ، ويظل فتح القسطنطينية مشروع جهاد دائم على امتداد تعاقب خلفاء وأمراء وقادة المسلمين، أمويين وعباسيين وولاة أقاليم.. الخ، إلى أن قيض الله فتحها على يد السلطان محمد الثاني (الفاتح) عام 1453م. [شعوط، إبراهيم. «أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ»، جدة: دار الشروق، 1989، ص 281". ولمزيد من المعلومات راجع ترجمته في: «صور من حياة الصحابة»، عبدالرحمن رأفت الباشا، القاهرة: دار الأدب الإسلامي، 2007، ص 65-74.

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقي(i):

ضج الحجاز وضج البيت والحرم   واستصرخت ربها في مكة الأمم
قد مسها في حماك الضر فاقض لها   خليفة اللـــه أنت السيد الحكم

هي مدينة الرحمة والأمن والحكمة، التي تحمل رسالة المحبة والسلام - التي هي رسالة الإسلام نفسه - فتنشرها في العالم. وهي في الوقت نفسه حاملة سراج النور وشعاع الضياء، الذي يبدد ظلام الجهل والجاهلية بما يقدمه للإنسانية من الهدى والعلم والمعرفة. وهي عاصمة الخلافة الخضراء، التي تتعانق في وصفها هذا دلالتان هما: دلالة القوة ودلالة الحياة؛ فهي عاصمة الخلافة الإسلاميّة، التي انتشر ظلها الوارف فوق مشارق الأرض ومغاربها قرونا متتابعة، وهي أرض الخضرة والحياة، التي احتضنت الإسلام، فانطلق منها يبشر بكل معاني الخير وقيم الحق والجمال، التي تقوم عليها حياة البشرية الكريمة السعيدة.

وهي قلعة الفاتح وبشارة الرسول(ii)، ومدينة القباب والمآذن، وهي المدينة الميناء ومرفأ السفن بصواريها القوية وأشرعتها المنشورة؛ إنها مدينة القوة والمنعة والسلطان المؤيّد بنبوءة الرسول الكريم – صلعم –، وهي مدينة المساجد العريقة بقبابها الجميلة ومآذنها الشاهقة التي تشهد لأهلها بالإسلام والإيمان.

إن مفاهيم الوحدة و الولاء و البراء و الانتماء و الأخوة تبدو متجذرة و أصلية في رؤية شاعرينا إذ يعلنا في لائحة إدانته للذات تاجماعية أن المتغيرات التاريخية، و الانكسارات السياسية، و تمزق جسد الأمة؛ إنما كان بسبب الفتن التي أثارها أعداء الأمة، و بسبب المكر و الخديعة التي دبرها الاستعمار، ووقعت في مصائدها شعوب المسلمين و قيادتهم، و الا فإن عقيدة المسليمن و دينهم لا يقر الفتنة بينهم، و لا يجيز للمسلم أن يحارب المسلم، و لكنه التفكك و الضعف و الجهل و الغفلة، و الفتنة و المكيدة و الخديعة، و أطماع المستعمرين الذين ألبوا الإخوة على إخوتهم، و أوقدوا نار الفتنة بين الشعوب، و قسموا من بعد ذلك الوطن الواحد إلى كيانات متفرقة، ليسهل عليهم تحقيق مآربهم في

(i) شوقي، احمد، ديوان الشوقيات، القاهرة: دار المعارف، عدة طبعات، 266/1.
(ii) إشارة إلى حديث النبي ﷺ: (لتفتحن القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش جيشها).

السيطرة على بلاد المسلمين، و استنزاف ثرواتها العظيمة و خيراتها الوفيرة. و يتوافق الأمْرَانِيّ في حالة شكواه من الواقع مع الشّاعر جابر قميحة في مقطع من قصيدته المعنونة (حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاريّ) إذ يقول:

ثم جئناكَ و للشّعرِ نشيجٌ و انتحابُ
بقلوبٍ دامياتٍ بَعْدَ أنْ جلّ المُصاب
من ديار قد تغشاها ظلام و ضباب
فالقوانينُ انتهاكٌ و انتهاشٌ و انتهابُ
و سجونٌ و شجونٌ و دموعٌ و اغتصابُ
و أنا المُسْلِمُ في أرضي لي العُقْبى اغترابُ
لم يعد للبلبُلِ الغرِّيد في الدّوح رحابُ
و استقرتْ في رحاب الدوح بومٌ و غراب
صَوتُهُ فيهِ نعيبٌ و نعيقٌ مستطابُ
و على البلبل أن يمضي يُغَشّيه العذابُ
شاردَ الخطو حبيسَ الشّدْوِ تُقْليه الشعاب
و ينادي الأُفق: هل للفجر من لَيلِكَ بابُ؟
فإذا الأصداء همٌّ و ضياعٌ و اكتِئابُ

يبدو الأمْرَانِيّ يائسا قانطا، تغلب عليه روح الشاعر الانهزامية و الشعور بالإحباط، فهو رغم كل محاولاته للانعتاق من حالة اليأس التي يعبر عنها بالقيود المضروبة على حركته، و الحصار المحيط بكل محاولاته للنهوض، و المؤامرات التي تدبر ضد محاولاته، و ضد كل المحالولات التي تنطلق هنا و هناك لاستنهاض الأمة من كبوتها، و بعثها من رقادها، و فتح الطريق أمام انعتاقها و انطلاقها إلى عالم الحرية و الكرامة...

أكلما نهضتُ..
أو خرجتُ..

أ جردتُ من أشعاري

سيفاً يحز عنق الظلام..

أو كفاً تُعيد الخصاب للتراب

يفجعني الأصحاب

رغم كل هذه المحاولات، إلا أنه يجد نفسه في النهاية مستسلما تحت الضغوط المعاكسة، ضغوط التفرقة و التجزئة و الانقسام و التبعية، التي تكرس الضعف و الهزيمة، و لا تثمر إلا مزيدا من التخلف، و مزيدا من التمكين للأعداء الطامعين المتربصين. و قابل ما ورد في قصيدة (رسالة عصرية لأبي أيوب الأنصاريّ) للشّاعر قميحة في ذات الاتجاه، إذ يقول:

يا لقومي .. عن جهاد القوم قد صامُوا وتابوا

و أطاعوا من أضلُّوهم و أغْروهُم فخابُوا

و أعدُّوا ما استطعتم قد تولاها الغِيابُ

أم ترى الأنفالَ – و أذلّاه – لم يّحْوِ الكتابُ؟

أو دينٌ غيرُ دينِ اللهِ لحُمَاهُ ارتيابُ؟

و انقهارٌ و انهيارٌ و انصهارٌ و اضّطِرابُ

***

ويواصل الأمرانيّ حملة الإدانة التي يشنها على الواقع المتردي، ويعترف فيها بشؤم زمانه وشقاء جيله إذ يقول: [فنحن جيل النكسات السود، جيل الموت قبل الموت، نحن جيل الانكسار]؛ إنه يقدم اعتذارًا خاصًا إلى تاريخ أمته الذي كان زاهرًا ومجيدًا حين صنع أبناء ذلك التاريخ مجدًا باهرًا وعزًا عظيمًا، إذ كانوا فيه صنّاع الحياة وسادة الدنيا. إنه يبث ذلك التاريخ المجيد شكواه الأليمة، وأنينه المفجوع، على ما تعانيه الأمة في زمانه من ألوان الذل والقهر والانكسار، حتى يرى الحياة أشبه بالموت، ولا يكاد يرى في الناس إلا أشباحا أو أمواتا في أثواب أحياء: [جيل الموت قبل الموت]، ويبلغ الأمرانيّ قمة يأسه حين يرى أمته أرضا مقفرة لا تبشر بخير ولا بعطاء:

أقدم اعتذاري

يا صولة التاريخ.. يا مجدي الذي وأدته

يوما على رصيف الانتظار

فنحن جيل النكسات السود

جيل الموت قبل الموت

نحن جيل الانكسار

ونحن أرض أقفرت في موسم الأمطار

و قابل بها عند جابر قميحة إذ يقول:

وَيْحَ قلبي – يا أبا أيوب – قد جُنَّ الحِسابُ:
أَلفُ مليون بلا قَدْرٍ ولا حتى الذبابُ!!
بل غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيْلِ بالنَّفحِ يُذابُ
و قلوبٌ من هواء و حناياهُمْ خرابَ
يستوي منهم حُضورٌ في حماها أو غيابٌ

لا تَسَلْهُمْ عن غِضابٍ، لم يعد فيهم غِضابُ [بكسر الغين بعدها ضاد فوقية من مطلق الغضب عكس الفرح]

لا تسلهم عن غُضاب ماتَ في الغِمْدِ العُضَابُ [بضم الغين بعدها ضاد فوقية – السيف القوي]

و الخيول الجرد نامت في مآقيها الذباب
غابت الصَّهْوَاتُ منها و تغشاها التُّرابُ
أنِعاجٌ ما أرى في الساح أمْ خَيْلٌ عِرَابُ

وتحتشد في صدر شاعرنا مشاعر الحسرة و الألم فيقول:

أهكذا يموت في أعماقنا الضياء؟

أهكذا يَنْهدمُ البناء؟

هل يغسِلُ الحُزنُ خطايانا ..

كما تغتسل الحقولُ بالأنهار؟
وهل تُذيبُ درنَ الأنفُسِ دمعةٌ بجوف
الليل أوْ ...
أوْ شهقةٌ لها أزيز النار ؟

وله الحق في هذه التّساؤلات التي تفيض حزنا ومرارة، وله الحق أن يسأل أيضا:

أكلما نهضتُ ..
أو خرجتُ .. أو جرَّدتُ من أشْعاري
سيفًا يجزُّ عُنُقَ الظّلام..
أو كَفًّا تُعيدُ الخِضاب للتُّراب
يفجعُنِي الأصحاب

وقارن بهذه المعاني المتقاربة ما ورد في قصيدة جابر قميحة، إذ يقول:

ثم جئناكَ وللشّعــر نشيجٌ وانتحـــابُ
بقلوبٍ دامياتٍ بَعْدَ أن جَــلَّ المُصــابُ
من ديارٍ قد تغشّـاها ظلامٌ وَضَبابُ
فالقوانيــنُ انتهــاكٌ وانتهاشٌ وانتهابُ
وسجونٌ وشجونٌ ودمــوعٌ واغتصابُ
وأنا المسْلِم في أرضي ليَ العُقْبَى اغــتراب
لم يَعُــدْ للبُلْبُل الغرِّيدِ في الدَّوْح رِحَابُ
واستقرَّتْ في رِحابِ الدَّوْحِ بُومٌ وغُرَابُ
صوتُهُ فيهِ نعِيبٌ ونَعيــقٌ مستطــابُ
وعلى البُلْبُل أن يُمضِي يُغَشِّيهِ العَذَابُ
شاردَ الخَطْو، حبيسَ الشَّدْوِ تقلِيه الشِّعابُ

و يبلغ اليأس بالأمرانيّ مبلغه؛ فيعلن إفلاس تلك المرحلة من بوارق الأمل، وعجزها عن تقديم أي شيء، ليقدم اعتذاره الأخير في القصيدة إلى سيف أبي أيوب الأنصاريّ، إذ لا

سيف ينوب عنه ولا سياف، في هذه السنين العجاف.

لأنّ هذا الناس في زماننا:

ثيابُهُم عُوار

وجُوهُهُم عُوار

أقدِّم اعتِذَاري

إليكَ يا سيفَ أبي أيوب الأنصاريّ.

بهذه الزفرة الأليمة، والكلمات النابضة بالأسى، المثقلة باليأس يختم الشّاعر قصيدته، ويكتفي بالاعتذار، ونعقّب بالقول هنا: لعلّ من أجمل اللحظات التي تنتمي إلى التراث الأخلاقي للعالم كله، تلك اللحظة الأخلاقية التي تنتمي إلى الصدق سلوكا وعقيدة وفنّـا، وهي لحظة عزيزة المنال في عصرنا هذا؛ عصر العولمة، أو الأمركة، لفرض مزاج الحضارة الغالبة في المأكل والمشرب والملبس والأدوات.. الخ مما يحوّل عالمنا (مجتمعاتنا) إلى حالة العُوار المطلق (العيب) في المظهر والمخبر... عصر الرِّجالِ الجُوف، والأرضِ اليباب... هذا العصر الذي يُمزِّق الإنسان، وخاصة المسلم الملتزم عندما يُبتلى بأزمة انعدام التوافق بين ما يعتقد وما يمارس، وهذا الانفصام بين الإيمان في العقل أو الفؤاد، وبين الممارسة قولا وعملا. أقول: هذا العصر الذي يعاني فيه المسلم الملتزم بين أن يختار العذاب حتى الموت.. أو ينافق وينافق فيكون ملبسه عُوار، ومظهره عُوار فيُفسِدُ إيمانَه وقيمه بنفسه، ويُزيفُ رؤيته للحياة حتى تنفتح أمامه الأبواب!

اقرأ لقميحة -إن شئت- الأبيات من ديوان (هديتي إلى شباب الإسلام) [i]،

وفي عالَمِ اليومِ الكئيبِ مبادئٌ كمثل ضَوَاري الغاب، بل إنها أضْرى

تُخرِّبُ في الأرواحِ كلَّ نبيلةٍ وتزْرَعُ فيها الإفكَ والإثمَ والشَّرا

وتَزعُم أنَّا لو رجعنا لشَرْعِنـا لكنَّا لظُلُمات التَّخلفِ كالأَسْـرى

خيوطَ ضلالٍ تُورِثُ الجَهْلَ والكفرا فيا عَجَبًا للإفكِ.. إذ ينسجُونَه

---

[i] من ديوان (حديث عصري لأبي أيوب الأنصاري)، مرجع سابق، ص11.

وتجعلُ خِصْبَ الأرضِ من سُمِّها قفرا   وتُخمِدُ نورَ القلبِ والطُّهْرِ والنُّهى

و ليس من هدف الدراسة المقدمة (لمؤتمر عالمي يكشف عما أثّر فكر حسن الندوي في النُخبة من أبناء الجيل) أن نعقد مقارنة أو موازنة بين قصيدتي الأَمْرَانِيّ، و قميحة في استدعائهما شخصية أبي أيوب الأنصاريّ؛ فتلك دراسة فنية أدبية خالصة أنضجها العصف الفكري و كان هنا مجال الكشف عنها. و أصبح غرضنا هنا أن نشير إلى أن جابر قميحة يصدر في شعره عن برنامج إجرائي عملي يعي فيه الرجل مواقع قدميه، و يرصد عوائق المسير، و يُعِدُّ العُدَّةَ لكلِّ مرحلة، و لكنه على أية حال واثق أنه سيصل في النهاية لتحقيق هدفه.يقول في قصيدته:

بُنَيَّ - رعاك اللهُ - هاكَ هديَّتي   تَمَسَّك بأهدابِ الشَّريعة كي تَثْرَى
فإنَّ قوامَ الدِّين سيفٌ.. ومصحفٌ   وعِلْمٌ وعَزْمٌ لاهبٌ يَقْهَرُ القَهْرا
فإمّا تمسكنْا به كان نصْرُنا   وإمَّا هجرناه غدَوْنا ولا صفْرا
ويافَخْرَنا أنْ كانَ فينا محمدٌ..   وأنعم به عِزًّا، وأنعم به فَخرا
فما حقَّق النصر الأبي تواكُلا   ولكنْ بعزْمٍ شامخٍ يسْحَقُ الصَّخْرا

واقرأ له قصائد: «العقاد والأسوار» 18، و«سراييفو» 36، و«عظيم.. يارفاه!) 63:

تقدم للأمَام أيا (رفـــــاهُ)..   يباركْ جهدَك النامي الإله
لترفعَ رايةَ التَّوحيد تزهُـــو   بنورِ الحقِّ يسطعُ في عُلاه
لنا الإســـلامُ دينًا ثم دنيـــا   وأنفسُنا وأهلونا فِـــداه

و معنى الاعتذار إلى سيف أبي أيوب الأنصاريّ- في هذا السياق – اعتذار الشَّاعر و الأمة عن (الجهاد)، على ضوء ما قدمنا من قراءات و مقارنات (لشموخ الاعتذار). و لكن أرى أن من تمام استيفاء الفكرة هنا ان نتساءل : ما الفكر الذي يتبناه الأَمْرَانِيّْ إزاء محمل القضايا التي طرحتها (الاعتذارية)؟ و هل يحق لنا التصريح بالقول في هذا المقام : إنّ الأَمْرَانِيّ يرى أن الجهاد على نهج (أبي أيوب)، و إن كان فريضة شرعية إلا أنها فريضة مؤجلة، استعاض عنها ب(التّصوف) و (تزكية النفوس)

لقد تعرفنا من خلال المتابعة على مدى ثلاثة دورات لانعقاد مؤتمرات الرابطة في استنبول حضرها الأَمرانِيّ في 1986، 1989، 1993، وألقى فيها قصائد [عثمانية] واكنه ظل ثابتا على موقفه الوجداني والفكري إزاء ما يستدعيه الموقف من عاصمة الدولة العالية العثمانيَّة وسيف أبي أيوب الأنصاريّ ... ولعلّه من قبيل المفارقة أنّ زميله الشّاعر جابر قميحة، ومن على المنصة نفسها ألقى قصيدته المطولة البالغة 90 بيتًا بعنوان: (حديث عصري إلى أبي أيوب الأنصاريّ) أجاب فيها عن المسكوت عنه لدى الأَمرانِيّ. ومما قاله جابر قميحة مذكرا بأمجاد الجهاد الإسلامي نجتزئ فنقرأ:

يا أبا أيوبَ والإسلامُ قُرْبى وانْتسابُ
إنَّما جئناك تحدُونا بطولاتٌ عُجَابُ
ذكرياتٌ في فم الدُّنيا هي الشَّهد المذابُ
خالدٌ فيهم، وسعدٌ والْمُثنَّى والحُبَاب
ليس يثنيهم عن الزَّحفِ جبالٌ أو عُبابُ
إنه المسلمُ - حقًّا - سيفُ حقٌ أو شِهاب
في سبيل الله يحيا، لا نِفاقٌ لا كِذابُ
مصحفًا يمشي عليه من تقى الله ثِياب

ويقول مستحثا المسلمين للجهاد فتلك رسالة أبي أيوب فيقول:

وَيْحَ قلبي-يا أبا أيوبَ - قد جُنَّ الحسابُ:
ألفُ مليون بلا قَدْرٍ ولا حتى الذبابُ !!
يا لقَوْمِي عن جهادِ القومِ قد صامُوا وتابُوا
وأطاعوا من أضلُّوهم وأغْرُوهُم فخابُوا
وأعِدُّوا ما استطعتم قد تولاها الغيابُ
أم ترى الأنفالَ - واذلَّاه - لم يَحْوِ الكتابُ

ورغم حالة الإحباط ؛ فإنه لم ييأس، لأنه مومن بأن سنة الله هي الغالبة، فيقول:

أنا لم أقْنَط ولكن ضَلّ في قومي الصَّـــوابُ
ويقيني أنني بيني وبين النَّصْرِ قـــــــــابُ
إنها سُنَّةُ ربي ليس تَفْنَى يا ذئـــــــــابُ
قد يغيبُ الحقُّ يومًا ثم يأتيه الغِـــــــلابُ

قد يكون موقف الأمرانيّ في مسألة الخوض (في الخلافة العثمانيَّة) وإشكالياتها محسومًا لديه في الإطار الذي حددناه، ولكن الأمرانيّ يظل رائدا ومنظرا من رواد الأدب الإسلامي المعاصر، وحتى نتعرف على موقفه في هذه المسألة جاءت قراءاتنا في نتاجه الشّعري السابق واللاحق فتبين لنا أن الرجل يأخذُ بـــ(التَّصوف) و (تزكية النفوس) نهجًا إصلاحيًّا للمجتمع وتوجها فنيًّا للتَّجديد في الشِّعر الإسلامي المعاصر.

في ديوان (الزَّمان الجديد) الذي كُتِبتْ قصائده ما بين عامي 1974 و 1984، على ما يذكر الأمرانيّ (i)، نقعُ على كثيرٍ من الشّعر التحريضي، المفعم بالعزيمة:

[نحن لا بُدَّ أن نبحر الآن
لابد يا صاحبي
آن نقدم من دمنا
ثمنا للزمان الجديد](ii)

أما في ديوان (سيدة الأوراس)، الذي أصدره الشَّاعر عام 1995، فنقع على تناص مع (الاعتذارية) يؤكد أن الأمرانيّ شاعر يعتز بإيمانه وينتمي لأمته ويؤمن بمستقبلها، وأن اليأس عنده لا يعدو أن يكون حالة عابرة، إذ ترفض الأرض قبول الاعتذار؛ حيث يقول في قصيدة القطار:

[تقول لي الأرض لا عذر لك
قد اغتصبوني

(i) حسن الأمراني، الزمان الجديد. الرباط: دار الأمان، ط1، 1988، ص3.
(ii) المصدر السابق نفسه، ص8.

قد اغتسلوا بدمائي

وغاصوا إلى الركبتين](i)

و(سيدة الأوراس) ديوان يحتوي على قصيدتين هما: (القطار) و (إيلوار والمنديل)، وهو ديوان ينبض بالأمل، ويفيض بالعزم، ويستهين الشّاعر فيه بنار الحصار، ويتمرد على واقعه المهزوم، وتتفجر كلماته بقوة الإرادة والإصرار، وتبعث حروفه الهمة والثقة في نفس متلقيه، فاستمع إليه يقول:

[ولنا نحن بين الأنام

لنا هـــمُّـــنـــا

ولنا حُلمنا

وشموخُ نبوءتنا

قادما من عيون الصغار

رغـــم نـــــــار الــحــصـــار](ii)

إذن فموقف اليأس في (الاعتذارية) موقفٌ خاصٌ من إشكاليَّة (الخلافة عامَّة) و(الخلافة العثمانيَّة خاصّة) ، أما استئناف الحياة الإسلامية فمسألة يراها قادمة، يتحقّقُ فيها الحُلمُ والشُّموخ، وأنها آتيةُ على جسر (التَّصوف) و (النفس الزكية).

ويرى الأمرانيّ أنه لا صلاح لآخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وهو العودة إلى منابع الدين الأولى. وقد نظر الأمرانيّ إلى تاريخ هذه الأمة فرأى أنه حينما تجتاحها الكوارث والمحن فإنها تتخذ من التَّصوف سبيلا للنهوض؛ لأن التَّصوف يعزز قيم الإسلام الفطرية، وتجدر الإشارة هنا إلى البحث الذي قدمه عبد الكريم أبو حاموس، الذي أحصى فيه القيم الإسلاميّة، وعدّ منها: الأخوة في الله، والزهد والعمل والصدق والصبر، والإنتماء وتربية الأبناء ورعاية اليتيم وغيرها. [راجع سُلّم القيم كما أحصاها بحث عبد الكريم أبي حاموس المنشور ضمن «أعمال مؤتمر الأدب الإسلامي: (الواقع

(i) حسن الأمراني، سيدة الأوراس، مرجع سابق، ص13.

(ii) المرجع السابق نفسه، ص8-9.

والطموح))» المنعقد في جامعة الزرقاء الأهلية عام 1999، ص 292-293.]

الخاتمة و الخلاصة:

قوام الدراسة استدعاء رمزين من التراث الإسلامي هما: عاصمة الخلافة العثمانيَّة (الزائلة)، وسيف أبي أيوب الأنصاريّ (المُعَطّـــل). ويقوم الشَّاعر بتقديم الاعتذار إليهما في موقف شعوري يمتزج فيه الخاص بالعام للتعبير عن وجدان الأمة.

وفي دراستنا وقفنا على مبلغ ما وصل إليه حال الشَّاعر حسن الأَمرانِيّ من الإحباط واليأس والتأزم، ولم يجد أمامه من سبيل سوى الإقرار بالذنب، والإدانة للذات، والمهانة لهذا الجيل من الناس لأن ثيابهم عُوار، ووجوههم عُوار.. ولقد وقفنا على إيحاءات وماصدق هذه التعبيرات ورموزها.

لقد تركَنا الأَمرانِيّ على مفترق طرقٍ إذ قدَّم اعتذاره لاستنبول مُبرِّرًا بحيثيَّاتٍ موضوعيَّةٍ يمكن مقايستها ومعاينتها، و لكنه كسرسيف (جهاد) أبي أيوب الأنصاري، [هكذا/ لحالةٍ أطلق عليها: عُوار] ؛ و بهذه الكيفية فإنه لم يحقق ((التَّطهير([i])لدينا نحن جمهور الملتقين)).

و على العكس فإن جابر قميحة في ((حديث عصريٌّ لأبي أيوب الأنصاريّ)) قد استكمل التداعي الفكري عند استدعاء ذوات الرموز التراثية للمشهد،فقد قدَّم رؤية استشرافية حقَّقت التطهير لدينا.

فلماذا ترك الأَمرانِيّ الحكاية هكذا مفتوحة النهاية، قابلةً للتأويل على أكثر من سيناريو؟! و رغم أن الدِّراسة ليست معنيَّة بالموازنة أو بالحُكم على صحَّة الرُّؤية لدى

---

30)التطهير (في مصطلح النقد الأدبي)((ويراد به المأساة عند أرسطو: مرحلة تنقية نفوس النظارة بواسطة فزعهم مما يحدُث للبطل، وشفقتهم عليه))، ويأتي التطهير بعد مرحلة الإيهام وهي الوصول بالملتقي أن يظنَّ (يتوهم) بأن ما يشهده أو يقرأه حقيقة وليس خيال. [قنيبي، حامد صادق: ((مطالعات عربية، و مصطلحات في الأدب المقارن، و النقد الحديث))، عمان، مكتبة الرسالة الحديثة، 2007م، ص181].

أيٌّ منهما بقدر عنايتها بالكشف عن الصِّلة بين المضمون الفكري و الشكل الإبداعي (لشموخ الاعتذار).

أقول: صحيح أن الأَمْرانِيّ شخّص الحالة (أعني أسباب سقوط الخلافة العثمانيَّة) كما أوضحنا بلغة شاعرية، و صحيح أنه استعاد ذكريات و أمجاد "استانبول" عاصمة الخلافة، و صحيح أنّه صرَّح بالبكاء و الحزن، و لم ينكر دواعي اعتذاره؟ فهو (معترف) بأعلى صوته و (نادِم) أشد الندم على ما اقترفت يداه من الإثم إذ يقول بألفاظ واضحة الدلالة لا لبس فيها: [أنا الذي قاتلتُ ضدَّ نفسي/أنا الذي بِمُدْيَةِ الغدرِ حزرتُ رأسي/أنا الذي باسم العروبة الشّقية انسلختُ عن دمي]. و لكنه عندما يقدِّم اعتذاره لسيف أبي أيوب الأنصاريّ(بالذات)، و السّيف رمزٌ للجهاد، فإنما يفعل ذلك لأنّ: [هذا الناس في زماننا: ثيابهم عُوار/ وجوههم عُوار].

ولا يخفى أن ذكر (السيف) في السطر الأخير من (الاعتذارية) [أقدم اعتذاري إليكَ يا سيف أبي أيوب الأنصاريّ] إنما ورد في سياق لغة شاعرية قابلة للتأويل المتعدد(١)

وقبل أن أنهي هذه الفقرةَ، أرى من تمام القول أن أُعرِّف بما يكشف عن مفهوم الأدب الإسلامي في فكر حسن الأَمرانِيّ وأعماله، إذ يستذكر اللّقاء التّاريخي في استنبول في يونيو 1986 بين أبي الحسن علي الحسني الندوي ـــ رحمه الله ـــ رئيس (الرابطة)، ورئيس مجلس أمنائها، مع البروفيسور نجم الدين أربكان، وهو على حدِّ وصف الأمراني له: "زعيمٌ سياسيٌّ محنَّكٌ لامعٌ نجمُهُ، تولّى رئاسة وزراء تركيا في ظرف حرج، وكان نِعْمَ القائد، حقّق لبلده تقدمًا صناعيًّا وعسكريًّا هائلًا، وحمى الوُجُود الإسلامي في قبرص، ". ويقول: "دار الحديث بين الشّيخ والزّعيم مُؤثّرا شجيًّا، وقد تناول الأوضاع العامة للمسلمين، من السِّياسي إلى الاجتماعي إلى الاقتصادي إلى

---

(31)[وهذا يذكرنا بألبير كامو (المتوفى 1960) وهو كاتب روائي فرنسي مستوطن في الجزائر، ذو علاقة بالوجودية والعبث. كتب قصة («الغريب» عام 1942) ليثبت السخرية والعبث؛ فبطل القصة مستوطن فرنسي في الجزائر مدان لأنه أطلق النار على عربي جزائري كان يتنزه على شاطئ البحر، وصادف أن الفرنسي وقد استفزته ذبابة حاول طردها بيده أكثر من مرة، ولمح العربي فازداد توتره لا لسبب سوى الذبابة، فأطلق النار عليه، وقتله. [انظر: ليليان هيرلاندر وآخرين. «دليل القارئ إلى الأدب المقارن»، ترجمة محمد الجورا، بيروت: دار الحقائق، 1989، ص 252.]

الثقافي. ولما كان اجتماعنا - أصلا - من أجل الأدب الإسلامي الذي من شأنه أن يسهم في وحدة الأمة، باعتباره أهم عنصر لتحقيق الوحدة الشعورية والوجدانية؛ فقد نال هذا الموضوع حظًّا من الحديث..[الأمراني، حسن، المشكاة (مجلة الأدب الإسلامي)، وجدة: العدد 44/43 لسنة 2004، ص 26 و 27.]

إذن هناك أهداف بعيدة يسهم الأدب الإسلامي فيها، ألا وهي (وحدة الأمة الإسلاميّة)، أما الأهداف القريبة (الانتقالية أو المرحلية) ؛ فالمطلوب من الأدب الاسلامي المساهمة الفاعلة في تحقيق الوحدة الشُّعُورِيَّة والوجدانيَّة. أما وظيفة الأديب المسلم؛ فإنها «التعبير عن قِيَم الإسلام ومُثُله ومحاولة الرجوع بالأدب إلى مفهومه الأصلي الذي يتحدد في كونه يحثُّ على مكارم الأخلاق والسلوك القويم[ابن عزوز، «معجم مصطلحات الأدب الإسلامي»، مرجع سابق، ص 200. وراجع «مفهوم القيمة» ، ص42.]

ويرى الأمرانِيّ «أنّ الصَّحيح أن نقول: «الأدب الإسلامي أدب قيم» لا «الأدب الإسلامي أدب فكرة» .. وأن «الأدب علم لا موضوع له» فقد لا يحمل الأدب فكرةً ما، ولكنّه بالتأكيد يحمل قيمةً ما» [«سيمياء الأدب الإسلامي»، مرجع سابق، ص 109.]

و يظل الأدب عند الأَمْرَانِيّ ضمن هذه الدائرة في توظيف الكلمة و النصوص الأدبية بدلالات قِيَمَها الإسلامية الفكرية و الشعورية و الوجدانية سُلّماً لتحقيق التحول إلى تحقيق الوحدة الإسلاميّة، و يظل الأدب الإسلامي كما يقول الأَمْرَانِيّ "بمفهومه الجمالي عزيز المنال" [الأمراني،سيماء الأدب الإسلامي،مرجع سابق،ص18] لأن النموذج الأسمى له هو القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف. و على الأديب الإسلامي أن يسعى ما وسعه الجهد للمقاربة مع هذا المستوى الجمالي الرفيع [المرجع السابق نفسه،المكان نفسه]

أما قصائد(شموخ الاعتذار) فيكفي أن تُحاكَم على المعايير السابقة، و هي أحكام محصورة ضمن دائرة: الجمال الفني و المشاعر و الوجدان و القيم. و هي

تقع على طريق الأهداف المرحلية لتهيئة الأمة معنويا في مشاعرها و أفكارها قبل تحقيق أهدافها الكبرى، و هي (وحدة الأمة الإسلاميّة)، لذلك تظل الأسئلة التي تطرحها الدولة قائمة، و الشعراء أبرياء و إن لم يجيبوا عنها، لأنّ سقوط الخلافة العثمانيّة جاء متوافقاً مع السُّنن الإلهية، و التي أشرنا إليها في ضوء آيات الاعتصام بحبل الله، و التحذير من الفرقة و الاختلاف و التَّحالف مع الأعداء، و التحذير من أن تذهب (ريحكم) ... أقول هذه فترة من تاريخ الأمة قد خلت، و لكننا نعيد ما طرحته الدراسة من تساؤلات... و لما كان السؤال (أحيانا) أبلغ من الجواب؛ كان المسكوت عنه أبلغ في دلالته من التقرير.

و ختاما نشكر الهيئات المنظمة للمؤتمر في (الهند)، و الشكر مكررٌ و مؤكدٌ لجامعة الاسراء لرعايتها لهذا البحث، و دعمها إيّاه، و تهيئة الأجواء العلمية رفيعة المستوى لدعم البحوث الأكاديمية عامةً.

المحتويات

المحور الأول:- موقف الشيخ الندوى من عرض الدعوة الإسلامية ونقد الحضارات.

1	كلمة المنسق	د. محمد طارق الأيوبى الندوى	4
2	شيخ الدعاة	الأستاذ أبو رياش	11
3	الشيخ أبوالحسن الندوي حكيم الوسطية	أ.د. حسن الأمرانى	13
4	موقف الندوي من عرض الدعوة الإسلامية	د. سراج الدين الأسرع بن بلال	37
5	الحكمة وخصائصها فى الخطاب الدعوي للشيخ أبي الحسن الندوي	د. محمد مراح	49
6	بحث اختيارات الشيخ الندوي للآيات القرآنية المتعلقة بالأفكار المعاصرة	د. عصام بن عبد المحسن الحميدان	61
7	نظرة الإمام الندوي إلى الحضارة الغربية وتاريخها	د. برزان ميسر الحامد	77
8	فسلفة التاريخ والحضارة عند الإمام الندوي	أ.د. أحمد إسماعيل عبد الله الجبوري	101
9	موقف العلامة أبى الحسن الندوى من واقع المسلمين ومنهجه فى التجديد والإصلاح	د. مسعود بودوخة	122
10	نظرية الإصلاح فى فكر الشيخ أبي الحسن الندوي	أ.د. باسل خلف حمود	136
11	التوجيه العقدي فى فكر الشيخ الندوي وأثره فى تحصين الأجيال	د. بشار شعلان عمر النعيمي	156

12	معالم الخطاب الديني عند الإمام أبي الحسن الندوي	الأستاذعبدالسلام حمودغالب الأنسى	183
13	البعد الأخلاقى فى فكر الشيخ أبى الحسن الندوي	د.الجمعي الشبايكى	208
14	أبوالحسن علي الحسني الندوي ومنهجه فى التفكير والإصلاح	أ.د.عبدالوهاب فرحات	222
15	رحلة أبي الحسن الندوي إلى اليمن وتحليل أفكاره	الأستاذعبدالوهاب صالح التويتي	234
16	الإسلام فى القارة الأفريقية فى كتابات الشيخ أبي الحسن الندوي	د.بشارا كرم جميل الملاح	244
17	رحلات العلامة أبي الحسن الندوي بين العلم والتاريخ	أ.د.مصطفى أبوسليمان الندوي	255
18	موقف العلامة أبي الحسن الندوى فى عرض الدعوة الإسلامية من الوسطية والاعتدال	أ.د.تقي الدين الندوي	275
19	موقف العلامة الإمام أبي الحسن علي الحسني الندوي نحو الحضارة الغربية	د.سعيدالرحمن فيضي الندوي	280

المحور الثاني: -موقف الشيخ الندوي من السياسة المعاصرة و العالم الإسلامى

20	الصحوة الإسلامية فى فكر الإمام الندوي	الأستاذمحمود القاعود	286
21	أثر التجربة التاريخية الإسلامية فى الآراء السياسية للشيخ أبي الحسن الندوي	أ.م.د.محمد خالدعبدالبرهاوي	295
22	موقف الشيخ الندوي من قيادة العالم الإسلامي	د.عبدالله طه عبدالله ناصر السلمانى	305
23	قيادة العرب للعالم الإسلامي فى طروحات أبوالحسن علي الحسني الندوي	أ.د.عونى عبدالرحمن السبعاوى	324
24	العلامة أبوالحسن الندوي ورؤيته للهوية الإسلامية	الأستاذعلاء عبدالرزاق	342

25	فكر العلامة أبو الحسن الندوي من خلال كتابه ماذا خسر العالم بإنحطاط المسلمين	د.ياسر عبدالجوادالمشهداني	363
26	رؤية الشيخ الندوي لأسباب تدهور أوضاع العالم الإسلامي	أ.د.محمدعمر أحمدالشاهين	380
27	قراءة الإمام الندوي للحياة الدينية في الهند	د.سفيان ياسين إبراهيم	399

المحور الثالث:-موقف الشيخ الندوي من الأدب والتعليم والتزكية.

28	حقيقة التصوف الإسلامي عند أبي الحسن الندوي من تحرير النفس إلى بناء المجتمع	د.صالح نعمان	420
29	منهج الشيخ أبي الحسن الندوي في السيرة الذاتية	أ.د.حلمي محمد القاعود	447
30	قواعد التزكية من خلال فكر الأستاذ الندوي (قراءة في ربانية لا رهبانية)	د.رمضان حمدون علي رمو	463
31	أهمية المكان في إثراء التوهج الروحي في ترجمة الشيخ الندوي "لروائع إقبال"	د.سعد أبو الرضا	482
32	أساليب اللغة العربية وطرائق تعليمها عند الشيخ الندوي	د.بن عيسى بطاهر	494
33	نظرية الأدب الإسلامى فى فكر أبى الحسن الندوي	د.محمد سالم سعدالله	510
34	الأدب الإسلامي بين الندوي وباكثير	د.عبدالحكيم الزبيدي	532
35	منهج أبي الحسن الندوي في أدب الطفل	أ.د.عبدالملك بومنجل	551
36	منهج الشيخ الندوي في كتابه "أدب السيرة النبوية للأطفال"	د.صادق محمد ادم سليمان	572
37	منهج أبى الحسن الندوي فى أدب الأطفال	الأستاذ محمد عبدالكريم ياسين العراقي	613

38	وقفات مع ركائز أدب الأطفال لدى أبى الحسن الندوي فى كتابه قصص من التاريخ الإسلامي للأطفال	د.عبدالغني أكوريدي عبدالحميد	646
39	نماذج من ثمار الندوي فى عالمية الأدب والفكر، نظرات فى شعر جابر قميحة وحسن الأمراني	أ.د.حامدصادق قنيبي	662
40	المحتويات		709

01.12.2016

Proceedings

Of

The International Conference on

"Contemporary Thoughts & the Vision of Shaikh Abul Hasan Ali Hasani Nadwi"

22-24 Feb 2014

Madarasatul Uloom Al Islamia Aligarh India

Edited By

Dr. M. Tariq Ayubi Nadwi

Published By

Allama Abul Hasan Ali Nadwi Educational & Welfare Foundation
Aligarh, India 220 002

Printed And Bound in India at:

نعمانی پرنٹنگ پریس
Nomani Printing Press
Lucknow - 226018
Tel:- 0522 - 4003711 - 91-9794593055